تيسير التفسير
(١)

تيسير
تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي
مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٦

أ. د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار
للنشر والتوزيع

تيسير التفسير

(١)

تيسير تفسير الميزان

تيسير تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي مع الاحتفاظ بكل محتوياته

٦

أ. د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى: ١٤٤٨ هـ - ٢٠٢٦ م

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات ٧
سورة الأنعام ٧
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٧
مقاطع السورة ونظمها: ٨
١. توحيد الربوبية والألوهية وعلم الله المحيط: ١٣
٢. إعراض المكذبين عن آيات الله واستحقاقهم الوعيد: ٢١
٣. سنة الله في تمكين الأمم ثم إهلاكهم بذنوبهم: ٢٢
٤. تعنت الكفار ووصفهم الحق المبين بالسحر: ٢٣
٥. المعرضون عن آيات الله وإنزال الملك: ٢٣
٦. عاقبة المستهزئين بالرسل والأمر بالسير في الأرض للاعتبار: ٢٩
٧. الربوبية والرحمة والمعاد والجزاء: ٢٩
٨. إفراد الله بالولاية والعبادة والإسلام: ٣٤
٩. الخوف من عذاب الله العظيم والرجاء في رحمته: ٣٦
١٠. شهادة الله ووحي القرآن والبراءة من الشرك: ٤٠
١١. معرفة أهل الكتاب للحق وخسارة من كذّب به: ٤٤
١٢. أشد الناس ظلماً وموقفهم المهين يوم القيامة: ٤٥
١٣. موانع القلب والأذن عن قبول الحق والجدال العقيم: ٤٩
١٤. نهي الناس عن الحق ونأيهم عنه وإهلاكهم أنفسهم: ٥٠
١٥. حسرة الكفار وتمنيهم الرجوع عند معاينة النار: ٥٢
١٦. خسارة المكذبين بلقاء الله وعذابهم وحقيقة الحياة الدنيا: ٥٧
١٧. العناد والتكذيب ونصر الله لرسله: ٥٨
١٨. استحالة الإيمان مع الإعراض ومشيئة الله في الهداية: ٦١
١٩. الدواب والطير أمم أمثالنا، وتفصيل كل شيء في الكتاب: ٦٦
٢٠. المكذبون والظلمات والمشيئة الإلهية: ٧٠
٢١. إخلاص الدعاء لله عند الشدائد ونسيان الشركاء: ٧٣
٢٢. الأمم السابقة وقسوة القلب: ٧٦

٢٣. استدراج الله للعصاة بالفرح بما أوتوا ثم أخذهم بغتة: ٧٩
٢٤. قطع دابر الظالمين والحمد لله: ٨٠
٢٥. قدرة الله المطلقة على سلب السمع والأبصار والقلوب: ٨١
٢٦. مجيء عذاب الله بغتة أو جهرة ولا يهلك إلا الظالمون: ٨٢
٢٧. وظيفة الرسل التبشير والإنذار وأمن المؤمنين وعذاب المكذبين: ٨٣
٢٨. نفي علم الغيب عن الرسول وبيان الفرق بين الأعمى والبصير: ٨٤
٢٩. الإنذار لمن يخشون ربهم ويرجون لقاءه: ٨٦
٣٠. النهي عن طرد المستضعفين المؤمنين والصبر معهم: ٨٩
٣١. ابتلاء الناس بعضهم ببعض وفضل الله على من يشاء: ٩٣
٣٢. السلام على المؤمنين ورحمة الله الواسعة لمن تاب وأصلح: ٩٤
٣٣. تفصيل الآيات لبيان سبيل المجرمين: ٩٦
٣٤. النهي عن عبادة ما دون الله واتباع الأهواء المضلة: ٩٦
٣٥. بينات النبوة ومطالب المعاندين واستعجالهم: ٩٧
٣٦. مفاتح الغيب والكتاب المبين: ١٠٠
٣٧. الله والرقابة الدائمة على أعمال الإنسان: ١٠٣
٣٨. القهر الإلهي وإرسال الحفظة والموت: ١٠٥
٣٩. الله وكشف كرب عباده وتضرعهم: ١٠٧
٤٠. الله والقدرة على أصناف العذاب: ١٠٩
٤١. تكذيب المعاندين والنبأ والمستقر: ١١٥
٤٢. الأمر بالإعراض عن الخائضين في الآيات والتذكير للمتقين: ١١٧
٤٣. تذكير المغترين بالدنيا وبيان عاقبة الإعراض عن الدين: ١٢١
٤٤. هدى الله وحده هو الهدى ومثل من يستهويه الشياطين: ١٢٢
٤٥. إقامة الصلاة والتقوى والإيمان بالبعث وملكوت الله: ١٢٥
٤٦. إبراهيم يحاور أباه في ضلال عبادة الأصنام: ١٢٨
٤٧. إراءة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض لتثبيت اليقين: ١٣٠
٤٨. براءة إبراهيم من عبادة الكواكب وتوجيه وجهه للحنيفية: ١٣٤
٤٩. محاجة إبراهيم لقومه والأمن والخوف: ١٥٧
٥٠. الأمن والهداية ولم يخلطوا إيمانهم بظلم: ١٦٣

٥١. حجة الله لإبراهيم ورفع الدرجات لمن يشاء بحكمته: ١٧٢
٥٢. هبة الله للأنبياء وفضلهم وإحسانهم وهدايتهم: ١٧٤
٥٣. اجتباء الله للأنبياء وهدايتهم إلى الصراط المستقيم: ١٨٢
٥٤. تحذير الأنبياء من الشرك وحبوط الأعمال: ١٨٥
٥٥. اصطفاء الله للأنبياء بالكتاب والحكم والنبوة: ١٨٦
٥٦. الأمر بالاقتداء بالأنبياء: ١٩٤
٥٧. الرد على منكري النبوة والكتاب: ١٩٥
٥٨. القرآن مبارك مصدّق لما قبله وصفات من يؤمنون به: ٢٠٦
٥٩. أشد الناس ظلماً وسوء عاقبتهم عند غمرات الموت: ٢٠٩
٦٠. مجيء الظالمين فرادى يوم القيامة وانقطاع ما بينهم: ٢١٤
٦١. قدرة الله على إخراج الحي من الميت والميت من الحي: ٢١٦
٦٢. فلق الله للإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا: ٢١٧
٦٣. جعل النجوم للاهتداء بها في الظلمات وتفصيل الآيات لقوم يعلمون: ٢١٨
٦٤. إنشاء البشر من نفس واحدة والمستقر والمستودع: ٢١٨
٦٥. إنزال الماء وإنبات الزرع واختلاف الثمار آيات للمؤمنين: ٢٢٠
٦٦. شرك المشركين بالجن وادعاء البنات لله تعالى: ٢٢١
٦٧. الله الواحد البديع الخالق: ٢٢٢
٦٨. إثبات الربوبية لله وحده وتنزيهه عن الإدراك الحسي: ٢٢٣
٦٩. البصائر من الله والفوز لمن أبصر: ٢٢٧
٧٠. تصريف الآيات وبيانها لقوم يعلمون: ٢٢٧
٧١. اتباع الوحي والإعراض عن المشركين وترك حسابهم لله: ٢٢٨
٧٢. النهي عن سب آلهة المشركين لئلا يسبوا الله: ٢٣١
٧٣. المعاندون والإيمان والآيات: ٢٣٤
٧٤. الله وتقليب الأفئدة والطغيان: ٢٣٦
٧٥. المعاندون والإعراض عن عجائب الآيات: ٢٣٦
٧٦. الأنبياء والشياطين والوحي: ٢٣٧
٧٧. الحاكمية الإلهية والكتاب المفصّل: ٢٣٩
٧٨. كلمات الله والصدق والعدل والثبات: ٢٤٠

٧٩. الأكثرية والضلال واتباع الظن:	٢٤٣
٨٠. الأكل مما ذكر اسم الله عليه والتفصيل في المحرمات:	٢٤٥
٨١. النهي عن ظاهر الإثم وباطنه:	٢٤٦
٨٢. النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ووسوسة الشياطين:	٢٤٧
٨٣. المؤمن حي بنور الله والكافر في الظلمات:	٢٤٨
٨٤. القرى وأكابر المجرمين والمكر:	٢٥٢
٨٥. اعتراض المشركين على اصطفاء الله للرسل:	٢٥٣
٨٦. شرح الصدر للإسلام وضيق صدور الضالين:	٢٥٤
٨٧. صراط الله والاستقامة:	٢٦١
٨٨. للمتقين دار السلام عند ربهم وهو وليهم:	٢٦١
٨٩. حوار الجن والإنس يوم القيامة واستمتاع بعضهم ببعض:	٢٦٢
٩٠. تولي الظالمين بعضهم بعضاً بما كانوا يكسبون:	٢٦٣
٩١. تذكير الله للجن والإنس بالرسل وإقرارهم على أنفسهم بالكفر:	٢٦٤
٩٢. الله لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون:	٢٦٦
٩٣. غنى الله ورحمته وسنة الاستخلاف في الأرض:	٢٦٧
٩٤. الوعد الإلهي والتحقق:	٢٦٧
٩٥. الأمر بالعمل على المكانة وعاقبة الدار:	٢٦٨
٩٦. شرك المشركين في الحرث والأنعام وقسمتهم الباطلة:	٢٦٨
٩٧. تزيين الشركاء للمشركين قتل الأولاد وإرداؤهم:	٢٦٩
٩٨. الشرك والتعامل مع الأنعام:	٢٧٠
٩٩. الشرك والأنعام والخرافة والدجل:	٢٧١
١٠٠. خسارة المشركين بقتل أولادهم وتحريم الرزق:	٢٧١
١٠١. الجنات وإيتاء حقها يوم الحصاد وعدم الإسراف:	٢٧٢
١٠٢. خلق الأنعام حمولة وفرشاً والتحذير من اتباع خطوات الشيطان:	٢٧٥
١٠٣. جدال المشركين في تحريم الأنعام وافتراؤهم على الله:	٢٧٦
١٠٤. بيان المحرمات في الوحي ورخصة الاضطرار:	٢٧٧
١٠٥. تحريمات خاصة باليهود بسبب بغيهم:	٢٧٨
١٠٦. حجة المشركين الواهية (لو شاء الله ما أشركنا) وردها:	٢٧٩

١٠٧. الحجة البالغة والهداية: ٢٨٠
١٠٨. طلب الشهود على التحريم والنهي عن اتباع الأهواء: ٢٨١
١٠٩. المحرمات الكبرى والوصايا والعقل: ٢٨١
١١٠. الوصايا في مال اليتيم والعدل والوفاء بالعهد: ٢٨٥
١١١. الأمر باتباع الصراط المستقيم والنهي عن التفرق: ٢٨٦
١١٢. إيتاء موسى الكتاب تماماً وتفصيلاً وهدى ورحمة: ٢٩١
١١٣. القرآن مبارك وهدى ورحمة: ٢٩٣
١١٤. الملائكة وآيات الله وانتهاء الاختبار: ٢٩٤
١١٥. براءة الرسول من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً: ٢٩٨
١١٦. مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها: ٣٠٠
١١٧. الصراط المستقيم والدين القيم وملة إبراهيم: ٣٠١
١١٨. إخلاص الصلاة والنسك والمحيا والممات لله رب العالمين: ٣٠١
١١٩. التوحيد وقوانين التكليف والجزاء: ٣٠٣
١٢٠. جعل البشر خلائف في الأرض والابتلاء بالدرجات: ٣٠٤
سورة الأعراف ٣٠٦
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٣٠٦
مقاطع السورة ونظمها: ٣٠٧
١. لا حرج في تبليغ دعوة الحق: ٣١١
٢. هلاك الظالمين سنة إلهية ثابتة: ٣١٣
٣. الفلاح بثقل الميزان والخسران بخفته: ٣١٣
٤. التمكين في الأرض والاختبار والشكر: ٣١٥
٥. الكبر منع إبليس من السجود لآدم: ٣١٦
٦. طرد إبليس بسبب تكبره وإنظاره ليوم الدين: ٣١٧
٧. إبليس يتوعد بإغواء بني آدم جميعاً: ٣١٩
٨. تحذير آدم من الشجرة ووسوسة الشيطان: ٣٢٥
٩. التوبة النصوح تمحو الخطيئة وتنجي من الخسران: ٣٢٧
١٠. الأرض دار استقرار مؤقت وليست أبدية: ٣٢٨
١١. التقوى خير لباس: ٣٢٨

١٢. تحذير بني آدم من فتنة الشيطان:	٣٣١
١٣. لا حجة في تقليد الآباء على الفاحشة:	٣٣٢
١٤. الله يأمر بالقسط والإخلاص والهداية:	٣٣٥
١٥. الزينة مباحة عند المسجد مع عدم الإسراف:	٣٤٣
١٦. نعم الله مباحة للمؤمنين في الدنيا والآخرة:	٣٤٥
١٧. تحريم الفواحش والشرك والقول بلا علم:	٣٥٢
١٨. أجل كل أمّة محدد لا يتقدم ولا يتأخر:	٣٥٣
١٩. التقوى والإصلاح ينجيان من الخوف والحزن:	٣٥٤
٢٠. عاقبة الافتراء على الله والتكذيب بآياته:	٣٥٥
٢١. أهل النار يتلاعنون ويتضاعف عليهم العذاب:	٣٥٦
٢٢. المكذبون المستكبرون لا يدخلون الجنة:	٣٥٨
٢٣. المؤمنون في الجنة بلا غل ولا حزن:	٣٦١
٢٤. حوار أهل الجنة والنار ولعنة الظالمين:	٣٦٥
٢٥. أصحاب الأعراف ينادون أهل الجنة والنار:	٣٧٠
٢٦. أصحاب الأعراف يخاطبون أهل النار وأهل الجنة:	٣٨٥
٢٧. أهل النار يستغيثون بأهل الجنة:	٣٨٦
٢٨. القرآن هدى ورحمة لمن آمن به:	٣٨٨
٢٩. الله خالق السماوات والأرض والعرش:	٣٨٩
٣٠. الدعاء والتضرع والنهي عن الإفساد:	٣٩٢
٣١. الرياح والمطر وإحياء الأرض من آيات الله:	٣٩٣
٣٢. البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه:	٣٩٤
٣٣. نوح يدعو قومه فيكذبونه ويهلكون بالطوفان	٣٩٥
٣٤. هود يدعو عاداً فيستكبرون ويهلكون بالريح:	٣٩٧
٣٥. صالح يدعو ثمود فيعقرون الناقة ويهلكون:	٤٠١
٣٦. لوط ينكر على قومه الفاحشة فيدمرون:	٤٠٣
٣٧. شعيب يدعو مدين للعدل في الكيل والميزان:	٤٠٥
٣٨. الله يبتلي الناس بالضراء والسراء ليتذكروا:	٤١٣
٣٩. الإيمان والتقوى سبب البركات من السماء والأرض:	٤١٥

٤٠. القرى والغفلة ومكر الله:	٤١٦
٤١. الله يضل الظالمين ويطبع على قلوبهم:	٤١٧
٤٢. القرى والرسل والطبع والفسق:	٤١٨
٤٣. موسى وفرعون والآيات والسحر:	٤٢٣
٤٤. موسى والسحرة:	٤٢٨
٤٥. فرعون يهدد بقتل أبناء المؤمنين:	٤٣٣
٤٦. موسى يأمر قومه بالصبر والاستعانة بالله:	٤٣٥
٤٧. الله يبتلي آل فرعون بالسنين ونقص الثمرات:	٤٣٧
٤٨. إرسال الطوفان والجراد والقمل وغيرها على آل فرعون:	٤٣٨
٤٩. الله يورث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها:	٤٤٠
٥٠. بنو إسرائيل يطلبون صنما ليعبدوه بعد النجاة:	٤٤١
٥١. موسى يذهب للميقات ويستخلف هارون:	٤٤٢
٥٢. موسى والرؤية والجبل والتوبة:	٤٤٤
٥٣. اصطفاء موسى والتوراة:	٤٥٣
٥٤. الله يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض:	٤٥٦
٥٥. بنو إسرائيل يعبدون العجل بعد ذهاب موسى:	٤٥٨
٥٦. عودة موسى غضبان إلى قومه واستغفاره:	٤٦٠
٥٧. العجل والذلة والتوبة:	٤٦٣
٥٨. ألواح التوراة والرجفة والرحمة:	٤٦٣
٥٩. صفات النبي الأمي والفلاح باتباعه:	٤٧٥
٦٠. الرسالة عامة للناس كلهم ودعوتهم للإيمان:	٤٨٠
٦١. من قوم موسى أمة يهدون بالحق ويعدلون:	٤٨٢
٦٢. تقطيع بني إسرائيل:	٤٨٤
٦٣. الاستسقاء والمن والسلوى:	٤٨٥
٦٤. أمر بني إسرائيل بدخول القرية وقول حطة	٤٨٦
٦٥. قصة أصحاب السبت ومسخهم قردة:	٤٨٦
٦٦. عقوبة اليهود والتفريق:	٤٩١
٦٧. الخلف والكتاب والميثاق:	٤٩٢

٦٨. رفع الجبل فوق بني إسرائيل وأخذ الميثاق: ٤٩٦
٦٩. أخذ الميثاق على بني آدم وإشهادهم على أنفسهم: ٤٩٧
٧٠. مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها: ٤٩٨
٧١. كثير من الجن والإنس خلقوا لجهنم: ٥٠٣
٧٢. الأسماء الحسنى والدعاء بها: ٥٠٦
٧٣. الأمة الهادية والحق والعدل: ٥٠٩
٧٤. الكافرون والاستدراج والكيد: ٥١٠
٧٥. النبي نذير مبين وليس به جِنة: ٥١٢
٧٦. النظر في ملكوت السماوات والأرض والتفكر: ٥١٣
٧٧. علم الساعة عند الله لا يعلمه إلا هو: ٥١٥
٧٨. النبي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً: ٥١٧
٧٩. خلق آدم وحواء وشرك بعض الناس بالله: ٥١٨
٨٠. الأصنام لا تخلق شيئاً ولا تنفع ولا تضر: ٥٢١
٨١. الأصنام والعباد والعجز: ٥٢٢
٨٢. الله ولي المؤمنين: ٥٢٣
٨٣. العفو والمعروف والجاهلون ٥٢٤
٨٤. الاستعاذة بالله من الشيطان عند الوسوسة: ٥٢٥
٨٥. النبي يتبع الوحي والقرآن بصائر للناس: ٥٢٧
٨٦. الاستماع للقرآن والإنصات عند تلاوته: ٥٢٧
٨٧. ذكر الله في كل الأحوال: ٥٢٩
٨٨. الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله: ٥٣٠
سورة الأنفال ٥٣٢
مقاصد السورة ومحتوياتها: ٥٣٢
مقاطع السورة ونظمها: ٥٣٣
١. الأنفال لله والرسول: ٥٣٤
٢. المؤمنون الحقيقيون تخشع قلوبهم عند ذكر الله: ٥٤٢
٣. الخروج للجهاد مع كراهة بعض المؤمنين: ٥٤٤
٤. الله يريد إحقاق الحق وإبطال الباطل: ٥٤٥

٥. استجابة الله للمؤمنين بإمدادهم بالملائكة: ٥٥٦
٦. نعمة النعاس والمطر لتثبيت المؤمنين: ٥٥٨
٧. الله يوحي للملائكة بتثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب: ٥٥٩
٨. شقاق الله ورسوله سبب العذاب الشديد: ٥٥٩
٩. النهي عن الفرار يوم الزحف والتحذير من غضب الله: ٥٦٠
١٠. النصر من الله وليس من قتال المؤمنين: ٥٦٤
١١. الفتح للمؤمنين والله معهم: ٥٦٧
١٢. الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من التولي: ٥٦٨
١٣. شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون: ٥٦٩
١٤. الاستجابة لله والرسول والحياة: ٥٧٠
١٥. الفتنة لا تصيب الظالمين خاصة: ٥٧٢
١٦. تذكير المؤمنين بحال استضعافهم: ٥٧٦
١٧. النهي عن خيانة الله والرسول والأمانات: ٥٧٧
١٨. التقوى سبب للفرقان وتكفير السيئات: ٥٨٠
١٩. مكر الكفار بالنبي ومكر الله بهم: ٥٨٠
٢٠. ادعاء الكافرين أن القرآن أساطير الأولين: ٥٨٧
٢١. الكفار يطلبون العذاب استهزاءً: ٥٨٧
٢٢. الله لا يعذب قوما والنبي بينهم وهم يستغفرون: ٥٨٨
٢٣. الكفار يصدون عن المسجد الحرام وليسوا أهله: ٥٩٤
٢٤. صلاة الكفار عند البيت مكاء وتصدية: ٥٩٥
٢٥. الكفار ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله: ٥٩٧
٢٦. الله يميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث في جهنم: ٥٩٨
٢٧. دعوة الكفار للتوبة: ٥٩٩
٢٨. القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله: ٦٠٠
٢٩. الغنيمة والخمس والمستحقون: ٦٠١
٣٠. يوم الفرقان يوم التقى الجمعان: ٦٠٦
٣١. التقاء الجمعين في بدر وقضاء الله الأمر: ٦٠٨
٣٢. تقليل الأعداء في عيون المؤمنين: ٦١٠

٣٣. الثبات والذكر والطاعة والصبر عند لقاء العدو: ٦١١
٣٤. النهي عن الخروج رياءً والتحذير من تزيين الشيطان: ٦١٣
٣٥. غرور المنافقين وأصحاب القلوب المريضة: ٦١٧
٣٦. الملائكة تضرب الكافرين عند الوفاة: ٦١٩
٣٧. سنة آل فرعون في الكفر والعقاب: ٦٢٠
٣٨. تغيير النعمة وتغيير النفوس: ٦٢٠
٣٩. تكذيب آل فرعون وإغراقهم في اليم: ٦٢١
٤٠. شر الدواب الكافرون الذين ينقضون العهد: ٦٢٢
٤١. نبذ عهد الخائنين على سواء: ٦٢٨
٤٢. الكافرون لا يسبقون الله ولا يعجزونه: ٦٢٩
٤٣. إعداد القوة والخيل لترهيب أعداء الله: ٦٢٩
٤٤. الجنوح للسلم مع التوكل على الله: ٦٣٣
٤٥. الله يكفي المؤمنين كيد الخادعين: ٦٣٤
٤٦. الله يؤلف بين قلوب المؤمنين: ٦٣٦
٤٧. الله حسب النبي ومن اتبعه من المؤمنين: ٦٣٩
٤٨. تحريض المؤمنين على القتال ووعدهم بالنصر: ٦٣٩
٤٩. التخفيف عن المؤمنين لعلم الله بالضعف فيهم: ٦٤٠
٥٠. حكم الأسرى وعدم أخذ الفداء قبل الإثخان: ٦٤٤
٥١. وعد الأسرى الخير والمغفرة إن علم الله في قلوبهم خيراً: ٦٤٧
٥٢. المؤمنون المهاجرون والمؤمنون الناصرون والولاية: ٦٤٨
٥٣. ولاية المؤمنين بعضهم لبعض والهجرة: ٦٤٨
٥٤. الكافرون بعضهم أولياء بعض والفتنة: ٦٤٩
٥٥. المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم: ٦٤٩
٥٦. المهاجرون والمجاهدون من بعد وأولو الأرحام: ٦٤٩

سورة الأنعام

هذه السورة الكريمة تحتوي على [١٢٠] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. غرض السورة هو توحيده تعالى بمعناه الأعم أعني أن للإنسان رباً هو رب العالمين جميعاً منه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي ويعود كل شيء، أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين يهدي بهم عباده المربوبين إلى دينه الحق، ولذلك نزلت معظم آياتها في صورة الحجاج على المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة، واشتملت على إجمال الوظائف الشرعية والمحرمات الدينية.

ب. وسياقها ـ على ما يعطيه التدبر ـ سياق واحد متصل لا دليل فيه على فصل يؤدي إلى نزولها نجوماً.

ج. وهذا يدل على نزولها جملة واحدة، وأنها مكية فإن ذلك ظاهر سياقها الذي وجه الكلام في جلها أو كلها إلى المشركين.

د. وقد اتفق المفسرون والرواة على كونها مكية إلا في ست آيات روي عن بعضهم أنها مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [آية: ٩١] إلى تمام ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [آية: ١٥١] إلى تمام ثلاث آيات.

هـ. وقيل: إنها كلها مكية إلا آيتان منها نزلتا بالمدينة، وهما قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ والتي بعدها.

و. وقيل: نزلت سورة الأنعام كلها بمكة إلا آيتين نزلتا بالمدينة في رجل من اليهود، وهو الذي قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

ز. وقيل: إنها كلها مكية إلا آية واحدة نزلت بالمدينة، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية.

ح. وهذه الأقوال لا دليل على شيء منها من جهة سياق اللفظ على ما تقدم من وحدة السياق واتصال آيات السورة، وسنبينها بما نستطيعه، وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليه السلام وكذا عن أبي

وعكرمة وقتادة: أنها نزلت جملة واحدة بمكة.

ط. أحاديث وآثار:

• في الكافي بإسناده عن الحسن بن علي بن أبي حمزة قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن سورة الأنعام نزلت جملة، شيعها سبعون ألف ملك حتى أنزلت على محمد ﷺ، فعظموها وبجلوهفإن اسم الله عز وجل فيها في سبعين موضعاًولو يعلم الناس ما في قراءتها، ما تركوها.

• أقول: ورواه العياشي عنه عليه السلام مرسلاً.

• وفي تفسير القمي قال: حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام قال: نزلت الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتكبيفمن قرأها استغفروا له إلى يوم القيامة.

• أقول: ورواه في المجمع أيضاً عن الحسين بن خالد عنه عليه السلام، إلا أنه قال: سبحوا له إلى يوم القيامة.

• وفي تفسير العياشي عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة، وشيعها سبعون ألف ملك حين أنزلت على رسول الله ﷺ، فعظموها وبجلوهفإن اسم الله عز وجل فيها سبعين موضعاًولو يعلم الناس ما في قراءتها من الفضل، ما تركوهاالحديث.

• وفي جوامع الجامع للطبرسي قال: في حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: أنزلت علي الأنعام جملة واحدة، يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميفمن قرأها صلى عليه أولئك السبعون ألف ملك، بعدد كل آية من الأنعام يوماً وليلة.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عنه بعدة طرق.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٣] أشار في هذا الثناء الموضوع في الآيات الثلاث إلى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينية في المعارف الحقيقية التي هي بمنزلة المادة للشريعة، وتنحل إلى نظامات ثلاث: نظام الكون العام وهو الذي تشير إليه الآية الأولى، ونظام الإنسان بحسب وجوده، وهو الذي تشتمل عليه الآية الثانية، ونظام العمل الإنساني وهو الذي تومئ إليه الآية الثالثة، فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء

عليه تعالى بها خلق العالم الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، وبها خلق عالماً صغيراً هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين ومن حيث انتهائه بالأجل المقضي، وبها علم سر الإنسان وجهره وما يكسبه، وما في الآية الثالثة: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، بمنزلة الإيضاح لمضمون الآيتين، السابقتين والتمهيد لبيان علمه بسر الإنسان وجهره وما تكسبه نفسه.

٢. الآيات [٤ ـ ١١] الآيات إشارة إلى تكذيبهم الحق الذي أرسل به الرسول وتماديهم في تكذيب الحق والاستهزاء بآيات الله سبحانه ثم موعظة لهم وتخويف وإنذار، وجواب عن بعض ما لغوا به في إنكار الحق الصريح.

٣. الآيات [١٢ ـ ١٨] فريق من الآيات تحتج على المشركين في أمر التوحيد والمعاد فالآيتان الأوليان تتضمنان البرهان على المعاد، وبقية الآيات وهي خمس مسوقة للتوحيد تقيم البرهان على ذلك من وجهين على ما سيأتي.

٤. الآيات [١٩ ـ ٢٠] احتجاج على الوحدانية من طريق الوحي فإن وحدة الإله وانتفاء الشريك عنه وإن كانت مما يناله العقل بوجوه من النيل فلا مانع من إثباته من طريق الوحي الصريح الذي لا مرية فيه، فالمطلوب هو اليقين بأنه تعالى إله واحد لا شريك له، وإذا فرض حصوله من طريق الوحي الذي لا يداخله ريب في كونه وحياً إلهياً كالقرآن المتكئ على التحدي فلا مانع من الاستناد إليه.

٥. الآيات [٢١ ـ ٣٢] تعود الآيات إلى أصل السياق وهو الحضور فتلتفت إلى النبي ﷺ بالخطاب فتذكر له مظالم المشركين في أصول العقائد الطاهرة وهي التوحيد والاعتقاد بالنبوة والمعاد، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ثم تبين أن ذلك منهم أشد الظلم وإهلاكاً لأنفسهم وخسراناً لها، وتبين كيف تنعكس إليهم وتوافيهم هذه المظالم يوم القيامة فيكذبون على أنفسهم بإنكار ما قالوا في الدنيا ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليعملوا الصالحات، ويبدون التحسر على ما فرطوا في جنب الله سبحانه.

٦. الآيات [٣٣ ـ ٣٦] تسلية للنبي ﷺ عن هفوات المشركين في أمر دعوته، وتطييب لنفسه بوعد النصر الحتمي، وبيان أن الدعوة الدينية إنما ظرفها الاختيار الإنساني فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر فالقدرة والمشية الإلهية الحاتمتان لا تداخلان ذلك حتى تجبرهم على القبول، ولو شاء الله لجمعهم على

الهدى.

٧. الآيات [٣٧ ـ ٥٥] احتجاجات متنوعة على المشركين في أمر التوحيد وآية النبوة.

٨. الآيات [٥٦ ـ ٧٣] الآيات من تتمة الاحتجاجات على المشركين في التوحيد وما يرتبط به من المعارف في النبوة والمعاد، وهي ذات سياق متصل متسق.

٩. الآيات [٧٤ ـ ٨٣] عشر آيات ذكر الله سبحانه فيها ما آتاه النبي العظيم إبراهيم عليه السلام من الحجة على المشركين بما هداه إلى توحيده وتنزيهه ثم ذكر هدايته أنبياءه بتطهير سرهم من الشرك، وقد سمى بينهم نوحاً عليه السلام وهو قبل إبراهيم عليه السلام وستة عشر نبياً من ذرية نوح عليه السلام.

١٠. الآيات [٨٤ ـ ٩٠]:

أ. اتصال الآيات بما قبلها واضح لا يحتاج إلى بيان فهي من تتمة حديث إبراهيم عليه السلام، والآيات وإن اشتملت على بعض الامتنان عليه وعلى من عد معه من الأنبياء كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وقوله: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إلى غير ذلك لكنها ليست مسوقة لذلك فحسب كما يظهر من بعض المفسرين بل لبيان النعم الجسيمة والأيادي الجميلة الإلهية التي يتعقبها التوحيد الفطري والاهتداء بالهداية الإلهية، فإن ذلك هو الموافق لغرض هذه السورة التي تبين فيها مسألة التوحيد على ما تهدي إليه الفطرة التي فطر الناس عليها، وقد تقدم أن قصة إبراهيم عليه السلام بالنسبة إلى الآيات السابقة من السورة بمنزلة المثال المضروب لبيان عام.

ب. وفي سياق الآيات مضافاً إلى بيان التوحيد بيان أن عقيدة التوحيد محفوظة بين الناس في سلسلة متصلة ركبت حلقاتها بعضها على بعض بهداية إلهية وعناية خاصة ربانية حفظ الله بها الفطرة الإلهية من أن تضيع بالأهواء الشيطانية، وتسقط رأساً من الفعلية فيبطل بذلك غرض الخلقة ويذهب سدى كما يشعر بذلك قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾، وقوله: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾، وفي طي الآيات بيان ما تمتاز به الهداية الإلهية من غيرها من الخصائص وهي الاجتباء واستقامة الصراط وإيتاء الكتاب والحكم والنبوة على ما سيجيء من البيان إن شاء الله.

١١. الآيات [٩١ ـ ١٠٥] الآيات لا تخلو عن ارتباط بما قبلها فإنها تفتتح بالمحاجة في خصوص

إنزال الكتاب على أهل الكتاب إذ ردوا على النبي ﷺ بقولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، والآيات السابقة تعد إيتاء الكتاب من لوازم الهداية الإلهية التي أكرم بها أنبياءه، فقد بدأت الكلام بمحاجة أهل الكتاب ثم تذكر أن أظلم الظلم أن يشرك بالله افتراء عليه أو يظلم في باب النبوة بإنكار ما هو حق منها أو دعوى ما ليس بحق منها كالذي قال: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ ثم تذكر الآيات ما يئول إليه أمر هؤلاء الظالمين عند مساءلة الموت إذا غشيتهم غمراته والملائكة باسطوا أيديهم، ثم تتخلص إلى ذكر آيات توحيده تعالى وذكر أشياء من أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

١٢. الآيات [١٠٦ ـ ١١٣] اتصال الآيات بما قبلها واضح لا غبار عليه، والكلام مسرود في التوحيد.

١٣. الآيات [١١٤ ـ ١٢١] الآيات على ما لها من الاتصال بما قبلها كما يدل عليه التفريع بالفاء في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ لها فيما بينها أنفسها وهي ثمان آيات اتصال يرتبط به بعضها ببعض ويرجع بعضها إلى بعض فإن فيها إنكار أن يتخذ حكم إلا الله وقد فصل أحكامه في كتابه، ونهياً من اتباع الناس وإطاعتهم وأن إطاعة أكثر الناس من المضلات لاتباعهم الظن وبنائهم على الخرص والتخمين، وفي آخرها أن المشركين وهم أولياء الشياطين يجادلون المؤمنين في أمر أكل الميتة، وفيها الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه والنهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، وأن ذلك هو الذي فصله في كتابه وارتضاه لعباده، وهذا كله يؤيد ما نقل عن ابن عباس: أن المشركين خاصموا النبي ﷺ والمؤمنين في أمر الميتة قائلين: أتأكلون مما قتلتم أنتم ولا تأكلون مما قتله الله؟ فنزلت، فالغرض من هذه الآيات بيان الفرق وتثبيت الحكم.

١٤. الآيات [١٢٨ ـ ١٣٥]:

أ. الآيات متصلة بما قبلها وهي تفسر معنى ولاية بعض الظالمين بعضاً المجعولة من الله سبحانه كتولية الشياطين للكافرين، وأن ذلك ليس من الظلم في شيء فإنهم سيعترفون يوم القيامة أنهم إنما أشركوا واقترفوا المعاصي بسوء اختيارهم واغترارهم بالحياة الدنيا بعد البيان الإلهي وإنذارهم باليوم الآخر حتى تلبسوا بالظلم، والظالمون لا يفلحون.

ب. فالقضاء الإلهي لا يسلب عنهم الاختيار الذي عليه مدار المؤاخذة والمجازاة، ولا الاختيار الإنساني الذي عليه مدار السعادة والشقاوة يزاحم القضاء الإلهي فمتابعة الإنسان أولياء من الشياطين

باختياره وإرادته هي المقضية لا أن القضاء يبطل اختيار الإنسان في فعله أولاً ثم يضطره إلى اتباع الشياطين فيجبره الله أو يجبره الشياطين على سلوك طريق الشقاء وانتخاب الشرك واقتراف الذنوب والآثام بل الله سبحانه غني عنهم لا حاجة له إلى شيء مما بأيديهم حتى يظلمهم لأجله، وإنما خلقهم برحمته وحثهم عليها لكنهم ظلموا فلم يفلحوا.

١٥. الآيات [١٣٦ ـ ١٥٠] الآيات تحاج المشركين في عدة من الأحكام في الأطعمة وغيرها دائرة بين المشركين وتذكر حكم الله فيها.

١٦. الآيات [١٥١ ـ ١٥٧]:

أ. تبين الآيات المحرمات العامة التي لا تختص بشريعة من الشرائع الإلهية، وهي الشرك بالله، وترك الإحسان بالوالدين، واقتراف الفواحش، وقتل النفس المحترمة بغير حق ويدخل فيه قتل الأولاد خشية إملاق واقتراب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن وعدم إيفاء الكيل والميزان بالقسط، والظلم في القول، وعدم الوفاء بعهد الله، واتباع غير سبيل الله المؤدي إلى الاختلاف في الدين.

ب. ومن شواهد أنها شرائع عامة أنا نجدها فيما نقله الله سبحانه من خطابات الأنبياء أممهم في تبليغاتهم الدينية كالذي نقل من نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيرهم عليه السلام، وقد قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ومن ألطف الإشارة التعبير عما أوتي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام بالتوصية ثم التعبير في هذه الآيات الثلاث التي تقص أصول المحرمات الإلهية أيضاً بالتوصية حيث قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ على أن التأمل فيها يعطي أن الدين الإلهي لا يتم أمره ولا يستقيم حاله بدون شيء منها وإن بلغ من الإجمال والبساطة ما بلغ وبلغ الإنسان المنتحل به من السذاجة ما بلغ.

١٧. الآيات [١٥٨ ـ ١٦٠] الآيات متصلة بما قبلها وهي تتضمن تهديد من استنكف من المشركين عن الصراط المستقيم وتفرق شيعاً، وتبرئة النبي ﷺ من المفرقين دينهم، ووعداً حسناً لمن جاء بالحسنة وإنجازاً للجزاء.

١٨. الآيات [١٦١ ـ ١٦٥] الآيات ختام السورة وهي تحتوي على خلاصة الغرض من دعوته ﷺ في السورة وأنه متلبس بالعمل بما يدعو إليه، وفيها خلاصة الحجج التي أقيمت فيها لإبطال عقيدة الشرك.

١. توحيد الربوبية والألوهية وعلم الله المحيط:

المقطع [١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١ـ٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٧»:

١. ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾:

أ. افتتح بالثناء على الله وهو كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد، وذلك بتضمين الثناء ما هو محصل غرض السورة ليتوسل بذلك إلى الاحتجاج عليه تفصيلا، وتضمينه العجب منهم ولومهم على أن عدلوا به غيره والامتراء في وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ والإنذار والتخويف.

ب. وقد أشار في هذا الثناء الموضوع في الآيات الثلاث إلى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينية في المعارف الحقيقية التي هي بمنزلة المادة للشريعة، وتنحل إلى نظامات ثلاث:

- نظام الكون العام وهو الذي تشير إليه الآية الأولى.
- ونظام الإنسان بحسب وجوده، وهو الذي تشتمل عليه الآية الثانية.
- ونظام العمل الإنساني وهو الذي تومئ إليه الآية الثالثة.

ج. فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الذي يعيش فيه الإنسان، وبما خلق عالما صغيرا هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين ومن حيث انتهائه بالأجل المقضي، وبما علم سر الإنسان وجهره وما يكسبه.

د. وما في الآية الثالثة: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، بمنزلة الإيضاح لمضمون الآيتين السابقتين والتمهيد لبيان علمه بسر الإنسان وجهره وما تكسبه نفسه.

٢. فقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾:

أ. إشارة إلى نظام الكون العام الذي عليه تدبر الأشياء على كثرتها وتفرقها في عالمنا في نظامه الجاري

المحكم إلا عالم الأرض الذي يحيط به عالم السماوات على سعتها ثم يتصرف بها بالنور والظلمات اللذين عليهما يدور رحى العالم المشهود في تحوله وتكامله فلا يزال يتولد شيء من شيء ويتقلب شيء إلى شيء ويظهر واحد ويخفى آخر، ويتكون جديد ويفسد قديم، وينتظم من تلاقي هذه الحركات المتنوعة على شتاتها الحركة العالمية الكبرى التي تحمل أثقال الأشياء، وتسير بها إلى مستقرها.

ب. والجعل في قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾ بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذا في الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذا في معناه بخلاف الجعل، ولعل هذا هو السبب في تخصيص الخلق بالسماوات والأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمة والنور، ولذا خصا باستعمال الجعل.

ج. وقد أتى بالظلمات بصيغة الجمع دون النور، ولعله لكون الظلمة متحققة بالقياس إلى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتتكثر بحسب مراتب قربه من النور وبعده بخلاف النور فإنه أمر وجودي لا يتحقق بمقايسته إلى الظلمة التي هي عدمية، وتكثيره تصورا بحسب قياسه التصوري إلى الظلمة لا يوجب تعدده وتكثره حقيقة.

٣. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾:

أ. مسوق للتعجب المشوب بلوم أي إن الله سبحانه بخلقه السماوات والأرض وجعله الظلمات والنور متوحد بالألوهية متفرد بالربوبية لا يماثله شيء ولا يشاركه، ومن العجب أن الذين كفروا مع اعترافهم بأن الخلق والتدبير لله بحقيقة معنى الملك دون الأصنام التي اتخذوها آلهة يعدلون بالله غيره من أصنامهم ويسوون به أوثانهم فيجعلون له أندادا تعادله بزعمهم فهم ملومون على ذلك.

ب. وبذلك يظهر وجه الإتيان بثم الدال على التأخير والتراخي فكأن المتكلم لما وصف تفرده بالصنع والإيجاد وتوحده بالألوهية والربوبية ذكر مزعمة المشركين وأصحاب الأوثان أن هذه الحجارة والأخشاب المعمولة أصناما يعدلون بها رب العالمين فشغله التعجب زمانا وكفه عن التكلم ثم جرى في كلامه وأشار إلى وجه سكوته، وأن حيرة التعجب كان هو المانع عن جريه في كلامه فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

٤. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾:

أ. يشير إلى خلقه العالم الإنساني الصغير بعد الإشارة إلى خلق العالم الكبير فيبين أن الله سبحانه هو الذي خلق الإنسان ودبر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوي ظاهرا فهو محدود الوجود بين الطين الذي بدأ منه خلق نوعه وإن كان بقاء نسله جاريا على سنة الازدواج والوقاع كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]

ب. وبين الأجل المقضي الذي يقارن الموت كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧] ومن الممكن أن يراد بالأجل ما يقارن الرجوع إلى الله سبحانه بالبعث فإن القرآن الكريم كأنه يعد الحياة البرزخية من الدنيا كما يفيده ظاهر قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: (المؤمنون: ١١٤)، وقال أيضا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ الله إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]

ج. وقد أبهم أمر الأجل بإتيانه منكرا في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ للدلالة على كونه مجهولا للإنسان لا سبيل له إلى المعرفة به بالتوسل إلى العلوم العادية.

٥. ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾:

أ. تسمية الأجل تعيينه فإن العادة جرت في العهود والديون ونحو ذلك بذكر الأجل وهو المدة المضروبة أو آخر المدة باسمه، وهو الأجل المسمى، قال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وهو الأجل بمعنى آخر المدة المضروبة، وكذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فإن أَجَلَ الله لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال تعالى في قصة موسى وشعيب: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فإن أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ إلى أن قال: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وهو الأجل بمعنى تمام المدة المضروبة.

ب. والظاهر أن الأجل بمعنى آخر المدة فرع الأجل بمعنى تمام المدة استعمالا أي أنه استعمل كثيرا (الأجل المقضي) ثم حذف الوصف واكتفي بالموصوف فأفاد الأجل معنى الأجل المقضي، قال الراغب في مفرداته: يقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان (أجل) فيقال: دنا أجله عبارة عن دنو الموت، وأصله استيفاء

الأجل)، وكيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل والأجل المسمى هو آخر مدة الحياة لإتمام المدة كما يفيده قوله: ﴿فإن أَجَلَ اللهِ لَآتٍ﴾ الآية، فتبين بذلك أن الأجل أجلان: الأجل على إبهامه، والأجل المسمى عند الله تعالى.

ج. وهذا هو الذي لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله: ﴿عِنْدَهُ﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وهو الأجل المحتوم الذي لا يتغير ولا يتبدل قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، فنسبة الأجل المسمى إلى الأجل غير المسمى نسبة المطلق المنجز إلى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذي علق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل إلى عدم تحققه البتة.

د. والتدبر في الآيات السابقة منضمة إلى قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] يفيد أن الأجل المسمى هو الذي وضع في أم الكتاب، وغير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو والإثبات، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن أم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابتة في العين أي الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب العامة التي لا تتخلف عن تأثيرها، ولوح المحو والإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهة استنادها إلى الأسباب الناقصة التي ربما نسميها بالمقتضيات التي يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها.

هـ. واعتبر ما ذكر من أمر السبب التام والناقص بمثال إضاءة الشمس فإنا نعلم أن هذه الليلة ستنقضي بعد ساعات وتطلع علينا الشمس فتضيء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلولة سحابة أو حيلولة القمر أو أي مانع آخر فتمنع من الإضاءة، وأما إذا كانت الشمس فوق الأفق ولم يتحقق أي مانع مفروض بين الأرض وبينها فإنها تضيء وجه الأرض لا محالة، فطلوع الشمس وحده بالنسبة إلى الإضاءة بمنزلة لوح المحو والإثبات، وطلوعها مع حلول وقته وعدم أي حائل مفروض بينها وبين الأرض بالنسبة إلى الإضاءة بمنزلة أم الكتاب المسمى باللوح المحفوظ.

و. فالتركيب الخاص الذي لبنية هذا الشخص الإنساني مع ما في أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضي أن يعمر العمر الطبيعي الذي ربما حددوه بمائة أو بمائة وعشرين سنة وهذا هو المكتوب في لوح المحو والإثبات مثلا غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطا وتأثيرا في الوجود الإنساني فربما تفاعلت الأسباب

والموانع التي لا نحصيها تفاعلا لا نحيط به فأدى إلى حلول أجله قبل أن ينقضي الأمد الطبيعي، وهو المسمى بالموت الاخترامي، وبهذا يسهل تصور وقوع الحاجة بحسب ما نظم الله الوجود إلى الأجل المسمى وغير المسمى جميعا، وأن الإبهام الذي بحسب الأجل غير المسمى لا ينافي التعين بحسب الأجل المسمى، وأن الأجل غير المسمى والمسمى ربما توافقا وربما تخالفا والواقع حينئذ هو الأجل المسمى البتة.

٦. هذا ما يعطيه التدبر في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وللمفسرين تفسيرات غريبة للأجلين الواقعين في الآية:

أ. منها: أن المراد بالأجل الأول ما بين الخلق والموت والثاني ما بين الموت والبعث، ذكره عدة من الأقدمين وربما روي عن ابن عباس.

ب. ومنها: أن الأجل الأول أجل أهل الدنيا حتى يموتوا، والثاني أجل الآخرة الذي لا آخر له، ونسب إلى المجاهد والجبائي وغيرهما.

ج. ومنها: أن الأجل الأول أجل من مضى، والثاني أجل من بقي من سيأتي، ونسب إلى أبي مسلم.

د. ومنها: أن الأجل الأول النوم، والثاني الموت.

هـ. ومنها: أن المراد بالأجلين واحد، وتقدير الآية الشريفة: ثم قضى أجلا وهذا أجل مسمى عنده.

٧. ولا أرى الاشتغال بالبحث عن صحة هذه الوجوه وأشباهها وسقمها يسوغه الوقت على ضيقه، ولا يسمح بإباحته العمر على قصره.

٨. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ من المرية بمعنى الشك والريب، وقد وقع في الآية التفات من الغيبة إلى الحضور، وكأن الوجه فيه أن الآية الأولى: تذكر خلقا وتدبيرا عاما ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغي لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره، وكان يكفي في ذلك ذكرهم بنحو الغيبة لكن الآية الثانية: تذكر الخلق والتدبير الواقعين في الإنسان خاصة فكان من الحري الذي يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب ويلومهم بالتجبيه كأنه يقول: هذا خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور عذرناكم في الغفلة عن حكمه لكون ذلك أمرا عاما ربما أمكن الذهول عما يقتضيه فما عذركم أنتم في امترائكم فيه وهو الذي خلقكم وقضى فيكم أجلا وأجل مسمى عنده؟

٩. ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ الآيتان السابقتان تذكران الخلق والتدبير في العوالم عامة

وفي الإنسان خاصة، ويكفي ذلك في التنبه على أن الله سبحانه هو الإله الواحد الذي لا شريك له في خلقه وتدبيره، لكنهم مع ذلك أثبتوا آلهة أخرى وشفعاء مختلفة لوجوه التدبير المختلفة كإله الحياة وإله الرزق وإله البر وإله البحر وغير ذلك، وكذا للأنواع والأقوام والأمم المتشتتة كإله السماء وإله هذه الطائفة وإله تلك الطائفة فنفى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾، فالآية نظيرة قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] مفادها انبساط حكم ألوهيته تعالى في السماوات وفي الأرض من غير تفاوت أو تحديد، وهي إيضاح لما تقدم وتمهيد لما يتلوها من الكلام.

١٠. ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾:

أ. السر والجهر متقابلان وهما وصفان للأعمال، فسرهم ما عملوه سرا وجهرهم ما عملوه جهرا من غير ستر، وأما ما يكسبون فهو الحال النفساني الذي يكسبه الإنسان بعمله السري والجهري من حسنة أو سيئة فالسر والجهر المذكوران، كما عرفت، وصفان صوريان لمتون الأعمال الخارجية، وما يكسبونه حال روحي معنوي قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصورية والمعنوية، ولعل اختلاف المعلومين من حيث نفسهما هو الموجب لتكرار ذكر العلم في قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

ب. والآية كالتمهيد لما ستتعرض له من أمر الرسالة والمعاد فإن الله سبحانه لما كان عالما بما يأتي به الإنسان من عمل سرا أو جهرا، وكان عالما بما يكسبه لنفسه بعمله من خير أو شر، وكان إليه زمام التربية والتدبير كان له أن يرسل رسولا بدين يشرعه لهداية الناس على الرغم مما يصر عليه الوثنيون من الاستغناء عن النبوة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]، وكذا هو تعالى لما كان عالما بالأعمال وبتبعاتها في نفس الإنسان كان عليه أن يحاسبهم في يوم لا يغادر منهم أحدا كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]

١١. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي بإسناده عن ابن محبوب عن أبي جعفر الأحول عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله خلق الجنة قبل أن يخلق النار، وخلق الطاعة قبل أن يخلق المعصية، وخلق الرحمة قبل الغضب، وخلق الخير قبل الشر، وخلق الأرض قبل السماء، وخلق الحياة قبل الموت، وخلق الشمس قبل القمر، وخلق النور قبل الظلمة.

• أقول: خلق النور قبل الظلمة بالنظر إلى كون الظلمة عدمياً مضافاً إلى النور ظاهر المعنى، وأما نسبة الخلق إلى الطاعة والمعصية، فليس يلزم منها بطلان الاختيار؛ فإن بطلانه يستلزم بطلان نفس الطاعة والمعصية، فلا تبقى لنسبتهما إلى الخلق وجه صحة، بل المراد كونه تعالى يملكهما، كما يملك كل ما وقع في ملكه، وكيف يمكن أن يقع في ملكه ما هو خارج عن إحاطته وسلطانه ومنعزل عن مشيته وإذنه؟

• ولا دليل على انحصار الخلق في الإيجاد والصنع الذي لا واسطة فيه، حتى يكون تعالى مستقلاً بإيجاد كل ما نسب خلقه إليه، فيكون إذا قيل: إن الله خلق العدل أو القتل مثلاً، أنه أبطل إرادة الإنسان العادل أو القاتل، واستقل هو بالعدل والقتل بإذهاب الواسطة من البين، فافهم ذلك، وقد تقدم استيفاء البحث عن هذا المعنى في الجزء الأول من الكتاب.

• وبنظير البيان يتبين معنى نسبة الخلق إلى الخير والشر أيضاً، سواء كانا خيراً وشراً في الأمور التكوينية أو في الأفعال.

• وأما كون الطاعة مخلوقة قبل المعصية، وكذا الخير قبل الشر، فيجري أيضاً في بيانه نظير ما تقدم من بيان كون النور قبل الظلمة، من أن النسبة بينهما نسبة العدم والملكة، والعدم يتوقف في تحققه على الملكة، ويظهر به أن خلق الحياة قبل الموت.

• وبذلك يتبين أن خلق الرحمة قبل الغضب، فإن الرحمة متعلقة بالطاعة والخير، والغضب متعلق بالمعصية والشر، والطاعة والخير قبل المعصية والشر.

• وأما خلق الأرض قبل السماء، فيدل عليه قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١١-١٢]

• وأما كون خلق الشمس قبل القمر، فليس كل البعيد أن يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١-٢]، وقد رجحت الأبحاث الطبيعية اليوم أن الأرض مشتقة من الشمس، والقمر مشتق من الأرض.

ب. وفي تفسير العياشي عن جعفر بن أحمد عن العمركي بن علي عن العبيدي عن يونس بن عبد الرحمن عن علي بن جعفر عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: لكل صلاة وقتان، ووقت يوم الجمعة زوال

الشمس، ثم تلا هذه الآية: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، قال: يعدلون بين الظلمات والنور، وبين الجور والعدل.

• أقول: وهذا معنى آخر للآية، وبناؤه على جعل قوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾ دون ﴿يَعْدِلُونَ﴾

ج. وفي الكافي عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن ابن فضال عن ابن بكير عن زرارة عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألت عن قول الله عز وجل: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، قال: هما أجلان: أجل محتوم، وأجل موقوف.

د. وفي تفسير العياشي عن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٢]، قال: فقال: هما أجلان: أجل موقوف يصنع الله ما يشاء، وأجل محتوم.

هـ. وفي تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، قال: الأجل الذي غير مسمى موقوف، يقدم منه ما شاء، وأما الأجل المسمى، فهو الذي ينزل مما يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها، قال: فذلك قول الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]

و. وفيه عن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، قال: المسمى ما سمي لملك الموت في تلك الليلة، وهو الذي قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، وهو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر، والآخر له فيه المشيئة، إن شاء قدمه، وإن شاء أخره.

• أقول: وفي هذا المعنى غيرها من الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، والذي يدل عليه من معنى الأجل المسمى وغيره هو الذي تقدمت استفادته من الآيات الكريمة.

ز. وفي تفسير علي بن إبراهيم قال: حدثني أبي عن النضر بن سويد عن الحلبي عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الأجل المقضي هو المحتوم الذي قضاه الله وحتمه، والمسمى هو الذي فيه البداء، يقدم ما يشاء ويؤخر ما شاء، والمحتوم ليس فيه تقديم ولا تأخير.

• أقول: وقد غلط بعض من في طريق الرواية فعكس المعنى، وفسر كلاً من المسمى وغيره بمعنى

الآخر، على أن الرواية لا تتعرض لتفسير الآية، فلا كثير ضير في قبولها.

ح. وفي تفسير العياشي عن الحصين عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، قال: ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: الأجل الأول هو ما نبذه إلى الملائكة والرسل والأنبياء، والأجل المسمى عنده هو الذي ستره الله عن الخلائق.

• أقول: ومضمون الرواية ينافي ما تقدم من الروايات ظاهراً، ولكن من الممكن أن يستفاد من قوله: (نبذه) أن المراد أنه تعالى أعطاهم الأصل الذي تستنبط منه الآجال غير المساة، وأما الأجل المسمى، فلم يسلط أحداً على علمه، بمعنى أن ينبذ إليه نوراً يكشف به كل أجل مسمى إذا أريد ذلك، وإن كان تعالى يسميه لملك الموت أو لأنبيائه ورسله إذا شاء، وذلك كالغيب يختص علمه به تعالى، وهو مع ذلك يكشف عن شيء منه لمن ارتضاه من رسول إذا شاء ذلك.

ط. وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن مثنى الحناط عن أبي جعفر ـ أظنه محمد بن النعمان ـ قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]، قال: كذلك هو في كل مكان، قلت: بذاته؟ قال: ويحك، إن الأماكن أقدار، فإذا قلت: في مكان بذاته، لزمك أن تقول: في أقدار وغير ذلك، ولكن هو بائن من خلقه، محيط بما خلق علماً وقدرة وإحاطة وسلطاناً، وليس علمه بما في الأرض بأقل مما في السماء، ولا يبعد منه شيء، والأشياء له سواء علماً وقدرة وسلطاناً وملكاً وإرادة.

٢. إعراض المكذبين عن آيات الله واستحقاقهم الوعيد:

المقطع [٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٤ـ٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٧»:

١. ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾:

أ. الآيات إشارة إلى تكذيبهم الحق الذي أرسل به الرسول وتماديهم في تكذيب الحق والاستهزاء بآيات الله سبحانه ثم موعظة لهم وتخويف وإنذار، وجواب عن بعض ما لغوا به في إنكار الحق الصريح.

ب. إشارة إلى أن سجية الاستكبار رسخت في نفوسهم فأنتجت فيهم الإعراض عن الآيات الدالة

على الحق فلا يلتفتون إلى آية من الآيات من غير تفاوت بين آية وآية لأنهم كذبوا بالأصل المقصود الذي هو الحق، وهو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾

٢. ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تخويف وإنذار فإن الذي يستهزئون به حق، والحق يأبى إلا أن يظهر يوما ويخرج من حد النبإ إلى حد العيان قال تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ﴾ ﴿رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، وقال في مثل ضربه ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]، ومن المعلوم أن الحق إذا ظهر لم يستو في مساسه المؤمن والكافر، والخاضع والمستهزئ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الصافات: ١٧٧]

٣. سنة الله في تمكين الأمم ثم إهلاكهم بذنوبهم:

المقطع [٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٨»:

١. ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ إلى آخر الآية، قال الراغب: (القرن القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون)، وقال أيضا: قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾) وأصله من الدر، بالفتح، والدرة، بالكسر، أي اللبن، ويستعار ذلك للمطر استعارة أسماء البعير وأوصافه فقيل: لله دره ودر درك، ومنه أستعير قولهم غسوق دره أي نفاق (بالفتح)

٢. في قوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ التفات من الغيبة إلى الحضور، والوجه فيه ظاهرا رفع اللبس من جهة مرجع الضمير فلولا الالتفات إلى الحضور في قوله: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أوهم السياق رجوعه إلى ما يرجع إليه الضمير في قوله: ﴿مَكَّنَّاهُمْ﴾ وإلا فأصل السياق في مفتتح السورة للغيبة، وقد تقدم الكلام في الالتفات الواقع في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ

٣. في قوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ دلالة على أن للسيئات والذنوب دخلا في البلايا والمحن العامة، وفي هذا المعنى وكذا في معنى دخل الحسنات والطاعات في إفاضات النعم ونزول البركات آيات كثيرة.

٤. تعنت الكفار ووصفهم الحق المبين بالسحر:

المقطع [٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٨»:

١. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ إلى آخر الآية، إشارة إلى أن استكبارهم قد بلغ مبلغا لا ينفع معه حتى لو أنزلنا كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم فناله حسهم بالبصر والسمع، وتأيد بعض حسهم ببعض فإنهم قائلون حينئذ لا محالة: هذا سحر مبين، فلا ينبغي أن يعبأ باللغو من قولهم: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣]

٢. وقد نكر الكتاب في قوله: ﴿كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ لأن هذا الكتاب نزل نوع تنزيل لا يقبل إلا التنزيل نجوما وتدريجا، وقيده بكونه في قرطاس ليكون أقرب إلى ما اقترحوه، وأبعد مما يختلج في صدورهم أن الآيات النازلة على النبي ﷺ من منشآت نفسه من غير أن ينزل به الروح الأمين على ما يذكره الله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]

٥. المعرضون عن آيات الله وإنزال الملك:

المقطع [٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٨-٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٨»:

١. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ قولهم: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ تحضيض للتعجيز، وقد أخبرهم النبي ﷺ بما كان يتلو عليهم من آيات الله النازلة عليه أن الذي جاء به إليه ملك كريم نازل من عند الله كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [كورت: ٢١] إلى غيرها من الآيات.

٢. فسؤالهم إنزال الملك إنما كان لأحد أمرين على ما يحكيه الله عنهم في كلامه:

أ. أحدهما: أن يأتيهم بما يعدهم النبي من العذاب:

• كما قال تعالى: ﴿فإن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [حم السجدة: ١٣]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [ص: ٧٠]، ولما كان نزول الملك انقلابا للغيب إلى الشهادة، ولا مرمى بعده استعقب إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بما استحكم فيهم من قريحة الاستكبار، القضاء بينهم بالقسط، ولا محيص حينئذ عن إهلاكهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾

• على أن نفوس الناس المتوغلين في عالم المادة القاطنين في دار الطبيعة لا تطيق مشاهدة الملائكة لو نزلوا عليهم واختلطوا بهم لكون ظرفهم غير ظرفهم فلو وقع الناس في ظرفهم لم يكن ذلك إلا انتقالا منهم من حضيض المادة إلى ذروة ما وراها وهو الموت كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أنزل عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] وهذا هو يوم الموت أو ما هو بعده بدليل قوله بعده: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، وقال تعالى بعده، وظاهر السياق أنه يوم آخر ـ ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] ولعلهم إياه كانوا يعنون بقولهم: ﴿أو تَأْتِيَ بِالله وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢]

• وبالجملة فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأمر﴾، جواب عن اقتراحهم نزول الملك ليعذبهم، وعلى هذا ينبغي أن يضم إليه ما وعده الله هذه الأمة أن يؤخر عنهم العذاب كما تشير إليه الآيات من سورة يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إلا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾إلى أن قال: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ أي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣] وفي هذا المعنى آيات أخرى كثيرة سنستوفي البحث عنها في سورة أخرى إن شاء الله.

• فالمتحصل من الآية أنهم يسألون نزول الملك، ولا نجيبهم إلى ما سألوه لأنه لو نزل الملك لقضي

بينهم ولم ينظروا وقد شاء الله أن ينظرهم إلى حين فليخوضوا فيما يخوضون حتى يلاقوا يومهم، وسيوافيهم ما سألوه فيقضي الله بينهم.

• ويمكن أن يقرر معنى الآية على نحو آخر وهو أن يكون مرادهم أن ينزل الملك ليكون آية لا ليأتيهم بالعذاب، ويكون المراد من الجواب أنه لو نزل عليهم لم يؤمنوا به لما تمكن فيهم من رذيلة العناد والاستكبار وحينئذ قضي بينهم وهم لا ينظرون، وهم لا يريدون ذلك.

ب. ثانيهما: أن ينزل عليهم الملك ليكون حاملا لأعباء الرسالة داعيا إلى الله مكان النبي ﷺ أو يكون معه رسولا مثله مصدقا لدعوته شاهدا على صدقه كما في قولهم فيما حكى الله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أنزل إليه مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧] فإنهم يريدون أن الذي هو رسول من جانب الله لا يناسب شأنه أن يشارك الناس في عادياتهم من أكل الطعام واكتساب الرزق بالمشي في الأسواق بل يجب أن يختص بحياة سماوية وعيشة ملكوتية لا يخالطه تعب السعي وشقاء الحياة المادية فيكون على أمر بارز من الدعوة أو ينزل معه ملك سماوي فيكون معه نذيرا فلا يك في حقية دعوته وواقعية رسالته، وهذا هو الذي تجيب عنه الآية التالية: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾

٣. ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾:

أ. اللبس بالفتح الستر بساتر لما يجب ستره لقبحه أو لحاجته إلى ذلك واللبس بالضم التغطية على الحق، وكأن المعنى استعاري والأصل واحد، قال الراغب في المفردات: (لبس الثوب استتر به وألبسه غيره ـ إلى أن قال ـ وأصل اللبس (بضم اللام) ستر الشيء ويقال ذلك في المعاني يقال: لبست عليه أمره قال: ﴿وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ﴾ وقال: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ﴾، ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ﴾، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ و، يقال: في الأمر لبسه أي التباس)

ب. معمول يلبسون محذوف، وربما استفيد من ذلك العموم والتقدير يلبس الكفار على أنفسهم أعم من لبس البعض على نفسه، ولبس البعض على البعض الآخر:

• أما لبسهم على غيرهم فكما يلبس علماء السوء الحق بالباطل لجهلة مقلديهم وكما يلبس الطواغيت المتبعون لضعفة أتباعهم الحق بالباطل كقول فرعون فيما حكى الله لقومه: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ

وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]

• وأما لبسهم على أنفسهم فهو بتخييلهم إلى أنفسهم أن الحق باطل وأن الباطل حق ثم تماديهم على الباطل فإن الإنسان وإن كان يميز الحق من الباطل فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكان تلهم نفسه فجورها وتقواها غير أن تقويته جانب الهوى وتأييده روح الشهوة والغضب من نفسه تولد في نفسه ملكة الاستكبار عن الحق، والاستعلاء على الحقيقة فتنجذب نفسه إليه، وتغتر بعمله، ولا تدعه يلتفت إلى الحق ويسمع دعوته، وعند ذاك يزين له عمله، ويلبس الحق بالباطل وهو يعلم كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا هو المصحح لتصوير ضلال الإنسان في أمر مع علمه به فلا يرد عليه أن لبس الإنسان على نفسه الحق بالباطل إقدام منه على الضرر المقطوع وهو غير معقول، على أنا لو تعمقنا في أحوال أنفسنا ثم أخذنا بالنصفة عثرنا على عادات سوء نقضي بمساءتها لكنا لسنا نتركها لرسوخ العادة وليس ذلك إلا من الضلال على علم، ولبس الحق بالباطل على النفس والتلهي باللذة الخيالية والتوله إليها عن التثبت على الحق والعمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته.

ج. وعلى أي حال فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، الجواب عن مسألتهم نزول الملك ليكون نذيرا فيؤمنوا به، ومحصله أن الدار دار اختيار لا تتم فيها للإنسان سعادته الحقيقية إلا بسلوكه مسلك الاختيار، واكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته أو يضره، وسلوك أي الطريقين رضي لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الدهر: ٣] فإنما هي هداية وإراءة للطريق ليختار ما يختاره لنفسه من التطرق والتمرد من غير أن يضطر إلى شيء من الطريقين ويلجأ إلى سلوكه بل يحرث لنفسه ثم يحصد ما حرث، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: ٤١] فليس للإنسان إلا مقتضى سعيه فإن كان خيرا أراه الله ذلك وإن كان شرا أمضاه له، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]

د. وبالجملة هذه الدعوة الإلهية لا يستقيم أمرها إلا أن توضع على الاختيار الإنساني من غير اضطرار وإلجاء، فلا محيص عن أن يكون الرسول الحامل لرسالات الله أحدا من الناس يكلمهم بلسانهم فيختاروا لأنفسهم السعادة بالطاعة أو الشقاء بالمخالفة والمعصية من غير أن يضطرهم الله إلى قبول الدعوة بآية سماوية يلجئهم إليه وإن قدر على ذلك كما قال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ إلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]

هـ. فلو أنزل الله إليهم ملكا رسولا لكان من واجب الحكمة أن يجعله رجلا مثلهم فيربح الرابحون باكتسابهم ويخسر الخاسرون فيلبسوا الحق بالباطل على أنفسهم وعلى أتباعهم كما يلبسون مع الرسول البشري فيمضي الله ذلك ويلبس عليهم كما لبسوا، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فإنزال الملك رسولا لا يترتب عليه من النفع والأثر أكثر مما يترتب على إرسال الرسول البشري، ويكون حينئذ لغوا فقول الذين كفروا: ﴿لَوْلَا أنزل عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ليس إلا سؤالا لأمر لغو لا يترتب عليه بخصوصه أثر خاص جديد كما رجوا، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾

٤. فظهر مما تقدم من التوجيه:

أ. أولا: أن الملازمة بين جعل الرسول ملكا وجعله رجلا إنما هي من جهة إيجاب الحكمة حفظ الاختيار الإنساني في الدعوة الدينية الإلهية إذ لو أنزل الملك على صورته السماوية وبدل الغيب شهادة كان من الإلجاء الذي لا تستقيم معه الدعوة الاختيارية.

ب. وثانيا: أن الذي تدل عليه الآية هو صيرورة الملك رجلا مع السكوت عن كون ذلك هل هو بقلب ماهية الملكية إلى الماهية الإنسانية، الذي ربما يحيله عدة من الباحثين، أو بتمثيله مثالا إنسانيا كتمثل الروح لمريم بشرا سويا، وتمثل الملائكة الكرام لإبراهيم ولوط عليه السلام في صورة الضيفين من الآدميين، وجل الآيات الواردة في مورد الملائكة وإن كان يؤيد الثاني من الوجهين لكن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] لا يخلو عن دلالة ما على الوجه الأول، وللبحث ذيل ينبغي أن يطلب من محل آخر.

ج. وثالثا: أن قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ من قبيل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فهو إضلال إلهي لهم بعد ما استحبوا الضلال لأنفسهم من غير أن يكون إضلالا ابتدائيا غير لائق بساحة قدسه سبحانه.

د. ورابعا: أن متعلق يلبسون المحذوف أعم يشمل لبسهم على أنفسهم ولبس بعضهم على بعض.

هـ. وخامسا: أن محصل الآية احتجاج عليهم بأنه لو أنزل عليهم ملك بالرسالة لم ينفعهم ذلك في رفع حيرتهم فإن الله جاعل الملك عندئذ رجلا يماثل الرسول البشري وهم لابسون على أنفسهم معه متشككون فإنهم لا يريدون بهذه المسألة إلا أن يتخلصوا من الرسول البشري الذي هو في صورة رجل ليبدلوا بذلك شكهم يقينا وإذا صار الملك على هذا النعت، ولا محالة، فهم لا ينتفعون بذلك شيئا.

و. وسادسا: أن في التعبير: ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ ولم يقل: لجعلناه بشرا ليشمل الرجل والمرأة جميعا إشعارا، كما قيل، بأن الرسول لا يكون إلا رجلا كما أن التعبير لا يخلو من إشعار بأن هذا الجعل إنما هو بتمثل الملك في صورة الإنسان دون انقلاب هويته إلى هوية الإنسان كما قيل.

٥. غالب المفسرين وجهوا الآية بأن المراد: أنهم لما كانوا لا يطيقون رؤية الملك في صورته الأصلية لتوغلهم في عالم المادة فلو أرسل إليهم ملك لم يكن بد من تمثله لهم بشرا سويا، وحينئذ كان يبدو لهم من اللبس والشبهة ما يبدو مع الرسول من البشر ولم ينتفعوا به شيئا، وهذا التوجيه لا يفي باستقامة الجواب، وإن سلمنا أن الإنسان العادي لا تسعه مشاهدة الملائكة في صورهم الأصلية بالاستناد إلى أمثال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وذلك أن شهود الملك في صورته الأصلية لو كان محالا على الإنسان لم يختلف فيه حال الأفراد الإنسانية بالجواز والامتناع، وقد ورد في روايات الفريقين أن النبي ﷺ رأى جبرئيل في صورته الأصلية مرتين، ومن المقدور لله أن يقوي سائر الناس على ما قوى عليه نبيه فيعاينوهم ويؤمنوا بهم، ولا محذور فيه بحسب الحكمة إلا محذور الإلجاء فهو المحذور الذي يجب أن يدفع بالآية كما تقدم، وكذا مشاهدة الملك في صورة الآدميين لا تلازم جواز الشك واللبس فإن الله سبحانه يخبر عن إبراهيم ولوط عليه السلام أنهما عاينا الملائكة في صورة الآدميين ثم عرفهم ولم يشكا في أمرهم، وكذا أخبر عن مريم أنها شاهدت الروح ثم عرفته ولم تشك فيه ولا التبس عليها أمره فلم لم يكن من الجائز أن يكون حال سائر الناس حالهم عليه السلام في معاينة الملك في صورة الإنسان ثم

معرفته واليقين بأمره؟ لولا أن جعل نفوس الناس جميعا كنفس إبراهيم ولوط ومريم يستلزم إمحاء غرائزهم وفطرهم، وتبديلها نفوسا طاهرة قادسة، وفيه محذور الإلجاء، فالإلجاء هو المحذور الذي لا يبقى معه موضوع الامتحان، وهو الذي يجب دفعه بالآية كما تقدم.

٦. عاقبة المستهزئين بالرسل والأمر بالسير في الأرض للاعتبار:

المقطع [٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠-١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٥»:

١. ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى آخر الآيتين، الحيق الحلول والإصابة، وفي مفردات الراغب: (قيل وأصله حق فقلب نحو زل وزال، وقد قرئ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ فأزالهما، وعلى هذا ذمه وذامه)

٢. وقد كان استهزاؤهم بالرسل بالاستهزاء بالعذاب الذي كانوا ينذرونهم بنزوله وحلوله فحاق بهم عين ما استهزءوا به، وفي الآية الأولى: تطييب لنفس النبي ﷺ، وإنذار للمشركين، وفي الآية الثانية: أمر بالاعتبار وعظة.

٧. الربوبية والرحمة والمعاد والجزاء:

المقطع [٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٢-١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٦»:

١. ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ شروع في البرهنة على المعاد، ومحصله أن الله تعالى مالك ما في السماوات والأرض جميعا له أن يتصرف فيها كيف شاء وأراد، وقد اتصف سبحانه بصفة الرحمة وهي رفع حاجة كل محتاج وإيصال كل شيء إلى ما يستحقه وإفاضته عليه وعدة من عباده ومنهم الإنسان صالحون لحياة خالدة مستعدون لأن يسعدوا فيها فهو بمقتضى ملكه ورحمته سيتصرف فيهم بحشرهم وإعطائهم ما يستحقونه البتة.

٢. فقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، يتضمن إحدى مقدمات الحجة وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ يتضمن مقدمة أخرى، وقوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، مقدمة أخرى ثالثة بمنزلة الجزء من الحجة:

أ. فقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

• يأمر النبي ﷺ أن يسألهم عمن يملك السماوات والأرض وله التصرف فيها بما شاء من غير مانع يمنعه، وهو الله سبحانه من غير شك لأن غيره حتى الأصنام وأرباب الأصنام التي يدعوها المشركون هي كسائر الخلقة ينتهي خلقها وأمرها إليه تعالى فهو المالك لما في السماوات والأرض جميعا.

• ولكون المسئول عنه معلوما بينا عند السائل والمسئول جميعا والخصم معترف به لم يحتج إلى صدور الجواب عن الخصم واعترافه به بلسانه، وأمر النبي ﷺ أن يذكر هو الجواب ويتكفل ذلك لتتم الحجة من غير انتظار ما لجوابهم.

• والسؤال عن الخصم، ومباشرة السائل بنفسه الجواب كلاهما من السلائق البديعة الدائرة في سرد الحجج، يقول المنعم لمن أنعم عليه فكفر بنعمته: من الذي أطعمك وسقاك وكساك؟ أنا الذي فعل ذلك بك ومن بها عليك وأنت تجازيني بالكفر.

• وبالجملة ثبت بهذا السؤال والجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء ورزق وإماتة وبعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقة في العمل وموت وغيبة واختلال وغير ذلك، وبهذا تمت إحدى مقدمات الحجة فألحقها المقدمة الأخرى وهي قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾

ب. قوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾:

• الكتابة هو الإثبات والقضاء الحتم، وإذ كانت الرحمة، وهي إفاضة النعمة على مستحقها وإيصال الشيء إلى سعادته التي تليق به، من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب إلى كتابته تعالى، والمعنى: أوجب على نفسه الرحمة وإفاضة النعم وإنزال الخير لمن يستحقه، ونظيره في نسبة الفعل إلى الكتابة ونحوها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] وأما صفات الذات كالحياة والعلم والقدرة فلا تصح نسبتها إلى الكتابة ونحوها البتة لا

يقال: كتب على نفسه الحياة والعلم والقدرة.

• ولازم كتابة الرحمة على نفسه، كما تقدم، أن يتم نعمته عليهم بجمعهم ليوم القيامة ليجزيهم بأقوالهم وأعمالهم فيفوز به المؤمنون ويخسر غيرهم، ولذلك ذيل بقوله وهو كالنتيجة في الحجة: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فأكد المعنى بأبلغ التأكيد: لام القسم ونون التأكيد وقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

• ثم أشار إلى أن الربح في هذا اليوم للمؤمنين والخسران على غيرهم فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

• والحجة التي أقيمت في هذه الآية على المعاد غير ما أقيمت من الحجتين عليه في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] فإن الآيتين تقيمان الحجة على المعاد من جهة أن فعله تعالى ليس بباطل بل له غاية، ومن جهة أن التسوية بين المؤمن والكافر والمتقي والفاجر ظلم لا يليق به تعالى، وهما في الدنيا لا يتميزان فلا بد من نشأة أخرى يتميزان فيها بالسعادة والشقاوة، وهذا غير ما في هذه الآية من السلوك إلى المطلوب من طريق الرحمة.

ج. قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

• السكون في الليل والنهار هو الوقوع في ظرف هذا العالم الطبيعي الذي يدبر أمره بالليل والنهار، ويجري نظامه بغشيان النور الساكب من شمس مضيئة، وعمل التحولات النورية فيه بالقرب والبعد والكثرة والقلة والحضور والغيبة والمسامتة وغيرها، فالليل والنهار هما المهد العام يربى فيه العناصر الكلية ومواليدها تربية تسوق كل جزء من أجزائها وكل شخص من أشخاصها إلى غايته التي قدرت له، وتكملها روحا وجسما.

• وكما أن للمسكن عاما وخاصا دخلا تاما في كينونة الساكن كالإنسان مثلا يسكن أرضا فيطوف بها في طلب الرزق، ويرتزق مما يخرج منها من حب وفاكهة وما يتربى فيها من حيوان، ويشرب من مائها، ويستنشق من هوائها، ويفعل وينفعل من كيفيات منطقتها، وينمو جميع أجزاء جسمه على حسب تقديرها كذلك الليل والنهار لهما الدخل التام في تكون عامة ما يتكون فيهما.

• والإنسان من الأشياء الساكنة في الليل والنهار تكون بمشية الله من ائتلاف أجزاء بسيطة ومركبة على صورة خاصة يمتاز وجوده حدوثا وبقاء بحياة تقوم على شعور فكري وإرادة يتهيئان له من قوى له باطنية عاطفية تأمره بجذب المنافع ودفع المضار، وتدعوه إلى إيجاد مجتمع متشكل فيه ما نراه من تفاصيل التفاهم باللغات والتباني على اتباع السنن والقوانين والعادات في المعاشرات والمعاملات، واحترام الآراء والعقائد العامة في الحسن والقبح والعدل والظلم والطاعة والمعصية والثواب والعقاب والجزاء والعفو.

• وإذا كان الله سبحانه هو الخالق لليل والنهار وما سكن فيهما المتفرد بإيجادها فله ما سكن في الليل والنهار، وهو المالك الحق لجميع الليل والنهار وسكانهما وما يستعقب وجودها من الحوادث والأفعال والأقوال، وله النظام الجاري فيها على عجيب سعته فهو السميع لأقوالنا من أصوات وإشارات، والعليم بأعمالنا وأفعالنا بما لها من صفتي الحسن والقبح، والعدل والظلم والإحسان والإساءة، وما تكتسبه النفوس من سعادة وشقاء.

• وكيف يمكنه الجهل بذلك وقد نشأ الجميع في ملكه وبإذنه؟ ونحو وجود هذا النوع من الأمور أعني الحسن والقبح والعدل والظلم والطاعة والمعصية، وكذا اللغات الدالة على المعاني الذهنية كل ذلك أمور علمية لا تحقق لها في غير ظرف العلم، ولذلك نرى أن الفعل لا يقع منا حسنا ولا قبيحا ولا طاعة ولا معصية، والصوت المؤلف لا يسمى كلاما إلا إذا علمنا به وقصدنا وجهه.

• وكيف يمكن أن يملك شيء علمي في نفسه من حيث كونه كذلك ثم يجهله مالكه ولا يعلم به؟ (أجد التأمل فيه)، والله سبحانه هو الذي أوجد هذا العالم على عجيب سعته في أجزائه البسيطة والعنصرية والمركبة على نظام يدهش اللب، ثم خلقنا وأسكننا الليل والنهار ثم كثرنا وأجرى بيننا نظام الاجتماع الإنساني ثم هدانا إلى وضع اللغات، واعتبار السنن ووضع الاعتبارات، ولم يزل يصاحبنا ويصاحب سائر الأسباب خطوة خطوة، ويجارينا وإياها في مسير الليل والنهار لحظة لحظة، وساق حوادث لا نحصيها حادثة بعد حادثة.

• حتى تكلم الواحد منا بكلام فوضع المعنى في قلبه بإلهامه، وأجرى اللفظ في لسانه بتعريفه، وأسمع الصوت لمخاطبه بإسماعه، وسار بمعناه إلى ذهنه بحفظه، وفهم المعنى لمفكرته بتعليمه، ثم بعثه لموافقة ما ألقاه إليه المتكلم أو صده عن ذلك بإرادة باعثة له إليه أو كراهة دافعة له عنه، وهو في جميع هذه

المراحل التي تعجز عن الانعقاد عليها أنامل العد والإحصاء قائد وسائق وهاد وحفيظ ورقيب! فكيف يسع لقائل إلا أن يقول: إنه تعالى سميع عليم، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم.

• وكذا إذا عمل الواحد منا بعمل حسنة كان أو سيئة فهو مولود من أب وأم يولدانه تحت مراقبة الاختيار والإرادة، وقد انتقل إليهما بعد ما قطع طريقا بعيدا وأمدا مديدا في أصلاب أسباب فاعله، وأرحام علل أخرى منفعلة إلى أن ينتهي بما الله أعلم به، ولم يزل سبحانه ينقله بإرادته من حجر إلى حجر، والأرض قبضته والسماوات بيمينه حتى نزل منزل الاختيار فصاحبه منزلا بعد منزل بإذنه حتى طلع من أفق العين، وأخذ موضعه من مسكن الليل والنهار ثم لا يزال يجري فيما يتأثر منه من أجزاء الكون كأحد الأسباب الجارية، والله سبحانه عليه شهيد وبه محيط فكيف يمكن أن يغفل سبحانه عما هذا شأنه؟ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

• ومما تقدم يظهر أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ بمنزلة النتيجة لقوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، والسمع والعلم وإن كانا معدودين من صفاته تعالى الذاتية التي هي عين الذات المتعالية من غير أن يتفرع على أمر غيرها لكن من العلم وكذا السمع والبصر ما هو صفة فعلية خارجة عن الذات وهي التي يتوقف ثبوتها على تحقق متعلق غير الذات المقدسة كالخلق والرزق والإحياء والإماتة المتوقفة على وجود مخلوق ومرزوق وحي وميت.

• والأشياء لما كانت بأنفسها وأعيانها مملوكة محاطة له تعالى فهي إن كانت أصواتا سمع ومسموعة له تعالى، وإن كانت أنوارا وألوانا بصر ومبصرة له تعالى، والجميع كائنة ما كانت علم ومعلومة له تعالى، وهذا النوع من العلم من صفاته الفعلية التي تتحقق عند تحقق الفعل منه تعالى لا قبل ذلك، ولا يلزم من ثبوتها بعد ما لم تكن تغير في ذاته تعالى وتقدس لأنها لا تعدو مقام الفعل، ولا يدخل في عالم الذات فالآية في استنتاجها العلم من الملك تريد إثبات العلم الفعلي، فافهم ذلك.

• والآية أعني قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، كإحدى مقدمات الحجة المبينة بالآية السابقة فإن الحجة على المعاد وإن تمت بقوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ

الرَّحْمَةَ﴾ لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للأشياء مستلزما لعلمه بها وسمعه بما يسمع منها كالأصوات والأقوال، ولذلك نبه عليه بتكرار ملك السماوات والأرض، وتفريع السمع والعلم عليه فقال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، وهو في معنى قوله: (له ما في السماوات والأرض، وهو السميع العليم) فكانت هذه الآية لذلك بمنزلة مقدمة متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة.

٣. والآية، على أنا لم نستوف حقها ولن يستوفي، من أرق الآيات القرآنية معنى وأدقها إشارة وحجة، وأبلغها منطقا.

٨. إفراد الله بالولاية والعبادة والإسلام:

المقطع [٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣١»:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ شروع في الاحتجاج على وحدانيته تعالى وأن لا شريك له، والذي يتحصل من تاريخ الوثنية واتخاذ الأصنام والآلهة أنهم كانوا إنما دانوا بذلك وخضعوا للآلهة لأحد أمرين:

أ. إما أنهم وجدوا أنفسهم في حاجة إلى أسباب كثيرة في إبقاء الحياة كالتغذي بالطعام واللباس والمسكن والأزواج الأولاد والعشيرة ونحو ذلك، وعمدتها الطعام الذي حاجة الإنسان إليه أشد من حاجته إلى غيره بحسب النظر الساذج، وقد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذي يجود لهم بالتمتع من وسيلة رفع تلك الحاجة كالسبب الذي يمطر السماء فينبت المرعى والكلأ لدوابهم ويمنع بالخصب لأنفسهم، والسبب الذي يدبر أمر السهل والجبل أو يلقي بالمحبة والألفة أو إليه أمر البحر والسفائن الجارية فيه، ثم وجدوا أن قوتهم لا تفي بالتسلط على تلك الحاجة أو الحوائج الضرورية فاضطروا إلى الخضوع إلى السبب المربوط بحاجتهم واتخاذه إلها ثم عبادته.

ب. وإما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصورا بمكاره وشرور عامة عظيمة لا يقاومها كالسيل والزلزلة والطوفان والقحط والوباء، وببلايا ومحن أخرى جزئية لا يحصيها كالأمراض والأوجاع والسقوط والفقر والعقم والعدو والحاسد والشانئ وغير ذلك، ثم وضعوا لها

أسبابا قاهرة هي المرسلة لها إليهم، والقاصمة بها ظهورهم، والمكدرة لصفوة عيشهم، وهي مخلوقات علوية كأرباب الأنواع وأرواح الكواكب والأجرام العلوية فاتخذوها آلهة خوفا من سخطهم وعذابهم، وعبدوها ليستميلوها بالعبادة ويرضوها بالخضوع والاستكانة فيخلصوا بذلك عن المكاره والرزايا ويأمنوا شرورها والمضار النازلة منها إليهم.

٢. والآية ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾، والآيات التالية لها تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أي تسلم أصل الحجة وتعدها حقة لكن تبين أن لازمها أن يعبد الله سبحانه وحده، وينفى عنه كل شريك موضوع، فقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ إشارة إلى الحجة من المسلك الأول، وهو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لإنعامه سببا لمزيده، أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يبين لهم في صورة الاستفهام والسؤال أن الله سبحانه وحده هو الولي للنعمة التي يتنعم بها الإنسان وغيره لأنه هو الرازق الذي لا يحتاج إلى أن يرزقه غيره يطعم ولا يطعم، والدليل عليه أنه تعالى هو الذي فطر السماوات والأرض، وأخرجها من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وأنعم عليها بنعمة التحقق والثبوت، ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا هو لإبقاء وجودها، ومنها الإطعام للإنسان وغيره فإن جميع هذه النعم المعدة لبقاء وجود الإنسان وغيره، والأسباب التي تسوق تلك النعم إلى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهي إلى فطرة وإيجاده الأشياء والأسباب ومسبباتها جميعا من صنعه، فإليه سبحانه يرجع الرزق الذي من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذي يطعمنا من غير حاجة إلى إطعام من غيره.

٣. فظهر بما بيناه:

أ. أولا: أن التعبير عن العبودية والتأله باتخاذ الولي في قوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ إنما هو لكون الحجة مسوقة من جهة إنعامه تعالى بالإطعام.

ب. وثانيا: أن التعلق بقوله: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنما هو لبيان سبب انحصار الإطعام به تعالى كما تقدم تقريره، وربما استفيد ذلك من التعريض الذي في قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ فإن فيه تعريضا بكون سائر من اتخذوهم آلهة محتاجين كعيسى وغيره إلى إطعام أو ما يجري مجراه، ومن الممكن أن يستفاد من ذكره في الحجة أنه إشارة إلى مسلك آخر في إقامة الحجة على توحيده تعالى هو أشرف من المسلكين جميعا، ومحصله

أن الله سبحانه هو الموجد لهذا العالم، وإلى فطرة ينتهي كل شيء فيجب الخضوع له، ووجه كون هذا المسلك أشرف: هو أن المسلكين الآخرين وإن كانا أنتجا توحيد الإله من جهة أنه معبود لكنهما لا يخلوان مع ذلك من شيء وهو أنهما ينتجان وجوب عبادته طمعا في النعمة أو خوفا من النقمة فالمطلوب بالذات هو جلب النعمة أو الأمن من النقمة دونه تعالى وتقدس، وأما هذا المسلك فإنه ينتج وجوب عبادة الله لأنه الله سبحانه.

ج. وثالثا: أن اختصاص الإطعام من بين نعمه تعالى على كثرتها بالذكر إنما العناية فيه كون الإطعام بحسب النظر الساذج أوضح حوائج الحيوان العائش ومنه الإنسان.

٤. ثم أمر سبحانه بعد تمام الحجة نبيه ﷺ أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحجة العقلية، وهو أن الله أمره من طريق الوحي أن يجري في اتخاذ الإله على الطريق الذي يهدي إليه العقل وهو التوحيد، ونهاه صريحا أن يتخطاه إلى أن يلحق بالمشركين فقال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوّل مَنْ أسلم﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

٥. بقي هنا أمران:

أ. أحدهما: أن قوله: ﴿أوّل مَنْ أسلم﴾ إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم ﷺ قبل أمته، وإن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته في ذلك بحسب الرتبة دون الزمان.

ب. ثانيهما: أن نتيجة الحجة لما كانت هي العبودية وهي نوع خضوع وتسليم كان استعمال لفظة الإسلام في المقام أولى من لفظة الإيمان لما فيه من الدلالة على غرض العبادة، وهو الخضوع.

٩. الخوف من عذاب الله العظيم والرجاء في رحمته:

المقطع [٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٥ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٤»:

١. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

أ. هذا هو المسلك الثاني من المسلكين اللذين تقدم أن المشركين تعلقوا بهما في اتخاذ الآلهة، وهو أن عبادة آلهتهم يؤمنهم من شمول سخطها ونزول عذابها، وقد أخذ سبحانه في الحجة أخوف ما يجب أن يخاف منه من أنواع العذاب وأمره وهو عذاب الساعة التي ثقلت في السماوات والأرض كما أخذ في الحجة الأولى أحوج ما يحتاج إليه الإنسان بحسب بادئ النظر من النعم، وهو الإطعام.

ب. وقد قيل: ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ دون أن يقال: إن أشركت بربي إشارة إلى ما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ من نهيه ﷺ عن الشرك فأدت الآية أن من الواجب علي عقلا أن أعبد الله وحده لأومن مما أخاف من عذاب يوم عظيم، وهذا الذي دل عليه العقل دلني عليه الوحي من ربي.

ج. وبهذا تناظر هذه الآية الآية السابقة من جهة إقامة الحجة العقلية أولا ثم تأييده بالوحي من الله سبحانه فافهم ذلك، وهذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم فقد اكتفى في إفادة هذا المعنى على سعته بمجرد وضع قوله: ﴿عَصَيْتُ﴾ موضع أشركت.

٢. ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾، المعنى ظاهر الآية متممة للحجة المسرودة في الآية السابقة فظاهر الآية السابقة بحسب النظر البسيط إقامة النبي ﷺ الحجة في وجوب التوحيد على نفسه بأن الله نهاه عن الشرك فيجب عليه توحيده ليؤمن عذاب الآخرة، فيلوح لنظر المغفل غير المتدبر أن يرد عليه الحجة بأن النهي لما كان مختصا بك كما تدعيه يختص الخوف ثم وجوب التوحيد أيضا بك فلا تقتضي الحجة وجوب التوحيد ونفي الشريك على غيرك، وتصير الحجة عليك لا على غيرك، فأفاد بقوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أن عذابه مشرف على الجميع محيط بالكل لا مخلص عنه إلا برحمته فعلى كل إنسان أن يخاف من عذاب يومئذ على نفسه ما يخافه النبي ﷺ على نفسه فالحجة عامة قائمة على جميع الناس لا خاصة به ﷺ.

٣. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قد كانت الحجتان المذكورتان في الآيات السابقة أخذتا أنموذجا مما يرجوه الإنسان وهو الإطعام وأنموذجا مما يخافه وهو عذاب يوم القيامة، وتمتا بهما البيان، ولم تتعرضا لسائر أنواع الضر وأقسام الخير التي يمس الله سبحانه بهما الإنسان، والكل من الله عز اسمه، فالآية توضح بالتصريح أن هناك من الضر

ما هو غير عذاب يوم القيامة يمس الله سبحانه به الإنسان يجب أن يتوجه إليه تعالى في كشفه، وأن من الخير ما يمس الله به الإنسان ولا راد لفضله ولا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شيء ورجاء الخير يوجب على الإنسان أن يتخذه سبحانه إلها معبودا.

ب. ولما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمس الإنسان بضر أو بخير إنما يقتضي أن يتخذ معبودا، والخصم لا ينكر ذلك، وأما قصر الألوهية والمعبودية فيه تعالى فلا لأن ما اتخذوه من الآلهة هي أسباب متوسطة وشفعاء أقوياء لها تأثيرات في الكون من شر أو خير يوجب على الإنسان أن يتقرب إليها خوفا من شرها أو رجاء لخيرها دفعه بأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده لا يفوقه منهم أحد ولا يعادله فهم أنفسهم تحت قهره، وكذا أفعالهم وآثارهم لا يعملون عملا من خير أو شر إلا بإذنه ومشيته غير مستقلين بأمر البتة ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا غير ذلك، فما يطلع من أفق ذواتهم من أثر خيرا أو شرا ينتهي إلى أمره ومشيته وإذنه يستند إليه على ما يليق بساحة قدسه وعزته من الاستناد.

ج. فالآيتان جميعا تتمان معنى واحدا، وهو أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فمن الله على ما يليق بساحته من الانتساب، فالله سبحانه هو المتوحد بالألوهية، والمتفرد بالمعبودية لا إله غيره، ولا معبود سواه.

د. وقد عبر عن إصابة الضر والخير بالمس الدال على الحقارة في قوله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكَ﴾ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ﴾ ليدل به على أن ما يصيب الإنسان من ضر أو من خير شيء يسير مما تحمله القدرة غير المتناهية التي لا يقوم لها شيء ولا يطيقها ولا يتحملها مخلوق محدود.

هـ. وكأن قوله تعالى في جانب الخير: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وضع موضع نحو من قولنا: فلا مانع يمنعه، ليدل على أنه تعالى قدير على كل خير مفروض كما أنه قدير على كل ضر مفروض، وتنكشف به علة قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لو كشف غيره تعالى شيئا مما مس به من ضر دفع ذلك قدرته عليه، وكذلك قدرته على كل شيء تقتضي أن لا يقوى شيء على دفع ما يمس به من خير، وتخصيص ما يمس به من ضر أو خير بالنبي ﷺ في هذه الآية نظير التخصيص الواقع في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ويفيد قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ من التعميم نظير ما أفاد قوله: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾

٤. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾:

أ. القهر هو نوع من الغلبة، وهو أن يظهر شيء على شيء فيضطره إلى مطاوعة أثر من الغالب يخالف ما للمغلوب من الأثر طبعا أو بنحوه من الافتراض كالماء يظهر على النار فيقهرها على الخمود، والنار تقهر الماء فتبخره أو تجفف رطوبته، وإذ كانت الأسباب الكونية إنما أظهرها الله سبحانه لتكون وسائط في حدوث الحوادث فتضع آثارها في مسبباتها، وهي كائنة ما كانت مضطرة إلى مطاوعة ما يريده الله سبحانه فيها وبها، يصدق عليها عامة أنها مقهورة لله سبحانه فالله قاهر عليها.

ب. فالقاهر من الأسماء التي تصدق عليه تعالى كما تصدق على غيره، غير أن بين قهره تعالى وقهر غيره فرقا، وهو أن غيره تعالى من الأشياء إنما يقهر بعضها بعضا وهما مجتمعان من جهة مرتبة وجودهما ودرجة كونهما بمعنى أن النار تقهر الحطب على الاحتراق والاشتعال، وهما معا موجودان طبيعيان يقتضي أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر لكن النار أقوى في تحميل أثرها على الحطب منه من النار فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه، والله سبحانه قاهر لا كقهر النار الحطب، بل هو قاهر بالتفوق والإحاطة على الإطلاق بمعنى أنا إذا نسبنا إحراق جسم وإشعاله كالحطب مثلا إلى الله سبحانه فهو سبحانه قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به، قاهر عليه بالخواص والكيفيات التي أعطاها له وعبأه بها بيده، قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه وإشعاله، وهو المالك لجميع ما للنار من ذات وأثر، قاهر عليه بقطع عطية المقاومة للحطب، ووضع الاحتراق والاشتعال موضعه فلا مقاومة ولا تعصي ولا جموح ولا شبه ذلك قبال إرادته ومشيته لكونها من أفق أعلى، فهو تعالى قاهر على عباده لكنه فوقهم لا كقهر شيء شيئا وهما متزاملان، وقد صدق القرآن الكريم هذا البحث بنتيجته فذكره اسما له تعالى في موضعين من هذه السورة وهما هذه الآية وآية.

ج. وقيد الاسم في كلا الموضعين بقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ والغالب في المحفوظ من موارد استعمال القهر هو أن يكون المغلوب من أولي العقل بخلاف الغلبة، ولذا فسره الراغب بالتذليل، والذلة في أولي العقل أظهر، ولا يمنع ذلك من صحة صدقه في غير مورد أولي العقل بحسب الاستعمال أو بعناية.

د. والله سبحانه قاهر فوق عباده يمسهم بالضر وبالخير ويذللهم لمطاوعته وقاهر فوق عباده فيما يفعلونه ويؤثرون به من أثر لأنه المالك لما ملكهم والقادر على ما عليه أقدرهم.

٥. ولما نسب في الآيتين إليه المس بالضر والخير، وقد ينسبان إلى غيره، ميز مقامه من مقام غيره بقوله في ذيل الآية: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فهو الحكيم لا يفعل ما يفعل جزافا وجهلا، الخبير لا يخطئ ولا يغلط كغيره.

١٠. شهادة الله ووحي القرآن والبراءة من الشرك:

المقطع [١٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٨»:

١. ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. أمر نبيه أن يسألهم عن أكبر الأشياء من حيث الشهادة، والشهادة هي تحمل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار ونحوه، وأداء ما تحمل كذلك بالإخبار والإنباء، وإذ كان التحمل والأداء، وخاصة التحمل، مما يختلف بحسب إدراك المتحملين وبحسب وضوح الخبر الذي تحمله المتحمل، وبحسب قوة المؤدى بيانا وضعفه اختلافا فاحشا، فليس المتحمل الذي يغلب على مزاجه السهو والنسيان أو الغفلة كالذي يحفظ ما يعيه سمعه ويقع عليه بصره، وليس الصاحي كالسكران ولا الخبير الأخصائي بأمر كالأجنبي الأعزل، وإذا كان الأمر على ذلك فلا يقع ريب في أن الله سبحانه هو أكبر من كل شيء شهادة فإنه هو الذي أوجد كل ما دق وجل من الأشياء، وإليه ينتهي كل أمر وخلق، وهو المحيط بكل شيء ومع كل شيء لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر لا يضل ولا ينسى.

ب. ولكون الأمر بينا لا يقع فيه شك لم يحتج إلى إيراد الجواب في اللفظ بأن يقال: قل الله أكبر شهادة، كما قيل: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ أو يقال: سيقولون الله، كما قيل: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، على أن قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يدل عليه ويسد مسده، وليس من البعيد أن يكون قوله: ﴿شَهِيدٌ﴾ خبرا لمبتدإ محذوف هو الضمير العائد إلى الله، والتقدير: (قل الله هو شهيد بيني وبينكم) فتشتمل الجملة على جواب السؤال وعلى

ما استؤنف من الكلام.

٢. ﴿قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾:

أ. على أنه يشتمل على إخباره ﷺ بشهادة الله تعالى هو بنفسه شهادة لمكان قوله: ﴿قُلْ﴾ إذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوة لا ينفك عن الشهادة بذلك، وعلى هذا فلا حاجة إلى التشبث بأنواع ما وقع في القرآن الكريم من شهادة الله تعالى على نبوته ﷺ وعلى نزول القرآن من عنده كقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] أو قوله: ﴿لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] وغير ذلك من الآيات الدالة على ذلك تصريحا أو تلويحا بلفظ الشهادة أو بغيره.

ب. وتقييد شهادته تعالى بقوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يدل على توسطه تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبي ﷺ وقومه، والنبي لم ينعزل عنهم ولم يتميز منهم في جانب إلا في دعوى النبوة والرسالة ودعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحي قد ذكر بعد في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ فالمراد بشهادته تعالى بينه وبينهم شهادته بنبوته، ويؤيده أيضا قوله في الآية التالية: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ على ما سيجيء إن شاء الله.

٣. ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾:

أ. من مقول القول وهو معطوف على قوله: ﴿اللهُ شَهِيدٌ﴾، وجعل الإنذار غاية لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوة النبوية، وهو الأوقع في أفهام عامة الناس فإن مسلك الرجاء والوعد وإن كان أحد الطريقين في الدعوة، وقد استعمله الكتاب العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لا يبعث إلى طلبه بعثا إلزاميا وإنما يورث شوقا ورغبة بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا.

ب. ولأن دعوة الإسلام إنما هي إلى دين الفطرة، وهو مخزون مكنوز في فطرة الناس وإنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك والمعصية مما يوجب عليهم غلبة الشقوة ونزول السخط الإلهي فالأقرب إلى الحكمة والحزم في دعوتهم أن تبدأ بالإنذار، ولهذا كله ربما حصر شأن النبي ﷺ في الإنذار كما في قوله: ﴿إِنْ أَنْتَ إلا نَذِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وإنما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠]

ج. هذا في عامة الناس وأما الخاصة من عباد الله، وهم الذين يعبدونه حبا له لا خوفا من نار ولا طمعا في جنة فإنهم يتلقون من الدعوة بالخوف والرجاء أمرا آخر فإنهم يتلقون من النار أنها دار بعد وسخط

فيخافونها لذلك، ومن الجنة أنها ساحة قرب ورضوان فيشتاقون إليها لذلك.

د. وظاهر قوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أنه خطاب لمشركي مكة أو لقريش أو للعرب عامة إلا أن التقابل بين ضمير الخطاب وبين من بلغ، والمراد بمن بلغ هو من لم يشافهه النبي ﷺ بالدعوة في زمن حياته أو بعده، يدل على أن المراد بالمخاطبين في قوله: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ هم الذين شافههم النبي ﷺ بالدعوة ممن تقدم دعاؤه على نزول الآية أو قارنه أو تأخر عنه، فقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ يدل على عموم رسالته ﷺ بالقرآن لكل من سمعه منه أو سمعه من غيره إلى يوم القيامة، وإن شئت فقل: تدل الآية على كون القرآن الكريم حجة من الله وكتابا له ينطق بالحق على أهل الدنيا من لدن نزوله إلى يوم القيامة.

هـ. وقد قيل: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ ولم يقل: لأنذركم بقراءته فالقرآن حجة على من سمع لفظه وعرف معناه واهتدى إلى مقاصده، أو فسر له لفظه وقرع سمعه بمضامينه فليس من شرط كتاب مكتوب إلى قوم أن يكون بلسانهم بل أن تقوم عليهم حجته وتشملهم مضامينه، وقد دعا ﷺ بكتابه إلى مصر والحبشة والروم وإيران ولسانهم غير لسان القرآن، وقد كان فيمن آمن به في حياته وقبل إيمانهم سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وعدة من اليهود ولسانهم عبري هذا كله مما لا ريب فيه.

٤. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لما ذكر شهادة الله وهو أكبر شهادة على رسالته ولم يرسل إلا ليدعوهم إلى دين التوحيد، وليس لأحد بعد شهادة الله سبحانه على أن لا شريك له في ألوهيته أن يشهد أن مع الله آلهة أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منكر: هل يشهدون بتعدد الآلهة، وهذا هو الذي يدل عليه تأكيد المسئول عنه بأن واللام، كأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهادة الله تعالى.

ب. ثم أمره أن يخالفهم في الشهادة فينفي عن نفسه الشهادة بما شهدوا به فقال: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي بما شهدتم به بقرينة المقام، ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وهو شهادة على وحدانيته تعالى، والبراءة مما يدعون له من شركاء.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن محمد بن عيسى بن عبيد قال: قال لي أبو الحسن

عليه السلام: ما تقول إذا قيل لك: أخبرني عن الله عز وجل، أشيء أم لا شيء؟ قال: قلت: قد أثبت الله عز وجل نفسه شيئاً، حيث يقول: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وأقول: إنه شيء لا كالأشياء، إذ في نفي الشيئية عنه نفيه وإبطاله، قال لي: صدقت وأحسنت.

ب. قال الرضا عليه السلام: للناس في التوحيد ثلاثة مذاهب: نفي، وتشبيه، وإثبات بغير تشبيه، فمذهب النفي لا يجوز، ومذهب التشبيه لا يجوز، لأن الله تبارك وتعالى لا يشبهه شيء، والسبيل في الطريقة الثالثة: إثبات بلا تشبيه.

• أقول: المراد بمذهب النفي: نفي معاني الصفات عنه تعالى، كما ذهبت إليه المعتزلة، وفي معناه إرجاع الصفات الثبوتية إلى نفي ما يقابلها، كالقول بأن معنى القادر أنه ليس بعاجز، ومعنى العالم أنه ليس بجاهل، إلا أن يرجع إلى ما ذكره عليه السلام من المذهب الثالث.

• والمراد بمذهب التشبيه: أن يشبهه تعالى بغيره، وليس كمثله شيء، أي أن يثبت له من الصفة معناه المحدود الذي فينا، المتميز من غيره من الصفات، بأن يكون قدرته كقدرتنا، وعلمه كعلمنا، وهكذا، ولو كان ما له من الصفة كصفتنا، احتاج كاحتياجنا، فلم يكن واجباً، تعالى عن ذلك.

• والمراد بمذهب الإثبات من غير تشبيه: أن يثبت له من الصفة أصل معناه، وتنفى عنه خصوصيته التي قارنته في الممكنات المخلوقة، أي تثبت الصفة وينفي الحد.

ج. وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩]، وذلك أن مشركي أهل مكة قالوا: يا محمد، ما وجد الله رسولاً أرسله غيرك؟ ما نرى أحداً يصدقك بالذي تقول، ذلك في أول ما دعاهم وهم يومئذ بمكة، قالوا: ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى، فزعموا أنه ليس لك ذكر عندهم، فأتنا بمن يشهد أنك رسول الله، قال رسول الله ﷺ: ﴿اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾

د. وفي تفسير العياشي عن بكير عن محمد عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال: علي عليه السلام ممن بلغ.

• أقول: ظاهره أن ﴿مَن بَلَغَ﴾ معطوف على ضمير ﴿بَيْنَكُمْ﴾، ولقد ورد في بعض الروايات أن المراد بمن بلغ هو الإمام، ولازمه عطف ﴿مَن بَلَغَ﴾ على فاعل ﴿لِأُنذِرَكُمْ﴾ المقدر، وظاهر الآية هو

الأول.

هـ. وفي تفسير البرهان عن ابن بابويه بإسناده عن يحيى بن عمران الحلبي عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال: بكل لسان.

• أقول: قد مر وجه استفادته من الآية.

و. أخرج أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال: أتي رسول الله ﷺ بأسارى، فقال لهم: هل دعيتم إلى الإسلام؟ قالوا: لا، فخلى سبيلهم، ثم قرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ثم قال: خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنهم، من أجل أنهم لم يدعوا.

ز. وفي تفسير القمي: أن عمر بن الخطاب قال لعبد الله بن سلام: هل تعرفون محمداً في كتابكم؟ قال: نعم والله نعرفه بالنعت الذي نعته الله لنا، إذ رأيناه فيكم، كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه مع الغلمان، والذي يحلف به ابن سلام: لأنا بمحمد هذا أشد معرفة مني بابني.

١١. معرفة أهل الكتاب للحق وخسارة من كذّب به:

المقطع [١١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٤١»:

١. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ وهذا إخبار عما شهد به الله سبحانه في الكتب المنزلة على أهل الكتاب، وعلمه علماء أهل الكتاب مما عندهم من كتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنبي ﷺ ووصفه بما لا يعتريه شك ولا يطرأ عليه ريب، فهم بما استحضروا من نعته ﷺ يعرفونه بعينه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]

٢. ولما كان بعض علمائهم يكتمون ما عندهم من بشاراته ونعوته ﷺ ويستنكفون عن الإيمان به بين الله تعالى خسرانهم في أمرهم فقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

٣. تقدم بعض الكلام في تفسير نظيرة الآية من سورة البقرة (آية ١٤٦) وبينا هناك وجه الالتفات من الحضور إلى الغيبة وسيأتي تمام الكلام في سورة الأعراف (آية ١٥٦) إن شاء الله تعالى.

١٢. أشد الناس ظلماً وموقفهم المهين يوم القيامة:

المقطع [١٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢١-٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٤٥»:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾:

أ. الظلم من أشنع الذنوب بل التحليل الدقيق يقضي أن سائر الذنوب إنما هي شنيعة مذمومة بمقدار ما فيها من معنى الظلم، وهو الانحراف والخروج عن الوسط العدل، والظلم كما يكبر ويصغر من جهة خصوصيات من صدر عنه الظلم كذلك يختلف حاله بالكبر والصغر من جهة من وقع عليه الظلم أو أريد إيقاعه عليه فكلما جل موقعه وعظم شأنه كان الظلم أكبر وأعظم، ولا أعز قدرا وأكرم ساحة من الله سبحانه ولا من آياته الدالة عليه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحة المنزهة أو ما ينتسب إليها بوجه، ولا يظلم إلا نفسه.

ب. وقد صدق الله سبحانه هذه النظرة العقلية بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أما افتراء الكذب عليه تعالى فبإثبات الشريك له، ولا شريك له، أو دعوى النبوة أو نسبة حكم إليه كذبا وابتداعا، وأما تكذيب آياته الدالة عليه فكتكذيب النبي الصادق في دعواه المقارنة للآيات الإلهية أو إنكار الدين الحق، ومنه إنكار الصانع أصلا.

٢. والآية تنطبق:

أ. على المشركين، وهم أهل الأوثان الذين إليهم وجه الاحتجاج من جهة أنهم أثبتوا لله سبحانه شركاء بعنوان أنهم شفعاء مصادر أمور في الكون، وإليهم ينتهي تدبير شئون العالم مستقلين بذلك، ومن

جهة أنهم أنكروا آياته تعالى الدالة على النبوة والمعاد.

ب. وربما ألحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعة النبي ﷺ أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من أمته فقضى بكون الاستشفاع بهم في شيء من حوائج الدنيا أو الآخرة شركا تشمله الآية وما يناظرها من الآيات الشريفة، وكأنه خفي عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعة إذا قارنت الإذن في كلامه من غير أن يقيده بدنيا أو آخرة، فقال عز من قائل: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ على أنه تعالى قال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فأثبت الشفاعة حقا للعلماء الشهداء بالحق، والقدر المتيقن منهم الأنبياء ومنهم النبي ﷺ، وقد أثبت الله سبحانه شهادته بقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] ونص على علمه حيث قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] وهل يعقل نزول الكتاب الذي هو تبيان كل شيء على قلب من غير علم به، أو بعثه تعالى إياه شهيدا وليس بشهيد بالحق؟ وقال الله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فأثبت في هذه الأمة شهداء علماء ولا يثبت إلا الحق، وقال تعالى في أهل بيته عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فبين أنهم مطهرون بتطهيره، ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فعدهم العلماء بالقرآن الذي هو تبيان كل شيء والمطهرون هم القدر المتيقن من هذه الأمة في الشهادة بالحق التي لا سبيل للغو والتأثيم إليها.

٣. وضع هنا مبحثا حول [قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)﴾ ودلالته على بطلان طريق الظلم في الدنيا والآخرة]، خلاصته:

أ. بيان معنى الفلاح لغةً واصطلاحاً، وأنه إدراك البغية والظفر بالسعادة، وهو ضربان: دنيوي وأخروي.

ب. إثبات أن الظالم لا يفلح، لأن الظلم ليس بالطريق الموصل إلى البغية والسعادة، بل هو انحراف عن النظام الكوني.

ج. توضيح أن السعادة لا تتحقق إلا باتباع الطريق الخاص الذي وضعه النظام الكوني، والظلم

يفضي إلى عطل الأسباب وفساد النظام.

د. بيان أن الظالم قد يدرك بعض مآربه في الدنيا ظاهرياً، لكنه لا يفلح حقيقة، لأن ما يدركه لا يدوم، وينازعه النظام الذي خالفه.

هـ. إثبات أن الظالم خاسر في الآخرة، لأن ظلمه مسجل في صحيفة عمله، وهو مجزي به عذاباً أشد.

و. الاستدلال بالآيات القرآنية على أن الظالمين يلقون الخزي في الدنيا والعذاب الأكبر في الآخرة.

٤. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآيتين، الظرف متعلق بمقدر والتقدير: واذكر يوم، وقد تعلقت العناية في الكلام بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ للدلالة على أن العلم والقدرة لا يتخلفان عن أحد منهم، فالله سبحانه محيط بجميعهم علما وقدرة سيحصيهم ويحشرهم ولا يغادر منهم أحدا.

٥. والجملة في مقام بيان قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ كأنه لما قيل: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ سئل فقيل: وكيف ذلك؟ فقيل: لأن الله سيحشرهم ويسألهم عن شركائهم فيضلون عنهم ويفقدونهم فينكرون شركهم ويقسمون لذلك بالله كذبا، ولو أفلح هؤلاء الظالمون في اتخاذهم لله شركاء لم يضل عنهم شركاؤهم، ولم يكذبوا على أنفسهم بل وجدوهم على ما ادعوا من الشركة والشفاعة ونالوا شفاعتهم.

٦. ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾:

أ. قيل: المراد بالفتنة الجواب أي لم يكن جوابهم إلا أن أقسموا بالله على أنهم ما كانوا مشركين.

ب. وقيل: الكلام على تقدير مضاف والمراد: لم تكن عاقبة افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا.

ج. وقيل: المراد بالفتنة المعذرة، ولكل من الوجوه وجه.

٧. ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بيان لمحل الاستشهاد فيما قص من حالهم يوم القيامة، والمراد أنهم سيكذبون على أنفسهم ويفقدون ما افتروا به، ولو أفلحوا في ظلمهم وسعدوا فيما طلبوا لم ينجر أمرهم إلى فقد ذلك وإنكاره على أنفسهم:

أ. أما كذبهم على أنفسهم فلأنهم لما أقسموا بالله أنهم ما كانوا مشركين أنكروا ما ادعوه في الدنيا من أن لله سبحانه شركاء، وهم كانوا يصرون عليه ويعرضون فيه عن كل حجة واضحة وآية بينة ظلما وعتوا، وهذا كذب منهم على أنفسهم.

ب. وأما ضلال ما كانوا يفترونه عنهم فلأن اليوم يوم ينجلي فيه عيانا أن الأمر والملك والقوة لله جميعا ليس لغيره من شيء إلا ذلة العبودية، والفقر والحاجة من غير أي استقلال قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾ [الانفطار: ١٩]

٨. فيشاهدون عندئذ مشاهدة عيان أن الألوهية لله وحده لا شريك له، ويظهر لهم أوثانهم وشركاؤهم وهم لا يملكون ضرا ولا نفعا لأنفسهم ولا لغيرهم، ووجدوا الأوصاف التي أثبتوها لهم من الربوبية والشفاعة وغيرهما إنما هي لله وحده، وقد كان اشتبه عليهم الأمر فتوهموها لغيره وضل عنهم ما كانوا يفترون، فإن استمدوا منهم ردوا عليهم ردا لا مطمع معه بعد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [الفاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠]

٩. وبالتدبير في هذه الآيات يظهر أن المراد بضلال ما افتروا به هو ظهور حقيقة شركائهم فاقدة لوصف الشركة والشفاعة وتبينهم أن ما ظهر لهم من ذلك في الدنيا لم يكن إلا ظهورا سرابيا كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]

١٠. سؤال وإشكال: إن الآيات المتعرضة لوصف يوم القيامة، كما تقدم، ظاهرة في بروز الحقائق وخروجها عن مكمن الخفاء والالتباس الذي هو من لوازم النشأة الأولى الدنيوية كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦] فأي نفع حينئذ لكذبهم؟ وكيف يكذبون وما أخبروا به

من الكذب مشهود خلافه عيانا؟ وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، والجواب: كذبهم وحلفهم على الكذب يوم القيامة مما وقع في كلامه تعالى غير مرة، ومثل الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨] وليس كذبهم وحلفهم عليه للتوصل به إلى الأغراض الفاسدة وستر الحق كما يتوصل إليها بالكذب في الدنيا فإن الآخرة دار جزاء لا دار عمل واكتساب، لكنهم لكونهم اعتادوا أن يتفصوا من المخاطرات والمهالك ويجلبوا المنافع إليهم بالأيمان الكاذبة والأخبار المزورة خدعة وغرورا رسخت في نفوسهم ملكة الكذب، والملكة إذا رسخت في النفس اضطرت النفس إلى إجابتها إلى ما تدعو إليه، وذلك كما أن البذي الفحاش إذا استقرت في نفسه ملكة السب لا يقدر على الكف عنه وإن عزم عليه والمستكبر اللجوج العنود لا يملك من نفسه أن يتواضع، وإن خضع في موقف المهلكة والذلة أحيانا فإنما يخضع ظاهرا وبلسانه، وأما باطنا وفي قلبه فهو على حاله لم يتغير ولن يتغير البتة، وهذا هو السر في كذبهم يوم القيامة لأنه يوم تبلى فيه السرائر والسريرة المعقودة على الكذب ليس فيها إلا الكذب فيظهر ما استقر فيه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢] ونظيره التخاصم الدائر بين أهل الدنيا فإنه يظهر بعينه يوم القيامة بينهم، وقد قص الله سبحانه ذلك في مواضع كثيرة من كلامه، وأجمله في قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤] هذا في أهل العذاب وأما أهل المغفرة والجنة فيظهر منهم هناك ما كان في نفوسهم هاهنا من الصفا والسلامة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦] فافهم ذلك.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله يعفو يوم القيامة عفواً لا يخطر على بال أحد، حتى يقول أهل الشرك: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]

ب. وفي المجمع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا﴾ [الأنعام: ٢٣] الآية: أن المراد: لم تكن معذرتهم إلا أن قالوا، إلخ، قال: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

١٣. موانع القلب والأذن عن قبول الحق والجدال العقيم:

المقطع [١٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا

عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٥٢»:

١. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ إلى آخر الآية، الأكنة جمع كن بكسر الكاف وهو الغطاء الذي يكن فيه الشيء ويغطى، والوقر هو الثقل في السمع، والأساطير جمع أسطورة بمعنى الكذب والمين على ما نقل عن المبرد، وكان أصله السطر وهو الصف من الكتابة أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع ونظم ورتب من الأخبار الكاذبة.

٢. وكان ظاهر السياق أن يقال: يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، ولعل الإظهار للإشعار بالسبب في هذا الرمي وهو الكفر.

١٤. نهي الناس عن الحق ونأيهم عنه وإهلاكهم أنفسهم:

المقطع [١٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٥٣»:

١. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ينهون عنه أي عن اتباعه، والنأي الابتعاد.

٢. والقصر في قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهي عنه والنأي عنه إهلاك له وإبطال للدعوة الإلهية، ويأبى الله إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لا يشعرون.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] الآية، قال: بنو هاشم كانوا ينصرون رسول الله ﷺ ويمنعون قريشاً، وينأون أي يباعدون عنه ولا يؤمنون.

• أقول: والرواية تقرب مما روي عن عطاء ومقاتل أن المراد أبو طالب عم النبي ﷺ، فإنه كان ينهى قريشاً عن النبي، وينأى عن النبي ولا يؤمن به.

• والسياق يأبى ذلك، فإن ظاهر الآية أن الضمير راجع إلى القرآن دون النبي ﷺ، على أن الروايات من طرق أهل البيت عليهم السلام متظافرة بإيمانه.

ب. قال في المجمع: قد ثبت إجماع أهل البيت عليهم السلام بإيمان أبي طالب، وإجماعهم حجة، لأنهم أحد الثقلين الذين أمر النبي ﷺ بالتمسك بهما بقوله: (ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا)

ج. ويدل على ذلك أيضاً ما رواه ابن عمر: أن أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ، فقال: ألا تركت الشيخ فآتيه؟ وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى، والذي بعثك بالحق، لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي، ألتمس بذلك قرة عينك، فقال ﷺ: صدقت.

د. وروى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي ﷺ، اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالاً وجوداً وشهامة، عمارة بن الوليد، ندفعه إليك، وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا، وسفه أحلامنا، فنقتله، فقال أبو طالب: ما أنصفتموني، تعطونني ابنكم فأغذوه، وأعطيكم ابني فتقتلونه، بل فليأت كل امرئ منكم بولده فأقتله، وقال:

منعنا الرسول رسول المليك... ببيض تلألأ كلمع البروق

أذود وأحمي رسول المليك... حماية حام عليه شفيق

وأقواله وأشعاره المنبئة عن إسلامه كثيرة مشهورة لا تحصى، فمن ذلك قوله:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً... نبياً كموسى خط في أول الكتب

أليس أبونا هاشم شد أزره... وأوصى بنيه بالطعان وبالحرب

وقوله من قصيدة:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ... خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم... بحق ولم يأتهم بالكذب

وقوله في حديث الصحيفة وهو من معجزات النبي ﷺ:

وقد كان في أمر الصحيفة عبرة... متى ما يخبر غائب القوم يعجب

محا الله منها كفرهم وعقوقهم... وما نقموا من ناطق الحق معرب

وأمسى ابن عبد الله فينا مصدقاً... على سخط من قومنا غير معتب

وقوله في قصيدة يحض أخاه حمزة على اتباع النبي والصبر في طاعته:

صبرا أبا يعلى على دين أحمد... وكن مظهراً للدين وفقت صابراً

فقد سرني إذ قلت إنك مؤمن... فكن لرسول الله في الله ناصرا

وقوله من قصيدة:

أقيم على نصر النبي محمد... أقاتل عنه بالقنا والقنابل

وقوله يحض النجاشي على نصر النبي ﷺ:

تعلم مليك الحبش أن محمداً... وزير لموسى والمسيح بن مريم

أتى بهدى مثل الذي أتيا به... وكل بأمر الله يهدي ويعصم

وإنكم تتلونه في كتابكم... بصدق حديث لا حديث المرجم

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا... وإن طريق الحق ليس بمظلم

وقوله في وصيته وقد حضرته الوفاة:

أوصي بنصر النبي الخير مشهده... علياً ابني وشيخ القوم عباساً

وحمزة الأسد الحامي حقيقته... وجعفراً أن يذودوا دونه الناسا

كونوا فدى لكم أمي وما ولدت... في نصر أحمد دون الناس أتراسا

وأمثال هذه الأبيات مما هو موجود في قصائده المشهورة ووصاياه وخطبه، يطول بها الكتاب.

• والعمدة في مستند من قال بعدم إسلامه بعض روايات واردة من طريق الجمهور في ذلك، وفي الجانب الآخر إجماع أهل البيت عليهم السلام، وبعض الروايات من طريق الجمهور، وأشعاره المنقولة عنه، ولكل امرئ ما اختار.

١٥. حسرة الكفار وتمنيهم الرجوع عند معاينة النار:

المقطع [١٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ـ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٥٣»:

١. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ إلى آخر الآيتين، بيان لعاقبة جحودهم وإصرارهم على الكفر والإعراض عن آيات الله تعالى.

٢. ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، على قراءة النصب في ﴿نُكَذِّبُ﴾ و﴿نكُونَ﴾ تمن منهم للرجوع إلى الدنيا والانسلاك في سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامة، وهذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك بالله وحلفهم بالله على ذلك كذبا من باب ظهور ملكاتهم النفسانية يوم القيامة فإنهم قد اعتادوا التمني فيما لا سبيل لهم إلى حيازته من الخيرات والمنافع الفائتة عنهم، وخاصة إذا كان فوتها مستندا إلى سوء اختيارهم وقصور تدبيرهم في العمل، ونظيره أيضا ما سيجيء من تحسرهم على ما فرطوا في أمر الساعة، على أن التمني يصح في المحالات المتعذرة كما يصح في الممكنات المتعسرة كتمني رجوع الأيام الخالية وغير ذلك قال الشاعر:

ليت وهل ينفع شيئا ليت...ليت الشباب بوع فاشتريت

٣. ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعني ضمائر ﴿لَهُمْ﴾ و﴿كَانُوا﴾ و﴿يَخْفَوْنَ﴾ واحد وهو المشركون السابق ذكرهم، وأن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفسهم يخفونه في الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنوا الرد إلى الدنيا، والإيمان بآيات الله، والدخول في جماعة المؤمنين.

ب. ولم يبد لهم إلا النار التي وقفوا عليها يوم القيامة فقد كانوا أخفوها في الدنيا بالكفر والستر للحق والتغطية عليه بعد ظهوره لهم كما يشير إليه نحو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وأما نفس الحق الذي كفروا به في الدنيا مع ظهوره لهم فهو كان بادئا لهم من قبل والسياق يأبى أن يكون مجرد ظهور الحق لهم مع الغض عن ظهور النار وهول يوم القيامة باعثا لهم على هذا التمني، ويشعر بذلك بعض ما في نظير المقام من كلامه تعالى كقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨]

٤. وقد ذكروا في الآية أعني قوله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ وجوها كثيرة أنهاها في

المنار إلى تسعة أوجه هي:

أ. الأول أنه أعمالهم السيئة وقبائحهم الشائنة ظهرت لهم في صحائفهم، وشهدت بها عليهم جوارحهم.

ب. الثاني: أنه أعمالهم التي كانوا يفترون بها ويظنون أن سعادتهم فيها إذ يجعلها الله تعالى هباء منثورا.

ج. الثالث: أنه كفرهم وتكذيبهم الذي أخفوه في الآخرة من قبل أن يوقفوا على النار كما تقدم حكايته عنهم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَاللهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾

د. الرابع: أنه الحق أو الإيمان الذي كانوا يسرونه ويخفونه بإظهار الكفر والتكذيب عنادا للرسول واستكبارا عن الحق، وهذا إنما ينطبق على أشد الناس كفرا من المعاندين المتكبرين الذين قال في بعضهم: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا﴾

هـ. الخامس: أنه ما كان يخفيه الرؤساء عن أتباعهم من الحق الذي جاءت به الرسل بدا للأتباع الذين كانوا مقلدين لهم، ومنه كتمان بعض أهل الكتاب لرسالة نبينا ﷺ وصفاته وبشارة أنبيائهم به.

و. السادس: أنه ما كان يخفيه المنافقون في الدنيا من أسرار الكفر وإظهار الإيمان والإسلام.

ز. السابع: أنه البعث والجزاء ومنه عذاب جهنم، وأن إخفاءهم له عبارة عن تكذيبهم به، وهو المعنى الأصلي لمادة الكفر.

ح. الثامن: أن في الكلام مضافا محذوفا أي بدا لهم وبال ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتبرموا وتضجروا وتمنوا التفصي منه بالرد إلى الدنيا، وترك ما أفضي إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان كما يتمنى الموت من أمضه الداء العضال لأنه ينقذه من الآلام لا لأنه محبوب في نفسه.

ط. ونحن لا نرى رجحان قول من هذه الأقوال بل الصواب عندنا قول آخر، وهو: التاسع: أنه يظهر يومئذ لكل من أولئك الذين ورد الكلام فيهم ولأشباههم من الكفار ما كان يخفيه في الدنيا ما هو قبيح في نظره أو نظر من يخفيه عنهم.

٥. ثم عمم في المنار الكلام لرؤساء الكفار وأتباعهم المقلدة وللمنافقين والفساق ممن يقترف الفواحش ويخفيها عن الناس أو يترك الواجبات ويعتذر بأعذار كاذبة ويخفي حقيقة الحال في كلام طويل،

وبالرجوع إلى ما قدمناه من الوجه والتأمل فيه يظهر ما في كل واحد من هذه الأقوال من وجوه الخلل فلا نطيل.

٦. ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ تذكير لفعل ما تقرر في نفوسهم من الملكات الرذيلة في نشأة الدنيا فإن الذي بعثهم إلى تمني الرجوع إلى الدنيا والإيمان فيها بآيات الله والدخول في جماعة المؤمنين إنما هو ظهور الحق المتروك بجميع ما يستتبعه من العذاب يوم القيامة، وهو من مقتضيات نشأة الآخرة المستلزمة لظهور الحقائق الغيبية ظهور عيان، ولو عادوا إلى الدنيا لزمهم حكم النشأة، وأسدلت عليهم حجب الغيب، ورجعوا إلى اختيارهم، ومعه هوى النفس ووسوسة الشيطان وقرائح العباد والاستكبار والطغيان فعادوا إلى سابق شركهم وعنادهم مع الحق فإن الذي دعاهم وهم في الدنيا إلى مخالفة الحق والتكذيب بآيات الله تعالى هو على حاله مع فرض ردهم إلى الدنيا بعد البعث، فحكمه حكمه من غير فرق.

٧. ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أي في قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾، والتمني وإن كان إنشاء لا يقع فيه الصدق والكذب إلا أنهم لما قالوا: ﴿نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾ أي ردنا الله إلى الدنيا ولو ردنا لم نكذب، ولم يقولوا: نعود ولا نكذب، كان كلامهم مضمنا للمسألة والوعد أعني مسألة الرد ووعد الإيمان والعمل الصالح كما صرح بذلك في قوله: {وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الفاطر: ٣٧]

٨. وبالجملة قولهم: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ﴾، في معنى قولهم ربنا ردنا إلى الدنيا لا نكذب بآياتك ونكن من المؤمنين، وبهذا الاعتبار يحتمل الصدق والكذب، ويصح عدهم كاذبين، وربما وجه نسبة الكذب إليهم في تمنيهم بأن المراد كذب الأمل والتمني وهو عدم تحققه خارجا كما يقال: كذبك أملك، لمن تمنى ما لا يدرك، وربما قيل: إن المراد كذبهم في سائر ما يخبرون به عن أنفسهم من إصابة الواقع واعتقاد الحق، هو كما ترى.

٩. ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيتين، ذكر لإنكارهم الصريح للحشر وما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد وأخذ الاعتراف بما أنكروه.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، إنهم ملعونون في الأصل.

ب. وفيه عن عثمان بن عيسى عن بعض أصحابه عنه عليه السلام قال: إن الله قال للماء: كن عذباً فراتاً، أخلق منك جنتي وأهل طاعتي، وقال للماء: كن ملحاً أجاجاً، أخلق منك ناري وأهل معصيتي، فأجرى المائين على الطين، ثم قبض قبضة بيده وهي يمين، فخلقهم خلقاً كالذر، ثم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم وعليكم طاعتي؟ قالوا: بلى، فقال للنار: كوني ناراً، فإذا ناراً تأجج، وقال لهم: قعوا فيها، فمنهم من أسرع، ومنهم من أبطأ في السعي، ومنهم من لم يبرح مجلسه، فلما وجدوا حرها رجعوا، فلم يدخلها منهم أحد، ثم قبض قبضة بيده، فخلقهم خلقاً مثل الذر مثل أولئك، ثم أشهدهم على أنفسهم مثل ما أشهد الآخرين، ثم قال لهم: قعوا في هذه النار، فمنهم من أبطأ، ومنهم من أسرع، ومنهم من مر بطرف العين، فوقعوا فيها كلها، فقال: اخرجوا منها سالمين، فخرجوا لم يصبهم شيء، وقال الآخرون: يا ربنا، أقلنا نفعل كما فعلوا، قال: قد أقلتكم، فمنهم من أسرع في السعي، ومنهم من لم يبرح مجلسه، مثل ما صنعوا في المرة الأولى، فذلك قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]

• أقول: هذه الرواية والتي قبلها من روايات الذر، وسيجيء استيفاء البحث عنها في سورة الأعراف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

• ومحصلها أنه كما أن لنظام الثواب والعقاب في الآخرة ارتباطاً تاماً بنشأة أخرى قبلها وهي نشأة الدنيا من حيث الطاعة والمعصية، كذلك للطاعة والمعصية في الدنيا ارتباط تام بنشأة أخرى قبلها رتبة، وهي عالم الذر.

• فالمراد بقوله في الرواية: فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾ إلخ، أن معنى الآية: ولو ردوا من عرصات الحشر إلى الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون من عالم الذر، إذ كذبوا الله فيه، وهذا هو المراد بعينه بقوله عليه السلام في الرواية الأولى: (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، إنهم ملعونون في الأصل) أي في عالم الذر لكذبهم فيه.

• وعلى هذا، فالروايتان تشتملان على وجه رابع في تفسير الآية غير الوجوه الثلاثة المتقدمة في البيان السابق.

١٦ . خسارة المكذبين بلقاء الله وعذابهم وحقيقة الحياة الدنيا:

المقطع [١٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠-٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٥٦»:

١ . {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}، ذكر لإنكارهم الصريح للحشر وما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد وأخذ الاعتراف بما أنكروه، والوثنية كانت تنكر المعاد كما حكى الله عنهم ذلك في كلامه غير مرة، وقولهم بشفاعة الشركاء إنما كان في الأمور الدنيوية من جلب المنافع إليهم ودفع المضار والمخاوف عنهم، فقوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ﴾ حكاية لإنكارهم أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا لا حياة بعدها، وما نحن بمبعوثين بعد المات، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ كالجواب وهو بيان ما يستتبعه قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا﴾، للنبي ﷺ في صورة التمني لمكان قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ وهو أنهم سيصدقون بما جحدوه، ويعترفون بما أنكروه بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ إذ يوقفون على ربهم فيشاهدون عيانا هذا الموقف الذي أخبروا به في الدنيا، وهو أنهم مبعوثون بعد الموت فيعترفون بذلك بعد ما أنكروه في الدنيا.

٢ . ومن هنا يظهر أن الله سبحانه فسر البعث في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ بلقاء الله، ويؤيده أيضا قوله في الآية التالية: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾، حيث بدل الحشر والبعث والقيامة المذكورات في سابق الكلام لقاء ثم ذكر الساعة أي ساعة اللقاء.

٣ . ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ أي أليس البعث الذي أنكرتموه في الدنيا وهو لقاء الله ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ به وتسترونه.

٤ . ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، قال في المجمع: (كل شيء أتى فجأة فقد بغت

يقال: بغته الأمر يبغته بغتة)، وقال الراغب في المفردات: (الحسر كشف الملبس عما عليه يقال: حسرت عن الذراع، والحاسر من لا درع عليه ولا مغفر، والمحسرة المكنسة، إلى أن قال، والحاسر المعيا لانكشاف قواه، إلى أن قال، والحسرة الغم على ما فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه أو انحسر قواه من فرط غم أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه)، وقال: (الوزر (بفتحتين) الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل، قال: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ والوزر (بالكسر فالسكون) الثقل تشبيها بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل، قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ الآية كقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾)

٥. والآية تبين تبعة أخرى من تبعات إنكارهم البعث وهو أن الساعة سيفاجئهم فينادون بالحسرة على تفريطهم فيها ويتمثل لهم أوزارهم وذنوبهم وهم يحملونها على ظهورهم وهو أشق أحوال الإنسان وأردؤها ألا ساء ما يزرون ويحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

٦. والآية أعني قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بمنزلة النتيجة المأخوذة من قوله: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إلى آخر الآيتين، وهي أنهم بتعويضهم راحة الآخرة وروح لقاء الله من إنكار البعث وما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفقة.

٧. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، تتمة للكلام فيه بيان حال الحياتين: الدنيا والآخرة والمقايسة بينهما فالحياة الدنيا لعب ولهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسلة من العقائد الاعتبارية والمقاصد الوهمية كما يدور عليه اللعب فهي لعب، ثم هي شاغلة للإنسان عما يهمه من الحياة الأخرى الحقيقية الدائمة فهي لهو، والحياة الآخرة لكونها حقيقية ثابتة فهي خير ولا ينالها إلا المتقون فهي خير لهم.

٨. أحاديث وآثار: في المجمع عن الأعمش عن أبي صالح عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١] الآية، قال: يرى أهل النار منازلهم من الجنة، فيقولون: يا حسرتنا.

١٧. العناد والتكذيب ونصر الله لرسله:

المقطع [١٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا

وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ـ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٦٢»:

١. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ (قد) حرف تحقيق في الماضي، وتفيد في المضارع التقليل وربما استعملت فيه أيضا للتحقيق، وهو المراد في الآية، وحزنه كذا وأحزنه بمعنى واحد، وقد قرئ بكلا الوجهين.

٢. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ قرئ بالتشديد من باب التفعيل، وبالتخفيف، والظاهر أن الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ للتفريع وكأن المعنى قد نعلم أن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لأنك لا تدعو إلا إلينا وليس لك فيه إلا الرسالة بل هم يظلمون بذلك آياتنا ويجحدونها:

أ. فما في هذه الآية مع قوله في آخر الآيات: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]، وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦] وغير ذلك من الآيات النازلة في تسليته ﷺ، هذا على قراءة التشديد.

ب. وأما على قراءة التخفيف فالمعنى: لا تحزن فإنهم لا يظهرون عليك بإثبات كذبك فيما تدعو إليه، ولا يبطلون حجتك بحجة وإنما يظلمون آيات الله بجحدها وإليه مرجعهم.

٣. ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾:

أ. كان ظاهر السياق أن يقال: ولكنهم، فالعدول إلى الظاهر للدلالة على أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور وجهل وغير ذلك فليس إلا عتوا وبغيا وطغيانا وسيبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

ب. ولذلك وقع الالتفات في الكلام من التكلم إلى الغيبة فقيل: ﴿بِآيَاتِ اللهِ﴾ ولم يقل: بآياتنا، للدلالة على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الألوهية واستعلاء عليه وهو المقام الذي لا يقوم له شيء.

٤. وقد قيل في تفسير معنى الآية وجوه أخرى:

أ. أحدها: ما عن الأكثر أن المعنى: لا يكذبونك بقلوبهم اعتقادا، وإنما يظهرون التكذيب بأفواههم عنادا.

ب. ثانيها: أنهم لا يكذبونك وإنما يكذبونني فإن تكذيبك راجع إلي ولست مختصا به، وهذا الوجه غير ما قدمناه من الوجه وإن كان قريبا منه، والوجهان جميعا على قراءة التشديد.

ج. ثالثها: أنهم لا يصادفونك كاذبا تقول العرب: قاتلناهم فما أجبناهم أي ما صادفناهم جبناء، والوجه ما تقدم.

٥. ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا﴾ هداية له ﷺ إلى سبيل من تقدمه من الأنبياء، وهو سبيل الصبر في ذات الله، وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]

٦. ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بيان غاية حسنة لصبرهم، وإشارة إلى الوعد الإلهي بالنصر.

٧. في قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾:

أ. تأكيد لما يشير إليه الكلام السابق من الوعد وحتم له، وإشارة إلى ما ذكره بقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]

ب. ووقوع المبدل في قوله: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ في سياق النفي ينفي أي مبدل مفروض سواء كان من ناحيته تعالى بأن يتبدل مشيته في خصوص كلمة بأن يمحوها بعد إثباتها أو ينقضها بعد إبرامها أو كان من ناحية غيره تعالى بأن يظهر عليه ويقهره على خلاف ما شاء فيبدل ما أحكم ويغيره بوجه من الوجوه.

ج. ومن هنا يظهر أن هذه الكلمات التي أنبأ سبحانه عن كونها لا تقبل التبديل أمور خارجة عن لوح المحو والإثبات، فكلمة الله وقوله وكذا وعده في عرف القرآن هو القضاء الحتم الذي لا مطمع في تغييره وتبديله، قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾ [يونس: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ اللهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠] وقد مر البحث المستوفى في معنى كلمات الله تعالى وما يرادفها من الألفاظ في عرف القرآن في ذيل قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]

٨. وقوله في ذيل الآية: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ تثبيت واستشهاد لقوله: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ

رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، ويمكن أن يستفاد منه أن هذه السورة نزلت بعد بعض السور المكية التي تقص قصص الأنبياء كسورة الشعراء ومريم وأمثالها، وهذه السور نزلت بعد أمثال سورة العلق والمدثر قطعا فتقع سورة الأنعام على هذا في الطبقة الثالثة من السور النازلة بمكة قبل الهجرة.

١٨. استحالة الإيمان مع الإعراض ومشيئة الله في الهداية:

المقطع [١٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٥-٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٦٥»:

١. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾:

أ. قال الراغب: (النفق الطريق النافذ والسرب في الأرض النافذ فيه قال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، ومنه نافقاء اليربوع، وقد نافق اليربوع ونفق، ومنه النفاق وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرا من الكافرين فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾، ونيفق السراويل معروف)

ب. وقال: (السلم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾، وقال: ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾، وقال الشاعر: ولو نال أسباب السماء بسلم)

ج. وجواب الشرط في الآية محذوف للعلم به، والتقدير كما قيل: وإن استطعت أن تبتغي كذا وكذا فافعل.

٢. المراد بالآية في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾:

أ. الآية التي تضطرهم إلى الإيمان فإن الخطاب عنى قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾، إنما ألقي إلى النبي ﷺ من طريق القرآن الذي هو أفضل آية إلهية تدل على حقية دعوته، ويقرب إعجازه من

فهمهم وهم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا ينبغي أن يكبر ويشق عليك إعراضهم فإن الدار دار الاختيار، والدعوة إلى الحق وقبولها جاريان على مجرى الاختيار، وأنك لا تقدر على الحصول على آية توجب عليهم الإيمان وتلزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آية تجبر الناس على الإيمان والطاعة، ولو شاء الله لآمن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس ولا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهية.

ب. أما ما احتمله بعضهم: أن المراد: فتأتيهم بآية هي أفضل من الآية التي أرسلناك بها أي القرآن فلا تلائمه سياق الآية وخاصة قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ فإنه ظاهر في الاضطرار.

٣. ومن هنا يظهر أن المراد بالمشية أن يشاء الله منهم الاهتداء إلى الإيمان فيضطروا إلى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآية الشريفة:

أ. لكنه سبحانه فيما يشابه الآية من كلامه لم يبين عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] يشير تعالى بذلك إلى نحو قوله: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: [ص: ٨٥] فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعا إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين.

ب. وقد أسند القضاء في موضع آخر إلى غوايتهم قال تعالى في قصة آدم وإبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣] وقد نسب ذلك إليهم إبليس أيضا فيما حكى الله سبحانه من كلامه لهم يوم القيامة: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾، إلى أن قال ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

ج. فالآيات تبين أن المعاصي ومنها الشرك تنتهي إلى غواية الإنسان والغواية تنتهي إلى نفس الإنسان، ولا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء الله منه المشية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال

تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ﴾ ﴿شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]

د. فمشية الإنسان في تحققها وإن توقفت على مشية الله سبحانه إلا أن الله سبحانه لا يشاء منه المشية إلا إذا استعد لذلك بحسن سريرته، وتعرض منه لرحمته، قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧] أي انعطف ورجع إليه، وأما الفاسق الزائغ قلبه المخلد إلى الأرض المائل إلى الغواية فإن الله لا يشاء هدايته ولا يغشاه برحمته كما قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]

هـ. وبالجملة فالدعوة الدينية لا تسلك إلا سبيل الاختيار، والآيات الإلهية لا تنزل إلا مع مراعاة الاختيار، ولا يهدي الله سبحانه إليه إلا من تعرض لرحمته واستعد لهدايته من طريق الاختيار.

و. سؤال وإشكال: وبهذا تنحل شبهة أخرى لا تخلو عن إعضال، وهي أنا سلمنا أن إنزاله تعالى آية تجبرهم على الإيمان وتضطرهم إلى قبول الدعوة الدينية ينافي أساس الاختيار الذي تبتني عليه بنية الدعوة الدينية لكن لم لا يجوز أن يشاء الله إيمان الناس جميعا على حد مشيته إيمان من آمن منهم بأن يشاء من الجميع أن يشاءوا كما شاء من المؤمنين خاصة أن يشاءوا ثم ينزل آية تسوقهم إلى الهدى، وتلبسهم الإيمان من غير أن يبطل بذلك اختيارهم وحريتهم في العمل، والجواب: ذلك أنه وإن أمكن ذلك بالنظر إلى نفسه لكنه ينافي الناموس العام في عالم الأسباب، ونظام الاستعداد والإفاضة فالهدى إنما يفاض على من اتقى الله وزكى نفسه وقد أفلح من زكاها ولا يصيب الضلال إلا من أعرض من ذكر ربه ودس نفسه وقد خاب من دساها، وأصابه الضلال هو أن يمنع الإنسان الهدى قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠] أي ممنوعا فالله سبحانه يمد كل نفس من عطائه بما يستحقه فإن أراد الخير أوتيه وإن أراد الشر أوتيه أي منع من الخير، ولو شاء الله لكل نفس صالحة أو طالحة أن تشاء الخير وتنكب على الإيمان والتقوى من طريق الاختيار كان في ذلك إبطال النظام العام وإفساد أمر الأسباب، وتؤيد ما ذكر

الآية التالية أعني قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إلى آخر الآية على ما سيجيء من معناها.

٤. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ الآية كالبيان لقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ إلى آخر الآية فإن ملخصه أنك لا تستطيع صرفهم عن هذا الإعراض، والحصول على آية تسوقهم إلى الإيمان فبين في هذه الآية أنهم بمنزلة الموتى لا شعور لهم ولا سمع حتى يشعروا بمعنى الدعوة الدينية ويسمعوا دعوة الداعي وهو النبي ﷺ، فهذه الهياكل المتراءات من الناس صنفان: صنف منهم أحياء يسمعون، وإنما يستجيب الذين يسمعون، وصنف منهم أموات لا يسمعون وإن كانوا ظاهرا في صور الأحياء وهؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم الله، وسوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سمعه في الدنيا كما حكاه الله عنهم بقوله: {وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكسورؤوسهم عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ}: [السجدة: ١٢] فالكلام مسوق سوق الكناية، والمراد بالذين يسمعون المؤمنون وبالموتى المعرضون عن استجابة الدعوة من المشركين وغيرهم، وقد تكرر في كلامه تعالى وصف المؤمنين بالحياة والسمع، ووصف الكفار بالموت والصمم كما قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وقد تكرر في بعض الأبحاث السابقة معنى آخر لهذه الأوصاف التي حملها الجمهور من المفسرين على الكناية والتشبيه، وأن لها معنى من الحقيقة فليراجع.

٥. وفي الآية دلالة على أن الكفار والمشركين سيفهمهم الله الحق ويسمعهم دعوته في الآخرة كما فهم المؤمنين وأسمعهم في الدنيا، فالإنسان مؤمنا كان أو كافرا لا مناص له عن فهم الحق عاجلا أو آجلا.

٦. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ﴾:

أ. تحضيض منهم على تنزيل الآية بداعي تعجيز النبي ﷺ، ولما صدر هذا القول منهم وبين أيديهم أفضل الآيات أعني القرآن الكريم الذي كان ينزل عليهم سورة سورة وآية آية، ويتلى عليهم حينا بعد حين تعين أن الآية التي كانوا يقترحونها بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ هي آية غير القرآن، وأنهم كانوا لا يعدونه آية تقنعهم وترتضيه نفوسهم بما لها من المجازفات والتهوسات.

ب. وقد حملهم التعصب لآلهتهم أن ينقطعوا عن الله سبحانه كأنه ليس بربهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولم يقولوا: من ربنا أو من الله ونحوهما إزراء بأمره وتأكيدا في تعجيزه أي لو كان ما يدعيه ويدعو إليه حقا فليغر له ربه الذي يدعو إليه ولينصره ولينزل عليه آية تدل على حقية دعواه.

٧. والذي بعثهم إلى هذا الاقتراح جهلهم بأمرين:

أ. أحدهما: أن الوثنية يرون لآلهتهم استقلالا في الأمور المرجوعة إليهم في الكون مع ما يدعون لهم من مقام الشفاعة فإله الحرب أو السلم له ما يدبره من الأمر من غير أن يختل تدبيره من ناحية غيره، وكذلك إله البر وإله البحر وإله الحب وإله البغض وسائر الآلهة، فلا يبقى لله سبحانه شأن يتصرف فيه فقد قسم الأمر بين أعضاده وإن كان هؤلاء شفعاءه وهو رب الأرباب، فليس يسعه تعالى أن يبطل أمر آلهتهم بإنزال آية تدل على نفي ألوهيتها، وكان يحضهم على هذه المزعمة ويؤيد هذا الاعتقاد في قلوبهم ما كانوا يتلقونه من يهود الحجاز أن يد الله مغلولة لا سبيل له إلى تغيير شيء من النظام الجاري، وخرق العادة المألوفة في عالم الأسباب.

ب. ثانيهما: أن الآيات النازلة من عند الله سبحانه إذا كانت مما خص الله به رسولا من رسله من غير أن يقترحه الناس فإنما هي بينات تدل على صحة دعوى الرسول من غير أن يستتبع محذورا للناس المدعوين كالعصا واليد البيضاء لموسى وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير لعيسى، والقرآن الكريم لمحمد ﷺ، لكن الآية لو كانت مما اقترحها الناس فإن سنة الله جرت على القضاء بينهم بنزولها فإن آمنوا بها وإلا نزل عليهم العذاب ولم ينظروا بعد ذلك كآيات نوح وهود وصالح وغير ذلك، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]

ج. وقد أشير في الآية الكريمة أعني قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، إلى الجهتين جميعا، فذكر أن الله قادر على أن ينزل أي آية شاء، وكيف يمكن أن يفرض من هو مسمى باسم (الله) ولا تكون له القدرة المطلقة، وقد بدل في الجواب لفظة (الرب) إلى اسم (الله) للدلالة على برهان الحكم، فإن الألوهية المطلقة تجمع كل كمال من غير أن تحد بحد

أو تقيد بقيد فلها القدرة المطلقة، والجهل بالمقام الألوهي هو الذي بعثهم إلى اقتراح الآية بداعي التعجيز، على أنهم جهلوا أن نزول ما اقترحوه من الآية لا يوافق مصلحتهم، وأن اجتراءهم على اقتراحها تعرض منهم لهلاك جمعهم وقطع دابرهم، والدليل على أن هذا المعنى منظور إليه بوجه في الكلام قوله تعالى في ذيل هذه الاحتجاجات: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٨]

٨. في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿يُنَزِّلُ﴾ مشددين من التفعيل دلالة على أنهم اقترحوا آية تدريجية أو آيات كثيرة تنزل واحدة بعد واحدة كما يدل عليه ما حكي من اقتراحهم في موضع آخر من كلامه تعالى كقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾، إلى أن قال ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ الآيات: [الإسراء: ٩٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وروي عن ابن كثير أنه قرأ بالتخفيف.

٩. أحاديث وآثار: في تفسير القمي قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يحب إسلام الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، دعاه رسول الله ﷺ وجهد به أن يسلم، فغلب عليه الشقاء، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥] إلى قوله: ﴿نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: سرباً.

• أقول: والرواية على ما بها من ضعف وإرسال، لا تلائم ظاهر الروايات الكثيرة الدالة على نزول السورة دفعة، وإن كان يمكن توجيهها بوقوع السبب قبل نزول السورة، ثم الإشارة بالآية إلى السبب المحقق بعنوان الانطباق.

١٩. الدواب والطير أمم أمثالنا، وتفصيل كل شيء في الكتاب:

المقطع [١٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٧٣»:

١. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾:

أ. الدابة كل حيوان يدب على الأرض وقد كثر استعماله في الفرس، والدب بالفتح والدبيب هو المشي الخفيف.

ب. والطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه، وجمعه الطير كالراكب، والركب.

ج. والأمة هي الجماعة من الناس يجمعهم مقصد واحد يقصدونه كدين واحد أو سنة واحدة أو زمان واحد أو مكان واحد، والأصل في معناها، القصد يقال: أم يؤم إذا قصد.

د. والحشر جمع الناس بإزعاج إلى الحرب أو جلاء ونحوه من الأمور الاجتماعية.

٢. الظاهر أن توصيف الطائر بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ محاذاة لتوصيف الدابة بقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فهو بمنزلة قولنا: ما من حيوان أرضي ولا هوائي، مع ما في هذا التوصيف من نفي شبهة التجوز فإن الطيران كثيرا ما يستعمل بمعنى سرعة الحركة كما أن الدبيب هو الحركة الخفيفة فكان من المحتمل أن يراد بالطيران حيث ذكر مع الدبيب الحركة السريعة فدفع ذلك بقوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾

٣. وضع هنا مبحثا حول [قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ودلالته على المجتمعات الحيوانية وحشرها]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية تدل على أن الحيوانات أُمم أمثال الناس، وأن المراد بـ (الأمة) ليس مجرد العدد الكثير، بل الجامع الذي يقصده أفرادها من مقصد شعوري.

ب. إثبات أن الحيوانات لها عقائد وآراء فردية واجتماعية تبني عليها حركاتها وسكناتها، كما في الإنسان.

ج. توضيح أن الحيوان غير محروم من موهبة الاختيار، وإن كان أضعف من الإنسان، وأن له شعوراً بالخير والشر والعدل والظلم في الجملة.

د. بيان أن للحيوان حشراً كما للإنسان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥)﴾

هـ. الرد على من يشكل بأن الحيوان لا اختيار له، وبيان أن الاختيار درجات، وأن الحيوان يظهر آثار التردد والكف عن الفعل بالزجر والتربية.

و. توضيح أن مجرد الاشتراك في الحشر والجزاء بين الإنسان والحيوان لا يقتضي المساواة في جميع

الجهات، كما لا يقتضي التساوي بين أفراد الإنسان أنفسهم.

ز. الاستدلال بقصة نملة سليمان وهدهدها على لطائف فهم الحيوان، وأن ذلك يدل على شعور وإرادة لا تنفك عن معارف جمة.

ح. الإقرار بأن عالم الحيوان مجهول لنا في تفاصيل تكاليفه، وأن القرآن لم يتعرض لبيان كيفية التكليف في الحيوان.

٤. ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ جملة معترضة، وظاهرها أن المفرط فيه هو الكتاب، ولفظ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان للفرط الذي يقع التفريط به، والمعنى لا يوجد شيء تجب رعاية حاله والقيام بواجب حقه وبيان نعته في الكتاب إلا وقد فعل من غير تفريط، فالكتاب تام كامل.

أ. والمراد بالكتاب إن كان هو اللوح المحفوظ الذي يسميه الله سبحانه في موارد من كلامه كتابا مكتوبا فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن، كان المعنى أن هذه النظامات الأممية المماثلة لنظام الإنسانية كان من الواجب في عناية الله سبحانه أن يبني عليها خلقة الأنواع الحيوانية فلا يعود خلقها عبثا ولا يذهب وجودها سدى، ولا تكون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لياقة القبول ممنوعة من موهبة الكمال، فالآية على هذا تفيد بنحو الخصوص ما يفيده بنحو العموم، قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وقوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]

ب. وإن كان هو القرآن الكريم وقد سماه الله كتابا في مواضع من كلامه، كان المعنى أن القرآن المجيد لما كان كتاب هداية يهدي إلى صراط مستقيم على أساس بيان حقائق المعارف التي لا غنى عن بيانها في الإرشاد إلى صريح الحق ومحض الحقيقة لم يفرط فيه في بيان كل ما يتوقف على معرفته سعادة الناس في دنياهم وآخرتهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

ج. من الممكن أن يشار في الآية إلى كلا المعنيين فيراد في الكتاب مطلق الكتاب، ويكون المعنى أن الله سبحانه لا يفرط فيما يكتب من شيء أما في كتاب التكوين فإنه يقضي ويقدر لكل نوع ما في استحقاقه أن يناله من كمال الوجود كالأنواع الحيوانية هيأ لكل منها من سعادة الحياة الأممية الاجتماعية ما هيأه للإنسان لما رأى من صلوحها لذلك فلم يفرط في أمرها، وأما في كتابه الذي هو كلامه الموحى إلى الناس فإنه يبين فيه ما في معرفته خير الناس وسعادة عاجلهم وآجلهم ولا يفرط في ذلك، ومن ذلك أنه لم يفرط

في أمر الأمم الحيوانية، وبين في هذه الآية حقيقة ما وهبه لها من نوع السعادة الوجودية التي جعلتهم أمما حية سائرة بوجودها إلى الله سبحانه محشورة إليه كالإنسان.

د. مما يجب أن يعرفه الناس في سبيل تفقه أمر المعاد أن يتبينوا كيفية ارتباط الحشر وهو البعث يوم القيامة على نهج الاجتماع بالتشكل الأممي في الدنيا، وأن ذلك هو الذي يجدونه بين أنفسهم ويجدونه بين سائر الأنواع الحيوانية، ويترتب عليه دون ذلك فوائد أخرى كالتبصر في توحيد الله تعالى ولطيف قدرته وعنايته بأمر الخليقة والنظام العام الجاري في العالم، ومن أهم فوائده معرفة أن الموجود آخذ في سلسلته من النقص إلى الكمال، وبعض قطعاتها المشتملة على حلقات الحيوان الشامل للإنسان وما دونه مراتب مختلفة مترتبة آخذة من المراتب القاطنة في أفق النبات إلى المراتب المجاورة لمرتبة الإنسان ثم الإنسان.

هـ. وقد ندب الله سبحانه الناس إلى معرفة الحيوان والنظر في الآيات المودعة في وجوده أبلغ الندب، وعد ذلك موصلا إلى أفضل النتائج العلمية الملازمة للسعادة الإنسانية وهو اليقين بالله سبحانه حيث قال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤] والآيات في الحث على النظر في أمر الحيوان كثيرة في القرآن الكريم.

٥. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ بيان لعموم الحشر لهم وأن حياتهم الموهوبة نوع حياة تستتبع الحشر إلى الله كما أن الحياة الإنسانية كذلك، ولذلك أرجع الضمير المستعمل في أولي الشعور والعقل، فقال: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ إشارة إلى أن أصل الملاك وهو الأمر الذي يدور عليه الرضا والسخط والإثابة والمؤاخذة موجود فيهم.

٦. وقد وقع في الآية التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير ثم إلى الغيبة بالنسبة إليه تعالى، والتدبر فيها يعطي أن الأصل في السياق الغيبة وإنما تحول السياق في قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى التكلم مع الغير لكون المعترضة خطابا خاصا بالنبي ﷺ فلما فرغ منه رجع إلى أصل السياق.

٧. ومن عجيب ما قيل في الآية استدلال بعضهم بها على التناسخ وهو أن تتعلق نفس الإنسان بعد مفارقتها البدن بالموت ببدن واحد من الحيوان يناسبها في الخلق الرذيل الذي رسخ فيها كأن تتعلق نفس المكار بدن ثعلب، ونفس المفسد الحقود ببدن الذئب، ونفس من يتبع سقطات الناس وعوراتهم ببدن خنزير، ونفس الشره الأكول ببدن البقر، وهكذا ولا تزال تنتقل من بدن إلى بدن وتعذب بذلك هذا إن

كانت شقية ذات أخلاق رذيلة، وإن كانت سعيدة تعلقت بعد الموت ببدن سعيد منعم بسعادته من أفاضل أفراد الإنسان ومعنى الآية على هذا: ما من حيوان من الحيوانات إلا أمم إنسانية أمثالكم انتقلت بعد الموت إلى صور الحيوانات، وقد ظهر مما تقدم أن الآية في معزل من هذا المعنى، على أن ذيل الآية: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ لا يلائم هذا المعنى، على أن أمثال هذه الأقاويل من وضوح الفساد بحيث لا طائل في التعرض لها والبحث عن صحتها وسقمها.

٨. ومن عجيب ما قيل فيها أيضا: إن المراد بحشر الحيوان موتها فلا بعث بعد ذلك أو مجموع الموت والبعث، أما الأول فينفيه ظاهر قوله: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إذ لا معنى للموت إلى الله، وأما الثاني فهو من الالتزام بما لا يلزم إذ لا موجب لضم الموت إلى البعث في المعنى، ولا أن في الآية ما يستوجبه.

٩. أحاديث وآثار: في الكافي بإسناده فيه رفع عن الرضا عليه السلام قال: إن الله عز وجل لم يقبض نبينا حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تبيان كل شيء، بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام، وجميع ما يحتاج إليه الناس كملاً، وقال عز وجل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]

٢٠. المكذبون والظلمات والمشيئة الإلهية:

المقطع [٢٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٨٤»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يريد تعالى أن المكذبين لآياته محرومون من نعمة السمع والتكلم والبصر لكونهم في ظلمات لا يعمل فيها البصر فهم لصممهم لا يقدرون على أن يسمعوا الكلام الحق وأن يستجيبوا له، ولبكمهم لا يستطيعون أن يتكلموا بالقول الحق ويشهدوا بالتوحيد والرسالة، ولإحاطة الظلمات بهم لا يسعهم أن يبصروا طريق الحق فيتخذوه طريقا.

٢. في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾، دلالة على أن هذا الصمم والبكم والوقوع في الظلمات إنما هي رجز وقع عليهم منه تعالى جزاء لتكذيبهم بآيات الله فإن الله سبحانه جعل إضلاله المنسوب إليه من قبيل الجزاء، كما في قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، فتكذيب آيات الله غير مسبب

عن كونهم صما بكما في الظلمات بل الأمر بالعكس وعلى هذا فالمراد بالإضلال بحسب الانطباق على المورد هو جعلهم صما بكما في الظلمات والمراد بمن شاء الله ضلاله هم الذين كذبوا بآياته.

٣. وبالمقابلة يظهر أن المراد بالجعل على صراط مستقيم هو أن يعطيه سمعا يسمع به فيجيب داعي الله بلسانه ويتبصر بالحق ببصره، وأن هذا جزاء من لا يكذب بآيات الله سبحانه فمن يشأ الله يضلله ولا يشاء إلا إضلال من يستحقه ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ولا يشاء ذلك إلا لمن تعرض لرحمته.

٤. وقد تقدم البحث عن حقيقة معنى ما يصفهم الله تعالى به من الصمم والبكم والعمى وما يشابه ذلك من الصفات.

٥. وقد عني في الآية بنكتة أخرى، وهي ما يفيده الوصل والفصل في قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ حيث ذكر الصمم وهو من أوصافهم ثم ذكر البكم وعطفه عليه وهو صفة ثانية، ثم ذكر كونهم في الظلمات ولم يعطفها وهي صفة ثالثة، وبالجملة وصل بعض الصفات وفصل بعضها، وقد أتى في مثل الآية بحسب المعنى بالفصل أعني قوله في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨] وفي آية أخرى يماثلها بالعطف وهي قوله في الكفار: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، ولعل النكتة في الآية التي نحن فيها أعني قوله: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، الإشارة إلى كون من هم صم غير الذين هم بكم فالصم هم الجهلاء المقلدون الذين يتبعون كبراءهم فلا يدع لهم ذلك سمعا يسمعون به الدعوة الحقة، والبكم هم العظماء المتبوعون الذين لهم علم بصحة الدعوة إلى التوحيد وبطلان الشرك، غير أنهم لعنادهم وبغيهم بكم لا تنطلق ألسنتهم إلى الاعتراف بكلمة الحق والشهادة بها، والطائفتان جميعا تشتركان في أنهما واقعتان في ظلمة لا يتبصر فيها إلى الحق، ولا يسع غيرهما أن يبصرهما بشيء من الإشارات لمكان وقوعهما في الظلمات فلا تنجح فيها الإشارة، ويؤيد ذلك أن الكلام المسرود في الآيات يعم الطائفتين جميعا كما يشير إليه قوله تعالى في الآيات السابقة: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [آية: ٢٦]، وكذا قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [آية: ٣٧]، هذا في الآية التي نحن فيها، وأما آية المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فالعناية فيها باجتماع جميع هذه الصفات فيهم في زمان واحد لانقطاعهم عن رحمة الله من كل جهة، وأما آية الكفار: ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فقد تعلقت العناية فيها بكون ختم السمع من غير جنس ختم القلوب كما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا

تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [حم السجدة: ٥] وربما وجهت الآية بغير ذلك من الوجوه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي حدثني أحمد بن محمد قال: حدثني جعفر بن محمد قال: حدثنا كثير بن عياش عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ [الأنعام: ٣٩]، يقول: صم عن الهدى، بكم لا يتكلمون بخير، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] يعني ظلمات الكفر، ﴿مَن يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وهو رد على قدرية هذه الأمة، يحشرهم الله يوم القيامة من الصابئين والنصارى والمجوس، فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، يقول الله: ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٤]، قال: فقال رسول الله ﷺ: ألا إن لكل أمة مجوساً، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، ويزعمون أن المشية والقدرة إليهم ولهم.

ب. قال في البرهان عند نقل الحديث: وفي نسخة أخرى من تفسير علي بن إبراهيم في الحديث هكذا: قال: فقال: ألا إن لكل أمة مجوساً، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، ويزعمون أن المشية والقدرة ليست لهم ولا عليهم، وفي نسخة ثالثة يقولون: لا قدر، ويزعمون أن المشية والقدرة ليست إليهم ولا لهم،

• أقول: مسألة القدر من المسائل التي وقع الكلام فيها في الصدر الأول، فأنكر القدر ـ وهو أن لإرادة الله سبحانه تعلقاً ما بأعمال العباد ـ قوم، وأثبتوا المشية والقدرة المستقلتين للإنسان في فعله، وأنه هو الخالق له المستقل به، وسموا بالقدرية أي المتكلمين في القدر، وقد روى الفريقان عن النبي ﷺ أنه قال: (القدرية مجوس هذه الأمة)، وانطباقه عليهم واضح، فإنهم يثبتون للأعمال خالقاً هو الإنسان، ولغيرها خالقاً هو الله سبحانه، وهو قول الثنوية وهم المجوس بإلهين اثنين: خالق للخير، وخالق للشر.

• وهناك روايات أخر عن النبي ﷺ وعن أئمة أهل بيته عليهم السلام تفسر الرواية بالمعنى الذي تقدم، وتثبت أن هناك قدراً، وأن لله مشية في أفعال عباده، كما يثبته القرآن.

• وقد أول المعتزلة وهم النافون للقدر الرواية بأن المراد بالقدرية المثبتون للقدر، وهم كالمجوس

في إسنادهم الخير والشر كله إلى خالق غير الإنسان، وقد تقدم بعض الكلام في ذلك، وسيجيء استيفاؤه إن شاء الله تعالى.

• ومما ذكرنا يظهر أن الجمع بين القول بأنه لا قدر، والقول بأنه ليست المشية والقدرة للإنسان ولا إليه، جمع بين المتنافيين؛ فإن القول بنفي القدر يلازم القول باستقلال الإنسان بالمشية والاستطاعة، والقول بالقدر يلازم القول بنفي استقلاله بالمشية والقدرة.

• وعلى هذا، فما وقع في النسختين من الجمع بين قولهم: (لا قدر) وقولهم: (إن المشية والقدرة ليست لهم ولا إليهم) ليس إلا من تحريف بعض النساخ، وقد اختلط عليه المعنى حيث حفظ قوله (لا قدر) وغير الباقي.

٢١. إخلاص الدعاء لله عند الشدائد ونسيان الشركاء:

المقطع [٢١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٨٦»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. لفظ ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ بهمزة الاستفهام وصيغة المفرد المذكر الماضي من الرؤية وضمير الجمع المخاطب، أخذه أهل الأدب بمعنى أخبرني، قال الراغب في المفردات: (ويجري (أرأيت) مجرى أخبرني فيدخل عليه الكاف ويترك التاء على حالته في التثنية والجمع والتأنيث، ويسلط التغيير على الكاف دون التاء، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي﴾) ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾)

ب. وفي الآية تجديد احتجاج على المشركين، وإقامة حجة على بطلان شركهم من وجه، وهو أنها تفرض عذابا آتيا من جانب الله أو إتيان الساعة إليهم ثم تفرض أنهم يدعون في ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز في فطرة الإنسان أنه يتوجه بالمسألة إذا بلغت به الشدة نحو من يقدر أن يكشفها عنه، ثم تسألهم أنه من الذي تدعونه وتتوجهون إليه بالمسألة إن كنتم صادقين؟ أغير الله تدعون من أصنامكم وأوثانكم التي سميتموها من عند أنفسكم آلهة أم إياه تدعون؟ وهيهات أن تدعوا غيره وأنتم تشاهدون حينئذ أنها محكومة بالأحكام الكونية مثلكم لا ينفعكم دعاؤها شيئا، بل تنسون هؤلاء الشركاء

المسمين آلهة لأن الإنسان إذا أحاطت به البلية وهزهزته الهزاهز ينسى كل شيء دون نفسه إلا أن في نفسه رجاء أن ترتفع عنه البلية، والرافع الذي يرجو رفعها منه هو ربه، فتنسون شركاءكم وتدعون من يرفعها من دونهم وهو الله عز اسمه فيكشف الله سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه، وليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابة ولا مضطرا إلى الكشف إذا دعي بل هو القادر على كل شيء في كل حال، فإذا كان الله سبحانه هو الرب القدير الذي لا ينساه الإنسان وإن نسي كل شيء إلا نفسه ويضطر إلى التوجه إليه ببعث من نفسه عند الشدائد القاصمة الحاطمة دون غيره من الشركاء المسمين آلهة فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

ج. فمعنى الآية ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أَرَأَيْتكُمْ﴾ أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ فرض إتيان عذاب من الله ولا ينكرونه، وفرض إتيان الساعة ولم يعبأ بإنكارهم لظهوره ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ﴾ لكشفه، وقد حكى الله في كلامه عنهم سؤال كشف العذاب في الدنيا ويوم القيامة جميعا لما أن ذلك من فطريات الإنسان ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وجئتم بالنصفة بل ﴿إِيَّاهُ﴾ الله سبحانه دون غيره من أصنامكم ﴿تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من العذاب ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أن يكشفه كما كشف لقوم يونس، وليس بمجبر ولا مضطرا إلى القبول لقدرته الذاتية ﴿وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ﴾ من الأصنام والأوثان على ما في غريزة الإنسان أن يشتغل عند إحاطة البلية به عن كل شيء بنفسه، ولا يهم إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتلهى بما لا ينفعه، فاشتغاله والحال هذه بدعاء الله سبحانه ونسيانه الأصنام أصرح حجة أنه تعالى هو الله لا إله غيره ولا معبود سواه.

٢. وبما تقدم من تقرير معنى الآية يتبين:

أ. أولا: أن إتيان العذاب أو الساعة، وكذا الدعاء لكشفه مفروضان في حجة الآية، والمطلوب بيان أن المدعو حينئذ هو الله عز اسمه دون الأصنام، وأما أصل الدعاء عند الشدائد والمصائب، وأن للإنسان توجها جبليا عندما تطل عليه البلية ويتقطع عنه كل سبب إلى من يكشفها عنه فهو حجة أخرى غير هذه الحجة، والمطلوب بهذه الحجة، وهي التي في هذه الآية، التوحيد وبتلك الحجة إثبات الصانع من غير نظر إلى توحيده، وإن تلازم المطلوبان.

ب. وثانيا: أن تقييد قوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾، بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ لبيان إطلاق القدرة:

• فلله سبحانه أن يكشف كل شديدة حتى الساعة التي لا ريب فيها، فإن قضاءه الحتم لأمر من الأمور وإن كان يحتمه ويوجبه لكنه لا يسلب عنه القدرة على الترك فله القدرة المطلقة على ما قضى به، وما لم يقض به ومثل الساعة في ذلك كل عذاب غير مردود وأمر محتوم إن يشأ يأت به وإن لم يشأ لم يأت به وإن كان يشاء دائما ما قضى به قضاء حتما ووعده وعدا جزما والله لا يخلف الميعاد فافهم ذلك.

• وله سبحانه أن لا يجيب دعوة أي داع دعاه وإن عرف نفسه بأنه مجيب، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ووعد الاستجابة لداعيه وعدا بتيا، فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فإن وعد الاستجابة لا يسلب عنه القدرة على عدم الاستجابة وإن كان يستجيب دائما كل من دعاه بحقيقة الدعاء، وتجري على ذلك سنته صراطا مستقيما لا تخلف فيه.

• سؤال وإشكال: ومن هنا يظهر فساد ما استشكل على الآية بأن مدلولها يخالف ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة أن الساعة لا ريب فيها ولا محيص عن وقوعها وأن عذاب الاستئصال لا مرد له، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠] والجواب: وجه الفساد أن الآية لا تدل على أزيد من أن الله سبحانه أن يفعل ما يشاء وأنه قادر على كل شيء وأما أنه يشاء كل شيء ويفعل كل شيء فلا دلالة فيها على ذلك ولا ريب أن قضاءه الحتمي بوقوع الساعة أو بعذاب قوم عذاب استئصال لا يبطل قدرته على خلافه فله أن يخالف إن شاء وإن كان لا يخلف الميعاد ولا ينقض ما أراد، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ فهو دعاؤهم في جهنم لكشف عذابها وتخفيفه عنهم، ومن المعلوم أن الدعاء مع تحتم الحكم وفصل القضاء لا يتحقق بحقيقته فإن سؤال أن لا يبعث الله الخلق أو لا يعذب أهل جهنم فيها من الله سبحانه بمنزلة أن يسأل الله سبحانه أن لا يكون هو الله سبحانه فإن من لوازم معنى الألوهية أن يرجع إليه الخلق على حسب أعمالهم فلمثل هذه الأدعية صورة الدعاء فقط دون حقيقة معناها، وأما لو تحقق الدعاء بحقيقته بأن يدعى حقيقة ويتعلق ذلك الدعاء بالله حقيقة كما هو ظاهر قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية، فإن ذلك لا يرد البتة، والدعاء على هذا النعت لا يدع الكافر كافرا ولو حين الدعاء كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فما في قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ دعاء منهم وهم على الكفر فإن الثابت من ملكة الكفر لا يفارقهم في دار الجزاء وإن كان من الجائز أن يفارقهم في دار العمل

بالتوبة والإيمان.

• فدعاؤهم لكشف العذاب عنهم يوم القيامة أو في جهنم ككذبهم على الله يوم القيامة بقولهم، كما حكى الله، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، ولا ينفع اليوم كذب غير أنهم اعتادوا ذلك في الدنيا ورسخت رذيلتهم في نفوسهم فبرزت عنهم آثاره يوم تبلى السرائر، ونظير أكلهم وشربهم وخصامهم في النار، ولا غنى لهم في شيء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧]، وقال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ فَمَالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ} [الواقعة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]، فهذا كله من قبيل ظهور الملكات فيهم.

• وما قبل الآية يؤيد ما ذكرناه من أن دعاءهم ليس على حقيقته وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠] فإن مسألتهم خزنة النار أن يدعو الله لهم في تخفيف العذاب ظاهر في أنهم آيسون من استجابة دعائهم أنفسهم، والدعاء مع اليأس عن الاستجابة ليس دعاء ومسألة حقيقية إذ لا يتعلق الطلب بما لا يكون البتة.

ج. وثالثا: أن النسيان في قوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ حقيقة معناه على ما هو المشهود من حال الإنسان عندما تغشاه الشدائد والخطوب إذ يشتغل بنفسه وينسى كل أمر دونها إلا الله سبحانه فلا موجب للالتزام بما ذكره بعضهم: أن المراد بقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ تعرضون عنها إعراض من نسي الشيء عنه، وإن كان لا مانع من ذلك لكونه من المجازات الشائعة لكلمة النسيان، وقد استعمل في القرآن النسيان بمعنى الإعراض عن الشيء وعدم الاعتناء به كثيرا كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات.

٢٢. الأمم السابقة وقسوة القلب:

المقطع [٢٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٠»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾:

أ. البأساء والبأس والبؤس هو الشدة والمكروه إلا أن البؤس يكثر استعماله في الحرب ونحوه والبأس والبأساء في غيره كالفقر والجدب والقحط ونحوها.

ب. والضر والضراء هو سوء الحال فيما يرجع إلى النفس كغم وجهل أو ما يرجع إلى البدن كمرض ونقص بدني أو ما يرجع إلى غيرهما كسقوط جاه أو ذهاب مال.

ج. ولعل المقصود من الجمع بين البأساء والضراء الدلالة على تحقق الشدائد في الخارج كالجدب والسيل والزلزلة، وما يعود إلى الناس من قبلها من سوء الحال كالخوف والفقر ورثاثة الحال.

د. والضراعة هي المذلة والتضرع التذلل والمراد به التذلل إلى الله سبحانه لكشف ما نزل عليهم من نوازل الشدة والرزية.

٢. والله سبحانه يذكر لنبيه ﷺ في هذه الآية وما يتلوها إلى تمام أربع آيات سنته في الأمم التي من قبله إذ جاءتهم رسلهم بالبينات: أنه كان يرسل إليهم الرسل فيذكرونهم بتوحيد الله سبحانه والتضرع وإخلاص الإنابة إليه ثم يبتليهم بأنواع الشدة والمحن ويأخذهم بالبأساء والضراء ولكن بمقدار لا يلجئهم إلى التضرع ولا يضطرهم إلى الابتهال والاستكانة لعلهم يتضرعون إليه بحسن اختيارهم، ويلين قلوبهم فيعرضوا عن التزيينات الشيطانية وعن الإخلاد إلى الأسباب الظاهرية لكنهم لم يتضرعوا إليه بل أقسى الاشتغال بأعراض الدنيا قلوبهم وزين لهم الشيطان أعمالهم، وأنساهم ذلك ذكر الله، فلما نسوا ذكر الله سبحانه فتح الله عليهم أبواب كل شيء وصب عليهم نعمه المتنوعة صبا حتى إذا فرحوا بما عندهم من النعم واغتروا واستقلوا بأنفسهم من دون الله أخذهم الله بغتة ومن حيث لا يشعرون به فإذا هم آيسون من النجاة شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

٣. وهذه السنة سنة الاستدراج والمكر الذي لخصها الله تعالى في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]

٤. وبالتأمل فيما تقدم من تقرير معنى الآية والتدبر في سياقها يظهر أن الآية لا تنافي سائر الآيات الناطقة بأن الإنسان مفطور على التوحيد ملجأ باقتضاء من فطرته وجبلته إلى الإقرار به والتوجه إليه عند الانقطاع عن الأسباب الكونية كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا

نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]، وذلك أن الآية لا تريد من البأساء والضراء إلا ما لا يبلغ من الشدة والمهابة مبلغا يذهلون به عن كل سبب وينسون به كل وسيلة عادية، ومن الدليل على ذلك قوله في الآية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إذ (لعل) كلمة رجاء ولا رجاء مع الإلجاء والاضطرار، وكذا قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلك وتوسلوا في رفع البأساء والضراء إلى أعمالهم التي عملوها بأيديهم ودبروها بتدابيرهم للغلبة على موانع الحياة وأضداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعية الملهية إياهم عن التضرع إلى الله سبحانه والاعتصام به، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] فالآية الأولى كما ترى، تحكي عنهم نظير ما تحكيه الآية التي نحن فيها من الإعراض عن التضرع والاغترار بالأعمال، والآية الثانية: تحكي ما تحكيه الآيات الأخرى من التوحيد في حال الاضطرار.

٥. سؤال وإشكال: ومن هنا يظهر فساد ما يظهر من بعضهم أن ظاهر الآية كون الأمم السابقة مستنكفة عن التوحيد معرضة عن التضرع حتى في الشدائد الملجئة قال في تفسير الآية: (أقسم الله تعالى لرسوله ﷺ أنه أرسل رسلا قبله إلى أمم قبل أمته فكانوا أرسخ من قومه في الشرك، وأشد منهم إصرارا على الظلم فإن قومه يدعون الله وحده عند شدة الضيق)، والجواب: لازم ما ذكره أن لا يكون التوحيد فطريا يظهر عند ارتفاع الأوهام الشاغلة والانقطاع عن الأسباب الظاهرة أو أن يمكن إبطال حكم الفطرة من أصله، وقد قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] فأفاد أن دين التوحيد فطري، وأن الفطرة لا تقبل التغيير بمغير وأيد ذلك بآيات أخر ناصة على أن الإنسان عند انقطاعه عن الأسباب يتوجه إلى ربه بالدعاء مخلصا له الدين لا محالة، على أن الإقرار بالإله الواحد عند الشدة والانقطاع مما نجده من أنفسنا وجدانا ضروريا ولا يختلف في ذلك الإنسان الأولي وإنسان اليوم البتة.

٦. ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿فَلَوْلَا﴾ للتحضيض أو للنفي، وعلى أي حال تفيد في المقام فائدة النفي بدليل قوله: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وقسوة القلب مقابل لينه، وهو كون الإنسان لا يتأثر عن مشاهدة ما يؤثر فيه عادة أو عن استماع كلام شأنه التأثير، والمعنى: فلم

يتضرعوا حين مجيء البأس ولم يرجعوا إلى ربهم بالتذلل بل أبت نفوسهم أن تتأثر عنه، وتلهوا بأعمالهم الشيطانية الصارفة لهم عن ذكر الله سبحانه، وأخلدوا إلى الأسباب الظاهرة التي كانوا يرون استقلالها في إصلاح شأنهم.

٢٣. استدراج الله للعصاة بالفرح بما أوتوا ثم أخذهم بغتة:

المقطع [٢٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٣»:

١. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾، المراد بفتح أبواب كل شيء إيتاؤهم من كل نعمة من النعم الدنيوية التي يتنافس فيها الناس للتمتع من مزايا الحياة من المال والبنين وصحة الأبدان والرفاهية والخصب والأمن والطول والقوة، كل ذلك توفيرا من غير تقتير ومنع كما أن خزانة المال إذا أعطي منها أحد بقدر وميزان فتح بابها فأعطي ما أريد ثم سد، وأما إذا أريد الإعطاء من غير تقدير فتح بابها ولم يسد على وجه قاصده بالجملة كناية عن إيتائهم أنواع النعم من غير تقدير على ما يساعده المقام، على أن فتح الباب إنما يناسب بحسب الطبع الحسنات والنعم وأما السيئات والنقم فإنما تتحقق بالمنع ويناسبها سد الباب كما يلمح إليه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

٢. ومبلسون من أبلس إبلاسا، قال الراغب: (الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس، إلى أن قال، ولما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلان إذا سكت وإذا انقطعت حجته)، وعلى هذا المعنى المناسب لقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي خامدون منقطعوا الحجة.

٣. ومعنى الآية أنهم لما نسوا ما ذكروا به أو أعرضوا عنه آتيناهم من كل نعمة استدراجا حتى إذا تمت لهم النعم وفرحوا بما أوتوا منها أخذناهم فجأة فانخمدت أنفاسهم ولا حجة لهم لاستحقاقهم ذلك.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني في الكبير وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على

معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] الآية والتي بعدها.

ب. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبادة بن الصامت: أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بقوم بقاء أو نماء، رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعاً، فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة، فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين.

ج. أخرج ابن المنذر عن جعفر قال: أوحى الله إلى داود: خفني على كل حال، وأخوف ما تكون عند تظاهر النعم عليك، لا أصرعك عندها ثم لا أنظر إليك.

• أقول: قوله: (لا أصرعك) نهي يفيد التحذير، وقوله: (ثم لا أنظر) إلخ، منصوب للتفريع على النهي.

٢٤. قطع دابر الظالمين والحمد لله:

المقطع [٢٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٣»:

١. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ دبر الشيء مقابل قبله وهما الجزءان: المقدم والمؤخر من الشيء ولذا يكنى بهما عن العضوين المخصوصين، وربما توسع فيهما فأطلقا على ما يلي الجزء المقدم أو المؤخر فينفصلان عن الشيء وقد اشتق منهما الأفعال بحسب المناسبة نحو أقبل وأدبر وقبل ودبر وتقبل وتدبر واستقبل واستدبر، ومن ذلك اشتقاق دابر بمعنى ما يقع خلف الشيء ويليه من ورائه، ويقال: أمس الدابر أي الواقع خلف اليوم كما يقال: عام قابل، ويطلق الدابر بهذا المعنى على أثر الشيء كدابر الإنسان على أخلافه وسائر آثاره، فقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي إن الهلاك استوعبهم فلم يبق منهم عينا ولا أثرا أو أبادهم جميعا فلم يخلص منهم أحد كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨]

٢. ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ دون أن يقال: دابرهم للدلالة على سبب الحكم وهو الظلم الذي أفنى جمعهم وقطع دابرهم، وهو مع ذلك يمهد السبيل إلى إيراد

قوله: ﴿وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

٣. ومن هذه الآية بما تشتمل على وصفهم بالظلم وعلى حمده تعالى بربوبيته تتحصل الدلالة على أن اللوم والسوء في جميع ما حل بهم من عذاب الاستئصال يرجع إليهم لأنهم القوم الذين ظلموا، وأنه لا يعود إليه تعالى إلا الثناء الجميل لأنه لم يأت في تدبير أمرهم إلا بما تقتضيه الحكمة البالغة، ولم يسقهم في سبيل ما انتهوا إليه إلا إلى ما ارتضوه بسوء اختيارهم فقد تحقق أن الخزي والسوء على الكافرين، وأن الحمد لله رب العالمين.

٢٥. قدرة الله المطلقة على سلب السمع والأبصار والقلوب:

المقطع [٢٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٤»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾، أخذ السمع والأبصار هو سلب قوتي السمع والإبصار وهو الإصمام والإعماء والختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقا لا يدخلها معه شيء من خارج حتى تتفكر في أمرها، وتميز الواجب من الأعمال من غيره والخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصية وهو صلاحية التعقل وإلا كان جنونا وخبلا.

٢. وإذ كان هؤلاء المشركون لا يسمعون حق القول في الله سبحانه ولا يبصرون آياته الدالة على أنه واحد لا شريك له فصارت قلوبهم لا يدخلها شيء من واردات السمع والبصر حتى تعرف بذلك الحق من الباطل أقام الحجة بذلك على إبطال مذهبهم في أمر الإله تعالى ووحدته، وملخصها:

أ. أن القول بثبوت شركاء لله يستلزم القول ببطلانه وذلك أن القول بالشركاء لإثبات الشفاعة، وهي أن تشفع وتتوسط في جلب المنافع ودفع المضار، وإذ كانت الشركاء شفعاء على الفرض كان لله سبحانه أن يفعل في ملكه ما يشاء من غير مصادفة مانع يمانعه أو ضد يضاده فلو سلب الله عنكم سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فعل ذلك ولم يعارضه أحد من شركائكم لأنها شفعاء متوسطة لا أضداد معارضة، ولو فعل ذلك وسلب ما سلب لم يقدر أحد منها أن يأتيكم به لأنها شفعاء وسائط لا مصادر للخلق والإيجاد.

ب. وإذا لم يقدر على إيتاء نفع أو إذهاب ضر فما معنى ألوهيتها فليس الإله إلا من يوجد ويعدم ويتصرف في الكون كيف شاء، وإنما اضطرت الفطرة الإنسانية إلى الإقرار بأن للعالم إلها من جهة الحصول على مبدإ حوادث الخير والشر التي تشاهدها في الوجود، وإذ كان شيء لا يضر ولا ينفع في جنب الحوادث شيئا فليس تسميته إلها إلا لغوا من القول.

ج. وليس لإنسان صحيح العقل والتمييز أن يجوز كون صورة حجرية أو خشبية أو فلزية عملته يد الإنسان وصنعته فكرته خالقا للعالم أو متصرفا فيه بالإيجاد والإعدام وكذا كون رب الصنم ربا معبودا أبدع العالم على غير مثال سابق مع الاعتراف بكونه عبدا مربوبا.

د. والحجة تعود بتقرير آخر إلى أن معنى الألوهية يأبى عن الصدق على الشريك بمعنى الشفيع المتوسط فإن مبدئية الصنع والإيجاد لازم معناها الاستقلال في التصرف والتعين في استحقاق خضوع المصنوع المربوب، والواسطة المفروضة إن كان لها استقلال في العمل كانت أصلا ومبدأ لا واسطة وشفيعا وإن لم يكن له حظ من الاستقلال كانت أداة آلة لها مبدأ وإلها.

هـ. ولذا كانت الأسباب الكونية أيا ما فرضت ليس لها إلا معنى الإله والأداة كسببية الأكل للشبع والشرب للري والوالدين للولد والقلم للكتابة والمشي لانطواء المسافة وهكذا.

٣. ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ تصريف الآيات تحويلها إلى نحو أفهامهم، والصدوف الإعراض، يقال: صدف يصدف صدوفا إذا مال عن الشيء.

٢٦. مجيء عذاب الله بغتة أو جهرة ولا يهلك إلا الظالمون:

المقطع [٢٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٥»:

١. ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾، الجهرة الظهور التام الذي لا يقبل الارتياب ولذا قابلت البغتة التي هي إتيان الشيء فجأة لا يظهر على من أتاه إلا بعد إتيانه وغشيانه فلا يترك له مجال التحذر.

٢. وهذه حجة بين فيها على وجه العموم أن الظالمين على خطر من عذاب الله عذابا لا يتخطاهم، ولا يغلط في إصابتهم بإصابة من سواهم، ثم بين أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوة الإلهية وتكذيبهم

بآيات الله تعالى، وذلك أن معنى العذاب ليس إلا إصابة المجرم بما يسوؤه ويدمره من جزاء إجرامه ولا إجرام إلا مع ظلم فلو أتاهم من قبل الله سبحانه عذاب لم يهلك به إلا الظالمون، فهذا ما يدل عليه الآية، ثم بين الآيتين التاليتين أنهم هم الظالمون.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام: ٤٧] الآية، قال: إنها نزلت لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصاب أصحابه الجهد والعلل والمرض، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧]، أي لا يصيبكم إلا الجهد والضر في الدنيا، فأما العذاب الأليم الذي فيه الهلاك، فلا يصيب إلا القوم الظالمين.

• أقول: الرواية على ضعفها تنافي ما استفاض أن سورة الأنعام نزلت بمكة دفعة، على أن الآية بمضمونها لا تنطبق على القصة، والذي تمحل به في تفسيرها بعيد عن نظم القرآن.

٢٧. وظيفة الرسل التبشير والإنذار وأمن المؤمنين وعذاب المكذبين:

المقطع [٢٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٥»:

١. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ إلى آخر الآيتين يبين الله تعالى بالآيتين أنهم هم الظالمون، ولا يهلك بعذاب الله إن أتاهم إلا لظلمهم، ولذا غير سياق الكلام فوجه وجه البيان إلى النبي ﷺ ليكون هو المخبر عن شأن عذابه فيكون أقطع للعذر وجيء بلفظ المتكلم ليدل به على صدوره من ساحة العظمة والكبرياء.

٢. فكان ملخص المضمون أمره تعالى نبيه ﷺ أن يقيم عليهم الحجة أن لو أتاهم عذاب الله لم يهلك إلا الظالمين منهم ثم يقول تعالى لرسوله: إنا نحن الملقين إليك الحجة الآتين بالعذاب نخبرك أن إرسالنا الرسل إنما هو للتبشير والإنذار فمن آمن وأصلح فلا عليه، ومن كذب بآياتنا فهو الذي يمسه عذابنا لفسقه وخروجه عن طور العبودية فلينظروا في أمر أنفسهم من أي الفريقين هم؟

٣. وقد تقدم في المباحث السابقة استيفاء البحث عن معنى الإيمان والإصلاح والفسق ومعنى نفي

الخوف والحزن عن المؤمنين.

٢٨. نفي علم الغيب عن الرسول وبيان الفرق بين الأعمى والبصير:

المقطع [٢٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٦»:

١. ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾:

أ. لعل المراد بخزائن الله ما ذكره بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾، وخزائن الرحمة هذه هي ما يكشف عن أثره، قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] وهي فائضة الوجود التي تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها، وآثار وجودها وقد بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله، وهو كلمة ﴿كُنْ﴾ الصادرة عن مقام العظمة والكبرياء، وهذا هو الذي يخبر عنه بلفظ آخر في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]

ب. فالمراد بخزائن الله هو المقام الذي يعطي بالصدور عنه ما أريد من شيء من غير أن ينفد بإعطاء وجود أو يعجزه بذل وسماحة، وهذا مما يختص بالله سبحانه، وأما غيره كائنا ما كان ومن كان فهو محدود وما عنده مقدر إذا بذل منه شيئا نقص بمقدار ما بذل، وما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أي فقير، وإرضاء أي طالب، وإجابة أي سؤال.

٢. وأما قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فإنما أريد بالعلم الاستقلال به من غير تعليم بوحي وذلك أنه تعالى يثبت الوحي في ذيل الآية بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، وقد بين في مواضع من كلامه أن بعض ما يوحيه لرسله من الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦] وكقوله بعد سرد قصة يوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقوله في قصة مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقوله

بعد قصة نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، فالمراد بنفي علم الغيب نفي أن يكون مجهزا في وجوده بحسب الطبع بما لا يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العادة إلى العلم به من خفيات الأمور كائنة ما كانت.

٣. وأما قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فهو كناية عن نفي آثار الملكية من أنهم منزهون عن حوائج الحياة المادية من أكل وشرب ونكاح وما يلحق بذلك، وقد عبر عنه في مواضع أخرى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وإنما عبر عن ذلك هاهنا بنفي الملكية دون إثبات البشرية ليحاذي به ما كانوا يقترحونه عليه ﷺ بمثل قولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]

٤. ومن هنا يظهر أن الآية بما في سياقها من النفي بعد النفي، كأنها، ناظرة إلى الجواب عما كانوا يقترحونه على النبي ﷺ من سؤال الآيات المعجزة والاعتراض بما كان يأتي به من أعمال كأعمال المتعارف من الناس كما حكاه عنهم في قوله: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾، إلى أن قال ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، وقوله: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ [الإسراء: ٥١]، وكقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]

٥. فمعنى قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ﴾، قل: لم أدع فيما أدعوكم إليه وأبلغكموه أمرا وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتى تبكتوني بإلزامي بما تقترحونه مني فلم أدع أني أملك خزائن الألوهية حتى تقترحوا أن أفجر أنهارا أو أخلق جنة أو بيتا من زخرف، ولا ادعيت أني أعلم الغيب حتى أجيبكم عن كل ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعة ولا ادعيت أني ملك حتى تعيبوني وتبطلوا قولي بأكل الطعام والمشي في الأسواق للكسب.

٦. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾:

أ. بيان لما يدعيه حقيقة بعد رد ما اتهموه به من الدعوى من جهة دعواه الرسالة من الله إليهم أي ليس معنى قولي: إني رسول الله إليكم أن عندي خزائن الله ولا أني أعلم الغيب ولا أني ملك بل إن الله يوحي إلي بما يوحي.

ب. ولم يثبته في صورة الدعوى بل قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾، ليدل على كونه مأمورا بتبليغ ما يوحى إليه ليس له إلا اتباع ذلك فكأنه لما قال لا أقول لكم كذا ولا كذا ولا كذا قيل له: فإذا كان كذلك وكنت بشرا مثلنا وعاجزا كأحدنا لم تكن لك مزية علينا فماذا تريد منا؟ فقال: إن أتبع إلا ما يوحى إلي أن أبشركم وأنذركم فأدعوكم إلى دين التوحيد.

ج. والدليل على هذا المعنى قوله بعد ذلك: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فإن مدلوله بحسب ما يعطيه السياق: أني وإن ساويتكم في البشرية والعجز لكن ذلك لا يمنعني عن دعوتكم إلى اتباعي فإن ربي جعلني على بصيرة بما أوحى إلي دونكم فأنا وأنتم كالبصير والأعمى ولا يستويان في الحكم وإن كانا متساويين في الإنسانية فإن التفكر في أمرهما يهدي الإنسان إلى القضاء بأن البصير يجب أن يتبعه الأعمى، والعالم يجب أن يتبعه الجاهل.

٢٩. الإنذار لمن يخشون ربهم ويرجون لقاءه:

المقطع [٢٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٩٨»:

١. ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾:

أ. الضمير في ﴿بِهِ﴾ راجع إلى القرآن وقد دل عليه قوله في الآية السابقة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ حال والعامل فيه يخافون أو يحشرون.

ب. والمراد بالخوف معناه المعروف دون العلم وما في معناه إذ لا دليل عليه بحسب ظاهر المعنى المتبادر من السياق.

ج. والأمر بإنذار خصوص الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم لا ينافي عموم الإنذار لهم ولغيرهم كما يدل عليه قوله في الآيات السابقة: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ بل لما كان خوف

الحشر إلى الله معينا لنفوسهم على القبول ومقربا للدعوة إلى أفهامهم أفاد تخصيص الأمر بالإنذار بهم ووصفهم هذا الوصف تأكيدا لدعوتهم وتحريضا له أن لا يسامح في أمرهم ولا يضعهم موضع غيرهم بل يخصهم بمزيد عناية بدعوتهم لأن موقفهم أقرب من الحق وإيمانهم أرجى فالآية بضميمة سائر آيات الأمر بالإنذار العام تفيد من المعنى: أن أنذر الناس عامة ولا سيما الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم.

٢. ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾:

أ. نفي مطلق لولاية غير الله وشفاعته فيقيده الآيات الأخر المقيدة كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقوله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ الزخرف ٨٦.

ب. وإنما لم يستثن في الآية لأن الكلام يواجه به الوثنيون الذين كانوا يقولون بولاية الأوثان وشفاعتها، ولم يكونوا يقولون بذلك بالإذن والجعل فإن الولاية والشفاعة عن إذن يحتاج القول به إلى العلم به، والعلم إلى الوحي والنبوة، وهم لم يكونوا قائلين بالنبوة، وأما الذي أثبتوه من الولاية والشفاعة فكأنه أمر متهيئ لأوليائهم وشركائهم بالضرورة من طبعها لا بإذن من الله كأن أقوياء الوجود من الخليقة لها نوع من التصرف في ضعفائه بالطبع وإن لم يأذن به الله سبحانه، وإن شئت قلت: لازمه أن يكون إيجادها إذنا اضطراريا في التصرف في ما دونها.

ج. وبالجملة قيل: (ما لهم من دونه ولي ولا شفيع) ولم يقل: إلا بإذنه لأن المشركين إنما قالوا إن الأوثان أولياء وشفعاء من غير تقييد فنفي ما ذكروه من الولي والشفيع من دون الله محاذاة بالنفي لإثباتهم، وأما الاستثناء فهو وإن كان صحيحا كما وقع في مواضع من كلامه تعالى لكن لا يتعلق به غرض هاهنا.

٣. وقد تبين مما تقدم أن الآية على إطلاق ظاهرها تأمر بإنذار كل من لا يخلو من استشعار خوف من الحشر في قلبه إذا ذكر بآيات الله سواء كان ممن يؤمن بالحشر كالمؤمنين من أهل الكتاب أو ممن لا يؤمن به كالوثنيين وغيرهم لكنه يحتمله فيغشى الخوف نفسه بالاحتمال أو المظنة فإن الخوف من شيء يتحقق بمجرد احتمال وجوده وإن لم يوقن بتحققه.

٤. وقد اختلفت أنظار المفسرين في الآية:

أ. فمن قائل: إن الآية نزلت في المؤمنين القائلين بالحشر، وأنهم هم الذين عنوا في الآية التالية بقوله:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾

ب. ومن قائل: إنها نزلت في طائفة من المشركين الوثنيين يجوزون الحشر بعد الموت وإن لم يثبت وجود القائل بهذا القول بين مشركي مكة أو العرب يوم نزول السورة مع كون خطابات السورة متوجهة إلى المشركين من قريش أو العرب بحسب السياق.

ج. ومن قائل: إن المراد بهم كل معترف بالحشر من مسلم أو كتابي، وإنما خص هؤلاء المعترفون بالأمر بالإنذار مع أن وجوب الإنذار عام لجميع الخلق لأن الحجة أوجب عليهم لاعترافهم بالمعاد.

د. لكن الآية لم تأخذ في وصفهم إلا الخوف من الحشر، ولا يتوقف الخوف من الشيء على العلم بتحققه ولا الاعتراف بوجوده بل الشك، وهو الاحتمال المتساوي طرفاه، والمظنة وهي الإدراك الراجح على ما له من المراتب بجامع الخوف كالعلم وهو ظاهر، فالآية إنما تحرض النبي ﷺ على إنذار كل من شاهد في سيماه علائم الخوف من أي طائفة كان لأن بناء الدعوة الدينية على أساس الحشر وإقامة المحاسبة على السيئة والحسنة والمجازاة عليها، وأدنى ما يرجى من تأثير الدعوة الدينية في واحد أن يجوزه فيخافه، وكلما ازداد احتمال وقوعه ازداد الخوف وقوي التأثير حتى يتلبس باليقين وينتفي احتمال الخلاف بالكلية، فهناك التأثير التام.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [الأنعام: ٥١] الآية، قال: قال الصادق عليه السلام: أنذر بالقرآن من يخافون الوصول إلى ربهم، ترغبهم فيما عنده، فإن القرآن شافع مشفع لهم.

• أقول: وظاهر الحديث رجوع الضمير في قوله: (من دونه) إلى القرآن، وهو معنى صحيح، وإن لم يعهد في القرآن أن يسمى ولياً كما سمي إماماً.

ب. أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود قال: مر الملأ من قريش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك، فأنزل فيهم القرآن: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] إلخ.

• أقول: ورواه في المجمع عن الثعلبي بإسناده عن عبد الله بن مسعود مختصراً.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: مشى عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل والحارث بن عامر بن نوفل ومطعم بن عدي بن خيار بن نوفل في أشراف الكفار من عبد مناف إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد، فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا، كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا، وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه، فذكر ذلك أبو طالب للنبي ﷺ، فقال عمر: لو فعلت يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون بقولهم، وما تصيرون إليه من أمرهم؟ فأنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، قال: وكانوا بلالاً وعمار بن ياسر وسالماً مولى أبي حذيفة وصبحاً مولى أسيد، ومن الحلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأشباههم، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا﴾ [الأنعام: ٥٣] الآية، فلما نزلت أقبل عمر فاعتذر من مقالته، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية.

٣٠. النهي عن طرد المستضعفين المؤمنين والصبر معهم:

المقطع [٣٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٠٠»:

١. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾:

أ. ظاهر السياق على ما يؤيده ما في الآية التالية: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾، أن المشركين من قومه ﷺ اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فنهاه الله تعالى في هذه الآية عن ذلك.

ب. وذلك منهم نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الأمم من رسلهم أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء والفقراء من المؤمنين استكبارا وتعززا، وقد حكى الله تعالى ذلك عن قوم نوح فيما حكاه من محاجته عليه السلام حجاجا يشبه ما في هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ

بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾، إلى أن قال ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

ج. والتطبيق بين هذه الآيات والآيات التي نحن فيها يقضي أن يكون المراد بالذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ويريدون وجهه هم المؤمنين، وإنما ذكر دعاءهم بالغداة والعشي وهو صلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلالة على ارتباطهم بربهم بما لا يداخله غيره تعالى وليوضح ما سيذكره من قوله: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

٢. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى ﴿وَجْهَ اللّٰهِ﴾ في القرآن الكريم ودلالته على صفاته وأفعاله وأوليائه]، خلاصته:

أ. بيان المعنى اللغوي للوجه، وأنه يُستعمل في مستقبل الشيء وأشرفه ومبدئه، وأن إطلاقه على الذات مجاز من باب التوسع.

ب. إثبات أن المراد بـ ﴿وَجْهَ اللّٰهِ﴾ في الآيات ليس الذات، بل هو الوجه الذي يُؤتى منه، أي الناحية والجهة التي يتوجه إليها العبد بالأعمال الصالحة.

ج. توضيح أن الصفات الذاتية والفعلية لله، كالحياة والعلم والقدرة والرحمة والرزق، كلها من وجهه الذي يستقبل به خلقه.

د. بيان أن الأعمال الصالحة والأنبياء والملائكة والشهداء كلها من وجه الله، لأنها واقعة في جهته وناحيته، وهي باقية ببقائه.

هـ. تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، وأن الحصر يدل على أن كل ما سوى الله من الخير والأعمال الصالحة والأولياء إنما يبقى لاتصاله بوجهه.

و. توضيح أن إرادة العبد تتعلق بوجه الله، وهو الفضل والرضوان والرحمة، وأن سبيل الله من وجهه.

٣. ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. الحساب هو استعمال العدد بالجمع والطرح ونحو ذلك، ولما كان تمحيص الأعمال وتقديرها لتوفية الأجر أو أخذ النتيجة ونحوهما لا يخلو بحسب العادة من استعمال العدد بجمع أو طرح سمي ذلك حسابا للأعمال، وإذ كان حساب الأعمال لتوفية الجزاء، والجزاء إنما هو من الله سبحانه فالحساب على الله تعالى أي في عهدته وكفايته كما قال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ [الشعراء: ١١٣]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٦] وعكس في قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] للدلالة على سلطانه تعالى وهيمنته على كل شيء وعلى هذا فالمراد من نفي كون حسابهم عليه أو حسابه عليهم نفي أن يكون هو الذي يحاسب أعمالهم ليجازيهم حتى إذا لم يرتض أمرهم وكره مجاورتهم طردهم عن نفسه أو يكونوا هم الذين يحاسبون أعماله حتى إذا خاف مناقشتهم أو سوء مجازاتهم أو كرههم استكبارا واستعلاء عليهم طردهم، وعلى هذا فكل من الجملتين: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، (وما عليهم)، مقصودة في الكلام مستقلة.

ب. وربما أمكن أن يستفاد من قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ نفي أن يحمل عليه حسابهم أي أعمالهم المحاسبة حتى يستثقله وذلك بإيهام أن للعمل ثقلا على عامله أو من يحمل عليه فالمعنى ليس شيء من ثقل أعمالهم عليك، وعلى هذا فاستتباعه بقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ولا حاجة إليه لتمام الكلام بدونه، إنما هو لتتميم أطراف الاحتمال وتأكيد مطابقة الكلام، ومن الممكن أيضا أن يقال: إن مجموع الجملتين أعني قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ كناية عن نفي الارتباط بين النبي ﷺ وبينهم من حيث الحساب.

ج. وربما قيل: إن المراد بالحساب حساب الرزق دون حساب الأعمال والمراد: ليس عليك حساب رزقهم، وإنما الله يرزقهم وعليه حساب رزقهم، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ﴾، جيء به تأكيدا لمطابقة الكلام على ما تقدم في الوجه السابق، والوجهان وإن أمكن توجيههما بوجه لكن الوجه هو الأول.

٤. ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ الدخول في جماعة الظالمين متفرع على طردهم أي طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضي أن يفرع قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، على قوله في أول الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ﴾، إلا أن الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع والمتفرع عليه أعيد لفظ الطرد ثانيا في صورة الفرع ليتفرع عليه قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بنحو الاتصال ويرتفع اللبس، فلا يرد عليه أن الكلام مشتمل على تفريع الشيء على نفسه فإن ملخصه: ولا تطرد الذين يدعون ربهم فتطردهم، وذلك

أن إعادة الطرد ثانيا لإيصال الفرع أعني قوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، إلى أصله كما عرفت.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة وأبو يعلى وأبو نعيم في الحلية وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن خباب قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصين الفزاري، فوجدا النبي ﷺ قاعداً مع بلال وصهيب وعمار وخباب في أناس ضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقروهم، فأتوه فخلوا به فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا العرب به فضلنا، فإن وفود العرب ستأتيك، فنستحيي أن ترانا العرب قعوداً مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحن جئناك، فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا، فلتقعد معهم إن شئت، قال: نعم، قالوا: فاكتب لنا عليك بذلك كتاباً، فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، إذ نزل جبرئيل بهذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] إلى قوله: ﴿فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: (سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة)، فكنا نقعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] الآية، قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا بعد، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها، قمنا وتركناه حتى يقوم.

• أقول: ورواه في المجمع عن سلمان وخباب، وفي معنى هذه الروايات الثلاث المتقدمة بعض روايات أخر، والرجوع إلى ما تقدم في أول السورة من استفاضة الروايات على نزول سورة الأنعام دفعة، ثم التأمل في سياق الآيات، لا يبقي ريباً أن هذه الروايات إنما هي من قبيل ما نسميه تطبيقاً، بمعنى أنهم وجدوا مضامين بعض الآيات تقبل الانطباق على بعض القصص الواقعة في زمن النبي ﷺ، فعدوا القصة سبباً لنزول الآية، لا بمعنى أن الآية إنما نزلت وحدها ودفعة لحدوث تلك الواقعة ورفع الشبهة الطارئة من قبلها، بل بمعنى أن الآية يرتفع بها ما يطرأ من قبل تلك الواقعة من الشبهة، كما ترتفع بها الشبه الطارئة من قبل سائر الوقائع من أشباه الواقعة ونظائرها، كما يشهد بذلك ما ترى في هذه الروايات الثلاث الواردة في سبب نزول قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية، فإن الغرض فيها واحد، لكن القصص مختلفة في عين أنها متشابهة، فكأنهم جاءوا إلى النبي ﷺ واقترحوا عليه أن يطرد عنه الضعفاء كرة

بعد كرة، وعنده في كل مرة عدة من ضعفاء المؤمنين، وفي مضمون الآية انعطاف إلى هذه الاقتراحات أو بعضها.

• وعلى هذه الوتيرة كانوا يذكرون أسباب نزول الآيات بمعنى القصص والحوادث الواقعة في زمنه ﷺ، مما لها مناسبة ما مع مضامين الآيات الكريمة، من غير أن تكون للآية مثلاً نظر إلى خصوص القصة والواقعة المذكورة، ثم شيوع النقل بالمعنى في الأحاديث، والتوسع البالغ في كيفية النقل، أوهم أن الآيات نزلت في خصوص الوقائع الخاصة على أن تكون أسباباً منحصرة، فلا اعتماد في أمثال هذه الروايات الناقلة لأسباب النزول، وخاصة في أمثال هذه السورة من السور التي نزلت دفعة، على أزيد من أنها تكشف عن نوع ارتباط للآيات بالوقائع التي كانت في زمنه ﷺ، ولا سيما بالنظر إلى شيوع الوضع والدس في هذه الروايات والضعف الذي فيها، وما سامح به القدماء في أخذها ونقلها.

• وقد روى في الدر المنثور عن الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عمر بن عبد الله ابن المهاج: أن الآية نزلت في اقتراح بعض الناس أن يطرد النبي ﷺ الضعفاء من أصحاب الصفة عن نفسه، في نظير من القصة، ويضعفه ما تقدم في نظيره أن السورة إنما نزلت دفعة وفي مكة قبل الهجرة.

٣١. ابتلاء الناس بعضهم ببعض وفضل الله على من يشاء:

المقطع [٣١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٠٤»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا﴾ إلى آخر الآية:

أ. الفتنة هي الامتحان، والسياق يدل على أن الاستفهام في قوله: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ للتهكم والاستهزاء، ومعلوم أنهم لا يسخرون إلا ممن يستحقرون أمره ويستهينون موقعه من المجتمع، ولم يكن ذلك إلا لفقرهم ومسكنتهم وانحطاط قدرهم عند الأقوياء والكبرياء منهم.

ب. فالله سبحانه يخبر نبيه أن هذا التفاوت والاختلاف إنما هو محنة إلهية يمتحن بها الناس ليميز به الكافرين من الشاكرين، فيقول أهل الكفران والاستكبار في الفقراء المؤمنين: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فإن السنن الاجتماعية عند الناس توصف بما عند المستن بها من الشرافة والخسة، وكذا العمل

يوزن بها لعامله من الوزن الاجتماعي فالطريقة المسلوكة عند الفقراء والأذلاء والعبيد يستذلها الأغنياء والأعزة، والعمل الذي أتى به مسكين أو الكلام الذي تكلم به عبد أو أسير مستذلا لا يعتني به أولو الطول والقوة، فانتحال الفقراء والأجراء والعبيد بالدين، واعتناء النبي بهم وتقريبه إياهم من نفسه كالدليل عند الطغاة المستكبرين من أهل الاجتماع على هوان أمر الدين وأنه دون أن يلتفت إليه من يعتني بأمره من الشرفاء والأعزة.

٢. ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ جواب عن استهزائهم المبني على الاستبعاد، بقولهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ومحصله أن هؤلاء شاكرون لله دونهم ولذلك قدم هؤلاء لمنه وأخرهم فكنى سبحانه عن ذلك بأن الله أعلم بالشاكرين لنعمته أي إنهم شاكرون، ومن المسلم أن المنعم إنما يمن وينعم على من يشكر نعمته وقد سمى الله تعالى توحيده ونفي الشريك عنه شكرا في قوله حكاية عن قول يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]

٣. فالآية تبين أنهم بجهالتهم يبنون الكرامة والعزة على التقدم في زخارف الدنيا من مال وبنين وجاه، ولا قدر لها عند الله ولا كرامة، وإنما الأمر يدور مدار صفة الشكر والنعمة بالحقيقة هي الولاية الإلهية.

٣٢. السلام على المؤمنين ورحمة الله الواسعة لمن تاب وأصلح:

المقطع [٣٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٠٥»:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ قد تقدم معنى السلام، والمراد بكتابته الرحمة على نفسه إيجابها على نفسه أي استحالة انفكاك فعله عن كونه معنونا بعنوان الرحمة، والإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم وإن كان بحسب الحقيقة متعديا وأصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل.

٢. والآية ظاهرة الاتصال بالآية التي قبلها يأمر الله سبحانه فيها نبيه ﷺ، بعد ما نهاه عن طرد المؤمنين عن نفسه، أن يتلطف بهم ويسلم عليهم ويبشر من تاب منهم عن سيئة توبة نصوحا بمغفرة الله

ورحمته فتطيب بذلك نفوسهم ويسكن طيش قلوبهم، ويتبين بذلك:

أ. أولا: أن الآية، وهي من آيات التوبة، إنما تتعرض للتوبة عن المعاصي والسيئات دون الكفر والشرك بدليل قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ أي المؤمنين بآيات الله.

ب. وثانيا: أن المراد بالجهالة ما يقابل الجحود والعناد اللذين هما من التعمد المقابل للجهالة فإن من يدعو ربه بالغداة والعشي يريد وجهه وهو مؤمن بآيات الله لا يعصيه تعالى استكبارا واستعلاء عليه بل لجهالة غشيته باتباع هوى في شهوة أو غضب.

ج. وثالثا: أن تقييد قوله: ﴿تَابَ﴾ بقوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ للدلالة على تحقق التوبة بحقيقتها فإن الرجوع حقيقة إلى الله سبحانه واللواذ بجنابه لا يجامع لطهارة موقفه التقذر بقذارة الذنب الذي تطهر منه التائب الراجع، وليست التوبة قول: (أتوب إلى الله) قولا لا يتعدى من اللسان إلى الجنان، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]

د. ورابعا: أن صفاته الفعلية كالغفور والرحيم يصح تقييدها بالزمان حقيقة فإن الله سبحانه وإن كتب على نفسه الرحمة لكنها لا تظهر ولا تؤثر أثرها إلا إذا عمل بعض عباده سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح، وقد تقدم في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ إلى آخر الآيتين [النساء: ١٧]

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: رحم الله عبداً تاب إلى الله قبل الموت، فإن التوبة مطهرة من دنس الخطيئة، ومنقذة من شقاء الهلكة، فرض الله بها على نفسه لعباده الصالحين، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]

ب. وفي تفسير البرهان روي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ٥٤] الآية، نزلت في علي وحمزة وزيد.

• أقول: وفي عدة من الروايات أن الآيات السابقة نزلت في أعداء آل البيت عليهم السلام، والظاهر أنها جميعاً من قبيل الجري والتطبيق، أو الأخذ بباطن المعنى، فإن نزول السورة بمكة دفعة يأبى

أن يجعل أمثال هذه الروايات من أسباب النزول، ولذلك طوينا عن إيرادها، والله أعلم.

٣٣. تفصيل الآيات لبيان سبيل المجرمين:

المقطع [٣٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٠٦»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ تفصيل الآيات بقرينة المقام شرح المعارف الإلهية وتخليصها من الإبهام والاندماج.

٢. ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ اللام فيه للغاية، وهو معطوف على مقدر طوي عن ذكره تعظيما وتفخيما لأمره وهو شائع في كلامه تعالى، كقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [انعام: ٧٥]

٣. فالمعنى: وكذلك نشرح ونميز المعارف الإلهية بعضها من بعض ونزيل ما يطرأ عليها من الإبهام لأغراض هامة منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا، وعلى هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التي يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقة بتوحيد الله سبحانه والمعارف الحقة التي تتعلق به وهي سبيل الجحود والعناد والإعراض عن الآيات وكفران النعمة.

٤. وربما قيل إن المراد بسبيل المجرمين السبيل التي تسلك في المجرمين، وهي سنة الله فيهم من لعنهم في الدنيا وإنزال العذاب إليه بالآخرة، وسوء الحساب وأليم العقاب في الآخرة، والمعنى الأول أوفق بسياق الآيات المسرودة في السورة.

٣٤. النهي عن عبادة ما دون الله واتباع الأهواء المضلة:

المقطع [٣٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١١٤»:

١. ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾، أمر بأن خبرهم بورود النهي عليه عن عبادة شركائهم هو نهي عن عبادتهم بنوع من الكناية

٢. ثم أشار إلى ملاك النهي عنها بقوله: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ وهو أن عبادتهم اتباع للهوى وقد نهي عنه ثم أشار بقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبب الاستنكاف عن اتباع الهوى وهو الضلال والخروج عن جماعة المهتدين وهم الذين اتصفوا بصفة قبول هداية الله سبحانه، وعرفوا بذلك، فاتباع الهوى ينافي استقرار صفة الاهتداء في نفس الإنسان، ويمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقا ثابتا ينتفع به.

٣. وقد تلخص بذلك كله بيان تام معلل للنهي أو الانتهاء عن عبادة أصنامهم، وهو أن في عبادتها اتباعا للهوى، وفي اتباع الهوى الضلال والخروج عن صف المهتدين بالهداية الإلهية.

٣٥. بينات النبوة ومطالب المعاندين واستعجالهم:

المقطع [٣٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧ـ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١١٥»:

١. ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾:

أ. البينة هو الدلالة الواضحة من البيان وهو الوضوح، والأصل في معنى هذه المادة هو انعزال شيء عن شيء وانفصاله عنه بحيث لا يتصلان ولا يختلطان، ومنه البين والبون والبينونة وغير ذلك، قد سميت البينة بينة لأن الحق يبين بها عن الباطل فيتضح ويسهل الوقوف عليه من غير تعب ومئونة.

ب. والمراد بمرجع الضمير في قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ هو القرآن وظاهر السياق أن يكون التكذيب إنما تعلق بالبينة التي هو ﷺ عليها على ما هو ظاهر اتصال المعنى، ويؤيده قوله بعده: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾، فإن المحصل من الكلام مع انضمام هذا الذيل: أن الذي أيد الله به رسالتي من البينات وهو القرآن تكذبون به، والذي تقترحونه علي وتستعجلون به من الآيات ليس في اختياري ولا مفوضا أمره إلي فليس بيننا ما نتوافق فيه لما أني أوتيت ما لا تريدون وأنتم تريدون ما لم أوت.

ج. فمن هنا يظهر أن الضمير المجرور في قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ راجع إلى البينة لكون المراد به القرآن، وأن قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ أريد به نفي التسلط على ما يستعجلون به بالتكنية فإن

الغالب فيما يقدر الإنسان عليه وخاصة في باب الإعطاء والإنفاق أن يكون ما يعطيه وينفقه حاضرا عنده أو مذخورا لديه وتحت تسلطه ثم ينفق منه ما ينفق فقد أريد بقوله: ﴿مَا عِنْدِي﴾ نفي التسلط والقدرة من باب نفي الملزوم بنفي اللازم.

٢. ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾، بيان لسبب النفي، ولذلك جيء فيه بالنفي والاستثناء المفيد للحصر ليدل بوقوع النفي على الجنس على أن ليس لغيره تعالى من سنخ الحكم شيء قط وأنه إلى الله سبحانه فحسب.

٣. وضع هنا مبحثا حول [معنى الحكم وأنه لله وحده]، خلاصته:

أ. مادة ﴿حُكْمُ﴾ تدل على معنى الإتقان والربط المحكم بين الأجزاء، بحيث لا يتخلله خلل ولا فرجة، وهذا المعنى الجامع يسري على جميع مشتقاتها (الإحكام، التحكيم، الحكمة، الحكومة)

ب. تنبه الإنسان لمعنى الحكم في الأمور الوضعية الاعتبارية (كالملك والحق والقضاء)، ثم طبق هذا المعنى على الأمور التكوينية عند نسبتها إلى الله، فكل نظام في الخلق هو حكم من الله وقضاء.

ج. نظرية التوحيد في القرآن تثبت أن التأثير الحقيقي في الوجود لله وحده، فلا حكم تكوينياً مستقلاً لأحد سواه، لأن الحكم نوع من التأثير والجعل.

د. الآيات القرآنية دلت على اختصاص الحكم التكويني بالله تعالى، واختُصاص الحكم التشريعي به أيضاً، مع جواز نسبة الحكم التشريعي لغيره بإذن منه وتبعية.

هـ. الآيات التي تنسب الحكم إلى غير الله (كالحكام والأنبياء) مقيدة بأن يكون بالحق وبما أنزل الله، فهي نفي للاستقلال وإثبات للتبعية.

و. القرآن خص بعض الألفاظ (كالبديع والبارئ والفاطر) بالله تعالى؛ لأنها تشعر بنوع من الاستقلال والاختصاص لا يليق بغيره، مراعاة لحرمة ساحة الربوبية.

٤. لنرجع إلى ما كنا فيه من تفسير الآية فقوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ﴾ أريد بالحكم فيه القضاء التكويني، والجملة تعليل للنفي في قوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ والمعنى، على ما يعطيه السياق، أن الحكم لله وحده وليس إلي أن أقضي بيني وبينكم، وهو الذي تستعجلون به باستعجالكم بما تقترحون علي من الآية.

٥. وعلى هذا فقوله: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ مستعمل استعمال الكناية كأنهم باقتراحهم

إتيان آية أخرى غير القرآن كانوا يقترحون عليه ﷺ أن يقضي بينه وبينهم ولعل هذا هو السر في تكرار لفظ الموصول والصلة في الآية التالية حيث يقول تعالى: ﴿قُل لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وكان مقتضى ظاهر السياق أن يقال: لو أن عندي ذلك، وذلك أنه أريد بقوله: ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ في الآية الأولى: لازم الآية وهو القضاء بينه وبينهم على ما جرت به السنة الإلهية، وفي الآية الثانية: نفس الآية، ومن المحتمل أيضا أن يكون أمر الكناية بالعكس من ذلك فيكون المراد بما تستعجلون به هو القضاء بالصراحة في الآية الأولى، والآية بالتكنية في الآية الثانية.

٦. ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ قرأ عاصم ونافع وابن كثير من السبعة بالقاف والصاد المهملة من القص وهو قطع شيء وفصله من شيء ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] وقرأ الباقون بالقاف والضاد المعجمة من القضاء، وقد حذف الياء من الرسم على حد قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥] ولكن من القراءتين وجه، ومآلهما من حيث المعنى واحد فإن قص الحق وفصله من الباطل لازم القضاء والحكم بالحق وإن كان قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ أنسب مع القص بمعنى الفصل.

٧. وأما أخذ قوله: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ من القص بمعنى الإخبار عن الشيء أو بمعنى تتبع الأثر على ما احتمله بعض المفسرين فمما لا يلائم المورد:

أ. أما الأول فلأن الله سبحانه وإن قص في كلامه كثيرا قصص الأنبياء وأممهم غير أن المقام خال عن ذلك فلا موجب لذكر هذا النعت له وتوصيفه تعالى به.

ب. وأما الثاني فلأن محصل معناه أن سنته تعالى أن يتبع الحق ويقتفي أثره في تدبير مملكته وتنظيم أمور خليقته، والله سبحانه وإن كان لا يحكم إلا الحق ولا يقضي إلا الحق إلا أن أدب القرآن الحكيم يأبى عن نسبة الاتباع والاقتفاء إليه تعالى، وقد قال تعالى فيما قال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [آل عمران: ٦٠] ولم يقل: الحق مع ربك، لما في التعبير بالمعية من شائبة الاعتضاد والتأيد والإيهام إلى الضعف.

٨. وضع هنا مبحثا حول [حقيقة فعل الله وحكمه وأنهما عين الحق لا يتبعان المصلحة]، خلاصته:

أ. فعل الله وحكمه هما نفس الحق، لا أنهما يطابقان الحق أو يوافقانه؛ لأن الحق ثابت في الخارج والنظام الكوني، والله هو موجد هذا النظام، ففعله هو عين الواقع.

ب. الحق في الأفعال والأحكام البشرية هو ما يطابق المصلحة الواقعية المستمدة من نظام الكون، أما حقية فعل الله فلا تتوقف على مطابقة مصلحة سابقة، بل هي نفس الواقع.

ج. المصالح والمفاسد والحسن والقبح هي أمور اعتبارية نستعملها في حياتنا الاجتماعية، وليست حقائق نفس الأمرية مستقلة عن الله تحكم على أفعاله.

د. فرَّطت طائفتان في هذا الباب: المفوضة (جعلوا المصالح حاكمة على الله) والمجبرة (نفوا الحسن والقبح والمصلحة بالكلية)، والصواب هو الموقف الوسط.

هـ. الفرق الجوهري بين أفعالنا وأفعال الله: أفعالنا تتبع المصالح والغايات وهي معللة بها، أما أفعال الله فهي عين الحقيقة، والمصالح والحسن تترتب عليها لزوماً لا أنها تؤثر فيها.

و. الله لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون؛ لأنه هو الحقيقة المطلقة، وكل ما سواه تابع له، وليس لأحد أن يعقب حكمه أو يعارض مشيته.

٩. ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، أي لو قدرت على ما تقترحونه علي من الآية والحال أنها بحيث إذا نزلت على رسول لم تنفك عن الحكم الفصل بينه وبين أمته لقضي الأمر بيني وبينكم، ونجي بذلك أحد المتخاصمين المختلفين وعذب الآخر وأهلك، ولم يعذب بذلك ولا يهلك إلا أنتم لأنكم ظالمون، والعذاب الإلهي إنما يأخذ الظالمين بظلمهم، وهو سبحانه أنزه ساحة من أن يشتبه عليه الأمر ولا يميز الظالمين من غيرهم فيعذبني دونكم.

١٠. ففي قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ نوع تكنية وتعليل أي إنكم أنتم المعذبون لأنكم ظالمون والعذاب الإلهي لا يعدو الظالمين إلى غيرهم، وفي الجملة إشارة إلى ما تقدم من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [محمد: ٤٧]

١١. أحاديث وآثار: أخرج الدارقطني في الإفراد وابن مردويه عن أبي بن كعب قال: أقرأ رسول الله ﷺ رجلاً: ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾

٣٦. مفاتح الغيب والكتاب المبين:

المقطع [٣٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا

يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٢٥»:

١. ذكروا في وجه اتصال الآية بما قبلها:

أ. أن الآية السابقة لما ختمت بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ زاد الله سبحانه في بيانه فذكر أن خزائن الغيب أو مفاتيح تلك الخزائن عنده سبحانه لا يعلمها إلا هو، ويعلم كل دقيق وجليل، وهذا الوجه لا يتضح به معنى الحصر الذي يدل عليه قوله: ﴿لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾

ب. فالأولى أن يوجه الاتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين السابقتين أعني قوله: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ حيث يدل المجموع على أن ما كانوا يقترحونه من الآية وما يستتبعه من الحكم الفصل والقضاء بينه وبينهم إنما هو عند الله لا سبيل إليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به، ولا يغلط في حكمه الفصل وتعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره، وعالم بكل ما جل ودق لا يضل ولا ينسى، ثم زاد ذلك بيانا بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ فبين به اختصاصه تعالى بعلم الغيب وشمول علمه كل شيء، ثم تمم البيان بالآيات الثلاث التي تتلوها، وبذلك تصير الآيات جارية مجرى ما سيقت إليه نظائرها في مثل المورد كقوله تعالى في قصة هود وقومه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]

٢. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى مفاتح الغيب والكتاب المبين في القرآن الكريم]، خلاصته:

أ. بيان أن ﴿مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ تعني خزائن الغيب، وأن المراد بها علم الله بالأشياء قبل نزولها إلى عالم الشهود والتقدير.

ب. إثبات أن صدر الآية يدل على انحصار علم الغيب المطلق في الله، وذيلها يدل على شمول علمه لكل شيء غيباً وشهادة.

ج. توضيح الفرق بين الغيب المطلق والغيب النسبي، وأن الغيب المطلق هو ما في خزائن الله قبل التقدير، والغيب النسبي هو ما غاب عنا من الأمور المقدرة.

د. بيان أن الكتاب المبين غير خزائن الغيب، فهو أمر يضبط الأشياء بعد نزولها من الخزائن وقبلها وبعدها، وهو مشتمل على حدود الأشياء وأقدارها.

هـ. إثبات أن الكتاب المبين ليس من قبيل الألواح الجسمانية، بل هو أمر وراء ذلك، لا يتغير ولا يتبدل، وهو المحفوظ في لوح محفوظ.

و. توضيح ارتباط الآية بما قبلها، وأنها ردّ على اقتراح المشركين للآيات، بإرجاع الأمر إلى علم الله وقدرته.

٣. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي اَلْبَرِّ وَاَلْبَحْرِ﴾ تعميم لعلمه بما يمكن أن يتعلق به علم غيره مما ربما يحضر بعضه عند بعض وربما يغيب بعضه عن بعض، وإنما قدم ما في البر لأنه أعرف عند المخاطبين من الناس.

٤. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ اختص بالذكر لأنه مما يستصعب الإنسان حصول العلم به لأن الكثرة البالغة التي في أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من بعض فيراقب كلا منها فيما يطرأ عليه من الأحوال، ويتنبه على انتقاصها بالساقط منها إذا سقط.

٥. ﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ اَلْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ الآية، معطوفات على قوله: ﴿مِنْ وَرَقَةٍ﴾ على ظاهر السياق، والمراد بظلمات الأرض بطونها المظلمة التي تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو ويفسد ما يفسد فالمعنى: ولا تسقط من حبة في بطون الأرض المظلمة ولا يسقط من رطب ولا من يابس أيا ما كانا إلا يعلمها، وعلى هذا فقوله: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ بدل من قوله: ﴿إِلاَّ يَعْلَمُهَا﴾ سد مسده، وتقديره إلا هو واقع مكتوب في كتاب مبين.

٦. وتوصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شيء على حقيقة ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغير والتبدل وسترة الخفاء في شيء من نعوته، وإن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضا لأن الكتاب في الحقيقة هو المكتوب، والمكتوب هو المحكي عنه، وإذا كان ظاهرا لا سترة عليه ولا خفاء فيه فالكتاب كذلك.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد والبخاري وحشيش بن أصرم في الاستقامة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى تقوم الساعة إلا الله تبارك وتعالى.

• أقول: ولا ينبغي أن تعد الرواية على تقدير صحتها منافية لما تقدم من عموم الآية؛ لأن العدد لا مفهوم له، وما في الرواية من المفاتيح يجمعها العلم بالحوادث قبل حدوثها، وللغيب مصاديق أخر غير الخمس بدلالة من نفس الآية.

ب. أخرج الخطيب في تاريخه بسند ضعيف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: ما من زرع على وجه الأرض ولا ثمار على أشجار إلا عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا رزق فلان ابن فلان، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

• أقول: والرواية على ضعف سندها لا ينطبق مضمونها على الآية ذلك الانطباق.

ج. وفي تفسير العياشي عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩] إلى قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، قال: الورقة السقط، والحبة الولد، وظلمات الأرض الأرحام، والرطب ما يحيى، واليابس ما يغيض، وكل ذلك في كتاب مبين.

• أقول: ورواه أيضاً الكليني والصدوق عن أبي الربيع عنه، والقمي مرسلاً، والرواية لا تنطبق على ظاهر الآية، ونظيرتها رواية أخرى رواها العياشي عن الحسين بن سعيد عن أبي الحسن عليه السلام.

٣٧. الله والرقابة الدائمة على أعمال الإنسان:

المقطع [٣٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٣١»:

١. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾:

أ. التوفي أخذ الشيء بتمامه، ويستعمله الله سبحانه في كلامه بمعنى أخذ الروح الحية كما في حال الموت كما في قوله في الآية التالية: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾، فقد عد الإنامة توفيا كما عد الإماتة توفيا على حد قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] لاشتراكهما في انقطاع تصرف النفس في البدن كما أن البعث بمعنى الإيقاظ بعد النوم يشارك البعث بمعنى

الإحياء بعد الموت في عود النفس إلى تصرفها في البدن بعد الانقطاع، وفي تقييد التوفي بالليل كالبعث بالنهار جري على الغالب من أن الناس ينامون بالليل ويستيقظون بالنهار.

ب. وفي قوله تعالى ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ دلالة على أن الروح تمام حقيقة الإنسان الذي يعبر عنه بـ (أنا) لا كما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد جزئي الإنسان لا تمامه أو أنها هيئة أو صفة عارضة له، وأوضح منه دلالة قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] فإن استبعاد الكفار مبني على أن حقيقة الإنسان هو البدن الذي يتلاشى ويفسد بانحلال التركيب بالموت فيضل في الأرض، والجواب مبني على كون حقيقته هو الروح (النفس) وإذ كان ملك الموت يتوفاه ويقبضه فلا يفوت منه شيء.

٢. ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ الجرح هو الفعل بالجارحة والمراد به الكسب أي يعلم ما كسبتم بالنهار، والأنسب أن يكون الواو حالية والجملة حالا من فاعل يتوفاكم، ويتصل حينئذ قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾، من غير تخلل معنى أجنبي فإن الآيتين في مقام شرح وقوع التدبير الإلهي بالإنسان في حياته الدنيا وعند الموت وبعده حتى يرد إلى ربه، والأصل العمدة من جمل الآيتين المسرودة لبيان هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ويَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي في النهار ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾ فهذا هو الأصل في المقصود، وما وراء ذلك مقصود بالتبع، والمعنى وهو الذي يتوفاكم بالليل والحال أنه يعلم ما كسبتم في النهار، ثم يبعثكم في النهار.

٣. ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾:

أ. سمي الإيقاظ والتنبيه بعثا محاذاة لتسمية الإنامة توفيا وجعل الغرض من البعث قضاء الأجل المسمى وهو الوقت المعلوم عند الله الذي لا يتخطاه حياة الإنسان الدنيوية كما قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]

ب. وإنما جعل قضاء الأجل المسمى غاية لأنه تعالى أسرع الحاسبين، ولولا تحقق قضاء سابق لأخذهم بسيئات أعمالهم ووبال آثامهم، كما قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ولولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤] والقضاء السابق هو الذي

يشتمل عليه قوله تعالى في قصة هبوط آدم عليه السلام: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، فالمعنى أن الله يتوفاكم بالليل والحال أنه يعلم ما كسبتم في النهار من السيئات وغيرها لكن لا يمسك أرواحكم ليديم عليها الموت بل يبعثكم في النهار بعد التوفي لتقضى آجالكم المسماة ثم إليه مرجعكم بنزول الموت والحشر فينبئكم بما كنتم تعملون.

٣٨. القهر الإلهي وإرسال الحفظة والموت:

المقطع [٣٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١-٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٣٢»:

١. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قد تقدم الكلام فيه في تفسير الآية ١٧ من السورة.

٢. ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾:

أ. إطلاق إرسال الحفظة من غير تقييد لا في الإرسال ولا في الحفظة ثم جعله مغيا بمجيء الموت لا يخلو عن دلالة على أن هؤلاء الحفظة المرسلين شأنهم حفظ الإنسان من كل بلية تتوجه إليه ومصيبة تتوخاه، وآفة تقصده فإن النشأة التي نحن فيها نشأة التفاعل والتزاحم، ما فيه من شيء إلا وهو مبتلى بمزاحمة غيره من شيء من جميع الجهات لأن كلا من أجزاء هذا العالم الطبيعي بصدد الاستكمال واستزادة سهمه من الوجود، ولا يزيد في شيء إلا وينقص بنسبته من غيره فالأشياء دائما في حال التنازع والتغلب، ومن أجزائه الإنسان الذي تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجودة فيه وأدقها فيما نعلم فرقباؤه في الوجود أكثر وأعداؤه في الحياة أخطر فأرسل الله إليه من الملائكة حفظة تحفظه من طوارق الحدثان وعوادي البلايا والمصائب ولا يزالون يحفظونه من الهلاك حتى إذا جاء أجله خلوا بينه وبين البلية فأهلكته على ما في الروايات.

ب. أما ما ذكره في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢] فإنما يريد به الحفظة على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسرة لهذه الآية، والآية وإن لم تأب هذا المعنى كل الإباء لكن قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ إلى آخر الآية، كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

٣. ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾:

أ. الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل والتسامح في إنفاذ الأمر الإلهي بالتوفي فإن الله سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون، وذكر أن كل أمة رهن أجلهم فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فالملائكة المتصدون لأمر التوفي لا يقصرون عن الحد الواجب المحدود المكشوف لهم من موت فلان في الساعة الفلانية على الشرائط الكذائية فهم لا يسامحون في توفي من أمروا بتوفيه ولا مقدار ذرة فهم لا يفرطون.

ب. سؤال وإشكال: هل هذه الرسل هم الرسل المذكورون أولا حتى تكون الحفظة هم الموكلين على التوفي؟ والجواب: الآية ساكتة عن ذلك إلا ما فيها من إشعار ضعيف بالوحدة غير أن هؤلاء الرسل المأمورين بالتوفي كائنين من كانوا هم من أعوان ملك الموت لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]

ج. ونسبة التوفي إلى هؤلاء الرسل ثم إلى ملك الموت في الآية المحكية آنفا ثم إلى الله سبحانه في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنْفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] من قبيل التفنن في مراتب النسب فالله سبحانه ينتهي إليه كل أمر وهو المالك المتصرف على الإطلاق، ولملك الموت التوسل إلى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل ووسائله وأدواته كالخط الذي يخط القلم ووراءه اليد ووراءهما الإنسان الكاتب.

٤. ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَاهُمُ ٱلْحَقِّ﴾:

أ. إشارة إلى رجوعهم إلى الله سبحانه بالبعث بعد الموت، وتوصيفه تعالى بأنه مولاهم الحق للدلالة على علة جميع ما تقدم من تصرفاته تعالى بالإنامة والإيقاظ والتدبير والإماتة والبعث، وفيه تحليل لمعنى المولى ثم إثبات حق المولوية له تعالى، فالمولى هو الذي يملك الرقبة فيكون من حقه جواز التصرف فيها كيفما شاء، وإذ كان له تعالى حقيقة الملك، وكان هو المتصرف بالإيجاد والتدبير والإرجاع فهو المولى الحق الذي يثبت له معنى المولوية ثبوتا لا زوال له بوجه البتة.

ب. ﴿ٱلْحَقِّ﴾ من أسماء الله الحسنى لثبوته تعالى بذاته وصفاته ثبوتا لا يقبل الزوال ويمتنع عن التغير والانتقال.

ج. والضمير في ﴿رُدُّوا﴾ راجع إلى الآحاد الذي يومئ إليه سابق الكلام من قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ فإن حكم الموت يعم كل واحد ويجتمع به آحادهم نفس الجماعة، ومن هنا يظهر أن قوله:

﴿ثُمَّ رُدُّوا﴾ ليس من قبيل الالتفات من الخطاب السابق إلى الغيبة.

٥. ﴿أَلاَ لَهُ اَلْحُكْمُ﴾، لما بين تعالى اختصاصه بمفاتح الغيب وعلمه بالكتاب المبين الذي فيه كل شيء، وتدبيره لأمر خلقه من لدن وجدوا إلى أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا إلى غيره، وهو الذي ذكره فيما مر من قوله: ﴿إِنِ اَلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ أعلن نتيجة بيانه فقال ﴿أَلاَ لَهُ اَلْحُكْمُ﴾ ليكون منبها لهم مما غفلوا عنه.

٦. وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ اَلْحَاسِبِينَ﴾ نتيجة أخرى لسابق البيان فإنه تبين به أنه تعالى لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له، وإنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذي أجل له.

٣٩. الله وكشف كرب عباده وتضرعهم:

المقطع [٣٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٣٤»:

١. ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اَلْبَرِّ وَاَلْبَحْرِ تَدْعُونَهُ﴾:

أ. كأن المراد بالتنجية من ظلمات البر والبحر هو التخليص من الشدائد التي يبتلى بها الإنسان في خلال الأسفار إذا ضرب في الأرض أو ركب البحر كالبرد الشديد والأمطار والثلوج وقطاع الطريق والطوفان ونحو ذلك، وأشق ما يكون ذلك على الإنسان في الظلمات من ليل أو سحاب أو ريح تثير عجاج الأرض فيزيد في اضطراب الإنسان وحيرته وضلاله طريق الاحتيال لدفعه، ولذلك علقت التنجية على الظلمات، وكان أصل المعنى الاستفهام عمن ينجي الإنسان من الشدائد التي يبتلى بها في أسفاره في البر والبحر فأضيفت الشدائد إلى البر والبحر بعناية الظرفية ثم أضيفت إلى ظلمات البر والبحر لأن للظلمات تأثيرا تاما في تشديد هذه المكاره، ثم حذفت الشدائد وأقيمت الظلمات مقامها فعلقت التنجية عليها فقيل: ينجيكم من ظلمات البر والبحر.

ب. وإنما خصت الظلمات بالذكر وإن كان المنجي من كل مكروه وغم هو الله سبحانه كما يذكره في الآية التالية لأن أسفار البر والبحر معروف عند الإنسان بالعناء والوعثاء والكريهة.

ج. والتضرع إظهار الضراعة وهو الذل والخضوع على ما ذكره الراغب، ولذلك قوبل بالخفية

وهو الخفاء والاستتار فالتضرع والخفية في الدعاء هما الإعلان والإسرار فيه، والإنسان إذا نزلت به المصيبة يبتدئ فيدعو للنجاة بالإسرار والمناجاة ثم إذا اشتدت به ولاح بعض آثار اليأس والانقطاع من الأسباب لا يبالي بمن حوله ممن يطلع على ذلته واستكانته فيدعو بالتضرع والمناداة ففي ذكر التضرع والخفية إشارة إلى أنه تعالى هو المنجي من مصائب البر والبحر شديدتها ويسيرتها.

٢. في قوله: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ اَلشَّاكِرِينَ﴾:

أ. إشارة إلى أن الإنسان يضيف في هذه الحالة التي يدعو لكشفها إلى دعائه عهدا يقدمه إلى ربه ووعدا يعده به أن لو كشف الله عنه ليكونن من الشاكرين ويرجع عن سابق كفره، وأصل هذه العدة مأخوذ من العادة الجارية بين أفراد الإنسان بعضهم مع بعض فإن الواحد منا إذا أعيته المذاهب وأحاطت به البلية من مصيبة قاصمة أو فقر أو عدو واستغاث لكشف ما به من كرب إلى أحد الأقوياء القادرين على كشفه بزعمه وعده بما يطيب به نفسه ويقوي باعث عزيمته وفتوته، وذلك بثناء جميل أو مال أو طاعة أو وفاء كل ذلك لما أن الأعمال الاجتماعية التي تدور بيننا كلها معاملات قائمة بطرفين يعطي فيها الإنسان شيئا ويأخذ شيئا لأن الحاجة محيطة بالإنسان ليس له أن يعمل عملا أو يؤثر أثرا إلا لنفع عائد إلى نفسه، ومثله سائر أجزاء الكون.

ب. لكن الله سبحانه أكرم ساحة أن تمسه حاجة أو يطرأ عليه منقصة لا يفعل فعلا إلا ليعود نفعه إلى غيره من خليقته فوجه التوحيد في مقابلة الإنسان له بوعد الشكر والطاعة في دعائه الفطري هو أن الإنسان إذا نزلت به النازلة، وانقطعت عنه الأسباب وغابت عن مسرح نظره وسائل الخلاص وجد أن الله سبحانه هو السبب الوحيد الذي يقدر على كشف ما به من غم، وأنه الذي يدبر أمره منذ خلقه ويدبر أمر كل سبب فوجد نفسه ظالما مفرطا في جنب الله سبحانه لا يستحق كشف الغم ورفع الحاجة من قبله تعالى لما كسبت يداه من السيئات، وحملت نفسه من وبال الخطيئة فعندئذ يعد ربه الشكر والطاعة ليصحح ذلك استحقاقه لاستجابة دعائه وكشف ضره، ولذلك نجده أنه إذا نجي مما نزل به النائبة ذهب لوجهه ناسيا لما عهد به ربه ووعده من الشكر كما قال تعالى في ذيل الآية التالية: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

٣. ﴿قُلِ اَللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

أ. قال الراغب في مفرداته: (الكرب الغم الشديد، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ اَلْكَرْبِ

ﭐلۡعَظِيمِ﴾ والكربة كالغمة، وأصل ذلك من كرب الأرض بسكون الراء وهو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك وقيل في مثل: الكراب على البقر وليس ذلك من قولهم: الكلاب على البقر، في شيء، ويجوز أن يكون الكرب من كربت الشمس إذا دنت للمغيب، وقولهم: إناء كربان أي قريب نحو قربان أي قريب من الملء، أو من الكرب (بفتحتين) وهو عقد غليظ في رشا الدلو، وقد يوصف الغم بأنه عقد على القلب يقال: أكربت الدلو)

ب. وقد أضيف في هذه الآية كل كرب إلى ظلمات البر والبحر ليعم الجميع فإن إنسانا ما لا يخلو في مدى حياته من شيء من الكروب والغموم فالمسألة والدعاء عام فيهم سواء أعلنوا به أو أسروا.

٤. فملخص المراد بالآية أنكم في الشدائد النازلة بكم في ظلمات البر والبحر وغيرها إذا انقطعتم عن الأسباب الظاهرة وأعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع إلى فطرتكم الإنسانية أن الله سبحانه هو ربكم لا رب سواه وتجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم وإثم والشاهد على ذلك أنكم تدعونه حينئذ تضرعا وخفية، وتعدونه أن تشكروه بعد ذلك ولا تكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجاء تنقضون ميثاقكم الذي واثقتموه به وتستمرون على سابق كفركم، ففي الآيتين احتجاج على المشركين وتوبيخ لهم على حنث اليمين وخلف الوعد.

٤٠. الله والقدرة على أصناف العذاب:

المقطع [٤٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ الۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنۡ يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابًا مِنۡ فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِنۡ تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُمۡ بَأۡسَ بَعۡضٍ انۡظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ الۡآيَاتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٣٦»:

١. ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَنۡ يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَاباً مِنۡ فَوۡقِكُمۡ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته وسيرته، وقوله عز وجل: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يخرجهم ويسيرهم إلى القيامة إلى أن قال: فالبعث ضربان: بشري كبعث البعير وبعث الإنسان في حاجة، وإلهي وذلك ضربان: أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع عن ليس وذلك يختص به الباري تعالى ولم يقدر عليه أحد، والثاني إحياء الموتى وقد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السلام وأمثاله)

ب. وبالجملة في لفظه شيء من معنى الإقامة والإنهاض، وبهذه العناية يستعمل في التوجيه والإرسال لأن التوجيه إلى حاجة والإرسال نحو قوم يكون بعد سكون وخمود غالبا، وعلى هذا فبعث العذاب لا يخلو من إشعار على أنه عذاب من شأنه أن يتوجه إليهم ويقع بهم، وإنما يمنع عن هذا الاقتضاء مانع كالإيمان والطاعة، وللكلام تتمة سنوافيك.

ج. وقال في المجمع: (لبست عليهم الأمر ألبسه إذا لم أبينه وخلطت بعضه ببعض ولبست الثوب ألبسه، واللبس اختلاط الأمر واختلاط الكلام، ولابست الأمر خالطته، والشيع الفرق، وكل فرقة شيعة على حدة، وشيعة فلان تبعته، والتشيع الاتباع على وجه التدين والولاء)، وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ أن يضرب البعض بالبعض ويخلط حال كونهم شيعا وفرقا مختلفة.

٢. ﴿قُلْ هُوَ اَلْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾:

أ. ظاهره إثبات القدرة لله سبحانه على بعث العذاب عليهم من فوق أو من تحت، والقدرة على الشيء لا تستلزم فعله، وهو أعني إثبات القدرة على الفعل الذي هو العذاب كاف في الإخافة والإنذار لكن المقام يعطي أن المراد ليس هو إثبات مجرد القدرة بل لهم استحقاق لمثل هذا العذاب، وفي العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم إن لم يجتمعوا على الإيمان بالله وآياته كما مر من استفادة ذلك من معنى البعث، ويؤيده قوله بعد: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإنه تهديد صريح.

ب. على أنه تعالى يهدد هذه الأمة صريحا بالعذاب في موارد مشابهة لهذا المورد من كلامه كقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الآيات (يونس: ٤٧، ٥٣) وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخر الآيات: (الأنبياء: ٩٣، ٩٧) وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ إلى أن قال: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ مِنَ اَلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً﴾ إلى آخر الآيات: (الروم: ٣٠، ٤٥)

ج. وقد قيل: إن المراد بالعذاب الذي من فوقهم هو الصيحة والحجارة والطوفان والريح كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط، وبالذي من تحت أرجلهم الخسف كما فعل بقارون، وقيل: إن المراد بما من فوقهم العذاب الآتي من قبل كبارهم أو سلاطينهم الجبابرة وبما من تحت أرجلهم ما يأتيهم من قبل

سفلتهم أو عبيدهم السوء، وقيل: المراد بها من فوق وبها من تحت الأسلحة النارية القتالة التي اخترعها البشر أخيرا من الطيارات والمناطد التي تقذف القنابل المحرقة والمخربة وغيرها ومراكب تحت البحر المغرفة للسفائن والباخرات فإن الإنذار إنما وقع في كلامه تعالى وهو أعلم بما كان سيحدث في مملكته، والحق أن اللفظ مما يقبل الانطباق على كل من المعاني المذكورة وقد وقع بعد النزول ما ينطبق عليه اللفظ، والمحتد الأصلي لهذه الوقائع الذي مهد لها الطريق هو اختلاف الكلمة والتفرق الذي بدأت به الأمة وجبهت به النبي ﷺ فيما كان يدعوهم إليه من الاتفاق على كلمة الحق، وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم.

٣. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾:

أ. ظاهره أنه أريد به التحزبات التي نشأت بعد النبي ﷺ، فأدى ذلك إلى حدوث مذاهب متنوعة ألبست لباس العصبية والحمية الجاهلية واستتبعت حروبا ومقاتل يستبيح كل فريق من غيره كل حرمة ويطرده بمزعمته من حرمة الدين وبيضة الإسلام.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ﴾، عذاب واحد لا عذابان وإن أمكن بوجه عد كل من إلقاء التفرق في الكلمة وإذاقة البعض بأس بعض عذابا مستقلا برأسه فللتفرقة بين الأمة أثر سوء آخر وهو طرو الضعف ونفاد القوة وتبعض القدرة لكن المأخوذ في الآية المعدود عذابا أعني قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ﴾، حينئذ بالنسبة إلى مجرد إلقاء الاختلاف بمنزلة المقيد بالنسبة إلى المطلق، ولا يحسن مقابلة المطلق بالمقيد إلا بعناية زائدة في الكلام، على أن العطف بواو الجمع يؤيد ما ذكرناه.

ج. فبالجملة معنى الآية: قل يا رسول الله مخاطبا لهم منذرا لهم عاقبة استنكافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحيد واستماع دعوة الحق إن لشأنكم هذا عاقبة سيئة في قدرة الله سبحانه أن يأخذكم بها وهو أن يبعث عليكم عذابا لا مفر لكم منه ولا ملاذ تلوذون به وهو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعا وفرقا مختلفين متنازعين ومتحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض.

٤. ثم تمم البيان بقوله خطابا لنبيه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾، والمعنى ظاهر.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام:

٦٥]، قال: السلاطين الظلمة، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، العبيد السوء ومن لا خير فيه، قال: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ب. وقال في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، قيل: عنى به يضرب بعضكم ببعض بما يلقيه بينكم من العداوة والعصبية، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

ج. وقال في قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قيل: هو سوء الجوار، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

د. وفي تفسير القمي وقوله: ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: السلطان الجائر، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: السفلة ومن لا خير فيه، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: العصبية، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: سوء الجوار.

هـ. قال القمي: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: هو الدخان والصيحة، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: وهو الخسف، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهو اختلاف في الدين، وطعن بعضكم على بعض، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهو أن يقتل بعضكم بعضاً، فكل هذا في أهل القبلة، يقول الله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]

و. أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري والترمذي والنسائي ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال رسول الله ﷺ: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: هذا أهون أو أيسر.

• أقول: وروي أيضاً ما يقرب منه عن ابن مردويه عن جابر.

ز. أخرج أحمد والترمذي وحسنه ونعيم بن حماد في الفتن وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، فقال النبي ﷺ: أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد.

• أقول: وهناك روايات كثيرة مروية من طرق أهل السنة، وروايات أخرى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أن ما أوعده الله في الآية من العذاب النازل من فوقهم ومن تحت أرجلهم، أعني الصيحة والخسف، سيقع على هذه الأمة، وأما لبسهم شيعاً وإذاقة بعضهم بأس بعض، فوقوعه مفروغ عنه.

• وقد روى السيوطي في الدر المنثور وابن كثير في تفسيره أخباراً كثيرة دالة على أنه لما نزلت الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾ [الأنعام: ٦٥] إلى آخرها، استعاذ النبي ﷺ إلى ربه ودعاه أن لا يعذب أمته بما أوعدهم من أنواع العذاب، فأجابه ربه إلى بعضها ولم يجبه إلى بعض آخر، وهو أن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض.

• وهذه الروايات على كثرتها، وإن اشتملت على القوية والضعيفة من حيث أسنادها، موهونة جميعاً بمخالفتها لظاهر الآية، فإن قوله تعالى في الآيتين التاليتين: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٧]، تهديد صريح بالوقوع، وقد نزلت الآيات وهي من سورة الأنعام دفعة، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يبلغ ذلك أمته، ولو كان هناك بداء لرفع البلاء، لكان من الواجب أن نجده في كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وليس من ذلك أثر، بل الأمر على خلافه، كما تقدم في البيان السابق أن عدة من آيات القرآن الكريم تؤيد هذه الآيات في مضمونها، كالتي في سورة يونس والروم وغيرهما.

• على أنها تعارض روايات أخر كثيرة من طرق الفريقين دالة على وقوع ذلك ونزوله على الأمة في مستقبل الزمان.

• على أن هذه الروايات على كثرتها واتفاق كثير منها في أن النبي ﷺ إنما دعا بهذه المسائل عقيب نزول هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ﴾ [الأنعام: ٦٥] الآية، لا تتفق لا في عدد المسائل، ففي بعضها أنها كانت ثلاثاً، وفي بعضها أنها كانت أربعاً، ولا في عدد ما أجيب إليه، ففي بعضها أنه كان واحداً، وفي بعضها أنه كان اثنين، ولا في نفس المسائل، ففي بعضها أنها كانت هي الرجم من السماء والغرق من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعاً، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أنها الغرق والسنة، وجعل بأسهم بينهم، وفي بعضها أنها السنة العامة، وأن يسلط عليهم عدواً من غيرهم، وأن يذيق بعضهم بأس

بعض، وفي بعضها أن المسائل هي أن لا يجمع أمته على ضلالة، وأن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، وأن لا يهلكهم بالسنين، وأن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أنها أن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، وأن لا يهلكهم بغرق، وأن لا يجعل بأسهم بينهم، وفي بعضها أنها أن لا يهلكهم بما أهلك به من قبلهم، وأن لا يظهر عليهم عدواً من غيرهم، وأن لا يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض، وفي بعضها أنها العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وأن يلبسهم شيعاً، وأن يذيق بعضهم بأس بعض.

• على أن في كثير منها أن دعاءه ﷺ كان في حرة بني معاوية، قرية من قرى الأنصار بالعالية، ولازمه كونه بعد الهجرة، وسورة الأنعام من السور النازلة بمكة قبل الهجرة دفعة، وفي الروايات اختلافات أخرى تظهر لمن راجعها.

• وإن كان ولا بد من أخذ شيء من الروايات، فالوجه هو اختيار ما رواه عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن شداد بن أوس يرفعه إلى النبي ﷺ قال: إن الله زوي لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وإني أعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي أن لا يهلك قومي بسنة عامة، وأن لا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فقال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سواهم فيهلكوهم، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، وبعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً، فقال النبي ﷺ: إني أخاف على أمتي الأئمة المضلين، فإذا وضع السيف في أمتي، لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة.

• فهذه الرواية وما في مضمونها خالية عن غالب الإشكالات السابقة، وليس فيها أن الدعاء كان إثر نزول الآية، وينبغي مع ذلك أن يحمل على أن المراد رفع الهلاك العام والسنة العامة التي تبيد الأمة، وإلا فالسنين والمثلات والمقاتل الذريعة التي لقيتها الأمة في حروب المغول والصليب وبأندلس وغيرها مما لا سبيل إلى إنكارها، وينبغي أيضاً أن تحمل على أن الدعاء والمسألة كان في أوائل البعثة قبل نزول السورة، وإلا فالنبي ﷺ أعلم بمقام ربه وأجل قدراً من أن يتلقى هذه الآيات بالوحي، ثم يراجع ربه في تغيير ما قضى به وأمره بتبليغه وإنذار أمته به.

• وبعد اللتيا والتي، فالقرآن الشريف يدل بآياته على حاق الأمر، وهو أن هذا الدين قائم إلى يوم

القيامة، وأن الأمة لا تبيد عامة، وأن أمثال ما ابتلى الله به الأمم السالفة تبتلي بها هذه الأمة حذو النعل بالنعل من غير أي اختلاف وتخلف.

• والروايات المستفيضة المروية عن النبي والأئمة من أهل بيته ﷺ القطعية في صدورها ودلالتها ناطقة بذلك.

٤١. تكذيب المعاندين والنبأ والمستقر:

المقطع [٤١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٦-٦٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٣٨»:

١. ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهُوَ اَلْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾:

أ. قوم النبي ﷺ هم قريش أو مضر أو عامة العرب والمستفاد من فحوى بعض كلامه تعالى في موارد أخر أن المراد بقومه ﷺ هم العرب كقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ اَلْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ اَلْمُجْرِمِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا اَلْعَذَابَ اَلْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢] وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]

ب. وكيف كان فقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهُوَ اَلْحَقُّ﴾ بمنزلة التمهيد لتحقيق النبإ الذي يتضمنه الإنذار السابق كأنه قيل: يا أيتها الأمة اجتمعوا في توحيد ربكم واتفقوا في اتباع كلمة الحق وإلا فلا مؤمن يؤمنكم عذابا يأتيكم من فوق أو من تحت أو من اختلاف وتحزب يستتبع سيفا وسوطا من بعضكم على بعض، ثم خوطب النبي ﷺ فقيل: إن قومك كذبوا بذلك فليستعدوا لعذاب بئيس أو بأس شديد يذوقونه، ومن هنا يظهر:

• أولا: أن الضمير في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ راجع إلى العذاب كما نسبه الآلوسي إلى غالب المفسرين، وربما قيل: إنه عائد إلى تصريف الآيات أو إلى القرآن وهو بعيد، وليس من البعيد أن يرجع إلى النبإ باعتبار ما تشتمل عليه الآية السابقة.

• وثانيا: أن هذا الخبر أعني قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهُوَ اَلْحَقُّ﴾ بحسب ما يعطيه المقام في معنى ذكر أول خبر يمهد الطريق لنبإ موعود كأنه قيل: يجب على أمتك أن يجتمعوا على الإيمان بالله وآياته ويكونوا

على تحرز وتحذر من أن يتسرب إليهم الكفر بالله وآياته ويدب فيهم اختلاف حتى لا ينزل عليهم عذاب الله سبحانه، ثم قيل: إن قومك من بين جميع أمتك ومن عاصرك أو جاء من بعدك من أهل الدنيا بادروا إلى نقض ما كان يجب عليهم أن يبرموه وكذبوا النبأ فانثلم بذلك الأمر فسوف يعلمون ذلك أن المكذبين للنبي ﷺ أو للقرآن أو لهذا العذاب ليسوا هم الأعراب خاصة وهم قومه ﷺ بل كذبته اليهود وأمم من غيرهم في زمانه وبعده وكان تكذيبهم واختلافهم جميعا ذا أثر مثبت في ما هددوا به من العذاب فتخصيص تكذيب قومه بالذكر والحال هذه يفيد ما ذكرناه، والبحث التحليلي عن نفسية المجتمع الإسلامي يؤيد هذا الذي استفدناه من الآية فإن ما ابتليت به الأمة الإسلامية اليوم من الانحطاط في نفسيتهم والوهن في قوتهم والتشتت في كلمتهم ينتهي بحسب التحليل إلى ما نشأت من الاختلافات والمشاجرات في الصدر الأول بعد رحلة النبي ﷺ ثم يصعد ذلك إلى حوادث أول الهجرة وقبل الهجرة مما لقيه النبي من قومه، وما جبهوه به من التكذيب وتسفيه الرأي، وهؤلاء وإن تجمعوا حول راية الدعوة الإسلامية واستظلوا بظلها بعد ما ظهرت كلمة الحق وأنارت مشعلته لكن المجتمع الطيب الديني لم يصف من خبث النفاق، وقد نطقت آيات جمة من القرآن الكريم بذلك، وكان أهل النفاق لا يستهان بعددهم ومن المحال أن يسلم بنية المجتمع من سيء أثرهم في نفسية أجزائه ولم يقدر على هضمهم هضما تاما يحيلهم إلى أعضاء صالحة في المجتمع مدى حياة النبي ﷺ، ولم يمكث وقودهم دون أن اشتعل ثم زاد اشتعالا ولم يزل، والجميع يرجع إلى ما بدأ منه، وكل الصيد في جوف الفراء.

• وثالثا: أن قوله تعالى: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ مسوق سوق الكناية أي أعرض عنهم وقل: إن أمركم غير مفوض إلي ولا محمول علي حتى أمنعكم من هذا التكذيب نصيحة لكم، وإنما الذي إلي بحسب مقامي أن أنذركم عذابا شديدا هو كمين لكم.

ج. ومن هنا يظهر أيضا: أن قوله: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من مقول القول وتتمة قول النبي ﷺ لقومه كما يؤيده الخطاب في قوله: ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإن القوم إنما هم في موقف الخطاب بالنسبة إلى النبي ﷺ لا بالنسبة إليه تعالى.

٢. ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تصريح بالتهديد وإنباء عن الوقوع الحتمي وقد ظهر مما تقدم وجه صحة خطاب المشركين بما سيبتلى به الأمة الإسلامية من تفرق الكلمة ونزول الشدة فإن

الأعراق تنتهي إليهم وليس الناس إلا أمة واحدة يؤخذ آخرهم بما اكتسبه أولهم ويعود إلى أولهم ما يظهر في آخرهم علموا ذلك أو جهلوا، أبصروا من أنفسهم ذلك أو عموا قال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ ٱلذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] تدبر في الآيات كيف أخذ آخرهم بما أجرمه أولهم أو هي في عداد ما تقدم نقله من آيات سورة يونس والأنبياء والروم، وفي القرآن الشريف شيء كثير من الآيات المنبئة عما سيوافي الأمة من وخيم العاقبة ووبال السيئة ثم إدراك العناية الإلهية ومن أسوإ التقصير إهمال الباحثين منا أمر البحث في هذه الآيات الكريمة على كثرتها وأهميتها وشدة مساسها بحال الأمة وسعادة جدها في دنياها وآخرتها.

٣. أحاديث وآثار: أخرج النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦]، قال: نسخ هذه الآية آية السيف: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]

• أقول: قد عرفت مما تقدم من البيان أن قوله: ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦] مسوق تمهيداً للتهديد الذي يتضمنه قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، وهذا المعنى لا يقبل نسخاً.

٤٢. الأمر بالإعراض عن الخائضين في الآيات والتذكير للمتقين:

المقطع [٤٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٤٠»:

١. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾:

أ. ذكر الراغب في المفردات، (أن الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه، ويستعار في الأمور، وأكثر ما ورد في القرآن ورد فيما يذم الشروع فيه)، وهو الدخول في باطل الحديث والتوغل فيه كذكر الآيات الحقة والاستهزاء بها والإطالة في ذلك.

ب. والمراد بالإعراض عدم مشاركتهم فيما يخوضون فيه كالقيام عنهم والخروج من بينهم أو ما

يشابه ذلك مما يتحقق به عدم المشاركة، وتقييد النهي بقوله: ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ للدلالة على أن المنهي عنه ليس مطلق مجالستهم والقعود معهم، ولو كان لغرض حق، وإنما المنهي عنه مجالستهم ما داموا مشتغلين بالخوض في آيات الله سبحانه.

ج. ومن هنا يظهر أن في الكلام نوعا من إيجاز الحذف فإن تقدير الكلام: وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا يخوضون فيها فأعرض عنهم، فحذفت الجملة المماثلة للصلة استغناء بها عنها، والمعنى، والله أعلم، وإذا رأيت أهل الخوض والاستهزاء بآيات الله يجرون على خوضهم واستهزائهم بالآيات الإلهية فأعرض عنهم ولا تدخل في حلقهم حتى يخوضوا في حديث غيره فإذا دخلوا في حديث غيره فلا مانع يمنعك من مجالستهم، والكلام وإن وقع في سياق الاحتجاج على المشركين لكن ما أشير إليه من الملاك يعممه فيشمل غيرهم كما يشملهم، وقد وقع في آخر الآية قوله: ﴿فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ اَلذِّكْرى مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظَّالِمِينَ﴾ فالخوض في آيات الله ظلم والآية إنما نهت عن مشاركة الظالمين في ظلمهم، وقد ورد في مورد آخر من كلامه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]

د. فقد تبين: أن الآية لا تأمر بالإعراض عن الخائضين في آيات الله تعالى بل إنما تأمر بالإعراض عنهم إذا كانوا يخوضون في آيات الله ما داموا مشتغلين به.

هـ. والضمير في قوله: ﴿غَيْرِهِ﴾ راجع إلى الحديث الذي يخاض فيه في آيات الله باعتبار أنه خوض وقد نهي عن الخوض في الآية.

٢. ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ اَلشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ اَلذِّكْرى مَعَ اَلْقَوْمِ اَلظَّالِمِينَ﴾:

أ. ﴿إِمَّا﴾ في قوله: ﴿إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ﴾ زائد يفيد نوعا من التأكيد أو التقليل والنون للتأكيد، والأصل وإن ينسك، والكلام في مقام التأكيد والتشديد للنهي أي حتى لو غفلت عن نهينا بما أنساكه الشيطان ثم ذكرت فلا تهاون في القيام عنهم ولا تلبث دون أن تقوم عنهم فإن الذين يتقون ليس لهم أي مشاركة للخائضين اللاعبين بآيات الله المستهزئين بها.

ب. والخطاب في الآية للنبي ﷺ والمقصود غيره من الأمة فقد تقدم في البحث عن عصمة الأنبياء عليه السلام ما ينفي وقوع هذا النوع من النسيان وهو نسيان حكم إلهي ومخالفته عملا بحيث يمكن الاحتجاج بفعله على غيره والتمسك به نفسه عنهم عليه السلام، ويؤيد ذلك عطف الكلام في الآية التالية

إلى المتقين من الأمة حيث يقول: ﴿وَمَا عَلَى اَلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى آخر الآية، وأوضح منها دلالة قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي اَلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اَللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اَللَّهَ جَامِعُ اَلْمُنَافِقِينَ وَاَلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٤٠] فإن المراد في الآية وهي مدنية بالحكم الذي نزل في الكتاب هو ما في هذه الآية من سورة الأنعام وهي مكية ولا آية غيرها، وهي تذكر أن الحكم النازل سابقا وجه به إلى المؤمنين، ولازمه أن يكون الخطاب الذي في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ اَلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ موجها إلى النبي ﷺ والمقصود به غيره على حد قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة.

٣. ﴿وَمَا عَلَى اَلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يريد أن الذي يكتسبه هؤلاء الخائضون من الإثم لا يحمل إلا على أنفسهم ولا يتعداهم إلى غيرهم إلا أن يماثلوهم ويشاركوهم في العمل أو يرضوا بعملهم فلا يحاسب بعمل إلا عامله ولكن نذكرهم ذكرى لعلهم يتقون، فإن الإنسان إذا حضر مجلسهم وإن أمكنه أن لا يجاريهم فيما يخوضون ولا يرضى بقلبه بعملهم وأمكن أن لا يعد حضوره عندهم إعانة لهم على ظلمهم تأييدا لهم في قولهم لكن مشاهدة الخلاف ومعاينة المعصية تهون أمر المعصية عند النفس وتصغر الخطيئة في عين المشاهد المعاين، وإذا هان أمرها أوشك أن يقع الإنسان فيها فإن للنفس في كل معصية هوى ومن الواجب على المتقي بما عنده من التقوى والورع عن محارم الله أن يجتنب مخالطة أهل الهتك والاجتراء على الله كما يجب على المبتلين بذلك الخائضين في آيات الله لئلا تهون عليه الجرأة على الله وآياته فتقربه ذلك من المعصية فيشرف على الهلكة، ومن يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

٤. ومن هذا البيان يظهر:

أ. أولا: أن نفي الاشتراك في الحساب مع الخائضين عن الذين يتقون فحسب مع أن غير العامل لا يشارك العامل في جزاء عمله إنما هو للإيماء إلى أن من شاركهم في مجلسهم وقعد إليهم لا يؤمن من مشاركتهم في جزاء عملهم والمؤاخذة بما يؤاخذون به، فالكلام في تقدير قولنا: وما على غير الخائضين من حسابهم من شيء إذا كانوا يتقون الخوض معهم ولكن إنما ننهاهم عن القعود معهم ليستمروا على تقواهم من الخوض أو ليتم لهم التقوى والورع عن محارم الله سبحانه.

ب. وثانيا: أن المراد بالتقوى في قوله: ﴿وَمَا عَلَى اَلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ التقوى العام وهو الاجتناب

والتوقي عن مطلق ما لا يرتضيه الله تعالى، وفي قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ التقوى من خصوص معصية الخوض في آيات الله، أو المراد بالتقوى الأول أصل التقوى وبالثاني تمامه، أو الأول إجمال التقوى والثاني تفصيله بفعلية الانطباق على كل مورد ومنها مورد الخوض في آيات الله، وهاهنا معنى آخر وهو أن يكون المراد بالأول تقوى المؤمنين وبالتقوى الثاني تقوى الخائضين وتقدير الكلام ولكن ذكروا الخائضين ذكرى لعلهم يتقون الخوض.

ج. وثالثا: أن قوله: ذكرى مفعول مطلق لفعل مقدر والتقدير ولكن نذكرهم بذلك ذكرى أو ذكروهم ذكرى أو خبر لمبتدإ محذوف والتقدير: ولكن هذا الأمر ذكرى أو مبتدأ لخبر محذوف والتقدير: ولكن عليك ذكراهم وأوسط الوجوه أسبقها إلى الذهن.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية، بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين قال: قال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس في مجلس يسب فيه إمام، أو يغتاب فيه مسلم، فإن الله يقول في كتابه: ﴿إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]

ب. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر قال: لا تجالسوا أهل الخصومات، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

ج. أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن محمد بن علي قال: إن أصحاب الأهواء من الذين يخوضون في آيات الله.

د. وفي تفسير العياشي عن ربعي بن عبد الله عمن ذكره عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ٦٨]، قال: الكلام في الله والجدال في القرآن، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨]، قال: منه القصاص.

- أقول: والروايات كما ترى تعمم الآية، وهو أخذ بالملاك.

هـ. وفي المجمع قال أبو جعفر عليه السلام: لما أنزل: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

[الأنعام: ٦٨]، قال المسلمون: كيف نصنع؟ إن كان كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم، فلا ندخل إذاً المسجد الحرام، ولا نطوف بالبيت الحرام، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩]، أمرهم بتذكيرهم ما استطاعوا.

• أقول: والرواية كما ترى مبنية على أخذ قوله: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ [الأنعام: ٦٨] مفعولاً مطلقاً، وإرجاع الضميرين في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩] إلى المشركين، والتقدير: ولكن ذكروهم ذكرى لعلهم يتقون، ويبقى على الرواية كون السورة نازلة دفعة واحدة.

و. أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريح قال: كان المشركون يجلسون إلى النبي ﷺ يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية، قال: فجعلوا إذا استهزءوا قام، فحذروا وقالوا: لا تستهزءوا فيقوم، فذلك قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩] أن يخوضوا فتقوم، ونزل: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩] إن تقعد معهم، ولكن لا تقعد، ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، نسخ قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩] الآية.

• أقول: لو كانت آية النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ١٤٠] الآية، وهي عين قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية معنى، ناسخة لقوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩] الآية، فهو أعني قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٦٩] الآية ناسخ لقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ﴾ [الأنعام: ٦٨] الآية، وهو ظاهر، ويأباه نزول السورة دفعة.

• على أن الذي ذكره من المعنى لا يوجب تنافياً بين الآيات الثلاث يؤدي إلى النسخ، حتى تكون الثانية ناسخة للأولى ومنسوخة بالثالثة، وهو ظاهر.

• ونظير الرواية ما رواه أيضاً في الدر المنثور عن النحاس في ناسخه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦٩]، قال: هذه مكية، نسخت بالمدينة بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ [النساء: ١٤٠] الآية.

٤٣. تذكير المغترين بالدنيا وبيان عاقبة الإعراض عن الدين:

المقطع [٤٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٤٣»:

١. ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾ قال الراغب: (البسل ضم الشيء ومنعه ولتضمنه لمعنى الضم أستعير لتقطيب الوجه فقيل: هو باسل ومبتسل الوجه، ولتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم والمرتهن بسل، وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾، أي تحرم الثواب، والفرق بين الحرام والبسل أن الحرام عام فيما كان ممنوعا منه بالحكم والقهر، والبسل هو الممنوع منه بالقهر قال عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أي حرموا الثواب)، وقال في المجمع: (يقال: أبسلته بجريرته أي أسلمته، والمستبسل المستسلم الذي يعلم أنه لا يقدر على التخلص إلى أن قال: قال الأخفش: تبسل أي تجازى، وقيل: تبسل أي ترهن والمعاني متقاربة)، والمعنى: (واترك الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) عد تدينهم بما يدعوهم إليه هوى أنفسهم لعبا وتلهيا بدينهم، وفيه فرض دين حق لهم وهو الذي دعتهم إليه فطرتهم فكان يجب عليهم أن يأخذوا به أخذ جد ويتحرزوا به عن الخلط والتحريف ولكنهم اتخذوه لعبا ولهوا يقلبونه كيف شاءوا من حال إلى حال ويحولونه حسب ما يأمرهم به هوى أنفسهم من صورة إلى صورة.

٢. ثم عطف على اتخاذهم الدين لعبا ولهوا قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ لما بينهما من الملازمة لأن الاسترسال في التمتع من لذائذ الحياة المادية والجد في اقتنائها يوجب الإعراض عن الجد في الدين الحق والهزل واللعب به.

٣. ثم قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ﴾ أي بالقرآن حذرا من أن تبسل أي تمنع نفس بسبب ما كسبت من السيئات أو تسلم نفس مع ما كسبت للمؤاخذة والعقاب، وتلك نفس ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل وتفد كل فدية لا يؤخذ منها لأن اليوم يوم الجزاء بالأعمال لا يوم البيع والشري أولئك الذين أبسلوا ومنعوا من ثواب الله أو أسلموا لعقابه لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

٤٤. هدى الله وحده هو الهدى ومثل من يستهويه الشياطين:

المقطع [٤٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا

وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٤٤»:

١. ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اَللهِ مَا لاَ يَنْفَعُنَا ولاَ يَضُرُّنَا﴾ احتجاج على المشركين بنحو الاستفهام الإنكاري، وإنما ذكر من أوصاف شركائهم كونها لا تنفع ولا تضر لأن اتخاذ الآلهة كما تقدم كان مبنيا على أحد الأساسين: الرجاء والخوف وإذ كانت الشركاء لا تنفع ولا تضر فلا موجب لدعائها وعبادتها والتقرب منها.

٢. ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اَللهُ﴾ إلى قوله: ﴿اِئْتِنَا﴾:

أ. الاستهواء طلب الهوى والسقوط، والرد على الأعقاب كناية عن الضلال وترك الهدى فإن لازم الهداية الحقة الوقوع في مستقيم الصراط والشروع في السير فيه فالارتداد على الأعقاب ترك السير في الصراط والعود إلى ما خلف من المسير وهو الضلال، ولذا قال: ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله فقيد الرد بكونه بعد الهداية الإلهية.

ب. ومن عجيب الاستدلال احتجاج بعض بهذه الآية أعني قوله: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اَللهُ﴾ الآية، وما يجري مجراها من الآيات كقول شعيب عليه السلام على ما حكاه الله تعالى في قصته بقوله: ﴿قَالَ اَلْمَلَأُ اَلَّذِينَ اِسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ اِفْتَرَيْنَا عَلَى اَللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اَللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اَللهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]، فقد احتجوا بها على أن الأنبياء عليه السلام كانوا قبل البعثة والتلبس بلباس النبوة على الكفر لما في لفظ الرد على الأعقاب بعد إذ هدى الله، والعودة في ملة الشرك بعد إذ نجاهم الله منها من الدلالة على كونهم منتحلين بها واقعين فيها قبل النجاة وهو احتجاج فاسد فإن ذلك تكلم منهم بلسان المجتمع الديني الذي كانت أفراده على الشرك حتى هداهم الله بواسطة أنبيائه ولسنا نعني أن غلبة الأفراد الذين كانوا على الشرك في أول عهدهم سوغ أن ينسب كفرهم السابق إلى الجميع حتى يكون تغليبا لشركهم على إيمان نبيهم فإن كلامه الحق لا يحتمل ذلك بل نعني أن مجتمع الدين الشامل للنبي وأمته يصدق عليه أن أفراده إنما نجوا من الشرك بعد هداية الله سبحانه إياهم وليس لهم من دونه إلا

الضلال أما الأمة فإنهم كانوا على الشرك في زمان قبل زمان اهتدائهم بالدين، وأما أنبياؤهم فإنما اهتداؤهم بالله سبحانه، وليس لهم من أنفسهم لولا الهداية الإلهية إلا الضلال فإن غيره تعالى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فمن الصادق في حقهم أن ليس لهم أن يرتدوا على أعقابهم بعد إذ هداهم الله أو يعودوا إلى الشرك بعد إذ نجاهم الله منه.

ج. وبالجملة الكلمة صادقة عليهم بنحو الحقيقة وإن لم يكن بعض مجتمعهم وهو النبي الذي فيهم كافرا قبل نبوته فإن الإيمان والاهتداء على أي حال لهم من الله سبحانه بعد الحال الذي لهم من أنفسهم وحالهم من أنفسهم هو الضلال كما عرفت، على أنك قد عرفت فيما تقدم من البحث المتنوع في عصمة الأنبياء أن القرآن الشريف ناص على طهارة ساحتهم عن أصغر المعاصي الصغيرة فكيف بالكبيرة وبأكبر الكبائر الذي هو الشرك بالله العظيم.

٣. ﴿كَالَّذِي اِسْتَهْوَتْهُ اَلشَّيَاطِينُ فِي اَلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ تمثيل مثل به حال الإنسان المتحير الذي لم يؤت بصيرة في أمره وعزيمة راسخة على سعادته فترك أحسن طريق وأقومه إلى مقصده، وقد ركبه قبله أصحاب له مهتدون به وبقي متحيرا بين شياطين يدعونه إلى الردى والهلاك، وأصحاب له مهتدين قد نزلوا في منازلهم أو أشرفوا على الوصول يدعونه إلى الهدى أن ائتنا فلا يدري ما يفعل وهو بين مهبط ومستوى؟

٤. ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اَللَّهِ هُوَ اَلْهُدى﴾ إلى آخر الآية أي إن كان الأمر دائرا بين دعوة الله سبحانه وهي التي توافق الفطرة وتسميه الفطرة هدى الله، وبين دعوة الشياطين وهي التي فيها الهوى واتخاذ الدين لعبا ولهوا فهدى الله هو الهدى الحقيقي دون غيره، أما أن ما يوافق دعوة الفطرة هو هدى الله فلا شك يعتريه لأن حق الهداية هو الذي ينطق به الصنع والإيجاد الذي ليس إلا لله ولا نروم شيئا من دين أو اعتقاد إلا لابتغاء مطابقة الواقع والواقع لله فلا يعدوه هداه، وأما أن هدى الله هو الهدى الحقيقي الذي يجب أن يؤخذ به دون الدعوة الشيطانية فظاهر أيضا لأن الله سبحانه هو الذي إليه أمرنا كله من جهة مبدئنا ومنتهانا وما نحتاج إليه في دنيا أو آخرة.

٥. ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ اَلْعَالَمِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: تقول العرب: أمرتك لتفعل وأمرتك أن تفعل وأمرتك بأن تفعل فمن قال:

أمرتك بأن تفعل فالباء للإلصاق والمعنى وقع الأمر بهذا الفعل، ومن قال: أمرتك أن تفعل حذف الجار، ومن قال: أمرتك لتفعل فالمعنى أمرتك للفعل، وقال الزجاج: التقدير أمرنا كي نسلم.

ب. والجملة أعني قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ﴾، عطف تفسير لقوله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَى﴾ فالأمر بالإسلام هو مصداق لهدى الله، والمعنى: أمرنا الله لنسلم له وإنما أبهم فاعل الفعل ليكون تمهيدا لوضع قوله: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ موضع الضمير فيدل به على علة الأمر فالمعنى أمرنا من ناحية الغيب أن نسلم لله لأنه رب العالمين جميعا ليس لها جميعا أو لكل بعض منها، كما تزعمه الوثنية رب آخر ولا أرباب أخر، وظاهر الآية أن المراد بالإسلام هو تسليم عامة الأمور إليه تعالى لا مجرد التشهد بالشهادتين، وهو ظاهر قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] كما مر في تفسير الآية.

٤٥. إقامة الصلاة والتقوى والإيمان بالبعث وملكوت الله:

المقطع [٤٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٢-٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٤٦»:

١. ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ تفنن في سرد الكلام بأخذ الأمر بمعنى القول والجري في مجرى هذه العناية كأنه قيل: وقيل لنا: أن أسلموا لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة واتقوه، وقد أجمل تفاصيل الأعمال الدينية ثانيا في قوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ غير أنه صرح من بينها باسم الصلاة تعظيما لأمرها واعتناء بشأنها واهتمام القرآن الشريف بأمر الصلاة ظاهر لا شك فيه.

٢. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فمن الواجب أن يسلم له ويتقى لأن الرجوع إليه، والحساب والجزاء بيده.

٣. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ إلى آخر الآية، بضعة أسماء وأوصاف له سبحانه مذكورة أريد بذكرها بيان ما تقدم من القول وتعليله فإنه تعالى ذكر أن الهدى هداه ثم فسره نوع تفسير بالإسلام له والصلاة والتقوى وهو تمام الدين ثم بين السبب في كون هداه هو الهدى الذي لا يجوز التجافي عنه وهو أن حشر الجميع إليه ثم بينه أتم بيان بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، فهذه

أسماء ونعوت له تعالى لو انتفى واحد منها لم يتم البيان:

أ. فقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، يريد به أن الخلقة جميعا فعله وإنما أتى به بالحق لا بالباطل، والفعل إذا لم يكن باطلا لم يكن مندوحة من ثبوت الغاية له فللخلقة غاية وهو الرجوع إليه تعالى وهذا هو إحدى الحجتين اللتين ذكرهما في قوله عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآيتين: [ص: ٢٧] فخلقة السماوات والأرض بخلقة حقة تؤدي إلى أن الخلق يحشرون إليه.

ب. وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ السياق يدل على أن المراد بالمقول له هو يوم الحشر وإن كان كل موجود مخلوق على هذه الصفة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ويوم ظرف متعلق بالقول والمعنى: يوم يقول ليوم القيامة: كن فيكون، وربما قيل: إن المقول له هو الشيء والتقدير: يوم يقول لشيء كن فيكون، وما ذكرناه أوفق للسياق.

ج. وقوله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ تعليل عللت به الجملة التي قبله، والدليل عليه فصل الجملة، والحق هو الثابت بحقيقة معنى الثبوت وهو الوجود الخارجي والكون العيني وإذ كان قوله هو فعله وإيجاده كما يدل عليه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فقوله تعالى هو نفس الحق فلا مرد له ولا مبدل لكلماته قال تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]

د. قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ يريد به يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى ٱللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ للهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] والمراد بثبوت الملك له تعالى يوم النفخ مع أن له الملك دائما إنما هو ظهور ذلك بتقطع الأسباب وانبتات الروابط والأنساب وقد تقدم شذور من البحث في ذلك فيما تقدم وسيجيء استيفاء البحث عنه وعن معنى الصور في الموضع المناسب لذلك إن شاء الله تعالى.

هـ. وقوله ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ قد تقدم معناه، وهو اسم يتقوم بمعناه الحساب والجزاء، وكذلك الاسمان: الحكيم والخبير فهو تعالى بعلمه بالغيب والشهادة يعلم ظاهر الأشياء وباطنها فلا يخفى عليه ظاهر لظهوره ولا باطن لبطونه، وبحكمته يتقن تدبير الخليقة ويميز الواجب من الجزاء كما ينبغي فلا يظلم ولا يجازف، وبخبرته لا يفوت عنه دقيق لدقته ولا جليل لجلالته.

٤. فهذه الأسماء والنعوت تبين بأتم البيان أن الجميع محشورون إليه وأن هداه هو الهدى ودين الفطرة الذي أمر به هو الدين الحق فإنه تعالى خلق العالم لغاية مطلوبة أرادها منه وهو الرجوع إليه، وإذ كان يريدها فسيقول لها كن فيكون لأن قوله حق لا مرد له، ويظهر اليوم أن الملك له لا سلطنة لشيء غيره على شيء، وعند ذلك يتميز بتمييزه من أطاعه ممن عصاه لأنه يعلم كل غيب وشهادة عن حكمة وخبرة.

٥. وقد بان مما تقدم:

أ. أولا: أن قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أريد به أن خلق السماوات والأرض خلق حق أي إن الحق وصفه، وقد تقدم قريبا معنى كون فعله وقوله تعالى حقا، وأما ما قيل: إن المعنى خلق السماوات والأرض بالقول الحق فبعيد.

ب. وثانيا: أن ظاهر قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بدلالة السياق بيان لأمر يوم القيامة وإن كان الأمر في خلق جميع الأشياء على هذه الطريقة.

ج. وثالثا: أن اختصاص نفخ الصور من بين أوصاف القيامة بالذكر في قوله: ﴿وَلَهُ اَلْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي اَلصُّورِ﴾ للإشارة إلى معنى الإحضار العام الذي هو المناسب لبيان قوله في ذيل الآية السابقة: ﴿وَهُوَ اَلَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإن الحشر هو إخراج الناس وتسييرهم مجتمعين بنوع من الإزعاج، والصور إنما ينفخ فيه لاجتماع أفراد العسكر لأمر يهمهم، ولذلك ينفخ الصور أعني النفخة الثانية يوم القيامة ليحضروا عرصة المحشر لفصل القضاء قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ اَلْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾، إلى أن قال:، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ، فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]، وليس اليوم في الموضعين بمعنى واحد فاليوم الأول أريد به مطلق الظرف كالظرف ليوم القيامة بنوع من العناية الكلامية كقولنا: يوم خلق الله الحركة وحين خلق الله الأيام والليالي وإنما اليوم من فروع الحركة متفرع عليه، والحين هو اليوم والليل، والمراد باليوم الثاني نفس يوم القيامة.

٦. أحاديث وآثار: في تفسير البرهان في قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ اَلْحَقُّ وَلَهُ اَلْمُلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣] الآية، عن ابن بابويه بإسناده عن ثعلبة بن ميمون عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣]، فقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ ما لم يكن، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ ما قد

كان.

• أقول: فيه ذكر أعرف مصاديق الغيب والشهادة عندنا، وقد تقدم في البيان المتقدم آنفاً وغيره أن للغيب مصاديق أخر.

٤٦. إبراهيم يحاور أباه في ضلال عبادة الأصنام:

المقطع [٤٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٦٢»:

١. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ القراءات السبع في آزر بالفتح فيكون عطف بيان أو بدلا من أبيه وفي بعض القراءات ﴿آزَرُ﴾ بالضم وظاهره أنه منادى مرفوع بالنداء، والتقدير: يا آزر أتتخذ أصناما آلهة، وقد عد من القراءات (أأزرا تتخذ) مفتتحا بهمزة الاستفهام، وبعده (أزرا) بالنصب مصدر أزر يأزر بمعنى قوي والمعنى: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ أصناما للتقوي والاعتضاد، وقد اختلف المفسرون على القراءة الأولى المشهورة والثانية الشاذة في (آزر) أنه اسم علم لأبيه أو لقب أريد بمعناه المدح أو الذم بمعنى المعتضد أو بمعنى الأعرج أو المعوج أو غير ذلك ومنشأ ذلك ما ورد في عدة روايات أن اسم أبيه (تارح) بالحاء المهملة أو المعجمة ويؤيده ما ضبطه التاريخ من اسم أبيه، وما وقع في التوراة الموجودة أنه عليه السلام ابن تارخ..

٢. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى ﴿آزَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ وبيان المراد بالأب في الآية]، خلاصته:

أ. بيان أن لفظ (الأب) في اللغة العربية يطلق على الوالد، ويطلق أيضاً على الجد والعم وكل كبير مطاع، كما ورد في القرآن في قوله: ﴿آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾

ب. إثبات أن آزر ليس والد إبراهيم الحقيقي، بل هو عمه أو جده أو كبير قومه المطاع، بدليل أن إبراهيم استغفر لأبيه ثم تبرأ منه لما تبين أنه عدو لله، ثم دعا لوالديه في آخر عمره.

ج. توضيح أن دعاء إبراهيم لأبيه كان في الدنيا وفاءً لوعده، لا أنه يشفع له يوم القيامة، وأن التبري منه كان بعد تبين عداوته لله.

د. بيان أن والد إبراهيم الحقيقي كان موحداً غير مشرك، بدليل دعاء إبراهيم له ولأمه في آخر

دعائه بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾

هـ. الرد على من زعم أن القرآن يهمل التفاصيل التاريخية للقصص، وبيان أن القرآن ليس كتاب تاريخ، بل كتاب هداية، وأن ما فيه من القصص إنما يساق للعظة والاعتبار.

و. بيان أن البحث عن التفاصيل التاريخية الدقيقة كاسم الأب ونسبه وتاريخ مولده خارج عن وظيفة التفسير، ولا فائدة دينية فيه.

٣. ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الصنم جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به إلى الله تعالى وجمعه أصنام قال الله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾، ﴿لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾)

ب. وما ذكره من اتخاذه من فضة أو نحاس أو خشب إنما هو من باب المثال لا ينحصر فيه اتخاذها بل كان يتخذ من كل ما يمكن أن يمثل به تمثال من أقسام الفلزات والحجارة وغيرها، وقد روي أن بني حنيفة من اليمامة كانوا قد اتخذوا صنما من أقط، وربما كانوا يتخذونه من الطين وربما كان صورة مصورة، وكيف كان فقد كانت الأصنام ربما يمثل بها موضوع اعتقادي غير محسوس كإله السماء والأرض وإله العدل، وربما يمثل بها موضوع محسوس كصنم الشمس وصنم القمر، وقد كانت من النوعين جميعا أصنام لقوم إبراهيم عليه السلام على ما تؤيده الآثار المكشوفة منهم في خرائب بابل وقد كانوا يعبدونها تقربا بها إلى أربابها، وبأربابها إلى الله سبحانه، وهذا أنموذج بارز من سفه أحلام البشر أن يخضع أعلى حد الخضوع، وهو خضوع العبد للرب لمثال مثل به موضوعا يستعظم أمره ويعظمه، وحقيقته منتهى درجة خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه كان الواحد منهم يأخذ خشبة فينحت بيده منه صنما ثم ينصبه فيعبده ويتذلل له ويخضع ولذلك جيء بلفظة الأصنام في قوله المحكي: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾ نكرة ليدل على هوان أمرها وحقارته من جهة أنها مصنوعة لهم مخلوقة بأيديهم كما يشير إليه قوله عليه السلام لقومه فيما حكى الله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] ومن جهة أنها فاقدة لأظهر صفات الربوبية وهو العلم والقدرة كما في قوله لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ ولاَ يُبْصِرُ ولاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢]

ج. فقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً﴾، معناه: أتتخذ أصناما لا خطر في أمرها آلهة والإله هو الذي في أمره

خطر عظيم إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكيف لا يظهر هذا الضلال وهو عبادة وتذلل عبودي من صانع فيه آثار العلم والقدرة لمصنوعه الذي يفقد العلم والقدرة.

د. والذي تشتمل عليه الآية أعني قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً﴾، من الحجاج وإن كان بمنزلة التلخيص لعدة احتجاجات واجه بها إبراهيم عليه السلام أباه وقومه على ما حكي تفصيلها في عدة مواضع من القرآن الكريم إلا أنه أول ما حاج به أباه وقومه فإن الذي حكاه الله سبحانه من محاجته هو حجاجه أباه وحجاجه قومه في أمر الأصنام وحجاجهم في ربوبية الكوكب والقمر والشمس وحجاجه الملك، أما حجاجه في ربوبية الكوكب والقمر والشمس فالآيات دالة على كونه بعد الحجاج في أمر الأصنام، والاعتبار والتدبر يعطي أن يكون حجاجه الملك بعد ما ظهر أمره وشاع مخالفته لدين الوثنية والصابئة وكسر الأصنام، وأن يكون مبدأ أمره مخالفته أباه في دينه وهو معه وعنده قبل أن يواجه الناس ويخالفهم في نحلتهم فقد كان أول ما حاج به في التوحيد هو ما حاج به أباه وقومه في أمر الأصنام.

٤٧. إراءة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض لتثبيت اليقين:

المقطع [٤٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٧٠»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

أ. ظاهر السياق أن تكون الإشارة بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى ما تضمنته الآية السابقة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ﴾، أنه عليه السلام أري الحق في ذلك، فالمعنى: على هذا المثال من الإراءة نري إبراهيم ملك السماوات والأرض.

ب. وبمعونة هذه الإشارة ودلالة قوله في الآية التالية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ الدالة على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله: ﴿نُرِي﴾ لحكاية الحال الماضية كقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]، فالمعنى: أنا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكشف له ضلالهم، وكنا نمده بهذه العناية والموهبة وهي إراءة الملكوت وكان على هذه الحال حتى جن عليه الليل ورأى كوكبا.

ج. وبذلك يظهر أن ما يتراءى من بعضهم أن قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي﴾، كالمعترضة لا يرتبط بما قبله

ولا بما بعده، وكذا قول بعضهم: إن إراءة الملكوت أول ما ظهر من أمرها في إبراهيم عليه السلام أنه لما جن عليه الليل رأى كوكبا إلخ، فاسد لا ينبغي أن يصار إليه.

٢. وأما ملكوت السماوات والأرض:

أ. فالملكوت هو الملك مصدر كالطاغوت والجبروت وإن كان آكد من حيث المعنى بالنسبة إلى الملك كالطاغوت والجبروت بالنسبة إلى الطغيان والجبر أو الجبران.

ب. والمعنى الذي يستعمله فيه القرآن هو المعنى اللغوي بعينه من غير تفاوت كسائر الألفاظ المستعملة في كلامه تعالى غير أن المصداق غير المصداق وذلك أن الملك والملكوت وهو نوع من السلطنة إنما هو فيما عندنا معنى افتراضي اعتباري بعثنا إلى اعتباره الحاجة الاجتماعية إلى نظم الأعمال والأفراد نظما يؤدي إلى الأمن والعدل والقوة الاجتماعيات وهو في نفسه يقبل النقل والهبة والغصب والتغلب كما لا نزال نشاهد ذلك في المجتمعات الإنسانية.

ج. وهذا المعنى على أنه وضعي اعتباري وإن أمكن تصويره في مورده تعالى من جهة أن الحكم الحق في المجتمع البشري لله سبحانه كما قال تعالى: ﴿إِنِ اَلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧] وقال: ﴿لَهُ اَلْحَمْدُ فِي اَلْأُولى وَاَلْآخِرَةِ وَلَهُ اَلْحُكْمُ﴾ [القصص: ٧٠] لكن تحليل معنى هذا الملك الوضعي يكشف عن ثبوت ذلك في الحقائق ثبوتا غير قابل للزوال والانتقال كما أن الواحد منا يملك نفسه بمعنى أنه هو الحاكم المسلط المتصرف في سمعه وبصره وسائر قواه وأفعاله بحيث إن سمعه إنما يسمع وبصره إنما يبصر بتبع إرادته وحكمه لا بتبع إرادة غيره من الأناسي وحكمه وهذا معنى حقيقي لا نشك في تحققه فينا مثلا تحققا لا يقبل الزوال والانتقال كما عرفت فالإنسان يملك قوى نفسه وأفعال نفسه وهي جميعا تبعات وجوده قائمة به غير مستقلة عنه ولا مستغنية عنه فالعين إنما تبصر بإذن من الإنسان الذي يبصر بها وكذا السمع يسمع بإذن منه، ولولا الإنسان لم يكن بصر ولا إبصار ولا سمع ولا استماع كما أن الفرد من المجتمع إنما يتصرف فيما يتصرف فيه بإذن من الملك أو ولي الأمر، ولو لم تكن هذه القوة المدبرة التي تتوحد عندها أزمة المجتمع لم يكن اجتماع، ولو منع عن تصرف من التصرفات الفردية لم يكن له أن يتصرف ولا نفذ منه ذلك، ولا شك أن هذا المعنى بعينه موجود لله سبحانه الذي إليه تكوين الأعيان وتدبير النظام فلا غنى لمخلوق عن الخالق عز اسمه لا في نفسه ولا في توابع نفسه من قوى وأفعال، ولا استقلال له لا منفردا ولا في حال

اجتماعه مع سائر أجزاء الكون وارتباط قوى العالم وامتزاج بعضها ببعض امتزاجا يكون هذا النظام العام المشاهد، قال تعالى: ﴿قُلِ اَللَّهُمَّ مَالِكَ اَلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦] وقال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٢٠] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اَلَّذِي بِيَدِهِ اَلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ اَلَّذِي خَلَقَ اَلْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ إلى أن قال: ﴿اَلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً﴾ [الملك: ٣] والآيات كما ترى تعلل الملك بالخلق فكون وجود الأشياء منه وانتساب الأشياء بوجودها وواقعيتها إليه تعالى هو الملاك في تحقق ملكه وهو بمعنى ملكه الذي لا يشاركه فيه غيره ولا يزول عنه إلى غيره ولا يقبل نقلا ولا تفويضا يغني عنه تعالى وينصب غيره مقامه.

د. وهذا هو الذي يفسر به معنى الملكوت في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ اَلَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] فالآية الثانية تبين أن ملكوت كل شيء هو كلمة كن الذي يقوله الحق سبحانه له، وقوله فعله، وهو إيجاده له.

هـ. فقد تبين أن الملكوت هو وجود الأشياء من جهة انتسابها إلى الله سبحانه وقيامها به، وهذا أمر لا يقبل الشركة ويختص به سبحانه وحده، فالربوبية التي هي الملك والتدبير لا تقبل تفويضا ولا تمليكا انتقاليا.

و. ولذلك كان النظر في ملكوت الأشياء يهدي الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ اَلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اَللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اِقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] والآية، كما ترى، تحاذي أول سورة الملك المنقول آنفا.

ز. فقد بان أن المراد بإراءة إبراهيم ملكوت السماوات والأرض على ما يعطيه التدبر في سائر الآيات المربوطة بها هو توجيهه تعالى نفسه الشريفة إلى مشاهدة الأشياء من جهة استناد وجودها إليه، وإذ كان استنادا لا يقبل الشركة لم يلبث دون أن حكم عليها أن ليس لشيء منها أن يرب غيره ويتولى تدبير النظام وأداء الأمور فالأصنام تماثيل عملها الإنسان وسماها أسماء لم ينزل الله عليها من سلطان، وما هذا شأنه لا يرب الإنسان ولا يملكه وقد عملته يد الإنسان، والأجرام العلوية كالكوكب والقمر والشمس تتحول عليها الحال فتغيب عن الإنسان بعد حضورها، وما هذا شأنه لا يكون له الملك وتولي التدبير تكوينا كما سيجيء بيانه.

٣. ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾:

أ. اللام للتعليل، والجملة معطوفة على أخرى محذوفة والتقدير: ليكون كذا وكذا وليكون من الموقنين، واليقين هو العلم الذي لا يشوبه شك بوجه من الوجوه، ولعل المراد به أن يكون على يقين بآيات الله على حد ما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وينتج ذلك اليقين بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

ب. وفي معنى ذلك ما أنزله في خصوص النبي ﷺ قال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَى ٱلَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ ومَا طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرى﴾ [النجم: ١٨] وأما اليقين بذاته المتعالية فالقرآن يجله تعالى أن يتعلق به شك أو يحيط به علم وإنما يسلمه تسليما.

ج. وقد ذكر في كلامه تعالى من خواص العلم اليقيني بآياته تعالى انكشاف ما وراء ستر الحس من حقائق الكون على ما يشاء الله تعالى كما في قوله: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ومَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: ٧٥] الآية، قال: حدثني أبي عن إسماعيل بن مرار عن يونس بن عبد الرحمن عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كشط له عن الأرض ومن عليها، وعن السماء ومن عليها، والملك الذي يحملها، والعرش ومن عليه، وفعل ذلك برسوله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: وروى مثله في بصائر الدرجات بطريقين عن عبد الله بن مسكان وأبي بصير عن الصادق عليه السلام، وبطريق عن عبد الرحيم عن الباقر عليه السلام، ورواه العياشي عن زرارة وأبي بصير عن الصادق عليه السلام، وعن زرارة وعبد الرحيم القصير عن الباقر عليه السلام.

• ورواه في الدر المنثور عن ابن عباس ومجاهد والسدي من مفسري السلف، وسيجيء في الكلام على العرش حديث علي عليه السلام المروي في الكافي في معنى العرش، وفيه قال: والذين يحملون العرش

ومن حوله هم العلماء الذين حملهم الله علمه، قال: وهو الملكوت الذي أراه الله أصفياءه، وأراه خليله عليه السلام، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] الحديث.

• وفي الحديث تفسير سائر الأخبار الواردة في تفسير إراءة الملكوت، وتأييد لما قدمناه في البيان السابق، وسيوافيك الشرح المستوفى لهذا الحديث في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

ب. وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما رأى ملكوت السماوات والأرض، التفت فرأى رجلاً يزني، فدعا عليه فمات، ثم رأى آخر فدعا عليه فمات، حتى رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، إن دعوتك مجابة، فلا تدع على عبادي، فإني لو شئت لم أخلقهم، إني خلقت خلقي على ثلاثة أصناف: عبد يعبدني ولا يشرك بي شيئاً، وعبد يعبد غيري فلن يفوتني، وعبد يعبد غيري فأخرج من صلبه من يعبدني.

• أقول: والرواية مستفيضة، ورواه في الكافي مسنداً عن أبي بصير عنه عليه السلام، ورواه الصدوق في العلل عنه عليه السلام، والطبرسي في الاحتجاج عن العسكري عليه السلام، ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي عن النبي ﷺ، وعن أبي الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ، وعن عدة من المفسرين موقوفاً.

٤٨. براءة إبراهيم من عبادة الكواكب وتوجيه وجهه للحنيفية:

المقطع [٤٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٥٦»:

١. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى قصة إبراهيم عليه السلام مع الأصنام والكواكب ودلالتها على التوحيد الفطري]، خلاصته:

أ. بيان أن الآيات التي حكت قصة إبراهيم عليه السلام مع الأصنام والكواكب هي بيان لمصداق

كامل من القيام بدين الفطرة، وأن إبراهيم كان يبني حجته على إراءة الله له ملكوت السماوات والأرض، لا على فكر تصنيعي.

ب. توضيح أن لحن كلام إبراهيم المحكي في القرآن يشير إلى أنه كان بسيط الفطرة، لم يعرف تفاصيل ما يعرفه المجتمعون من شؤون الكواكب والأصنام، فكان يسأل عن الأصنام بقوله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾

ج. إثبات أن إبراهيم كان يعلم أن للعالم خالقاً هو الله، وإنما كان يبحث عن أن هل للناس رب غير الله، فكان يراقب الكوكب والقمر والشمس واحدة بعد أخرى، فلما غرب كل منها رفض ربوبيته وأثبت ربوبية الله.

د. بيان أن قوله: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ يدل على أنه لم يكن يعرف حقيقة الشمس، بل كان يعرف أنها شيء أكبر يعبده الناس، ولذلك عبر بـ ﴿هَذَا﴾ لا بـ ﴿هَذِهِ﴾

هـ. الرد على من يحاول صرف الآيات عن دلالتها بتكلفات لغوية، وبيان أن السياق القرآني يؤيد المعنى الفطري البسيط.

و. توضيح أن إبراهيم عليه السلام كان يرى في الأشياء انتسابها إلى الله قبل أن يرى نفسيتها، وذلك بإراءة الله له ملكوت السماوات والأرض.

٢. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (أصل الجن (بفتح الجيم) ستر الشيء عن الحاسة يقال: جنه الليل وأجنه وجن عليه: فجنه ستره، وأجنه جعل له ما يجنه كقولك: قبرته وأقبرته وسقيته وأسقيته، وجن عليه كذا ستر عليه قال عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾) فجن الليل إسداله الظلام لا مجرد ما يحصل بغروب الشمس.

ب. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ تفريع على ما تقدم من نفيه ألوهية الأصنام بما يرتبطان بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومحصل المعنى على ذلك أنا كنا نريه الملكوت من الأشياء فأبطل ألوهية الأصنام إذ ذاك، ودامت عليه الحال فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال كذا وكذا.

٣. ﴿رَأَى كَوْكَباً﴾:

أ. كأن تنكير الكوكب إنما هو لنكتة راجعة إلى مرحلة الإخبار والتحدث فلا غرض في الكلام يتعلق بتعيين هذا الكوكب وأنه أي كوكب كان من السيارات أو الثوابت لأن الذي أخذه في الحجاج يجري في أي كوكب من الكواكب يطلع ويغرب لا أن إبراهيم عليه السلام أشار إلى كوكب ما من الكواكب من غير أن يمتاز بأي مميز مفروض:

- أما أولا فلأن اللفظ لا يساعده فلا يقال لمن أشار إلى كوكب بين كواكب لا تحصى كثرة فقال: هذا ربي: إنه رأى كوكبا قال هذا ربي.
- وأما ثانيا فلأن ظاهر الآيات أنه كان هناك قوم يعبدون الكوكب الذي أشار إليه وقال فيه ما قال، والصابئون ما كانوا يعبدون أي كوكب ولا يحترمون إلا السيارات.

ب. والذي يؤيده الاعتبار أنه كان كوكب الزهرة، وذلك لأن الصابئين ما كانوا يحترمون وينسبون حوادث العالم الأرضي إلا إلى سبعة من الأجرام العلوية التي كانوا يسمونها بالسيارات السبع: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشتري، وزحل وإنما كان أهل الهند هم الذين يحترمون النجوم الثوابت وينسبون الحوادث إليها، ونظيرهم في ذلك بعض أرباب الطلسمات ووثنية العرب وغيرهم، فالظاهر أن الكوكب كان أحد السبعة والقمر والشمس مذكوران بعد، وعطارد مما لا يرى إلا شاذا لضيق مداره فقد كان أحد الأربعة: الزهرة، والمريخ والمشتري، وزحل، والزهرة من بينها هي الكوكبة الوحيدة التي يمنعها ضيق مدارها أن تبتعد من الشمس أكثر من سبع وأربعين درجة، ولذلك كانت كالتابعة الملازمة للشمس فأحيانا تتقدمها فتطلع قبيل طلوعها وتسمى عند العامة حينئذ نجمة الصباح ثم تغيب بعد طلوعها، وأحيانا تتبعها فتظهر بعد غروب الشمس في أفق المغرب ثم لا تلبث إلا قليلا في أول الليل دون أن تغيب، وإذا كانت على هذا الوضع والليلة من ليالي النصف الأخير من الشهر القمري كليلة ثماني عشرة وتسع عشرة والعشرين فإنها تجامع بغروبها طلوع القمر فترى أن الشمس تغرب فتظهر الزهرة في الأفق الغربي ثم تغرب بعد ساعة أو ساعتين مضتا من غروب الشمس ثم يطلع القمر عند ذلك أو بعد ذلك بيسير، وهذه الخصوصية من بينها إنما هي للزهرة بحسب نظام سيرها وفي غيرها كالمشتري والمريخ وزحل أمر اتفاقي ربما يقع في أوضاع خاصة لا يسبق إلى الذهن فيشبه من هنا أن الكوكب كان هو الزهرة، على أن الزهرة أجمل الكواكب الدرية وأبهجها وأضوؤها أول ما يجلب نظر الناظر إلى السماء بعد جن الليل

وعكوف الظلام على الآفاق يجلب إليها.

ج. وهذا أحسن ما يمكن أن تنطبق عليه الآية بحسب ما يتسابق إلى الذهن من قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اَللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى اَلْقَمَرَ بَازِغاً﴾ حيث وصل ظاهرا بين أفول الكوكب وبزوغ القمر، ويتأيد هذا الذي ذكرناه بما ورد في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلاأن الكوكب كان هو الزهرة، وعلى هذا فقد كان عليه السلام رأى الزهرة والقوم يتنسكون بواجب عبادتها من خضوع وصلاة وقربان، وكانت الزهرة وقتئذ تتلو الشمس في غروبها، والليلة من ليالي النصف الأخير من الشهر القمري جن عليه الليل فرأى الزهرة في الأفق الغربي حتى أفلت فرأى القمر بازغا بعده.

٤. ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾:

أ. المراد بالرب هو مالك الأشياء المربوبين، المدبر لأمرهم لا الذي فطر السماوات والأرض وأوجد كل شيء بعد ما لم يكن موجودا فإنه الله سبحانه الذي ليس بجسم ولا جسماني ولا يحويه مكان ولا يقع عليه إشارة، والذي يظهر مما حكي من كلام إبراهيم مع قومه في أمر الأصنام ظهورا لا شك فيه أنه كان على بينة من ربه وله من العلم بالله وآياته ما لا يخفى عليه معه أن الله سبحانه أنزه ساحة من التجسم والتمثل والمحدودية، قال تعالى حكاية عنه في محاورة له مع أبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ اَلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا﴾ إلى آخر الآيات: [مريم: ٤٣]

ب. على أن الوثنيين والصابئين لا يثبتون لله سبحانه شريكا في الإيجاد يكافئ بوجوده وجوده تعالى بل إنما يثبتون الشريك بمعنى بعض من هو مخلوق لله مصنوع له ولا أقل مفتقر الوجود إليه فوض إليه بعد تدبير الخليقة كإله الحسن وإله العدل وإله الخصب أو تدبير بعض الخليقة كإله الإنسان أو إله القبيلة أو إله يخص بعض الملوك والأشراف وقد دلت على ذلك آثارهم المستخرجة وأخبارهم المروية، والموجودون منهم اليوم على هذه الطريقة فقوله عليه السلام بالإشارة إلى الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ أراد به إثبات أنه رب يدبر الأمر لا إله فاطر مبدع.

ج. وعليه يدل ما حكي عنه في آخر الآيات المبحوث عنها: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمَاوَاتِ وَاَلْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ﴾ فإن ظاهره أنه ينصرف عن

فرض الشريك إلى إثبات أن لا شريك له لا أنه يثبت وجوده تعالى.

د. فالذي يعطيه ظاهر الآيات أنه عليه السلام سلم أن لجميع الأشياء إلها فاطرا واحدا لا شريك له في الفطر والإيجاد وهو الله تعالى، وأن للإنسان ربا يدبر أمره لا محالة، وإنما يبحث عن أن هذا الرب المدبر للأمر أهو الله سبحانه وإليه يرجع التدبير كما إليه يرجع الإيجاد أم أنه بعض خلقه أخذه شريكا لنفسه وفوض إليه أمر التدبير.

هـ. وفي إثر ذلك ما كان منه عليه السلام من افتراض الكوكب الذي كانوا يعبدونه ثم القمر ثم الشمس والنظر في أمر كل منها هل يصلح لأن يتولى أمر التدبير وإدارة شئون الناس؟ وهذا الافتراض والنظر وإن كان بحسب طبعه قبل العلم اليقيني بالنتيجة فإن النتيجة فرع يتأخر طبعا عن الحجة النظرية لكنه لا يضر به عليه السلام فإن الآيات كما استفدناه فيما تقدم تقص أول أمر إبراهيم والإنسان في أول زمن يأخذ بالتمييز ويصلح لتعلق التكليف الإلهي بالنظر في أمر التوحيد وسائر المعارف الأصلية كاللوح الخالي عن النقش والكتابة غير مشغول بنقش مخالف فإذا أخذ في الطلب وشرع يثبت شيئا وينفي شيئا لغاية الحصول على الاعتقاد الحق والإيمان الصحيح فهو بعد في سبيل الحق لا بأس عليه في زمن يمر عليه بين الانتزاع من قصور التمييز وبين الاعتصام بالمعرفة الكاملة والعلم التام بالحق.

و. ومن ضروريات حياة الإنسان أن يمر عليه لحظة هي أول لحظة ينتقل فيها من قصور الجهل بواجب الاعتقاد إلى بلوغ العلم بحيث يتعلق به التكليف العقلي بالانتهاض إلى الطلب والنظر، وهذه سنة عامة في الحياة الإنسانية المتدرجة من النقص إلى الكمال لا يختلف فيها إنسان وإنسان، وإن أمكن أن يظهر من بعض الأفراد بعض ما يخالف ذلك من أمارات الفهم والعلم قبل المتعارف من سن التمييز والبلوغ كما يحكيه القرآن عن المسيح ويحيى عليه السلام فإنما ذلك من خوارق العادة الجارية وما كل إنسان على هذا النعت ولا كل نبي فعل به ذلك.

ز. وبالجملة ليس الإنسان من أول ما ينفخ فيه الروح الإنساني واجدا لشرائط التكليف بالاعتقاد الحق أو العمل الصالح، وإنما يستعد لذلك على سبيل التدريج حتى يستتم الشرائط فيكلف بالطلب والنظر فزمن حياته منقسم لا محالة إلى قسمين هما قبل التمييز والبلوغ وبعد التمييز والبلوغ وهو الزمان الذي يصلح لأن يشغله الاعتقاد كما أن ما يقابله يقابله فيه، وبين الزمانين الصالح لإشغاله بالاعتقاد وغير

الصالح له لا محالة زمان متخلل يتوجه إليه فيه التكليف بالطلب والنظر، وهو الفصل الذي يبحث فيه عن واجب الاعتقاد بما تهدي إليه فطرته من طريق الاستدلال فيفرض نفسه أو العالم مثلا بلا صانع مرة ومع الصانع أخرى، ويفرض الصانع وحده مرة ومع الشريك أخرى وهكذا ثم ينظر ما ذا تؤيده الآثار المشهودة في العالم من كل فرض فرضه أو لا تؤيده فيأخذ بذاك ويترك هذا، فهو ما لم يتم له الاستدلال غير قاطع بشيء ولا بان على شيء وإنما هو مفترض ومقدر لما افترضه وقدره.

ح. وعلى هذا فقول إبراهيم عليه السلام في الكوكب: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وكذا قوله الآتي في القمر والشمس ليس من القطع والبناء اللذين يعدان من الشرك، وإنما هو افتراض أمر للنظر إلى الآثار التي تثبته وتؤيده، ومن الدليل على ذلك ما في الآيات من الظهور في أنه عليه السلام كان على حالة الترقب والانتظار، فهذا وجه.

ط. ولكن الذي يتأيد بما حكاه الله عنه في سورة مريم في محاجته أباه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ اَلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيًّا يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ اَلشَّيْطَانَ إِنَّ اَلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ اَلرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ واُهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧] أنه عليه السلام كان على علم بحقيقة الأمر وأن الذي يتولى تدبير أمره ويحفي عليه ويبالغ في إكرامه هو الله سبحانه دون غيره، وعلى هذا فقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ جار مجرى التسليم والمجاراة بعد نفسه كأحدهم ومجاراتهم وتسليم ما سلموه ثم بيان ما يظهر به فساد رأيهم وبطلان قولهم، وهذا الطريق من الاحتجاج أجلب لإنصاف الخصم، وأمنع لثوران عصبيته وحميته، وأصلح لإسماع الحجة.

٥. ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾:

أ. الأفول الغروب وفيه إبطال ربوبية الكوكب بعروض صفة الأفول له فإن الكوكب الغارب ينقطع بغروبه ممن طلع عليه ولا يستقيم تدبير كوني مع الانقطاع، على أن الربوبية والمربوبية بارتباط حقيقي بين الرب والمربوب وهو يؤدي إلى حب المربوب لربه لانجذابه التكويني إليه وتبعيته له، ولا معنى لحب ما يفنى ويتغير عن جماله الذي كان الحب لأجله، وما يشاهد من أن الإنسان يحب كثيرا الجمال المعجل والزينة الداثرة فإنما هو لاستغراقه فيه من غير أن يلتفت إلى فنائه وزواله فمن الواجب أن يكون الرب

ثابت الوجود غير متغير الأحوال كهذه الزخارف المزوقة التي تحيا وتموت وتثبت وتزول وتطلع وتغرب وتظهر وتخفى وتشب وتشيب وتنضر وتشين، وهذا وجه برهاني وإن كان ربما يتخيل أنه بيان خطابي أو شعري فافهم ذلك.

ب. وعلى أي حال فهو عليه السلام أبطل ربوبية الكوكب بعروض الأفول له إما بالتكنية عن البطلان بأنه لا يحبه لأفوله لأن المربوبية والعبودية متقومة بالحب فليس يسع من لا يحب شيئا أن يعبده وقد ورد في المروي عن الصادق عليه السلام: (هل الدين إلا الحب؟) وقد بينا ذلك فيما تقدم، وإما لكون الحجة متقومة بعدم الحب وإنما ذكر الأفول ليوجه به عدم حبه له المنافي للربوبية لأن الربوبية والألوهية تلازمان المحبوبية فما لا يتعلق به الحب الغريزي الفطري لفقدانه الجمال الباقي الثابت لا يستحق الربوبية، وهذا الوجه هو الظاهر يتكئ عليه سياق الاحتجاج في الآية، ففي الكلام:

- أولا إشارة إلى التلازم بين الحب والعبودية أو المعبودية.
- وثانيا أنه أخذ في إبطال ربوبية الكوكب وصفا مشتركا بينه وبين القمر والشمس ثم ساق الاحتجاج وكرر ما احتج به في الكوكب في القمر والشمس أيضا، وذلك إما لكونه عليه السلام لم يكن مسبوق الذهن من أمر القمر والشمس وأنهما يطلعان ويغربان كالكوكب كما تقدمت الإشارة إليه وإما لكون القوم المخاطبين في كل من المراحل الثلاث غير الآخرين.
- وثالثا أنه اختار للنفي وصف أولي العقل حيث قال: ﴿لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾ وكأنه للإشارة إلى أن غير أولي الشعور والعقل لا يستحق الربوبية من رأس كما يؤمي إليه في قوله المحكي: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ [مريم: ٤٢] وقوله الآخر: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤] فسألهم أولا عن معبودهم كأنه لا يعلم من أمرها شيئا فأجابوه بما يشعر بأنها أجساد وهياكل غير عاقلة ولا شاعرة فسألهم ثانيا عن علمها وقدرتها وهو يعبر بلفظ أولي العقل للدلالة على أن المعبود يجب أن يكون على هذه الصفة صفة العقل.

٦. ﴿فَلَمَّا رَأَى اَلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾، البزوغ هو الطلوع تقدم الكلام في دلالة قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى﴾، على اتصال القضية بما قبلها، وقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾على سبيل الافتراض أو المجاراة والمماشاة

والتسليم نظير ما تقدم في الآية السابقة.

٧. وأما قوله بعد أفول القمر: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فهو موضوع وضع الكناية فهو عليه السلام أبطل ربوبية الكوكب بما يعم كل غارب ولما غرب القمر ظهر عندئذ رأيه في أمر ربوبيته بما كان قد قاله قبل ذلك في الكوكب: ﴿لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾، إشارة إلى أن الوضع الذي ذكره في القمر بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ كان ضلالا لو دام وأصر عليه كان أحد أولئك الضالين القائلين بربوبيته والوجه في كونه ضلالا ما قاله في الكوكب حيث عبر بوصف لا يختص به بل يصدق في مورده وكل مورد يشابهه.

٨. وفي الكلام إشارة:

أ. أولا إلى أنه كان هناك قوم قائلون بربوبية القمر كالكوكب كما أن قوله في الآية التالية بعد ذكر أمر الشمس: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ لا يخلو عن الدلالة على مثله.

ب. وثانيا: أنه عليه السلام كان وقتئذ في مسير الطلب راجيا للهداية الإلهية مترقبا لما يفيض ربه عليه من النظر الصحيح والرأي اليقيني سواء كان ذلك بحسب الحقيقة كما لو حملنا الكلام على الافتراض لتحصيل الاعتقاد، أو بحسب الظاهر كما لو حملناه على الوضع والتسليم لبيان الفساد، وقد تقدم الوجهان آنفا.

ج. وثالثا: أنه عليه السلام كان على يقين بأن له ربا إليه تدبير هدايته وسائر أموره، وإنما كان يبحث واقعا أو ظاهرا ليعرفه: أهو الذي فطر السماوات والأرض بعينه أو بعض من خلقه، وإذ بان له أن الكوكب والقمر لا يصلحان الربوبية لأفولها توقع أن يهديه ربه إلى نفسه ويخلصه من ضلال الضالين.

٩. ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾:

أ. الكلام في دلالة اللفظ على الاتصال بما قبله لمكان قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ وكون قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مسوقا للافتراض أو التسليم كما تقدم في الآية السابقة.

ب. وقد كان تكرر قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في القمر لما رآه بازغا بعد ما رأى الكوكب، ولذلك ضم قوله: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ إلى قوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ في الشمس في المرة الثالثة ليكون بمنزلة الاعتذار للعود إلى فرض الربوبية لها مع تبين خطإ افتراضه مرة بعد مرة.

ج. وقد تقدمت الإشارة إلى أن إشارته إلى الشمس بلفظة ﴿هَذَا﴾ تشعر بأنه عليه السلام ما كان يعرف من الشمس ما يعرفه أحدنا أنه جرم سماوي يطلع ويغرب بحسب ظاهر الحس في كل يوم وليلة، وإليها تستند النهار والليل والفصول الأربعة السنوية إلى غير ذلك من نعوتها، فإن الإتيان في الإشارة بلفظ المذكر هو الذي يستريح إليه من لا يميز المشار إليه في نوعه كما تقول فيمن لاح لك شبحه وأنت لا تدري أرجل أم امرأة: من هذا؟ ونظيره ما يقال في شبح لا يدرى أمن أولي العقل هو أو لا: ما هذا؟ فلعله إنما كان ذلك من إبراهيم عليه السلام أول ما خرج من مختفى أخفي فيه إلى أبيه وقومه، ولم يكن عهد مشاهد الدنيا الخارجة والمجتمع البشري فرأى جرما هو كوكب وجرما هو القمر وجرما هو الشمس، وكلما شاهد واحدا منها، ولم يكن يشاهد إلا جرما مضيئا لامعا، قال: هذا ربي، على سبيل عدم المعرفة بحاله معرفة تامة كما سمعت.

د. ويؤيده بعض التأييد قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾ فإن فيه إشعارا بأنه عليه السلام مكث بانيا على كون الكوكب ربا حتى شاهد غروبه فحكم بأن الفرض باطل وأنه ليس برب، ولو كان عالما بأنه سيغرب أبطل ربوبيته مقارنا لفرض ربوبيته كما فعل ذلك في أمر الأصنام على ما يدل عليه قوله لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ وقوله أيضا: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾

هـ. وإن أمكن أن يقال: إنه أراد بتأخير قول﴿لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾ إلى أن يأفل أن يحاجهم بما وقع عليه الحس كما أراد بما فعل بالأصنام حيث جعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم أن يريهم عجز الأصنام وكونها أجسادا ميتة لا تدفع عن أنفسها الضر والشر.

١٠. وللمفسرين في تذكير الإشارة في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ مسالك من التوجيه مختلفة:

أ. فمنهم من قال: تذكير الإشارة إنما هو بتأويل المشار إليه أو الجرم النير السماوي أي هذا المشار إليه أو هذا الجرم النير ربي وهو أكبر، وفيه أنه لا ريب في صحة الاستعمال بهذا التأويل لكن الشأن في النكتة التي تصحح هذا التأويل، ولا يجوز ذلك من غير نكتة مسوغة، ولو جاز ذلك في اللغة من غير اعتماد على نكتة لجاز تذكير كل مؤنث قياسي وسماعي في إرجاع الضمير والإشارة إليه بتأويل الشخص ونحوه وفي ذلك نسخ اللغة قطعا.

ب. ومنهم من قال: إنه من قبيل إتباع المبتدإ للخبر في تذكيره فإن الرب وأكبر مذكران فأتبع اسم الإشارة للخبر المذكر كما عكس في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾ (الآية) فأتبع المذكر للمؤنث، وفيه أنهم كانوا يرون من الآلهة إناثا كما يثبتون ذكورا ويسمون الأنثى من الآلهة إلهة وربة وبنت الله وزوجة الرب فكان من الواجب أن يطلق على الشمس ربة لمكان التأنيث، وأن يقال: هذه ربتي أو آلهتي، فالكلام في تذكير الخبر في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ كالكلام في تذكير المبتدإ، ولا معنى حينئذ لحديث الإتباع، وكذا قوله: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ فيه من صيغ التفضيل وحكم صيغة التفضيل إذا وقعت خبرا أن يجاء بأفعل ويستوي فيه المذكر والمؤنث يقال زيد أفضل من عمر وليلى أجمل من سلمى، وما هذا شأنه لا نسلم أنه من صيغ المذكر الذي يجري فيه الإتباع.

ج. ومنهم من قال: إن تذكير الإشارة إنما هو لتعظيم الشمس حيث نسب إليها الربوبية صونا للإله عن وصمة التأنث، وفيه: أنهم كانوا يعدون الأنوثية من النواقص التي يجب أن ينزه عنها الإله وقد كان لأهل بابل أنفسهم آلهة أنثى كالإلهة (نينو) إلهة الأمهات الخالقة، والإلهة (نين كاراشا) ابنة الإله (آنو) والإلهة (مالكات) زوجة الإله (شاماش) والإلهة (زاربانيت) إلهة الرضاع، والإلهة (آنوناكي)، وكانت طائفة من مشركي العرب تعبد الملائكة وتعدهم بنات الله، وقد رووا في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً﴾ [النساء: ١١٧] أنهم كانوا يسمون آلهتهم إناثا، وكانوا يقولون: أنثى بني فلان يعنون به الصنم الذي يعبدونه.

د. ومنهم من قال: إن قوم إبراهيم عليه السلام كانوا يعدون الشمس من الذكور وقد أثبتوا لها زوجة يسمونها (أنونيت) فاحتفظ في الكلام على ظاهر عقيدتهم، وفيه: أن اعتقادهم بكون الشمس ذكرا لا يصحح تبديل تأنيث لفظها تذكيرا، على أن قوله عليه السلام للملك: ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهو يريد الشمس ينافي ذلك.

هـ. ومنهم من قال: إن إبراهيم عليه السلام كان يتكلم باللغة السريانية وهي لغة قومه، ولا يفرق فيها في الضمائر وأسماء الإشارة بالتذكير والتأنيث بل الجميع على صفة التذكير، وقد احتفظ القرآن الكريم في حكاية قوله على ما أتى به من التذكير، وفيه: منع جواز ذلك فإنه أمر راجع إلى أحكام الألفاظ المختلفة باختلاف اللغات بل إنما يجوز ذلك فيما يرجع إلى المعنى الذي لا يؤثر في الخصوصية اللفظية، على أنه تعالى

حكى عن إبراهيم عليه السلام احتجاجات كثيرة وأدعية وافرة في القرآن وفيها موارد كثيرة اعتبر فيها التأنيث فما بال هذا المورد اختص من بينها بإلغاء جهة التأنيث؟ حتى أن قوله فيما يحاج به ملك بابل: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ اَلَّذِي يُحْيِي ويُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اَللهَّ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ اَلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ اَلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ اَلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ويتضمن ذكر الشمس وتأنيث الضمير العائد إليها.

و. ومن عجيب ما أورد على هذا الوجه ما ذكره بعض المفسرين وأصر عليه: أن إبراهيم عليه السلام وكذا إسماعيل وهاجر كانوا يتكلمون باللغة العربية القديمة، وأنها كانت لغة قومه، قال ما ملخصه(: إنه ثبت عند علماء الآثار القديمة، أن عرب الجزيرة قد استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما، وصرح بعضهم بأن الملك حمورﺑﻲ الذي كان معاصرا لإبراهيم عليه السلام عربي وحمورﺑﻲ هذا ملك البر والسلام ووصف في العهد العتيق بأنه كاهن الله العلي، وذكر فيه أنه بارك إبراهيم، وأن إبراهيم أعطاه العشرة من كل شيء، قال: ومن المعروف في كتب الحديث والتاريخ العربي أن إبراهيم أسكن إسماعيل ابنه عليه السلام مع أمه هاجر المصرية في الواد الذي بنيت فيه مكة بعد ذلك، وأن الله سخر لهما جماعة من جرهم سكنوا معهما هنالك، وأن إبراهيم عليه السلام كان يزورهما، وأنه هو وولده إسماعيل بنيا بيت الله الحرام ونشرا دين الإسلام في البلاد العربية، وفي الحديث: أن إبراهيم عليه السلام جاء مكة ليزور ابنه وقد خرج إلى الصيد، فكلم زوجته وكانت جرهمية فلم يرتض أمرها ثم جاءها بعد مدة ليزوره فلم يجده فكلم زوجته الأخرى فدعته إلى النزول وغسل رأسه فارتضى أمرها ودعا لها، وكل ذلك يدل على أنه كان يتكلم بالعربية)، هذا ملخص ما ذكره، وفيه: أن مجاورة عرب الجزيرة مصر وكلدان واختلاطهم بهم أو استعمارهم واستيلاؤهم عليهم لا يوجب تبدل لغاتهم إلى العربية، وقد كانت لغة مصر قبطية ولغة كلدان والآشوريين سريانية، نعم ربما أوجب ذلك دخول أسماء وألفاظ من لغة بعضهم في لغة بعض كما يوجد في القرآن الكريم أمثال القسطاس والإستبرق وغيرهما وهي من الدخيل، وأما ما ذكره من أمر حمورﺑﻲ ومعاصرته لإبراهيم عليه السلام فلا يطابق ما هو الصحيح من تاريخه ويؤيده الآثار المكشوفة من خرائب بابل والنصب المستخرجة التي كتبت فيها شريعته التي وضعها وأجراها في مملكته وهي أقدم القوانين المدونة في العالم على ما بلغنا، وقد ذكر بعضهم أن أيام ملكه كانت بين ق م و ق م، وذكر آخرون: أنه تملك بابل سنة (٢٢٨٧، ٢٢٣٢) ق م١ وكان إبراهيم عليه السلام يعيش في حدود سنة

ق م، وحمورابي هذا وثني، وقد استمد فيما وجد من كلامه المنقوش في ذيل شريعته المنقوشة على النصب بعده من الآلهة لبقاء شريعته وعمل الناس بها وتدمير من أراد نسخها أو مخالفتها٢ وأما ما ذكره من حديث إسكانه ابنه وأم ولده بتهامة وبناء بيت الله الحرام ونشر دين الله وتفاهمه مع العرب فشيء من ذلك لا يدل على كونه عليه السلام متكلما باللغة العربية وهو ظاهر.

١١. ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول: قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾، كما سمعت، يدل على اتصال ما بعد ﴿فَلَمَّا﴾ بما قبله وهو قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فهو يدل على أن القمر قد كان غرب حينما رأى عليه السلام الشمس بازغة، وهذا إنما يكون في الخريف أو الشتاء في العرض الشمالي الذي كانت فيه بلاد كلدان حين يطول الليالي وخاصة إذا كان القمر في شيء من البروج الجنوبية كالقوس والجدي فعند ذلك يجيز الوضع السماوي أن يغرب القمر في النصف الأخير من الشهر القمري قبل طلوع الشمس، وقد تقدم سابقا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أن ظاهر الكلام المؤيد بالاعتبار يدل على أن الليلة كانت من ليالي النصف الأخير من الشهر القمري، وكان الكوكب هي الزهرة، شاهدها أولا في المغرب حال الانحطاط ثم شاهد غروبها وطلوع القمر من ناحية المشرق.

١٢. فيتحصل من الآيات أن إبراهيم عليه السلام حاج قومه في أمر الأصنام يوم حاجهم واشتغل بهم يومه ذلك حتى جن عليه الليل فلما جن عليه الليل رأى الزهرة وقوم يعبدونها فجاراهم في ربوبيتها وأخذ ينتظر ما يحل بها من حال حتى أفلت بعد سويعات فحاجهم به وتبرأ من ربوبيتها، ثم رأى القمر بازغا وهناك قوم يعبدونه فجاراهم في ربوبيته بقوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وأخذ يراقب ما يحدث به حتى أفل، وكانت الليلة من الليالي الطوال في النصف الثاني من الشهر القمري ولعل القمر كان يسير في قوس قصير من أقواس المدارات الجنوبية فلما أفل تبرأ من ربوبيته، وأخذ يستهدي ربه ويستعيذ به من الضلال حتى طلعت الشمس فرآها بازغة وأكبر بالنسبة إلى ما تقدمها من الكوكب والقمر فعاد كذلك إلى مجاراتهم في ربوبيتها مع ما لاح له من بطلان ربوبية الكوكب والقمر وهما مثلها في كونها جرما سماويا نيرا لكنه اتخذ كونها أكبر منها عذرا يعتذر به فيما يفترضه أو يسلمه من ربوبيتها فقال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ وأخذ ينتظر مستقبل الأمر حتى أفلت فتبرأ من ربوبيتها وشرك قومه فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ثم أثبت

الربوبية لله سبحانه كما كان يثبت الألوهية بمعنى إيجاد السماوات والأرض وفطرها له تعالى فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ وهو العبودية قبال الربوبية ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً﴾ غير منحرف من حاق الوسط إلى يمين أو يسار ﴿وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بإشراك شيء من خلقه ومفطوراته له تعالى في العبادة والإسلام.

١٣. وقد تقدم أن قوله تعالى في ضمن الآيات محفوفا بها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ يدل على أنه عليه السلام إنما كان يأخذ ما يلقيه من الحجة على أبيه وقومه مما كان يشاهده من ملكوت السماوات والأرض، وقد أفاض الله سبحانه اليقين الذي ذكره غاية لإراءته الملكوت على قلبه بهذه المشاهدة والرؤية.

١٤. وهذا أوضح شاهد على أن الذي ذكره عليه السلام من الحجة كانت حجة برهانية ترتضع من ثدي اليقين، وقد أورد في ذلك قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ وتقدمت الإشارة إلى تقريره.

١٥. فتبين من جميع ما تقدم:

أ. أولا: أن قوله عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ حجة برهانية يقينية بني الكلام فيه على عدم حبه للآفلين، ومنافاة الأفول للربوبية، ويظهر من كلام بعضهم أنه يأخذه حجة عامية غير برهانية إذ يقول: والصواب أن الكلام كان تعريضا خفيا لا برهانا نظريا جليا يعرض فيه بجهل قومه في عبادة الكواكب أنهم يعبدون ما يتحجب عنهم، ولا يدري شيئا من أمر عبادتهم، وهذا هو السبب في جعله الأفول منافيا للربوبية دون البزوغ والظهور بل بنى عليه القول بها فإن من صفات الرب أن يكون ظاهرا وإن لم يكن ظهوره كظهور غيره من خلقه، هذا، وقد خفي عليه:

• أولا: أن وضع قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ بين الآيات المتضمنة لحججه (عليهم السلام) أدل دليل على كون حججه مأخوذة من مشهوداته الملكوتية التي هي ملاك يقينه بالله وآياته وكيف يتصور مع ذلك كونها حجة عامية غير برهانية.

• وخفي عليه ثانيا أن الحجة بنيت على الحب وعدمه لا على الأفول مضافا إلى أن البناء على الأفول أيضا لا يخرجها عن كونها برهانية فهو عليه السلام إنما ذكر سبب براءته من ربوبيتها أنه وجدها آفلة غاربة وهو لا يحب الآفلين فلا يعبدها، ومن المعلوم أن عبادة الإنسان لربه إنما هي لأنه رب أي لأنه يدبر أمر

الإنسان فيفيض عليه الحياة والرزق والصحة والخصب والأمن والقدرة والعلم إلى غير ذلك مما يحتاج إليه في بقائه فهو متعلق الوجود بربه من كل جهة، ومن فطريات الإنسان أن يحب ما يسعده مما يحتاج إليه وأن يحب من يسعده بذلك لا يرتاب فيه ذو ريب البتة فإنما يعبد الرب لأن الإنسان يحبه لجلبه المنافع إليه أو لدفعه المضار عنه أو لهما جميعا، ومن فطريات الإنسان أيضا أنه لا تتعلق نفسه بما لا بقاء له إلا أن يحول حرص أو شبق أو نحوهما نظره إلى جهة اللذة ويصرفه عن التأمل والإمعان في جهة فنائه وزواله، وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة كثيرا في ذم الدنيا، وردع الناس عن التعلق المفرط بزينتها والانهماك في شهواتها كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ اَلْحَيَاةِ اَلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ اَلسَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ اَلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ اَلنَّاسُ وَاَلْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ اَلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] وقوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اَللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] وقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اَللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى: ٣٦] فهو عليه السلام يفيد بقوله: ﴿لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾ أن الذي من شأنه أن يفقده الإنسان ويغيب عنه ولا يبقى ولا يثبت له لا يستحق أن يحبه الإنسان وتتعلق به نفسه، والرب الذي يعبده الإنسان يجب أن يحبه فيجب أن لا يكون من شأنه أن يأفل عنه ويفقد فهذه الأجرام الآفلة لا تستحق اسم الربوبية، وهذه، كما ترى حجة يعرفها العامة والخاصة.

• وقد خلط ثالثا بين البزوغ والظهور فحكم أنه غير مناف للربوبية بل القول مبني عليه فإن من صفات الرب أن يكون ظاهرا إلى آخر ما قال فإن الذي ذكر في الآية، ولم يبن الحجة عليه، هو البزوغ وهو الطلوع والظهور بعد خفاء المنافي للربوبية فيبقى السؤال: لم بنى الكلام على الأفول دون البزوغ؟ على حاله.

ب. وثانيا: أن أخذ الأفول في الحجة دون البزوغ إنما هو لأن البزوغ لا يستوجب عدم الحب الذي بنى الحجة عليه بخلاف الأفول، وبذلك يظهر ما في قول الكشاف في وجه العدول، قال: (فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب) فإن الاحتجاج كما عرفت إنما هو بعدم تعلق الحب لا بالأفول حتى يوجه العدول إليه من البزوغ بما ذكره.

ج. وثالثا: أن الاحتجاج إنما أريد به نفي ربوبية الأجرام الثلاثة بمعنى تدبيرها للعالم الأرضي أو

العالم الإنساني لا الربوبية بمعنى المقام الذي ينتهي إليه الإيجاد والتدبير جميعا فإن الوثنية وعبدة الكواكب لا ينكرون أن آلهتهم ليست أربابا بهذا المعنى، وأنه الله الواحد لا شريك له، ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم: (إن الأفول إنما أخذ مبدأ للبرهان لأنه يستلزم الإمكان، وكل ممكن محتاج يجب أن يقف سلسلة حاجته عند موجود واجب الوجود)، وكذا ما في قول آخرين: (إن الأفول إنما ينفي الربوبية عن المتصف به لأنه حركة، ولا بد لكل حركة من محرك، وينتهي لا محالة إلى محرك غير متحرك وثابت غير متغير بذاته وهو الله عز اسمه)، وذلك:

- أنهما وإن كانا حجتين برهانيتين غير أنهما تنفيان عن الممكنات وعن المتحركات الربوبية بمعنى العلية الأولى التي ينتهي إليها جميع العلل، وسببية الإيجاد والتدبير التي يقف عندها جميع الأسباب، وعبدة الكواكب من الصابئين وغيرهم وإن ذهبوا إلى أن كل جرم سماوي قديم زماني غير قابل للكون والفساد متحرك بحركة دائمة غير أنهم لا ينكرون أن جميعها معلولة لإمكانها غير مستغنية لا في وجودها ولا في آثار وجودها عن الواجب عز اسمه.
- فالحجتان إنما هما قائمتان على منكري وجود الصانع من الطبيعيين لا الصابئين وعبدة أرباب الأنواع وغيرهم من الوثنيين، وإبراهيم عليه السلام إنما كان يحاج هؤلاء دون أولئك.
- على أنك عرفت أن الحجة لم تركب من جهة الأفول بل من جهة عدم تعلق الحب بشيء من شأنه الأفول والغروب.
- وأما من دفع ما ذكروه من تقرير الحجة من جهة الإمكان أو الحركة بأن تفسير الأفول بذلك تفسير للشيء بما يباينه فإن العرب لا يعرفون الأفول بمعنى الإمكان أو الحدوث وكذلك تفسير الأفول بالتغير والحركة غلط كسابقه، فقد خفي عليه أن هؤلاء لا يقولون: إن الأفول في الآية بمعنى الإمكان أو بمعنى الحركة، وإنما يقولون: إن الأفول إنما احتج به لاستلزامه الإمكان أو الحركة والتغير، وأما الأفول بمعنى الغيبة بعد الحضور والخفاء بعد الظهور مع قطع النظر عن استلزامه الإمكان أو التغير غير اللائقين بساحة الواجب جل ثناؤه فليس ينافي الربوبية كما اعترف به هذا المورد نفسه.
- وذلك أن الواجب تعالى أيضا غائب عن مشاعرنا من غير أن يتحول عليه الحال ويطرأ عليه التغير بالغيبة بعد الحضور والخفاء بعد الظهور، ولا ينفع القول بأن الغيبة والخفاء فيه تعالى من جهتنا لا

من جهته ولاشتغالنا بها يصرفنا عنه لا لمحدودية وجوده وقصور استيلائه فإن غيبة هذه الأجرام السماوية وخاصة الشمس بالحركة اليومية أيضا من قبلنا حيث أنا أجزاء من الأرض التي تتحرك بحركتها اليومية فتحولنا بها من مسامتة هذه الأجرام ومواجهتها إلى خلاف ذلك فنغرب عنها في الحقيقة بعد طلوعنا عليها وإن كان الخطأ الحسي يخيل لنا غيره.

• وقد أراد الرازي أن يجمع بين الوجوه جميعا فقال في تفسيره ما نصه: (الأفول عبارة عن غيبوبة الشيء بعد ظهوره وإذا عرفت هذا فلسائل أن يسأل فيقول: الأفول إنما يدل على الحدوث من حيث إنه حركة، وعلى هذا التقدير فيكون الطلوع أيضا دليلا على الحدوث فلم ترك إبراهيم عليه السلام الاستدلال على حدوثها بالطوع وعول في إثبات هذا المطلوب على الأفول؟ والجواب: لا شك أن الطلوع والغروب يشتركان في الدلالة على الحدوث إلا أن الدليل الذي يحتج به الأنبياء في معرض دعوة الخلق كلهم إلى الله لا بد وأن يكون ظاهرا جليا بحيث يشترك في فهمه الذكي والغبي والعاقل، ودلالة الحركة على الحدوث وإن كانت يقينية إلا أنها دقيقة لا يعرفها إلا الأفاضل من الخلق، أما دلالة الأفول فإنها دلالة ظاهرة يعرفها كل أحد فإن الكوكب يزول سلطانه وقت الأفول فكانت دلالة الأفول على هذا المقصود أتم، وأيضا قال بعض المحققين: (الهوي في خطرة الإمكان أفول وأحسن الكلام ما تحصل فيه حصة الخواص وحصة الأوساط وحصة العوام: فالخواص يفهمون من الأفول الإمكان وكل ممكن محتاج لا يكون مقطوع الحاجة فلا بد من الانتهاء إلى من يكون منزها عن الإمكان حتى تنقطع الحاجات بسبب وجوده كما قال: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، وأما الأوساط فإنهم يفهمون من الأفول مطلق الحركة فكل متحرك محدث، وكل محدث فهو محتاج إلى القديم القادر فلا يكون الآفل إلها بل الإله هو الذي يحتاج إليه ذلك الآفل، وأما العوام فإنهم يفهمون من الأفول الغروب، وهم يشاهدون أن كل كوكب يقرب من الأفول والغروب فإنه يزول نوره، وينتقص ضوؤه، ويذهب سلطانه، ويكون كالمعزول، ومن يكون كذلك لا يصلح للإلهية، فهذه الكلمة الواحدة أعني قوله ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ كلمة مشتملة على نصيب المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال فكانت أكمل الدلائل وأفضل البراهين، وفيه دقيقة أخرى، وهو أنه عليه السلام إنما كان يناظرهم وهم كانوا منجمين، ومذهب أصحاب النجوم أن الكوكب إذا كان في الربع الشرقي ويكون صاعدا إلى وسط السماء كان قويا عظيم التأثير، أما إذا كان غربيا وقريبا من الأفول فإنه يكون ضعيف التأثير قليل

القوة فنبه بهذه الدقيقة على أن الإله هو الذي لا تتغير قدرته إلى العجز وكماله إلى النقصان، ومذهبكم أن الكوكب حال كونه في الربع الغربي يكون ضعيف القوة ناقص التأثير عاجز عن التدبير، وذلك يدل على القدح في إلهيته فظهر على قول المنجمين أن للأفول مزيد خاصية في كونه موجبا للقدح في إلهيته) انتهى موضع الحاجة من كلامه على طوله.

• وأنت بالتأمل في ما تقدم تقف على أن ما تفنن به من تقسيم البرهان إلى حصص مختلفة باختلاف النفوس، وتقريره بوجوه شتى لا لفظ الآية يدل عليه، ولا شبهة الصابئين وأصحاب النجوم تندفع به فإنهم لا يرون الجرم السماوي إلها واجب الوجود غير متناهي القدرة ذا قوة مطلقة، وإنما يرونه ممكنا معلولا ذا حركة دائمة يدبر بحركته ما دونه من العالم الأرضي، وشيء مما ذكره من الوجوه لا يدفع هذه النظرية، وكأنه تنبه لهذا الإشكال بعد كلامه المنقول آنفا فبسط في الكلام وأطنب في الخروج من العويصة بما لا يجدي شيئا.

• على أن الحجة الثانية على ما قرره حجة غير تامة فإن الحركة إنما تدل على حدوث المتحرك من حيث وصفه وهو التحرك لا من حيث ذاته، وتمام الكلام في ذلك موكول إلى محله، والمصير إلى ما قدمناه في تقرير الحجة من جهة الحركة.

د. ورابعا: أن إبراهيم عليه السلام إنما ساق هذه الحجج بحسب ما كان الله سبحانه يريه ملكوت السماوات والأرض، وبحسب ما يسمح له جريان محاجته أباه وقومه آخذا بالمحسوس المعاين إما لأنه لم يكن رأى تفصيل الحوادث السماوية والأرضية اليومية كما تقدمت الإشارة إليه أو لأنه أراد أن يحاجهم بما تحت حسهم فأورد قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ لما شاهد شيئا من الأجرام الثلاثة لامعا بازغا، وأورد قوله: ﴿لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾ أو ما في معناه لما شاهد أفولها، وبذلك يظهر الجواب عما يمكن أن يقال: إن قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اَللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً﴾ يدل على أنه عليه السلام كان في النهار المتصل بذلك الليل شاهد قومه فما باله لم يذكر الشمس لينفي ربوبيتها، فإن من المحتمل أن يكون قد خرج إلى قومه للمحاجة والوقت لا يسع أزيد مما حاج به أباه وقومه في أمر الأصنام فكان يحاجهم طول النهار أو مدة ما أدركه من النهار عند قومه حتى إذا تم الحجاج لم يلبث دون أن جن عليه الليل، وهناك محتملات أخر كغيم في الهواء أو حضور قومه للصلوات والقرابين في أول الطلوع فحسب وقد كان يريد أن يواجههم فيما يلقيه إليهم.

هـ. وخامسا: أن الآيات كما قيل تدل على أن الهداية من الله سبحانه وأما الإضلال فلم ينسب إليه تعالى في هذه الآيات بل دل قوله: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلضَّالِّينَ﴾ بعض الدلالة على أن من شأن الإنسان بحسب ما يقتضيه نقص نفسه أن يتصف بالضلال لو لم يهده ربه، وهو الذي يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لاَ فَضْلُ اَللهِّ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتُهُ مَا زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولَكِنَّ اَللهَّ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص: ٥٦] إلى غير ذلك من الآيات، نعم هناك آيات تنسب إليه تعالى الإضلال لكن أمثال قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ اَلْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] تبين أن الضلال المنسوب إليه تعالى هو الإضلال الواقع بحسب المجازاة دون الإضلال الابتدائي، وقد تقدم البحث في تفسير الآية في الجزء الأول من هذا الكتاب.

و. وسادسا: أنه عليه السلام أخذ في حجته لإبطال ربوبية الأجرام الثلاثة أنه لا يحب الآفل لأفوله وهو أن يفقده الإنسان بعد أن يجده فهو الوصف الذي لا يتعلق به الحب المسوغ للعبادة، وإذ كان ذلك وصفا مطردا في جميع الجسمانيات التي تسير إلى الزوال والفوت والهلاك والبيد كانت الحجة قاطعة على كل شرك ووثنية حتى على ما يظهر من بعض الوثنيين من القول بألوهية أرباب الأنواع والموجودات النورية التي يذعنون بوجودها وأنها فوق المادة والطبيعة متعالية عن الجسمية والحركة فإنهم يصرحون بأنها على ما لها من صفاء الجوهر وشرف الوجود مستهلكة تجاه النور القيومي، مستذلة تحت القهر الأحدي، وإذ كان هذه صفة ما يدعونه فلو توجه تلقاءها حب لم يتعلق إلا بمن يدبر أمرها ويصلح شأنها لا بها.

١٦. ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمَاوَاتِ واَلْأَرْضَ﴾ ذكر الراغب في المفردات: (أن أصل الفطر الشق طولا يقال: فطر فلان كذا فطرا وأفطر هو فطورا وانفطر انفطارا قال: ﴿هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ﴾ أي اختلال ووهي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح قال: السماء منفطر به كان وعده مفعولا، وفطرت الشاة حلبتها بإصبعين، وفطرت العجين إذا عجنته فخبزته من وقته، ومنه الفطرة، وفطر الله الخلق وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله: ﴿فِطْرَتَ اَللهَّ اَلَّتِي فَطَرَ اَلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ إشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان وهو المشار إليه بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اَللهُّ﴾)، وذكر أيضا: (أن الحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة والجنف ميل عن الاستقامة إلى

الضلال قال: وسمت العرب كل من حج أو اختتن حنيفا تنبيها على أنه على دين إبراهيم عليه السلام والأحنف من في رجله ميل، قيل: سمي بذلك على التفاؤل وقيل: بل أستعير للميل المجرد)

١٧. لما تبرأ عليه السلام من شركهم وشركائهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ﴾:

أ. وقد سلك إليه تدريجا بإظهار عدم تعلق قلبه بالشريك حيث قال: ﴿لاَ أُحِبُّ اَلْآفِلِينَ﴾ ثم الإيماء إلى كون عبادة الشريك ضلالا حيث قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ اَلْقَوْمِ اَلضَّالِّينَ﴾ ثم التبري الصريح من ذلك بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ رجع إلى توحيده التام في الربوبية، وهو إثبات الربوبية والمعبودية للذي فطر السماوات والأرض، ونفي الشرك عن نفسه فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمَاوَاتِ وَاَلْأَرْضَ حَنِيفاً﴾ فتوجيه الوجه كناية عن الإقبال إلى الله سبحانه بالعبادة فإن لازم العبودية والمربوبية أن يتعلق العبد المربوب بربه في قوته وإرادته، ويدعوه ويرجع إليه في جميع أعماله، ولا يكون دعاء ولا رجوع إلا بتوجيه الوجه والإقبال إليه فكنى بتوجيه الوجه عن العبادة التي هي دعاء ورجوع.

ب. وذكر ربه وهو الله سبحانه الذي وجه وجهه إليه، بنعته الذي يخصه بلا نزاع فيه وهو فطر السماوات والأرض، وجاء بالموصول والصلة ليدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد منهم فقال: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ اَلسَّمَاوَاتِ وَاَلْأَرْضَ﴾ أي إني أقبلت بعبادتي على من ينتهي إليه إيجاد كل شيء وإبداعه، وهو الذي يثبته ويثبتونه فوق الجميع.

ج. ثم نفى غيره مما يدعونه شريكا بقوله: ﴿حَنِيفاً﴾ أي مائلا إليه عن غيره نافيا للشريك عنه، وأكده بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ﴾ فأفاد مجموع قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾، إثبات المعبودية لله تعالى ونفي الشريك عنه قريبا مما تفيده الكلمة الطيبة: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ اَللَّهُ﴾

د. واللام في قوله: ﴿لِلَّذِي﴾ للغاية وتفيد معنى إلى، وكثيرا ما تستعمل في الغاية اللام كما تستعمل (إلى قال: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢] ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اَللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٢]

هـ. وفي تخصيص فطر السماوات والأرض من بين صفاته تعالى الخاصة وكذا من بين الألفاظ الدالة على الخلقة كالباري والخالق والبديع إشارة إلى ما يؤثره إبراهيم عليه السلام من دين الفطرة وقد كرر توصيف هذا الدين في القرآن الكريم بأنه دين إبراهيم الحنيف ودين الفطرة أي الدين الذي بنيت معارفه

وشرائعه على خلقة الإنسان ونوع وجوده الذي لا يقبل التبدل والتغير فإن الدين هو الطريقة المسلوكة التي يقصد بها الوصول إلى السعادة الحقيقية والسعادة الحقيقية هي الغاية المطلوبة التي يطلبها الشيء حسب تركب وجوده وتجهزه بوسائل الكمال طلبا خارجيا واقعيا، وحاشا أن يسعد الإنسان أو أي شيء آخر من الخليقة بأمر ولم يتهيأ بحسب خلقته له أو هيئ لخلافه كأن يسعد بترك التغذي أو النكاح أو ترك المعاشرة والاجتماع وقد جهز بخلافها، أو يسعد بالطيران كالطير أو بالحياة في قعر البحار كالسمك ولم يجهز بما يوافقه.

و. فالدين الحق هو الذي يوافق بنواميسه الفطرة وحاشا ساحة الربوبية أن يهدي الإنسان أو أي مخلوق آخر مكلف بالدين إن كان إلى غاية سعيدة مسعدة ولا يوافق الخلقة أو لم يجهز بما يسلك به إليها فإنما الدين عند الله الإسلام وهو الخضوع لله بحسب ما يهدي إليه ويدل عليه صنعه وإيجاده.

١٨. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، حدثنا نعيم بن عبد الله بن تميم القرشي رضي الله عنه قال: حدثنا أبي عن حمدان بن سليمان النيشابوري عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليه السلام، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله، أليس من قولك إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، قال: فسأله عن آيات من القرآن فيه، فكان فيما سأله أن قال له: فأخبرني عن قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، فقال الرضا عليه السلام: إن إبراهيم وقع إلى ثلاثة أصناف: صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس، وذلك حين خرج من السرب الذي أخفي فيه، فلما جن عليه الليل رأى الزهرة قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على الإنكار والاستخبار، فلما أفل الكوكب قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، لأن الأفول من صفات المحدث لا من صفات القديم، فلما رأى القمر بازغاً قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ على الإنكار والاستخبار، فلما أفل قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، فلما أصبح رأى الشمس بازغة قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] من الزهرة والقمر، على الإنكار والاستخبار، لا على الإخبار والإقرار، فلما أفلت، قال للأصناف الثلاثة من عبدة الزهرة والقمر والشمس: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وإنما أراد إبراهيم بما قال أن يبين لهم بطلان

دينهم، ويثبت عندهم أن العبادة لا تحق لما كان بصفة الزهرة والقمر والشمس، وإنما تحق العبادة لخالقها وخالق السماوات والأرض، وكان ما احتج به على قومه مما ألهمه الله عز وجل وآتاه، كما قال عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فقال المأمون: لله درك يا ابن رسول الله.

• أقول: وتأييد الرواية بمضمونها عدة من الأمور التي استفدناها من سياق الآيات الكريمة ظاهر، وسيجيء أيضاً بعض ما يؤيدها من الروايات، وأما ما في الرواية من كون قول إبراهيم عليه السلام: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ واقعاً على سبيل الإنكار والاستخبار دون الإخبار والإقرار، فوجه من الوجوه التي تقدمت في تفسير الآيات، أورده عليه السلام في قطع حجة المأمون، ولا ينافي صحة غيره من الوجوه لو كان هناك وجه، كما سيأتي.

• وكذا قوله: (لأن الأفول من صفات المحدث) إلخ، ليس بظاهر في أن الحجة مأخوذة من الأفول الحادث، كما ذكره بعضهم، لجواز أن يكون الحجة مأخوذة من عدم الحب وملاكه كون الأفول من صفات المحدث التي لا ينبغي أن يتعلق بها حب، فافهم.

ب. وفي كمال الدين: أبي وابن الوليد معاً عن سعد عن ابن بريد عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أبو إبراهيم منجماً لنمرود بن كنعان، وكان نمرود لا يصدر إلا عن رأيه، فنظر في النجوم ليلة من الليالي، فأصبح فقال: لقد رأيت في ليلتي هذه عجباً، فقال له نمرود: ما هو؟ فقال: رأيت مولوداً يولد في أرضنا هذه، يكون هلاكنا على يديه، ولا يلبث إلا قليلاً حتى يحمل به، فعجب من ذلك نمرود وقال: هل حمل به النساء؟ فقال: لا، وكان فيما أوتي من العلم أنه سيحرق بالنار، ولم يكن أوتي أن الله سينجيه، قال: فحجب النساء عن الرجال، فلم يترك امرأة إلا جعلت بالمدينة، حتى لا يخلص إليهن الرجال، قال: وباشر أبو إبراهيم امرأته فحملت به، فظن أنه صاحبه، فأرسل إلى نساء من القوابل، لا يكون في البطن شيء إلا علمنا به، فنظرنا إلى أم إبراهيم، فألزم الله تبارك وتعالى ذكره ما في الرحم الظهر، فقلن: ما نرى شيئاً في بطنها، فلما وضعت أم إبراهيم، أراد أبوه أن يذهب به إلى نمرود، فقالت له امرأته: لا تذهب بابنك إلى نمرود فيقتله، دعني أذهب به إلى بعض الغيران، أجعله فيه حتى يأتي عليه أجله، ولا تكون أنت تقتل ابنك، فقال لها: فاذهبي، فذهبت به إلى غار، ثم أرضعته، ثم جعلت على باب الغار صخرة، ثم انصرفت عنه، فجعل الله رزقه في إبهامه، فجعل يمصها فيشرب لبناً،

وجعل يشب في اليوم كما يشب غيره في الجمعة، ويشب في الجمعة كما يشب غيره في الشهر، ويشب في الشهر كما يشب غيره في السنة، فمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم إن أمه قالت لأبيه: لو أذنت لي أن أذهب إلى ذلك الصبي فأراه فعلت، قال: ففعل، فأتت الغار فإذا هي بإبراهيم، وإذا عيناه تزهران كأنهما سراجان، فأخذته وضمته إلى صدرها وأرضعته، ثم انصرفت عنه، فسألها أبوه عن الصبي، فقالت: قد واريته في التراب، فمكثت تعتل، فتخرج في الحاجة، وتذهب إلى إبراهيم، فتضمه إليها وترضعه، ثم تنصرف، فلما تحرك، أتته أمه كما كانت تأتيه، وصنعت كما كانت تصنع، فلما أرادت الانصراف أخذ ثوبها، فقالت له: ما لك؟ فقال: اذهبي بي معك، فقالت له: حتى استأمر أباك، فلم يزل إبراهيم في الغيبة مخفياً بشخصه كاتماً لأمره، حتى ظهر فصدع بأمر الله تعالى ذكره، وأظهر الله قدرته فيه.

• أقول: وروي في قصص الأنبياء عن الصدوق عن أبيه وابن الوليد، ثم ساق السند إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان آزر عم إبراهيم منجماً لنمرود، وكان لا يصدر إلا عن رأيه، قال: لقد رأيت في ليلتي عجباً، قال: ما هو؟ قال: إن مولوداً يولد في أرضنا هذه، يكون هلاكنا على يديه، فحجب الرجال عن النساء، وكان تارخ وقع على أم إبراهيم فحملت، ثم ساق الحديث إلى آخره.

• وقد حمل وحدة السند في الحديثين، ووحدة المضمون إلا في (أبي إبراهيم)، صاحب البحار أن قال: الظاهر أن ما رواه الراوندي هو هذا الخبر بعينه، وإنما غيره ليستقيم على أصول الإمامية، انتهى، ثم حمل الرواية وما في مضمونها من الروايات الدالة على أن آزر الوثني كان والدا لإبراهيم صلبياً على التقية.

• وقد روى مثل المضمون السابق القمي في تفسيره، والعياشي في تفسيره، وروي من طرق أهل السنة عن مجاهد، ورواه الطبري في تاريخه والثعلبي في قصص الأنبياء عن عامة السلف وأهل العلم.

• وكيف كان، فالذي ينبغي أن يقال: إن علماء الحديث والآثار كأنهم مجمعون على أن إبراهيم عليه السلام كان في بادي عمره قد أخفي في سرب خوفاً من أن يقتله الملك نمرود، ثم خرج عنه بعد حين، فحاج أباه وقومه في أمر الأصنام والكوكب والقمر والشمس، وحاج الملك في دعواه الربوبية، وقد تقدم أن سياق آيات القصة يؤيد هذا المعنى.

• وأما أبو إبراهيم، فقد ذكر أهل التاريخ أن اسمه تارخ ـ بالحاء المهملة أو المعجمة ـ وآزر إما لقبه، أو اسم صنم، أو وصف ذم أو مدح بحسب لغتهم بمعنى المعتضد أو الأعرج، وصفه به إبراهيم.

• وذكروا أن هذا المشرك الذي سماه القرآن أبا إبراهيم وذكر محاجته إياه، كان هو تارخ أباه الصلبي ووالده الحقيقي، ووافقهم على ذلك عدة من علماء الحديث والكلام من أهل السنة، وخالفهم جمع منهم، والشيعة كالمجمع على ذلك، أو هم مجمعون إلا ما يتراءى من بعض المحدثين حيث أودعوا تلك الأخبار كتبهم، وعمدة ما احتج به القائلون بأن آزر المشرك لم يكن والد إبراهيم، وإنما كان عمه أو جده لأمه، الأخبار الواردة من طرق الفريقين في أن آباء النبي ﷺ كانوا موحدين جميعاً، لم يكن فيهم مشرك، وقد طالت المشاجرة بين الفريقين.

• أقول: من البحث على هذا النمط كيفما تم، خارج عن البحث التفسيري، وإن كان الباحثون من الفريقين في حاجة إلى إيراده واستنتاج حق ما ينتجه، لكنا في غنى عن ذلك، فقد تقدم أن الآيات دالة على أن آزر المشرك الذي يذكره الله تعالى في هذه الآيات من سورة الأنعام لم يكن والدا حقيقياً لإبراهيم عليه السلام.

• فالروايات الدالة على كون آزر أباه الحقيقي، على ما فيها من الاختلاف في سرد القصة، روايات مخالفة للكتاب لا يعبأ بها، ولا حاجة مع ذلك إلى حملها على التقية، إن صح الحمل مع هذا الاختلاف بين القوم.

ج. وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام قال: في إبراهيم إذ رأى كوكباً، قال: إنما كان طالباً لربه ولم يبلغ كفراً، وأنه من فكر من الناس في مثل ذلك، فإنه بمنزلته.

د. وفي تفسير القمي قال: وسئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ هل أشرك في قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾؟ فقال: من قال هذا اليوم فهو مشرك، ولم يكن من إبراهيم شرك، وإنما كان في طلب ربه، وهو من غيره شرك.

• أقول: ويقابل الذي هو طالب، من تم له البيان وقامت له الحجة الواضحة، فهو غير طالب، وليس لغير الطالب أن يفترض ما فيه شرك.

هـ. وفي تفسير العياشي عن حجر قال: أرسل العلاء بن سيابة يسأل أبا عبد الله عليه السلام عن قول إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، وأنه من قال هذا اليوم فهو عندنا مشرك، قال: لم يكن من إبراهيم شرك، إنما كان في طلب ربه، وهو من غيره شرك.

و. وفيه عن محمد بن حمران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله فيما أخبر عن إبراهيم: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، قال: لم يبلغ به شيئاً، أراد غير الذي قال.

• أقول: المراد به ظاهراً أنه أراد به أن قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ لا يتعدى مفهوم نفسه، وليس له وراء ذلك معنى يحكي عنه، أي أنه قاله على سبيل الافتراض أو تسليم المدعى لبيان فساده بفساد لوازمه، كما تقدمت الإشارة إليه.

٤٩. محاجة إبراهيم لقومه والأمن والخوف:

المقطع [٤٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ١٩٣»:

١. ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اَللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾:

أ. قسم تعالى حججه عليه السلام إلى قسمين: أحدهما ما بدأ به هو فحاج الناس، وثانيهما ما بدأ به الناس فكلموه به بعد ما تبرأ من آلهتهم، وهذا الذي تعرض له في الآية وما بعده هو القسم الثاني.

ب. لم يذكر تعالى ما أوردوه عليه من الحجة لكنه لوح إليه بقوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فهو الاحتجاج لوجوب عبادة آلهتهم من جهة الخوف وقد تقدم وسيجيء أن الذي بعثهم إلى اتخاذ الآلهة وعبادتها أحد أمرين: الخوف من سخطها وقهرها بما لها من السلطة على حوادث العالم الأرضي، أو رجاء البركة والسعادة منها، وأشد الأمرين تأثيرا في نفوسهم هو الأمر الأول أعني الخوف وذلك أن الناس بحسب الطباع يرون ما بأيديهم من النعمة والسعادة المادية ملك أنفسهم إما مرهون جهدهم في سلوك سبيل المعاش في اقتناء الأموال واكتساب المقام والجاه أو مما ملكهم إياه الجد الرفيع أو البخت السعيد كمن ورث مالا من مورثه أو صادف كنزا فتملكه أو ساد قومه برئاسة أبيه، فطريق الرجاء قليل التأثير في وجوب العبودية حتى أن المسلمين مع ما بأيديهم من التعليم الكامل الإلهي يتأثرون من الوعد والبشارة أقل مما يتأثرون من الوعيد والإنذار، ولذلك بعينه نرى أن القرآن يذكر الإنذار من وظائف الأنبياء أكثر من ذكر التبشير، وكلا الأمرين من وظائفهم والطرق التي يستعملونها في الدعوة

الدينية.

ج. وبالجملة اختار قوم إبراهيم عليه السلام في محاجتهم إياه عندما كلموه في أمر الآلهة سبيل الخوف فأرهبوه من قهر الآلهة وسخطها ووعظوه بسلوك سبيلهم ولزوم طريقهم في التقرب بالآلهة ورفض القول بربوبية الله سبحانه، وإثباته في المقام الذي أثبتوه فيه وهو أنه الذي ينتهي إليه الكل فحسب، ولما وجد عليه السلام كلامهم ينحل إلى جزءين: الردع عن القول بربوبية الله سبحانه والتحريض على القول بربوبية آلهتهم احتج عليهم من الجهتين جميعا لكن لا غنى للجهة الأولى عن الثانية كما سيجيء.

٢. وما أورده في الاحتجاج على حجاجهم في الله سبحانه هو قوله: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اَللهِّ وقَدْ هَدَانِ﴾:

أ. أي إني واقع في أمر مفروغ عنه ومهتد بهداية ربي حيث آتاني العلم بما أراني من ملكوت السماوات والأرض وألهمني بذلك حجة أنفي بها ربوبية غيره من الأصنام والكواكب، وإني لا أستغني عن رب يدبر أمري فأنتج لي أنه هو الرب وحده لا شريك له، وإذ هداني إليه فأنا في غنى عن الإصغاء إلى حجتكم والبحث عن الربوبية ثانيا فإن البحث إنما ينفع الطالب ولا طلب بعد الوصول إلى الغاية.

ب. هذا ما يعطيه ظاهر الآية بالتبادر إلى الذهن لكن هناك معنى أدق من ذلك يظهر بالتدبر وهو أن قوله: ﴿وَقَدْ هَدَانِ﴾ استدلال بنفس الهداية لا استغناء بالهداية عن الاستدلال وتقريره أن الله هداني بما علمني من الحجة على نفي ربوبية، غيره وإثبات ربوبيته ونفس هدايته دليل على أنه رب ولا رب غيره فإن الهداية إلى الرب من جملة التدبير فهي شأن من هو رب، ولو لم يكن الله سبحانه هو ربي لم يكن ليهديني ولأقام بها إلى الذي هو الرب لكن الله هو هداني فهو ربي، ولم يكن لهم أن يقولوا: إن الذي علمك ما علمت وألهمك الحجة هو بعض آلهتنا لأن الشيء لا يهدي إلى ما يضره ويميت ذكره ويفسد أمره فاهتداؤه عليه السلام إلى نفي ربوبيتها لا يصح أن ينسب إليها، هذا، ولكن كان لهم أن يقولوا أو أنهم قالوا: إن ذلك من فعل بعض آلهتنا فعل بك ذلك قهرا وسخطا أبعدك عن القول بربوبيتها ولقنك هذه الحجج لما وجد من فساد رأيك وعلة نفسك نظير ما شافهت به عاد هودا عليه السلام لما دعاهم إلى توحيد الله سبحانه واحتج عليهم بأن الله هو الذي يجب أن يرجى ويخاف، وأن آلهتهم لا تنفع ولا تضر فردوا عليه بأن بعض آلهتنا اعتراك بسوء قال تعالى في قصتهم حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ اَلسَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ويَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ولاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ﴾، إلى أن قال:، ﴿إِنْ

نَقُولُ إِلاَّ اِعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]

ج. فقوله عليه السلام: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾، ينفي هذه الشبهة وكما أنه ينفي هذه الشبهة فإنه حجة تامة تنفي ربوبية شركائهم، ومحصله: أنكم تدعونني إلى القول بربوبية شركائكم ورفض القول بربوبية ربي بما تخافونني من أن تمسني شركاؤكم بسوء، وترهبونني بإلقاء الشبهة فيما اهتديت به، وإني لا أخاف ما تشركون به لأنها جميعا مخلوقات مدبرة لا تملك نفعا ولا ضرا وإذ لم أخفها سقطت حجتكم وارتفعت شبهتكم، ولو كنت خفتها لم يكن الخوف الحاصل في نفسي من صنع شركائكم لأنها لا تقدر على شيء بل كان من صنع ربي وكان هو الذي شاء أن أخاف شركاءكم فخفتها فكان هذا الخوف دليلا آخر على ربوبيته وآية أخرى من آيات توحيده يوجب إخلاص العبادة له لا دليلا على ربوبية شركائكم وحجة توجب عبادتها، والدليل على أن ذلك من ربي أنه وسع كل شيء علما فهو يعلم كل ما يحدث ويجري من خير وشر في مملكته التي أوجدها لغايات صحيحة متقنة، وكيف يمكن أن يعلم في ملكه بشيء ينفع أو يضر فيسكت ولا يستقبله بأحد أمرين: إما المنع أو الإذن؟ فلو حصل في نفسي شيء من الخوف لكان بمشية من الله وإذن على ما يليق بساحة قدسه، وكان ذلك من التدبير الدال على ربوبيته ونفي ربوبية غيره أفلا تتذكرون وترجعون إلى ما تدركونه بعقولكم وتهدي إليه فطرتكم.

د. فهذا وجه في تقرير الحجة المودعة في قوله: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ وعلى ذلك فقوله: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ كالمتمم للحجة في قوله: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾وهو مع ذلك حجة تامة في نفسه لإبطال ربوبية شركائهم بعدم الخوف منها.

٣. ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ كالكلام في الحجة على تقدير التسليم أي تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف ولا خوف في نفسي، ولو فرض خوف لكان دليلا على ربوبية ربي لا على ربوبية شركائكم فإنه عن مشية من ربي.

٤. ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ بيان وتعليل لكون الخوف المفروض مستندا إلى مشية ربه فإن فاطر السماوات والأرض لا يجهل ما يقع في ملكه فلا يقع إلا بإذن منه فهو الذي يدبر أمره ويقوم بربوبيته.

٥. ﴿أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ﴾ استفهام توبيخي وإشارة إلى أن الحجة فطرية، هذا.

٦. وللمفسرين في الآية أقوال:

أ. أما قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اَللَّهِ وقَدْ هَدَانِ﴾ فقد أورد أكثرهم فيه الوجه الأول من الوجهين اللذين قدمناهما، ومحصله أنه يرد اعتراضهم على توحيده بأنه غني عن المحاجة في ذلك فإن الله هداه ولا حاجة معها إلى المحاجة لكن ظاهر السياق أنه في مقام المحاجة ولازمه أن كلامه احتجاج للتوحيد الاستغناء عن الاحتجاج.

ب. وأما قوله تعالى: ﴿لاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً﴾ فقد ذكروا في الصدر قريبا مما قدمناه، وأما الاستثناء:

• فقيل: معناه إلا أن يغلب ربي هذه الأصنام التي تخوفونني بها فيحييها ويقدرها فتضر وتنفع فيكون ضررها ونفعها إذ ذاك دليلا على حدوثها وعلى توحيد الله سبحانه، وبعبارة أخرى: المعنى أني لا أخافها في حال من الحالات إلا أن يشاء ربي أن تحيا هؤلاء الشركاء فتضر وتنفع فأخافها وإذ ذاك كانت الربوبية لله وتبين حدوث شركائكم، وهذا الوجه وإن كان قريبا مما قدمناه بوجه لكن نسبة النفع والضر إلى الشركاء لو كانت أحياء، مع أن بعضها أحياء عندهم كالملائكة وأرباب الأنواع وبعضها يضر وينفع بحسب ظاهر النسبة كالشمس، تخالف التعليم الإلهي في كتابه فإن القرآن يصرح أن لا يملك نفعا ولا ضررا إلا الله سبحانه، وكذلك ما ذكر من دلالة ذلك على حدوث شركائهم أمر لا يضر أهل الأوثان فإنهم كما عرفت لا ينكرون كون الأصنام ولا أربابها معلولة لله مخلوقة له، والقول بالقدم الزماني في بعضها لا ينافي إمكانها ولا معلوليتها عندهم.

• وقيل: إن معنى الاستثناء أني لا أخاف شركاءكم وأستثني من عموم الخوف في الأوقات أن يشاء ربي أن يعذبني ببعض ذنوبي أو يصيبني بمكروه ابتداء، وبعبارة أخرى الجملة استثناء من معنى أعم مما يدل عليه الجملة السابقة فقد دل قوله: ﴿وَلاَ أَخَافُ﴾، على نفي الخوف من شركائهم، وقوله: ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ﴾، استثناء من كل خوف فالتقدير: لا أخاف ما تشركون به ولا شيئا آخر إلا من أن يشاء ربي شيئا أكرهه ابتداء أو جزاء فإني أخافه، ووجه التعسف في هذا المعنى لا يحتاج إلى بيان.

ج. وأما قوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾:

• فقد قيل، إنه ثناء منه عليه السلام لربه بعد إتمام الحجة.

• وقيل: إنه تعريض بأصنامهم حيث إنها لا تعلم شيئا ولا تشعر، ويرد عليه أن التعريض بمثل القدرة أقرب إلى اقتضاء المقام من التعريض بالعلم فما وجه العدول عن القدرة إلى العلم؟ والإشكال جار في الوجه السابق.

• وقيل: إنه لما استثنى ما يشاؤه ربه مما يقع عليه من المكاره بين بقوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ أنه تعالى علام الغيوب فلا يفعل إلا الصلاح والخير والحكمة، وفيه أن الأنسب حينئذ أن يذكر الحكمة مكان العلم ولا أقل من أن يذكر الحكمة مع العلم كما في أغلب الموارد.

• وقيل: إنه كالتعليل للاستثناء بجواز أن يكون قد سبق في علمه تعالى أصابته بسوء تكون سببه الأصنام كأن يشاء أن يسقط صنم عليه فيشجه أو تؤثر فيه حرارة الشمس فتمرضه أو تقتله، وفيه أن التمسك بالقدرة أو الحكمة أنسب للتعليل من العلم.

• وقيل: معناه أن علم ربي وسع كل شيء وأحاط به ومشيئته مرتبطة بعلمه المحيط القديم وقدرته منفذة لمشيئته فلا يمكن أن يكون لشيء من المخلوقات التي تعبدونها ولا لغيرها تأثير ما في صفاته، ولا في أفعاله الصادرة عنها لا بشفاعة ولا غيرها وإنما يكون ذلك لو كان علم الله تعالى غير محيط بكل شيء فيعلمه الشفعاء والوسطاء من وجوه مرجحات الفعل أو الترك بالشفاعة أو غيرها ما لم يكن يعلم فيكون ذلك هو الحامل له على الضر أو النفع أو العطاء أو المنع، قال هذا القائل: أخذنا هذا المعنى لهذه الجملة من حجج الله تعالى على نفي الشفاعة الشركية بمثل قوله: ﴿مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ قال: (وهذا أرجح الوجوه، وهو من قبيل تفسير القرآن بالقرآن)، ومحصله أن قوله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ بيان وتعليل لعموم نفي الخوف من الآلهة وغيرها كأنه قال: لا أخاف ضر شيء من آلهتكم وغيرها من المخلوقات فإن ربي يعلم كل شيء فيتمه بمشيئته وينفذه بقدرته فلا يحتاج إلى شفيع يعلمه ما جهل حتى يكون لها تأثير في أفعاله تعالى وشفاعة، وأنت تعلم أن نفي هذا التأثير كما يحتاج إلى سعة علمه تعالى كذلك يحتاج إلى إطلاق القدرة والمشيئة، والمشيئة مع ذلك صفة فعل لا ذات كما يفرضه القائل، فما ذا تنفع سعة العلم لو لم يكن لقدرته ومشيئته إطلاق، والشاهد عليه نفس كلامه الذي قرر فيه الوجه بالعلم والمشيئة والقدرة جميعا، وبالجملة هذا الوجه لا يتم بسعة

العلم وحدها وإنما يتم بها وبإطلاق القدرة والمشيئة، وقد ذكرت في الآية سعة العلم وحدها، وأما ما ذكره من دلالة آيات الشفاعة على ذلك فالآيات المذكورة مسوقة لإثبات الشفاعة بمعنى التوسط في السببية بإذن من الله سبحانه لا أنها تنفيها كما خيل إليه فزعم أنه يفسر القرآن، بالقرآن وكيف لا؟ والطمع في ارتفاع الأسباب عن العالم المشهود طمع فيما لا مطمع فيه، والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يتكلم عن السببية ويبني على أصل العلية والمعلولية العام، وقد تقدم الكلام في هذه المعاني كرارا في الأجزاء السابقة من الكتاب.

٧. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ولاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ باللهَّ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾:

أ. ثم كر عليه السلام عليهم بحجة أخرى تثبت المناقضة بين قولهم وفعلهم وبعبارة أخرى: حالهم يكذب مقالهم ومحصله أنكم تأمرونني أن أخاف ما لا يجب أن يخاف منه، وأنتم أنفسكم لا تخافون من يجب أن يخاف منه فأنا أولى بالأمن منكم إن عصيتكم ولم آتمر بأمركم، أما كون ما تأمرونني بخوفه لا يجب أن يخاف منه فلأن الأصنام وأربابها لا دليل على كونها مستقلة بالضر والنفع حتى توجب الخوف منها، وأما كونكم لا تخافون من يجب أن يخاف منه فإنكم أنفسكم أثبتم لله سبحانه شركاء في الربوبية ولم ينزل الله في ذلك عليكم برهانا يمكن أن يعتمد عليه فإن الصنع والإيجاد لله سبحانه فله الملك وله الحكم فلو كان اتخذ بعض مخلوقاته شريكا لنفسه يوجب لنا بذلك عبادة شريكه كان إليه لا إلى غيره أن يبين لنا ذلك ويكشف عن وجه الحقيقة فيه، والطريق فيه أن يقارنه بعلائم وآيات تدل على أن له شركة في كذا وكذا، وذلك إما وحي أو برهان يتكئ على آثار خارجية، وشيء من ذلك غير موجود.

ب. وعلى هذا التقرير فقوله تعالى: ﴿مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ مقيد بحسب ما يستفاد من المقام بما قيد به قوله: ﴿أَشْرَكْتُمْ باللهَّ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ وإنما ذكر هذا القيد عند ذكر عدم خوفهم من شركهم لأن الحجة إلى ذكره هناك أحوج وهو ظاهوقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ من تتمة الحجة، والمجموع برهان على مناقضتهم أنفسهم في دعوته عليه السلام إلى أن يخاف آلهتهم فإنهم يأمرونه بالخوف فيما لا يجب وهم أنفسهم لا يخافون فيما يجب.

ج. وبالبيان السابق يظهر أن وصف شركائهم بأن الله لم ينزل بها عليهم سلطانا افتراض استدعاه نوع الحجة التي وضعت في الكلام لا مفهوم له يثبت إمكان أن يأمر الله باتخاذ الشركاء آلهة يعبدون فهو

بمنزلة قولنا: لا دليل لكم على ما ادعيتم، في جواب من يخوفنا من موضوع خرافي يدعي أنه ربما ينفع ويضر، ولنا أن نبدل قولنا ذلك لو أردنا التكلم بلسان التوحيد بقولنا: ما أنزل الله على ذلك دليلا، والكلام بحسب التحليل المنطقي يئول إلى قياس استثنائي استثني فيها نقيض المقدم في الشرطية لإنتاج نقيض التالي نحوا من قولنا: لو كان الله نزل بها عليكم سلطانا يدل على قدرتهم على الضر لكان اتخاذكم الشركاء خوفا منها في محله لكنه لم ينزل سلطانا فليس اتخاذكم الشركاء في محله، ومن المعلوم أن لا مفهوم في هذا القياس فلا حاجة إلى القول بأن التقييد بقوله: ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ للتهكم، أو للإشارة إلى أن هذا وصف لازم لشركائهم على حد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اَللهِّ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧] إلى غير ذلك من التحملات.

د. والباء في قوله ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ للمعية أو السببية وقد كنى عليه السلام عنهم وعن نفسه بالفريقين ولم يقل: أنا وأنتم أو ما يشابه ذلك ليكون أبعد من تحريك الحمية وتهييج العصبية كما قيل، وليدل على تفرقهما وشقاق بينهما من جهة الاختلاف في أصل الأصول وأم المعارف الحقيقية بحيث لا يأتلفان بعد ذلك في شيء.

٥٠. الأمن والهداية ولم يخلطوا إيمانهم بظلم:

المقطع [٥٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٠٠»:

١. ﴿اَلَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ اَلْأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾:

أ. سألهم في الآية السابقة في ضمن ما أقامه من الحجة عمن هو أحق بالأمن حيث قال: ﴿فَأَيُّ اَلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ثم أجابهم عما سألهم لكون الجواب واضحا لا يختلف فيه الفريقان المتخاصمان والجواب الذي هذا شأنه لا بأس بأن يبادر السائل إلى إيراده من غير أن ينتظر المسئول فإن المسئول لا يخالف السائل في ذلك حتى يخاف منه الرد، وقد حكى الله تعالى اعترافهم بذلك في قصة كسر الأصنام: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ اَلظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] هذا ما يقتضيه سياق الكلام أن تكون الآية من كلام إبراهيم عليه السلام ومقولة لقوله، وأما كونها من كلام قومه وجوابا محكيا عنهم،

وكذا كونها من الله سبحانه من باب القضاء بين الطرفين المتخاصمين فمما لا يساعد عليه السياق البتة.

ب. وكيف كان فالكلام متضمن تأكيدا قويا من جهة إسنادات متعددة في جمل اسمية وهي ما في قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ جملة اسمية هي خبر لقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ والمجموع جملة اسمية هي خبر لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾، والمجموع جملة اسمية، وكذلك ما عطف على قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ من قوله: ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ فينتج أنه لا شك في اختصاص الذين آمنوا ولم يستروا إيمانهم بظلم بالأمن والاهتداء ولا ريب.

ج. ولا ريب أن الآية تدل على أن خاصة الأمن والاهتداء من آثار الإيمان مشروطا بأن لا يلبس بظلم، واللبس الستر كما ذكر الراغب في المفردات وأصل اللبس بفتح اللام الستر، فهو استعارة قصد فيها الإشارة إلى أن هذا الظلم لا يبطل أصل الإيمان فإنه فطري لا يقبل البطلان من رأس، وإنما يغطي عليه ويفسد أثره ولا يدعه يؤثر أثره الصحيح.

٢. والظلم وهو الخروج عن وسط العدل وإن كان في الآية نكرة واقعة في سياق النفي ولازمه العموم وعدم اقتران الإيمان بشيء مما يصدق عليه الظلم على الإطلاق لكن السياق حيث دل على كون الظلم مانعا من ظهور الإيمان وبروزه بآثاره الحسنة المطلوبة كان ذلك قرينة على أن المراد بالظلم هو نوع الظلم الذي يؤثر أثرا سيئا في الإيمان دون الظلم الذي لا أثر له فيه:

أ. وذلك أن الظلم وإن كان المظنون أن أول ما انتقل إليه الناس من معناه هو الظلم الاجتماعي وهو التعدي إلى حق اجتماعي بسلب الأمن من نفس أحد من أفراد المجتمع أو عرضه أو ماله من غير حق مسوغ لكن الناس توسعوا بعد ذلك فسموا كل مخالفة لقانون أو سنة جارية ظلما بل كل ذنب ومعصية لخطاب مولوي ظلما من المذنب بالنسبة إلى نفسه بل المعصية لله سبحانه لما له من حق الطاعة المشروع بل مخالفة التكليف ظلما وإن كان عن سهو أو نسيان أو جهل وإن لم يبنوا على مؤاخذة هذا المخالف وعقابه على ما أتى به بل يعدون من خالف النصيحة والأمر الإرشادي ولو اشتبه عليه الأمر وأخطأ في مخالفته من غير تعمد ظالما لنفسه حتى أن من سامح في مراعاة الدساتير الصحية الطبية أو خالف شيئا من العوامل المؤثرة في صحة مزاجه ولو من غير عمد عد ظالما لنفسه وإن كان ظلما من غير شعور، والملاك في جميع ذلك التوسع في معنى الظلم من جهة تحليله.

ب. وبالجملة للظلم عرض عريض، كما عرفت، لكن ما كل فرد من أفراده بمؤثر أثرا سيئا في

الإيمان فإن أصنافه التي لا تتضمن ذنبا ومعصية ولا مخالفة مولوية كما إذا كان صدوره عن سهو أو نسيان أو جهل أو لم يشعر بوقوعه مثلا فتلك كلها مما لا يؤثر في الإيمان الذي شأنه التقريب من السعادة والفلاح الحقيقي والفوز برضى الرب سبحانه وهو ظاهر فتأثير الإيمان أثره لا يشترط بعدم شيء من ذلك.

٣. فقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ معناه اشتراط الإيمان في إعطائه الأمن من كل ذنب ومعصية يفسد أثره بعدم الظلم غير أن هاهنا دقيقة وهي:

أ. أن الذنب الاختياري، كما استوفينا البحث عنه في آخر الجزء السادس من الكتاب، أمر ذو مراتب مختلفة باختلاف الأفهام فمن الظلم ما هو معصية اختيارية بالنسبة إلى قوم وليس بها عند آخرين، فالواقف في منشعب طريقي الشرك والتوحيد مثلا وهو الذي يرى أن للعالم صانعا هو الذي فطر أجزاءها وشق أرجاءها وأمسك أرضها وسماءها، ويرى أنه نفسه وغيره مخلوقون مربوبون مدبرون، وأن الحياة الإنسانية الحقيقية إنما تسعد بالإيمان به والخضوع له فالظلم اللائح لهذا الإنسان هو الشرك بالله والإيمان بغيره بالربوبية كالأصنام والكواكب وغيرها على ما يثبته إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ولاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ فالإيمان الذي يؤثر أثره بالنسبة إلى هذا الإنسان إنما يشترط في إعطائه الأمن من الشقاء بأن لا يلبسه ظلم الشرك ومعصيته.

ب. ومن طوى هذه المرحلة فآمن بالله وحده فإنه يواجه من الظلم الكبائر من المعاصي كعقوق الوالدين وأكل مال اليتيم وقتل النفس المحترمة والزنا وشرب الخمر فإيمانه في تأثيره آثاره الحسنة يشترط باجتناب هذا النوع من الظلم، وقد وعده الله أن يكفر عنه السيئات والمعاصي الصغيرة إن اجتنب كبائر ما ينهى عنه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ونُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ [النساء: ٣١] وفساد أثر هذا الإيمان هو الشقاء بعذاب هذه المعاصي وإن لم يكن عذابا خالدا غير منقطع الآخر كعذاب الشرك بل منقطعا إما بحلول أجله وإما بشفاعة ونحوها.

ج. ومن تزود هذا الزاد من التقوى وحصل شيئا من المعرفة بمقام ربه كان مسئولا بأصناف من الظلم تبدو له بحسب درجة معرفته بربه كإتيان المكروهات وترك المستحبات والتوغل في المباحات، وفوق ذلك المعاصي في مستوى الأخلاق الكريمة والملكات الربانية ووراء ذلك الذنوب التي تعترض سبيل الحب، وتحف بساط القرب، فالإيمان في كل من هذه المراتب إنما يؤمن المتلبس به ويدفع عنه الشقاء إذا

عري عن ملابسة الظلم المناسب لتلك المرتبة.

٤. فلقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ إطلاق من حيث الظلم لكنه إطلاق يختلف باختلاف مراتب الإيمان وإذ كان المقام مقام محاجة المشركين انطبق الظلم المنفي على ظلم الشرك فحسب والأمن الذي يعطيه هذا الإيمان هو الأمن مما يخاف منه من الشقاء المؤبد والعذاب المخلد، والآية مع ذلك آية مستقلة من حيث البيان مع قطع النظر عن خصوصية المورد تفيد أن الأمن والاهتداء إنما يترتب على الإيمان بشرط انتفاء جميع أنحاء الظلم الذي يلبسه ويستر أثره بالمعنى الذي تقدم بيانه.

٥. وأما الإيمان المذكور في الآية ففيه إطلاق والمراد به الإيمان بالربوبية الصالح للتقيد بما يصلحه أو يفسده ثم إذا قيد بقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أفاد الإيمان بربوبية الله سبحانه ورفض غيره من شركائهم فإن إبراهيم عليه السلام ذكر فيما تحكي عنه الآية السابقة أن قولهم بربوبية شركائهم وإيمانهم بها مع كونها من خلق الله قول بما لا دليل لهم عليه من جانب الله ولا سلطان وأنهم بإيمانهم بشركائهم يتوقون شرا ويستأمنون شقاء ليس لها أن تدفعها لأنها لا تضر ولا تنفع، وأما هو عليه السلام فقد خاف وآمن بمن هو فاطره وهو المتصرف بالهداية والمدبر الذي له في كل أمر إرادة ومشية لسعة علمه، ثم سألهم: أي الفريقين أحق بالأمن والناجح بالإيمان بالرب، ولكل من الفريقين إيمان بالرب، وإن اختلفا من جهة الرب، والذي آمنوا به بين مؤمن برب على ربوبيته دليل، ومؤمن برب لا دليل على ربوبيته بل الدليل على خلافه.

٦. ومن هنا يظهر أن المراد بالإيمان في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مطلق الإيمان بالربوبية ثم بتقيده بقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ يتعين في الإيمان بالله سبحانه الذي هو حق الإيمان فافهم.

٧. فقد اتضح بما تقدم:

أ. أولا: أن المراد بالإيمان هو الإيمان بالربوبية دون الإيمان بوجود صانع العالم خلافا لمنكري وجوده.

ب. وثانيا: أن الظلم في الآية مطلق ما يضر الإيمان ويفسده من المعاصي، وكذا المراد بالأمن مطلق الأمن من شقاء المعاصي والذنوب، وبالاهتداء مطلق التخلص من ضلالها وإن انطبق بحسب المورد على معصية الشرك خاصة.

ج. وثالثا: أن إطلاق الظلم يختلف بحسب اختلاف مراتب الإيمان.

٨. قال بعض المفسرين في معنى عموم الظلم في الآية:

أ. (إن الأمن في الآية مقصور على الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم فإذا حمل العموم فيها على إطلاقه وعدم مراعاة موضوع الإيمان يكون المعنى: الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بظلم ما لأنفسهم لا في إيمانهم ولا في أعمالهم البدنية والنفسية من دينية أو دنيوية ولا لغيرهم من المخلوقات من العقلاء والعجماوات أولئك لهم الأمن من عقاب الله تعالى الديني على ارتكاب المعاصي والمنكرات، وعقابه الدنيوي على عدم مراعاة سببه في ربط الأسباب بالمسببات كالفقر والأسقام والأمراض دون غيرهم ممن ظلموا أنفسهم أو غيرهم فإن الظالمين لا أمان لهم بل كل ظالم عرضة للعقاب وإن كان الله تعالى لسعة رحمته لا يعاقب كل ظالم على كل ظلم بل يعفو عن كثير من ذنوب الدنيا، ويعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء في الآخرة ما دون الشرك به)، قال: وهذا المعنى في تفسير الآية صحيح في نفسه، ويترتب عليه أن الأمن المطلق من الخوف من عقاب الله الديني والدنيوي أو الشرعي والقدري جميعا لا يصح لأحد من المكلفين دع خوف الهيبة والإجلال الذي يمتاز به أهل الكمال.

ب. قال: (وأما معنى الآية على فرض عدم الإطلاق فهو أن الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك بالله أولئك لهم الأمن دون غيرهم من العقاب الديني المتعلق بأصل الدين وهو الخلود في دار العذاب وهم فيما دون ذلك بين الخوف والرجاء)

ج. قال: (وظاهر الآية هو العموم واستدل عليه بفهم الصحابة على ما روي: أن الآية لما نزلت شق ذلك على الناس وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ فأخبرهم ﷺ: أن المراد به الشرك، وربما أشعر بذلك السياق وكون الموضوع هو الإيمان)

٩. فيما ذكره هذا المفسر مواقع للإشكال:

أ. فأولا: أن ما استدل عليه من العموم بفهم الصحابة هو غير ما قرره من معنى العموم فإن الذي فهموه من الظلم هو ما يساوي المعصية، والذي قرره هو أعم من ذلك.

ب. وثانيا: أن ما قرره من عموم الظلم حتى بالنسبة إلى أفراد من الظلم ليست من المعصية في شيء ثم حكم بصحة تفسير الآية به أجنبي عن مدلول الآية فإن الآية في مقام بيان أن الأمن والاهتداء من آثار

الإيمان ولكن بشرط أن لا يقارن ظلما يستره ويفسد أثره، وهذا الظلم إنما هو المعصية بوجه، وأما ما لا يعد معصية كأكل الغذاء المضر بصحة البدن خطاء فمن المعلوم أنه لا يفسد أثر الإيمان من الأمن والاهتداء، وليس المراد بالآية بيان آثار الظلم أيا ما كانت ولو مع قطع النظر عن الإيمان فإنه تعالى قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فجعل الإيمان هو الموضوع وقيده بعدم الظلم وجعل أثره الأمن والاهتداء، ولم يجعل الظلم هو الموضوع حتى تكون الآية مسرودة لبيان آثاره، فالآية سيقت لبيان الآثار التي تترتب على الإيمان الصحيح، وأما الظلم بما له من العرض العريض وما له من الأثر المترتب عليه فالآية غير متعرضة لذلك البتة، فقوله: (وهذا المعنى في تفسير الآية صحيح في نفسه) فاسد البتة.

ج. وثالثا: أن قوله: (ويترتب عليه أن الأمن المطلق لا يصح لأحد من المكلفين) صريح في أن الآية لا مصداق لها بالنظر إلى الإطلاق الذي قرره، ولازمه سقوط الكلام عن الفائدة، وأي فائدة في أن يوضع في الحجة قول لا مصداق له أصلا؟

د. ورابعا: أن الذي اختاره في معنى الآية أن المراد به هو الظلم الخاص وهو الشرك ليس بمستقيم فإن الآية من جهة عموم لفظها وإن دلت على وجوب كون الإيمان غير مقارن للشرك حتى يؤثر أثره لكن ذلك من باب انطباق اللفظ العام على مورده الخاص، وأما إرادة المعنى الخاص من اللفظ العام من غير قرينة حالية أو مقالية متصلة أو منفصلة فمما لا ترتضيه صناعة البلاغة وهو ظاهر، وأما ما أشار إليه من قوله ﷺ: (إنما هو الشرك) فليس بصريح في أن الشرك مراد لفظي من الآية وإنما هو الانطباق، وسيجيء البحث عن الحديث في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] الآية، أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الأفراد وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟ إنما هو الشرك.

• أقول: المراد بالعبد الصالح لقمان على ما حكاه الله تعالى من قوله في سورة لقمان، وفي الحديث

دلالة على أن سورة الأنعام نزلت بعد سورة لقمان، وقد تقدم أن كون المراد هو الشرك إنما هو الانطباق بحسب المورد، والشرك ذنب لا تتعلق به مغفرة أصلاً، بخلاف غيره كائناً ما كان، والدليل على ما ذكرنا ما يأتي من الروايات.

ب. وفيه أخرج أحمد والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن جرير بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فانتهى إلينا فسلم، فقال له النبي ﷺ: من أين أقبلت؟ فقال: من أهلي وولدي وعشيرتي أريد رسول الله، قال: قد أصبته، قال: علمني ما الإيمان؟ قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، قال: قد أقررت، ثم إن بعيره دخلت يده في شبكة جردان، فهوى، ووقع الرجل على هامته فمات، فقال رسول الله ﷺ: هذا من الذين عملوا قليلاً وأجروا كثيراً، هذا من الذين قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، إني رأيت الحور العين يدخلن في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أن الرجل مات جائعاً.

• أقول: ورواه أيضاً عن الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه، ورواه العياشي في تفسيره عن جابر الجعفي عمن حدثه عن النبي ﷺ مثله.

ج. وفيه أخرج عبد بن حميد عن إبراهيم التيمي: أن رجلاً سأل عنها النبي ﷺ، فسكت حتى جاء رجل فأسلم، فلم يلبث إلا قليلاً حتى قاتل فاستشهد، فقال النبي ﷺ: هذا منهم من الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم.

د. وفيه أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه عن علي بن أبي طالب في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قال: نزلت هذه الآية في إبراهيم وأصحابه خاصة، ليس في هذه الأمة.

• أقول: والرواية لا توافق بظاهرها الأصول الكلية المستخرجة من الكتاب والسنة، فإن الآية لا تشتمل بمضمونها على حكم خاص تختص به أمة دون أمة، كالأحكام الفرعية التشريعية التي ربما تختص بزمان دون زمان، وأما الإيمان بما له من الأثر على مراتبه، وكذا الظلم على مراتبه بما لها من سوء الأثر في الإيمان، فإنما ذلك أمر مودع في الفطرة الإنسانية، لا يختلف باختلاف الأزمنة والأمم.

• وقال بعض المفسرين في توجيه الحديث: لعل مراده أن الله خص إبراهيم وقومه بأمن موحدهم من عذاب الآخرة مطلقاً، لا أمن الخلود فيه فقط، ولعل سبب هذا ـ إن صح ـ أن الله تعالى لم يكلف قوم إبراهيم شيئاً غير التوحيد، اكتفاء بتربية شرائعهم المدنية الشديدة لهم في الأحوال الشخصية والأدبية وغيرها.

• وقد عثر الباحثون على شرائع حمورابي الملك الصالح الذي كان في عهد إبراهيم وباركه وأخذ منه العشور ـ كما في سفر التكوين ـ فإذا هي كالتوراة في أكثر أحكامها، وأما فرض الله الحج على لسان إبراهيم، فقد كان في قوم ولده إسماعيل لا في قومه الكلدانيين، وأما هذه الأمة، فإن من موحديها من يعذبون بالمعاصي على قدرها، لأنهم خوطبوا بشريعة كاملة يحاسبون على إقامتها، انتهى.

• وفي كلامه من التحكم ما لا يخفى، فقد تقدم أن الملك حمورابي هذا كان يعيش على رأس سنة ألف وسبعمائة قبل المسيح، وإبراهيم كان يعيش على رأس الألفين قبل المسيح تقريباً، كما ذكره.

• وحمورابي هذا وإن كان ملكاً صالحاً في دينه، عادلاً في رعيته، ملتزماً العمل بقوانين وضعها وعمل بإجرائها في مملكته أحسن إجراء وإنفاذ، وهي أقدم القوانين المدنية الموضوعة على ما قيل، إلا أنه كان وثنياً، وقد استمد بعد ذلك من آلهة الوثنيين في ما كتبه بعد الفراغ عن كتابة شريعته، على ما عثروا عليه في الآثار المكشوفة في خرائب بابل، والآلهة التي ذكرها في بيانه الموضوع في ختام القانون، وشكرها في أن آتته الملك العظيم ووفقته لبسط العدل ووضع الشريعة، واستعان بها واستمد منها في حفظ شريعته عن الزوال والتحريف، هي: (ميروداخ) إله الآلهة، وأي إله القانون والعدل، والإله (زماما)، والإله (إشتار) إله الحرب، و(شاماش) الإله القاضي في السماء والأرض، و(سين) إله السماوات، و(حداد) إله الخصب، و(نيرغال) إله النصر، و(بل) إله القدر، والآلهة (بيلتيس)، والآلهة (نينو)، والإله (ساجيلا) وغيرها.

• والذي ذكره من أن الله لم يكلف قوم إبراهيم شيئاً غير التوحيد، اكتفاء بتربية شرائعهم المدنية.، يكذبه أن القرآن يحكي عن لسان إبراهيم عليه السلام الصلاة، كما في أدعيته في سورة إبراهيم، ويذكر أن الله أوحى إليه فعل الخيرات وإيتاء الزكاة، كما في سورة الأنبياء، وأنه شرع الحج وأباح لحوم الأنعام، كما في سورة الحج، وكان من شريعته الاعتزال عن المشركين، كما في سورة الممتحنة، وكان ينهى عن كل ظلم لا ترتضيه الفطرة، كما في سورة الأنعام وغيرها، ومن شرعه التطهر، كما تشير إليه سورة الحج، ووردت

الأخبار أنه عليه السلام شرع الحنيفية وهي عشر خصال: خمس في الرأس وخمس في البدن، ومنها الختانة، وكان يحيي بالسلام، كما في سورة هود ومريم.

• وقد قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة: ١٣٥]، فوصف هذا الدين على ما له من الأصول والفروع بأنه ملة إبراهيم عليه السلام، وهذا وإن لم يدل على أن هذا الدين على ما فيه من تفاصيل الأحكام كان مشرعاً في زمن إبراهيم عليه السلام، بل الأمر بالعكس، كما يدل عليه قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣]، إلا أنه يدل على أن شرائعه راجعة إلى أصل أو أصول كلية تهدي إليها الفطرة، مما ترتضيه وتأمر به، أو لا ترتضيه وتنهى عنه، قال تعالى في آخر هذه السورة بعد ما ذكر حججاً على الشرك وجملاً من الأوامر والنواهي الكلية، مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]

• ولو كان الأمر على ما ذكره أن الله لم يشرع لإبراهيم عليه السلام شريعة، بل اكتفى بما بين يديه من القانون المدني الدائر وهو شريعة حمورابي، لكانت الشريعة المذكورة ممضاة مصوبة من عند الله، وكانت من أجزاء دين إبراهيم عليه السلام، بل الدين الإسلامي الذي شرع في القرآن، لأنه هو ملة إبراهيم حنيفاً، فكانت إحدى الشرائع الإلهية ونوعاً من الكتب السماوية.

• والحق الذي لا مرية فيه أن الوحي الإلهي كان يعلم الأنبياء السالفين وأممهم أصولاً كلية في المعاش والمعاد، كأنواع من العبادة، وسنناً كلية في الخيرات والشرور، يهتدي إلى تشخيصها الإنسان السليم العقل من المعاشرة الصالحة والتجنب عن الظلم والإسراف وإعانة المستكبرين ونحوها، ثم يؤمرون بالدخول في المجتمعات بهذا التجهيز الذي جهزوا به، والدعوة إلى أخذ الخير والصلاح ورفض الشر والفحشاء والفساد، سواء كانت المجتمعات التي دخلوا فيها يدبرها استبداد الظلمة والطغاة، أو رأفة العدول من السلاطين وسياستهم المنظمة.

• ولم يشرع تفاصيل الأحكام قبل ظهور الدين الإسلامي إلا في التوراة، وفيها أحكام يشابه بعضها بعض ما في شريعة حمورابي، غير أن التوراة نزلها الله على موسى عليه السلام، وكانت محفوظة في بني إسرائيل، فقدوها في فتنة بخت نصر التي أفنت جمعهم وخربت هيكلهم، ولم يبق منهم إلا شرذمة ساقتهم

الإسارة إلى بابل، فاستعبدوا وأسكنوا فيه، إلى أن فتح الملك كورش بابل وأعتقهم من الأسر، وأجاز لهم الرجوع إلى بيت المقدس، وأن يكتب لهم عزراء الكاهن التوراة بعد ما أعدمت نسخها ونسيت متون معارفها، وقد اعتادوا بقوانين بابل الجارية بين الكلدانيين.

• ومع هذا الحال، كيف يحكم بأن الله أمضى في الشريعة الكليمية كثيراً من شرائع حمورابي، والقرآن إنما يصدق من هذه التوراة بعض ما فيها؟ وبعد ذلك كله، لا مانع من كون بعض القوانين غير السماوية مشتملاً على بعض المواد الصالحة والأحكام الحقة.

هـ. وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قال: هو الشرك.

و. وفيه بطريق آخر عن أبي بصير عنه عليه السلام في الآية قال: بشك.

• أقول: ورواه العياشي أيضاً في تفسيره عن أبي بصير عنه عليه السلام.

ز. وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألت عن قول الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قال: نعوذ بالله يا أبا بصير أن نكون ممن لبس إيمانه بظلم، ثم قال: أولئك الخوارج وأصحابهم.

ح. وفيه عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قال: الضلال وما فوقه.

• أقول: كأن المراد بالضلال في الرواية الشرك الذي هو أصل كل ظلم، وما فوقه وما يزيد عليه من المعاصي والمظالم، أو المراد بالضلال أدنى ما يتحقق به الظلم من المعاصي، وبما فوقه الشرك الذي هو المرتبة الشديدة من الضلال، فإن كل معصية ضلال.

• والروايات كما ترى تتفنن في تفسير الظلم في الآية، فتارة تفسره بالشرك، وتارة بالشك، وتارة بما عليه الخوارج، وفي بعضها: أن منه ولاية أعدائهم، وكل ذلك من شواهد ما قدمنا، أن الظلم في الآية مطلق، وهو في إطلاقه ذو مراتب بحسب درجات الأفهام.

٥١. حجة الله لإبراهيم ورفع الدرجات لمن يشاء بحكمته:

المقطع [٥١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى

قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٠٥»:

١. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾:

أ. في الإشارة بلفظ البعيد إلى الحجة تفخيم وتعظيم لأمرها لكونها حجة قاطعة جارية على صراط الفطرة مأخوذة بمقدماتها منها.

ب. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ الدرجات كما قيل هي مراقي السلم ثم توسع فيها فأطلق على مراتب الكمال من المعنويات كالعلم والإيمان والكرامة والجاه وغير ذلك فرفعه تعالى من يشاء من عباده درجات من الرفع هو تخصيصه بكمالات معنوية وفضائل حقيقية في الخيرات الكسبية كالعلم والتقوى وغير الكسبية كالنبوة والرسالة والرزق وغيرها.

ج. والدرجات لكونها نكرة في سياق الإيجاب مهملة غير مطلقة غير أن المتيقن من معناها بالنظر إلى خصوص المورد هو درجات العلم والهداية فقد رفع الله إبراهيم عليه السلام بهدايته وإراءته ملكوت السماوات والأرض وإيتائه اليقين والحجة القاطعة، والجميع من العلم، وقد قال تعالى في درجات العلم: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]

٢. ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لتثبيت أن ذلك كله كان بحكمة منه تعالى وعلم كما أن الحجج التي آتاها رسول الله ﷺ المذكورة في السورة قبل هذه الحجة من حكمته وعلمه تعالى، وفي الكلام التفات من التكلم إلى الغيبة لتطييب قلب النبي ﷺ وتثبيت المعارف المذكورة فيه.

٣. وضع هنا مبحثا حول [قصة إبراهيم عليه السلام وشخصيته]، خلاصته:

أ. سيرة إبراهيم عليه السلام في القرآن تبدأ بطفولته على الفطرة، ثم محاجته لأبيه وقومه في عبادة الأصنام، ثم كسره الأصنام، وإلقائه في النار التي صارت برداً وسلاماً، ثم هجرته إلى الأرض المقدسة، وبنائه الكعبة مع إسماعيل، وامتحانه بالذبح، وأدعيته الخاتمة.

ب. منزلته عند الله عظيمة، فهو خليل الله، وإمام الناس، وأحد أولي العزم، وقد أثنى عليه القرآن في أكثر من ستين موضعاً، وأعطاه مقامات لم يعطها لغيره من الأنبياء.

ج. أثره في المجتمع البشري مستمر إلى اليوم، فجميع أديان التوحيد (اليهودية، النصرانية،

الإسلام) تنتهي إليه، وهو الذي سمى أتباعه مسلمين، وجعل الكعبة قبلة للعالمين.

د. التوراة الموجودة تضمنت تحريفاً في قصة إبراهيم، منها: إهمال بناء الكعبة، وتحقير شأن إسماعيل، ونسبة الكذب والابتذال إلى الخليل، وتقديم إسحاق على إسماعيل في الذبيح.

هـ. الحديث المروي في الصحاح عن (ثلاث كذبات) لإبراهيم لا يصح معناه الظاهري، لأن القرآن يصفه بالصدّيق، والأدلة العقلية والنقلية تمنع وقوع الكذب منه، والأقوال المذكورة كانت من قبيل التورية والتبكيت لا الكذب الحقيقي.

و. القرآن يصرح بأن الذبيح هو إسماعيل، والسياق في سورة الصافات واضح في ذلك، والروايات الشيعية متواترة على ذلك، بينما اختلفت روايات العامة بين إسماعيل وإسحاق.

ز. الإشكال حول تعرض القرآن للصابئين في سورة الأنعام لا يصح، لأن عبادة الكواكب كانت شائعة مع الوثنية في بابل وغيرها، ولا يستلزم انتقال إبراهيم إلى حران.

ح. التوراة تعاني من تدافع واضح في قصة إسماعيل، وتناقض بين أنها تجعله وحشياً وتارة تجعله مبشراً به، وهذا يدل على التحريف.

٥٢. هبة الله للأنبياء وفضلهم وإحسانهم وهدايتهم:

المقطع [٥٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٤٢»:

١. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ إسحاق هو ابن إبراهيم ويعقوب هو ابن إسحاق عليه السلام، وقوله: ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ قدم فيه كلا للدلالة على أن الهداية الإلهية تعلقت بكل واحد من المعدودين استقلالا لا أنها تعلقت ببعضهم استقلالا كإبراهيم وبغيره بتبعه، فهو بمنزلة أن يقال: هدينا إبراهيم وهدينا إسحاق وهدينا يعقوب، كما قيل.

٢. ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فيه إشعار بأن سلسلة الهداية غير منقطعة ولا مبتدئة من إبراهيم عليه السلام بل كانت الرحمة قبله شاملة لنوح عليه السلام.

٣. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ﴾ الضمير في ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ راجع إلى نوح ظاهرا لأنه المرجع القريب لفظا، ولأن في المعدودين من ليس هو من ذرية إبراهيم مثل لوط وإلياس على ما قيل، وربما قيل: إن الضمير يعود إلى إبراهيم عليه السلام وقد ذكر لوط وإلياس عليه السلام من الذرية تغليبا قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ وجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ اَلنُّبُوَّةَ واَلْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] أو أن المراد بالذرية هم الستة المذكورون في هذه الآية دون الباقين، وأما قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا﴾، وقوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾، فمعطوفان على قوله: ومن ﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ لا على قوله: ﴿دَاوُدَ﴾، وهو بعيد من السياق.

٤. وأما قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي اَلْمُحْسِنِينَ﴾ فالظاهر أن المراد بهذا الجزاء هو الهداية الإلهية المذكورة، وإليها الإشارة بقوله ﴿كَذَلِكَ﴾ والإتيان بلفظ الإشارة البعيد لتفخيم أمر هذه الهداية فهو نظير قوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اَللهُ اَلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] والمعنى نجزي المحسنين على هذا المثال.

٥. ﴿وَزَكَرِيَّا ويَحْيى وعِيسى وإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ اَلصَّالِحِينَ﴾ تقدم الكلام في معنى الإحسان والصلاح فيما سلف من المباحث وفي ذكر عيسى بين المذكورين من ذرية نوح عليه السلام وهو إنما يتصل به من جهة أمه مريم دلالة واضحة على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات وذريتهن أولادا وذرية حقيقة، وقد تقدم استفادة نظير ذلك من آية الإرث وآية محرمات النكاح، وللكلام تتمة ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

٦. ﴿وَإِسْمَاعِيلَ واَلْيَسَعَ ويُونُسَ ولُوطاً وكلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى اَلْعَالَمِينَ﴾ الظاهر أن المراد بإسماعيل هو ابن إبراهيم أخو إسحاق عليه السلام وقوله: ﴿اَلْيَسَعَ﴾ بفتحتين كأسد وقرئ (الليسع) كالضيغم أحد أنبياء بني إسرائيل ذكر الله اسمه مع إسماعيل عليه السلام كما في قوله: ﴿وَاُذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ واَلْيَسَعَ وذَا اَلْكِفْلِ وكُلٌّ مِنَ اَلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨] ولم يذكر شيئا من قصته في كلامه.

٧. ﴿وَكلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى اَلْعَالَمِينَ﴾:

أ. العالم هو الجماعة من الناس كعالم العرب وعالم العجم وعالم الروم، ومعنى تفضيلهم على العالمين تقديمهم بحسب المنزلة على عالمي زمانهم لما أن الهداية الخاصة الإلهية أخذتهم بلا واسطة، وأما غيرهم فإنما تشملهم رحمة الهداية بواسطتهم، ويمكن أن يكون المراد تفضيلهم بما أنهم طائفة مهدية بالهداية

الفطرية الإلهية من غير واسطة على جميع العالمين من الناس سواء عاصروهم أو لم يعاصروهم فإن الهداية الإلهية من غير واسطة نعمة يتقدم بها من تلبس بها على من لم يتلبس، وقد شملت المذكورين من الأنبياء ومن لحق بهم من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم فالمجتمع الحاصل منهم مفضل على غيرهم جميعا بتفضيل إلهي.

ب. وبالجملة الملاك في أمر هذا التفضيل هو التلبس بتلك الهداية الإلهية التي لا واسطة فيها، والأنبياء فضلوا على غيرهم بسبب التلبس بها فلو فرض تلبس من غيرهم بهذه الهداية كالملائكة كما ربما يظهر من كلامه تعالى وكالأئمة على ما تقدم في البحث عن قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] في الجزء الأول من الكتاب فلا يفضل عليهم الأنبياء عليه السلام من هذه الحيثية وإن أمكن أن يفضلوا عليهم من جهة أخرى غير جهة الهداية.

ج. ومن هنا يظهر: أن استدلال بعضهم بالآية على أن الأنبياء أفضل من الملائكة ليس في محله، ويظهر أيضا أن المراد بالتفضيل إنما هو التفضيل من حيث الهداية الإلهية الخاصة التي أخذتهم من غير توسط أحد، وأما كونهم أهل الاجتباء وأهل الصراط المستقيم وأهل الكتاب والحكم والنبوة فأمر خارج عن مصب التفضيل المذكور في هذه الآية.

٨. الذي وقع في الآيات الثلاث من ذكر من عدده الله تعالى من الأنبياء بأسمائهم، وهم سبعة عشر نبيا، لم يراع فيه الترتيب الذي بينهم لا بحسب الزمان وهو ظاهر، ولا بحسب الرتبة والفضيلة فإن فيهم نوحا وموسى وعيسى عليه السلام، وهم أفضل من باقي المذكورين بنص الكتاب كما تقدم في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب وقد قدم عليهم غيرهم في الذكر:

أ. وقد ذكر صاحب المنار في وجه الترتيب المأخوذ في الآيات الثلاث بين الأنبياء المسمين فيها وهم أربعة عشر نبيا، ما ملخصه: أنه تعالى جعلهم ثلاثة أقسام لمعان في ذلك جامعة بين كل قسم منهم:

• فالقسم الأول: داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، والمعنى الجامع بينهم أن الله تعالى آتاهم الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة، وقد قدم ذكر داود وسليمان وكانا ملكين غنيين منعمين، وذكر بعدهما أيوب ويوسف، وكان أيوب أميرا غنيا عظيما محسنا، وكان يوسف وزيرا عظيما وحاكما متصرفا، وقد ابتليا بالضراء فصبرا وبالسراء فشكرا، وبعد ذلك موسى وهارون وكانا حاكمين في

قومهما ولم يكونا ملكين، فكل زوجين من هذه الأزواج الثلاثة ممتاز بمزية والترتيب مع ذلك من حيث نعم الدنيا فداود وسليمان كانا أكثر تمتعا من نعمها من أيوب ويوسف، وهما من موسى وهارون، أو الترتيب من حيث الفضل الديني فالظاهر أن موسى وهارون أفضل من أيوب ويوسف، وهما أفضل من داود وسليمان لجمعهما بين الصبر في الضراء والشكر في السراء.

• والقسم الثاني: زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، وهؤلاء قد امتازوا بشدة الزهد في الدنيا، والإعراض عن لذائذها، والرغبة عن زينتها، ولذلك خصهم هنا بوصف الصالحين لأن هذا الوصف أليق بهم عند مقابلتهم بغيرهم وإن كان كل نبي صالحا ومحسنا على الإطلاق.

• والقسم الثالث: إسماعيل واليسع ويونس ولوط، وأخر ذكرهم لعدم الخصوصية إذ لم يكن لهم من ملك الدنيا وسلطانها ما كان للقسم الأول، ولا من المبالغة من الإعراض عن الدنيا ما كان للقسم الثاني.

ب. وفي تفسير الرازي، ما يقرب منه وإن كان ما ذكره أوجه بالنسبة إلى ما ذكره الرازي.

ج. ويرد على ما ذكراه جميعا أنهما جعلا القسم الثالث من لا خصوصية له يمتاز به وهو غير مستقيم:

• فإن إسماعيل عليه السلام قد ابتلاه الله بأمر الذبح فصبر على ما امتحنه الله تعالى به قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَا ذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨] وهذا من الخصائص الفاخرة التي اختص الله بها إسماعيل عليه السلام، وبلاء مبين امتاز به حتى جعل الله تعالى التضحية في الحج طاعة عامة مذكرة لمحنته في جنب الله وترك عليه في الآخرين على أنه شارك أباه الكريم في بناء الكعبة وكفى به ميزا.

• وكذلك يونس النبي عليه السلام امتحنه الله تعالى بما لم يمتحن به أحدا من أنبيائه وهو ما التقمه الحوت فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

• وأما لوط فمحنه في جنب الله مذكورة في القرآن الكريم فقد قاسى المحن في أول أمره مع إبراهيم عليه السلام حتى هاجر قومه وأرضه في صحابته، ثم أرسله الله إلى أهل سدوم وما والاه مهد الفحشاء

التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين حتى إذا شملهم الهلاك لم يوجد فيهم غير بيت المسلمين وهو من بيت لوط خلا امرأته.

• وأما اليسع فلم يذكر له في القرآن قصة، وإنما ورد في بعض الروايات أنه كان وصي إلياس وقد أتى قومه بما أتى به عيسى بن مريم عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقد ابتلى الله قومه بالسنة والقحط العظيم.

د. فالأحسن أن يتمم الوجه المذكور لترتيب الأسماء المعدودة في الآية بأن يقال: إن الطائفة الأولى المذكورين وهم ستة اختصوا بالملك والرئاسة مع الرسالة، والطائفة الثانية وهم أربعة امتازوا بالزهد في الدنيا والإعراض عن زخارفها، والطائفة الثالثة، وهم أربعة، أولو خصائص مختلفة ومحن إلهية عظيمة يختص كل بشيء من المميزات.

٩. ثم إن الذي ذكره في أثناء كلامه من تفضيل موسى وهارون على أيوب ويوسف، وتفضيلهما على داود وسليمان بما ذكره من الوجه، وكذا جعله الصلاح بمعنى الزهد والإحسان كل ذلك ممنوع لا دليل عليه.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق مسألة دخول أولاد البنات في الذرية والأولاد في القرآن الكريم]، خلاصته:

أ. بيان أن الذرية في القرآن تتناول أولاد البنات، بدليل عدّ عيسى عليه السلام من ذرية الأنبياء مع أنه لا يتصل بهم إلا من جهة أمه مريم.

ب. إبطال القول بأن ذلك من خصائص عيسى عليه السلام لعدم وجود أب له، وبيان أن الآيات تدل على عموم الحكم.

ج. توضيح أن المسألة ليست لفظية لغوية، بل هي مسألة حقوقية اجتماعية تتعلق بالقرابة، وقد غيّر الإسلام فيها ما كانت عليه الجاهلية.

د. إثبات أن الإسلام أدخل المرأة في القرابة التشريعية، وأدخل أولاد البنات في الأولاد، بدليل آيات الإرث والتحريم والمباهلة.

هـ. الاستدلال باحتجاج الإمام الباقر عليه السلام على أن الحسن والحسين ابنا رسول الله ﷺ من

صلبه، وذلك بآية تحريم حلائل الأبناء.

و. بيان أن الإسلام ألغى قرابة الأدعياء، وأثبت القرابة الحقيقية من جهة الأبوين جميعاً، وجعل الولد للفراش.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في قصص الأنبياء للثعلبي: أن إلياس أتى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن خطوب، وكان به ضر، فآوته وأخفت أمره، فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسع إلياس فآمن به وصدقه ولزمه، فكان يذهب حيثما يذهب، ثم ذكر قصة رفع إلياس، وأن اليسع ناداه عند ذلك: يا إلياس، ما تأمرني به؟ فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى، فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بني إسرائيل، قال: ونبأ الله تعالى بفضله اليسع عليه السلام، وبعثه نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إليه وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس، فآمنت به بنو إسرائيل، وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره، وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع.

ب. وفي البحار عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام: فيما احتج به على جاثليق النصارى، إلى أن قال عليه السلام: إن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام، مشى على الماء وأحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، فلم يتخذه أمته رباً، الخبر.

ج. وفي تفسير العياشي عن محمد بن الفضيل عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]، لنجعلها في أهل بيته، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٨٤]، لنجعلها في أهل بيته، فأمر العقب من ذرية الأنبياء من كان قبل إبراهيم ولإبراهيم.

• أقول: وفيه تأييد ما قدمناه أن الآيات لبيان اتصال سلسلة الهداية.

د. وفي الكافي مسنداً، وفي تفسير العياشي مرسلاً عن بشير الدهان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: والله لقد نسب الله عيسى بن مريم في القرآن إلى إبراهيم من قبل النساء، ثم تلا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى آخر الآية، وذكر عيسى.

هـ. وفي تفسير العياشي عن أبي حرب عن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن معمر قال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي، تجدونه في كتاب الله، وقد قرأت كتاب الله من أوله

إلى آخره فلم أجده، قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] حتى بلغ يحيى وعيسى؟ قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم؟ قال: نعم، قرأت.

• أقول: ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم عن أبي الحرب بن أبي الأسود مثله.

هـ. أخرج أبو الشيخ والحاكم والبيهقي عن عبد الملك بن عمير قال: دخل يحيى بن معمر على الحجاج، فذكر الحسين، فقال الحجاج: لم يكن من ذرية النبي ﷺ، فقال يحيى: كذبت، فقال: لتأتيني على ما قلت ببينة، فتلا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: ٨٥]، فأخبر تعالى أن عيسى من ذرية إبراهيم بأمه، قال: صدقت.

• أقول: ذكر الآلوسي في روح المعاني في قوله تعالى: (وعيسى)، وفي ذكره عليه السلام دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنات، لأن انتسابه ليس إلا من جهة أمه، وأورد عليه: أنه ليس له أب يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه، فلا يظهر قياس غيره عليه في كونه ذرية لجده من الأم، وتعقب بأن مقتضى كونه بلا أب أن يذكر في حيز الذرية، وفيه منع ظاهر، والمسألة خلافية، والذاهبون إلى دخول ابن البنت في الذرية يستدلون بهذه الآية، وبها احتج موسى الكاظم رضي الله عنه على ما رواه البعض عند الرشيد.

• وفي التفسير الكبير: أن أبا جعفر رضي الله تعالى عنه استدل بها عند الحجاج بن يوسف، وبآية المباهلة حيث دعا ﷺ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما بعد ما نزل: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، وادعى بعضهم: أن هذا من خصائصه ﷺ، وقد اختلف إفتاء أصحابنا في هذه المسألة، والذي أميل إليه القول بالدخول،

• وقال في المنار: وفي الباب حديث أبي بكرة عند البخاري مرفوعاً: (إن ابني هذا سيد) يعني الحسن، ولفظ (ابن) لا يجري عند العرب على أولاد البنات، وحديث عمر في كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم مرفوعاً: (وكل ولد آدم فإن عصبتهم لأبيهم، خلا ولد فاطمة، فإني أبوهم وعصبتهم)، وقد جرى الناس على هذا، فيقولون في أولاد فاطمة عليها السلام: أولاد رسول الله ﷺ، وأبناؤه، وعترته، وأهل بيته،

• أقول: وفي المسألة خلط، وقد اشتبه الأمر فيها على عدة من الأعلام، فحسبوا أن المسألة لفظية يتبع فيها اللغة، حتى احتج فيها بعضهم بمثل قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا... بنوهن أبناء الرجال الأباعد

وقوله:

وإنما أمهات الناس أوعية... مستودعات وللأنساب آباء

• وقد أخطئوا في ذلك، وإنما هي مسألة حقوقية اجتماعية من شعب مسألة القرابة، والأمم والأقوام مختلفة في تحديدها وتشخيصها، وأن المرأة هل هي داخلة في القرابة؟ وأن أولاد بنت الرجل هل هي أولاده؟ وأن القرابة هل تختص بما يحصل بالولادة أو تعمه وما حصل بالادعاء؟ وقد كانت عرب الجاهلية لا ترى للمرأة إلا القرابة الطبيعية التي تؤثر أثرها في الازدواج والإنفاق ونحو ذلك، ولا ترى لها قرابة قانونية تسمح لها بالوراثة ونحوها، وأما أولاد البنات، فلم تكن ترى لها قرابة، وكانت ترى قرابة الأدعياء، وتسمى الدعي ابناً، لا لأن اللغة كانت تجوز ذلك، بل لأنهم اتبعوا في ذلك ما تجاورهم من الأمم الراقية ترى ذلك بحسب قوانينها المدنية أو سننها القومية، كالروم وإيران.

• وأما الإسلام، فقد ألغى قرابة الأدعياء من رأس، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وأدخل المرأة في القرابة ورتب على ذلك آثارها، وأدخل أولاد البنات في الأولاد، قال تعالى في آية الإرث: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] الآية، وقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ [النساء: ٧]، وقال في آية محرمات النكاح: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] إلى أن قال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، فسمى بنت البنت بنتاً، وأولاد البنات أولاداً من غير شك في ذلك، وقال تعالى: ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: ٨٥] الآية، فعد عيسى من ذرية إبراهيم أو نوح عليهما السلام، وهو غير متصل بهما إلا من جهة الأم.

• وقد استدل أئمة أهل البيت عليهم السلام بهذه الآية وآية التحريم وآية المباهلة على كون ابن بنت الرجل ابناً له، والدليل عام، وإن كان الاحتجاج على أمر خاص، ولأبي جعفر الباقر عليه السلام احتجاج آخر أصرح من الجميع، رواه في الكافي بإسناده عن عبد الصمد بن بشير عن أبي الجارود قال: قال أبو جعفر عليه السلام: يا أبا الجارود، ما يقولون لكم في الحسن والحسين؟ قلت: ينكرون علينا أنهما ابنا رسول الله ﷺ، قال: فأي شيء احتججتم عليهم؟ قلت: احتججنا عليهم بقول الله عز وجل في عيسى بن مريم: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا

وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤ـ٨٥]، فجعل عيسى بن مريم من ذرية نوح، قال: فأي شيء قالوا لكم؟ قلت: قالوا: قد يكون ولد الابنة من الولد، ولا يكون من الصلب، قال: فأي شيء احتججتم عليهم؟ قلت: احتججنا عليهم بقوله تعالى لرسول الله ﷺ: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]، ثم قال: أي شيء قالوا؟ قلت: قالوا: قد يكون في كلام العرب أبناء رجل، وآخر يقول: أبناؤنا، قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: لأعطينكما من كتاب الله عز وجل أنهما من صلب رسول الله ﷺ، لا يرده إلا كافر، قلت: وأين ذلك جعلت فداك؟ قال: من حيث قال الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية، إلى أن انتهى إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، يا أبا الجارود، هل كان يحل لرسول الله ﷺ نكاح حليلتهما؟ فإن قالوا: نعم، كذبوا وفجروا، وإن قالوا: لا، فإنهما ابناه لصلبه، وروى قريباً منه القمي في تفسيره.

• وبالجملة، فالمسألة غير لفظية، وقد اعتبر الإسلام في المرأة القرابة الطبيعية والتشريعية جميعاً، وكذا في أولاد البنات أنهم من الأولاد، وأن عمود النسب يجري من جهة المرأة كما يجري من جهة الرجل، كما ألغى الاتصال النسبي من جهة الدعاء أو من غير نكاح شرعي، وقد روى الفريقان عنه ﷺ أنه قال: (الولد للفراش، وللعاهر الحجر)، غير أن مساهلة الناس في الحقائق الدينية أنستهم هذه الحقيقة، ولم يبق منها إلا بعض آثارها كالوراثة والحرمة، ولم تخل السلطات الدولية في صدر الإسلام من تأثير في ذلك، وقد تقدم البحث في ذيل آية التحريم من الجزء الثالث من الكتاب.

٥٣. اجتباء الله للأنبياء وهدايتهم إلى الصراط المستقيم:

المقطع [٥٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٤٧»:

١. ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ هذا التعبير يؤيد ما قدمناه أن المراد بيان اتصال سلسلة الهداية حيث أضاف الباقين إلى المذكورين بأنهم متصلون بهم بأبوة أو بنوة أو أخوة.

٢. ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (يقال: جبيت الماء في الحوض جمعته والحوض الجامع له جابية وجمعها (جواب) قال الله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾، ومنه أستعير جبيت الخراج جباية ومنه قوله تعالى: ﴿يُجْبَى

إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، والاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال عز وجل: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾)، قال: (واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقارنهم من الصديقين والشهداء كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾، ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وهَدَى﴾، وقال عز وجل: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾)، والذي ذكره من معنى الاجتباء وإن كان كذلك على ما يفيده موارد وقوعه في كلامه تعالى لكنه لازم المعنى الأصلي بحسب انطباقه على صنعه فيهم والذي يعطيه سياق الآيات أن العناية تعلقت بمعنى الكلمة الأصلي وهو الجمع من مواضع وأمكنة مختلفة متشتتة فيكون تمهيدا لما يذكر بعده من الهداية إلى صراط مستقيم كأنه يقول: وجمعناهم على تفرقهم حتى إذا اجتمعوا وانضم بعضهم إلى بعض هديناهم جميعا إلى صراط كذا وكذا.

ب. وذلك لما عرفت أن المقصود بالسياق بيان اتصال سلسلة المهتدين بهذه الهداية الفطرية الإلهية، والمناسب لذلك أن يتصور لهم اجتماع وتوحد حتى تشمل جمعهم الرحمة الإلهية، ويهتدوا مجتمعين بهداية واحدة توردهم صراطا واحدا مستقيما لا اختلاف فيه أصلا فلا يختلف بحسب الأحوال، ولا بحسب الأزمان، ولا بحسب الأجزاء، ولا بحسب الأشخاص السائرين فيه، ولا بحسب المقصد.

ج. وذلك أن صراطهم الذي هداهم الله إليه وإن كان يختلف بحسب ظاهر الشرائع سعة وضيقا إلا أن ذلك إنما هو بحسب الإجمال والتفصيل وقلة استعداد الأمم وكثرته، والجميع متفق في حقيقة واحدة وهو التوحيد الفطري والعبودية التي تهدي إليه البنية الإنسانية بحسب نوع الخلقة التي أظهرها الله سبحانه على ذلك ومن المعلوم أن الخلقة الإنسانية بما أنها خلقة إنسانية لا تتغير ولا تتبدل تبدلا يقضي بتبدل أصول الشعور والإرادة الإنسانيين فحواس الإنسان الظاهرة وإحساساته وعواطفه الباطنة ومبدأ القضاء والحكم الذي فيه وهو العقل الفطري لا تزال تجري بحسب الأصول على وتيرة واحدة وإن اختلفت الآراء والمقاصد بحسب الاستكمال التدريجي الذي يتعلق بالنوع والتنبه بجهات حوائج الحياة، فلا يزال الإنسان يشعر بحاجته في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح، ويشتهي ما يريح نفسه الشحيحة، ويكره ما يؤلمه ويضربه، ويأمل سعادة الحياة ويخشى الشقاء وسوء العاقبة وإن اختلفت مظاهر حياته وصور أعماله عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اَللَّهِ ذَلِكَ اَلدِّينُ اَلْقَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] فالدين الحنيف الإلهي الذي هو قيم على المجتمع الإنساني هو الذي تهدي إليه الفطرة وتميل إليه الخلقة البشرية بحسب ما تحس بحوائجها الوجودية، وتلهم بما يسعدها فيها من الاعتقاد والعمل، وبتعبير آخر من المعارف والأخلاق والأعمال.

د. وهذا أمر لا يتغير ولا يتبدل لأنه مبني على الفطرة التكوينية التي لا سبيل للتغير والتبدل إليها فلا يختلف بحسب الأحوال والأزمان بأن يدعو إلى السعادة الإنسانية في حال دون حال أو في زمان دون زمان، ولا بحسب الأجزاء بأن يزاحم بعض أحكام الدين الحنيف بعضه الآخر بتناقض أو تضاد أو أي شيء آخر يؤدي إلى إبطال بعضها بعضا فإن الجميع ترتضع من ثدي التوحيد الذي يعدلها أحسن تعديل كما أن القوى البدنية إذا تنافت أو أراد بعضها أن يطغى على بعض فإن هناك حاكما مدبرا يدبر كلا على حسب ما له من الوزن والتأثير في تقويم الحياة الإنسانية.

هـ. ولا بحسب الأشخاص فإن المهتدين بهذه الهداية القيمة الفطرية لا يختلف مسيرهم، ولا يدعو آخرهم إلا إلى ما دعا إليه أولهم وإن اختلفت دعوتهم بالإجمال والتفصيل بحسب اختلاف أعصار الإنسانية تكاملا ورقيا كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اَلدِّينَ عِنْدَ اَللَّهِ اَلْإِسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩) وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً واَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا اَلدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ولا بحسب المقصد والغاية فإنه التوحيد الذي يئول إليه شتات المعارف الدينية والأخلاق الفاضلة والأحكام الشرعية قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

٣. وقد ظهر بما تقدم معنى قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وقد نكر الصراط من غير أن يذكر على طريق العهد كما في قوله: ﴿اِهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ اَلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الحمد: ٧] لتتوجه عناية الذهن إلى اتصافه بالاستقامة، والاستقامة في الشيء كونه على وتيرة واحدة في صفته وخاصته فالصراط الذي هدوا إليه صراط لا اختلاف فيه في جهة من الجهات ولا حال من الأحوال لما أنه صراط مبني على الفطرة كما أن الفطرة الإنسانية وهي نوع خلقته وكونه لا تختلف من حيث إنها خلقة

إنسانية في الهداية والاهتداء إلى مقاصد الإنسان التكوينية.

٤. فهؤلاء المهديون إلى مستقيم الصراط في أمن إلهي من خطرات السير وعثرات الطريق إذ كان الصراط الذي يسلكونه والمسير الذي يضربون فيه لا اختلاف فيه بالهداية والإضلال والحق والباطل والسعادة والشقاوة بل هو مؤتلف الأجزاء ومتساوي الأحوال يقوم على الحق ويؤدي إلى الحق لا يدع صاحبه في حيرة، ولا يورده إلى ظلم وشقاء ومعصية قال تعالى: ﴿اَلَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ اَلْأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]

٥٤. تحذير الأنبياء من الشرك وحبوط الأعمال:

المقطع [٥٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٥٠»:

١. ﴿ذَلِكَ هُدَى اَللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾:

أ. يبين تعالى أن الذي ذكره من صفة الهداية التي هدى بها المذكورين من أنبيائه هو المعرف لهداه الخاص به الذي يهدي به من يشاء من عباده.

ب. فالهدى إنما يكون هدى، حق الهدى، إذا كان من الله سبحانه، والهدى إنما يكون هدى الله إذا أورد المتلبس به صراطا مستقيما اتفق على الورود فيه أصحاب الهدى وهم الأنبياء المكرمون عليه السلام، واتفق أجزاء ذلك الصراط في الدعوة إلى كلمة التوحيد وإقامة دعوة الحق والاتسام بسمة العبودية والتقوى.

ج. أما الطريق الذي يفرق فيه بين رسل الله فيؤمن فيه ببعض ويكفر ببعض أو يفرق فيه بين أحكام الله وشرائعه فيؤخذ فيه ببعض ويترك بعض، والطرق التي لا تضمن سعادة حياة المجتمع الإنساني أو يسوق إلى بعض ما ليس فيه السعادة الإنسانية فتلك هي الطرق التي لا مرضاة فيها لله سبحانه وقد انحرفت فيها عن شريعة الفطرة إلى مهابط الضلال ومزالق الأهواء، والاهتداء إليها ليس اهتداء بهدى الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اَلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ورُسُلِهِ ويُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اَللَّهِ ورُسُلِهِ ويَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ونَكْفُرُ بِبَعْضٍ ويُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُولَئِكَ هُمُ اَلْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١]

وقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥] وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] يريد أن الطريق الذي فيه اتباع الهوى إنما هو ضلال لا يورد سالكه سعادة الحياة وليس بهدى الله لأن فيه ظلما والله سبحانه لم يجعل الظلم ولن يجعله مما يتوسل به إلى سعادة ولا أن السعادة تنال بظلم.

٢. وبالجملة هدى الله سبحانه من خاصته أنه لا يشتمل على ضلال ولا يجامع ضلالا بالتأدية إليه، وإنما هو الهدى محضا تتلوه السعادة محضة عطاء غير مجذوذ لكن لا على حد العطايا المعمولة فيما بيننا التي ينقطع معها ملك المعطي (بالكسر) عن عطيته وينتقل إلى المعطى (بالفتح) فيحوزه على أي حال سواء شكر أو كفر، بل هذه العطية الإلهية إنما تقوم على شريطة التوحيد والعبودية فلا كرامة لأحد عليه تعالى ولا أمن له منه إلا بالعبودية محضا.

٣. ولذلك ذيل الكلام بقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وإنما ذكر الإشراك لأن محط البيان إنما هو التوحيد.

٥٥. اصطفاء الله للأنبياء بالكتاب والحكم والنبوة:

المقطع [٥٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٥١»:

١. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ الإشارة باللفظ المفيد للبعد للدلالة على علو شأنهم ورفعة مقامهم، والمراد بإيتائهم الكتاب وغيره إيتاء جمعهم ذلك بوصف المجموع وإن كان بعضهم لم يؤتوا بعض المذكورات كما مر في تفسير قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فإن الكتاب إنما أوتيه بعض الأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليه السلام.

٢. والكتاب إذا نسب في كلامه تعالى إلى الأنبياء عليه السلام نوعا من النسبة يراد به الصحف التي تشتمل على الشرائع ويقضى بها بين الناس فيما اختلفوا فيه كقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا اَلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا اَلنَّبِيُّونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ اَلْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ اَلْكِتَابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اَللهُ﴾ [المائدة: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

٣. والحكم: هو إلقاء النسبة التصديقية بين أجزاء الكلام كقولنا: فلان عالم، وإذا كان ذلك في الأمور الاجتماعية والقضايا العملية التي تدور بين المجتمعين عد نوع النسبة حكما كما تسمى نفس القضية حكما كما يقال يجب على الإنسان أن يفعل كذا ويحرم عليه أن يفعل كذا أو يجوز له أن يفعل كذا أو أحب أو أكره أن تفعل كذا فتسمى الوجوب والحرمة والجواز والاستحباب والكراهة أحكاما كما تسمى القضايا المشتملة عليها أحكاما، ولأهل الاجتماع أحكام أخر ناشئة من نسب أخرى كالملك والرئاسة والنيابة والكفاية والولاية وغير ذلك، وإذا قصد به المعنى المصدري أريد به إيجاد الحكم وجعله إما بحسب التشريع والتقنين كما يجعل أهل التقنين أحكاما صالحة ليجري عليها الناس ويعملوا بها في مسير حياتهم لحفظ نظام مجتمعهم، وإما بحسب التشخيص والنظر كتشخيص القضاة والحكام في المنازعات والدعاوي أن المال لفلان والحق مع فلان وكتشخيص أهل الفتيا في فتاواهم وقد يراد به إنفاذ الحكم كحكم الوالي والملك على الناس بما يريدان في حوزة الولاية والملك.

٤. والظاهر من الحكم في الآية بقرينة ذكر الكتاب معه أن يكون المراد به معنى القضاء فيكون المراد من إيتاء الكتاب والحكم إعطاء شرائع الدين والقضاء بحسبها بين الناس كما هو ظاهر عدة من الآيات كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ اَلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ اَلنَّاسِ فِيمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا اَلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً ونُورٌ يَحْكُمُ بِهَا اَلنَّبِيُّونَ اَلَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وقوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ اَلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اَللهُ﴾ [النساء: ١٠٥] وقوله: ﴿وَدَاوُدَ وسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي اَلْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨] وقوله: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي اَلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ اَلنَّاسِ بِالْحَقِّ ولاَ تَتَّبِعِ اَلْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اَللهِ﴾ (ص: ٢٦) إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة، وإن كان مثل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] لا يأبى بظاهره الحمل على المعنى الأعم.

٥. وأما النبوة فقد تقدم في تفسير قوله: ﴿كَانَ اَلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اَللهُ اَلنَّبِيِّينَ﴾ (الآية)

[البقرة: ٢١٣] أن المراد بها التحقق بأنباء الغيب بعناية خاصة إلهية وهي الأنباء المتعلقة بما وراء الحس والمحسوس كوحدانيته تعالى والملائكة واليوم الآخر.

٦. وعد هذه الكرامات الثلاث التي أكرم الله سبحانه بها سلسلة الأنبياء عليه السلام أعني الكتاب والحكم والنبوة في سياق الآيات الواصفة لهداه تعالى يدل على أنها من آثار هداية الله وبها يتم العلم بالله تعالى وآياته فكأنه قيل: تلك الهداية التي جمعنا عليها الأنبياء عليه السلام وفضلناهم بها على العالمين هي التي توردهم صراطا مستقيما وتعلمهم الكتاب المشتمل على شرائعه، وتسددهم وتنصبهم للحكم بين الناس، وتنبئهم أنباء الغيب.

٧. وضع هنا مبحثا حول [معنى الكتاب في القرآن وأقسامه]، خلاصته:

أ. مفهوم الكتاب في القرآن أوسع من مجرد الصحيفة المخطوطة بالقلم، فهو يشمل كل ما يضبط المعاني ويحفظها بحيث يمكن الرجوع إليها.

ب. أقسام الكتاب في القرآن تنحصر في ثلاثة أقسام رئيسية: الكتب المنزلة على الأنبياء (الكتب التشريعية)، والكتب التي تضبط أعمال العباد (سجل الحسنات والسيئات)، والكتب التي تضبط نظام الوجود والحوادث الكونية.

ج. الكتب المنزلة تشمل: صحف نوح وإبراهيم وموسى، والتوراة، والإنجيل، والقرآن الكريم.

د. كتب الأعمال تشمل: كتاب كل نفس إنسانية، وكتاب كل أمة، والكتاب الجامع للأبرار والفجار (سجين وعلّيون)

هـ. كتب النظام الكوني تشمل: الكتاب المبين الذي لا يعزب عنه شيء، والكتاب الحفيظ، وأم الكتاب التي يقع فيها المحو والإثبات.

و. هناك كتابان في نظام الوجود: كتاب عام حفيظ لكل الحوادث، وكتاب خاص بكل موجود يحفظ به حاله في الوجود.

ز. بعض الكتب الكونية يقبل التغيير (المحو والإثبات) بحسب المشيئة الإلهية، وأم الكتاب هو الأصل الثابت الذي لا يتغير.

٨. وضع هنا مبحثا حول [معنى الحكم في القرآن]، خلاصته:

أ. الأصل اللغوي لمادة ﴿حُكْمُ﴾ هو المنع، سواء كان منعاً تكوينياً (كمنع اللجام للدابة) أو تشريعياً (كمنع الأمر للمأمور عن الإطلاق في الإرادة)

ب. الحكم المنسوب إلى الله ينقسم إلى قسمين: حكم تكويني (وهو الإيجاد والقضاء الوجودي الذي لا معقب له)، وحكم تشريعي (وهو التقنين والشرائع المولوية)

ج. الحكم المنسوب إلى الأنبياء يفيد معنى القضاء (الفصل في الخصومات) وهو من المناصب الإلهية التي أكرمهم بها، وقد يؤتى لهم الحكم بمعنى التشريع في بعض الموارد.

د. الحكم المنسوب إلى غير الأنبياء قد يكون بمعنى القضاء (كالحكم بين الناس بالعدل)، وقد يكون بمعنى التشريع المذموم إذا شرعوا من عند أنفسهم ما لم يأذن به الله.

هـ. معنى الأحكام والاستحكام والتحكيم والإحكام كلها ترجع إلى معنى المنع والإتقان، والإحكام يقابل التفصيل، والمحكم يقابل المتشابه.

٩. ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ الضميران في قوله: ﴿يَكْفُرْ بِهَا﴾ وقوله: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ راجعان إلى الهدى ويجوز فيه التذكير والتأنيث من جهة أنه هداية، أو راجعان إلى الكتاب والحكم والنبوة التي هي من آثار الهداية الإلهية، ولا يخلو أول الوجهين عن بعد، والمشار إليه بقوله: ﴿هَؤُلاَءِ﴾ الكافرون بالدعوة من قوم النبي ﷺ والمتيقن منهم بحسب مورد الآية كفار مكة الذين أشار الله سبحانه إليهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]:

أ. والمعنى على الوجه الأول: فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا وهي طريقتنا فقد وكلنا بها من عبادنا من ليس يكفر بها، والكفر والإيمان يتعلقان بالهداية وخاصة إذا كانت بمعنى الطريقة كما ينسبان إلى الله سبحانه وآياته قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١٣] وقال: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]

ب. وعلى الوجه الثاني: فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة، وهي التي تشتمل على الطريقة الإلهية والدعوة الدينية، مشركو مكة فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين.

١٠. وأما أن هؤلاء القوم من هم:، وفي تنكير اللفظ دلالة على أن لهم خطرا عظيما، فقد اختلف

فيهم أقوال المفسرين:

أ. فمن قائل: إن المراد بهم الأنبياء المذكورون في الآيات السابقة وهم ثمانية عشر نبيا أو مطلق الأنبياء المذكورين بأسمائهم أو بنعوتهم في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ وإِخْوَانِهِمْ﴾، وفيه أن سياق اللفظ لا يلائمه إذ ظاهر قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ نفي الحال أو الاستمرار في النفي والمذكورون من الأنبياء عليه السلام لم يكونوا موجودين حال الخطاب ولو كان المراد ذلك لكان المتعين أن يقال: لم يكونوا بها بكافرين، وليس رسول الله ﷺ معدودا منهم بحسب هذه العناية وإن كان هو منهم وأفضلهم فإن الله سبحانه يذكره ﷺ بعد ذلك بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

ب. ومن قائل: إن المراد بهم الملائكة وفيه، كما قيل، إن القوم وخاصة إذا أطلق من غير تقييد لا يطلق على الملائكة ولا يسبق إلى الذهن على أن في الآية بحسب السياق نوع تسلية للنبي ﷺ ولا معنى لتسليته في كفر قومه بإيمان الملائكة.

ج. ومن قائل: إن المراد بهم المؤمنون به ﷺ عند نزول السورة في مكة أو مطلق المهاجرين، وفيه: أن بعض هؤلاء قد ارتدوا بعد إيمانهم كالذي قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وقد تعرض سبحانه لأمره في هذه السورة بعد آيات، وقد كان فيهم المنافق فلا ينطبق عليهم قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾

د. ومن قائل: إن المراد بهم الأنصار أو المهاجرون والأنصار جميعا أو أصحاب النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار وهم الذين أقاموا هذه الدعوة على ساقها ونصروا النبي ﷺ يوم العسرة، وقد مدحهم الله في كتابه أبلغ المدح، وفيه: أن كرامة جماعتهم ورفعة منزلتهم بما هم جماعة مما لا يدانيه ريب لكن كان بينهم من ارتد بعد إيمانه والمنافق الذي لم يظهر حاله بعد، ولا ينطبق على من هذا نعته مثل قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وظاهره أنه لا سبيل للكفر إليهم ولم يقل: فقد وكلنا بها قوما يؤمنون بها أو آمنوا بها، وربما يستفاد من كلمات بعضهم: أن المراد به قيام الإيمان بجماعتهم وإن أمكن أن يتخلف عن إقامته آحاد منهم وبعبارة أخرى قوله: ﴿لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وصف للمجتمع ولا ينافي خروج بعض الأبعاض اتصاف المجتمع بوصفه القائم بالمجموع من حيث هو مجموع، والمؤمنون به ﷺ من الأنصار أو منهم ومن المهاجرين أو الصحابة ثبت الإيمان فيهم ثبوتا من غير زوال وإن زال عن بعض أفرادهم.

هـ. وهذا الوجه لو تم لدل على أن المراد بالقوم جميع الأمة المسلمة أو المؤمنون من جميع الأمم، ولا دليل من تخصيصه بقوم دون قوم، واختصاص بعضهم بمزايا وكرامات دينية كتقدم المهاجرين في الإيمان بالله والصبر على الأذى في جنب الله، أو تبوء الأنصار الدار والإيمان وإعلاؤهم كلمة التوحيد لا يوجب إلا فضل اتصافهم بهذا النعت لا اختصاصه بهم وحرمان غيرهم منه مع مشاركته إياهم في معناه، إلا أنه يرد على هذا الوجه: أن المألوف من كلامه في الأوصاف الاجتماعية التي لا تستوعب جميع أفراد المجتمع أن يستثني المتخلفين عنها لو كان هناك متخلف أو يأتي بما في معنى الاستثناء كقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا اَلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ اَلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين: ٦] وقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اَللَّهِ وَاَلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى اَلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَعَدَ اَللَّهُ اَلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا اَلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ اَلْمُنَافِقِينَ فِي اَلدَّرْكِ اَلْأَسْفَلِ مِنَ اَلنَّارِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلاَّ اَلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاِعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦] وقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اَللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إلى أن قال: ﴿إِلاَّ اَلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ (آل عمران: ٨٩) وهذا المعنى كثير دائر في القرآن الكريم فما بال قوله: ﴿قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ لم يستثن منه المتخلف عن الوصف من القوم مع وجوده فيهم.

و. وأغرب منه قول بعضهم: إن المراد بوصف القوم بأنهم ليسوا بها بكافرين، والقوم على قوله هم الأنصار، الإشارة إلى أنهم وإن لم يؤمنوا بها بعد لكنهم لم يكفروا بها كما كفر بها مشركو مكة، وفيه مضافا إلى أنه لا يسلم مما تقدم من الإشكال على الوجوه السابقة أن أهل المدينة من الأنصار كانوا حين نزول الآيات مشركين يعبدون الأصنام ولا معنى لنفي الكفر عنهم اللهم إلا بمعنى الرد بعد الدعوة وهو الاستكبار والاستنكاف ولا دليل على كون الكفر في الآية بهذا المعنى مع كون الآيات مسوقة لوصف الهداية الإلهية المقابلة للإشراك كما جرى على هذا المجرى في قوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وفيه: أن التوكيل المذكور في الآية يفيد معنى الحفظ، ولا معنى لقولنا: إن يكفر بها هؤلاء فقد حفظناها بقوم لم يؤمنوا بها ولم يردوها بعد.

ز. ومن قائل: إن المراد بهم العجم ولم يكونوا يؤمنوا بها يومئذ وكأنه مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا اَلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣] فقد ورد أن المراد بالآخرين هم العجم لكن يرد

عليه ما يرد على سابقه.

ح. ومن قائل: إن المراد بالقوم هم المؤمنون من أمة محمد ﷺ أو المؤمنون من جميع الأمم، وفيه: أنه يرد عليه ما أورد على ما قبله من الوجوه، نعم يمكن أن يوجه بأن المراد بهم نفوس من هذه الأمة أو من جميع الأمم يؤمن بالله إيمانا لا يعقبه كفر ما دامت تعيش في الدنيا فهؤلاء قوم مؤمنون وليسوا بها بكافرين وإن لم يمتنع الكفر عليهم لكن دوامهم على الإيمان بدعوة التوحيد من غير كفر أو نفاق يستدعي صدق قوله ﴿قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾عليهم ويتم به معنى الآية في أنها مسوقة لتسلية النبي ﷺ وتطييب قلبه الشريف إذ كان يحزنه كفر المشركين من قومه واستكبارهم عن إجابة دعوة الحق والإيمان بالله وآياته، وفي أنها دالة على اعتزازه تعالى بحفظ هدايته وطريقته التي أكرم بها عباده المكرمين وأنبياءه المقربين، لكن يتوجه إليه أن بناء هذا الوجه على قضية اتفاقية وهي إيمان المؤمنين بها إيمانا يتفق أن يبقى سليما من الزوال من غير ضامن يضمن بقاءه، ولا يلائمه قوله تعالى: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ فإن التوكيل يفيد معنى الاعتماد ويتضمن معنى الحفظ والكلاءة، ولا وجه للاعتزاز والمباهاة بأمر لا ضامن لثباته ولا حافظ لاستقراره وبقائه، على أن الله سبحانه يذم كثيرا من الإيمان إذ يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وهذه الآيات إنما تصف التوحيد الفطري المحض والهداية الإلهية الطاهرة النقية الخالية عن شوب الشرك والظلم التي أكرم الله بها خليله إبراهيم ومن قبله وبعده من الأنبياء المكرمين عليه السلام كما يذكره إبراهيم عليه السلام في قوله على ما يحكيه الله سبحانه عنه: ﴿اَلَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ اَلْأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] والهداية التي هذا شأنها لا يعد كل متلبس بالإيمان حافظا لها موكلا بها من الله يحفظها الله به من الضيعة والفساد البتة وفيهم الطغاة والبغاة والفراعنة والمستكبرون والجفاة الظلمة وأهل البدع والمتوغلون في الفجور وأنواع الفحشاء والفسق.

ط. والذي ينبغي أن يقال في معنى الآية أعني قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ إن الآيات لما كانت تصف التوحيد الفطري والهداية الإلهية الطاهرة من شوب الشرك بالله سبحانه، وتذكر أن الله سبحانه أكرم بهذه الهداية سلسلة متصلة متحدة من أنبيائه واصطفاهم بها ذرية بعضها من بعض واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم لا ضلال فيه وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم فرع على ذلك قوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاَءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وسياقه سياق اعتزاز منه

تعالى وتسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه لئلا يوهنه الحزن ويفسخ عزيمته في الدعوة الدينية ما يشاهده من كفر قومه واستكبارهم وعمههم في طغيانهم فمعناه أن لا تحزن بما تراه من كفرهم بهذه الهداية الإلهية والطريقة التي تشتمل عليها الكتاب والحكم والنبوة التي آتيناها سلسلة المهديين من الأنبياء الكرام فإنا قد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين فلا سبيل للضيعة والزوال إلى هذه الهداية الإلهية لأنا وكلناهم بها واعتمدنا عليهم فيها وأولئك غير كافرين بها البتة، فهؤلاء قوم لا يتصور في حقهم كفر ولا يدخل في قلوبهم شرك لأن الله وكلهم بها واعتمد عليهم فيها وحفظها بهم ولو جاز عليهم الشرك وأمكن فيهم التخلف كان الاعتماد عليهم فيها خطاء وضلالا والله سبحانه لا يضل ولا ينسى، فالآية تدل والله أعلم على أن لله سبحانه في كل زمان عبدا أو عبادا موكلين بالهداية الإلهية والطريقة المستقيمة التي يتضمنها ما آتاه أنبياءه من الكتاب والحكم والنبوة يحفظ الله بهم دينه عن الزوال وهدايته عن الانقراض، ولا سبيل للشرك والظلم إليهم لاعتصامهم بعصمة إلهية وهم أهل العصمة من الأنبياء الكرام وأوصيائهم عليه السلام، فالآية خاصة بأهل العصمة وقصارى ما يمكن أن يتوسع به أن يلحق بهم الصالحون من المؤمنين ممن اعتصم بعصمة التقوى والصلاح ومحض الإيمان عن الشرك والظلم، وخرج بذلك عن ولاية الشيطان قال تعالى، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩] إن صدق عليهم أن الله وكلهم بها واعتمد عليهم فيها.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير النعماني بإسناده عن سليمان بن هارون العجلي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن صاحب هذا الأمر محفوظة له، لو ذهب الناس جميعاً أتى الله بأصحابه، وهم الذين قال الله عز وجل: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]

• أقول: وهو من الجري.

ب. وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال الله عز وجل في كتابه: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٨٤] إلى قوله: ﴿بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، فإنه وكل بالفضل من أهل بيته والإخوان والذرية، وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٨٩] أمتك، فقد وكلنا أهل

بيتك بالإيمان الذي أرسلناك به، فلا يكفرون به أبداً، ولا أضيع الإيمان الذي أرسلتك به من أهل بيتك من بعدك، علماء أمتك وولاة أمري بعدك، وأهل استنباط العلم الذي ليس فيه كذب ولا إثم ولا وزر ولا بطر ولا رياء.

• أقول: ورواه العياشي مرسلاً، وكذا الذي قبله، والحديث كسابقه من الجري.

ج. وفي المحاسن بإسناده عن علي بن عيينة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: ولقد دخلت على أبي العباس وقد أخذ القوم مجلسهم، فمد يده إلي والسفرة بين يديه موضوعة، فذهبت لأخطو إليه فوقعت رجلي على طرف السفرة، فدخلني بذلك ما شاء الله أن يدخلني، إن الله يقول: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، قوماً والله يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويذكرون الله كثيراً.

• أقول: محصله استحياؤه عليه السلام من الله سبحانه بوقوع قدمه على طرف السفرة اضطراراً، كأن في وطء السفرة كفراناً لنعمة الله، ففيه تعميم للكفر في قوله: ﴿لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩] لكفر النعمة.

٥٦. الأمر بالاقتداء بالأنبياء:

المقطع [٥٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٦١»:

١. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾:

أ. عاد ثانيا إلى تعريفهم بما فيه تعريف الهدى الإلهي فالهدى الإلهي لا يتخلف عن شأنه وأثره وهو الإيصال إلى المطلوب قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]

ب. وقد أمر النبي ﷺ في قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾بالاقتداء وهو الاتباع بهداهم لا بهم لأن شريعته ناسخة لشرائعهم وكتابه مهيمن على كتبهم، ولأن هذا الهدى المذكور في الآيات لا واسطة فيه بينه تعالى وبين من يهديه، وأما نسبة الهدى إليهم في قوله: ﴿فَبِهُدَاهُمُ﴾ فمجرد نسبة تشريفية، والدليل عليه قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾

ج. وقد استدل بعضهم بالآية على أن النبي ﷺ وأمته كانوا متعبدين بشرائع من قبلهم إلا ما قام الدليل على نسخه، وفيه: أن ذلك إنما يتم لو كان قيل: فبهم اقتده، وأما قوله ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ فهو بمعزل عن الدلالة على ذلك، كما هو ظاهر.

٢. وختم سبحانه كلامه في وصف التوحيد الفطري والهداية الإلهية إليه بقوله خطابا لنبيه: ﴿قُلْ لاَ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعَالَمِينَ﴾ كأنه قيل: اهتد بالهدى الإلهي الذي اهتدى به الأنبياء قبلك، وذكر به العالمين من غير أن تسألهم أجرا على ذلك، وقل لهم ذلك لتطيب به نفوسهم، ويكون أنجح للدعوة وأبعد من التهمة، وقد حكى الله سبحانه هذه الكلمة عن نوح ومن بعده من الأنبياء عليه السلام في دعواتهم، والذكرى أبلغ من الذكر كما ذكره الراغب، وفي الآية دليل على عموم نبوته ﷺ لجميع العالمين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في النهج: اقتدوا بهدى نبيكم، فإنه أفضل الهدى.

• أقول: واستفادته من الآيات ظاهرة.

ب. وفي تفسير القمي عن النبي ﷺ قال: وأحسن الهدى هدى الأنبياء.

٥٧. الرد على منكري النبوة والكتاب:

المقطع [٥٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُّ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٦٩»:

١. ﴿وَمَا قَدَرُوا اَللهَّ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اَللهُّ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أ. قدر الشيء وقدره بالتحريك كميته من عظم أو صغر ونحوهما يقال: قدرت الشيء قدرا وقدرته بالتشديد تقديرا إذا بينت كمية الشيء وهندسته المحسوسة ثم توسع فيه فاستعمل في المعاني غير المحسوسة فقيل: قدر فلان عند الناس وفي المجتمع أي عظمته في أعين الناس ووزنه في مجتمعهم وقيمته الاجتماعية.

ب. وإذ كان تقدير الشيء وتحديده بحدود لا ينفك غالبا عن وصفه بأوصافه المبينة لحاله المستتبعة لعرفانه أطلق القدر والتقدير على الوصف وعلى المعرفة بحال الشيء، على نحو الاستعارة، فيقال قدر

الشيء وقدره أي وصفه، ويقال: قدر الشيء وقدره أي عرفه، فاللغة تبيح هذه الاستعمالات جميعا.

ج. ولما كان الله سبحانه لا يحيط بذاته المتعالية حس ولا وهم ولا عقل وإنما يعرف معرفة ما بما يليق بساحة قدسه من الأوصاف وينال من عظمته ما دلت عليه آياته وأفعاله صح استعمال القدر فيه تعالى بكل من المعاني السابقة فيقال: ﴿مَا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظموه بما يليق بساحته من العظمة أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته، فالآية بحسب نفسها تحتمل كلا من المعاني الثلاثة أو جميعها بطريق الالتزام لكن الأنسب بالنظر إلى الآيات السابقة الواصفة لهدايته تعالى أنبياءه المستعقبة لإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة، وعنايته الكاملة بحفظ كلمة الحق ونعمة الهداية بين الناس زمانا بعد زمان وجيلا بعد جيل أن تحمل على المعنى الأول فإن في إنكار إنزال الوحي حطا لقدره تعالى وإخراجا له من منزلة الربوبية المعتنية بشئون عباده وهدايتهم إلى هدفهم من السعادة والفلاح.

د. ويؤيد ذلك ما ورد من نظير اللفظ في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَاَلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ اَلْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اَلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اِجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ اَلذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ اَلطَّالِبُ وَاَلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اَللّٰهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤] أي وقوته وعزته وضعف غيره وذلته تقتضيان أن لا يحط قدره ولا يسوى هو وما يدعون من دونه بتسمية الجميع آلهة وأربابا فالأنسب بالآية هو المعنى الأول وإن لم يمتنع المعنيان الآخران، وأما تفسير ﴿مَا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ بأن المراد: ما أعطوه من القدرة ما هو حقها كما فسره بعضهم فأبعد المعاني المحتملة من مساق الآية.

هـ. ولما قيد قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اَللّٰهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ بالظرف الذي في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ أفاد ذلك أن اجتراءهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حق قدره إنما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحي والكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الألوهية وخصائص الربوبية أن ينزل الوحي والكتاب لغرض هداية الناس إلى مستقيم الصراط والفوز بسعادة الدنيا والآخرة فهي الدعوى.

٢. وقد أشار تعالى إلى إثبات هذه الدعوى والحجاج له بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ اَلْكِتَابَ اَلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى﴾، وبقوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ﴾:

أ. والأول من القولين احتجاج بكتاب من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء عليه السلام الثابتة نبوتهم بالمعجزات الباهرة التي أتوا بها ففيه تمسك بوجود الهداية الإلهية المتصلة المحفوظة بين الناس بالأنبياء عليه السلام نوح ومن بعده، وهي التي وصفها الله تعالى في الآيات السابقة من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعَالَمِينَ﴾

ب. والثاني من القولين احتجاج بوجود معارف وأحكام إلهية بين الناس ليس من شأنها أن تترشح من الإنسان الاجتماعي من حيث مجتمعة بما له من العواطف والأفكار التي تهديه إلى ما يصلح حياته من الغذاء والمسكن واللباس والنكاح وجلب المنافع ودفع المضار والمكاره فهذه الأمور التي في مجرى التمتع بالماديات هي التي يتوخاها الإنسان بحسب طبعه الحيواني، وأما المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة الطيبة والشرائع الحافظة بالعمل بها لهما فليست من الأمور التي ينالها الإنسان الاجتماعي بشعوره الاجتماعي وأنى للشعور الاجتماعي ذلك؟ وهو إنما يبعث الإنسان إلى استخدام جميع الوسائل التي يمكنه أن يتوسل بها إلى مآربه في الحياة الأرضية، ومقاصده في المأكل والمشرب والمنكح والملبس والمسكن وما يتعلق بها ثم يدعوه إلى أن يكسر مقاومة كل ما يقاومه في طريق تمتعه إن قدر على ذلك أو يصطلحه على التعاضد والاشتراك في المنافع ورعاية العدل في توزيعها إن لم يقدر عليه، وهو سر كون الإنسان اجتماعيا مدنيا كما تبين في أبحاث النبوة في البحث عن قوله تعالى: ﴿كَانَ اَلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اَللهُ اَلنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]

ج. وبالجملة فالآية أعني قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اَللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الألوهية أن تهدي الإنسان إلى مستقيم الصراط ومنزل السعادة بإنزال الكتاب والوحي على بعض أفراده، وتستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزلة من الله في طريق الهداية أولا، وبوجود ما يدل على تعاليم إلهية بينهم لا ينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعي ثانيا.

٣. ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ اَلْكِتَابَ اَلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ القراءة الدائرة تجعلونه بصيغة الخطاب والمخاطبون به اليهود لا محالة، وقرئ (يجعلونه) بصيغة الغيبة، والمخاطب المسئول عنه بقوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ اَلْكِتَابَ﴾، حينئذ اليهود أو مشركو العرب على ما قيل، والمراد يجعل الكتاب قراطيس وهي جمع قرطاس إما جعله في قراطيس بالكتابة فيها، وإما جعله نفس القراطيس بما فيها من الكتابة فالصحائف والقراطيس تسمى كتابا كما تسمى الألفاظ المدلول عليها

بالكتابة كتابا.

٤. ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ اَلْكِتَابَ اَلَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى﴾:

أ. جواب عن قولهم المحكي بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اَللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ والآية وإن لم تعين القائلين بهذا القول من هم؟ إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصية لا يدع ريبا في أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون: ﴿مَا أَنْزَلَ اَللهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾هم اليهود أيضا، وذلك أن الآية تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى عليه السلام والمشركون لا يعترفون به ولا يقولون بنزوله من عند الله، وإنما القائلون به أهل الكتاب، وأيضا الآية تذمهم بأنهم يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا، وهذا أيضا من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين، على أن قوله بعد ذلك: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ﴾ على ظاهر معناه الساذج لا يصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم وسيجيء إن شاء الله تعالى.

ب. وأما أن اليهود كانوا مؤمنين بنبوة الأنبياء موسى ومن قبله عليه السلام وبنزول كتب سماوية كالتوراة وغيرها فلم يك يتأتى لهم أن يقولوا: ما أنزل الله على بشر من شيء لمخالفته أصول معتقداتهم فيدفعه: أن يكون ذلك مخالفا للأصل الذي عندهم لا يمنع أن يتفوه به بعضهم تعصبا على الإسلام أو تهييجا للمشركين على المسلمين أو يقول ذلك عن مسألة سألها المشركون عن حال كتاب كان النبي ﷺ يدعي نزوله عليه من جانب الله سبحانه، وقد قالوا في تأييد وثنية مشركي العرب على أهل التوحيد من المسلمين: ﴿هَؤُلاَءِ أَهْدى مِنَ اَلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾، فرجحوا قذارة الشرك على طهارة التوحيد وأساس دينهم التوحيد حتى أنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى اَلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ اَلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ واَلطَّاغُوتِ ويَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدى مِنَ اَلَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٥١]

ج. وقولهم، وهو أبين سفها من سابقه، اغتياظا على النصارى: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا حتى نزل فيهم قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ اَلْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ومَا أُنْزِلَتِ اَلتَّوْرَاةُ واَلْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا ولاَ نَصْرَانِيًّا ولَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧) إلى غير ذلك من أقوالهم المناقضة لأصولهم الثابتة المحكية في القرآن الكريم، ومن كان هذا شأنه لم يبعد أن ينفي نزول كتاب سماوي على بشر لداع من الدواعي الفاسدة الباعثة له على

إنكار ما يستضر بثبوته أو تلقين الغير باطلا يعلم ببطلانه لينتفع به في بعض مقاصده الباطلة.

د. وأما قول من قال: إن القرآن لم يعتن بأمر أهل الكتاب في آياته النازلة بمكة وإنما كانت الدعوة بمكة قبل الهجرة إلى المشركين للابتلاء بجماعتهم والدار دارهم، ففيه أن ذلك لا يوجب السكوت عنهم من رأس والدين عام ودعوته شاملة لجميع الناس والقرآن ذكر للعالمين وهم والمشركون جيران يمس بعضهم بعضا دائما وقد جاء ذكر أهل الكتاب في بعض السور المكية من غير دليل ظاهر على كون الآية مدنية كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ اَلْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ اَلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله: ﴿وَعَلَى اَلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وما ظَلَمْنَاهُمْ ولَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] وقد ذكر في سورة الأعراف كثير من مظالم بني إسرائيل مع كون السورة مكية.

هـ. ومن المستبعد أن تدوم الدعوة الإسلامية سنين قبل الهجرة وفي داخل الجزيرة طوائف من اليهود والنصارى فلا يصل خبرها إليهم أو يصل إليهم فيسكتوا عنها ولا يقولوا شيئا لها أو عليها وقد هاجر جماعة من المسلمين إلى الحبشة وقرءوا سورة مريم المكية عليهم وفيها قصة عيسى ونبوته.

و. وأما قول من قال: إن السورة يعني سورة الأنعام إنما نزلت في الاحتجاج على المشركين في توحيد الله سبحانه وعامة الخطابات الواردة فيها متوجهة إليهم فلا مسوغ لإرجاع الضمير في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اَللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ إلى اليهود بل المتعين إرجاعه إلى مشركي العرب لأن الكلام في سياق الخبر عنهم، ولم يجر لليهود ذكر في هذه السورة فلا يجوز أن تصرف الآية عما يقتضيه سياقها من أولها إلى هذا الموضع بل إلى آخرها بغير حجة من خبر صحيح أو عقل فالأرجح قراءة (يجعلونه)، بياء الغيبة على معنى أن اليهود يجعلونه فهو حكاية عنهم ذكرت في خطاب مشركي العرب.

ز. وأما مشكلة أن المشركين ما كانوا يذعنون بكون التوراة كتابا سماويا فكيف يحاجون بها فقد أجاب عنه بعضهم: أن المشركين كانوا يعلمون أن اليهود أصحاب التوراة المنزلة على موسى عليه السلام فمن الممكن أن يحاجوا من هذه الجهة، ففيه: أن سياق السورة فيما تقدم من الآيات وإن كان لمحاجة المشركين لكن لا لأنهم هم بأعيانهم فالبيان القرآني لا يعتني بشخص أو أشخاص لأنفسهم بل لأنهم يستكبرون عن الخضوع للحق وينكرون أصول الدعوة التي هي التوحيد والنبوة والمعاد فالمنكرون لهذه الحقائق أو لبعضها هم المعنيون بالاحتجاجات الموردة فيها فما المانع من أن يذكر فيها بعض هفوات اليهود

لو استلزم إنكار النبوة ونزول الكتاب لدخوله في غرض السورة، ووقوعه في صف هفوات المشركين في إنكار أصول الدين الإلهي وإن كان القائل به من غير المشركين وعبدة الأصنام، ولعله مما لقنوه بعض المشركين ابتغاء للفتنة فقد ورد في بعض الآثار أن المشركين ربما سألوهم عن حال النبي ﷺ وربما بعثوا إليهم الوفود لذلك.

ح. على أن قوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ﴾ كما سيأتي لا يصح أن يخاطب به غير اليهود كما لا يصح أن يخاطب غير اليهود بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وهُدىً لِلنَّاسِ﴾ والقول بأن مشركي العرب كانوا يعلمون أن اليهود هم أصحاب توراة موسى غير مقنع قطعا فإن العلم بأن اليهود أصحاب التوراة لا يصحح الاحتجاج بنزول التوراة من عند الله سبحانه وخاصة مع وصفها بأنها نور وهدى للناس فالاعتقاد بالنزول من عند الله غير العلم بأن اليهود تدعي ذلك والمصحح للخطاب هو الأول دون الثاني.

ط. وأما قراءة (يجعلونه)، فالوجه أن تحمل على الالتفات مع إبقاء الخطاب في قوله ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى﴾، وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ﴾ لليهود.

ي. وقد حاول بعضهم دفع الإشكالات الواردة على جعل الخطاب في الآية للمشركين مع تصحيح القراءتين جميعا فقال ما ملخصه: إن الآية نزلت في ضمن السورة بمكة كما قرأها ابن كثير وأبو عمرو، يجعلونه قراطيس بصيغة الغيبة، محتجة على مشركي مكة الذين أنكروا الوحي استبعادا لأن يخاطب الله البشر بشيء، وقد اعترفوا بكتاب موسى وأرسلوا الوفد إلى أحبار اليهود مذعنين بأنهم أهل الكتاب الأول العالمون بأخبار الأنبياء، فهو تعالى يقول لنبيه ﷺ: قل لهؤلاء الذين ما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء كقولهم: أبعث الله بشرا رسولا: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسى نُوراً﴾ انقشعت به ظلمات الكفر والشرك الذي ورثته بنو إسرائيل عن المصريين ﴿وَهُدىً لِلنَّاسِ﴾ أي الذين أنزل عليهم بما علمهم من الأحكام والشرائع الإلهية فكانوا على النور والهدى إلى أن اختلفوا فيه ونسوا حظا مما ذكروا به فصاروا باتباع الأهواء (يجعلونه قراطيس يبدونهفيما وافق (ويخفون كثيرمما لا يوافق أهواءهم، قال: والظاهر أن الآية كانت تقرأ هكذا بمكة وكذا بالمدينة إلى أن أخفى أحبار اليهود حكم الرجم وكتموا بشارة النبي ﷺ وإلى أن قال بعضهم: ما أنزل الله على بشر من شيء كما قال المشركون من قبلهم، إن صحت

الروايات بذلك، فعند ذلك كان غير مستبعد ولا مخل بالسياق أن يلقن الله تعالى رسوله أن يقرأ هذه الجمل بالمدينة على مسمع اليهود وغيرهم بالخطاب لليهود فيقول: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ مع عدم نسخ القراءة الأولى، قال: وبهذا الاحتمال المؤيد بما ذكر من الوقائع يتجه تفسير القراءتين بغير تكلف ما، ويزول كل إشكال عرض للمفسرين في تفسيرهما)، انتهى كلامه ملخصا.

ك. وأنت خبير بأن إشكال خطاب المشركين بما لا يعترفون به باق على حاله وكذا إشكال خطاب غير اليهود بقوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ﴾ على ما أشرنا إليه، وكذا تخصيصه قوله تعالى: ﴿نُوراً وهُدىً لِلنَّاسِ﴾ باليهود فقط وكذا قوله إن اليهود قالوا في المدينة: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ كر على ما فر منه، على أن قوله: إن الله لقن رسوله أن يقرأ الآية عليهم ويخاطبهم بقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ مما لا دليل عليه فإن أراد بهذا التلقين وحيا جديدا بالخطاب كالوحي الأول بالغيبة كانت الآية نازلة مرتين مرة في ضمن السورة وهي إحدى آياته ومرة في المدينة غير داخلة في آيات السورة ولا جزء منها، وإن أراد بالتلقين غير الوحي بنزول جبرئيل بها لم تكن الآية آية ولا القراءة قراءة، وإن أريد به أن الله فهم رسوله نوعا من التفهيم أن لفظ ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾، النازل عليه في ضمن سورة الأنعام بمكة يسع الخطاب والغيبة جميعا وأن القراءتين جميعا صحيحتان مقصودتان كما ربما يقوله من ينهي القراءات المختلفة إلى قراءة النبي ﷺ أو القراءة عليه ونحوهما ففيه الالتزام بورود جميع الإشكال السابقة كما هو ظاهر.

ل. وهذه الأبحاث إنما تتأتى على تقدير كون الآية نازلة بمكة، وأما على ما وقع في بعض الروايات من أن الآية نزلت بالمدينة فلا محل لأكثرها.

٥. ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ﴾:

أ. المراد بهذا العلم الذي علموه ولم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم ليس هو العلم العادي بالنافع والضار في الحياة مما جهز الإنسان بالوسائل المؤدية إليه من حس وخيال وعقل فإن الكلام واقع في سياق الاحتجاج مربوط به ولا رابطة بين حصول العلوم العادية للإنسان من الطرق المودعة فيه وبين المدعى وهو أن من لوازم الألوهية أن تهدي الإنسان إلى سعادته وتنزل على بعض أفراده الوحي والكتاب.

ب. وليس المراد بها أن الله أفاض عليكم العلم بأشياء ما كان لكم من أنفسكم أن تعلموا كما يفيده

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ اَلسَّمْعَ وَاَلْأَبْصارَ وَاَلْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨] وقوله: ﴿اَلَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ اَلْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، فإن السياق كما عرفت ينافي ذلك، فالمراد بالآية تعليم ما ليس في وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفة عنده التي جهز بها أن ينال علمه، وليس إلا ما أوحاه الله سبحانه إلى أنبيائه وحملة وحيه بكتاب أو بغير كتاب من المعارف الإلهية والأحكام والشرائع فإنها هي التي لا تسع الوسائل العادية التي عند عامة الإنسان أن تنالها.

ج. ومن هنا يظهر أن المخاطبين بهذا الكلام أعني قوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا﴾، ليسوا هم المشركين إذا لم يكن عندهم من معارف النبوة والشرائع الإلهية شيء بين يعرفونه ويعترفون به والذي كانوا ورثوه من بقايا آثار النبوة من أسلاف أجيالهم ما كانوا ليعترفوا به حتى يصح الاحتجاج به عليهم من غير بيان كاف، وقد وصفهم الله بالجهل في أمثال قوله: ﴿وَقالَ اَلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اَللّٰهُ﴾ [البقرة: ١١٨]، فالخطاب متوجه إلى غير المشركين، وليس بموجه إلى المسلمين:

• أما أولا: فلأن السياق سياق الاحتجاج، ولو كان الخطاب متوجها إليهم لكان اعتراضا في سياق الاحتجاج من غير نكتة ظاهرة.

• وأما ثانيا: فلما فيه من تغيير مورد الخطاب، والعدول من خطاب المخاطبين بقوله: ﴿مَنْ أَنْزَلَ اَلْكِتابَ اَلَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى﴾، إلى خطاب غيرهم بقوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾، من غير قرينة ظاهرة مع وقوع اللبس فالخطاب لغير المشركين والمسلمين وهم اليهود المخاطبون بصدر الآية.

٦. فقد احتج الله سبحانه على اليهود القائلين: ﴿ما أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ عنادا وابتغاء للفتنة من طريقين:

أ. أحدهما: طريق المناقضة وهو أنهم مؤمنون بالتوراة وأنها كتاب جاء به موسى عليه السلام نورا وهدى للناس ويناقضه قولهم: ﴿ما أَنْزَلَ اَللّٰهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ ثم ذمهم على تقطيعها بقطعات يظهرون بعضها ويخفون كثيرا.

ب. وثانيهما: أنكم علمتم ما لم يكن في وسعكم أن تعلموه أنتم من عند أنفسكم بالاكتساب ولا في وسع آبائكم أن يعلموه فيورثوكم علمه:

• وذلك كالمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة والشرائع والقوانين الناظمة للاجتماع والمعدلة له

أحسن نظم وتعديل الحاسمة لأعراق الاختلافات البشرية الاجتماعية فإنها وخاصة المواد التشريعية من بينها ليست مما ينال بالاكتساب، والتي تنال منها من طريق الاكتساب العقلي كالمعارف الكلية الإلهية من التوحيد والنبوة والمعاد والأخلاق الفاضلة في الجملة لا يكفي مجرد ذلك في استقرارها في المجتمع الإنساني، فمجرد العلم بشيء غير دخوله في مرحلة العمل واستقراره في المستوى العام الاجتماعي، فحب التمتع من لذائذ المادة وغريزة استخدام كل شيء في طريق التوصل إلى الاستعلاء على مشتهيات النفس والتسلط التام على ما تدعو إليه أهواؤها لا يدع مجالا للإنسان يبحث فيه عن كنوز المعارف والحقائق المدفونة في فطرته ثم يبني ويدوم عليها وفي مسير حياته وخاصة إذا استولت هذه المادية على المجتمع واستقرت في المستوى فإنها تكون لهم ظرفا يحصرهم في التمتعات المادية لا ينفذ في شيء من أقطاره شيء من الفضائل الإنسانية، ولا يزال ينسى فيه ما بقي من إثارة الفضائل المعنوية الموروثة واحدا بعد واحد حتى يعود مجتمعهم مجتمعا حيوانيا ساذجا كما نشاهده في الظروف الراقية اليوم أنهم توغلوا في المادية واستسلموا للتمتعات الحسية فشغلهم ذلك في أوقاتهم بثوانيها وصرفهم عن الآخرة إلى الدنيا صرفا سلبهم الاشتغال بالمعنويات ومنعهم أي تفكير في ما يسعدهم في حياتهم الحقيقية الخالدة.

• ولم يضبط التاريخ فيما ضبطه من أخبار الأمم والملل رجلا من رجال السياسة والحكومة كان يدعو إلى فضائل الأخلاق الإنسانية والمعارف الطاهرة الإلهية، وطريق التقوى والعبودية بل أقصى ما كانت تدعو إليه الحكومات الفردية الاستبدادية هو أن يتمهد الأمر لبقاء سلطتها واستقامة الأمر لها، وغاية ما كانت تدعو إليه الحكومات الاجتماعية، الديمقراطية وما يشابهها أن ينظم أمر المجتمع على حسب ما يقترحه هوى أكثرية الأفراد أيا ما اقترحه فضيلة أو رذيلة وافق السعادة الحقيقية العقلية أو خالفها غير أنهم إذا خالفوا شيئا من الفضائل المعنوية والكمالات والمقاصد العالية الإنسانية التي بقيت أسماؤها عندهم وألجأتهم الفطرة إلى إعظامها والاحترام لها كالعدل والعفة والصدق وحب الخير ونصح النوع الإنساني والرأفة بالضعيف وغير ذلك فسروها بما يوافق جاري عملهم والدائر من سنتهم كما هو نصب أعيننا اليوم.

• وبالجملة فالعقل الاجتماعي والشعور المادي الحاكم في المجتمعات ليس مما يوصل الإنسان إلى هذه المعارف الإلهية والفضائل المعنوية التي لا تزال المجتمعات الإنسانية على تنوعها وتطورها تتضمن

أسماء كثيرة منها واحترام معانيها وأين الإخلاد إلى الأرض من الترفع عن المادة والماديات؟ فليست إلا آثارا وبقايا من الدعوة الدينية المنتهية إلى نهضات الأنبياء ومجاهداتهم في نشر كلمة الحق وبث دين التوحيد وهداية النوع الإنساني إلى سعادته الحقيقية في حياته الدنيوية والأخروية جميعا فهي منتهية إلى تعليم إلهي من طريق الوحي وإنزال الكتب السماوية.

٧. فقوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولاَ آبَاؤُكُمْ﴾ احتجاج على اليهود في رد قول القائل منهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ بأن عندكم من العلم النافع ما لم تنالوه من أنفسكم ولا ناله ولا ورثه آباؤكم بل إنما علمتم به من غير هذا الطريق وهو طريق إنزال الكتاب والوحي من قبل الله على بعض البشر فقد أنزل الله على بعض البشر ما علمه وهو المعارف الحقة وشرائع الدين، وقد كان عند اليهود من هذا القبيل شيء كثير ورثوه من أنبيائهم وبثه فيهم كتاب موسى.

٨. وقد ظهر مما تقدم أن المراد بقوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾:

أ. مطلق ما ينتهي من المعارف والشرائع إلى الوحي والكتاب لا خصوص ما جاء منه في كتاب موسى عليه السلام وإن كان الذي منه عند اليهود هو معارف التوراة وشرائعه خلافا لبعض المفسريوذلك أن لفظ الآية لا يلائم التخصيص فقد قيل: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾، ولم يقل وعلمتم به أو وعلمكم الله به.

ب. وقد قيل: ﴿وَعُلِّمْتُمْ﴾، من غير فاعل التعليم لأن ذلك هو الأنسب بسياق الاستدلال لأن ذكر الفاعل في هذا السياق أشبه بالمصادرة بالمطلوب فكأنه قيل: إن فيما عندكم علوما لا ينتهي إلى اكتسابكم أو اكتساب آبائكم فمن الذي علمكم ذلك؟ ثم أجيب عن مجموع السؤالين بقوله: الله عز اسمه.

٩. ﴿قُلِ اللّٰهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾:

أ. لما كان الجواب واضحا بينا لا يداخله ريب، والجواب الذي هذا شأنه يسوغ للمستدل السائل أن يتكلفه ولا ينتظر المسئول المحتج عليه، أمر تعالى نبيه ﷺ أن يتصدى هو للجواب فقال: ﴿قُلِ اللّٰهُ﴾ أي الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى والذي علمكم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم هو الله.

ب. ولما كان القول بأن الله لم ينزل على بشر شيئا من لغو القول وهزله الذي لا يتفوه به إلا خائض لاعب بالحقائق وخاصة إذا كان القائل به من اليهود المعترفين بتوراة موسى والمباهين بالعلم والكتاب أمره

بأن يدعهم وشأنهم فقال: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾

١٠. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله لا يوصف، وكيف يوصف؟ وقد قال في كتابه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك.

ب. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، قال: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك، فلم يؤمن بالله حق قدره، ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، يعني من بني إسرائيل، قالت اليهود: يا محمد، أنزل الله عليك كتاباً؟ قال: نعم، قالوا: والله ما أنزل الله من السماء كتاباً، فأنزل الله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى قوله: ﴿وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١] أنزله.

• أقول: والمعنى الذي في صدر الرواية تقدم في البيان السابق أنه خلاف ظاهر الآية، بل الظاهر أن الذين قالوا: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، هم الذين لم يقدروا الله سبحانه حق قدره.

ج. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، قال: قال فنحاص اليهودي: ما أنزل الله على محمد من شيء.

• أقول: واختلاف الحاكي والمحكي يفسد المعنى، واحتمال النقل بالمعنى مع هذا الاختلاف الفاحش لا مسوغ له.

د. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الصيف، فخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي: أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سميناً، فغضب وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال له أصحابه: ويحك، ولا على موسى؟ قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] الآية.

هـ. وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: ٩٢] إلى قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]، قال: كانوا يكتمون ما شاءوا ويبدون ما شاءوا.

و. قال: وفي رواية أخرى عنه عليه السلام قال: كانوا يكتبونه في القراطيس، ثم يبدون ما شاءوا ويخفون ما شاءوا، قال: كل كتاب أنزل فهو عند أهل العلم.

• أقول: أهل العلم كناية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

٥٨. القرآن مبارك مصدّق لما قبله وصفات من يؤمنون به:

المقطع [٥٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٧٩»:

١. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ولِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى ومَنْ حَوْلَهَا﴾:

أ. لما نبه على أن من لوازم الألوهية أن ينزل الوحي على جماعة من البشر هم الأنبياء عليه السلام، وأن هناك كتابا حقا كالتوراة التي جاء بها موسى، وأمورا أخرى علمها البشر لا تنتهي إلا إلى وحي إلهي وتعليم غيبي، ذكر أن هذا القرآن أيضا كتاب إلهي منزل من عنده على حد ما نزل سائر الكتب السماوية، ومن الدليل على ذلك اشتماله على ما هو شأن كتاب سماوي نازل من عند الله سبحانه، ومن هنا يظهر:

• أولا: أن الغرض في المقام متعلق بكون القرآن كتابا نازلا من عند الله تعالى دون من نزل عليه، ولذا قال: كتاب أنزلناه ولم يقل أنزلناه إليك على خلاف موارد أخر كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] وغيره.

• وثانيا: أن الأوصاف المذكورة للكتاب بقوله: ﴿مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ﴾، بمنزلة الأدلة على كونه نازلا من الله وليست بأدلة فمن أمارات أنه منزل من عند الله أنه مبارك أودع الله فيه البركة والخير الكثير يهدي الناس للتي هي أقوم، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ينتفع به الناس في دنياهم باجتماع شملهم، وقوة جمعهم، ووحدة كلمتهم، وزوال الشح من نفوسهم، والضغائن من قلوبهم، وفشوا الأمن والسلام، ورغد عيشهم، وطيب حياتهم وانجلاء الجهل وكل رذيلة عن ساحتهم، واستظلالهم بمظلة سعادتهم،

وينتفعون به في أخراهم بالأجر العظيم والنعيم المقيم.

ب. ولو لم يكن من عند الله سواء كان مختلفا من عند بشر كشبكة يغر بها الناس فيصطادون أو كان تزويقا نفسانيا أو إلقاء شيطانيا يخيل إلى الذي جاء به أنه وحي سماوي من عند الله وليس من عنده لم تستقر فيه ولا ترتب عليه هذه البركات الإلهية والخير الكثير فإن سبيل الشر لا يهدي سالكه إلا إلى الشر ولن ينتج فساد صلاحا، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اَللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧] وقال: ﴿وَاَللَّهُ لاَ يَهْدِي اَلْقَوْمَ اَلْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿وَاَلْبَلَدُ اَلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ واَلَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾ [الأعراف: ٥٨]

ج. ومن أمارات أنه حق أنه مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية الحقة النازلة من عند الله، ومن أمارات ذلك أنه يفي بالغرض الإلهي من خلقه وهو أن يهديهم إلى سعادة حياتهم في الدنيا والآخرة بالإنذار بوسيلة الوحي المنزل من عنده، وهذا هو الذي يدل عليه قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُرى ومَنْ حَوْلَهَا﴾ فأم القرى هي مكة المشرفة، والمراد أهلها بدليل قوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والمراد بها حولها سائر بلاد الأرض التي يحيط بها أو التي تجاورها كما قيل، والكلام يدل على عناية إلهية بأم القرى وهي الحرم الإلهي منه بدئ بالدعوة وانتشرت الكلمة.

د. ومن هذا البيان يظهر: أن الأنسب بالسياق أن يكون قوله: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ اَلْقُرى﴾ وخاصة على قراءة (لينذبصيغة الغيبة معطوفا على قوله: ﴿مُصَدِّقُ﴾ بما يشتمل عليه من معنى الغاية، والتقدير: ليصدق ما بين يديه ولتنذر أم القرى على ما ذكره الزمخشري، وقيل: إنه معطوف على قوله: ﴿مُبَارَكٌ﴾ والتقدير: أنزلناه لتنذر أم القرى ومن حولها.

٢. ﴿وَاَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ﴾، كأنه تفريع لما عده الله سبحانه من أوصاف هذا الكتاب الذي أنزله أي لما كان هذا الكتاب الذي أنزلناه مباركا ومصدقا لما بين يديه نازلا لغاية إنذار أهل الأرض فالمؤمنون بالآخرة يؤمنون به لأنه يدعو إلى أمن أخروي دائم ويحذرهم من عذاب خالد.

٣. ثم عرف تعالى هؤلاء المؤمنين بالآخرة بما هو من أخص صفات المؤمنين وهو أنهم على صلاتهم وهي عبادتهم التي يذكرون فيها ربهم يحافظون، وهذه هي الصفة التي ختم الله به صفات المؤمنين التي وصفهم بها في أول سورة المؤمنين إذ قال: ﴿اَلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] كما بدأ

بمعناها في أولها فقال ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] وهذا هو الذي يؤيد أن المراد بالمحافظة في هذه الآية هو الخشوع في الصلاة وهو نحو تذلل وتأثر باطني عن العظمة الإلهية عند الانتصاب في مقام العبودية لكن المعروف من تفسيره أن المراد بالمحافظة على الصلاة المحافظة على وقتها.

٤. وضع هنا مبحثا حول [معنى البركة في القرآن]، خلاصته:

أ. أصل مادة (برك) في اللغة يدل على الثبوت واللزوم، ومنه اشتقاق (بركة) لمحبس الماء، و(البركة) بمعنى ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

ب. البركة هي الخير المستقر في الشيء اللازم له، سواء كان في النسل (كثرة الأعقاب وبقاء الذكر)، أو في الطعام (الإشباع والشفاء)، أو في الوقت (سعة العمل)

ج. البركة في الظواهر الدينية ترتبط بالخير المعنوي الذي ينتهي إليه، وقد تشمل خيرات مادية مرتبطة بخيرات معنوية كالدين والقرب والمال وكثرة النسل.

د. نزول البركة الإلهية لا ينافي عمل الأسباب الطبيعية، لأن الإرادة الإلهية سبب في طول الأسباب لا في عرضها، فهي توفق بين الأسباب وترفع الموانع.

هـ. قول المنكرين للبركة بأن الأسباب الطبيعية لا تترك مجالاً لسبب آخر، مبني على فهم خاطئ للعلية، إذ أن تأثير الله في طول الأسباب لا في عرضها.

و. البركة كثيرة الدور في الكتاب والسنة، وهي مذكورة في العهدين أيضاً، وكان أخذ البركة سنة جارية في العهد القديم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: أم القرى مكة.

ب. وفي تفسير العياشي عن علي بن أسباط قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: لم سمي النبي الأمي؟ قال: نسب إلى مكة، وذلك من قول الله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وأم القرى مكة، ومن حولها الطائف.

• أقول: وعلى ما في الرواية يصير قوله: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢] من قبيل قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولا ينافي الأمر بإنذار طائفة خاصة عموم الرسالة

لجميع الناس، كما يدل عليه أمثال قوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]

٥٩. أشد الناس ظلماً وسوء عاقبتهم عند غمرات الموت:

المقطع [٥٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٨٣»:

١. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ إلى قوله ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾:

أ. عد الله سبحانه موارد ثلاثة من الظلم هي من أشد مراتبه التي لا يرتاب العقل العادي في شناعتها وفظاعتها، ولذا أوردها في سياق السؤال، والغرض من ذلك الدعوة إلى النزول على حكم العقل السليم والأخذ بالنصفة وخفض الجناح لصريح الحق فكأنه يقول: قل لهم: يجب علي وعليكم أن لا نستكبر عن الحق ولا نستعلي على الله تعالى بارتكاب ما هو من أشد الظلم وأشنعه وهو الظلم في جنب الله فكيف يصح لكم أن تفتروا على الله كذبا وتدعوا له شركاء تتخذونها شفعاء؟ وكيف يسوغ لي أن أدعي النبوة وأقول: أوحي إلي إن كنت لست بنبي يوحى إليه؟ وكيف يجوز لقائل أن يقول: سأنزل مثل ما أنزل الله، فيسخر بحكم الله ويستهزئ بآياته؟ ونتيجة هذه الدعوة أن ينقادوا لحكم النبوة فإنهم إذا اجتنبوا الافتراء على الله بالشرك، وكف القائل ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ عن مقاله والنبي ﷺ يصر على الوحي بقيت نبوته بلا معارض.

ب. وافتراء الكذب على الله سبحانه وهو أول المظالم المعدودة وإن كان أعم بالنسبة إلى دعوى الوحي إذا لم يوح إليه وهو ثاني المظالم المعدودة، ولذا قيل: إن ذكر الثاني بعد الأول من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأن الوحي وإعظاما لأمره، لكن التأمل في سياق الكلام ووجهه إلى المشركين يعطي أن المراد بالافتراء المذكور هو اتخاذ الشريك لله سبحانه، وإنما لم يصرح بذلك ليرتفع به غائلة ذكر الخاص بعد العام لأن الغرض في المقام، كما تقدم، هو الدعوة إلى الأخذ بالنصفة والتجافي عن عصبية الجاهلية فلم يصرح بالمقصود وإنما أبهم إبهاما لئلا يتحرك بذلك عرق العصبية ولا يتنبه داعي النخوة.

ج. فقوله: ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ وقوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ولَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾ متباينان من حيث المراد وإن كانا بحسب ظاهر ما يتراءى منهما أعم وأخص، ويدل على ما ذكرنا ما في ذيل الآية من حديث التهديد بالعذاب والسؤال عن الشركاء والشفعاء.

د. وأما ما قيل: إن قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ ولَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نزل في مسيلمة حيث ادعى النبوة فسياق الآيات كما عرفت لا يلائمه بل ظاهره أن المراد به نفسه وإن كان الكلام مع الغض عن ذلك أعم، على أن سورة الأنعام مكية ودعواه النبوة من الحوادث التي وقعت بعد الهجرة إلا أن هؤلاء يرون أن الآية مدنية غير مكية وسيأتي الكلام في ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

٢. وأما قوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾:

أ. فظاهره أنه حكاية قول واقع، وأن هناك من قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، وأنه إنما قاله استهزاء بالقرآن الكريم حيث نسبه إلى الله سبحانه بالنزول ثم وعد الناس مثله بالإنزال، ولم يقل: سأقول مثل ما قاله محمد أو سآتيكم بمثل ما أتاكم به، ولذا ذكر بعض المفسرين أنه إشارة إلى قول من قال من المشركين: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

ب. وقال آخرون: إن الآية إشارة إلى قول عبد الله بن سعد بن أبي سرح: إني أنزل مثل ما أنزل الله والآية مدنية، ومنهم من قال غير ذلك كما سيجيء إن شاء الله في البحث الروائي.

ج. والآية ليست ظاهرة الانطباق على شيء من ذلك فإنها تتضمن الوعد بأمر مستقبل، وقولهم: لو نشاء لقلنا.، كلام مشروط وكذا قول عبد الله إن صحت الرواية إخبار عن أمر حالي جار واقع.

د. وكيف كان فقوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يحكي قولا قاله بعض المشركين من العرب استكبارا على آيات الله، وإنما كرر فيه الموصول أعني قوله: ﴿مَنْ﴾ ولم يتكرر في قوله: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ لأن المظالم المعدودة وإن كانت ثلاثة لكنها من نظرة أخرى قسمان فالأول والثاني من الظلم في جنب الله في صورة الخضوع لجانبه والانقياد لأمره، والثالث من الظلم في صورة الاستعلاء عليه والاستكبار عن آياته.

٣. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾:

أ. الغمر أصله ستر الشيء وإزالة أثره ولذا يطلق الغمرة على الماء الكثير الساتر لما تحته، وعلى الجهل

المطبق، وعلى الشدة التي تحيط بصاحبها والغمرات الشدائد، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾، والهون والهوان الذلة.

ب. وبسط اليد معناه واضح غير أن المراد به معنى كنائي، ويختلف باختلاف الموارد فبسط الغني يده جوده بماله وإحسانه لمن يستحقه، وبسط الملك يده إدارته أمور مملكته من غير أن يزاحمه مزاحم وبسط المأمور الغليظ الشديد يده على المجرم المأخوذ به هو نكاله وإيذاؤه بضرب وزجر ونحوه.

ج. فبسط الملائكة أيديهم هو شروعهم بتعذيب الظالمين، وظاهر السياق أن الذي تفعله الملائكة بهؤلاء الظالمين هو الذي يترجم عنه قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، فهذه الجمل محكية عن الملائكة لا من قول الله سبحانه، والتقدير: يقول الملائكة لهم أخرجوا أنفسكم فهم يعذبونهم بقبض أرواحهم قبضا يذوقون به أليم العذاب وهذا عذابهم حين الموت ولما ينتقلوا من الدنيا إلى ما وراءها ولهم عذاب بعد ذلك ولما تقم عليهم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]

٤. وبذلك يظهر أن المراد باليوم في قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ هو يوم الموت الذي يجزون فيه العذاب وهو البرزخ كما ظهر أن المراد بالظالمين هم المرتكبون لبعض المظالم الثلاثة التي عدها الله سبحانه من أشد الظلم أعني افتراء الكذب على الله، ودعوى النبوة كذبا والاستهزاء بآيات الله، ويؤيد ذلك ما ذكره الله من أسباب عذابهم من الذنوب وهو قولهم على الله غير الحق كما هو شأن المفتري الكذب على الله بنسبة الشريك إليه أو بنسبة حكم تشريعي أو وحي كاذب إليه، واستكبارهم عن آيات الله كما هو شأن من كان يقول: ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾

٥. وكذلك قوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ أمر تكويني لأن الموت والوفاة ليس في قدرة الإنسان كالحياة حتى يؤمر بذلك قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤] فالأمر تكويني والملائكة من أسبابه، والكلمة مصوغة صوغ الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية كأن النفس الإنسانية أمر داخل في البدن وبه حياته وبخروجه عن البدن طرو الموت وذلك أن كلامه تعالى ظاهر في أن النفس ليست من جنس البدن ولا من سنخ الأمور المادية الجسمانية وإنما لها سنخ آخر من الوجود يتحد مع البدن ويتعلق به نوعا من الاتحاد والتعلق غير مادي كما تقدم بيانه في بحث علمي في الجزء الأول من الكتاب وسيأتي في

مواضع تناسبه إن شاء الله، فالمراد بقوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ قطع علقة أنفسهم من أبدانهم وهو الموت، والقول قول الملائكة على ما يعطيه السياق، والمعنى: وليتك ترى حين يقع هؤلاء الظالمون المذكورون في شدائد الموت وسكراته والملائكة آخذون في تعذيبهم بالقبض الشديد العنيف لأرواحهم وإنبائهم بأنهم واقعون في عالم الموت معذبون فيه بعذاب الهون والذلة جزاء لقولهم على الله غير الحق ولاستكبارهم عن آياته.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية، أخرج الحاكم في المستدرك عن شرحبيل بن سعد قال: نزلت في عبد الله بن أبي سرح: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية، فلما دخل رسول الله ﷺ مكة، فر إلى عثمان أخيه من الرضاعة، فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة، ثم استأمن له.

ب. أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قال: نزلت في مسيلمة فيما كان يسجع ويتكهن به، ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قال: نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كان يكتب للنبي ﷺ، فكان فيما يملي ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فيكتب (غفور رحيم) فيغيره، ثم يقرأ عليه كذا كذا لما حول، فيقول: نعم سواء، فرجع عن الإسلام ولحق بقريش.

• أقول: وروي هذا المعنى بطرق أخرى أيضاً غير ما مر.

ج. وفي تفسير القمي قال: حدثنا أبي عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن عبد الله بن سعد بن أبي السرح كان أخاً لعثمان من الرضاعة، قدم إلى المدينة وأسلم، وكان له خط حسن، وكان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ، دعاه ليكتب ما نزل عليه، فكان إذا قال له رسول الله ﷺ: (والله سميع بصير) يكتب: (سميع عليم)، وإذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المائدة: ٨] يكتب: (بصير)، وكان يفرق بين التاء والياء، وكان رسول الله ﷺ يقول: هو واحد، فارتد كافراً ورجع إلى مكة وقال لقريش: والله ما يدري محمد ما يقول، أنا أقول مثل ما يقول فلا ينكر علي ذلك، فأنا أنزل مثل ما أنزل الله، فأنزل الله على نبيه ﷺ في ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ

إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر بقتله، فجاء به عثمان وقد أخذ بيده ورسول الله ﷺ في المسجد، فقال: يا رسول الله، اعف عنه، فسكت رسول الله ﷺ، ثم أعاد فقال: هو لك، فلما مر، قال رسول الله ﷺ: ألم أقل: من رآه فليقتله؟ فقال رجل: كانت عيني إليك يا رسول الله أن تشير إلي فأقتله، فقال رسول الله ﷺ: إن الأنبياء لا يقتلون بالإشارة، فكان من الطلقاء.

• أقول: وروى هذا المعنى في الكافي وتفسير العياشي ومجمع البيان بطرق أخرى عن الباقر والصادق عليه السلام.

• وذكر بعض المفسرين بعد إيراد القصة عن روايتي عكرمة والسدي: أن هاتين الروايتين باطلتان، فإنه ليس في شيء من السور المكية (سميعاً عليماً) ولا (عليماً حكيماً) ولا (عزيزاً حكيماً) إلا في سورة لقمان، المروي عن ابن عباس أنها نزلت بعد سورة الأنعام، وأن الآية التي ختمت بقوله تعالى ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ منها، وثنتين بعدها مدنيات كما في الإتقان، قال: وما قيل من احتمال نزول هذه الآية بالمدينة لا حاجة إليه، والرواية غير صحيحة، قال: وروي أن عبد الله بن سعد لما ارتد كان يطعن في القرآن، ولعله قال شيئاً مما ذكر في الروايات عنه كذباً وافتراء، فإن السور التي نزلت في عهد كتابته لم يكن فيها شيء مما روي عنه أنه تصرف فيه، كما علمت، وقد رجع إلى الإسلام قبل الفتح، ولو تصرف في القرآن تصرفاً أقره عليه النبي ﷺ فشك في الوحي لأجله، لما رجع إلى الإسلام.

• وقد عرفت أن الروايات المعتبرة المروية عن الصادقين عليه السلام صريحة في وقوع قصة ابن أبي سرح في المدينة بعد الهجرة، لا في مكة، والأخبار المروية من طرق أهل السنة والجماعة غير صريحة في وقوعها بمكة، لو لم يكن ظهورها في الوقوع بالمدينة، وأما ما استند إليه من رواية ابن عباس في ترتيب نزول السور القرآنية، فليس بأقوى اعتباراً مما طرحه.

• وأما ما ذكره من إسلام ابن أبي سرح قبل الفتح طوعاً، فقد عرفت ورود الرواية من الطريقين أنه لم يعد إلى الإسلام إلى يوم الفتح، وقد كان رسول الله ﷺ أهدر دمه يوم الفتح، حتى شفع له عثمان فعفا عنه، هذا.

• لكن يبقى على ظاهر الروايات أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] غير ظاهر الانطباق على قول ابن أبي سرح على ما يحكيه: (فأنا أنزل مثل ما أنزل الله)

• على أن كون قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] نازلاً بالمدينة لا يلائم هذا الاتصال الظاهر بينه وبين ما يتلوه إلى آخر الآية الثانية، فلو كان نازلاً بالمدينة، كان الأقرب أن تكون الآيتان جميعاً مدنيتين.

• وهناك رواية أخرى تعرب عن سبب للنزول آخر، وهو ما رواه عبد بن حميد عن عكرمة قال: لما نزلت: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ [المرسلات: ١-٢]، قال النضر وهو من بني عبد الدار: (والطاحنات طحناً، فالعاجنات عجناً) وقولاً كثيراً، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية.

د. في تفسير العياشي عن سلام عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، قال: العطش يوم القيامة.

• أقول: ورواه أيضاً عن الفضيل عن أبي عبد الله عليه السلام وفيه: قال: العطش.

٦٠. مجيء الظالمين فرادى يوم القيامة وانقطاع ما بينهم:

المقطع [٦٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٨٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

أ. الفرادى جمع فرد وهو الذي انفصل عن اختلاط غيره نوعا من الاختلاط ويقابله الزوج وهو الذي يختلط بغيره بنحو ويقرب منهما بحسب المعنى الوتر والشفع فالوتر ما لم ينضم إلى غيره والشفع ما انضم إلى غيره، والتخويل إعطاء الخول أي المال ونحوه الذي يقوم الإنسان به بالتدبير والتصرف.

ب. والمراد بالشفعاء الأرباب المعبودون من دون الله ليكونوا شفعاء عند الله فعادوا بذلك شركاء لله سبحانه في خلقه، والآية تنبئ عن حقيقة الحياة الإنسانية التي ستظهر له حينما يقدم على ربه بالتوفي فيشاهد حقيقة أمر نفسه وأنه مدبر بالتدبير الإلهي لا غير كما كان كذلك في أول مرة كونته الخلقة، وأن المزاعم التي انضمت إلى حياته من التكثر بالأسباب والاعتضاد والانتصار بالأموال والأولاد والأزواج والعشائر والجموع، وكذا الاستشفاع بالأرباب من دون الله المؤدي إلى الإشراك كل ذلك مزاعم وأفكار

باطلة لا أثر لها في ساحة التكوين أصلا.

ج. فالإنسان جزء من أجزاء الكون واقع تحت التدبير الإلهي متوجه إلى الغاية التي غياها الله سبحانه له كسائر أجزاء الكون، ولا حكومة لشيء من الأشياء في التدبير والتسيير الإلهي إلا أنها أسباب وعلل ينتهي تأثيرها إليه تعالى من غير أن تستقل بشيء من التأثير، غير أن الإنسان إذا ركبته يد الخلقة وأوجدته فوقع نظره إلى زينة الحياة والأسباب والشفعاء الظاهرة وجذبته لذائذ الحياة تعلقت نفسه بها ودعته ذلك إلى التمسك بذيل الأسباب والخضوع لها، وألهاه ذلك عن توجيه وجهه إلى مسبب الأسباب وفاطرها والذي إليه الأمر كله فأعطاها الاستقلال في السببية لا هم له إلا أن ينال لذائذ هذه الحياة المادية بالخضوع للأسباب فصار يلعب طول الحياة الدنيا بهذه المزاعم والأوهام التي أوقعته فيها نفسه المتلهية بلذائذ الحياة المادية، واستوعب حياته اللعب بالباطل والتلهي به عن الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

د. فهذا هو الذي يسوق إليه تعليم القرآن حيث يذكر أن الإنسان إذا خرج عن زي العبودية نسي ربه فأداه ذلك إلى نسيان نفسه قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]

٢. الإنسان إذا فارقت نفسه البدن بحلول الموت بطل ارتباطه بجميع الأسباب والعلل والمعدات المادية التي كانت ترتبط بها من جهة البدن وتتصل بها في هذه النشأة الدنيوية وشاهد عند ذلك بطلان استقلالها واندكاك عظمتها وتأثيرها فوقعت عين بصيرته على أن أمره أولا وآخرا إلى ربه لا غير وأن لا رب له سواه ولا مؤثر في شأنه دونه:

أ. فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إشارة إلى حقيقة الأمر.

ب. وقوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، بيان لبطلان الأسباب الملهية له عن ربه المتخللة بين أول خلقه وبين يوم يقبض فيه إلى ربه.

ج. وقوله: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ بيان لسبب انقطاعه من الأسباب وسقوطها عن الاستقلال والتأثير، وأن السبب في ذلك انكشاف بطلان المزاعم التي كان الإنسان يلعب بها طول حياته الدنيا.

٣. فيتبين بذلك أن ليس لهذه الأسباب والضمائم في الإنسان من النصيب إلا أوهام ومزاعم يتلهى ويلعب بها الإنسان.

٦١. قدرة الله على إخراج الحي من الميت والميت من الحي:

المقطع [٦١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُّ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٨٨»:

١. لما انتهى الكلام في الآية السابقة إلى نفي استقلال الأسباب في تأثيرها، وبطلان كون أربابهم شفعاء من دون الله المؤدي إلى كونهم شركاء لله صرف الكلام إلى بيان أن هذه التي يشتغل بها الإنسان عن ربه ليست إلا مخلوقات لله مدبرة بتدبيره، ولا تؤثر أثرا ولا تعمل عملا في إصلاح حياة الإنسان وسوقه إلى غايات خلقته إلا بتقدير من الله وتدبير يدبره هو لا غير فهو تعالى الرب دون غيره.

٢. ﴿إِنَّ اَللهَّ فَالِقُ اَلْحَبِّ واَلنَّوى﴾ الفلق هو الشق، فالله سبحانه هو يشق الحب والنوى فينبت منهما النبات والشجر اللذين يرتزق الناس من حبه وثمره، وهو يخرج الحي من الميت والميت من الحي وقد مر تفسير ذلك في الكلام على الآية ٢٧ من سورة آل عمران.

٣. ﴿ذَلِكُمُ اللهُّ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ وإلى متى تصرفون من الحق إلى الباطل.

٤. أحاديث وآثار: في الكافي بإسناده عن إبراهيم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عز وجل لما أراد أن يخلق آدم، بعث جبرئيل في أول ساعة من يوم الجمعة، فقبض بيمينه قبضة بلغت من السماء السابعة إلى السماء الدنيا، وأخذ من كل سماء تربة، وقبض قبضة أخرى من الأرض السابعة العليا إلى الأرض السابعة القصوى، فأمر الله عز وجل كلمته، فأمسك القبضة الأولى بيمينه والقبضة الأخرى بشماله، ففلق الطين فلقتين، فذرا من الأرض ذروا ومن السماوات ذروا، فقال للذي بيمينه: منك الرسل والأنبياء والأوصياء والصديقون والمؤمنون والشهداء ومن أريد كرامته، فوجب لهم ما لهم، ما قال كما قال، وقال للذي بشماله: منك الجبارون والمشركون والمنافقون والطواغيت ومن أريد هوانه أو شقوته، فوجب لهم ما قال كما قال، ثم إن الطينتين خلطتا جميعاً، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فالحب طينة المؤمنين التي ألقى الله عليها محبته، والنوى طينة الكافرين الذين نأوا عن كل

خير، وإنما سمي النوى من أجل أنه نأى عن الحق وتباعد منه، وقال الله عز وجل: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: ٩٥]، فالحي المؤمن الذي يخرج من طينة الكافر، والميت الذي يخرج من الحي هو الكافر الذي يخرج من طينة المؤمن، فالحي المؤمن والميت الكافر، وذلك قول الله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فكان موته اختلاط طينته مع طينة الكافر، وكان حياته حين فرق الله عز وجل بينهما بكلمته، كذلك يخرج الله عز وجل المؤمن في الميلاد من الظلمة بعد دخوله فيها إلى النور، ويخرج الكافر من النور إلى الظلمة بعد دخوله إلى النور، وذلك قول الله عز وجل: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]

• أقول: الرواية من أخبار الطينة، وسيجيء البحث فيها فيما يناسبه من المحل إن شاء الله، وتفسير الحب والنوى بما فيها من المعنى من قبيل الباطن دون الظاهر، وقد وقع هذا المعنى في روايات أخرى غير هذه الرواية.

٦٢. فلق الله للإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا:

المقطع [٦٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٨٨»:

١. ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَناً﴾ الإصباح بكسر الهمزة هو الصبح وهو في الأصل مصدر، والسكن ما يسكن إليه، والحسبان جمع حساب، وقيل: هو مصدر حسب حسابا وحسبانا.

٢. ﴿وَجَعَلَ ٱللَّيْلَ سَكَناً﴾:

أ. عطف على قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ ولا ضير في عطف الجملة الفعلية على الاسمية إذا اشتملت على معنى الفعل وقرئ: (وجاعل)

ب. وفي فلق الصبح وجعل الليل سكنا يسكن فيه المتحركات عن حركاتها لتجديد القوى ودفع ما عرض لها من التعب والعي والكلال من جهة حركاتها طول النهار، وجعل الشمس والقمر بما يظهر من الليل والنهار والشهور والسنين من حركاتها في ظاهر الحس حسبانا تقدير عجيب للحركات في هذه النشأة المتغيرة المتحولة ينتظم بذلك نظام المعاش الإنساني ويستقيم به أمر حياته.

٣. ولذلك ذيلها بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فهو العزيز الذي لا يقهره قاهر فيفسد عليه شيئا من تدبيره، والعليم الذي لا يجهل بشيء من مصالح مملكته حتى ينظمه نظما ربما يفسد من نفسه ولا يدوم بطبعه.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦]، عن الحسن بن علي بن بنت إلياس قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: إن الله جعل الليل سكناً، وجعل النساء سكناً، ومن السنة التزويج بالليل وإطعام الطعام.

ب. وفيه عن علي بن عقبة عن أبيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: تزوجوا بالليل، فإن الله جعله سكناً، ولا تطلبوا الحوائج بالليل.

٦٣. جعل النجوم للاهتداء بها في الظلمات وتفصيل الآيات لقوم يعلمون:

المقطع [٦٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٨٩»:

١. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ المعنى واضح والمراد بتفصيل الآيات إما تفصيلها بحسب الجعل التكويني أو تفصيلها بحسب البيان اللفظي.

٢. ولا تنافي بين إرادة مصالح الإنسان في حياته وعيشته في هذه النشأة مما يتراءى لظاهر الحس من حركات هذه الأجرام العظيمة العلوية والكرات المتجاذبة السماوية، وبين كون كل من هذه الأجرام مرادا بإرادة إلهية مستقلة ومخلوقة بمشية تتعلق بنفسه وتخص شخصه فإن الجهات مختلفة، وتحقق بعض هذه الجهات لا يدفع تحقق بعض آخر والارتباط والاتصال حاكم على جميع أجزاء العالم.

٦٤. إنشاء البشر من نفس واحدة والمستقر والمستودع:

المقطع [٦٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٨٩»:

١. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾:

أ. قرئ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بفتح القاف وكسرها وهو على القراءة الأولى اسم مكان بمعنى محل الاستقرار فيكون ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ أيضا اسم مكان بمعنى محل الاستيداع وهو المكان الذي توضع فيه الوديعة.

ب. وقد وقع ذكر المستقر والمستودع في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللهِّ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] وفي الكلام حذف وإيجاز، والتقدير: فمنكم من هو في مستقر ومنكم من هو في مستودع، وعلى القراءة الثانية وهي الرجحى ﴿فَمُسْتَقِرٌّ﴾ اسم فاعل ويكون المستودع اسم مفعول لا محالة، والتقدير فمنكم مستقر ومنكم مستودع لم يستقر بعد.

ج. والظاهر أن المراد بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ انتهاء الذرية الإنسانية على كثرتها وانتشارها إلى آدم الذي يعده القرآن الكريم مبدأ للنسل الإنساني الموجود، وأن المراد بالمستقر هو البعض الذي تلبس بالولادة من أفراد الإنسان فاستقر في الأرض التي هي المستقر لهذا النوع كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: ٣٦] والمراد بالمستودع من استودع في الأصلاب والأرحام ولم يولد بعد وسيولد بعد حين فهذا هو المناسب لمقام بيان الآية بإنشاء جميع الأفراد النوعية من فرد واحد ومن الممكن أن يؤخذ مستقر ومستودع مصدرين ميميين.

د. وقد عبر بلفظ الإنشاء دون الخلق ونحوه وهو ظاهر في الدفعة وما في حكمه دون التدريج، ويؤيد هذا المعنى أيضا ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللهِّ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ كما لا يخفى أي يعلم ما استقر منها في الأرض بفعلية التكون (وما هو في طريق التكون مما لم يتكون بالفعل ولم يستقر في الأرض)

هـ. فالمعنى: وهو الذي أوجدكم معشر الأناسي من نفس واحدة وعمر بكم الأرض إلى حين فهي مشغولة بكم ما لم تنقرضوا فلا يزال بعضكم مستقرا فيها وبعضكم مستودع في الأصلاب والأرحام أو في الأصلاب فقط في طريق الاستقرار فيها.

٢. وقد أورد المفسرون في الآية معاني أخر:

أ. كقول بعضهم: إن المراد من إنشائهم من نفس واحدة خلقهم من نوع واحد من النفس وهو النفس الإنسانية أو إن المراد هو الإنشاء من نوع واحد من التركيب النفسي والبدني، وهو الحقيقة الإنسانية

المؤلفة من نفس وبدن إنسانيين.

ب. وكقول بعضهم: إن المراد بالمستقر الأرحام وبالمستودع الأصلاب.

ج. وقول بعض آخر: إن المستقر الأرض والمستودع القبر.

د. وقول بعض آخر: إن المستقر هو الرحم والمستودع الأرض أو القبر.

هـ. وقول بعض آخر: إن المستقر هو الروح والمستودع هو البدن، إلى غير ذلك من أقاويلهم التي لا كثير جدوى في التعرض لها.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي بإسناده عن يونس عن بعض أصحابنا عن أبي الحسن عليه السلام قال: إن الله خلق النبيين على النبوة، فلا يكونون إلا أنبياء، وخلق المؤمنين على الإيمان، فلا يكونون إلا مؤمنين، وأعار قوماً إيماناً، فإن شاء تممه لهم، وإن شاء سلبهم إياه، قال: وفيهم جرت ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، وقال: إن فلاناً كان مستودعاً، فلما كذب علينا سلبه الله إيمانه.

• أقول: وفي تفسير المستقر والمستودع بقسمي الإيمان روايات كثيرة مروية عنهم عليهم السلام في تفسيري العياشي والقمي، وهذه الرواية توجهها بأنها من الجري والانطباق.

ب. وفي تفسير العياشي عن سعد بن سعيد أبي الأصبغ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: ٩٨]، قال: مستقر في الرحم، ومستودع في الصلب، وقد يكون مستودع الإيمان ثم ينزع منه، الحديث.

٦٥. إنزال الماء وإنبات الزرع واختلاف الثمار آيات للمؤمنين:

المقطع [٦٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٩٠»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ السماء هي جهة العلو فكلما علاك وأظلك فهو سماء، والمراد بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على ما قيل، فأخرجنا بالماء الذي أنزلناه من السماء النبات والنمو

الذي في كل شيء نام له قوة النبات من الكمون إلى البروز، أي أنبتنا به كل شيء نباتي كالنجم والشجر والإنسان وسائر الحيوان، والخضر هو الأخضر وكأنه مخفف الخاضر، وتراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما في السنبلة، والطلع أول ما يبدو من ثمر النخل، والقنوان جمع قنو وهو العذق بالكسر وهو من التمر كالعنقود من العنب، والدانية أي القريبة، والمشتبه وغير المتشابه المشاكل وغير المشاكل في النوع والشكل وغيرهما، وينع الثمر نضجه.

٢. وقد ذكر الله سبحانه أمورا مما خلقه لينظر فيها من له نظر وبصيرة فيهتدي بالنظر فيها إلى توحيده، وهي أمور أرضية كفلق الحبة والنواة ونحو ذلك، وأمور سماوية كالليل والصبح والشمس والقمر والنجوم، وأمر راجع إلى الإنسان نفسه وهو إنشاء نوعه من نفس واحدة فمستقر ومستودع، وأمور مؤلفة من الجميع كإنزال المطر من السماء وتهيئة الغذاء من نبات وحب وثمر وإنبات ما فيه قوة النمو كالنبات والحيوان والإنسان من ذلك.

٣. وقد عد النجوم آية خاصة بقوم يعلمون، وإنشاء النفوس الإنسانية آية خاصة بقوم يفقهون، وتدبير نظام الإنبات آية لقوم يؤمنون والمناسبة ظاهرة فإن النظر في أمر النظام أمر بسيط لا يفتقر إلى مئونة زائدة بل يناله الفهم العادي بشرط أن يتنور بنصفة الإيمان ولا يتلطخ بقذارة العناد واللجاج، وأما النظر في النجوم والأوضاع السماوية فمما لا يتخطى العلماء بهذا الشأن ممن يعرف النجوم ومواقعها وسائر الأوضاع السماوية إلى حد ما ولا يناله الفهم العام العامي إلا بمئونة: وأما آية الأنفس فإن الاطلاع عليها وعلى ما عندها من أسرار الخلقة يحتاج مضافا إلى البحث النظري إلى مراقبة باطنية وتعمق شديد وتثبت بالغ وهو الفقه.

٦٦. شرك المشركين بالجن وادعاء البنات لله تعالى:

المقطع [٦٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٩١»:

١. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ الجن إما مفعول لجعلوا ومفعوله الآخر شركاء أو بدل من شركاء، وقوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ كأنه حال وإن منعه بعض النحاة وحجتهم غير واضحة، وكيف كان

فالكلمة في مقام ردهم، والمعنى وجعلوا له شركاء الجن وهو خلقهم والمخلوق لا يجوز أن يشارك خالقه في مقامه.

٢. والمراد بالجن الشياطين كما ينسب إلى المجوس القول: بأهرمن ويزدان ونظيره ما عليه اليزيدية الذين يقولون بألوهية إبليس (الملك طاووس شاه بريان) أو الجن المعروف بناء على ما نسب إلى قريش أنهم كانوا يقولون: إن الله قد صاهر الجن فحدث بينهما الملائكة، وهذا أنسب بسياق قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وعلى هذا فالبنون والبنات هم جميعا من الملائكة خرقوهم أي اختلقوهم ونسبوهم إليه افتراء عليه سبحانه وتعالى عما يشركون، ولو كان المراد من هو أعم من الملائكة لم يبعد أن يكون المراد بهم ما يوجد في سائر الملل غير الإسلام فالبرهمانية والبوذية يقولون بنظير ما قالته النصارى من بنوة المسيح كما تقدم، وسائر الوثنيين القدماء كانوا يثبتون لله سبحانه بنين وبنات من الآلهة على ما يدل عليه الآثار المكتشفة، ومشركو العرب كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله.

٦٧. الله الواحد البديع الخالق:

المقطع [٦٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٩٢»:

١. ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ جواب عن قولهم بالبنين والبنات، ومحصله:

أ. أن لا سبيل لتحقق حقيقة الولد إلا اتخاذ الصاحبة ولم يكن له تعالى صاحبة فأنى يكون له ولد؟

ب. وأيضا هو تعالى الخالق لكل شيء وفاطره، والولد هو الجزء من الشيء يربيه بنوع من اللقاح وجزء الشيء والمماثل له لا يكون مخلوقا له البتة، ويجمع الجميع أنه تعالى بديع السماوات والأرض الذي لا يماثله شيء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبة يتزوج بها أو بنون وبنات يماثلونه في النوع فهذا أمر يخبر به الله الذي لا سبيل للجهل إليه فهو بكل شيء عليم، وقد تقدم في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ﴾

٢. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي عن سدير قال: سمعت حمران يسأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١]، فقال له أبو جعفر عليه السلام: ابتدع الأشياء

كلها بعلمه على غير مثال كان، وابتدع السماوات والأرضين، ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون، أما تسمع قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]؟

٦٨. إثبات الربوبية لله وحده وتنزيهه عن الإدراك الحسي:

المقطع [٦٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٢-١٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٢٩٢»:

١. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الجملة الأولى أعني قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ نتيجة متخذة من البيان المورد في الآيات السابقة، والمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فالله الذي وصفناه هو ربكم لا غير.

ب. وقوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كالتصريح بالتوحيد الضمني الذي تشتمل عليه الجملة السابقة، وهو مع ذلك يفيد معنى التعليل أي هو الرب ليس دونه رب لأنه الله الذي ليس دونه إله وكيف يكون غيره ربا وليس بإله.

ج. وقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي إنما انحصرت الألوهية فيه لأنه خالق كل شيء من غير استثناء فلا خالق غيره لشيء من الأشياء حتى يشاركه في الألوهية، وكل شيء مخلوق له خاضع له بالعبودية فلا يعادله فيها.

د. وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ متفرع كالنتيجة على قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي إذا كان الله سبحانه هو ربكم لا غير فاعبدوه.

هـ. وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي هو القائم على كل شيء المدبر لأمره الناظم نظام وجوده وحياته وإذا كان كذلك كان من الواجب أن يتقى فلا يتخذ له شريك بغير علم فالجملة كالتأكيد لقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي لا تستنكفوا عن عبادته لأنه وكيل عليكم غير غافل عن نظام أعمالكم.

٢. وأما قوله: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ فهو لدفع الدخل الذي يوهمه قوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجة والخطاب معهم، وهو أنه إذا صار وكيلا عليهم كان أمرا جسمانيا كسائر الجسمانيات التي تتصدى الأعمال الجسمانية فدفعه بأنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعاليه

عن الجسمية ولوازمها.

٣. ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾ دفع لما يسبق إلى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكر المادي، وأخلدوا إلى الحس والمحسوس وهو أنه تعالى إذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيطة الحس والمحسوس وبطل نوع الاتصال الوجودي الذي هو مناط الشعور والعلم، وانقطع عن مخلوقاته فلا يعلم بشيء كما لا يعلم به شيء، ولا يبصر شيئا كما لا يبصره شيء فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَارَ﴾

٤. ثم علل هذه الدعوى بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ واللطيف هو الرقيق النافذ في الشيء، والخبير من له الخبرة، فإذا كان تعالى محيطا بكل شيء بحقيقة معنى الإحاطة كان شاهدا على كل شيء لا يفقده ظاهر شيء من الأشياء ولا باطنه، وهو مع ذلك ذو علم وخبرة كان عالما بظواهر الأشياء وبواطنها من غير أن يشغله شيء عن شيء أو يحتجب عنه شيء بشيء فهو تعالى يدرك البصر والمبصر معا، والبصر لا يدرك إلا المبصر.

٥. وقد نسب إدراكه إلى نفس الأبصار دون أولي الأبصار لأن الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسية حتى يتعلق بظواهر الأشياء من أعراضها كالبصر مثلا الذي يتعلق بالأضواء والألوان ويدرك به القرب والبعد والعظم والصغر والحركة والسكون بنحو بل الأغراض وموضوعاتها بظواهرها وبواطنها حاضرة عنده مكشوفة له غير محجوبة عنه ولا غائبة فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها وما عندها وليست تناله.

٦. ففي الآيتين من سطوح البيان وسهولة الطريق وإيجاز القول ما يحير اللب وهما مع ذلك تهديان المتدبر فيهما إلى أسرار دونها أستار.

٧. وضع هنا مبحثا حول [عموم الخلقة وانبساطها على كل شيء]، خلاصته:

أ. القرآن يصرح بأن الله خالق كل شيء، ولا يوجد في الآيات ما يخصص هذا العموم، فهو شامل لجميع الموجودات ذواتها وأفعالها وصفاتها.

ب. القرآن يسلم بقانون العلية العام في الوجود، فلكل شيء علة أو مجموع علل، والأشياء مؤثرة ومتأثرة، وهذا النظام هو أساس الاستدلال على وجود الصانع ووحدانيته.

ج. عموم الخلقة لا ينافي وجود الأسباب والعلل الطبيعية، لأن الإرادة الإلهية سبب في طول الأسباب لا في عرضها، فهي موجدة للعلل ومؤثرة فيها.

د. مسألة القبح والحسن والطاعة والمعصية هي أمور اعتبارية اجتماعية، لا تثبت في ظرف التكوين، فالخلق يتعلق بالواقعية الخارجية، وأما العناوين الأخلاقية فمن باب الاعتبار.

هـ. القول بأن الله خلق الأشياء ثم اعتزلها (اكتفاء بالحدوث) هو قول باطل، لأن الأشياء في بقائها أيضاً مفتقرة إلى الله، والقرآن يستدل بالآيات المشهودة في النظام الكوني على الربوبية المستمرة.

و. الإشكال في تخصيص الخلقة عن الأفعال الإنسانية يندفع بالفرق بين الجهة التكوينية (التي يتعلق بها الخلق) والجهة الاعتبارية (التي تتعلق بها الطاعة والمعصية)

ز. لو كانت الأشياء مستقلة في بقائها عن الله، لبطل قانون العلية، ولما استقام الاحتجاج بالآيات الكونية على وجود الصانع ووحدانيته.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي بإسناده عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قال: إحاطة الوهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ليس يعني من البصر بعينه، ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٠٤]، ليس يعني عمى العيون، إنما عنى إحاطة الوهم، كما يقال: فلان بصير بالشعر، وفلان بصير بالفقه، وفلان بصير بالدراهم، وفلان بصير بالثياب، الله أعظم من أن يرى بالعين.

• أقول: ورواه في التوحيد بطريق آخر عنه عليه السلام، وبإسناده عن أبي هاشم الجعفري عن الرضا عليه السلام.

ب. وفيه بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام، فاستأذنته في ذلك فأذن لي، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام والأحكام، حتى بلغ سؤاله التوحيد، فقال أبو قرة: إنا روينا: أن الله قسم الرؤية والكلام بين نبيين، فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين من الجن والإنس: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء؟ أليس محمد ﷺ؟ قال: بلى، قال: كيف

يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله، وأنه يدعوهم إلى الله بأمر الله، فيقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء، ثم يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً وهو على صورة البشر؟ أما تستحون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا، أن يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه من وجه آخر، قال أبو قرة: فإنه يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، فقال أبو الحسن عليه السلام: إن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى، حيث قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، يقول: ما كذب فؤاد محمد ما رأته عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، فآيات الله غير الله، وقد قال الله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، فإذا رأته الأبصار، فقد أحاط به العلم ووقعت المعرفة، فقال أبو قرة: فتكذب بالروايات؟ فقال الرضا عليه السلام: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن، كذبتها، وما أجمع المسلمون عليه أنه لا يحاط به علماً، ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شيء.

• أقول: وهذا المعنى وارد في أخبار أخر مروية عنهم عليهم السلام، وهناك روايات أخر تثبت الرؤية بمعنى آخر أدق يليق بساحة قدسه تعالى، سنوردها إن شاء الله في تفسير سورة الأعراف، وإنما شدد النكير على الرؤية في هذه الرواية لما أن المشهور من إثبات الرؤية في عصرهم كان هو إثبات الرؤية الجسمانية بالبصر الجسماني، التي ينفيها صريح العقل ونص الكتاب، ففي تفسير الطبري عن عكرمة عن ابن عباس قال: إن النبي ﷺ رأى ربه، فقال له رجل عند ذلك: أليس قال الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؟ فقال له عكرمة: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: فكلها ترى؟ إلى غير ذلك من الأخبار.

• والذي تثبته من الرؤية صريح الرؤية الجسمانية بالعضو الباصر، وقد نفاها العقل والنقل، وقد فات عكرمة أن لو كان المراد بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] هو نفي الإحاطة بجميع أقطار الشيء، لم يكن وجه لاختصاصه به تعالى، فإن شيئاً من الأشياء الجسمانية ولها سطوح مختلفة الجهات، كالإنسان والحيوان وسائر الأجسام الأرضية والأجرام السماوية، لا يمس الحس الباصر منها إلا ما يواجه الشعاع الدائر بين الباصر والمبصر على ما تعينه قوانين الإبصار المدونة في أبحاث المناظر والمرايا.

• فإنا إذا أبصرنا إنساناً مثلاً، فإنما نبصر منه بعض السطوح الكثيرة المحيطة ببدنه من فوق وتحت والقدام والخلف واليمين واليسار مثلاً، ومن المحال أن يقع البصر على جميع ما يحيط به من مختلف

السطوح، فلو كان المراد من قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] نفي هذا السنخ من الإدراك البصري المحال فيه وفي غيره، كان كلاماً لا محصل له.

ج. وفي التوحيد بإسناده عن إسماعيل بن الفضل قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى هل يرى في المعاد؟ فقال: سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، يا ابن الفضل، إن الأبصار لا تدرك إلا ما له لون وكيفية، والله خالق الألوان والكيفيات.

٦٩. البصائر من الله والفوز لمن أبصر:

المقطع [٦٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٠٣»:

١. ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ومَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ قال في المجمع: (البصيرة البينة والدلالة التي يبصر بها الشيء على ما هو به والبصائر جمعها)، وقيل: البصيرة للقلب كالبصر للعين، والأصل في الباب على أي حال هو الإدراك بحاسة البصر الذي يعد أقوى الإدراكات، ونيلا من خارج الشيء المشهود، والإبصار والعمى في الآية هو العلم والجهل أو الإيمان والكفر توسعا.

٢. وكأنه تعالى يشير بقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى ما ذكره في الآيات السابقة من الحجج الباهرة على وحدانيته وانتفاء الشريك عنه، والمعنى أن هذه الحجج بصائر قد جاءتكم من جانب الله بالوحي إلي، والخطاب من قبل النبي ﷺ ثم ذكر للمخاطبين وهم المشركون أنهم على خيرة من أمر أنفسهم إن شاءوا أبصروا بها وإن شاءوا عموا عنها غير أن الإبصار لأنفسهم والعمى عليها.

٣. ومن هنا يظهر أن المراد بالحفظ عليهم رجوع أمر نفوسهم وتدبير قلوبهم إليه فهو إنما ينفي كونه حفيظا عليهم تكوينا وإنما هو ناصح لهم.

٤. والآية كالمعترضة بين الآيات السابقة والآية اللاحقة، وهو خطاب منه تعالى عن لسان نبيه كالرسول يأتي بالرسالة إلى قوم فيؤديها إليهم وفي خلال ما يؤديه يكلمهم من نفسه بما يهيجهم للسمع والطاعة ويحثهم على الانقياد بإظهار النصح ونفي الأغراض الفاسدة عن نفسه.

٧٠. تصريف الآيات وبيانها لقوم يعلمون:

المقطع [٧٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٠٤»:

١. ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَاتِ وِلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾، وقرئ: دارست بالخطاب و﴿دَرَسْتَ﴾ بالتأنيث والغيبة، قيل: إن التصريف هو إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه وجوه الفائدة.

٢. ﴿دَرَسْتَ﴾ من الدرس وهو التعلم والتعليم من طريق التلاوة، وعلى هذا المعنى قراءة دارست غير أن زيادة المباني تدل على زيادة المعاني وأما قراءة ﴿دَرَسْتَ﴾ بالتأنيث والغيبة فهو من الدروس بمعنى تعفي الأثر أي اندرست هذه الأقوال كقولهم: أساطير الأولين.

٣. والمعنى: على هذا المثال نصرف الآيات ونحوها بيانا لغايات كثيرة ومنها أن يستكمل هؤلاء الأشقياء شقوتهم فيتهموك يا محمد بأنك تعلمتها من بعض أهل الكتاب أو يقولوا: اندرست هذه الأقاويل وانقرض عهدها ولا نفع فيها اليوم، ولنبينه لقوم يعلمون بتطهير قلوبهم وشرح صدورهم به، وهذا كقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ ٱلظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ [الإسراء: ٨٢]

٧١. اتباع الوحي والإعراض عن المشركين وترك حسابهم لله:

المقطع [٧١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٦-١٠٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣١٣»:

١. ﴿اِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

أ. أمر باتباع ما أوحي إليه من ربه من أمر التوحيد وأصول شرائع الدين من غير أن يصده ما يشاهده من استكبار المشركين عن الخضوع لكلمة الحق والإعراض عن دعوة الدين.

ب. في قوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ المشعر بمزيد الاختصاص تلويح إلى شمول العناية الخاصة الإلهية إلا أن قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ لما كان ملحوقا بقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وكان ذلك ربما يوهم أن المراد: اتبع الوحي واعبد ربك، وأعرض عنهم يعبدوا أربابهم، ولا يخلو ذلك عن إمضاء لطريقتهم وشركهم قدم على قوله: ﴿وَأَعْرِضْ﴾، قوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ ليندفع به هذا الوهم، ويجلو معنى قوله: ﴿وَأَعْرِضْ﴾، ويأخذ موضعه.

ج. فالمعنى: اتبع ما أوحي إليك من ربك الذي له العناية البالغة بك والرحمة المشتملة عليك إذ خصك بوحيه وأيدك بروح الاتباع، وأعرض عن هؤلاء المشركين لا بأن تدعهم وما يعبدون وتسكت راضيا بما يشركون فيكون ذلك إمضاء للوثنية فإنما الإله واحد وهو ربك الذي يوحي إليك لا إله إلا هو بل أن تعرض عنهم فلا تجهد نفسك في حملهم على التوحيد ولا تتحمل شقا فوق طاقتك فإنما عليك البلاغ ولست عليهم بحفيظ ولا وكيل، وإنما الحفيظ الوكيل هو الله ولم يشأ لهم التوحيد ولو شاء ما أشركوا لكنه تركهم وضلالهم لأنهم أعرضوا عن الحق واستنكفوا عن الخضوع له.

٢. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تطييب لقلب النبي ﷺ أن لا يجد لشركهم ولا يحزن لخيبة المسعى في دعوتهم فإنهم غير معجزين لله فيما أشركوا فإنما المشية لله لو شاء ما أشركوا بل تلبسوا بالإيمان عن طوع ورغبة كما تلبس من وفق للإيمان:

أ. وذلك أنهم استكبروا في الأرض واستعلوا على الله ومكروا به وقد أهلكوا بذلك أنفسهم فرد الله مكرهم إليهم وحرمهم التوفيق للإيمان والاهتداء.

ب. إذ كما أن السنة الجارية في التكوين هي سنة الأسباب وقانون العلية والمعلولية العام، والمشية الإلهية إنما تتعلق بالأشياء وتقع على الحوادث على وفقها فما تمت فيه العلل والشرائط وارتفعت عن وجوده الموانع كان هو الذي تتعلق بتحققه المشية الإلهية وإن كان الله سبحانه له فيه المشية مطلقا إن لم يشأه لم يكن وإن شاء كان، كذلك السنة في نظام التشريع والهداية هي سنة الأسباب فمن استرحم الله رحمه ومن أعرض عن رحمته حرمه.

ج. والهداية بمعنى إراءة الطريق تعم الجميع فمن تعرض لهذه النفحة الإلهية ولم يقطع طريق وصولها إليه بالفسق والكفر والعناد شملته وأحيته بأطيب الحياة، ومن اتبع هواه وعاند الحق واستعلى على الله، وأخذ يمكر بالله ويستهزئ بآياته حرمه الله السعادة وأنزل الله عليه الشقوة وأضله على علم وطبع عليه بالكفر فلا ينجو أبدا.

د. ولولا جريان المشية الإلهية على هذه السنة بطل نظام الأسباب وقانون العلية والمعلولية وحلت الإرادة الجزافية محله ولغت المصالح والحكم والغايات، وأدى فساد هذا النظام إلى فساد نظام التكوين لأن التشريع ينتهي بالأخرة إلى التكوين بوجه ودبيب الفساد إليه يؤدي إلى فساد أصله.

هـ. وهذا كما أن الله سبحانه لو اضطر المشركين على الإيمان وخرج بذلك النوع الإنساني عن منشعب طريقي الإيمان والكفر، وسقط الاختيار الموهوب له ولازم بحسب الخلقة الإيمان، واستقر في أول وجوده على أريكة الكمال، وتساوى الجميع في القرب والكرامة كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوة ولغو التربية والتكميل، وارتفع الاختلاف بين الدرجات، وأدى ذلك إلى بطلان اختلاف الاستعدادات والأعمال والأحوال والملكات وانقلب بذلك النظام الإنساني وما يحيط به ويعمل فيه من نظام الوجود إلى نظام آخر لا خبر فيه عن إنسان أو ما يشعر به فافهم ذلك.

و. ومن هنا يظهر أن لا حاجة إلى حمل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ على الإيمان الاضطراري، وأن المراد أن لو شاء الله أن يتركوا الشرك قهرا وإجبارا لاضطرهم إلى ذلك وذلك أن الذي تقدم من أن المراد تعلق المشية الإلهية على تركهم الشرك اختيارا كما تعلقت بذلك في المؤمنين سواء هو الأوفق بكمال القدرة، والأنسب بتسلية النبي ﷺ وتطييب قلبه.

ز. فالمعنى: أعرض عنهم ولا يأخذك من جهة شركهم وجد ولا حزن فإن الله قادر أن يشاء منهم الإيمان فيؤمنوا كما شاء ذلك من المؤمنين فآمنوا، على أنك لست بمسئول عن أمرهم لا تكوينا ولا غيره فلتطب نفسك.

٣. ويظهر من ذلك أيضا أن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ أيضا مسوق سوق التسلية وتطييب النفس:

أ. وكأن المراد بالحفيظ القائم على إدارة شئون وجودهم كالحياة والنشوء والرزق ونحوها، وبالوكيل القائم على إدارة الأعمال ليجلب بذلك المنافع ويدفع المضار المتوجهة إلى الموكل عنه من ناحيتها فمحصل المراد بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ﴾، أن ليس إليك أمر حياتهم الكونية ولا أمر حياتهم الدينية حتى يحزنك ردهم لدعوتك وعدم إجابتهم إلى طلبتك.

ب. وربما يقال: إن المراد بالحفيظ من يدفع الضرر ممن يحفظه وبالوكيل من يجلب المنافع إلى من يتوكل عنه، ولا يخلو عن بعد فإن الحفيظ فيما يتبادر من معناه يختص بالتكوين والوكيل يعم التكوين وغيره، ولا كثير جدوى في حمل إحدى الجملتين على جهة تكوينية، والأخرى على ما يعمها وغيرها بل الوجه حمل الأولى على إحدى الجهتين، والأخرى على الأخرى.

٧٢. النهي عن سب آلهة المشركين لئلا يسبوا الله:

المقطع [٧٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣١٥»:

١. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

أ. السب معروف، قال الراغب في المفردات: (العدو التجاوز ومنافاة الالتيام فتارة يعتبر بالقلب فيقال له: العداوة والمعاداة، وتارة بالمشي فيقال له العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له العدوان والعدو قال: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وتارة بأجزاء المقر فيقال له العدواء يقال مكان ذو عدواء أي غير متلائم الأجزاء)

ب. الآية تذكر أدبا دينيا تصان به كرامة مقدسات المجتمع الديني وتتوقى ساحتها أن يتلوث بدرن الإهانة والإزراء بشنيع القول والسب والشتم والسخرية ونحوها فإن الإنسان مغروز على الدفاع عن كرامة ما يقدسه، والمقابلة في التعدي على من يحسبه متعديا إلى نفسه، وربما حمله الغضب على الهجر والسب لما له عنده أعلى منزلة العزة والكرامة فلو سب المؤمنون آلهة المشركين حملتهم عصبية الجاهلية أن يعارضوا المؤمنين بسب ما له عندهم كرامة الألوهية وهو الله عز اسمه ففي سب آلهتهم نوع تسبيب إلى ذكره تعالى بما لا يليق بساحة قدسه وكبريائه.

ج. وعموم التعليل المفهوم من قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ يفيد عموم النهي لكل قول سيئ يؤدي إلى ذكر شيء من المقدسات الدينية بالسوء بأي وجه أدى.

٢. وضع هنا مبحثا حول [قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ ودلالته على التزيين الإلهي والشيطاني]، خلاصته:

أ. بيان أن الزينة أمر جميل محبوب يُضم إلى الشيء ليجلب الرغبة إليه، والله زيّن للإنسان أعماله ووسائل حياته ليتمكن من العيش ويبلغ غاياته التكوينية.

ب. توضيح أن اللذائذ المادية والفكرية التي تزين الأعمال تنقسم إلى قسمين: ما هو طبيعي مغروز في الطبائع، وما هو فكري يصلح الحياة ولا يضر الآخرة، وكلاهما منسوب إلى الله.

ج. إثبات أن اللذائذ المنحرفة عن الفطرة التي توافق الهوى وتشقي في الدنيا والآخرة هي من تزيين الشيطان، ولا تنسب إلى الله إلا بالإذن التكويني لتمام الامتحان.

د. الرد على من زعم أن الله يدعو إلى الطاعة والمعصية معاً، وبيان أن الله لا يأمر بالفحشاء، وأن التشريع مبني على الفطرة السليمة.

هـ. نقد الأقوال المختلفة في تفسير الآية، وبيان أن التحقيق هو أن التزيين ينسب إلى الله بإذنه العام في نظام التكوين، وأنه لا ينافي الاختيار.

و. توضيح أن نسبة الإضلال والمكر إلى الله إنما تكون بعنوان المجازاة، لا بالابتداء.

٣. ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يؤيد ما تقدم أن حكم التزيين عام شامل لجميع الأعمال الباطنية كالإيمان والكفر والظاهرية كأعمال الجوارح الحسنة والسيئة فإن ظاهر الآية أن الإنسان إنما يقصد هذه الأعمال ويوقعها لأجل ما يرغب فيه من زينته غافلا عن الحقائق المستورة تحت هذه الزينات المضروب عليها بحجاب الغفلة ثم إذا رجعوا إلى ربهم نبأهم بحقيقة ما كانوا يعملونه، وعاينوا ما هم مصروفون عنه، أما أولياء الرحمن فوجدوا ما لم يكن يعلم مما أخفي لهم من قرة أعين، وأما أولياء الشيطان فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فظهور حقائق الأعمال يوم القيامة لا يختص بأحد القبيلين من الحسنات والسيئات.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: لما حضر أبا طالب الموت، قالت قريش: انطلقوا فلندخل على هذا الرجل، فنأمره أن ينهى عنا ابن أخيه، فإنا نستحيي أن نقتله بعد موته، فتقول العرب: كان يمنعه، فلما مات قتلوه، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحارث وأمية وأبي ابنا خلف وعقبة بن أبي معيط وعمرو بن العاصي والأسود بن البختري، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب، فقالوا: استأذن لنا على أبي طالب، فأتى أبا طالب فقال: هؤلاء مشيخة قومك يريدون الدخول عليك، فأذن لهم عليه، فدخلوا فقالوا: يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيدنا، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه وإلهه، فدعاه فجاءه النبي ﷺ، فقال له أبو طالب: هؤلاء قومك وبنو عمك، قال رسول الله ﷺ: ما يريدون؟ قالوا: نريد أن تدعنا وآلهتنا، ولندعك وإلهك، قال النبي ﷺ: أرأيتم إن أعطيتكم هذا، هل أنتم

معطي كلمة أن تكلمتم بها ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم الخراج؟ قال أبو جهل: وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها، فما هي؟ قال: قولوا لا إله إلا الله، فأبوا واشمأزوا، قال أبو طالب: قل غيرها، فإن قومك قد فزعوا منها، قال: يا عم، ما أنا بالذي أقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها في يدي، ولو آتوني بالشمس فيضعوها في يدي، ما قلت غيرها، إرادة أن يؤيسهم، فغضبوا وقالوا: لتكفن عن شتم آلهتنا، أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

• أقول: والرواية كما ترى لا يلائم ذيلها صدرها، فإن مقتضى صدرها أنهم كانوا يسألونه الكف عن آلهتهم، أي لا يدعو الناس إلى رفضها وترك التقرب إليها، حتى إذا يئسوا من إجابته، هددوه بشتم ربه إن شتم آلهتهم، وكان مقتضى جر الكلام أن يهددوه على دعوة إلى رفضها، لا أن يهملوا ذلك ويذكروا شتمه ويهددوه على ذلك، وليس في الآية إشارة إلى صدر القصة وهو أصلها.

• على أن وقار النبوة وعظيم الخلق الذي كان في عشرته ﷺ كان يمنعه من التفوه بالشتم الذي هو من لغو القول، والذي ورد من لعنه بعض صناديد قريش بقوله: (اللهم العن فلاناً وفلاناً)، وكذا ما ورد في كلامه تعالى من قبيل قوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ٤٦]، وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩]، وقوله: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ﴾ [عبس: ١٧]، وقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، ونظائر ذلك، فإنما هي من الدعاء دون الشتم الذي هو الذكر بالقبيح الشنيع للإهانة تخييلاً، والذي ورد من قبيل قوله تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٢-١٣]، فإنما هو من قبيل بيان الحقيقة، فالظاهر أن العامة من المؤمنين بالنبي ﷺ ربما أداهم المشاجرة والجدال مع المشركين إلى ذكر آلهتهم بالسوء، كما يقع كثيراً بين عامة الناس في مجادلاتهم، فنهاهم الله عن ذلك، كما يشير إليه الحديث الآتي.

ب. وفي تفسير القمي قال: حدثني أبي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن قول النبي ﷺ: (إن الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء)، فقال: كان المؤمنون يسبون ما يعبد المشركون من دون الله، فكان المشركون يسبون ما يعبد المؤمنون، فنهى الله المؤمنين عن سب آلهتهم، لكيلا يسب الكفار إله المؤمنين، فيكون المؤمنون قد أشركوا بالله من حيث لا يعلمون، فقال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

ج. وفي تفسير العياشي عن عمرو الطيالسي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ [الأنعام: ١٠٨] الآية، قال: فقال: يا عمرو، هل رأيت أحداً يسب الله؟ قال: فقلت: جعلني الله فداك، فكيف؟ قال: من سب ولي الله، فقد سب الله.

٧٣. المعاندون والإيمان والآيات:

المقطع [٧٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٢٠»:

١. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ الجهد بفتح الجيم الطاقة والأيمان جمع يمين وهي القسم، وجهد الأيمان أي ما تبلغه قدرتها وهو الطاقة، والمراد أنهم بالغوا في القسم وأكدوه ما استطاعوا، والمراد بكون الآيات عند الله كونها في ملكه وتحت سلطته لا ينالها أحد إلا بإذنه، فالمعنى: وأقسموا بالله وبالغوا فيه لئن جاءتهم آياته تدل على صدق النبي ﷺ فيما يدعو إليه ليؤمنن بتلك الآية وهذا اقتراح منهم للآية كناية قل إنما الآيات عند الله وهو الذي يملكها ويحيط بها وليس إلي من أمرها شيء حتى أجيبكم إليها من تلقاء نفسي.

٢. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. قرئ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بياء الغيبة وتاء الخطاب جميعا، والخطاب على القراءة الأولى للمؤمنين بنوع من الالتفات، وعلى القراءة الثانية للمشركين والكلام من تتمة قول النبي ﷺ وهو ظاهر.

ب. والظاهر أن ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ للاستفهام، والمعنى: وما هو الذي يفيد لكم العلم بواقع الأمر وهو أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم الآيات؟ فالكلام في معنى قولنا: هؤلاء يحلفون بالله لئن جاءتكم الآيات ليؤمنن بها فربما آمنتم وصدقتم بحلفهم وليس لكم علم بأنهم إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون بها لأن الله لم يشأ إيمانهم فالكلام من الملاحم.

ج. وربما قيل: إن (أن) في قوله: ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ﴾، بمعنى لعل وهذا معنى شاذ لا يحمل على مثله كلام الله لو ثبت لغة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: كلم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا: يا محمد، تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود كان لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله ﷺ: أي شيء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: فإن فعلت تصدقوني؟ قالوا: نعم والله، لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقام رسول الله ﷺ يدعو، فجاء جبرئيل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم، فقال: بل يتوب تائبهم، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩] إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]

• أقول: القصة المذكورة سبباً للنزول في الرواية لا تنطبق على ظاهر الآيات، فقد تقدم أن ظاهرها الإخبار عن أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات، وأنهم ليسوا بمفارقي الشرك وإن أتتهم كل آية ممكنة، حتى يشاء الله منهم الإيمان ولم يشأ ذلك، وإذا كان هذا هو الظاهر من الآيات، فكيف ينطبق على ما في الرواية من قول جبرئيل: (إن شئت صار ذهباً، فإن لم يؤمنوا عذبوا، وإن شئت فاتركهم حتى يتوب تائبهم)

• فالظاهر أن الآيات في معنى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، فكأن طائفة من صناديد المشركين اقترحوا آيات سوى القرآن، وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم ليؤمنن بها، فكذبهم الله بهذه الآيات وأخبر أنهم لن يؤمنوا، لأنه تعالى لم يشأ ذلك نكالاً عليهم.

ب. وفي تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية، يقول: وننكس قلوبهم، فيكون أسفل قلوبهم أعلاها، ونعمي أبصارهم فلا يبصرون الهدى، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: إن ما تغلبون عليه من الجهاد، الجهاد بأيديكم، ثم الجهاد بقلوبكم، فمن لم يعرف قلبه معروفاً ولم ينكر منكراً، نكس قلبه فجعل أسفله أعلاه، فلا يقبل خيراً أبداً.

• أقول: المراد بذلك تقلب النفس في إدراكها وانعكاس أحكامها من جهة اتباع الهوى والإعراض عن سليم العقل المعدل لمقترحات القوى الحيوانية الطاغية.

ج. وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام

عن قول الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠] إلى آخر الآية، أما قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فإنه حين أخذ عليهم الميثاق.

• أقول: سيأتي الكلام الفصل في الميثاق في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية، لكن تقدم أن ظاهر السياق أن المراد بعدم إيمانهم به أول مرة عدم إيمانهم بالقرآن في أول الدعوة.

٧٤. الله وتقليب الأفئدة والطغيان:

المقطع [٧٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٢٠»:

١. ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ظاهر السياق أن الجملة عطف على قوله: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ وهي بمنزلة التفسير لعدم إيمانهم، والمراد بقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الدعوة الأولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المرة الثانية التي هي الدعوة مع نزول الآيات.

٢. والمعنى أنهم لا يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات، وذلك أنا نقلب أفئدتهم فلا يعقلون بها كما ينبغي أن يعقلوه، وأبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مرة من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضة ونذرهم في طغيانهم يترددون ويتحيرون، هذا ما يقضي به ظاهر سياق الآية.

٣. وللمفسرين في الآية أقوال كثيرة غريبة لا جدوى في التعرض لها والبحث عنها، من شاء الاطلاع عليها فليراجع مظانها.

٧٥. المعاندون والإعراض عن عجائب الآيات:

المقطع [٧٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٢١»:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ بيان آخر لقوله: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾ وأن

قولهم: ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ دعوى كاذبة أجرأهم عليها جهلهم بمقام ربهم فليس في وسع الآيات التي يظنون أنها أسباب مستقلة في إيجاد الإيمان في قلوبهم وإقدارهم على التلبس به أن تودع في نفوسهم الإيمان إلا بمشية الله.

٢. فهذا السياق يدل على أن في الكلام حذفا وإيجازا، والمعنى: ولو أننا أجبناهم في مسألتهم وآتيناهم أعاجيب الآيات فنزلنا إليهم الملائكة فعاينوهم، وأحيينا لهم الموتى فواجهوهم وكلموهم وأخبروهم بصدق ما يدعون إليه، وحشرنا وجمعنا عليهم كل شيء قبيلا قبيلا وصنفا صنفا، أو حشرنا عليهم كل شيء قبلا ومواجهة فشهدوا لهم بلسان الحال أو القال، ما كانوا ليؤمنوا ولم يؤثر شيء من ذلك في استجابتهم للإيمان إلا أن يشاء الله إيمانهم، فلا يتم لهم الإيمان بشيء من الأسباب والعلل إلا بمشية الله فإن النظام الكوني على عرضه العريض وإن كان يجري على طبق حكم السببية وقانون العلية العام غير أن العلل والأسباب مفتقرة في أنفسها متدلية إلى ربها غير مستقلة في شيء من شئونها ومقتضياتها فلا يظهر لها حكم إلا بمشية الله ولا يحيى لها رسم إلا بإذنه، غير أن المشركين أكثرهم، ولعلهم غير العلماء الباغين منهم، يجهلون مقام ربهم ويتعلقون بالأسباب على أنها مستقلة في نفسها مستغنية عن ربها فيظنون أن لو أتاهم سبب الإيمان، وهو الآية المقترحة، آمنوا واتبعوا الحق وقد اختلط عليهم الأمر بجهلهم فأخذوا هذه الأسباب الناقصة المفتقرة إلى مشية الله أسبابا مستقلة تامة مستغنية عنه.

٧٦. الأنبياء والشياطين والوحي:

المقطع [٧٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٢٢»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الشياطين جمع شيطان وهو في اللغة الشرير غلب استعماله في إبليس الذي يصفه القرآن وذريته، والجن من الجن بالفتح وهو الاستتار، وهو في عرف القرآن نوع من الموجودات ذوات الشعور والإرادة مستور عن حواسنا بحسب طبعها وهم غير الملائكيذكر القرآن أن إبليس الشيطان من سنخهوالوحي هو

القول الخفي بإشارة ونحوها، والزخرف الزينة المزوقة أو الشيء المزوق فزخرف القول الكلام المزوق المموه الذي يشبه الحق وليس به، وغرورا مفعول مطلق لفعل مقدر من جنسه أو مفعول له.

ب. والمعنى: ومثل ما جعلنا لك جعلنا لكل نبي عدوا هم شياطين الإنس والجن يشير بعضهم إلى بعض، وكأن المراد وحي شياطين الجن بالوسوسة والنزغة إلى شياطين الإنس ووحي بعض شياطين الإنس إلى بعض آخر منهم بإسرار المكر والتسويل، بأقوال مزوقة وكلمات مموهة يغرونهم بذلك غرورا أو لغرورهم وإضلالهم بذلك.

٢. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ يشير بذلك إلى أن حكم المشية عام جار نافذ فكما أن الآيات لا تؤثر في إيمانهم شيئا إلا بمشية الله كذلك معاداة الشياطين الأنبياء ووحيهم زخرف القول غرورا كل ذلك بإذن الله ولو شاء الله ما فعلوه ولم يوحوا ذلك فلم يكونوا عدوا للأنبياء، وبهذا المعنى يتصل هذه الآية بما قبلها لاشتراكهما في بيان توقف الأمور على المشية.

٣. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾:

أ. تفريع على نفوذ المشية أي إذا كانت هذه المعاداة والإفساد بالوساوس كل ذلك بإذن الله ولم يكونوا بمعجزين لله في مشيته النافذة الغالبة فلا يحزنك ما تشاهد من إخلالهم بالأمر وإفسادهم له بل اتركهم وما يفترونه على الله من دعوى الشريك ونحوها.

ب. فقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ إلى آخر الآية في معنى قوله في صدر الآيات: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾

٤. والكلام في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾، حيث أسند ظاهرا جعلهم عدوا للأنبياء، وفيه التسبب إلى الشر والبعث إلى الشرك والمعصية، إلى الله سبحانه وهو منزه من كل شر وسوء نظير الكلام في إسناده تزيين الأعمال إلى الله سبحانه في قوله: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ وقد تقدم الكلام فيه، وكذا الكلام في ظاهر ما يفيده قوله في الآية التالية: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، حيث جعل هذه المظالم والآثام غايات إلهية للدعوة الحقة.

٥. وللمفسرين في هاتين الآيتين على حسب اختلاف مذاهبهم في انتساب الأعمال إلى الله سبحانه نظائر ما تقدم من أقوالهم في انتساب زينة الأعمال إليه تعالى، وقد عرفت أن الذي يفيده ظاهر الآية الكريمة

أن كل ما يصدق عليه اسم شيء فهو مملوك له تعالى منسوب إليه من غير استثناء لكن الآيات المنزهة لساحة قدسه تعالى من كل سوء وقبح تعطي أن الخيرات والحسنات جميعا مستندة إلى مشيته منسوبة إليه بلا واسطة أو معها، والشرور والسيئات مستندة إلى غيره تعالى كالشيطان والنفس بلا واسطة، وإنما تنتسب إليه تعالى بالإذن فهي مملوكة له تعالى واقعة بإذنه ليستقيم أمر الامتحان الإلهي ويتم بذلك أمر الدعوة الإلهية بالأمر والنهي والثواب والعقاب ولولا ذلك لبطلت ولغت السنة الإلهية في تسيير الإنسان كسائر الأنواع نحو سعادته في هذا العالم الكوني الذي لا سبيل فيه إلى الكمال والسعادة إلا بالسلوك التدريجي.

٦. ﴿وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الاقتراف هو الاكتساب، وضمير المفرد للوحي المذكور في الآية السابقة واللازم في قوله: ﴿لِتَصْغى﴾ للغاية والجملة معطوفة على مقدر، والتقدير: فعلنا ما فعلنا وشئنا ما شئنا ولم نمنع عن وحي بعضهم لبعض زخرف القول غرورا لغايات مستورة ولتصغى وتجيب إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليكتسبوا ما هم مكتسبون لينالوا بذلك جميعا ما يسألونه بلسان استعدادهم من شقاء الآخرة، فإن الله سبحانه يمد كلا من أهل السعادة وأهل الشقاء بما يتم به سيرهم إلى منازلهم ويرزقهم ما يقترحونه بلسان استعدادهم قال تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ومَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ٢٠]

٧٧. الحاكمية الإلهية والكتاب المفصّل:

المقطع [٧٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٢٨»:

١. ﴿أَفَغَيْرَ اَللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وهُوَ اَلَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ اَلْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾:

أ. قال في المجمع: (الحكم والحاكم بمعنى واحد إلا أن الحكم أمدح لأن معناه من يستحق أن يتحاكم إليه فهو لا يقضي إلا بالحق وقد يحكم الحاكم بغير حقال: ومعنى التفصيل تبيين المعاني بما ينفي التخليط المعمي للمعنى، وينفي أيضا التداخل الذي يوجب نقصان البيان عن المراد)

ب. في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اَللهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ تفريع على ما تقدم من البصائر التي جاءت من قبله تعالى، وقد ذكر قبل ذلك في القرآن أنه كتاب أنزله مبارك مصدق الذي بين يديه من التوراة والإنجيل، والمعنى:

أفغير الله من سائر من تدعون من الآلهة أو من ينتمي إليهم أطلب حكما يتبع حكمه وهو الذي أنزل عليكم هذا الكتاب وهو القرآن مفصلا متميزا بعض معارفه من بعض غير مختلط بعض أحكامه ببعض، ولا يستحق الحكم إلا من هو على هذه الصفة فالآية كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠] وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى﴾ [يونس: ٣٥]

٢. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ﴾، رجوع إلى خطاب النبي ﷺ بما يتأكد به يقينه ويزيد في ثبوت قدمه فيما ألقاه إلى المشركين من الخطاب المشعر بأن الكتاب النازل إليه منزل من ربه بالحق ففي الكلام التفات، وهو بمنزلة المعترضة ليزيد بذلك رسوخ قدمه واطمئنان قلبه وليعلم المشركون أنه على بصيرة من أمره.

٣. ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بقوله: ﴿مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ وكون التنزيل بالحق هو أن لا يكون بتنزيل الشياطين بالتسويل أو بطريق الكهانة كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢٢] أو بتخليط الشياطين بعض الباطل بالوحي الإلهي، وقد أمن الله رسول من ذلك بمثل قوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]

٧٨. كلمات الله والصدق والعدل والثبات:

المقطع [٧٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٢٩»:

١. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

أ. الكلمة، وهي ما دل على معنى تام أو غيره، ربما استعملت في القرآن في القول الحق الذي قاله الله عز من قائل من القضاء أو الوعد كما في قوله: ﴿وَلَوْ لاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩] يشير إلى قوله لآدم عند الهبوط: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: ٩٦] يشير إلى قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] وقد فسرها في موضع آخر بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] وكقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] يشير إلى ما وعدهم أنه سينجيهم من فرعون ويورثهم الأرض كما يشير إليه قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]

ب. وربما استعملت الكلمة في العين الخارجي كالإنسان مثلا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] والعناية فيه أنه عليه السلام خرق عادة التدريج وخلق بكلمة إلهية موجدة قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ ٱللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

ج. فظاهر سياق الآيات فيما نحن فيه يعطي أن يكون المراد بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ كلمة الدعوة الإسلامية وما يلازمها من نبوة محمد ﷺ ونزول القرآن المهيمن على ما تقدم عليه من الكتب السماوية المشتمل على جوامع المعارف الإلهية وكليات الشرائع الدينية كما أشار إليه فيما حكى من دعاء إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبة: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وأشار إلى تقدم ذكره في الكتب السماوية في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وبذلك يشعر قوله في الآية السابقة: ﴿وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] إلى غير من ذلك الآيات الكثيرة.

د. فالمراد بتمام الكلمة، والله أعلم، بلوغ هذه الكلمة أعني ظهور الدعوة الإسلامية بنبوة محمد ﷺ ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، مرتبة الثبوت واستقرارها في مستقر التحقق بعد ما كانت تسير دهرا طويلا في مدارج التدريج بنبوة بعد نبوة وشريعة بعد شريعة فإن الآيات الكريمة دالة على أن الشريعة الإسلامية تتضمن جمل ما تقدمت عليه من الشرائع وتزيد عليها بما ليس فيها كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى﴾ [الشورى: ١٣]

هـ. وبذلك يظهر معنى تمام الكلمة وأن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص إلى مرحلة الكمال، ومصداقه الدين المحمدي قال تعالى: ﴿وَٱللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ هُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالْهُدى ودِينِ اَلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى اَلدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ اَلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]

٢. وتمام هذه الكلمة الإلهية صدقا هو أن يصدق القول بتحققها في الخارج بالصفة التي بين بها، وعدلا أن تتصف بالتقسيط على سواء فلا يتخلف بعض أجزائه عن بعض وتزن الأشياء على النحو الذي من شأنها أن توزن به من غير إخسار أو حيف وظلم، ولذلك بين هذين القيدين أعني ﴿صِدْقاً وعَدْلاً﴾ بقوله ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ فإن الكلمة الإلهية إذا لم تقبل تبديلا من مبدل سواء كان المبدل هو نفسه تعالى كأن ينقض ما قضى بتبدل إرادة أو يخلف ميعاده، أو كان المبدل غيره تعالى كأن يعجزه غيره ويقهره على خلاف ما يريد كانت كلمته صدقا تقع كما قال، وعدلا لا تنحرف عن حالها التي كانت عليها وصفها الذي وصفت به فالجملة أعني قوله: ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ بمنزلة التعليل يعلل بها قوله: ﴿صِدْقاً وعَدْلاً﴾

٣. ومن أقوال المفسرين في الآية أن المراد بالكلمة والكلمات القرآن، وقيل: إن المراد بالكلمة القرآن، وبالكلمات ما فيه غير الشرائع فإنها تقبل التبديل بالنسخ والله سبحانه يقول: ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ وقيل: المراد بالكلمة الدين، وقيل: المراد الحجة، وقيل: الصدق ما كان في القرآن من الأخبار والعدل ما فيه من الأحكام، هذا.

٤. ﴿وَهُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ﴾ أي السميع المستجيب لما تدعونه بلسان حاجتكم، العليم بحقيقة ما عندكم من الحاجة، أو السميع بما يحدث في ملكه بواسطة الملائكة الرسل، والعليم بذلك من غير واسطة، أو السميع لأقوالكم، العليم بأفعالكم.

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن أبي اليمان جابر بن عبد الله قال: دخل النبي ﷺ المسجد الحرام يوم فتح مكة ومعه مخصرة، ولكل قوم صنم يعبدونه، فجعل يأتيها صنماً صنماً، ويطعن في صدر الصنم بعصا ثم يعقره، كلما صرع صنماً، أتبعه الناس ضرباً بالفئوس حتى يكسرونه ويطرحونه خارجاً من المسجد، والنبي ﷺ يقول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]

ب. أخرج ابن مردويه وابن النجار عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، قال: لا إله إلا الله.

ج. وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مروان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الإمام

ليسمع في بطن أمه، فإذا ولد خط بين كتفيه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فإذا صار الأمر إليه، جعل الله له عموداً من نور يبصر به ما يعمل أهل كل بلدة.

• أقول: وروي هذا المعنى بطرق أخرى عن عدة من أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام، ورواه أيضاً القمي والعياشي في تفسيريهما عنه عليه السلام، وفي بعضها: أن الآية تكتب بين عينيه، وفي بعضها: على عضده الأيمن.

• واختلاف مورد الكتابة في الروايات يكشف عن أن المراد بها القضاء بظهور الحكم الإلهي به عليه السلام، واختلاف ما كتب عليه لاختلاف الاعتبار، فكأن المراد بكتابتها فيما بين عينيه جعلها وجهة له يتوجه إليها، وبكتابتها بين كتفيه حملها عليه وإظهاره وتأييده بها، وبكتابتها على عضده الأيمن جعلها طابعاً على عمله وتقويته وتأييده بها.

• وهذه الرواية والروايتان السابقتان عليها تؤيد ما قدمناه، أن ظاهر الآية كون المراد بتمام الكلمة ظهور الدعوة الإسلامية، بما يلازمها من نبوة محمد ﷺ ونزول القرآن والإمامة من ذلك.

٧٩. الأكثرية والضلال واتباع الظن:

المقطع [٧٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٦-١١٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٣١»:

١. ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اَللَّهِ﴾:

أ. الخرص الكذب والتخمين، والمعنى الثاني هو الأنسب بسياق الآية فإن الجملة أعني قوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ والتي قبلها أعني قوله: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ﴾ واقعتان موقع التعليل لقوله: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي اَلْأَرْضِ﴾، واتباع الظن والقول بالخرص والتخمين سببان بالطبع للضلال في الأمور التي لا يسوغ الاعتماد فيها إلا على العلم واليقين كالمعارف الراجعة إليه تعالى والشرائع المأخوذة من قبله.

ب. وسير الإنسان وسلوكه الحيوي في الدنيا وإن كان لا يتم دون الركون إلى الظن والاستمداد من التخمين حتى أن الباحث عن علوم الإنسان الاعتبارية والعلل والأسباب التي تدعوه إلى صوغه لها

وتقليبها في قالب الاعتبار، وارتباطها بشئونه الحيوية وأعماله وأحواله لا يكاد يجد مصداقا يركن الإنسان فيه إلى العلم الخالص واليقين المحض اللهم إلا بعض الكليات النظرية التي ينتهي إليها مما يضطر إلى الإذعان بها والاعتماد عليها.

ج. إلا أن ذلك كله فيما يقبل التقريب والتخمين من جزئيات الأمور في الحياة، وأما السعادة الإنسانية التي فيه فوز هذا النوع وفلاحه، والشقاء الذي يرتبط به الهلاك الأبدي والخسران الدائم، وما يتوقف عليه التبصر فيهما من النظر في العالم وصانعه والغرض من إيجاده وما ينتهي إليه الأمر من البعث والنشور وما يتعلق به من النبوة والكتاب والحكم فإن ذلك كله مما لا يقبل الركون إلى الظن والتخمين والله سبحانه لا يرتضي من عباده في ذلك إلا العلم واليقين، والآيات في ذلك كثيرة جدا كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ومن أوضحها دلالة هذه الآية التي نحن فيها يبين فيها أن أكثر أهل الأرض لركونهم العام إلى الظن والتخمين لا يجوز طاعتهم فيما يدعون إليه ويأمرون به في سبيل الله وطريق عبوديته لأن الظن ليس مما يكشف به الحق الذي يستراح إليه في أمر الربوبية والعبودية لملازمته الجهل بالواقع وعدم الاطمئنان إليه، ولا عبودية مع الجهل بالرب وما يريده من عبده.

د. فهذا هو الذي يقضي به العقل الصريح، وقد أمضاه الله سبحانه كما في قوله في الآية التالية في معنى تعليل النهي عن الطاعة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ حيث علل الحكم بعلم الله دون حكم العقل، وقد جمع سبحانه بين الطريقين جميعا في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ وإِنَّ اَلظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ اَلْحَقِّ شَيْئاً﴾ وهذا أخذ بحكم العقل، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا ولَمْ يُرِدْ إِلاَّ اَلْحَيَاةَ اَلدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ اَلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اِهْتَدى﴾ [النجم: ٣٠] وفي ذيل الآية استناد إلى علم الله سبحانه وحكمه.

٢. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾:

أ. ذكروا أن ﴿أَعْلَمُ﴾ إذا لم يتم بمن ربما أفاد معنى التفضيل وربما استعمل بمعنى الصفة خالية عن التفضيل، والآية تحتمل المعنيين جميعا فإن أريد حقيقة العلم بالضالين والمهتدين فهو لله سبحانه لا يشاركه فيها أحد حتى يفضل عليه، وإن أريد مطلق العلم أعم مما كان المتصف به متصفا بذاته أو كان اتصافه به بعطية منه تعالى كان المتعين هو معنى التفضيل فإن لغيره تعالى علما بالضال والمهتدي قدر ما

أفاضه الله عليه من العلم.

ب. وتعدي أعلم بالباء في قوله: ﴿أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يدل على أن قوله: ﴿مَنْ يَضِلُّ﴾ منصوب بنزع الخافض والتقدير: (أعلم بمن يضل) ويؤيده ما نقلناه آنفا من آية سورة النجم.

٨٠. الأكل مما ذكر اسم الله عليه والتفصيل في المحرمات:

المقطع [٨٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨-١١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٣٣»:

١. ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. لما تمهد ما قدمه من البيان الذي هو حجة على أن الله سبحانه هو أحق بأن يطاع من غيره استنتج منه وجوب الأخذ بالحكم الذي شرعه وهو الذي يدل عليه هذه الآية، ووجوب رفض ما يبيحه غيره بهواه من غير علم ويجادل المؤمنين فيه بوحي الشياطين إليه، وهو الذي يدل عليه قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ﴾

ب. ومن هنا يظهر أن العناية الأصلية متعلقة بجملتين من بين الجمل المتسقة في الآية إلى تمام أربع آيات، وسائر الجمل مقصودة بتبعها يبين بها ما يتوقف عليه المطلوب بجهاته فأصل الكلام: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه أي فرقوا بين المذكى والميتة فكلوا من هذه ولا تأكلوا من ذاك، وإن كان المشركون يجادلونكم في أمر التفريق، فقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهَّ﴾ تفريع للحكم على البيان السابق، ولذا أردفه بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ والمراد بما ذكر اسم الله عليه الذبيحة المذكاة.

٢. ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ﴾:

أ. بيان تفصيلي لإجمال التفريع الذي في الآية السابقة، والمعنى: أن الله فصل لكم ما حرم عليكم واستثنى صورة الاضطرار وليس فيما فصل لكم ما ذكر اسم الله عليه فلا بأس بأكله وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين المتجاوزين عن حدوده وهؤلاء هم المشركون القائلون: لا فرق بين ما قتلتموه أنتم وما قتله الله فكلوا الجميع أو دعوا الجميع.

ب. ويظهر بما مر أن معنى قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا﴾ ما لكم من نفع في أن لا تأكلوا، وما للاستفهام التعجيبي، وقيل: المعنى ليس لكم أن لا تأكلوا، وما للنفي.

ج. ويظهر من الآية أن محرمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام وقد وقعت في سورة النحل من السور المكية فهي نازلة قبل الأنعام.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨] الآية، عن محمد بن مسلم قال: سألته عن الرجل يذبح الذبيحة، فيهلل أو يسبح أو يحمد أو يكبر، قال: هذا كله من أسماء الله.

ب. وفيه عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن ذبيحة المرأة والغلام هل تؤكل؟ قال: نعم، إذا كانت المرأة مسلمة وذكرت اسم الله، حلت ذبيحتها، وإذا كان الغلام قوياً على الذبح وذكر اسم الله، حلت ذبيحته، وإن كان الرجل مسلماً فنسي أن يسمي، فلا بأس بأكله إذا لم تتهمه.

• أقول: وفي هذه المعاني أخبار من طرق أهل السنة.

٨١. النهي عن ظاهر الإثم وباطنه:

المقطع [٨١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٣٣»:

١. ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ اَلْإِثْمِ وبَاطِنَهُ﴾:

أ. وإن كانت مطلقة بحسب المضمون تنهى عن عامة الإثم ظاهره وباطنه غير أن ارتباطها بالسياق المتصل الذي لسابقتها ولاحقتها يقضي بكونها تمهيدا للنهي الآتي في قوله: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اِسْمُ اَللهَّ عَلَيْهِ وإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ ولازم ذلك أن يكون الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من مصاديق الإثم حتى يرتبط بالتمهيد السابق عليه فهو من الإثم الظاهر أو الباطن لكن التأكيد البليغ الذي في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ يفيد أنه من الإثم الباطن وإلا لم تكن حاجة إلى تأكيده ذاك التأكيد الأكيد.

ب. وبهذا البيان يظهر أن المراد بظاهر الإثم المعصية التي لا ستر على شؤم عاقبته ولا خفاء في

شناعة نتيجته كالشرك والفساد في الأرض والظلم، وبباطن الإثم ما لا يعرف منه ذلك في بادئ النظر كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وإنما يتميز هذا النوع بتعريف إلهي وربما أدركه العقل، هذا هو الذي يعطيه السياق من معنى ظاهر الإثم وباطنه.

٢. وللمفسرين في تفسيرهما أقوال أخر، من ذلك: أن ظاهر الإثم وباطنه هما المعصية في السر والعلانية، وقيل: أريد بالظاهر أفعال الجوارح، وبالباطن أفعال القلوب، وقيل: الظاهر من الإثم هو الزنا، والباطن اتخاذ الأخدان، وقيل: ظاهر الإثم نكاح امرأة الأب، وباطنه الزنا، وقيل: ظاهر الإثم الزنا الذي أظهر به، وباطنه الزنا إذا استسر به صاحبه على ما كان يراه أهل الجاهلية من العرب أن الزنا لا بأس به إذا لم يتجاهر به، وإنما الفحشاء هو الذي أظهره صاحبه، وهذه الأقوال، كما ترى، على أن جميعها أو أكثرها لا دليل عليها يخرج الآية عن حكم السياق.

٣. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُوا يَقۡتَرِفُونَ﴾ تعليل للنهي وإنذار بالجزاء السيئ.

٨٢. النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه ووسوسة الشياطين:

المقطع [٨٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوا مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ اسۡمُ اللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُ لَفِسۡقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَائِهِمۡ لِيُجَادِلُوكُمۡ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٣٤»:

١. ﴿وَلَا تَأۡكُلُوا مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ اسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ نهي هو زميل قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ كما تقدم.

٢. ﴿وَإِنَّهُ لَفِسۡقٌ﴾ إلى آخر الآية، بيان لوجه النهي وتثبيت له أما قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسۡقٌ﴾ فهو تعليل والتقدير: إنه لفسق وكل فسق يجب اجتنابه فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه واجب الاجتناب.

٣. وأما قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَائِهِمۡ لِيُجَادِلُوكُمۡ﴾ ففيه رد ما كان المشركون يلقونه إلى المؤمنين من الشبهة، والمراد بأولياء الشياطين هم المشركون، ومعناه أن ما يجادلكم به المشركون وهو قولهم: إنكم تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتله الله يعنون الميتة، هو مما أوحاه إليهم الشياطين من باطل القول، والفارق أن أكل الميتة فسق دون أكل المذكى، وأن الله حرم أكل الميتة ولم يحرم أكل المذكى فليس فيما حرمه الله ذكر ما ذكر اسم الله عليه.

٤. وأما قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ فهو تهديد وتخويف بالخروج من الإيمان، والمعنى: إن أطعتم المشركين في أكل الميتة الذي يدعونكم إليه صرتم مشركين مثلهم إما لأنكم استننتم بسنة المشركين، أو لأنكم بطاعتهم تكونوا أولياء لهم فتكونون منهم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]

٥. ووقوع هذه الجملة أعني قوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾، في ذيل النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه دون الأمر بأكل ما ذكر اسم الله عليه يدل على أن المشركين كانوا يريدون من المؤمنين بجدالهم أن لا يتركوا أكل الميتة لا أن يتركوا أكل المذكى.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن حمران قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول في ذبيحة الناصب واليهودي: لا تأكل ذبيحته حتى تسمعه يذكر اسم الله، أما سمعت قول الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]؟

ب. أخرج أبو داود والبيهقي في سننه وابن مردويه عن ابن عباس: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فنسخ واستثنى من ذلك فقال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]

• أقول: وروي النسخ عن أبي حاتم عن مكحول، وقد تقدم في أول المائدة: أن الآية إن نسخت فإنها تنسخ اشتراط الإسلام في المذكي ـ اسم فاعل ـ دون وجوب التسمية، إذ لا نظر لها إليه ولا تنافي بين الآيتين في ذلك، وللمسألة ارتباط بالفقه.

٨٣. المؤمن حي بنور الله والكافر في الظلمات:

المقطع [٨٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٣٧»:

١. ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾:

أ. الآية واضحة المعنى وهي بحسب ما يسبق إلى الفهم البسيط الساذج مثل مضروب لكل من

المؤمن والكافر يظهر بالتدبر فيه حقيقة حاله في الهدى والضلال:

ب. فالإنسان قبل أن يمسه الهدى الإلهي كالميت المحروم من نعمة الحياة الذي لا حس له ولا حركة فإن آمن بربه إيمانا يرتضيه كان كمن أحياه الله بعد موته، وجعل له نورا يدور معه حيث دار يبصر في شعاعه خيره من شره ونفعه من ضره فيأخذ ما ينفعه ويدع ما يضره وهكذا يسير في مسير الحياة.

ج. وأما الكافر فهو كمن وقع في ظلمات لا مخرج له منها ولا مناص له عنها ظلمة الموت وما بعد ذلك من ظلمات الجهل في مرحلة تمييز الخير من الشر والنافع من الضار.

د. ونظير هذه الآية في معناها بوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]

هـ. ففي الكلام استعارة الموت للضلال واستعارة الحياة للإيمان أو الاهتداء والإحياء للهداية إلى الإيمان والنور للتبصر بالأعمال الصالحة، والظلمة للجهل كل ذلك في مستوى التفهيم والتفهم العموميين لما أن أهل هذا الظرف لا يرون للإنسان بما هو إنسان حياة وراء الحياة الحيوانية التي هي المنشأ للشعور باللذائذ المادية والحركة الإرادية نحوها.

و. فهؤلاء يرون أن المؤمن والكافر لا يختلفان في هذه الموهبة وهي فيهما شرع سواء فلا محالة عد المؤمن حيا بحياة الإيمان ذا نور يمشي به في الناس، وعد الكافر ميتا بميتة الضلال في ظلمات لا مخرج منها ليس إلا مبتنيا على عناية تخييلية واستعارة تمثيلية يمثل بها حقيقة المعنى المقصود.

٢. لكن التدبر في أطراف الكلام والتأمل فيما يعرفه القرآن الكريم يعطي للآية معنى وراء هذا الذي يناله الفهم العامي:

أ. فإن الله سبحانه ينسب للإنسان الإلهي في كلامه حياة خالدة أبدية لا تنقطع بالموت الدنيوي هو فيها تحت ولاية الله محفوظ بكلاءته مصون بصيانته لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا يذله شقاء ولا تعب، مستغرق في حب ربه مبتهج ببهجة القرب لا يرى إلا خيرا، ولا يواجه إلا سعادة وهو في أمن وسلام لا خوف معه ولا خطر، وسعادة وبهجة ولذة لا نفاذ لها ولا نهاية لأمدها، ومن كان هذا شأنه فإنه يرى ما لا يراه الناس، ويسمع ما لا يسمعونه، ويعقل ما لا يعقلونه، ويريد ما لا يريدونه وإن كانت ظواهر أعماله

وصور حركاته وسكناته تحاكي أعمال غيره وحركاتهم وسكناتهم وتشابهها فله شعور وإرادة فوق ما لغيره من الشعور والإرادة فعنده من الحياة التي هي منشأ الشعور والإرادة ما ليس عند غيره من الناس فللمؤمن مرتبة من الحياة ليست عند غيره.

ب. فكما أن العامة من الإنسان في عين أنها تشارك سائر الحيوان في الشعور بواجبات الحياة والحركة الإرادية نحوها، ويشاركها الحيوان لكنا مع ذلك لا نشك أن الإنسان نوع أرقى من سائر الأنواع الحيوانية وله حياة فوق الحياة التي فيها لما نرى في الإنسان آثاره العجيبة المترشحة من أفكار الكلية وتعقلاته المختصة به، ولذلك نحكم في الحيوان إذا قسناه إلى النبات وفي النبات إذا قسناه إلى ما قبله من مراتب الكون أن لكل منهما كعبا أعلى وحياة هي أرقى من حياة ما قبله.

ج. فلنقض في الإنسان الذي أوتي العلم والإيمان واستقر في دار الإيقان واشتغل بربه وفرغ واستراح من غيره وهو يشعر بما ليس في وسع غيره ويريد ما لا يناله سواه أن له حياة فوق حياة غيره، ونورا يستمد به في شعوره، وإرادة لا توجد إلا معه وفي ظرف حياته.

د. يقول الله سبحانه: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] فلهم الحياة لكنها بطبعها طيبة وراء مطلق الحياة، ويقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] فيثبت لهم أمثال القلوب والأعين والآذان التي في المؤمنين لكنه ينفي كمال آثارها التي في المؤمنين، ولم يكتف بذلك حتى أثبت لهم روحا خاصا بهم فقال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

هـ. فتبين بذلك أن للحياة وكذا للنور حقيقة في المؤمن واقعية وليس الكلام جاريا على ذاك التجوز الذي لا يتعدى مقام العناية اللفظية فما في خاصة الله من المؤمنين من الصفة الخاصة بهم أحق باسم الحياة مما عند عامة الناس من معنى الحياة كما أن حياة الإنسان كذلك بالنسبة إلى حياة الحيوان، وحياة الحيوان كذلك بالنسبة إلى حياة النبات.

و. فقوله: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي ضالا من حيث نفسه أو ضالا كافرا قبل أن يؤمن بربه وهو نوع من الموت فأحييناه بحياة الإيمان أو الهداية والمال واحد وجعلنا له نورا أي علما متولدا من إيمانه كما قال ﷺ فيما رواه الفريقان: (من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم أو علمه الله ما لم يعلم)، فإن روح

الإيمان إذا تمكنت من نفس الإنسان واستقرت فيها حولت الآراء والأعمال إلى صور تناسبها ولا تخالفها وكذلك سائر الملكات أعم من الفضائل والرذائل إذا استقرت في باطن الإنسان لم تلبث دون أن تحول آراءه وأعماله إلى أشكال تحاكيها.

٣. وربما قيل: إن المراد بالنور هو الإيمان أو القرآن وهو بعيد من السياق، وهذا النور أثره في المؤمن أنه ﴿يَمْشِي بِهِ فِي اَلنَّاسِ﴾ أي يتبصر به في مسير حياته الاجتماعية المظلمة ليأخذ من الأعمال ما ينفعه في سعادة حياته، ويترك ما يضره.

٤. فهذا هو حال المؤمن في حياته ونوره فهل هو ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ﴾ ووصفه أنه ﴿فِي اَلظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الضلال وفقدان نور الإيمان ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ لأن الموت لا يستتبع آثار الحياة البتة فلا مطمع في أن يهتدي الكافر إلى أعمال تنفعه في أخراه وتسعده في عقباه.

٥. وقد ظهر مما تقدم أن قوله: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي اَلظُّلُمَاتِ﴾، في تقدير: هو في الظلمات ليس بخارج منها، ففي الكلام مبتدأ محذوف هو الضمير العائد إلى الموصول، وقيل: التقدير: كمن مثله مثل من هو في الظلمات، ولا بأس به لولا كثرة التقدير.

٦. ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ظاهر سياق صدر الآية أن يكون التشبيه في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ من قبيل تشبيه الفرع بالأصل بعناية إعطاء القاعدة الكلية كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اَللهُ اَلْحَقَّ وَاَلْبَاطِلَ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اَللهُ اَلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧] أي اتخذ ما ذكرناه من المثل أصلا وقس عليه كل ما عثرت به من مثل مضروب فمعنى قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ﴾، على هذا المثال المذكور أن الكافر لا مخرج له من الظلمات، زين للكافرين أعمالهم فقد زينت لهم أعمالهم زينة تجذبهم إليها وتحبسهم ولا تدعهم يخرجوا منها إلى فضاء السعادة وفسحة النور أبدا والله لا يهدي القوم الظالمين، وقيل: (إن وجه التشبيه في قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ﴾، أنه زين لهؤلاء الكفر فعملوه مثل ما زين لأولئك الإيمان فعملوه، فشبه حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه) وهو بعيد من سياق الصدر.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي بإسناده عن زيد قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فقال: ميت لا يعرف شيئاً،

﴿نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾، إماماً يأتم به، ﴿كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، قال: الذي لا يعرف الإمام.

• أقول: وهو من قبيل الجري والانطباق، فسياق الآية يأبى إلا أن تكون الحياة هي الإيمان، والنور هو الهداية الإلهية إلى القول الحق والعمل الصالح.

• وقد روى السيوطي في الدر المنثور عن زيد بن أسلم: أن الآية نزلت في عمار بن ياسر، وروي أيضاً عن ابن عباس وزيد بن أسلم: أنها نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل بن هشام، والسياق يأبى كون الآية خاصة.

٨٤. القرى وأكابر المجرمين والمكر:

المقطع [٨٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٤١»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾:

أ. كأن المراد بالآية أنا أحيينا جمعا وجعلنا لهم نورا يمشون به في الناس، وآخرين لم نحيهم فمكثوا في الظلمات فهم غير خارجين منها ولا أن أعمالهم المزينة تنفعهم وتخلصهم منها كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها بالدعوة الدينية والنبي والمؤمنين لكنه لا ينفعهم فإنهم في ظلمات لا يبصرون بل إنما يمكرون بأنفسهم ولا يشعرون.

ب. وعلى هذا فقوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مسوق لبيان أن أعمالهم المزينة لهم لا تنفعهم في استخلاصهم من الظلمات التي هم فيها، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، مسوق لبيان أن أعمالهم ومكرهم لا يضر غيرهم إنما وقع مكرهم على أنفسهم وما يشعرون لمكان ما غمرهم من الظلمة.

ج. وقيل: (معنى التشبيه في الآية أن مثل ذلك الذي قصصنا عليك زين للكافرين عملهم، ومثل ذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها، وجعلنا ذا المكر من المجرمين كما جعلنا ذا النور من المؤمنين فكل ما فعلنا بهؤلاء فعلنا بهم إلا أن أولئك اهتدوا بحسن اختيارهم وهؤلاء ضلوا بسوء اختيارهم لأن في كل

واحد منهما الجعل بمعنى الصيرورة إلا أن الأول باللطف والثاني بالتمكين من المكر) ولا يخلو من بعد من السياق.

د. والجعل في قوله: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ كالجعل في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾ فالأنسب أنه بمعنى الخلق، والمعنى: خلقنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وكون مكرهم غاية للخلقة وغرضا للجعل نظير كون دخول النار غرضا إلهيا في قوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ اَلْجِنِّ وَاَلْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقد مر الكلام في معنى ذلك في مواضع من هذا الكتاب.

هـ. وإنما خص بالذكر أكابر مجرميها لأن المطلوب بيان رجوع المكر إلى ما كره، والمكر بالله وآياته إنما يصدر منهم، وأما أصاغر المجرمين وهم العامة من الناس فإنما هم أتباع وأذناب.

٢. وأما قوله: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ فذلك أن المكر هو العمل الذي يستبطن شرا وضرا يعود إلى الممكور به فيفسد به غرضه المطلوب ويضل به سعيه ويبطل نجاح عمله، ولا غرض لله سبحانه في دعوته الدينية، ولا نفع فيها إلا ما يعود إلى نفس المدعوين فلو مكر الإنسان مكرا بالله وآياته ليفسد بذلك الغرض من الدعوة ويمنع عن نجاح السعي فيها فإنما مكر بنفسه من حيث لا يشعر: واستضر بذلك هو نفسه دون ربه.

٨٥. اعتراض المشركين على اصطفاء الله للرسل:

المقطع [٨٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٤٢»:

١. ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ إلى قوله: ﴿رِسَالَتَهُ﴾:

أ. قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اَللهِ﴾ يريدون به أن يؤتوا نفس الرسالة بما لها من مواد الدعوة الدينية دون مجرد المعارف الدينية من أصول وفروع وإلا كان اللفظ المناسب له أن يقال: (مثل ما أوتي أنبياء الله) أو ما يشاكل ذلك كقولهم: ﴿لَوْ لاَ يُكَلِّمُنَا اَللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] وقولهم: ﴿لَوْ لاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا اَلْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]

ب. فمرادهم أنا لن نؤمن حتى نؤتى الرسالة كما أوتيها الرسل، وفيه شيء من الاستهزاء فإنهم ما

كانوا قائلين بالرسالة فهو بوجه نظير قولهم: ﴿لَوْ لاَ نُزِّلَ هَذَا اَلْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ اَلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] كما أن جوابه نظير جوابه وهو قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢] كقوله: ﴿اَللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

٢. ومما تقدم يظهر أن الضمير في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا﴾، عائد إلى ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ في الآية السابقة، إذ لو رجع إلى عامة المشركين لغا قولهم: ﴿حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اَللهِ﴾ إذ لا معنى لرسالة جميع الناس حيث لا أحد يرسلون إليه، ولم يقع قوله: ﴿اَللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ موقعه بل كان حق الجواب أنه لغو من القول كما عرفت، ويؤيده الوعيد الذي في ذيل الآية: ﴿سَيُصِيبُ اَلَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اَللهِ وعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ حيث وصفهم بالإجرام وعلل الوعيد بمكرهم، ولم ينسب المكر في الآية السابقة إلا إلى أكابر مجرميها، والصغار الهوان والذلة.

٨٦. شرح الصدر للإسلام وضيق صدور الضالين:

المقطع [٨٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٤٢»:

١. ﴿فَمَنْ يُرِدِ اَللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾:

أ. الشرح هو البسط وقد ذكر الراغب في مفرداته، أن أصله بسط اللحم ونحوه، وشرح الصدر الذي يعد في الكلام وعاء للعلم والعرفان هو التوسعة فيه بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقة ولا يدفع كلمة الحق إذا ألقيت إليه كما يدل عليه ما ذكر في وصف الإضلال بالمقابلة وهو قوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾

ب. فمن شرح الله صدره للإسلام وهو التسليم لله سبحانه فقد بسط صدره ووسعه لتسليم ما يستقبله من قبله تعالى من اعتقاد حق أو عمل ديني صالح فلا يلقي إليه قول حق إلا وعاه ولا عمل صالح إلا أخذ به وليس إلا أن لعين بصيرته نورا يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه خلاف من عميت عين قلبه فلا يميز حقا من باطل ولا صدقا من كذب قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى اَلْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى اَلْقُلُوبُ اَلَّتِي فِي اَلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]

ج. وقد بين تعالى شرح الصدر بهذا البيان في قوله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اَللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اَللهِ﴾ فوصفه فعرفه بأن صاحبه راكب نور من الله يشرق قدامه في مسيره ثم عرفه بالمقابلة بلينة في القلب يقبل به ذكر الله ولا يدفعه لقسوة ثم قال: ﴿اَللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ اَلْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ اَلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اَللهِ ذَلِكَ هُدَى اَللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُضْلِلِ اَللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] فذكر لين القلب إلى ذكر الله وطوعه للحق وأفاد أن ذلك هو الهدى الإلهي الذي يهدي به من يشاء، وعند ذلك يرجع الآيتان أعني آية الزمر والآية التي نحن فيها إلى معنى واحد وهو أن الله سبحانه عند هدايته عبدا من عباده يبسط صدره فيسع كل اعتقاد حق وعمل صالح ويقبله بلين ولا يدفعه بقسوة وهو نوع من النور المعنوي الذي ينور القول الحق والعمل الصالح وينصر صاحبه فيمسك بها نوره فهذا معرف يعرف به الهداية الإلهية.

د. ومن هنا يظهر أن الآية أعني قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اَللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ﴾ بمنزلة بيان آخر لقوله: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي اَلنَّاسِ﴾ والتفريع الذي في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اَللهُ﴾ من قبيل تفريع أحد البيانين على الآخر بدعوى أنه نتيجته كأن التصادق بين البيانين يجعل أحدهما نتيجة مترتبة وفرعا متفرعا على الآخر، وهو عناية لطيفة.

هـ. والمعنى: فإذا كان من أحياه الله بعد ما كان ميتا على هذه الصفة وهي أنه على نور من ربه يستضيء به له واجب الاعتقاد والعمل فيأخذ به فمن يرد الله أن يهديه يوسع صدره لأن يسلم لربه ولا يستنكف عن عبادته فالإسلام نور من الله، والمسلمون لربهم على نور من ربهم.

٢. ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾:

أ. الإضلال مقابل الهداية، ولذا كان أثره مقابلا لأثرها وهو التضييق المقابل للشرح والتوسعة وأثره أن لا يسع ما يتوجه إليه من الحق والصدق، ويتحرج عن دخولها فيه، ولذا أردف كون الصدر ضيقا بكونه حرجا، والحرج على ما في المجمع، أضيق الضيق، وقال في المفردات: (أصل الحرج والحراج مجتمع الشيء وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج وللإثم حرج)

ب. فقوله: ﴿حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي اَلسَّمَاءِ﴾ في محل التفسير لقوله: ﴿ضَيِّقاً﴾ وإشارة إلى أن ذلك نوع من الضيق يناظر بوجه التضييق والتحرج الذي يشاهد من الظروف والأوعية إذا أريد إدخال ما هو

أعظم منها ووضعه فيها.

٣. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. إعطاء ضابط كلي في إضلال الذين لا يؤمنون أنهم يفقدون حال التسليم لله والانقياد للحق، وقد أطلق عدم الإيمان وإن كان مورد الآيات عدم الإيمان بالله سبحانه وهو الشرك به لكن الذي سبق من البيان في الآية يشمل عدم الإيمان بالله وهو الشرك، وعدم الإيمان بآيات الله وهو رد بعض ما أنزله الله من المعارف والأحكام فقد دل على ذلك كله بقوله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾، وبقوله سابقا: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ﴾، وقوله: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾، وبقوله سابقا: ﴿فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾

ب. وقد سمي في الآية الضلال الذي يساوق عدم الإيمان رجسا والرجس هو القذر غير أنه اعتبر فيه نوعا من الاستعلاء الدال عليه قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ كأن الرجس يعلوهم ويحيط بهم فيحول بينهم وبين غيرهم فيتنفر منهم الطباع كما يتنفر من الغذاء الملطخ بالقذر.

٤. وقد استدل بالآية على أن الهدى والضلال من الله لا صنع فيهما لغيره تعالى وهو خطأ، فإن الآية، كما عرفت، في مقام بيان حقيقة الهدى والضلال اللذين من الله ونوع تعريف لهما وتحديد لا في مقام بيان انحصارهما فيه وانتفائهما عن غيره كما هو المدعى وهو ظاهر، ونظير ذلك ما ذكره بعضهم: (أن الآية كما تدل بلفظها على قولنا: إن الهداية والضلال من الله، كذلك تدل بلفظها على الدليل العقلي القاطع في هذه المسألة، بيانه: أن العبد قادر على الإيمان والكفر معا على حد سواء فيمتنع صدور أحدهما عنه بدلا من الآخر إلا إذا اقترن بمرجح يستدعي صدور ما يرجح به وهو الداعي القلبي الذي ليس إلا العلم أو الاعتقاد أو الظن بكون الفعل مشتملا على مصلحة زائدة ومنفعة راجحة من غير ضرر زائد أو مفسدة راجحة، وقد بينا بالدليل أن حصول هذه الدواعي في القلب إنما يكون من الله تعالى، وأن مجموع القدرة والداعي يوجب العمل، إذا ثبت هذا فنقول: يستحيل صدور الإيمان من العبد إلا إذا خلق الله في قلبه اعتقاد رجحان الإيمان، ومعه يحصل من القلب ميل إليه ومن النفس رغبة فيه وهذا هو انشراح الصدر، ويمتنع الكفر إلا بخلقه ما يقابل ذلك في القلب، ويحصل حينئذ النفرة عنه والاشمئزاز منه وهو المراد بجعل القلب ضيقا حرجا فصار تقدير الآية: أن من أراد الله منه الإيمان قوي دواعيه إليه، ومن أراد منه الكفر قوي صوارفه عن الإيمان وقوي دواعيه إلى الكفر، ولما ثبت بالدليل العقلي أن الأمر كذلك ثبت أن

لفظ القرآن مشتمل على هذه الدلائل العقلية) انتهى ملخصا، وفيه:

أ. أولا: أن انتساب الشيء إليه تعالى من جهة خلقه أسباب وجوده ومقدماته لا يوجب انتفاء نسبته إلى غيره تعالى وإلا أوجب ذلك بطلان قانون العلية العام وببطلانه يبطل القضاء العقلي من رأس فمن الممكن أن تستند الهداية والضلال إلى غيره تعالى استنادا حقيقيا في حين أنهما يستندان إليه تعالى استنادا حقيقيا من غير تناقض.

ب. وثانيا: أن الذي ذكرته الآية من صنعه تعالى في موردي هدايته وإضلاله هو سعة القلب وضيقه، وهما غير رغبة النفس ونفرته البتة فالآية أجنبية عما ذكره أصلا، ومجرد استلزام إرادة الفعل من العبد رغبته وكراهته نفرته منه لا يوجب أن يكون المراد من سعة القلب وضيقه الإرادة والكراهة بالنسبة إلى الأعمال، ففيه مغالطة من باب أخذ أحد المقارنين مكان الآخر ومن عجيب الكلام قوله: (إن انطباق الدليل العقلي الذي أقامه بزعمه على الآية يوجب دلالة لفظ الآية عليه)

ج. وثالثا: أنك عرفت أن الآية إنما هي في مقام تعريف ما يصنع الله بعبده إذا أراد هدايته أو ضلالته، وأما أن كل هداية أو ضلالة فهي من الله تعالى دون غيره فذلك أمر أجنبي عن غرض الآية فالآية لا دلالة لها على أن الهداية والضلال من الله سبحانه وإن كان ذلك هو الحق.

٥. وضع هنا مبحثا حول [معنى كون الدين فطرياً]، خلاصته:

أ. كل نوع من الموجودات يسير سيراً تكوينياً معيناً ذا مراحل، يرد النوع في كل منها بعد المرور بالبعض الذي قبله، ولا يزال يستكمل حتى ينتهي إلى نهاية كماله، وهذا التوجه التكويني يسمى هداية عامة إلهية، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾

ب. النوع الإنساني غير مستثنى من هذه الهداية العامة، لكنه يفارق سائر الأنواع في أنه لسعة حاجته التكوينية لا يقدر على تتميم نواقصه وحده، بل يحتاج إلى اجتماع منزلي ثم اجتماع مدني، والاجتماع لا يتم إلا بأصول علمية وقوانين اجتماعية يحترمها الكل، وهذه الأصول والقوانين تختلف باختلاف الاعتقادات (مادية، وثنية، توحيدية)

ج. السنن والقوانين الاجتماعية هي قضايا عملية اعتبارية تابعة للمصالح (الكمالات الإنسانية الحقيقية)، وحوائج الإنسان الحقيقية هي ما تطلبه النفس ويصدقه العقل، لا ما تطلبه الأهواء النفسانية،

ومن الواجب أن يتخذ الدين من اقتضاءات الخلقة الإنسانية وينطبق على الفطرة والتكوين.

د. الإسلام يسمى دين الفطرة لأن الفطرة الإنسانية تقتضيه، ويسمى إسلاماً لما فيه من تسليم العبد لإرادة الله، ويسمى دين الله وسيله الله، والدين الحق يجب أن يؤخذ من طريق الوحي والنبوة، ولا يكفي فيه العقل، كما تقدم في مباحث النبوة.

٦. وضع هنا مبحثا حول [معنى الهداية الإلهية]، خلاصته:

أ. الهداية عنوان للفعل يدور مدار القصد، وتنقسم إلى نوعين: هداية تكوينية تتعلق بالأمور التكوينية (كهداية كل نوع إلى كماله)، وهداية تشريعية تتعلق بالاعتقادات والأعمال الصالحة.

ب. الهداية التكوينية تشمل: هداية كل نوع من المخلوقات إلى كماله الذي خلق لأجله، وهداية كل شخص إلى الأمر المقدر له والأجل المضروب لوجوده.

ج. الهداية التشريعية تنقسم إلى: هداية بمعنى إراءة الطريق (بيان الصواب والخطأ)، وهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب (وهي شرح الصدر للإسلام، وانبساط خاص في القلب يقبل به الحق)

د. الهداية الإلهية الموصلة هي التي تورد المهتدين صراطاً مستقيماً لا تخلف فيه ولا اختلاف، لأنها مبنية على الفطرة الإلهية الثابتة، وكلها تمثل التوحيد الخالص.

هـ. دعوة جميع الأنبياء متحدة في الجوهر، فلا فرق بين ما يدعو إليه أولهم وآخرهم إلا من حيث الإجمال والتفصيل، لأنها كلها تنبع من هداية الله الواحدة.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال: إذا أدخل الله النور القلب، انشرح وانفسح، قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت.

• أقول: ورواه أيضاً عدة من المفسرين عن جمع من التابعين، كأبي جعفر المدائني والفضل والحسن

وعبد الله بن السور، عن النبي ﷺ.

ب. وفي العيون بإسناده عن حمدان بن سليمان النيشابوري قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال: فمن يرد الله أن يهديه بإيمانه في الدنيا وإلى جنته ودار كرامته في الآخرة، يشرح صدره للتسليم لله والثقة به، والسكون إلى ما وعد من ثوابه، حتى يطمئن إليه، ومن يرد أن يضله عن جنته ودار كرامته في الآخرة لكفره به وعصيانه له في الدنيا، يجعل صدره ضيقاً حرجاً، حتى يشك في كفره ويضطرب عن اعتقاده، حتى يصير كأنما يصعد في السماء، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون.

• أقول: وفي الحديث نكات حسنة تشير إلى ما شرحناه في البيان المتقدم.

ج. وفي الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً، نكت في قلبه نكتة من نور، وفتح مسامع قلبه، ووكل به ملكاً يسدده، وإذا أراد بعبد سوءً، نكت في قلبه نكتة سوداء، وسد مسامع قلبه، ووكل به شيطاناً يضله، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

• أقول: ورواه العياشي في التفسير مرسلاً، والصدوق في التوحيد مسنداً عنه عليه السلام.

د. وفي الكافي بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن القلب يتلجلج في الجوف يطلب الحق، فإذا جاء به اطمأن وقر، ثم تلا: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إلى قوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن أبي جميلة عن عبد الله بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام.

هـ. وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن خيثمة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: إن القلب يتقلب من لدن موضعه إلى حنجرته، ما لم يصب الحق، فإذا أصاب الحق، قر، ثم ضم أصابعه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]

و. قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام لموسى بن أشيم: أتدري ما الحرج؟ قال: قلت: لا، فقال

بيده وضم أصابعه: كالشيء المصمت، لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء.

• أقول: وروى ما يقرب منه في تفسير البرهان عن الصدوق، وروى صدر الحديث البرقي في المحاسن عن خيثمة عن أبي جعفر عليه السلام، وما فسر به الحرج يناسب ما تقدم نقله من الراغب.

ز. وفي الاختصاص بإسناده عن آدم بن الحر قال: سأل موسى بن أشيم أبا عبد الله عليه السلام وأنا حاضر عن آية في كتاب الله، فخبره بها، فلم يبرح حتى دخل رجل فسأله عن تلك الآية بعينها، فخبره بخلاف ما خبر به موسى بن أشيم، ثم قال ابن أشيم: فدخلني من ذلك ما شاء الله، حتى كأن قلبي يشرح بالسكاكين، وقلت: تركنا أبا قتادة لا يخطئ في الحرف الواحد: الواو وشبهها، وجئت لمن يخطئ هذا الخطأ كله، فبينا أنا في ذلك إذ دخل عليه رجل آخر، فسأله عن تلك الآية بعينها، فخبر بخلاف ما خبرني، وخلاف الذي خبر به الذي سأله بعدي، فتجلى عني، وعلمت أن ذلك بعمد، فحدثت نفسي بشيء، فالتفت إلي أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا ابن أشيم، لا تفعل كذا وكذا، فبان حديثي عن الأمر الذي حدثت به نفسي، ثم قال: يا ابن أشيم، إن الله فوض إلى سليمان بن داود فقال: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، وفوض إلى نبيه ﷺ، فقد فوض إلينا يا ابن أشيم، ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أتدري ما الحرج؟ فقلت: لا، فقال بيده وضم أصابعه: هو الشيء المصمت الذي لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء.

• أقول: مسألة التفويض إلى النبي ﷺ والأئمة من ولده، وإن وردت في تفسيره عدة أحاديث، لكن الذي يدل عليه هذا الحديث معناه إنباؤهم من العلم بكتاب الله ما لا ينحصر في وجه ووجهين، وتسليطهم عليه بالإذن في بث ما شاءوا منها، يستفاد ذلك من تطبيق ما ذكره عليه السلام في أمر سليمان بن داود من التفويض المستفاد من الآية الكريمة، ولا يبعد أن يكون المراد من تلاوة الآية الإشارة إلى ذلك، وإن كان الظاهر أن المراد به بيان حال القلوب بمناسبة ما ابتلي به موسى بن أشيم من اضطراب القلب وقلقه.

ح. وفي تفسير القمي في الآية قال: مثل شجرة حولها أشجار كثيرة، فلا تقدر أن تلقي أغصانها يمنة ويسرة، فتمر في السماء ويستمر حرجه.

• أقول: وذلك أيضاً يناسب ما فسر به الراغب معنى الحرج.

ط. وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ

الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال: هو الشك.

• أقول: وهو من قبيل التطبيق وبيان بعض المصاديق.

٨٧. صراط الله والاستقامة:

المقطع [٨٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٤٦»:

١. ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾، الإشارة إلى ما تقدم بيانه في الآية السابقة من صنعه عند الهداية والإضلال وقد تقدم معنى الصراط واستقامته، وقد بين تعالى في الآية أن ما ذكره من شرح الصدر للإسلام إذا أراد الهداية ومن جعل الصدر ضيقا حرجا عند إرادة الإضلال هو صراطه المستقيم وسنته الجارية التي لا تختلف ولا تتخلف فما من مؤمن إلا وهو منشرح الصدر للإسلام بالله وغير المؤمن بالعكس من ذلك.

٢. فقوله: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ بيان ثان وتأكيد لكون المعرف المذكور في الآية السابقة معرفا جامعا مانعا للهداية والضلالة ثم أكد سبحانه البيان بقوله: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي إن القول حق بين عند من تذكر ورجع إلى ما أودعه الله في نفسه من المعارف الفطرية والعقائد الأولية التي بتذكرها يهتدي الإنسان إلى معرفة كل حق وتمييزه من الباطل، والبيان مع ذلك لله سبحانه فإنه هو الذي يهدي الإنسان إلى النتيجة بعد هدايته إلى الحجة.

٨٨. للمتقين دار السلام عند ربهم وهو وليهم:

المقطع [٨٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٤٦»:

١. ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المراد بالسلام هو معناه اللغوي، على ما يعطيه ظاهر السياق وهو التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، ودار السلام هي المحل الذي لا آفة تهدد من حل فيه من موت وعاهة ومرض وفقر وأي عدم وفقد آخر وغم وحزن، وهذه هي الجنة الموعودة ولا سيما بالنظر إلى تقييده بقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾

٢. نعم أولياء الله تعالى يجدون في هذه النشأة ما وعدهم الله من إسكانهم دار السلام لأنهم يرون الملك لله فلا يملكون شيئا حتى يخافوا فقده أو يحزنوا لفقده قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] وهم لا شغل لهم إلا بربهم خلوا به في حياتهم فلهم دار السلام عند ربهم وهم قاطنون في هذه الدنيا وهو وليهم بما كانوا يعملون وهو سيرهم في الحياة بنور الهداية الإلهية الذي جعله في قلوبهم، ونور به أبصارهم وبصائرهم.

٣. وربما قيل: المراد بالسلام هو الله، وداره الجنة، والسياق يأباه وضمائر الجمع في الآية راجعة إلى القوم في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ على ما قيل لأنه أقرب المراجع لرجوعها إليها غير أن التدبر في الآيات يؤيد رجوعها إلى المهتدين بالهداية المذكورة بها أن الكلام فيهم والآيات مسوقة لبيان حسن صنع الله بهم فالوعد الحسن المذكور يجب أن يعود إليهم، وأما القوم المتذكرون فإنما ذكروا ودخلوا في غرض الكلام بالتبع.

٨٩. حوار الجن والإنس يوم القيامة واستمتاع بعضهم ببعض:

المقطع [٨٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٢»:

١. ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿أَجَّلْتَ لَنَا﴾:

أ. يقال: أكثر من الشيء أو الفعل واستكثر منه إذا أتى بالكثير، واستكثار الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتي بأعيانهم في الدنيا والمحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، وإنما للشياطين الاستكثار مما هم مسلطون عليه وهو إغواء الإنس من طريق ولايتهم عليهم وليست بولاية إجبار واضطرار بل من قبيل التعامل من الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاء لما يرى في اتباعه من الفائدة، ويتولى المتبوع أمر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع في ولايته عليه وإدارة شئونه، فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس والولاية عليهم، وللإنس نوع التذاذ من اتباع الوساوس والتسويلات ليستدروا بذلك اللذائذ المادية والتمتعات النفسانية.

ب. وهذا هو الذي يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم: ﴿رَبَّنَا اِسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ فتمتعنا بوساوسهم وتسويلاتهم من متاع الدنيا وزخارفها، وتمتعوا منا بما كانت تشتهيه أنفسهم حتى آل

أمرنا ما آل إليه.

ج. ومن هنا يظهر، كما يعطيه السياق، أن المراد بالأجل في قولهم: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ الحد الذي قدر لوجودهم والدرجة التي حصلت لهم من أعمالهم دون الوقت الذي ينتهي إليه أعمارهم وبعبارة أخرى آخر درجة نالوها من فعلية الوجود لا الساعة التي ينتهي إليها حياتهم فيرجع المعنى إلى أن بعضنا استمتع ببعض بسوء اختياره وسيئ عمله فبلغنا بذلك السير الاختياري ما قدرت لنا من الأجل، وهو أنا ظالمون كافرون.

د. فمعنى الآية: ويوم يحشرهم جميعا ليتم أمر الحجاج عليهم فيقول للجن: يا معشر الجن قد استكثرتم من ولاية الإنس وإغوائهم، وقال أولياؤهم من الإنس في الاعتراف بحقيقة الأمر: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ فاستمتعنا معشر الإنس من الجن بأن تمتعنا بزخارف الدنيا وما تهواه أنفسنا بتسويلاتهم، وتمتع الجن منا باتباع ما كانوا يلقون إلينا من الوساوس وكنا على ذلك حتى بلغنا آخر ما بلغنا من فعلية الحياة الشقية ودرجة العمل.

هـ. فهذا اعتراف منهم بأن الأجل وإن كان بتأجيل الله سبحانه لكنهم إنما بلغوه بطيهم طريق تمتع البعض من البعض، وهو طريق سلكوه باختيارهو لا يبعد أن يستظهر من هنا أن المراد بالجن الشياطين الذين يوسوسون في صدور الناس من الجن.

٢. ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، هذا جواب منه سبحانه وقضاء عليهم، ومتن ما قضى به قوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾، والمثوى اسم مكان من قولهم: ثوى يثوي ثواء أي أقام مع استقرار فقوله: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ أي مقامكم الذي تستقرون فيه من غير خروج ولذا أكده بقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء يفيد أن القدرة الإلهية باقية مع ذلك على ما كانت فله مع ذلك أن يخرجكم منها وإن كان لا يفعل.

٣. ثم تمم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وهو يفيد تعليل البيان الواقع في الآية والخطاب للنبي ﷺ.

٩٠. تولي الظالمين بعضهم بعضاً بما كانوا يكسبون:

المقطع [٩٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا

بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٤»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ اَلظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فيه بيان أن جعله تعالى بعض الظالمين أولياء يجري على الحقيقة المبينة في الآية السابقة، وهو أن التابع يستمتع المتبوع من طريق تسويله وإغوائه فيكسب بذلك الذنوب والآثام حتى يجعل الله المتبوع وليا عليه ويدخل التابع في ولايته.

٢. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الباء للسببية أو المقابلة، وهو يفيد أن هذه التولية إنما هي بنحو المجازاة يجازي بها الظالمين في قبال ما اكتسبوه من المظالم لا تولية ابتدائية من غير ذنب سابق نظير ما في قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ اَلْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] وقد التفت في الآية من الغيبة إلى التكلم ليختص النبي ﷺ ببيان هذه الحقيقة فإنهم غير لائقين بتلقيها وإنما التفت إلى التكلم لأن التكلم هو المناسب للمسارة هذا وفي الآيات موارد أخر من الالتفات لا يخفى وجهها على المتدبر.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩] الآية، قال: نولي كل من تولى أولياءهم، فيكونون معهم يوم القيامة.

ب. وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما انتصر الله من ظالم إلا بظالم، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩]

• أقول: دلالة الآية على ما في الرواية من الحصر غير واضحة.

٩١. تذكير الله للجن والإنس بالرسل وإقرارهم على أنفسهم بالكفر:

المقطع [٩١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٥»:

١. ﴿يَا مَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَاَلْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾:

أ. في هذا الخطاب دفع دخل يمكن أن يتوجه إلى الحجة السابقة المأخوذة من اعترافهم بأنهم إنما وقعوا فيها وقعوا فيه من ولاية الشياطين بسوء اختيارهم، وهو أنهم وإن ابتلوا بذلك من طريق الاختيار لكنهم لو يكونوا يعلمون أن هذه المعاصي والتمتعات سوف توردهم مورد الهلكة وتسجل عليهم ولاية

الظالمين والشياطين ويخسرهم بالشقاء الذي لا سعادة بعده أبدا فهم كانوا على غفلة من ذلك وإن كانوا على علم في الجملة بمساءة أعمالهم وشناعة أفعالهم ومؤاخذة الغافل ظلم، فدفعه الله سبحانه بهذا الخطاب الذي يسألهم فيه عن إتيان الرسل وذكرهم آيات الله وإنذارهم بيوم الجمع والحساب فلما شهدوا على أنفسهم بالكفر بما جاء به الرسل تمت الكلمة ولزمت الحجة.

ب. فمعنى الآية: أنا نخاطبهم جميعا فنقول لهم: يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم أرسلناهم إليكم يقصون عليكم آياتي التي تدل على الدين الحق، وينذرونكم لقاء يومكم هذا وهو يوم القيامة وأن الله سيوقفكم موقف المساءلة فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازيكم بما عملتم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا فإذا سألناهم عن ذلك أجابونا وقالوا: شهدنا على أنفسنا أن الرسل أتونا وقصوا علينا آياتك، وأنذرونا لقاء يومنا هذا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بما جاء به الرسل رادين عليهم عن علم وما كانوا غافلين.

٢. وبذلك تبين:

أ. أولا: أن قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ لا يدل على أزيد من كون الرسل من جنس المخاطبين وهم مجموع الجن والإنس لا من غيرهم كالملائكة حتى يتوحشوا منهم ولا يستأنسوا بهم ولا يفقهوا قولهم، وأما أن من كل من طائفتي الجن والإنس رسلا منهم فلا دلالة في الآية على ذلك.

ب. وثانيا: أن تكرار لفظ الشهادة إنما هو لاختلاف متعلقها فالمراد بالشهادة الأولى الشهادة بإتيان الرسل وقصهم آيات الله وإنذارهم بيوم القيامة، وبالشهادة الثانية الشهادة بكفرهم بما جاء به الرسل من غير غفلة، وأما ما قيل: إن المراد بالشهادة الأولى الشهادة بالكفر والمعصية حال التكليف، وبالثانية الشهادة في الآخرة على كونهم كافرين في الدنيا فهو غير مفيد لأن الشهادتين بالأخرة راجعتان إلى شهادة واحدة بالكفر في الدنيا فيبقى تكرار اللفظ على حاجته إلى وجه يقتضيه.

ج. وثالثا: أن قوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ معترضة وضعت ليندفع بها ما يمكن أن يختلج ببال السامع وهو أنهم إذ كانوا يستمتع بعضهم من بعض، وكانوا غير غافلين عن إتيان الرسل وبيانهم الآيات وإنذارهم باليوم الآخر فما بالهم وردوا مورد التهلكة وأهلكوا أنفسهم عن علم واختيار؟ فأجيب بأن الحياة الدنيا غرتهم كلما لاح لقلوبهم شيء من الحق وبرقت فيها بارقة من الخير هجمت عليهم الأهواء

وأسدلت عليهم ظلمات الرذائل حتى ضربت حجابا بينهم وبين الحق وأعمت أبصارهم عن رؤيته ومشاهدته.

٩٢. الله لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون:

المقطع [٩٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١-١٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٦»:

١. ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾:

أ. الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى مضمون ما تقدم من البيان على ما يعطيه السياق وقوله: ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ بتقدير لام التعليل فالمعنى أن الذي بيناه من إرسال الرسل والتذكير بالآيات والإنذار بيوم القيامة إنما هو لأن الله سبحانه ليس من سنته أن يهلك أهل القرى ويوردهم مورد السخط والعذاب وهم غافلون عما يريده منهم من الطاعة ويفعله بهم على تقدير المخالفة، وذلك ظلم منه تعالى.

ب. فهم وإن نزلوا منزل الشقاء بتأجيل الله سبحانه وقضائه وجعله بعضهم أولياء بعض لكنه تعالى لم يسلبهم القدرة على الطاعة ولم يبطل منهم الاختيار فاختاروا الشرك والمعصية ثم أرسل إليهم رسلا منهم يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم الحساب فكفروا بهم ومكثوا على بغيهم وعتوهم فجزاهم بولاية بعضهم بعضا وقضى عليهم بأن النار مثواهم فهم أنفسهم استدعوا الهلاك عن علم وإرادة، ولم يهلكهم الله وهم غافلون حتى يكون يظلمهم فهو الحكم العدل تبارك اسمه.

٢. وقد بان بذلك:

أ. أولا: أن المراد بقوله: ﴿لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ﴾ نفي أن يكون ذلك من سنته تعالى فإنه تعالى لا يفعل شيئا إلا بسنة جارية وصراط مستقيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] وفي اللفظ دلالة على ذلك.

ب. وثانيا: أن المراد بإهلاك القرى القضاء بشقائهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة على ما يفيده السياق دون الهلاك بإنزال العذاب في الدنيا.

ج. وثالثا: أن المراد بالظلم في الآية هو الظلم منه تعالى لو أهلكهم وهم غافلون دون الظلم من

أهل القرى.

٣. ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ متعلق الكل محذوف وهو الضمير الراجع إلى الطائفتين، والمعنى: ولكل طائفة من طائفتي الجن والإنس درجات من أعمالهم فإن الأعمال مختلفة وباختلافها يختلف ما توجبه من الدرجات، وما ربك بغافل عن أعمالهم.

٩٣. غنى الله ورحمته وسنة الاستخلاف في الأرض:

المقطع [٩٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٧»:

١. ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُوالرَّحْمَةِ﴾ بيان عام لنفي الظلم عنه تعالى في الخلقة، وتوضيحه: أن الظلم وهو وضع الشيء في غير موضعه الذي ينبغي أن يوضع عليه وبعبارة أخرى إبطال حق إنما يتحقق من الظلم بأخذ شيء أو تركه لأحد أمرين إما لحاجة منه إليه بوجه من الوجوه كأن يعود إليه أو إلى من يهواه منه نفع أو يندفع عنه أو عما يعود إليه بذلك ضرر، وإما لا لحاجة منه إليه بل لشقوة باطنية وقسوة نفسانية لا يعبأ بها بما يقاسيه المظلوم من المصيبة ويكابده من المحنة، وليس ذلك منه لحاجة بل من آثار الملكة المشومة، والله سبحانه منزه من هاتين الصفتين السيئتين فهو الغني الذي لا تمسه حاجة ولا يعرضه فقر، وذو الرحمة المطلقة التي ينعم بها على كل شيء بما يليق بحاله فلا يظلم سبحانه أحدا، وهذا هو الذي يدل عليه قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُوالرَّحْمَةِ﴾، ومعنى الآية: وربك هو الذي يوصف بالغني المطلق الذي لا فقر معه ولا حاجة، وبالرحمة المطلقة التي وسعت كل شيء ومقتضى ذلك أنه قادر على أن يذهبكم بغناه ويستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته والشاهد عليه أنه أنشأكم برحمته من ذرية قوم آخرين أذهبهم بغناه عنهم.

٢. وفي قوله: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ دون أن يقال: من يشاء، إبهام للدلالة على سعة القدرة.

٩٤. الوعد الإلهي والتحقق:

المقطع [٩٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٧»:

١. ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي الأمر الإلهي من البعث والجزاء وهو الذي

توعدون من طريق الوحي لآت البتة وما أنتم بمعجزين لله حتى تمنعوا شيئا من ذلك أن يتحقق ففي الكلام تأكيد للوعد والوعيد السابقين.

٢. أحاديث وآثار: أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الأمل وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب عن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر، فسمعت النبي ﷺ يقول: ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إن أسامة لطويل الأمل، والذي نفسي بيده، ما طرفت عيناي وظننت أن شفري يلتقيان حتى أقبض، ولا رفعت طرفي وظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة فظننت أني أسيغها حتى أغص بالموت، يا بني آدم، إن كنتم تعقلون، فعدوا أنفسكم في الموتى، والذي نفسي بيده، إن ما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين.

٩٥. الأمر بالعمل على المكانة وعاقبة الدار:

المقطع [٩٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٥٨»:

١. ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اِعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ المكانة هي المنزلة والحالة التي يستقر عليها الشيء، وعاقبة الشيء ما ينتهي إليه، وهي في الأصل مصدر كالعقبى على ما قيل، وقولهم: كانت له عاقبة الدار كناية عن نجاحه في سعيه وتمكنه مما قصده، وفي الآية انعطاف إلى ما بدئ به الكلام، وهو قوله تعالى قبل عدة آيات: ﴿اِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ اَلْمُشْرِكِينَ﴾

٢. والمعنى: قل للمشركين: يا قوم اعملوا على منزلتكم وحالتكم التي أنتم عليها من الشرك والكفر، وفيه تهديد بالأمر، ودوموا على ما أنتم عليه من الظلم إني عامل ومقيم على ما أنعم عليه من الإيمان والدعوة إلى التوحيد فسوف تعلمون من يسعد وينجح في عمله، وأنا الناجح دونكم فإنكم ظالمون بشرككم والظالمون لا يفلحون في ظلمهم.

٣. وربما قيل: إن قوله: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ إخبار عن الله سبحانه أنه يعمل بما وعد به من البعث والجزاء، وهو فاسد يدفعه سياق قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ اَلدَّارِ﴾

٩٦. شرك المشركين في الحرث والأنعام وقسمتهم الباطلة:

المقطع [٩٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٢»:

١. ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ الذرء الإيجاد على وجه الاختراع وكأن الأصل في معناه الظهور، والحرث الزرع، وقوله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ في قوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ نوع من التنزيه كقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، والزعم الاعتقاد ويستعمل غالبا فيما لا يطابق الواقع منه.

٢. ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ أضاف الشركاء إليهم لأنهم هم الذين أثبتوها واعتقدوا بها نظير أئمة الكفر وأئمتهم وأوليائهم، وقيل: أضيفت الشركاء إليهم لأنهم كانوا يجعلون بعض أموالهم لهم فيتخذونهم شركاء لأنفسهم.

٣. وكيف كان فمجموع الجملتين أعني قوله: ﴿فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ من تفريع التفصيل على الإجمال يفسر به جعلهم لله نصيبا من خلقه، وفيه توطئة وتمهيد لتفريع حكم آخر عليه، وهو الذي يذكره في قوله: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ ومَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكَائِهِمْ﴾

٤. وإذ كان هذا الحكم على بطلانه من أصله وكونه افتراء على الله لا يخلو عن إزراء بساحته تعالى بتغليب جانب الأصنام على جانبه قبحه بقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ومعنى الآية ظاهر.

٥. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآية، قال: إنه كان إذا اختلط ما جعل للأصنام بما جعل لله تعالى، ردوه، وإذا اختلط ما جعل لله بما جعل للأصنام، تركوه وقالوا: الله أغنى، وإذا تخرق الماء من الذي لله في الذي للأصنام، لم يسدوه، وإذا تخرق من الذي للأصنام في الذي لله، سدوه وقالوا: الله أغنى، عن ابن عباس وقتادة، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

٩٧. تزيين الشركاء للمشركين قتل الأولاد وإرداؤهم:

المقطع [٩٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

[الأنعام: ١٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٢»:

١. ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ قرأ غير ابن عامر ﴿زَيَّنَ﴾ بفتح الزاي فعل معلوم، و﴿قَتْلَ﴾ بنصب اللام مفعول ﴿زَيَّنَ﴾ وهو مضاف إلى ﴿أَوْلاَدِهِمْ﴾ بالجر وهو مفعول ﴿قَتْلَ﴾ أضيف إليه، و﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ فاعل ﴿زَيَّنَ﴾، والمعنى أن الأصنام بما لها من الوقع في قلوب المشركين والحب الوهمي في نفوسهم زينت لكثير من المشركين أن يقتلوا أولادهم ويجعلوهم قرابين يتقربون بذلك إلى الآلهة كما يضبطه تاريخ قدماء الوثنيين والصابئين، وهذا غير مسألة الوأد التي كانت بنو تميم من العرب يعملون به فإن المأخوذ في سياق الآية الأولاد دون البنات خاصة، وقيل: المراد بالشركاء الشياطين، وقيل: خدمة الأصنام، وقيل: الغواة من الناس، وقرأ ابن عامر: ﴿زَيَّنَ﴾ بضم الزاي مبنيا للمفعول ﴿قَتْلَ﴾ بضم اللام نائب عن فاعل زين ﴿أَوْلاَدِهِمْ﴾ بالنصب مفعول المصدر أعني ﴿قَتْلَ﴾ تخلل بين المضاف والمضاف إليه ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ بالجر مضاف إليه وفاعل للمصدر.

٢. ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الإرداء: الإهلاك، والمراد به إهلاك المشركين بالكفر بنعمة الله والبغي على خلقه، وخلط دينهم عليهم بإظهار الباطل في صورة الحق، فضمير ﴿أَوْلاَدِهِمْ﴾ في المواضع الثلاث جميعا راجع إلى كثير من المشركين، وقيل: المراد به الإهلاك بظاهر معنى القتل، ولازمه رجوع أول الضمائر إلى الأولاد والثاني والثالث إلى الكثير، أو الجميع إلى المشركين بنوع من العناية، ومعنى الآية ظاهر.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٧] الآية، قال: يعني أن أسلافهم زينوا لهم قتل أولادهم.

٩٨. الشرك والتعامل مع الأنعام:

المقطع [٩٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٢»:

١. ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ الحجربكسر الحاء المنع ويفسره قوله بعده: ﴿لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ﴾ أي هذه الأنعام والحرث حرام إلا على من نشاء أن نأذن لهم، وروي: أنهم كانوا يقدمونها لآلهتهم ولا يحلون أكلها إلا لمن كان يخدم آلهتهم من الرجال دون النساء بزعمهم.

٢. ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي وقالوا: هذه أنعام حرمت ظهورها أو ولهم أنعام حرمت ظهورها، وهي السائبة والبحيرة والحامي التي نفاها الله تعالى في قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ ولاَ سَائِبَةٍ ولاَ وَصِيلَةٍ ولاَ حَامٍ ولَكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] وقيل: هي بعض هؤلاء على الخلاف السابق في معناها في تفسير آية المائدة.

٣. ﴿وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي ولهم أنعام.، وهي الأنعام التي كانوا يهلون عليها بأصنام لا باسم الله، وقيل: هي التي كانوا لا يركبونها في الحج، وقيل: أنعام كانوا لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شأن من شئونها، ومعنى الآية ظاهر.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، قال: الحجر المحرم.

٩٩. الشرك والأنعام والخرافة والدجل:

المقطع [٩٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٣»:

١. ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾، المراد بها في البطون أجنة البحائر والسيب، فقد كانوا يحلونها إذا ولدت حية للرجال دون النساء وإن ولدت ميتة أكله الرجال والنساء جميعا، وقيل: المراد بها الألبان، وقيل: الأجنة والألبان جميعا.

٢. والمراد بقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ سيجزيهم نفس وصفهم فإنه يعود وبالا وعذابا عليهم ففيه نوع من العناية، وقيل: التقدير: سيجزيهم بوصفهم، وقيل: التقدير: سيجزيهم جزاء وصفهم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى ظاهر.

١٠٠. خسارة المشركين بقتل أولادهم وتحريم الرزق:

المقطع [١٠٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٣»:

١. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، رد لما حكي عنهم في الآيات السابقة من الأحكام المفتراة وهي قتل الأولاد وتحريم أصناف من الأنعام والحرث وذكر أن ذلك منهم خسران وضلال من غير اهتداء.

٢. وقد وصف قتل الأولاد بأنه سفه بغير علم، وكذلك بدل الأنعام والحرث من قوله ما رزقهم الله ووصف تحريمها بأنه افتراء على الله ليكون في ذلك تنبيه كالتعليل على خسرانهم في ذلك كأنه قيل: خسروا في قتلهم أولادهم لأنهم سفهوا به سفها بغير علم، وخسروا في تحريمهم أصنافا من الأنعام والحرث افتراء على الله لأنها من رزق الله وحاشاه تعالى أن يرزقهم شيئا ثم يحرمه عليهم.

١٠١. الجنات وإيتاء حقها يوم الحصاد وعدم الإسراف:

المقطع [١٠١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٣»:

١. بين تعالى ضلالهم في تحريم الحرث والأنعام مع كونها من رزق الله بيانا تفصيليا بالاحتجاج من ناحية العقل ومصلحة معاش العباد بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ﴾ إلى تمام أربع آيات، ثم من ناحية السمع ونزول الوحي بقوله: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ إلى تمام الآية، فيكون محصل الآيات الخمس أن تحريمهم أصنافا من الحرث والأنعام ضلال منهم لا يساعدهم على ذلك حجة فلا العقل ورعاية مصلحة العباد يدلهم على ذلك، ولا الوحي النازل من الله سبحانه يهديهم إليه فهم في خسران منه.

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ إلى قوله ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ الشجرة المعروشة هي التي ترفع أغصانها بعضا على بعض بدعائم كالكرم وأصل العرش الرفع فالجنات المعروشات هي بساتين الكرم ونحوها، والجنات غير المعروشات ما كانت أشجارها قائمة على أصولها من غير دعائم.

٣. ﴿وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ أي ما يؤكل منه من الحبات كالحنطة والشعير والعدس والحمص.

٤. ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ أي متشابه كل منها وغير متشابه على ما يفيده السياق، والتشابه بين الثمرتين باتحادهما في الطعم أو الشكل أو اللون أو غير ذلك.

٥. ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾، الأمر للإباحة لوروده في رفع الحظر الذي يدل عليه إنشاء الجنات والنخل والزرع وغيرها، والسياق يدل على أن تقدير الكلام: وهو الذي أنشأ جنات والنخل والزرع إلخ، وأمركم بأكل ثمر ما ذكر وأمركم بإيتاء حقه يوم حصاده، ونهاكم عن الإسراف، فأي دليل أدل من ذلك على إباحتها؟

٦. ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أي الحق الثابت فيه المتعلق به فالضمير راجع إلى الثمر وأضيف إليه الحق لتعلقه به كما يضاف الحق أيضا إلى الفقراء لارتباطه بهم وربما احتمل رجوع الضمير إلى الله كالضمير الذي بعده في قوله: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ وإضافته إليه تعالى لانتسابه إليه بجعله، وهذا إشارة إلى جعل حق ما للفقراء في الثمر من الحبوب والفواكه يؤدي إليهم يوم الحصاد يدل عليه العقل ويمضيه الشرع وليس هو الزكاة المشرعة في الإسلام إذ ليست في بعض ما ذكر في الآية زكاة، على أن الآية مكية وحكم الزكاة مدني، نعم لا يبعد أن يكون أصلا لتشريعها فإن أصول الشرائع النازلة في السور المدنية نازلة على وجه الإجمال والإبهام في السور المكية كقوله تعالى بعد عدة آيات عند تعداد كليات المحرمات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]

٧. ﴿وَلاَ تُسْرِفُوا﴾، أي لا تتجاوزوا الحد الذي يصلح به معاشكم بالتصرف فيه فلا يتصرف صاحب المال منكم بالإسراف في أكله أو التبذير في بذله أو وضعه في غير موضعه من معاصي الله وهكذا، ولا يسرف الفقير الأخذ بتضييعه ونحو ذلك، ففي الكلام إطلاق، والخطاب فيه لجميع الناس، وأما قول بعضهم: إن الخطاب في ﴿لاَ تُسْرِفُوا﴾ مختص بأرباب الأموال، وقول بعض آخر: إنه متوجه إلى الإمام الآخذ للصدقة، وكذا قول بعضهم: إن معناه لا تسرفوا بأكله قبل الحصاد كيلا يؤدي إلى بخس حق الفقراء، وقول بعض آخر: إن المعنى: لا تقصروا بأن تمنعوا بعض الواجب، وقول ثالث: إن المعنى لا تنفقوه في المعصية، كل ذلك مدفوع بالإطلاق والسياق.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] الآيات، قال: البساتين.

ب. وفيه في قوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١] الآية، أخبرنا أحمد بن إدريس قال: حدثنا أحمد بن محمد عن علي بن الحكم عن أبان بن عثمان عن شعيب العقرقوفي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، قال: الضغث من السنبل، والكف من التمر إذا خرص، قال: وسألته هل يستقيم إعطاؤه إذا أدخله بيته؟ قال: لا، هو أسخى لنفسه قبل أن يدخل بيته.

ج. وفيه عن أحمد بن إدريس عن البرقي عن سعد بن سعد عن الرضا عليه السلام: أنه سئل: إن لم يحضر المساكين وهو يحصد، كيف يصنع؟ قال: ليس عليه شيء.

د. وفي الكافي عن علي بن إبراهيم عن ابن أبي عمير عن معاوية بن الحجاج قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: في الزرع حقان: حق تؤخذ به، وحق تعطيه، قلت: وما الذي أوخذ به؟ وما الذي أعطيه؟ قال: أما الذي تؤخذ به، فالعشر ونصف العشر، وأما الذي تعطيه، فقول الله عز وجل: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، يعني من حصدك الشيء بعد الشيء، ولا أعلمه إلا قال: الضغث تعطيه، ثم الضغث حتى تفرغ.

هـ. وفيه بإسناده عن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام: ١٤١]، قال: كان أبي يقول: من الإسراف في الحصاد والجذاذ، أن يتصدق الرجل بكفيه جميعاً، وكان أبي إذا حضر شيئاً من هذا، فرأى أحداً من غلمانه يتصدق بكفيه، صاح به: أعط بيد واحدة، القبضة بعد القبضة، والضغث بعد الضغث من السنبل.

و. وفيه بإسناده عن مصادف قال: كنت مع أبي عبد الله عليه السلام في أرض له وهم يصرمون، فجاء سائل يسأل، فقلت: الله يرزقك، فقال: مه، ليس ذلك لكم حتى تعطوا ثلاثة، فإذا أعطيتم فلكم، وإن أمسكتم فلكم.

ز. وفيه بإسناده عن ابن أبي عمير عن هشام بن المثنى قال: سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فقال: كان فلان بن فلان الأنصاري وسماه، وكان له حرث، وكان إذا أجذ يتصدق به ويبقى هو وعياله بغير شيء، فجعل الله عز وجل ذلك إسرافاً.

• أقول: المراد انطباق الآية على عمله دون نزولها فيه، فإن الآية مكية، ولعل المراد بالأنصاري المذكور ثابت بن قيس بن شماس، وقد روى الطبري وغيره عن ابن جريح قال: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، جذ نخلاً فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له تمرة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، والآية كما تقدم مكية غير مدنية، فلا يشمل عمل ثابت بن قيس إلا بالجري والانطباق.

• وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في الآية قال: أعط من حضرك من المسلمين، فإن لم يحضرك إلا مشرك، فأعط.

• أقول: والروايات في هذه المعاني عن أبي جعفر وأبي عبد الله وأبي الحسن الرضا عليه السلام كثيرة جداً.

ح. أخرج ابن المنذر والنحاس وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، قال: ما سقط من السنبل.

ط. أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس والبيهقي في سننه عن ابن عباس: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، قال: نسخها العشر ونصف العشر.

• أقول: ليست النسبة بين الآية وآية الزكاة نسبة النسخ، إذ لا تنافي يؤدي إلى النسخ، سواء قلنا بوجوب الصدقة أو باستحبابها.

ي. أخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الضحاك قال: نسخت الزكاة كل صدقة في القرآن.

• أقول: الكلام فيه كسابقه.

ك. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن ميمون بن مهران ويزيد بن الأصم قال: كان أهل المدينة إذا صرموا النخل، يجيئون بالعذق فيضعونه في المسجد، فيجيء السائل فيضربه بالعصا فيسقط منه، فهو قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]

١٠٢. خلق الأنعام حمولة وفرشاً والتحذير من اتباع خطوات الشيطان:

المقطع [١٠٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٥»:

١. ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾، الحمولة أكابر الأنعام لإطاقتها الحمل، والفرش أصاغرها لأنها كأنها تفترش على الأرض أو لأنها توطأ كما يوطأ الفرش.

٢. ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إباحة للأكل وإمضاء لما يدل عليه العقل نظير قوله في الآية السابقة: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾

٣. ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي لا تسيروا في هذا الأمر المشروع إباحته باتباع الشيطان بوضع قدمكم موضع قدمه بأن تحرموا ما أحله، وقد تقدم أن المراد باتباع خطوات الشيطان تحريم ما أحله الله بغير علم.

١٠٣. جدال المشركين في تحريم الأنعام وافتراؤهم على الله:

المقطع [١٠٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٥»:

١. ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾:

أ. تفصيل للأنعام بعد الإجمال والمراد به تشديد اللوم والتوبيخ عليهم ببسطه على كل صورة من الصور والوجوه، فقوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ عطف بيان من ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ في الآية السابقة، والأزواج جمع زوج، ويطلق الزوج على الواحد الذي يكون معه آخر وعلى الاثنين، وأنواع الأنعام المعدودة أربعة: الضأن والمعز والبقر والإبل، وإذا لوحظت ذكرا وأنثى كانت ثمانية أزواج.

ب. والمعنى: أنشأ ثمانية أزواج من الضأن زوجين اثنين هما الذكر والأنثى ومن المعز زوجين اثنين كالضأن قل آلذكرين من الضأن والمعز حرم الله أم الأنثيين منهما أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين من الضأن والمعز نبئوني ذلك بعلم إن كنتم صادقين.

٢. ﴿وَمِنَ اَلْإِبِلِ اِثْنَيْنِ ومِنَ اَلْبَقَرِ اِثْنَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿اَلْأُنْثَيَيْنِ﴾ معناه ظاهر مما مر، وقيل: المراد بالاثنين في المواضع الأربعة من الآيتين الأهلي والوحشي.

٣. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اَللّٰهُ بِهَذَا﴾ هذا شق من ترديد حذف شقه الآخر على ما يدل عليه الكلام، وتقديره: أعلمتم ذلك من طريق الفكر كعقل أو سمع أم شاهدتم تحريم الله ذلك وشافهتموه فادعيتم ذلك.

٤. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ اِفْتَرَى عَلَى اَللّٰهِ كَذِباً﴾، تفريع على ما قبله باعتبار دلالته على انقطاعهم عن الجواب وعلى ذلك فمعناه: فمن أظلم منكم، ويكون قوله: ﴿مِمَّنِ اِفْتَرَى﴾، كناية عن المشركين المخاطبين وضع موضع ضمير الخطاب الراجع إليهم ليدل به على سبب الحكم المفهوم من الاستفهام الإنكاري والتقدير: لا أظلم منكم لأنكم افتريتم على الله كذبا لتضلوا الناس بغير علم، وإذ ظلمتم فإنكم لا تهتدون إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] الآية: فهذه التي أحلها الله في كتابه في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، ثم فسرها في هذه الآية فقال: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣-١٤٤]، فقال ﷺ في قوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾، عنى الأهلي والجبلي، ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾، عنى الأهلي والوحشي الجبلي، ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾، عنى الأهلي والوحشي الجبلي، ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾، يعني البخاتي والعراب، فهذه أحلها الله.

• أقول: وروي ما يؤيد ذلك في الكافي والاختصاص وتفسير العياشي عن داود الرقي وصفوان الجمال عن الصادق عليه السلام، ويبقى البحث في أن معنى الزوج في قوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] الآية هو الذي في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، أو غيره، وسيوافيك إن شاء الله تعالى.

١٠٤. بيان المحرمات في الوحي ورخصة الاضطرار:

المقطع [١٠٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ

اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٦»:

١. ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾، معنى الآية ظاهر، وقد تقدم في نظيره الآية من سورة المائدة آية ٣، وفي سورة البقرة آية ١٧٣ ما ينفع في المقام.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل عن سباع الطير والوحش، حتى ذكر له القنافذ والوطواط والحمير والبغال والخيل، فقال: ليس الحرام إلا ما حرم الله في كتابه، وقد نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمير، وإنما نهاهم من أجل ظهورهم أن يفنوه، ليس الحمير بحرام، وقال: قرأ هذه الآيات: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥]

• أقول: وفي معناه أخبار أخر مروية عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، وفي عدة منها: إنما الحرام ما حرمه الله في كتابه، ولكنهم كانوا يعافون أشياء، فنحن نعافها، وهنا روايات كثيرة تنهى عن أكل كثير من الحيوان، كذوات الأنياب من الوحش وذوات المخالب من الطير وغير ذلك، والأمر في روايات أهل السنة على هذا النحو، والمسألة فقهية مرجعها الفقه، وإذا تمت حرمة ما عدا المذكورات في الآية، فإنما هي مما حرمها النبي ﷺ استخباثاً له، وقد وصفه الله تعالى بما يمضيه في حقه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية.

١٠٥. تحريمات خاصة باليهود بسبب بغيهم:

المقطع [١٠٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٦-١٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٦»:

١. ﴿وَعَلَى اَلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾، الظفر واحد الأظفار وهو العظم النابت على رءوس الأصابع، والحوايا المباعر قال في المجمع: (موضع الحوايا يحتمل أن يكون رفعا عطفا على الظهور وتقديره: أو ما حملت الحوايا، ويحتمل أن يكون نصبا عطفا على ما في قوله: ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ﴾ فأما قوله:

﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ فإن ما هذه معطوفة على ما الأول) والوجه الأول أقرب، ثم قال: (ذلك في قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ﴾ يجوز أن يكون منصوب الموضع بأنه مفعول ثان لجزيناهم التقدير: جزيناهم ذلك ببغيهم، ولا يجوز أن يرفع بالابتداء لأنه يصير التقدير: ذلك جزيناهموه فيكون كقولهم: زيد ضربت أي ضربته، وهذا إنما يجوز في ضرورة الشعر)

٢. والآية كأنها في مقام الاستدراك ودفع الدخل ببيان أن ما حرم الله على بني إسرائيل من طيبات ما رزقهم إنما حرمه جزاء لبغيهم فلا ينافي ذلك كونه حلا بحسب طبعه الأولى كما يشير إلى ذلك قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ (آل عمران: ٩٣) وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾ [النساء: ١٦٠]

٣. ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُورَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾، معنى الآية ظاهر، وفيها أمر بإنذارهم وتهديدهم إن كذبوا بالبأس الإلهي الذي لا مرد له لكن لا ببيان يسلط عليهم اليأس والقنوط بل بها يشوبه بعض الرجاء، ولذلك قدم عليه قوله: ﴿رَبُّكُمْ ذُورَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾

٤. أحاديث وآثار: في المجمع في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] الآية: أن ملوك بني إسرائيل كانوا يمنعون فقراءهم من أكل لحوم الطير والشحوم، فحرم الله ذلك ببغيهم على فقرائهم، ذكره علي بن إبراهيم في تفسيره.

١٠٦. حجة المشركين الواهية (لو شاء الله ما أشركنا) وردها:

المقطع [١٠٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٧»:

١. ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ تذكر احتجاجهم بهذه الحجة ثم ترد عليهم بأنهم جاهلون بها وإنما يركنون فيها إلى الظن والتخمين، والكلمة كلمة حق وردت في كثير من الآيات القرآنية لكنها لا تنتج ما قصدوه منها، فإنهم إنما احتجوا بها لإثبات أن شركهم

وتحريمهم ما رزقهم الله بإمضاء من الله سبحانه لا بأس عليهم في ذلك فحجتهم أن الله لو شاء منا خلاف ما نحن عليه من الشرك والتحريم لكنا مضطرين على ترك الشرك والتحريم فإذ لم يشأ كان ذلك إذنا في الشرك والتحريم فلا بأس بهذا الشرك والتحريم.

٢. وهذه الحجة لا تنتج هذه النتيجة وإنما تنتج أن الله سبحانه إذ لم يشأ منهم ذلك لم يوقعهم موقع الاضطرار والإجبار فهم مختارون في الشرك والكف عنه وفي التحريم وتركه فله تعالى أن يدعوهم إلى الإيمان به ورفض الافتراض فلله الحجة البالغة ولا حجة لهم في ذلك إلا اتباع الظن والتخمين.

١٠٧. الحجة البالغة والهداية:

المقطع [١٠٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٧»:

١. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾:

أ. كأن الفاء الأولى لتفريع مضمون الجملة على ما تقدم من قولهم ﴿لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، والفاء الثانية للتعليل فيكون الكلام من قبيل قلب الحجة على الخصم بعد بيان مقتضاها.

ب. والمعنى أن نتيجة الحجة قد التبست عليكم بجهلكم واتباعكم الظن وخرصكم في المعارف الإلهية فحجتكم تدل على أن لا حجة لكم في دعوته إياكم إلى رفض الشرك وترك الافتراء عليه، وأن الحجة إنما هي لله عليكم فإنه لو شاء لهداكم أجمعين وأجبركم على الإيمان وترك الشرك والتحريم، وإذ لم يجبركم على ذلك وأبقاكم على الاختيار فله أن يدعوكم إلى ترك الشرك والتحريم.

ج. وبعبارة أخرى: يتفرع على حجتكم أن الحجة لله عليكم لأنه لو شاء لأجبر على الإيمان فهداكم أجمعين، ولم يفعل بل جعلكم مختارين يجوز بذلك دعوتكم إلى ما دعاكم إليه.

٢. وقد بين تعالى في طائفة من الآيات السابقة أنه تعالى لم يضطر عباده على الإيمان ولم يشأ منهم ذلك بالمشية التكوينية حتى يكونوا مجبرين عليه بل أذن لهم في خلافه وهذا الإذن الذي هو رفع المانع التكويني هو اختيار العباد وقدرتهم على جانبي الفعل والترك، وهذا الإذن لا ينافي الأمر التشريعي بترك الشرك مثلا بل هو الأساس الذي يبتني عليه الأمر والنهي.

٣. أحاديث وآثار: في أمالي الشيخ بإسناده عن مسعدة بن زياد قال: سمعت جعفر بن محمد عليه

السلام وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فقال: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: عبدي، كنت عالماً؟ فإن قال: نعم، قال له: أفلا عملت بما علمت؟ وإن قال: كنت جاهلاً، قال: أفلا تعلمت حتى تعمل؟ فيخصمه، فتلك الحجة البالغة.

• أقول: وهو من بيان المصداق.

١٠٨. طلب الشهود على التحريم والنهي عن اتباع الأهواء:

المقطع [١٠٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٦٨»:

١. ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ هلم شهداءكم أي هاتوا شهداءكم وهو اسم فعل يستوي فيه المفرد والمثنى والمجموع، والمراد بالشهادة شهادة الأداء والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى ما ذكر من المحرمات عندهم، والخطاب خطاب تعجيزي أمر به الله سبحانه ليكشف به أنهم مفترون في دعواهم أن الله حرم ذلك فهو كناية عن عدم التحريم.

٢. ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ في معنى الترقي، والمعنى: لا شاهد فيهم يشهد بذلك فلا تحريم حتى أنهم لو شهدوا بالتحريم فلا تشهد معهم إذ لا تحريم ولا يعبأ بشهادتهم فإنهم قوم يتبعون أهواءهم.

٣. فقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، عطف تفسير لقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ أي إن شهادتك اتباع لأهوائهم كما أن شهادتهم من اتباع الأهواء، وكيف لا؟ وهم قوم كذبوا بآيات الله الباهرة، ولا يؤمنون بالآخرة ويعدلون بربهم غيره من خلقه كالأوثان، ولا يجترئ على ذلك مع كمال البيان وسطوع البرهان إلا الذين يتبعون الأهواء.

١٠٩. المحرمات الكبرى والوصايا والعقل:

المقطع [١٠٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٧٣»:

١. ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾:

أ. قيل: تعال مشتق من العلو وهو أمر بتقدير أن الأمر في مكان عال وإن لم يكن الأمر على ذلك بحسب الحقيقة، والتلاوة قريب المعنى من القراءة، وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَتْلُ﴾ أو قوله: ﴿حَرَّمَ﴾ على طريق التنازع في المتعلق، وربما قيل: إن ﴿عَلَيْكُمْ﴾ اسم فعل بمعنى خذوا وقوله: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا﴾ معموله والنظم: عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا (إلخ)، وهو خلاف ما يسبق إلى الذهن من السياق.

ب. ولما كان قوله: ﴿تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾، دعوة إلى التلاوة وضع في الكلام عين ما جاء به الوحي في مورد المحرمات من النهي في بعضها والأمر بالخلاف في بعضها الآخر فقال: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ كما قال: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ﴾ ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾، وقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ كما قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾

ج. وقد قدم الشرك على سائر المحرمات لأنه الظلم العظيم الذي لا مطمع في المغفرة الإلهية معه قال: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وإليه ينتهي كل معصية كما ينتهي إلى التوحيد بوجه كل حسنة.

٢. ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾:

أ. أي أحسنوا بالوالدين إحسانا، وفي المجمع: (أي وأوصى بالوالدين إحسانا، ويدل على ذلك أن في (حرم كذا) معنى أوصى بتحريمه وأمر بتجنبه)، وقد عد في مواضع من القرآن الكريم إحسان الوالدين تاليا للتوحيد ونفي الشرك فأمر به بعد الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك به كقوله: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ [الإسراء: ٢٣] وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِّ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤] وغير ذلك من الآيات.

ب. ويدل ذلك على أن عقوق الوالدين من أعظم الذنوب أو هو أعظمها بعد الشرك بالله العظيم، والاعتبار يهدي إلى ذلك فإن المجتمع الإنساني الذي لا يتم للإنسان دونه حياة ولا دين هو أمر وضعي اعتباري لا يحفظه في حدوثه وبقائه إلا حب النسل الذي يتكئ على رابطة الرحمة المتكونة في البيت القائمة

بالوالدين من جانب وبالأولاد من جانب آخر، والأولاد إنما يحتاجون إلى رحمتهما وإحسانهما في زمان تتوق أنفسهما إلى نحو الأولاد بحسب الطبع، وكفى به داعيا ومحرضا لهما إلى الإحسان إليهم بخلاف حاجتهم إلى رأفة الأولاد ورحمتهم فإنها بالطبع يصادف كبرهما ويوم عجزهما عن الاستقلال بالقيام بواجب حياتهما وشباب الأولاد وقوتهم على ما يعنيهم.

ج. وجفاء الأولاد للوالدين وعقوقهم لهما يوم حاجتهما إليهم ورجائهما منهم وانتشار ذلك بين النوع يؤدي بالمقابلة إلى بطلان عاطفة التوليد والتربية، ويدعو ذلك من جهة إلى ترك التناسل وانقطاع النسل، ومن جهة إلى كراهية تأسيس البيت والتكاهل في تشكيل المجتمع الصغير، والاستنكاف عن حفظ سمة الأبوة والأمومة، وينجر إلى تكون طبقة من الذرية الإنسانية لا قرابة بينهم ولا أثر من رابطة الرحم فيهم، ويتلاشى عندئذ أجزاء المجتمع، ويتشتت شملهم، ويتفرق جمعهم، ويفسد أمرهم فسادا لا يصلحه قانون جار ولا سنة دائرة، ويرتحل عنهم سعادة الدنيا والآخرة، وسنقدم إليك بحثا ضافيا في هذه الحقيقة الدينية إن شاء الله.

٣. ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ﴾:

أ. الإملاق الإفلاس من المال والزاد ومنه التملق، وقد كان هذا كالسنة الجارية بين العرب في الجاهلية لتسرع الجدب والقحط إلى بلادهم فكان الرجل إذا هدده الإفلاس بادر إلى قتل أولاده تأنفا من أن يراهم على ذلة العدم والجوع.

ب. وقد علل النهي بقوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيَّاهُمْ﴾ أي إنما تقتلونهم مخافة أن لا تقدروا على القيام بأمر رزقهم ولستم برازقين لهم بل الله يرزقكم وإياهم جميعا فلا تقتلوهم.

٤. ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا اَلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ﴾:

أ. الفواحش جمع فاحشة وهي الأمر الشنيع المستقبح، وقد عد الله منها في كلامه الزنا واللواط وقذف المحصنات، والظاهر أن المراد مما ظهر ومما بطن العلانية والسر كالزنا العلني واتخاذ الأخدان والأخلاء سرا.

ب. وفي استباحة الفاحشة إبطال فحشها وشناعتها، وفي ذلك شيوعها لأنها من أعظم ما تتوق إليه النفس الكارهة لأن يضرب عليها بالحرمان من ألذ لذائذها وتحجب عن أعجب ما تتعلق به وتعزم به

شهوتها، وفي شيوعها انقطاع النسل وبطلان المجتمع البيتي وفي بطلانه بطلان المجتمع الكبير الإنساني، وسوف نستوفي هذا البحث إن شاء الله فيما يناسبه من المحل، وكذلك استباحة القتل وما في تلوه من الفحشاء إبطال للأمن العام وفي بطلانه انهدام بنية المجتمع الإنساني وتبدد أركانه.

٥. ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا اَلنَّفْسَ اَلَّتِي حَرَّمَ اَللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ أي حرم الله قتلها أو حرمها بالحرمة المشرعة لها التي تقيها وتحميها من الضيعة في دم أو حق، قيل: إنه تعالى أعاد ذكر القتل وإن كان داخلا في الفواحش تفخيما لشأنه وتعظيما لأمره، ونظيره الكلام في قتل الأولاد خشية الإملاق اختص بالذكر عناية به، وقد كانت العرب تفعل ذلك بزعمهم أن خشية الإملاق تبيح للوالد أن يقتل أولاده، ويصان به ماء وجهه من الابتذال، والأبوة عندهم من أسباب الملك، وقد استثنى الله تعالى من جهة قتل النفس المحترمة التي هي نفس المسلم والمعاهد قتلها بالحق وهو القتل بالقود والحد الشرعي.

٦. ثم أكد تحريم المذكورات في الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ سيجيء الوجه في تعليل هذه المناهي الخمس بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن أبي بصير قال: كنت جالساً عند أبي جعفر عليه السلام وهو متكئ على فراشه، إذ قرأ الآيات المحكمات التي لم ينسخهن شيء من الأنعام، قال: شيعها سبعون ألف ملك: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]

ب. أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلاه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى ثلاث آيات، ثم قال: فمن وفى بهن، فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً، فأدركه الله في الدنيا، كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة، كان أمره إلى الله، إن شاء آخذه، وإن شاء عفا عنه.

• أقول: والرواية لا تخلو عن شيء، فإن فيما ذكر في الآيات الشرك بالله، ولا تكفي فيه عقوبة الدنيا، ولا تناله مغفرة في الآخرة بنص القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهَّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ

عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١-١٦٢]

• على أن ظاهر الرواية كون هذه الأحكام مما يختص بهذه الشريعة، كما يشعر به ما نقل عن بعض الصحابة والتابعين، كالذي رواه في الدر المنثور عن جمع عن ابن مسعود قال: من سره أن ينظر إلى وصية محمد التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ونظيره ما روي عن منذر الثوري عن الربيع بن خيثم.

ج. وفي تفسير العياشي عن عمرو بن أبي المقدام عن أبيه عن علي بن الحسين عليه السلام: ﴿الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال: ما ظهر من نكاح امرأة الأب، وما بطن منها الزنا.

• أقول: وهو من قبيل ذكر بعض المصاديق.

١١٠. الوصايا في مال اليتيم والعدل والوفاء بالعهد:

المقطع [١١٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٧٦»:

١. ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ النهي عن القرب للدلالة على التعميم فلا يحل أكل ماله ولا استعماله ولا أي تصرف فيه إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق المتصورة لحفظه، ويمتد هذا النهي وتدوم الحرمة إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم يكن يتيما قاصرا عن إدارة ماله وكان هو المتصرف في مال نفسه من غير حاجة بالطبع إلى تدبير الولي لماله، ومن هنا يظهر أن المراد ببلوغه أشده هو البلوغ والرشد كما يدل عليه أيضا قوله: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦]، ويظهر أيضا أنه ليس المراد بتحديد حرمة التصرف في مال اليتيم بقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ رفع الحرمة بعد بلوغ الأشد وإباحة التصرف حينئذ بل المراد بيان الوقت الذي يصلح للاقتراب من ماله، وارتفاع الموضوع بعده فإن الكلام في معنى: وأصلحوا مال اليتيم الذي لا يقدر على إصلاح ماله وإنمائه حتى يكبر ويقدر.

٢. ﴿وَأَوْفُوا اَلْكَيْلَ واَلْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ الإيفاء بالقسط هو العمل بالعدل فيهما من غير بخس، وقوله: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ بمنزلة دفع الدخل كأنه قيل: إن الإيفاء بالقسط والوقوع في العدل الحقيقي الواقعي لا يمكن للنفس الإنسانية التي لا مناص لها عن أن تلتجئ في أمثال هذه الأمور إلى التقريب فأجيب بأنا لا نكلف نفسا إلا وسعها، ومن الجائز أن يتعلق قوله: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ بالحكمين جميعا أعني قوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اَلْيَتِيمِ﴾، وقوله: ﴿وَأَوْفُوا اَلْكَيْلَ واَلْمِيزَانَ﴾

٣. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذَا قُرْبى﴾ ذكر ذي القربى وهو الذي تدعو عاطفة القرابة والرحم إلى حفظ جانبه وصيانته من وقوع الشر والضرر في نفسه وماله يدل على أن المراد بالقول هو القول الذي يمكن أن يترتب عليه انتفاع الغير أو تضرره كما أن ذكر العدل في القول يؤيد ذلك، ويدل على أن هناك ظلما، وأن القول متعلق ببعض الحقوق كالشهادة والقضاء والفتوى ونحو ذلك، فالمعنى: وراقبوا أقوالكم التي فيها نفع أو ضرر للناس واعدلوا فيها، ولا يحملنكم رحمة أو رأفة أو أي عاطفة على أن تراعوا جانب أحد فتحرفوا الكلام وتجاوزوا الحق فتشهدوا أو تقضوا بما فيه رعاية لجانب من تحبونه وإبطال حق من تكرهونه، قال في المجمع: (وهذا من الأوامر البليغة التي يدخل فيها مع قلة حروفها الأقارير والشهادات، والوصايا، والفتاوى، والقضايا، والأحكام، والمذاهب، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)

٤. ﴿وَبِعَهْدِ اَللَّهِ أَوْفُوا﴾ قال الراغب في المفردات: (العهد حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال)، ولذا يطلق على الفرامين والتكاليف المشرعة والوظائف المحولة وعلى العهد الذي هو الموثق وعلى النذر واليمين، وكثرة استعماله في القرآن الكريم في الفرامين الإلهية، وإضافته في الآية إلى الله سبحانه، ومناسبة المورد وفيه بيان الأحكام والوصايا الإلهية العامة كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اَللَّهِ أَوْفُوا﴾ التكاليف الدينية الإلهية، وإن كان من الممكن أن يكون المراد بالعهد هو الميثاق المعقود بمثل قولنا: عاهدت الله على كذا وكذا، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اَلْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُلاً﴾ [الإسراء: ٣٤] فيكون إضافته إلى الله نظير إضافة الشهادة إليه في قوله: ﴿وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اَللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] للإشارة إلى أن المعاملة فيه معه سبحانه، ثم أكد التكاليف المذكورة في الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

١١١. الأمر باتباع الصراط المستقيم والنهي عن التفرق:

المقطع [١١١] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٧٨»:

١. ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعُوا اَلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قرئ: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة وتشديد النون وتخفيفها وكأنه بالعطف على موضع قوله: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف.

ب. والذي يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآية أحد الوصايا التي أمر النبي ﷺ أن يتلوها عليهم ويخبرهم بها حيث قيل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، ولازم ذلك أن يكون قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ مسوقا لا لتعلق الغرض به بنفسه لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه بل ليكون توطئة وتمهيدا لقوله بعده: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا اَلسُّبُلَ﴾ كما أن هذه الجملة بعينها كالتوطئة لقوله: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فالمراد بالآية أن لا تتفرقوا عن سبيله ولا تختلفوا فيه، فتكون الآية مسوقة سوق قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ اَلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَاَلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ ومُوسى وعِيسى أَنْ أَقِيمُوا اَلدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] فالأمر في الآية بإقامة الدين هو ما وصى من الدين المشروع كأنه أعيد ليكون تمهيدا للنهي عن التفرق بالدين.

ج. فالمعنى: ومما حرم ربكم عليكم ووصاكم به أن لا تتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا يقبل التخلف والاختلاف وهي غير سبيل الله فإن اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه فتخرجون من الصراط المستقيم إذ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه.

د. ومقتضى ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: ﴿صِرَاطِي﴾ صراط النبي ﷺ فإنه هو الذي يخاطب الناس بهذه التكاليف عن أمر من ربه إذ يقول: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾، فهو المتكلم معهم المخاطب لهم، ولله سبحانه في الآيات مقام الغيبة حتى في ذيل هذه الآية إذ يقول: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ ولا ضير في نسبة الصراط المستقيم إلى النبي ﷺ فقد نسب الصراط المستقيم إلى جمع من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في قوله: ﴿اِهْدِنَا اَلصِّرَاطَ اَلْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ اَلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الحمد: ٧]

هـ. لكن المفسرين كأنهم تسلموا أن ضمير التكلم في قوله: ﴿صِرَاطِي﴾ لله سبحانه ففي الآية نوع

من الالتفات لكن لا في قوله: ﴿صِرَاطِي﴾ بل في قوله: ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فإن معنى الآية: تعالوا أتل عليكم ما وصاكم به ربكم وهو أنه يقول لكم: (إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه) أو وصيته (إن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيلي) فالالتفات ـ كما مر ـ إنما هو في قوله: ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾

و. وكيف كان فهو تعالى في الآية يسمي ما ذكره من كليات الدين بأنه صراطه المستقيم الذي لا تخلف في هداية سالكيه وإيصالهم إلى المقصد ولا اختلاف بين أجزائه ولا بين سالكيه ما داموا عليه فلا يتفرقون البتة ثم ينهاهم عن اتباع سائر السبل فإن من شأنها إلقاء الخلاف والتفرقة لأنها طرق الأهواء الشيطانية التي لا ضابط يضبطها، بخلاف سبيل الله المبني على الفطرة والخلقة ولا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيثم أكد سبحانه حكمه في الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

٢. وقد اختلفت الخواتيم في الآيات الثلاث فختمت الآية الأولى بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ والثانية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ والثالثة بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ولعل الوجه في ذلك:

أ. أن الأمور المذكورة في الآية الأولى وهي الشرك بالله العظيم وعقوق الوالدين وقتل الأولاد من إملاق وقربان الفواحش الشنيعة وقتل النفس المحترمة من غير حق مما تدرك الفطرة الإنسانية حرمتها في بادئ نظرها ولا يجترئ عليها الإنسان الذي يتميز من سائر الحيوان بالعقل إلا إذا اتبع الأهواء وأحاطت به العواطف المظلمة التي تضرب بحجاب ثخين دون العقل، فمجرد الاعتصام بعصمة العقل في الجملة والخروج عن خالصة الأهواء يكشف للإنسان عن حرمتها وشامتها على الإنسان بما هو إنسان، ولذلك ختمت بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

ب. وما ذكر منها في الآية الثانية وهي الاجتناب عن مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط، والعدل في القول، والوفاء بعهد الله: أمور ليست بمثابة ما تليت في الآية الأولى من الظهور بل يحتاج الإنسان، مع تعبيه بالعقل في إدراك حالها، إلى التذكر وهو الرجوع إلى المصالح والمفاسد العامة المعلومة عند العقل الفطري حتى يدرك ما فيها من المفاسد الهادمة لبنيان مجتمعه، المشرفة به وبسائر بني نوعه إلى التهلكة؛ فماذا يبقى من الخير في مجتمع إنساني لا يرحم فيه الصغير والضعيف، ويطفف فيه الكيل والوزن، ولا يعدل فيه في الحكم والقضاء، ولا يصغي فيه إلى كلمة الحق!؟ ولهذه النكتة ختمت الآية بقوله: ﴿ذَلِكُمْ

وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

ج. والغرض المسوق له الآية الثالثة هو النهي عن التفرق والاختلاف في الدين باتباع سبل غير سبيل الله، واتباع هاتيك السبل من شأنه أن التقوى الديني لا يتم إلا بالاجتناب عنه، وذلك:

• أن التقوى الديني إنما يحصل بالتبصر في المناهي الإلهية والورع عن محارمه بالتعقل والتذكر، وبعبارة أخرى بالتزام الفطرة الإنسانية التي بني عليها الدين، وقد قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] وقد وعد الله المتقين إن اتقوا يمددهم بما يتضح به سبيلهم ويفرق به بين الحق والباطل عندهم فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اَللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ [الطلاق: ٢] وقال: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اَللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: ٢٩] فهو على صراط التقوى ما دام ملازما لطريق التعقل والتذكر جاريا على مجرى الفطرة، وإذا انحرف إلى الخارج من هذا الصراط وليس إلا اتباع الأهواء والإخلاد إلى الأرض والاغترار بزينة الحياة الدنيا جذبته الأهواء والعواطف إلى الاسترسال والعكوف على مخالفة العقل السليم وترك التقوى الديني من غير مبالاة بما يهدده من شؤم العاقبة كالسكران لا يدري ما يفعل ولا ما يفعل به.

• والأهواء النفسانية مختلفة لا ضابط يضبطها ولا نظام يحكم عليها يجتمع فيه أهلها ولذلك لا تكاد ترى اثنين من أهل الأهواء يتلازمان في طريق أو يتصاحبان إلى غاية، وقد عد الله سبحانه لهم في كلامه سبلا شتى كقوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ اَلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] وقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ اَلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ اَلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] وقوله في المشركين: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ اَلظَّنَّ ومَا تَهْوَى اَلْأَنْفُسُ ولَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ اَلْهُدى﴾ [النجم: ٢٣] وأنت إن تتبعت آيات الهدى والضلال والاتباع والإطاعة وجدت في هذا المعنى شيئا كثيرا.

• وبالجملة التقوى الديني لا يحصل بالتفرق والاختلاف، والورود في أي مشرعة شرعت، والسلوك من أي واد لاح لسالكه بل بالتزام الصراط المستقيم الذي لا تخلف فيه ولا اختلاف فذلك هو الذي يرجى معه التلبس بلباس التقوى، ولذلك عقب الله سبحانه قوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا اَلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

٣. وقال في روح المعاني:

أ. (وختمت الآية الأولى بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذه، يعني الثانية، بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ﴾ لأن القوم كانوا مستمرين على الشرك وقتل الأولاد وقربان الزنا وقتل النفس المحرمة بغير حق غير مستنكفين ولا عاقلين قبحها فنهاهم لعلهم يعقلون قبحها فيستنكفوا عنها ويتركوها، وأما حفظ أموال اليتامى عليهم وإيفاء الكيل والعدل في القول والوفاء بالعهد فكانوا يفعلونه ويفتخرون بالاتصاف به فأمرهم الله تعالى بذلك لعلهم يذكرون إن عرض لهم نسيان، قاله القطب الرازي)، وأنت خبير بأن الذي ذكره من اتصافهم بحفظ أموال اليتامى وإيفاء الكيل والعدل في القول لا يوافق ما ضبط التاريخ من خصال عرب الجاهلية، على أن الذي فسر به التذكر إنما هو معنى الذكر دون التذكر في عرف القرآن.

ب. ثم قال: وقال الإمام، يعني الرازي، في التفسير الكبير: (السبب في ختم كل آية بما ختمت أن التكاليف الخمسة المذكورة في الآية الأولى ظاهرة جلية فوجب تعقلها وتفهمها والتكاليف الأربعة المذكورة في هذه الآية يعني الثانية أمور خفية غامضة لا بد فيها من الاجتهاد والفكر الكثير حتى يقف على موضوع الاعتدال وهو التذكر)، وما ذكره من الوجه قريب المأخذ مما قدمناه غير أن الأمور الأربعة المذكورة في الآية الثانية مما يناله الإنسان بأدنى تأمل، وليست بذلك الخفاء والغموض الذي وصفه، ولذا التجأ إلى إرجاع التذكر إلى الوقوف على حد الاعتدال فيها دون أصلها فأفسد بذلك معنى الآية فإن مقتضى السياق رجوع رجاء التذكر إلى أصل ما وصى به فيها، والذي يحتاج منها بحسب الطبع إلى الوقوف حد اعتداله هما الأمران الأولان أعني قربان مال اليتيم وإيفاء الكيل والوزن، وقد تدورك أمرهما بقوله: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ فافهم ذلك.

ج. ثم قال في الآية الثالثة: قال أبو حيان: (ولما كان الصراط المستقيم هو الجامع للتكاليف وأمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره من الطرق ختم ذلك بالتقوى التي هي اتقاء النار إذ من اتبع صراطه نجا النجاة الأبدية، وحصل على السعادة السرمدية)، وهو مبني على جعل الأمر باتباع الصراط المستقيم في الآية مما تعلق به القصد بالأصالة وقد تقدم أن مقتضى السياق كونه مقدمة للنهي عن التفرق باتباع السبل الأخرى، وتوطئة لقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا اَلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي والبزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم

خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

ب. أخرج أحمد وابن ماجة وابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فخط خطاً هكذا أمامه، فقال: هذا سبيل الله، وخطين عن يمينه وخطين عن شماله، فقال: هذا سبيل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط وقرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية.

ج. وفي تفسير القمي أخبرنا الحسن بن علي عن أبيه عن الحسين بن سعيد عن محمد بن سنان عن أبي خالد القماط عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال: نحن السبيل، فمن أبى فهذه السبل، فقد كفر.

• أقول: وهو من الجري، والذي ذكره عليه السلام مستفاد من قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، إذا انضم إلى قوله: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]

• وقد وردت عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن علياً هو الصراط المستقيم، وقد تقدمت الإشارة إليها في تفسير سورة الفاتحة في الجزء الأول من الكتاب.

١١٢. إيتاء موسى الكتاب تماماً وتفصيلاً وهدى ورحمة:

المقطع [١١٢] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٨٢»:

١. ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى اَلْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى اَلَّذِي أَحْسَنَ﴾:

أ. لما كان ما ذكره ووصى به من كليات الشرائع تكاليف مشرعة عامة لجميع ما أوتي الأنبياء من الدين، وهي أمور كلية مجملة صحح ذلك الالتفات إلى بيان أنه تعالى بعد ما شرعها للجميع إجمالا فصلها حيث اقتضت تفصيلها لموسى عليه السلام أولا فيما أنزل عليه من الكتاب، وللنبي ﷺ ثانيا فيما أنزله عليه من كتاب مبارك فقال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى اَلْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى اَلَّذِي أَحْسَنَ وتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾

ب. فمعنى الآية: أنا بعد ما شرعنا من إجمال الشرائع الدينية آتينا موسى الكتاب تماما تتم به نقيصة من أحسن منهم من حيث الشرع الإجمالي وتفصيلا يفصل به كل شيء من فروع هذه الشرائع الإجمالية مما يحتاج إليه بنو إسرائيل وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنو هذا هو الذي يعطيه سياق الآية المتصل بسياق الآيات الثلاث السابقة.

ج. فقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ رجوع إلى السياق السابق الذي قبل قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، وهو خطاب الله لنبيه ﷺ بصيغة المتكلم مع الغير، وقد أفيد بالتأخير المستفاد من لفظة ﴿ثُمَّ﴾ أن هذا الكتاب إنما أنزل ليكون تماما وتفصيلا للإجمال الذي في تلك الشرائع العامة الكلية.

٢. وقد وجه المفسرون قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ﴾ بوجوه غريبة:

أ. منها: أن في الكلام حذفا والتقدير: ثم قل يا محمد آتينا موسى الكتاب.

ب. ومنها: أن التقدير: ثم أخبركم أن موسى أعطي الكتاب.

ج. ومنها: أن التقدير: ثم أتل عليكم: آتينا موسى الكتاب.

د. ومنها: أنه متصل بقوله في قصة إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ والنظم: (ووهبنا له إسحاق ويعقوب ثم آتينا موسى الكتاب)

هـ. والذي دعاهم إلى هذه التكلفات أن التوراة قبل القرآن ولفظة ﴿ثُمَّ﴾ تقتضي التراخي ولازمه نزول التوراة بعد القرآن وقد قيل قبل ذلك: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، وما تقدم من البيان يكفيك مئونة هذه الوجوه.

٣. ﴿تَمَاماً عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنَ﴾ يبين أن إنزال الكتاب لتتم به نقيصة الذين أحسنوا من بني إسرائيل في العمل بهذه الشرائع الكلية العامة، وقد قال تعالى في قصة موسى بعد نزول الكتاب: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] وقال: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] وعلى هذا فالموصول في قوله: ﴿عَلَى ٱلَّذِي أَحْسَنَ﴾ يفيد الجنس.

٤. وقد ذكروا في معنى الجملة وجوها أخرى:

أ. فقيل: المعنى: تماما على إحسان موسى بالنبوة والكرامة.

ب. وقيل: المعنى: إتماما للنعمة على الذين أحسنوا من المؤمنين.

ج. وقيل: المعنى: إتماما للنعمة على الأنبياء الذين أحسنوا.

د. وقيل: المعنى: تماما لكرامته في الجنة على إحسانه في الدنيا.

هـ. وقيل: المعنى تماما على الذي أحسن الله إلى موسى من الكرامة بالنبوة وغيرها.

و. وقيل: إنه متصل بقصة إبراهيم والمعنى: تماما للنعمة على إبراهيم، وضعف الجميع ظاهر.

٥. ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي مما يحتاج إليه بنو إسرائيل أو ينتفع به غيرهم ممن بعدهم، وهدى يهتدي به ورحمة ينعمون بها.

٦. ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه إشارة إلى أن بني إسرائيل كانوا يتثاقلون أو يستنكفون عن الإيمان بلقاء الله واليوم الآخر، ومما يؤيده أن التوراة الحاضرة التي يذكر القرآن أنها محرفة لا يوجد فيها ذكر من البعث يوم القيامة، وقد ذكر بعض المورخين منهم أن شعب إسرائيل ما كانت تعتقد المعاد.

١١٣. القرآن مبارك وهدى ورحمة:

المقطع [١١٣] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥ـ١٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٨٤»:

١. ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾، أي وهذا كتاب مبارك يشارك كتاب موسى فيما ذكرناه من الخصيصة فاتبعوه.

٢. ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾:

أ. ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ معناه كراهة أن تقولوا، أو لئلا تقولوا، وهو شائع في الكلام، وهو متعلق بقوله في الآية السابقة: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾

ب. ﴿طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ يراد به اليهود والنصارى أنزل عليهما التوراة والإنجيل، وأما كتب

الأنبياء النازلة قبلهما مما يذكره القرآن مثل كتاب نوح وكتاب إبراهيم عليه السلام فلم يكن فيها تفصيل الشرائع وإن اشتملت على أصلها، وأما سائر ما ينسب إلى الأنبياء عليه السلام من الكتب كزبور داود عليه السلام وغيره فلم تكن فيها شرائع ولا لهم بها عهد.

ج. والمعنى أنا أنزلنا القرآن كراهة أن تقولوا: إن الكتاب الإلهي المفصل لشرائعه إنما أنزل على طائفتين من قبلنا هم اليهود والنصارى وإنا كنا غافلين عن دراستهم وتلاوتهم، ولا بأس علينا مع الغفلة.

٣. ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا اَلْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ﴾ أي من الذين أنزل إليهم الكتاب قبلنا.

٤. ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ تفريع لقوليه: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ جميعا، وقد بدل الكتاب من البينة ليدل به على ظهور حجته ووضوح دلالته بحيث لا يبقى عذر لمعتذر ولا علة لمتعلل، والصدف الإعراض ومعنى الآية ظاهر.

١١٤. الملائكة وآيات الله وانتهاء الاختبار:

المقطع [١١٤] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٨٧»:

١. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ اَلْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ استفهام إنكاري في مقام لا تنفع فيه عظة ولا تنجح فيه دعوة فالأمور المذكورة في الآية لا محالة أمور لا تصحب إلا القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل بإذهابهم وتطهير الأرض من رجسهم:

أ. ولازم هذا السياق أن يكون المراد بإتيان الملائكة نزولهم بآية العذاب كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا اَلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ اَلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ اَلصَّادِقِينَ مَا نُنَزِّلُ اَلْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]

ب. ويكون المراد بإتيان الرب هو يوم اللقاء وهو الانكشاف التام لآية التوحيد بحيث لا يبقى عليه ستر كما هو شأن يوم القيامة المختص بانكشاف الغطاء، والمصحح لإطلاق الإتيان على ذلك هو الظهور بعد الخفاء والحضور بعد الغيبة جل شأنه عن الاتصاف بصفات الأجسام، وربما يقال: إن المراد

إتيان أمر الرب وقد مر نظيره في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اَللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ اَلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]

ج. ويكون المراد بإتيان بعض آيات الرب إتيان آية تلازم تبدل نشأة الحياة عليهم بحيث لا سبيل إلى العود إلى فسحة الاختيار:

- كآية الموت التي تبدل نشأة العمل نشأة الجزاء البرزخي.
- أو تلازم استقرار ملكة الكفر والجحود في نفوسهم استقرارا لا يمكنهم معه الإذعان بالتوحيد والإقبال بقلوبهم إلى الحق إلا ما كان بلسانهم خوفا من شمول السخط والعذاب كما ربما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ اَلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ اَلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ اَلنَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢] وكذا قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتى هَذَا اَلْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ يَوْمَ اَلْفَتْحِ لاَ يَنْفَعُ اَلَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩] فإن الظاهر أن المراد بالفتح هو الفتح للنبي ﷺ بالقضاء بينه وبين أمته بالقسط كما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام في قوله: ﴿رَبَّنَا اِفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ اَلْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] وحكاه عن رسله في قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]
- أو تلازم بأسا من الله تعالى لا مرد له ولا محيص عنه فيضطرهم الله الإيمان ليتقوا به أليم العذاب لكن لا ينفعهم ذلك فلا ينفع من الإيمان إلا ما كان عن اختيار كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اَللهِ اَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ اَلْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]

٢. فهذه أعني إتيان الملائكة أو إتيان الرب أو إتيان بعض آياته أمور تصاحب القضاء بينهم بالقسط وهم لكونهم لا تؤثر فيهم حجة ولا تنفعهم موعظة لا ينظرون إلا ذلك وإن ذهلوا عنه فإن الواقع أمامهم علموا أو جهلوا.

٣. وربما قيل: إن الاستفهام للتهكم، فإنهم كانوا يقترحون على النبي ﷺ أن ينزل عليهم الملائكة أو يروا ربهم أو يأتيهم بآية كما أرسل الأولون فكأنه قيل: هؤلاء لا يريدون حجة وإنما ينتظرون ما اقترحوه من الأمور، وهذا الوجه غير بعيد بالنسبة إلى صدر الآية لكن ذيلها أعني قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ

رَبِّكَ﴾، لا يلائمه تلك الملاءمة فإن التهكم لا يتعدى فيه إلى بيان الحقائق وتفصيل الآثار.

٤. ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، يشرح خاصة يوم ظهور هذه الآيات، وهي في الحقيقة خاصة نفس الآيات وهي أن الإيمان لا ينفع نفسا لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع واختيار أو آمنت قبله ولم تكن كسبت في إيمانها خيرا ولم تعمل صالحا بل انهمكت في السيئات والمعاصي إذ لا توبة لمثل هذا الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ اَلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ اَلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ اَلْآنَ﴾ [النساء: ١٨] فالنفس التي لم تؤمن من قبل إيمان طوع ورضى أو آمنت بالله وكذبت بآيات الله ولم تعتن بشيء من شرائع الله واسترسلت في المعاصي الموبقة ولم تكتسب شيئا من صالح العمل فيما كان عليها ذلك ثم شاهدت البأس الإلهي فحملها الاضطرار إلى الإيمان لترد به بأس الله تعالى لم ينفعها ذلك، ولم يرد عنها بأسا ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

٥. وفي الآية من بديع النظم ولطيف السياق أنه كرر فيها لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ ثلاث مرات وليس إلا لتأييد النبي ﷺ تجاه خصمه وهم المشركون حيث كانوا يفتخرون بأربابهم ويباهون بأوثانهم ليعتز بربه ويثبت به قلبه ويربط جأشه في دعوته إن نجحت وإلا فبالقضاء الفصل الذي يقضي به ربه بينه وبين خصمه ثم أكد ذلك وزاد في طمأنة نفسه بقوله في ختام الآية: ﴿قُلِ اِنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ أي فانتظر أنت ما هم منتظرون، وأخبرهم أنك في انتظاره، ومرهم أن ينتظروه فهو الفصل وليس بالهزل.

٦. ومن هنا يظهر أن الآية تتضمن تهديدا جديا لا تخويفا صوريا وبه يظهر فساد ما ذكره بعضهم في دفع قول القائل: إن الاستفهام في الآية للتهكم فقال: (إن هذه الآيات الثلاث هي ما ينتظرونه كغيرهم في نفس الأمر فلا يصح أن يراد بهذا البعض شيء مما اقترحوه لأن إيتاء الآيات المقترحة على الرسل يقتضي في سنة الله هلاك الأمة بعذاب الاستئصال إذا لم تؤمن به، والله لا يهلك أمة نبي الرحمة)، وفيه: أن دلالة الآيات القرآنية على أن هذه الأمة سيشملهم القضاء بينهم بالقسط والحكم الفصل مما لا سترة عليها كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ويَقُولُونَ مَتى هَذَا اَلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا ولاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اَللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، إلى أن قال، ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي ورَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ومَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ إلى آخر الآية: (يونس: ٤٧، ٥٣)

٧. وقد استدل بالآية على أن الإيمان لا أثر له إذا لم يقترن بالعمل وهو حق في الجملة لا مطلقا فإن

الآية في مقام بيان أن من كان في وسعه أن يؤمن بالله فلم يؤمن أو في وسعه أن يؤمن ويعمل صالحا فآمن ولم يعمل صالحا حتى لحقه البأس الإلهي الشديد الذي يضطره إلى ذلك فإنه لا ينتفع بإيمانه، وأما من آمن طوعا فأدركه الموت ولم يمهله الأجل حتى يعمل صالحا ويكسب في إيمانه خيرا فإن الآية غير متعرضة لبيان حاله بل الآية لا تخلو عن إشعار أو دلالة على أن النافع إنما هو الإيمان إذا كان عن طوع ولم يحط به الخطيئة ولم تفسده السيئة.

٨. في قوله: ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ﴾ الفصل بين الموصوف والوصف بفاعل الفعل وهو إيمانها وكأنه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل وفاعله، واجتماع ﴿فِي إِيمَانِهَا﴾ و﴿إِيمَانُهَا﴾ في اللفظ.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قال: طلوع الشمس من المغرب، وخروج الدابة، والدخان، والرجل يكون مصراً ولم يعمل عمل الإيمان، ثم تجيء الآيات، فلا ينفعه إيمانه.

• أقول: وقوله: (الرجل يكون مصراً) إلخ، تفسير لقوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] على ما قدمناه، ويدل عليه الرواية الآتية.

ب. وفيه عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قال: المؤمن العاصي حالت بينه وبين إيمانه كثرة ذنوبه وقلة حسناته، فلم يكسب في إيمانه خيراً.

ج. وفي تفسير القمي حدثني أبي عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] الآية، قال: إذا طلعت الشمس من مغربها، فكل من آمن في ذلك اليوم لا ينفعه إيمانه.

د. أخرج أحمد وعبد بن حميد في مسنده والترمذي وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، قال: طلوع الشمس من مغربها.

• أقول: والظاهر أن الرواية من قبيل الجري، وكذا ما تقدم من الروايات، ويمكن أن يكون من التفسير، وكيف كان، فهو يوم تظهر فيه البطشة الإلهية التي تلجئ الناس إلى الإيمان ولا ينفعهم، وقد ورد طلوع الشمس من مغربها في أحاديث كثيرة جداً من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومن طرق أهل السنة عن جمع من الصحابة، كأبي سعيد الخدري وابن مسعود وأبي هريرة وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن أبي أوفى وصفوان بن عسال وأنس وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية وأبي أمامة وعائشة وغيرهم، وإن اختلفت في مضامينها اختلافاً فاحشاً.

• والأنظار العلمية اليوم لا تمنع تبدل الحركة الأرضية على خلاف ما هي عليه اليوم من الحركة الشرقية، أو تبدل القطبين بصيرورة الشمالي جنوبياً وبالعكس، إما تدريجاً كما يبينه الأرصاد الفلكية، أو دفعة لحادثة جوية كلية، هذا كله إن لم يكن الكلمة رمزاً أشير بها إلى سر من أسرار الحقائق.

• وقد عدت في الروايات من تلك الآيات خروج دابة الأرض والدخان وخروج يأجوج ومأجوج، وهذه أمور ينطق بها القرآن الكريم، وعد منها غير ذلك، كخروج المهدي عليه السلام ونزول عيسى بن مريم وخروج الدجال وغيرها، وهي وإن كانت من حوادث آخر الزمان، لكن كونها مما يغلق بها باب التوبة غير واضح.

هـ. وفي البرهان عن البرقي بإسناده عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما زالت الأرض إلا ولله فيها حجة، يعرف فيها الحلال والحرام، ويدعو إلى سبيل الله، ولا تنقطع الحجة من الأرض إلا أربعين يوماً قبل يوم القيامة، فإذا رفعت الحجة وأغلق باب التوبة، لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أن ترفع الحجة، وأولئك من شرار خلق الله، وهم الذين تقوم عليهم القيامة.

• أقول: ورواه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتاب مناقب فاطمة بسند آخر عن أبي عبد الله عليه السلام.

١١٥. براءة الرسول من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً:

المقطع [١١٥] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٩٠»:

١. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾:

أ. وجه الكلام السابق وإن كان مع المشركين وقد ابتلوا بتفريق الدين الحنيف، وكان أيضا لأهل الكتاب نصيب من الكلام وربما لوح إليهم بعض التلويح ولازم ذلك أن ينطبق قوله: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً﴾ على المشركين بل عليهم وعلى اليهود والنصارى لاشتراك الجميع في التفرق والاختلاف في الدين الإلهي.

ب. لكن اتصال الكلام بالآيات المبينة للشرائع العامة الإلهية التي تبتدئ بالنهي عن الشرك وتنتهي إلى النهي عن التفرق عن سبيل الله يستدعي أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً﴾ موضوعا لبيان حال النبي ﷺ مع من كان هذا وصفه فالإتيان بصيغة الماضي في قوله: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ لبيان أصل التحقق سواء كان في الماضي أو الحال أو المستقبل لا تحقق الفعل في الزمان الماضي فحسب.

ج. ومن المعلوم أن تمييز النبي ﷺ وإخراجه من أولئك المختلفين في الدين المتفرقين شيعة شيعة كل شيعة يتبع إماما يقودهم ليس إلا لأنه رسول يدعو إلى كلمة الحق ودين التوحيد، ومثال كامل يمثل بوجوده الإسلام ويدعو بعمله إليه فيعود معنى قوله: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ إلى أنهم ليسوا على دينك الذي تدعو إليه، ولا على مستوى طريقك الذي تسلكه.

٢. فمعنى الآية أن الذين فرقوا دينهم بالاختلافات التي هي لا محالة ناشئة عن العلم، وما اختلف الذين أوتوه إلا بغيا بينهم، والانشعابات المذهبية ليسوا على طريقتك التي بنيت على وحدة الكلمة ونفي الفرقة إنما أمرهم في هذا التفريق إلى ربهم لا يماسك منهم شيء فينبئهم يوم القيامة بما كانوا يفعلون ويكشف لهم حقيقة أعمالهم التي هم رهناؤها.

٣. وقد تبين بما مر أن لا وجه لتخصيص الآية بتبرئته ﷺ من المشركين أو منهم ومن اليهود والنصارى، أو من المختلفين بالمذاهب والبدع من هذه الأمة فالآية عامة تعم الجميع.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي عن أبيه عن النضر عن الحلبي عن معلى بن خنيس عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩]، قال: فارق القوم والله دينهم.

• أقول: أي باختلاف المذاهب، وقد مر حديث اختلاف الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة.

ب. وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: كان علي عليه السلام يقرؤها: (فارقوا دينهم)

• أقول: والقراءة مروية عنه عليه السلام من بعض طرق أهل السنة أيضاً، على ما في الدر المنثور وغيره.

١١٦. مضاعفة الحسنات بعشر أمثالها:

المقطع [١١٦] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٩١»:

١. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ومَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ الآية تامة في نفسها تكشف عن منة إلهية يمتن بها على عباده أنه يجازي الحسنة بعشر أمثالها، ولا يجازي السيئة إلا بمثلها أي يحسب الحسنة عشرة والسيئة واحدة ولا يظلم في الإيفاء فلا ينقص من تلك ولا يزيد في هذه، إن أمكن أن يزيد في جزاء الحسنة فيزيد على العشر كما يدل عليه قوله: ﴿مَثَلُ اَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اَللهِّ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ واَللهُّ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] وأمكن أن يعفو عن السيئة فلا يحسب حق المثل الواحد.

٢. لكنها أعني الآية باتصالها بما تقدمها وانتظامها معها في سياق واحد تفيد معنى آخر كأنه قيل بعد سرد الكلام في الآيات السابقة في الاتفاق والاجتماع على الحق والتفرق فيه: فهاتان خصلتان حسنة وسيئة يجزى فيهما ما يماثلهما ولا ظلم فإن الجزاء يماثل العمل فمن جاء بالحسنة فله مثلها ويضاعف له ومن جاء بالسيئة وهي الاختلاف المنهي عنه فلا يجزى إلا سيئة مثلها ولا يطمعن في الجزاء الحسن، وعاد المعنى إلى نظير ما استفيد من قوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أن المراد به بيان مماثلة جزاء السيئة لها في كونها سيئة لا يرغب فيها لا إثبات الوحدة ونفي المضاعفة.

٣. أحاديث وآثار: في البرهان عن البرقي عن أبيه عن النضر عن يحيى الحلبي عن ابن مسكان عن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام وأنا جالس عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، يجري لهؤلاء ممن لا يعرف منهم هذا الأمر؟ فقال: إنما هي للمؤمنين

خاصة، قلت له: أصلحك الله، أرأيت من صام وصلى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب؟ فقال: إن الله يدخل أولئك الجنة برحمته.

• أقول: والرواية تدل على أن الأجر بقدر المعرفة، وفي هذا المعنى روايات واردة من طرق الفريقين.

• وهناك روايات كثيرة في معنى قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] الآية، رواها الفريقان وأوردوها في تفسير الآية، غير أنها واردة في تشخيص المصاديق من الصوم والصلاة وغيرها، تركنا إيرادها لذلك.

١١٧. الصراط المستقيم والدين القيم وملة إبراهيم:

المقطع [١١٧] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٩٤»:

١. ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى آخر الآيتين، القيم بالكسر فالفتح مخفف القيام وصف به الدين للمبالغة في قيامه على مصالح العباد، وقيل: وصف بمعنى القيم على الأمر، يأمر الله سبحانه أن يخبرهم بأن ربه الذي يدعو إليه هداه بهداية إلهية إلى صراط مستقيم وسبيل واضح قيم على سالكيه لا تخلف فيه ولا اختلاف دينا قائما على مصالح الدنيا والآخرة أحسن القيام، لكونه مبنيا على الفطرة، ملة إبراهيم حنيفا مائلا عن التطرف بالشرك إلى اعتدال التوحيد وما كان من المشركين، وقد تقدم توضيح هذه المعاني في تفسير الآيات السابقة من السورة.

٢. أحاديث وآثار: في الكافي بإسناده عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [الأنعام: ١٦١]، قال: خالصاً مخلصاً، ليس فيه شيء من عبادة الأوثان.

• أقول: ورواه في البرهان البرقي بإسناده عن ابن مسكان عنه ﷺ، وفيه: (خالصاً مخلصاً لا يشوبه شيء) وهو بيان المراد، لا تفسير بالمعنى.

١١٨. إخلاص الصلاة والنسك والمحيا والمهات لله رب العالمين:

المقطع [١١٨] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وفيه المسائل

التالية «الميزان: ٧/ ٣٩٤»:

١. ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ﴾ إلى قوله ﴿أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾:

أ. النسك مطلق العبادة، وكثر استعماله في الذبح أو الذبيحة تقربا إلى الله سبحانه.

ب. أمره ﷺ ثانيا أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه متلبس به كما أنه مأمور بذلك ليكون أبعد من التهمة عندهم وأقرب إلى تلقيهم بالقبول فإن من أمارة الصدق أن يعمل الإنسان بما يندب إليه، ويطابق فعله قوله، فقال: قل: إنني جعلت صلاتي ومطلق عبادتي واختصت الصلاة بالذكر استقلالا لمزيد العناية بها منه تعالى ومحياي بجميع ما له من الشئون الراجعة إلي من أعمال وأوصاف وأفعال وتروك، ومماتي بجميع ما يعود إلي من أموره وهي الجهات التي ترجع منه إلى الحياة كما قال: كما تعيشون تموتون جعلتها كلها لله رب العالمين من غير أن أشرك به فيها أحدا فأنا عبد في جميع شئوني في حياتي ومماتي لله وحده وجهت وجهي إليه لا أقصد شيئا ولا أتركه إلا له ولا أسير في مسير حياتي ولا أرد مماتي إلا له فإنه رب العالمين، يملك الكل ويدبر أمرهم، وقد أمرت بهذا النحو من العبودية، وأنا أول المسلمين لله فيما أراده من العبودية التامة في كل باب وجهة.

ج. ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ﴾ إظهار الإخلاص العبودي أو إنشاؤه فيما يرجع إليه من شئون العبادة والحياة والموت دون الإخبار عن الإخلاص في العبادة والاعتقاد بأن مالك الموت والحياة هو الله تعالى، والدليل على ما ذكرنا قوله: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ فظاهر أنه أمر بجعل الجميع لله سبحانه بمعنى واحد لا بجعل الأولين له إخلاصا وتسليما والاعتقاد بأن الأخيرين له إلا بتكلف.

٢. في قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ دلالة على أنه ﷺ أول الناس من حيث درجة الإسلام ومنزله فإن قبله زمانا غيره من المسلمين، وقد حكى الله سبحانه ذلك عن نوح إذ قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢] وعن إبراهيم في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وعنه وعن ابنه إسماعيل في قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وعن لوط في قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] وعن ملكة سبإ في قوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢] إن كان مرادها الإسلام لله، وقولها: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]

ولم ينعت بأول المسلمين أحد في القرآن إلا ما يوجد في هذه الآية من أمره ﷺ أن يخبر قومه بذلك، وما في سورة الزمر من قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢]

٣. وربما قيل: إن المراد أول المسلمين من هذه الأمة فإن إبراهيم كان أول المسلمين ومن بعده تابع له في الإسلام، وفيه أن التقييد لا دليل عليه، وأما كون إبراهيم أول المسلمين فيدفعه ما تقدم من الآيات المنقولة، وأما قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل في دعائهما: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] فلا دلالة فيهما على شيء.

١١٩. التوحيد وقوانين التكليف والجزاء:

المقطع [١١٩] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٩٦»:

١. ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾، هذه الآية والتي بعدها تشتملان على حجج ثلاث هي جوامع الحجج المذكورة في السورة للتوحيد، وهي الحجة من طريق بدء الخلقة، والحجة من طريق عودها، والحجة من حال الإنسان وهو بينهما وبعبارة أخرى الحجة من نشأة الحياة الدنيا والنشأة التي قبلها والتي بعدها:

أ. فالحجة من طريق البدء ما في قوله: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ومن المعلوم أنه إذا كان رب كل شيء كان كل شيء مربوبا له فلا رب غيره على الإطلاق يصلح أن يعبد.

ب. والحجة من طريق العود ما يشتمل عليه قوله: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ إلى آخر الآية، أي أن كل نفس لا تعمل عملا ولا تكسب شيئا إلا حمل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى حتى يحمل ما اكتسبته نفس على غيرها ثم المرجع إلى الله وإليه الجزاء بالكشف عن حقائق أعمال العباد، وإذا كان لا محيص عن الجزاء وهو المالك ليوم الدين فهو الذي تتعين عبادته لا غيره ممن لا يملك شيئا.

ج. والحجة من طريق النشأة الدنيا ما في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ﴾، ومحصله أن هذا النظام العجيب الذي يحكم في معاشكم في الحياة الدنيا وهو مبني على خلافتكم في الأرض واختلاف

شئونكم بالكبر والصغر والقوة والضعف والذكورية والأنوثية والغنى والفقر والرئاسة والمرئوسية والعلم والجهل وغيرها وإن كان نظاما اعتباريا لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فالله سبحانه هو ناظمه، وإنما فعل ذلك لامتحانكم وابتلائكم فهو الرب الذي يدبر أمر سعادتكم، ويوصل من أطاعه إلى سعادته المقدرة له ويذر الظالمين فيها جثيا، فهو الذي يحق عبادته.

٢. وقد تبين بما مر أن مجموع الجملتين: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ولاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ سيق لإفادة معنى واحد وهو أن ما كسبته نفس يلزمها ولا يتعداها، وهو مفاد قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]

١٢٠. جعل البشر خلائف في الأرض والابتلاء بالدرجات:

المقطع [١٢٠] من سورة الأنعام، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٧/ ٣٩٧»:

١. ﴿وَهُوَ اَلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ اَلْأَرْضِ﴾ الخلائف جمع خليفة أي يستخلف بعضكم بعضا أو استخلفكم لنفسه في الأرض وقد مر كلام في معنى هذه الخلافة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي اَلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ومعنى الآية ظاهر بما مر من البيان، وقد ختمت السورة بالمغفرة والرحمة.

٢. هذه الآية تشتمل على الحجة من طريق النشأة الدنيا ما في قوله: ﴿وَهُوَ اَلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ﴾، ومحصله أن هذا النظام العجيب الذي يحكم في معاشكم في الحياة الدنيا وهو مبني على خلافتكم في الأرض واختلاف شئونكم بالكبر والصغر والقوة والضعف والذكورية والأنوثية والغنى والفقر والرئاسة والمرئوسية والعلم والجهل وغيرها وإن كان نظاما اعتباريا لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فالله سبحانه هو ناظمه، وإنما فعل ذلك لامتحانكم وابتلائكم فهو الرب الذي يدبر أمر سعادتكم، ويوصل من أطاعه إلى سعادته المقدرة له ويذر الظالمين فيها جثيا، فهو الذي يحق عبادته.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يقول: (درجة واحدة)، إن الله يقول: ﴿دَرَجَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، إنما تفاضل القوم بالأعمال.

• أقول: وهو من نقل الآية بالمعنى، فإن الآية هكذا: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وفي موضع آخر: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]، والظاهر أن قوله: (بعضها فوق بعض) من كلامه عليه السلام، والحديث إنما ورد في تفسير مثل قوله تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، لا في تفسير الآية التي نحن فيها، فإيراده في ذيل هذه الآية من سهو الراوي، وذلك أن قوله عليه السلام في ذيله: (إنما تفاضل القوم بالأعمال) لا ينطبق على الآية، كما لا يخفى.

سورة الأعراف

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٨٨] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. السورة تشتمل من الغرض على مجموع ما تشتمل عليه السور المصدرة بالحروف المقطعة ﴿الم﴾ والسورة المصدرة بحرف ﴿ص﴾ فليكن على ذكر منك حتى نستوفي ما استيفاؤه من البحث في أول سورة حم عسق إن شاء الله تعالى عن الحروف المقطعة القرآنية.

ب. والسورة كأنها تجعل العهد الإلهي المأخوذ من الإنسان على أن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً أصلاً يبحث عما آل إليه أمره بحسب مسير الإنسانية في الأمم والأجيال فأكثرهم نقضوه ونسوه ثم إذا جاءتهم آيات مذكرة لهم أو أنبياء يدعونهم إليه كذبوا وظلموا بها ولم يتذكر بها إلا الأقلون.

ج. وذلك أن العهد الإلهي الذي هو إجمال ما تتضمنه الدعوة الدينية الإلهية إذا نزل بالإنسان ـ وطبائع الناس مختلفة في استعداد القبول والرد ـ تحول لا محالة بحسب أماكن نزوله والأوضاع والأحوال والشرائط الحافة بنفوس الناس فأنتج في بعض النفوس ـ وهي النفوس الطاهرة الباقية على أصل الفطرة ـ الاهتداء إلى الإيمان بالله وآياته، وفي آخرين وهم الأكثرون ذوو النفوس المخلدة إلى الأرض المستغرقة في شهوات الدنيا خلاف ذلك من الكفر والعتو.

د. واستتبع ذلك ألطافاً إلهية خاصة بالمؤمنين من توفيق ونصر وفتح في الدنيا، ونجاة من النار وفوز بالجنة وأنواع نعيمها الخالد في الآخرة، وغضباً ولعناً نازلاً على الكافرين وعذاباً واقعاً يهلك جمعهم، ويقطع نسلهم، ويخمد نارهم، ويجعلهم أحاديث ويمزقهم كل ممزق، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

هـ. فهذه هي سنة الله التي قد خلت في عباده وعلى ذلك ستجري، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو على صراط مستقيم.

و. فتفاصيل هذه السنة إذا وصفت لقوم ليدعوهم ذلك إلى الإيمان بالله وآياته كان ذلك إنذاراً لهم، وإذا وصفت لقوم مؤمنين ولهم علم بربهم في الجملة ومعرفة بمقامه الربوبي كان ذلك تذكيراً لهم

بآيات الله وتعليماً بما يلزمه من المعارف وهي معرفة الله ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العليا وسنته الجارية في الآخرة والأولى وهذا هو الذي يلوح من قوله تعالى في الآية الثانية من السورة: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن غرضها هو الإنذار والذكرى.

ز. والسورة على أنها مكية ـ إلا آيات اختلف فيها ـ وجه الكلام فيها بحسب الطبع إلى المشركين وطائفة قليلة آمنوا بالنبي ﷺ على ما يظهر من آيات أولها وآخرها إنذار لعامة الناس بما فيها من الحجة والموعظة والعبرة، وقصة آدم عليه السلام وإبليس وقصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليه السلام، وهي ذكرى للمؤمنين تذكرهم ما يشتمل عليه إجمال إيمانهم من المعارف المتعلقة بالمبدإ والمعاد والحقائق التي هي آيات إلهية.

ح. والسورة تتضمن طرفاً عالياً من المعارف الإلهية منها وصف إبليس وقبيله، ووصف الساعة والميزان والأعراف وعالم الذر والميثاق ووصف الذاكرين لله، وذكر العرش، وذكر التجلي، وذكر الأسماء الحسنى، وذكر أن للقرآن تأويلاً إلى غير ذلك.

ط. وهي تشتمل على ذكر إجمالي من الواجبات والمحرمات كقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الآية: ٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الآية: ٣٣]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الآية: ٣٢] فنزولها قبل نزول سورة الأنعام التي فيها قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ الآية: [الأنعام: ١٤٥]، فإن ظاهر الآية أن الحكم بإباحة غير ما استثني من المحرمات كان نازلاً قبل السورة فالإشارة بها إلى ما في هذه السورة.

ي. على أن الأحكام والشرائع المذكورة في هذه السورة أوجز وأكثر إجمالاً مما ذكر في سورة الأنعام في قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، وذلك يؤيد كون هذه السورة قبل الأنعام نزولاً على ما هو المعهود من طريقة تشريع الأحكام في الإسلام تدريجاً آخذاً من الإجمال إلى التفصيل.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تنهى النبي ﷺ أن يتحرج من الكتاب الذي أنزل عليه، وتأمر باتباعه، وتذكر عاقبة من اتبع الهوى، وتقرر أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وتذكر أن يوم القيامة موقف يحاسب فيه الناس، والميزان يومئذ حق، فمن ثقلت موازينه فأولئك المفلحون،

ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم.

٢. الآيات [١٠ ـ ٢٥] تصف الآيات بدء خلقة الإنسان وتصويره، وما جرى هناك من أمر الملائكة بالسجدة له، وسجودهم وإباء إبليس، وغروره آدم وزوجته، وخروجهما من الجنة، وما قضى الله في ذلك من القضاء.

٣. الآيات [٢٦ ـ ٣٦]:

أ. التدبر في هذه الخطابات وما تقدم عليها من قصة السجدة والجنة ثم عرض ذلك جميعاً على ما ورد من القصة والمخاطبة في غير هذه السورة وخاصة سورة طه المكية التي هي كإجمال هذه السورة المفصلة وسورة البقرة المدنية يهدينا إلى أن هذه الخطابات العامة المصدرة بقوله: يا بني آدم، يا بني آدم هي تعميم الخطابات الخاصة التي وجهت إلى آدم كما أن القصة عممت نحواً من التعميم في هذه السورة، وقد أشرنا إليه فيما تقدم.

ب. وهذه الخطابات الأربعة المصدرة بقوله: (يا بني آدم) ثلاثة منها راجعة إلى التحذير من فتنة الشيطان وإلى الأكل والشرب واللباس تعميم ما في قوله تعالى في سورة طه: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٩]، والرابعة تعميم قوله فيها: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ الخ [طه: ١٢٣]

ج. ويعلم من انتزاع هذه الخطابات من قصته وتعميمها بعد التخصيص ثم تفريع أحكام أخرى عليها ذيلت بها الخطابات المذكورة أن هذه الأحكام المشرعة المذكورة هاهنا على الإجمال أحكام مشرعة في جميع الشرائع الإلهية من غير استثناء كما يعلم أن ما قدر للإنسان من سعادة وشقاوة وسائر المقدرات الإنسانية كالأحكام العامة جميعها تنتهي إلى تلك القصة فهي الأصل تفرعت عليه هذه الفروع، والفهرس الذي يشير إلى التفاصيل.

٤. الآيات [٣٧ ـ ٥٣] الآية الأولى تفريع واستخراج من الخطاب العام الأخير المصدر بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ نظير التفريعات المذكورة لسائر الخطابات العامة السابقة، وما يتلوها بيان لما يستتبعه الكذب على الله وتكذيب آياته من سوء العاقبة، والإيمان بالله والعمل الصالح من السعادة الخالدة إلا آيتين من آخرها فإن فيهما رجوعاً إلى أول الكلام وبياناً لتمام الحجة عليهم بنزول الكتاب.

٥. الآيات [٥٤ ـ ٥٨] الآيات متصلة بما قبلها مرتبطة بها فإن الآيات السابقة كانت تبين وبال الشرك بالله والتكذيب بآياته وأن ذلك يسوق الإنسان إلى هلاك مؤبد وشقاء مخلد، وهذه الآيات تعلل ذلك بأن رب الجميع واحد إليه تدبير الكل يجب عليهم أن يدعوه ويشكروا له وتؤكد توحيد رب العالمين من جهتين:

أ. إحداهما: أنه تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض جميعاً ثم دبر أمرها بالنظام الأحسن الجاري فيها الرابط بينها جميعاً فهو رب العالمين.

ب. الثانية: أنه تعالى هو الذي يهيئ لهم الأرزاق بإخراج أنواع الثمرات التي يرتزقون بها بخلق ذلك بأعجب الطرق المتخذة لذلك وألطفها وهو الإمطار فهو ربهم لا رب سواه.

٦. الآيات [٥٩ ـ ٦٤] تعقيب لما تقدم من الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك بالله سبحانه والتكذيب لآياته بذكر قصة نوح عليه السلام وإرساله إلى قومه يدعوهم إلى توحيد الله وترك عبادة غيره وما واجهته به عامة قومه من الإنكار والإصرار على تكذيبه فأرسل الله إليهم الطوفان وأنجى نوحاً والذين آمنوا معه ثم أهلك الباقين عن آخرهم، ثم عقب الله قصته بقصص عدة من رسله كهود وصالح وشعيب ولوط وموسى عليه السلام للغرض بعينه.

٧. الآيات [٦٥ ـ ٧٢] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة نبي الله هود مع قومه عاد، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، وردهم عليه، وإهلاكهم بالريح العقيم.

٨. الآيات [٧٣ ـ ٧٩] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة نبي الله صالح مع قومه ثمود، وإرسال الناقة آية لهم، وطغيانهم وعقرهم الناقة، وإهلاكهم بالرجفة والصيحة.

٩. الآيات [٨٠ ـ ٨٤] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة نبي الله لوط مع قومه، ونهيهم عن إتيان الفاحشة، وردهم عليه، وإنجائه وأهله وإهلاك الباقين بمطر من حجارة.

١٠. الآيات [٨٥ ـ ٩٣] لم يذكر البيان المرتبط بها، وهي تذكر قصة نبي الله شعيب مع قومه مدين، ودعوتهم إلى التوحيد والوفاء بالكيل والميزان، ونهيهم عن البخس والإفساد، وردهم عليه، وإهلاكهم بالرجفة والصيحة.

١١. الآيات [٩٤ ـ ١٠٢] الآيات متصلة بما قبلها، وهي تلخص القول في قصص الأمم الغابرة

فتذكر أن أكثرهم كانوا فاسقين خارجين عن زي العبودية لم يفوا بالعهد الإلهي والميثاق الذي أخذ منهم لأول يوم، وتبين أن ذلك كان هو السبب في وقوعهم في مجرى سنن خاصة إلهية يتبع بعضها بعضاً، وهي أن الله سبحانه كان كلما أرسل إليهم نبياً من أنبيائه يمتحنهم ويختبرهم بالبأساء والضراء فكانوا يعرضون عن آيات الله التي كانت تدعوهم إلى الرجوع إلى الله والتضرع والإنابة إليه، ولا ينتبهون بهاتيك المنبهات.

١٢. الآيات [١٠٣ ـ ١٢٦] شروع في قصص موسى عليه السلام، وقد خص بالذكر منها مجيئه إلى فرعون ودعواه الرسالة إليه لنجاة بني إسرائيل وإتيانه بالآيتين اللتين آتاه الله إياهما ليلة الطور، وهذه القصة هي التي تشتمل عليها هذه الآيات ثم إجمال قصته حين إقامته في مصر بين بني إسرائيل لإنجائهم، وما نزل على قوم فرعون من آيات الشدة إلى أن أنجى الله بني إسرائيل، ثم تذكر قصة نزول التوراة وعبادة بني إسرائيل العجل، ثم قصصاً متفرقة من بني إسرائيل يعتبر بها المعتبر.

١٣. الآيات [١٢٧ ـ ١٣٧] الآيات تشتمل على إجمال ما جرى بينه عليه السلام وبين فرعون وقومه أيام إقامة موسى بينهم بعد القيام بالدعوة يدعوهم إلى الله وإلى إطلاق بني إسرائيل ويأتيهم بالآية بعد الآية حتى أنجاه الله تعالى وقومه، وأغرق فرعون وجنوده، وأورث بني إسرائيل الأرض المباركة مشارقها ومغاربها.

١٤. الآيات [١٣٨ ـ ١٥٤] شروع في بعض قصص بني إسرائيل بعد تخلصهم من إسارة آل فرعون مما يناسب غرض القصص المسرودة سابقاً وهو أن الدعوة الدينية ما توجهت إلى أمة إلا كان الكفر إليها أسبق، والناقضون لعهد الله فيهم أكثر فخص الله المؤمنين منهم بمزيد كرامته، وعذب الكافرين بشديد عذابه، وقد ذكر في الآيات مجاوزة بني إسرائيل البحر ومسألتهم بعد المجاوزة موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً يعبدونه، وفيها عبادتهم للعجل بعد ما ذهب موسى لميقات ربه وفي ضمنها حديث نزول التوراة عليه.

١٥. الآيات [١٥٥ ـ ١٦٠] فصول أخرى من قصص بني إسرائيل يذكر فيها آيات كثيرة أنزلها الله إليهم وحباهم بها يهديهم بها إلى سبيل الحق، ويدلهم على منهج التقوى فكفروا بها وظلموا أنفسهم.

١٦. الآيات [١٦١ ـ ١٧١] في الآيات بيان قصص أخرى من قصص بني إسرائيل فسقوا فيها عن أمر الله، ونقضوا ميثاقه فأخذهم الله بعقوبة أعمالهم وسلط عليهم من الظالمين من يسومهم سوء العذاب

فهؤلاء أسلافهم وقد خلف من بعدهم أخلاف يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ويساهلون في أمر الدين، وهذا حالهم إلا قليل منهم لا يعدون الحق.

١٧. الآيات [١٧٢ ـ ١٧٤] الآيات تذكر الميثاق من بني آدم على الربوبية وهي من أدق الآيات القرآنية معنى، وأعجبها نظماً.

١٨. الآيات [١٧٥ ـ ١٧٩] قصة أخرى من قصص بني إسرائيل وهي نبأ بلعم بن باعوراء أمر الله نبيه ﷺ أن يتلوه عليهم يتبين به أن مجرد الاتصال بالأسباب الظاهرية العادية لا يكفي في فلاح الإنسان وتحتم السعادة له ما لم يشأ الله ذلك، وأن الله لا يشاء ذلك لمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فإن مصيره إلى النار ثم يذكر آية ذلك فيهم وهي أنهم لا يستعملون قلوبهم وأبصارهم وآذانهم فيما ينفعهم، والآية الجامعة أنهم غافلون.

١٩. الآيات [١٨٠ ـ ١٨٦] الآيات متصلة بما قبلها، وهي بمنزلة تجديد البيان لما انتهى إليه الكلام في الآيات السابقة، وذلك أن الهدى والضلال يدوران مدار دعوته تعالى بأسمائه الحسنى والإلحاد فيها، والناس من متحلهم وزنديقهم وعالمهم وجاهلهم لا يختلفون بحسب فطرتهم وباطن سريرتهم في أن هذا العالم المشهود متكئ على حقيقة هي المقومة لأعيان أجزائها الناظمة نظامها، وهو الله سبحانه الذي منه يبتدأ كل شيء وإليه يعود كل شيء الذي يفيض على العالم ما يشاهد فيه من جمال وكمال، وهي له ومنه.

٢٠. الآيات [١٨٧ ـ ١٨٨] في الآيتين إبانة أن علم الساعة من الغيب المختص به تعالى لا يعلمه إلا الله، ولا دليل لتعيين وقتها والحدس لوقوعها أصلاً فلا تأتي إلا بغتة، وفيه إشارة ما إلى حقيقتها بذكر بعض أوصافها.

٢١. الآيات [١٨٩ ـ ١٩٨] الكلام في الآيات جار على ما جرت عليه سائر آيات السورة من مواثيق النوع الإنساني ونقضها على الأغلب الأكثر.

٢٢. الآيات [١٩٩ ـ ٢٠٦] الآيات ختام السورة، وفيها رجوع إلى ذكر معنى الغرض الذي نزلت فيه السورة ففيها أمر النبي ﷺ بالسيرة الحسنة الجميلة التي تميل إليها القلوب، وتسكن إليها النفوس، وأمره بالتذكر ثم بالذكر أخيراً.

١. لا حرج في تبليغ دعوة الحق:

المقطع [١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١-٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٨»:

١. ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. تنكير الكتاب وتوصيفه بالإنزال إليه من غير ذكر فاعل الإنزال كل ذلك للدلالة على التعظيم ويتخصص وصف الكتاب ووصف فاعله بعض التخصص بما يشتمل عليه قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ من التفريع كأنه قيل: هذا كتاب مبارك يقص آيات الله أنزله إليك ربك فلا يكن في صدرك حرج منه كما أنه لو كان كتابا غير الكتاب وألقاه إليك ربك لكان من حقه أن يتحرج ويضيق منه صدرك لما في تبليغه ودعوة الناس إلى ما يشتمل عليه من الهدى من المشاق والمحن.

ب. ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ غاية للإنزال متعلقة به كقوله: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وتخصيص الذكرى بالمؤمنين دليل على أن الإنذار يعمهم وغيرهم، فالمعنى: أنزل إليك الكتاب لتنذر به الناس وهو ذكرى للمؤمنين خاصة لأنهم يتذكرون بالآيات والمعارف الإلهية المذكورة فيها مقام ربهم فيزيد بذلك إيمانهم وتقر بها أعينهم، وأما عامة الناس فإن هذا الكتاب يؤثر فيهم أثر الإنذار بما يشتمل عليه من ذكر سخط الله وعقابه للظالمين في الدار الآخرة، وفي الدنيا بعذاب الاستئصال كما تشرحه قصص الأمم السالفة.

ج. ومن هنا يظهر: أن قول بعضهم: إن قوله: ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ متعلق بالحرج والمعنى: لا يكن في صدرك حرج للإنذار به، ليس بمستقيم فإن تعقبه بقوله: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما عرفت من معناه يدفع ذلك.

د. ويظهر أيضا ما في ظاهر قول بعضهم: إن المراد بالمؤمنين كل من كان مؤمنا بالفعل عند النزول ومن كان في علم الله أنه سيؤمن منهم! فإن الذكرى المذكور في الآية لا يتحقق إلا فيمن كان مؤمنا بالفعل.

٢. ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾:

أ. لما ذكر لنبيه ﷺ أنه كتاب أنزل إليه لغرض الإنذار شرع في الإنذار ورجع من خطابه ﷺ إلى خطابهم فإن الإنذار من شأنه أن يكون بمخاطبة المنذرين، اسم مفعول، وقد حصل الغرض من خطاب النبي ﷺ.

ب. وخاطبهم بالأمر باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الآمر لهم بحق الاعتقاد وحق العمل أعني الإيمان بالله وآياته والعمل الصالح الذين يأمر بهما الله سبحانه في كتابه وينهى عن خلافهما.

ج. والجملة أعني قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ موضوعة وضع الكناية كنى بها عن الدخول تحت ولاية الله سبحانه والدليل عليه قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ حيث لم يقل في مقام المقابلة: ولا تتبعوا غير ما أنزل إليكم، والمعنى: ولا تتبعوا غيره تعالى، وهم كثيرون، فيكونوا لكم أولياء من دون الله قليلا ما تذكرون، ولو تذكرتم لدريتم أن الله تعالى هو ربكم لا رب لكم سواه فليس لكم من دونه أولياء.

٢. هلاك الظالمين سنة إلهية ثابتة:

المقطع [٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤-٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٠»:

١. ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾:

أ. تذكير لهم بسنة الله الجارية في المشركين من الأمم الماضية إذ اتخذوا من دون الله أولياء فأهلكهم الله بعذاب أنزله إليهم ليلا أو نهارا فاعترفوا بظلمهم.

ب. والبيات التبييت وهو قصد العدو ليلا، والقائلون من القيلولة وهو النوم نصف النهار، وقوله: ﴿بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ولم يقل ليلا أو نهارا كأنه للإشارة إلى أخذ العذاب إياهم وهم آخذون في النوم آمنون مما كمن لهم من البأس الإلهي الشديد غافلون مغفلون.

٢. ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ تتميم للتذكير يبين أن الإنسان بوجدانه وسره يشاهد الظلم من نفسه إن اتخذ من دون الله أولياء بالشرك، وأن السنة الإلهية أن يأخذ منه الاعتراف بذلك ببأس العذاب إن لم يعترف به طوعا ولم يخضع لمقام الربوبية فليعترف اختيارا وإلا فسيعترف اضطرارا.

٣. الفلاح بثقل الميزان والخسران بخفته:

المقطع [٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ

وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٦ـ٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٠»:

١. ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾:

أ. دل البيان السابق على أنهم مكلفون بتوحيد الله سبحانه موظفون برفض الأولياء من دونه غير مخلين وما فعلوا، ولا متروكون وما شاءوا، فإذا كان كذلك فهم مسئولون عما أمروا به من الإيمان والعمل الصالح، وما كلفوا به من القول الحق، والفعل الحق وهذا الأمر والتكليف قائم بطرفين: الرسول الذي جاءهم به والقوم الذين جاءهم، ولهذا فرع على ما تقدم من حديث إهلاك القرى وأخذ الاعتراف منهم بالظلم قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾

ب. وقد ظهر بذلك أن المراد بالذين أرسل إليهم الناس وبالمرسلين الأنبياء والرسل عليه السلام، وما قيل: إن المراد بالذين أرسل إليهم الأنبياء، وبالمرسلين الملائكة لا يلائم السياق إذ لا وجه لإخراج المشركين عن شمول السؤال والكلام فيهم، على أن الآية التالية لا تلائم ذلك أيضا، على أن الملائكة لم يدخلوا في البيان السابق بوجه لا بالذات ولا بالتبع.

٢. ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ دل البيان السابق على أنهم مربوبون مدبرون فسيسألون عن أعمالهم ليجزوا بما عملوا، وهذا إنما يتم فيما إذا كان السائل على علم من أمر أعمالهم فإن المسئول لا يؤمن أن يكذب لجلب النفع إلى نفسه ودفع الضرر عن نفسه في مثل هذا الموقف الصعب الهائل الذي يهدده بالهلاك الخالد والخسران المؤبد، ولذلك فرع عليه قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾، وقد نكر العلم للاعتناء بشأنه وأنه علم لا يخطئ ولا يغلط، ولذلك أكده بعطف قوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عليه للدلالة على أنه كان شاهدا غير غائب، وإن وكل عليهم من الملائكة من يحفظ عليهم أعمالهم بالكتابة فإنه بكل شيء محيط.

٣. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الوزن والميزان في الآخرة، وبيان أن الوزن إنما هو للحق في الأعمال]، خلاصته:

أ. بيان أن الوزن في الآخرة هو للعمل لا للعامل، وأن الأعمال التي لم تحبط لها وزن، والحسنات

توجب ثقل الميزان والسيئات خفته.

ب. إثبات أن ثقل الميزان للحسنات وخفته للسيئات ليس بمعنى المفاضلة بين الكفتين، بل بمعنى أن الحسنة تنطبق على الحق فلها ثقل، والسيئة لا تنطبق عليه فلا ثقل لها.

ج. توضيح أن الميزان الذي توزن به الأعمال هو الحق، وأن لكل عمل ميزاناً خاصاً به، فحق الصلاة غير حق الزكاة، وهكذا.

د. بيان أن قوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ يعني أن الوزن في ذلك اليوم هو بالحق، فبقدر اشتمال العمل على الحق يكون له وزن وثقل.

هـ. الرد على الأقوال التي تجعل الميزان ميزاناً حسياً له كفتان، وبيان أن الأعمال ليست أجساماً، وإنما الوزن هو العدل الإلهي في تطبيق العمل على الحق.

و. عرض الروايات الواردة في الميزان، وبيان أنها تحمل على المعنى الحقيقي للوزن بالحق، أو أنها لتقريب المعنى إلى الأذهان.

٤. التمكين في الأرض والاختبار والشكر:

المقطع [٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٠»:

١. ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾:

أ. التمكين في الأرض هو الإسكان والإيطان فيها أي جعلنا مكانكم الأرض، ويمكن أن يكون من التمكين بمعنى الاقدار والتسليط، ويؤيد المعنى الثاني أن هذه الآيات تحاذي بنحو ما في سورة البقرة من قصة آدم وإبليس وقد بدئت الآيات فيها بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وهو التسليط والتسخير.

ب. غير أن هذه الآيات التي نحن فيها لما كانت تنتهي إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ كان المعنى الأول هو الأنسب وقوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ كالإجمال لما تفصله الآيات التالية إلى آخر قصة الجنة.

٢. والمعايش جمع معيشة وهي ما يعاش به من مطعم أو مشرب أو نحوها، والآية في مقام الامتنان

عليهم بما أنعم الله عليهم من نعمة سكنى الأرض أو التسلط والاستيلاء عليها، وجعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به، ولذلك ختم الكلام بقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾

٥. الكبر منع إبليس من السجود لآدم:

المقطع [٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١-١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٠»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قصة سجود الملائكة وإباء إبليس ودلالتها على حقيقة الإنسان والتكوين]، خلاصته:

أ. بيان أن قصة خلق آدم والسجود للملائكة هي تفصيل لإجمال قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، وأن الخطاب في ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ عام للآدميين.

ب. إثبات أن السجدة كانت للملائكة لجميع بني آدم، وأن آدم كان قبلةً منصوبةً نائبةً عن الإنسانية، لا مسجوداً لشخصه.

ج. توضيح أن خلق آدم كان خلقاً للجميع، وأن انتساب النسل إليه يثبت وحدة النوع الإنساني.

د. بيان أن الأمر بالسجود كان أمراً تكوينياً تمثيلياً، وأن القصة تحكي عن جريان تكويني في الروابط بين الإنسان والملائكة وإبليس.

هـ. الرد على من يرى أن الأمر بالسجود كان تشريعياً، وأن القصة تمثل حقيقة أن خلق الإنسان شق المقام إلى مقامي القرب والبعد.

و. توضيح أن إبليس إنما استكبر على ربه لا على آدم، وأن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ احتجاج بالإنية المستقلة التي تنافي العبودية.

ز. بيان أن القرآن لم يعتن بالرد على حجة إبليس المادية، بل أخذ عليه استكباره على الله، لأنه ليس لعبد أن ينازع ربه في كبريائه.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن داود بن فرقد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم، وكان في علم الله أنه ليس منهم، فاستخرج الله ما في نفسه بالحمية، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]

ب. أخرج أبو نعيم في الحلية والديلمي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس، قال الله تعالى له: اسجد لآدم، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، قال جعفر: فمن قاس أمر الدين برأيه، قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس، لأنه اتبعه بالقياس.

ج. وفي الكافي بإسناده عن عيسى بن عبد الله القرشي قال: دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عليه السلام، فقال له: يا أبا حنيفة، بلغني أنك تقيس، قال: نعم، أنا أقيس، قال: لا تقس، فإن أول من قاس إبليس، حين قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]

د. وفي العيون عن أمير المؤمنين عليه السلام: أن إبليس أول من كفر وأنشأ الكفر.

• أقول: ورواه العياشي عن الصادق عليه السلام.

هـ. وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث: أن أول معصية ظهرت الأنانية من إبليس.

• أقول: وقد تقدم بيانه.

و. وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام: الاستكبار هو أول معصية عصي الله بها.

• أقول: قد ظهر مما تقدم من البيان أن مرجعه إلى الأنانية، كما في الحديث المتقدم.

ز. وفي النهج من خطبة له عليه السلام في صفة خلق آدم: واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لهم، وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له، والخشوع لتكرمته، فقال سبحانه: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١]، فسجدوا إلا إبليس وجنوده، اعترتهم الحمية، وغلبت عليهم الشقوة، الخطبة.

• أقول: وفيها تعميم الأمر بالسجدة لجنود إبليس كما يعم نفسه، وفيه تأييد ما تقدم أن آدم إنما جعل مثالاً يمثل به الإنسانية من غير خصوصية في شخصه، وإن مرجع القصة إلى التكوين.

٦. طرد إبليس بسبب تكبره وإنظاره ليوم الدين:

المقطع [٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣ـ١٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٠»:

١. ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾:

أ. التكبر هو أخذ الإنسان مثلا الكبر لنفسه وظهوره به على غيره فإن الكبر والصغر من الأمور الإضافية، ويستعمل في المعاني غالبا فإذا أظهر الإنسان بقول أو فعل أنه أكبر من غيره شرفا أو جاها أو نحو ذلك فقد تكبر عليه وعده صغيرا، وإذ كان لا شرف ولا كرامة لشيء على شيء إلا ما شرفه الله وكرمه كان التكبر صفة مذمومة في غيره تعالى على الإطلاق إذ ليس لما سواه تعالى إلا الفقر والمذلة في أنفسهم من غير فرق بين شيء وشيء ولا كرامة إلا بالله ومن قبله، فليس لأحد من دون الله أن يتكبر على أحد، وإنما هو صفة خاصة بالله سبحانه فهو الكبير المتعال على الإطلاق فمن التكبر ما هو حق محمود وهو الذي لله عز اسمه أو ينتهي إليه بوجه كالتكبر على أعداء الله الذي هو في الحقيقة اعتزاز بالله، ومنه ما هو باطل مذموم وهو الذي يوجد عند غيره بدعوى الكبر لنفسه لا بالحق.

ب. ﴿الصَّاغِرِينَ﴾ جمع صاغر من الصغار وهو الهوان والذلة، والصغار في المعاني كالصغر في الصور، وقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ تفسير وتأكيد لقوله: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ لأن الهبوط هو خروج الشيء من مستقره نازلا فيدل ذلك على أن الهبوط المذكور إنما كان هبوطا معنويا لا نزولا من مكان جسماني إلى مكان آخر، ويتأيد به ما تقدم أن مرجع الضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ هو المنزلة دون السماء أو الجنة إلا أن يرجعا إلى المنزلة بوجه.

ج. والمعنى: قال الله تعالى: فتنزل عن منزلتك حيث لم تسجد لما أمرتك فإن هذه المنزلة منزلة التذلل والانقياد لي فما يحق لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين أهل الهوان، وإنما أخذ بالصغار ليقابل به التكبر.

٢. ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾:

أ. استمهال وإمهال، وقد فصل الله تعالى ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]/ ٨١، ومنه يعلم أنه أمهل بالتقييد لا

بالإطلاق الذي ذكره فلم يمهل إلى يوم البعث بل ضرب الله لمهلته أجلا دون ذلك وهو يوم الوقت المعلوم، وسيجيء الكلام فيه في سورة الحجر إن شاء الله تعالى.

ب. فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إنما يدل على إجمال ما أمهل به، وفيه دلالة على أن هناك منظرين غيره.

ج. واستمهاله إلى يوم البعث يدل على أنه كان من همه أن يديم على إغواء هذا النوع في الدنيا وفي البرزخ جميعا حتى تقوم القيامة فلم يجبه الله سبحانه إلى ما استدعاه بل لعله أجابه إلى ذلك إلى آخر الدنيا دون البرزخ فلا سلطان له في البرزخ سلطان الإغواء والوسوسة وإن كان ربما صحب الإنسان بعد موته في البرزخ مصاحبة الزوج والقرين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، وظاهر قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]

٧. إبليس يتوعد بإغواء بني آدم جميعاً:

المقطع [٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣١»:

١. ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الإغواء هو الإلقاء في الغي والغي والغواية هو الضلال بوجه والهلاك والخيبة، والجملة أعني قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ وإن فسر بكل من هذه المعاني على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى في سورة الحجر فيما حكاه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يؤيد أن مراده هو المعنى الأول.

ب. والباء في قوله: ﴿فَبِمَا﴾ للسببية أو المقابلة، والمعنى: فبسبب إغوائك إياي أو في مقابلة إغوائك

إياي لأقعدن لهم إلخ، وقد أخطأ من قال إنها للقسم وكان القائل أراد أن يطبقه على قوله تعالى في موضع آخر حكاية عنه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]

٢. ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السوي الذي يوصلهم إليك وينتهي بهم إلى سعادتهم لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محالة مستقيم صراطك فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه.

٣. ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بيان لما يصنعه بهم وقد كمن لهم قاعدا على الصراط المستقيم، وهو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعة.

٤. وإذ كان الصراط المستقيم الذي كمن لهم قاعدا عليه أمرا معنويا كانت الجهات التي يأتيهم منها معنوية لا حسية والذي يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذه الجهاد كقوله تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾: آل عمران: ١٧٥ وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾: البقرة ٢٦٨ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة هو:

أ. أن المراد مما بين أيديهم ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال والأماني من الأمور التي تهواه النفوس وتستلذه الطباع، ومما يكرهه الإنسان ويخاف نزوله به كالفقر يخاف منه لو أنفق المال في سبيل الله أو ذم الناس ولومهم لو ورد سبيلا من سبل الخير والثواب.

ب. والمراد بخلفهم ناحية الأولاد والأعقاب فللإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال وأماني ومخاوف ومكاره فإنه يخيل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسره ما يسرهم ويسوءه ما يسوؤهم فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم، ويعد لهم ما استطاع من قوة فيهلك نفسه في سبيل حياتهم.

ج. والمراد باليمين وهو الجانب القوي الميمون من الإنسان ناحية سعادتهم وهو الدين وإتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغة في بعض الأمور الدينية، والتكلف بما لم يأمرهم به الله وهو الذي يسميه الله تعالى باتباع خطوات الشيطان.

د. والمراد بالشمال خلاف اليمين، وإتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء والمنكر ويدعوهم إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب واتباع الأهواء.

٥. سؤال وإشكال: قال الزمخشري في الكشاف: فإن قلت: كيف قيل: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بحرف الابتداء، و﴿عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بحرف المجاوزة؟ والجواب: المفعول فيه عدي إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به فكما اختلفت حروف التعدية في ذاك اختلفت في هذا وكانت لغة تؤخذ ولا تقاس، وإنما يبحث عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه وعلى يمينه وجلس عن شماله وعلى شماله قلنا: معنى على يمينه أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلى عليه، ومعنى عن يمينه أنه جلس متجافيا عن صاحب اليمين منحرفا عنه غير ملاصق له ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره كما ذكرنا في (تعال)

٦. ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾:

أ. نتيجة ما ذكره من صنعه بهم بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ﴾، وقد وضع في ما حكاه الله من كلامه في غير هذا الموضع بدل هذه الجملة أعني ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ جملة أخرى قال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢] فاستثنى من وسوسته وإغوائه القليل مطابقا لما في هذه السورة، وقال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]

ب. ومنه يظهر أنه إنما عنى بالشاكرين في هذا الموضع المخلصين، والتأمل الدقيق في معنى الكلمتين يرشد إلى ذلك فإن المخلصين، بفتح اللام، هم الذين أخلصوا لله فلا يشاركه فيهم أي في عبوديتهم وعبادتهم سواه، ولا نصيب فيهم لغيره، ولا يذكرون إلا ربهم وقد نسوا دونه كل شيء حتى أنفسهم فليس في قلوبهم إلا هو سبحانه، ولا موقف فيها للشيطان ولا لتزييناته.

ج. والشاكرون هم الذين استقرت فيهم صفة الشكر على الإطلاق فلا يمسون نعمة إلا بشكر أي بأن يستعملوها ويتصرفوا فيها قولا أو فعلا على نحو يظهرون به أنها من عند ربهم المنعم بها عليهم فلا يقبلون على شيء، أعم من أنفسهم وغيرهم، إلا وهم على ذكر من ربهم قبل أن يمسوه ومعه وبعده، وأنه مملوك له تعالى طلقا ليس له من الأمر شيء فذكرهم ربهم على هذه الوتيرة ينسيهم ذكر غيره إلا بالله، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، فلو أعطي اللفظ حق معناه لكان الشاكرون هم المخلصين، واستثناء إبليس الشاكرين أو المخلصين من شمول إغوائه وإضلاله جرى منه على حقيقة الأمر اضطرارا ولم يأت به

جزافا أو امتنانا على بني آدم أو رحمة أو لغير ذلك.

٧. فهذا ما واجه إبليس به مصدر العزة والعظمة أعني قوله: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ فأخبر أنه يقصدهم من كل جهة ممكنة، ويفسد الأمر على أكثرهم بإخراجهم عن الصراط المستقيم، ولم يبين نحو فعله وكيفية صنعه.

٨. لكن في كلامه إشارة إلى حقيقتين:

أ. إحداهما: أن الغواية التي تمكنت في نفسه وهو ينسبها إلى صنع الله هي السبب لإضلاله وإغوائه لهم أي إنه يمسهم بنفسه الغوية فلا يودع فيهم إلا الغواية كالنار التي تمس الماء بسخونتها فتسخنه، وهذه الحقيقة ظاهرة من قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢]

ب. الثانية: أن الذي يمسه الشيطان من بني آدم، وهو نوع عمله وصنعه، هو الشعور الإنساني وتفكره الحيوي المتعلق بتصورات الأشياء والتصديق بما ينبغي فعله أو لا ينبغي، وسيجيء تفصيله في الكلام في إبليس وعمله.

٩. ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ المذءوم من ذامه يذامه ويذيمه إذا عابه وذمه، والمدحور من دحره إذا طرده ودفعه بهوان.

١٠. ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، اللام للقسم وجوابه هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، لما كان مورد كلام إبليس، وهو في صورة التهديد بالانتقام، هو بني آدم وأنه سيبطل غرض الخلقة فيهم وهو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم وبه فقال: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ محاذاة لكلامه ثم قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي منك ومنهم فأشركه في الجزاء معهم.

١١. وقد امتن تعالى في كلمته هذه التي لا بد أن تتم فلم يذكر جميع من تبعه بل أتى بقوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ وهو يفيد التبعيض.

١٢. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق حقيقة إبليس والجن ووساوسهم في ضوء القرآن والروايات]، خلاصته:

أ. بيان أن إبليس ليس من الملائكة، بل من الجن، وأن الأمر بالسجود كان شاملاً له مع الملائكة تغليباً، أو أنه استثناء منفصل.

ب. توضيح أن إبليس سمي بذلك لأنه أبلس من رحمة الله، أي يئس منها، وأنه طلب من الله البقاء والسلطة على بني آدم، فأعطي ما سأل.

ج. إثبات أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وأن له قريناً من الجن يزين له المعاصي، كما أن للمؤمن ملكاً يرشده إلى الخير.

د. بيان أن الأخبار الواردة في تصرفات إبليس على قسمين: ما يذكر تصرفه من غير تفسير، وما يذكره مع تفسير كيفية التصرف.

هـ. توضيح أن ما ورد في الأخبار من تشكلات إبليس وأشكاله إنما هي تمثلات مثالية، لا تجسم مادي حقيقي، وأنها تدل على أنه يظهر لحواسنا بمختلف الصور.

و. الرد على من يريد أن يحمل هذه الأخبار على التجسم الحسي المادي، وبيان أن ذلك لا دليل عليه من عقل أو نقل ثابت.

ز. إثبات أن ذرية إبليس وكثرتهم لا يعلم كيفيتها، وأن ما ورد في ذلك من روايات آحاد لا يعول عليها.

١٣. وضع هنا مبحثا حول [حقيقة إبليس وعمله]، خلاصته:<الميزان في تفسير القرآن: ٨/ ٣٥.>:

أ. موضوع إبليس أصبح مبتذلاً عندنا، فلم نتدبر حقيقته كما يعطيها القرآن، مع أنه موجود عجيب يصاحب الإنسان في حياته وبعد مماته، وله تصرف وولاية عجيبة في العالم الإنساني.

ب. سبب تعقيد البحث عن إبليس هو الخلط بين الجهات التكوينية والاعتبارية، وعدم الفصل بين التكوين والتشريع، فحكموا في التكوين بالأصول الوضيعة الحاكمة في التشريعيات.

ج. وجود كل شيء في نفسه خير وحسن، والشر والقبح ينشأ من الإضافات والارتباطات التي تفسد نظاماً عادلاً أو تحرم موجوداً من خيره، والحكمة الإلهية تقتضي أن ينتفع من الموجودات المضرة بما يربو على مضرتها.

د. عالم الصنع مرتبط بعضه ببعض، والاختلاف بين الأجزاء يستلزم التنافي والتضاد، ولو لا الشر والفساد والنقص لما كان للخير والكمال معنى، ولما تحققت الطاعة والمعصية والثواب والعقاب.

هـ. وجود الشيطان من أركان نظام العالم الإنساني الذي يجري على سنة الاختيار، وهو كالحاشية التي تعين الصراط المستقيم بحدوده، فلو لا الطرف لم يكن وسط.

و. قصة الجنة تدل على أن الله خلق جنة برزخية سماوية وأدخل آدم فيها ليختبر الطباع الإنساني، لا أنها جنة الخلد ولا داراً دنيوية، والإشكالات الموردة ناشئة من التفريط في تدبر القصة.

ز. إبليس مخلوق من النار من سنخ الجن، وله أعوان من الجن والإنس وذرية، يتصرفون في قلب الإنسان وبدنه وشؤون حياته بإظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبيح.

ح. تصرف الشيطان في الإدراك الإنساني تصرف طولي لا ينافي قيام الفعل بالإنسان، بل الإنسان هو الذي يوجد الأفكار في نفسه، والشيطان يلقيها إليه ويخطرها بباله دون تزاحم.

ط. ولاية الشيطان على الإنسان في المعاصي نظير ولاية الملائكة عليه في الطاعات، والله من ورائهم محيط وهو الولي الحقيقي.

١٤. وضع هنا مبحثا حول [شبهات إبليس والجواب عنها]، خلاصته:

أ. الشبهات الست التي أوردها إبليس (حسب ما نقله الشهرستاني عن شارح الأناجيل) تتعلق بالحكمة في الخلق، وفائدة التكليف، وسبب الأمر بالسجود لآدم، وسبب اللعن والعقاب، وسبب التسلط على أولاد آدم، وسبب الإمهال الطويل مع علم الله بأن العالم خال من الشر خير.

ب. الجواب عن الشبهة الأولى (الحكمة في الخلق): الله فاعل تام لا يفتقر إلى غاية زائدة، والخلق إفاضة خير من ملكة الجود، واختلاف المستحقين في النيل يعود إليهم، وغاية خلق الإنسان هي بلوغ الكمال النوعي، وسقوط بعض الأفراد أمر عرضي لازم للنظام المادي.

ج. الجواب عن الشبهة الثانية (فائدة التكليف): التكليف هو الطريق الذي يسلكه الإنسان من نقصه إلى كماله، ولا يمكن تحصيل السعادة للمكلفين من غير واسطة التكليف لأن ذلك يبطل الحركة الوجودية والتدريج في الكمال.

د. الجواب عن الشبهة الثالثة (التكليف بالسجود لآدم): هذا التكليف يظهر به صفة العبودية أو

الاستكبار، وفيه تعيين للخط الذي قدر لآدم، ووجود داعٍ إلى الحق وآخر إلى الباطل ضروري لتحقق الصراط المستقيم.

هـ. الجواب عن الشبهة الرابعة (اللعن والعقاب بعد المعصية): العقاب لازم طبيعي للمعصية كالموت للسم، وليس فعلاً إلهياً محضاً يفتقر إلى غاية، وإبطال العقاب هدم لقانون العلية العام.

و. الجواب عن الشبهة الخامسة (التسلط على أولاد آدم): وجود داعٍ إلى الباطل ضروري لتحقق الدعوة إلى الحق، وتمكين إبليس هو بمقدار الدعوة لا الإجبار، وقد نفى القرآن سلطانه على عباد الله المخلصين.

ز. الجواب عن الشبهة السادسة (الإمهال وخلو العالم من الشر): الإمهال ضروري لتمام الحجة، والعالم المادي لا يمكن أن يخلو من الشر لأن معنى خلوه من الشر كونه مجرداً غير مادي، والشر لازم للنظام المادي القائم على التزاحم والتنافي.

ح. قوله تعالى: ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ليس معناه أن أفعال الله غير معللة بالغرض، بل لأن الله هو الفاعل فوق كل فاعل، والغاية وراء كل غاية، فهو المبدئ المعيد الذي لا يحكم عليه سبب فاعلي أو غائي، بينما غيره مسئول عن فعله لافتقاره إلى الغاية والمصلحة.

ط. الفرق بين العقل النظري والعملي: العقل النظري يستخرج القوانين من أفعال الله، ولا يجوز تحكيمه على الله بمعنى تقييد إطلاقه، بل هو تابع لازم مأخوذ من سننه، والعقل العملي يجري في أفعاله التشريعية، وله أن يبحث في الحسن والقبح والمصلحة والمفسدة فيها، لكن لا ليحكم على الله، بل لأنه شرعها بحجج ومصالح قائمة بالإنسان لا به تعالى.

٨. تحذير آدم من الشجرة ووسوسة الشيطان:

المقطع [٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩-٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٥»:

١. ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ إلى آخر الآية، خص بالخطاب آدم عليه السلام وألحق

به في الحكم زوجته.

٢. ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ توسعة في إباحة التصرف إلا ما استثناه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ والظلم هو الظلم على النفس دون معصية الأمر المولوي فإن الأمر إرشادي.

٣. ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إلى آخر الآية، الوسوسة هي الدعاء إلى أمر بصوت خفي، والموارة ستر الشيء بجعله وراء ما يستره، والسوآة جمع السوأة وهي العضو الذي يسوء الإنسان إظهاره والكشف عنه.

٤. ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، أي إلا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، والملك وإن قرئ بفتح اللام إلا أن فيه معنى الملك، بالضم فالسكون، والدليل عليه قوله في موضع آخر: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]

٥. ونقل في المجمع، عن السيد المرتضى احتمال أن يكون المراد بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، أنه أوهمهما أن المنهي عن تناول الشجرة الملائكة خاصة والخالدون دونهما فيكون كما يقول أحدنا لغيره: ما نهيت عن كذا إلا أن تكون فلانا، وإنما يريد أن المنهي إنما هو فلان دونك، وهذا أوكد في الشبهة واللبس عليهما، لكن آية سورة طه المنقولة آنفا تدفعه.

٦. ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ المقاسمة المبالغة في القسم أي حلف لهما وأغلظ في حلفه إنه لهما لمن الناصحين، والنصح خلاف الغش.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي حدثني أبي رفعه قال: سئل الصادق عليه السلام عن جنة آدم، من جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة؟ فقال: كانت من جنان الدنيا، تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة، ما خرج منها أبداً، قال: فلما أسكنه الله تعالى الجنة وأباحها له إلا الشجرة، لأنه خلق خلقة لا تبقى إلا بالأمر والنهي، والغذاء واللباس والاكتنان والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوفيق، فجاءه إبليس فقال له: إنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها، صرتما ملكين وبقيتما في الجنة أبداً، وإن لم تأكلا منها، أخرجكما الله من الجنة، وحلف لهما أنه لهما ناصح، كما قال الله عز وجل حكاية عنه: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾

[الأعراف: ٢٠-٢١]، فقبل آدم قوله، فأكلا من الشجرة، فكان كما حكى الله: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وسقط عنهما ما ألبسهما الله تعالى من لباس الجنة، وأقبلا يستتران من ورق الجنة، وناداهما ربهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فقالا كما حكى الله عنها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فقال الله لهما: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]، قال: إلى يوم القيامة.

ب. وفي الكافي عن علي بن إبراهيم روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما خرج آدم من الجنة، نزل عليه جبرئيل فقال: يا آدم، أليس خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وزوجك حواء أمته، وأسكنك الجنة وأباحها لك، ونهاك مشافهة أن تأكل من هذه الشجرة، فأكلت منها وعصيت الله؟ فقال آدم: يا جبرئيل، إن إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح، فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً.

• أقول: وقد تقدمت عدة من روايات القصة في سورة البقرة، وسيجيء إن شاء الله بعضها في مواضع أخر مناسبة لها.

٩. التوبة النصوح تمحو الخطيئة وتنجي من الخسران:

المقطع [٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٦»:

١. ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ إلى آخر الآية، التدلية التقريب والإيصال كما أن التدلي الدنو والاسترسال، وكأنه من الاستعارة من دلوت الدلو أي أرسلتها، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش، والخصف الضم والجمع، ومنه خصف النعل.

٢. وفي قوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ دلالة على أنهما عند توجه هذا الخطاب كانا في مقام البعد من ربهما لأن النداء هو الدعاء من بعد، وكذا من الشجرة بدليل قوله: ﴿تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾

بخلاف قوله عند أول ورودهما الجنة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

٣. ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا منهما نهاية التذلل والابتهال، ولذلك لم يسألا شيئا وإنما ذكرا حاجتهما إلى المغفرة والرحمة وتهديد الخسران الدائم المطلق لهما حتى يشاء الله ما يشاء.

١٠. الأرض دار استقرار مؤقت وليست أبدية:

المقطع [١٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٤ـ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٦»:

١. ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ إلى آخر الآية، كان الخطاب لآدم وزوجته وإبليس، وعداوة بعضهم لبعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم، وهذا قضاء منه تعالى والقضاء الآخر قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ أي إلى آخر الحياة الدنيوية، وظاهر السياق أن الخطاب الثاني أيضا يشترك فيه الثلاثة.

٢. ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قضاء آخر يوجب تعلقهم بالأرض إلى حين البعث، وليس من البعيد أن يختص هذا الخطاب بآدم وزوجته وبنيهما، لما فيه من الفصل بلفظة ﴿قَالَ﴾ وقد مر تفصيل الكلام في قصة الجنة في سورة البقرة فليراجعها من شاء.

١١. التقوى خير لباس:

المقطع [١١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٦٩»:

١. ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾:

أ. اللباس كل ما يصلح للبس وستر البدن وغيره، وأصله مصدر يقال: لبس يلبس لبسا، بالكسر والفتح، ولباسا، والريش ما فيه الجمال مأخوذ من ريش الطائر لما فيه من أنواع الجمال والزينة، وربما يطلق على أثاث البيت ومتاعه.

ب. وكان المراد من إنزال اللباس والريش عليهم خلقه لهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، فقد أنزل الله اللباس والريش بالخلق من غيب ما عنده إلى عالم الشهادة وهو الخلق.

ج. واللباس هو الذي يعمله الإنسان صالحا لأن يستعمله بالفعل دون المواد الأصلية من قطن أو صوف أو حرير أو غير ذلك مما يأخذه الإنسان فيضيف إليه أعمالا صناعية من تصفية وغزل ونسج وقطع وخياطة فيصير لباسا صالحا للبس فعد اللباس والريش من خلق الله وهما من عمل الإنسان نظير ما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، من النسبة، ولا فرق من جهة النظر في التكوين بين نسبة ما عمله الإنسان إلى الله سبحانه وما عمله منته إلى أسباب جمة أحدها الإنسان، ونسبة سائر ما عملته الطبائع ولها أسباب كثيرة أحدها الفاعل كنبات الأرض وصفرة الذهب وحلاوة العسل فإن جميع الأسباب بجميع ما فيها من القدرة منتهية إليه سبحانه وهو محيط بها.

د. وليست الخلقة منتسبة إلى الأشياء على وتيرة واحدة وإن كانت جميع مواردها متفقة في معنى الانتهاء إليه إلا ما فيه معنى النقص والقبح والشناعة من المعاصي ونحوها فحقيقتها فقدان الخلقة الحسنة أو مخالفة الأمر الإلهي، وليست بمخلوقة له وإنما هي أوصاف نقص في أعمال الإنسان مثلا في باطنه أو ظاهره، وقد تكررت الإشارة إلى هذه الحقيقة فيما مر من أجزاء هذا الكتاب.

هـ. وتوصيف اللباس بقوله: ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ للدلالة على أن المراد باللباس ما ترفع به حاجة الإنسان التي اضطرته إلى اتخاذ اللباس وهي مواراة سواته التي يسوؤه انكشافها وأما الريش فإنما يتخذه لجمال زائد على أصل الحاجة.

و. وفي الآية امتنان بهداية الإنسان إلى اللباس والريش وفيها، كما قيل، دلالة على إباحة لباس الزينة.

٢. ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ إلى آخر الآية، انتقل سبحانه من ذكر لباس الظاهر الذي يواري سوآت الإنسان فيتقي به أن يظهر منه ما يسوؤه ظهوره، إلى لباس الباطن الذي يواري السوآت الباطنية التي يسوء الإنسان ظهورها وهي رذائل المعاصي من الشرك وغيره، وهذا اللباس هو التقوى الذي أمر الله

به، وذلك أن الذي يصيب الإنسان من ألم المساءة وذلة الهوان من ظهور سواته روحي من سنخ واحد في السوآتين إلا أن ألم ظهور السوآت الباطنية أشد وأمر وأبقى فالمحاسب هو الله، والتبعة شقوة لازمة، ونار تطلع على الأفئدة، ولذلك كان لباس التقوى خيرا من لباس الظاهر.

٣. وللإشارة إلى هذا المعنى وتتميم الفائدة عقب الكلام بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فاللباس الذي اهتدى إليه الإنسان ليرفع به حاجته إلى مواراة سواته التي يسوءه ظهورها آية إلهية إن تأمله الإنسان وتبصر به تذكر أن له سوآت باطنية تسوءه إن ظهرت وهي رذائل النفس، وسترها عليه أوجب وألزم من ستر السوآت الظاهرية بلباس الظاهر واللباس الذي يسترها ويرفع حاجة الإنسان الضرورية هو لباس التقوى الذي أمر الله به وبينه بلسان أنبيائه.

٤. وفي تفسير لباس التقوى أقوال أخر مأثورة عن المفسرين:

أ. فقيل: هو الإيمان والعمل الصالح.

ب. وقيل: هو حسن السمت الظاهر.

ج. وقيل: هو الحياء.

د. وقيل: هو لباس النسك والتواضع كلبس الصوف والخشن.

هـ. وقيل: هو الإسلام.

و. وقيل: هو لباس الحرب.

ز. وقيل: هو ما يستر العورة.

ح. وقيل: هو خشية الله.

ط. وقيل: هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة هو خير من لباس الدنيا، وأنت ترى أن شيئا من هذه الأقوال لا ينطبق على السياق ذلك الانطباق.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قال: نزلت في الخمس من قريش، ومن كان يأخذ مأخذها من قبائل العرب: الأنصار، الأوس والخزرج، وخزاعة، وثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وبطون كنانة بن بكر، كانوا لا يأكلون

اللحم، ولا يأتون البيوت إلا من أدبارها، ولا يضطربون وبراً ولا شعراً، إنما يضطربون الأدم، ويلبسون صبيانهم الرهاط، وكانوا يطوفون عراة إلا قريشاً، فإذا قدموا طرحوا ثيابهم التي قدموا فيها، وقالوا: هذه ثيابنا التي تطهرنا إلى ربنا فيها من الذنوب والخطايا، ثم قالوا لقريش: من يعيرنا مئزراً؟ فإن لم يجدوا، طافوا عراة، فإذا فرغوا من طوافهم، أخذوا ثيابهم التي كانوا وضعوا.

ب. أخرج أبو الشيخ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: ما من عبد عمل خيراً أو شراً، إلا كسي رداء عمله حتى يعرفوه، وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] الآية.

ج. وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا﴾ [الأعراف: ٢٦] الآية، لباس التقوى ثياب بيض.

د. أخرج ابن مردويه عن عثمان قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: (ورياشاً) ولم يقل: (وريشاً)

هـ. وفي تفسير القمي قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قال: فأما اللباس، فاللباس الذي تلبسون، وأما الرياش، فالمتاع والمال، وأما لباس التقوى، فالعفاف، إن العفيف لا تبدو له عورة، وإن كان عارياً من اللباس، والفاجر بادي العورة، وإن كان كاسياً من اللباس.

• أقول: وما في الروايتين من معنى لباس التقوى من الأخذ ببعض المصاديق، وقد تكرر نظير ذلك في الروايات.

١٢. تحذير بني آدم من فتنة الشيطان:

المقطع [١٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٧٢»:

١. ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ إلى آخر الآية، الكلام وإن كان مفصولا عما قبله بتصديره بخطاب ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ إلا أنه بحسب المعنى من تتمة المفاد السابق، ولذا أعاد ذكر السوآت ثانيا فيرجع المعنى إلى أن لكم معاشر الآدميين سوآت لا يسترها إلا لباس التقوى الذي ألبسناكموه بحسب الفطرة التي فطرناكم عليها فإياكم أن يفتنكم الشيطان فينزع عنكم ذلك كما نزع لباس

أبويكم في الجنة ليريهما سوآتهما فإنا جعلنا الشياطين أولياء لمن تبعهم ولم يؤمن بآياتنا، ومن هنا يظهر أن ما صنعه إبليس بهما في الجنة من نزع لباسهما ليريهما سوآتهما كان مثالا لنزع لباس التقوى عن الآدميين بالفتنة وإن الإنسان في جنة السعادة ما لم يفتتن به فإذا افتتن أخرجه الله منها.

٢. ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تأكيد للنهي وبيان لدقة مسلكه وخفاء سربه دقة لا يميزه حس الإنسان وخفاء لا يقع عليه شعوره فإنه لا يرى إلا نفسه من غير أن يشعر أن وراءه من يأمر بالشر ويهديه إلى الشقوة.

٣. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. تأكيدا آخر للنهي، وليست ولايتهم وتصرفهم في الإنسان إلا ولاية الفتنة والغرور فإذا افتتن واغتر بهم تصرفوا بما شاءوا وكما أرادوا كما قال تعالى مخاطبا لإبليس: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]

ب. ومن الآيات بانضمامها إلى آيتنا المبحوث عنها يظهر أن لا ولاية لهم على المؤمنين وإن مسهم طائف منهم أحيانا، وأن لا سلطان له على المتوكلين من المؤمنين وهم الذين عدهم الله عبادا له بقوله: ﴿عِبَادِي﴾ فلا ولاية له إلا على الذين لا يؤمنون.

ج. والظاهر أن المراد به عدم الإيمان بآيات الله بتكذيبها وهو أخص من وجه من عدم الإيمان بالله الذي هو الكفر بالله بشرك أو نفي، وذلك لأن هذا الكفر هو المذكور في الخطاب العام الذي في ذيل القصة من سورة البقرة حيث قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: البقرة ٣٩، وفي ذيل هذه الآيات من هذه السورة حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]

١٣. لا حجة في تقليد الآباء على الفاحشة:

المقطع [١٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٧٢»:

١. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ إلى آخر الآية:

أ. رجوع من الخطاب العام لبني آدم إلى خطاب النبي ﷺ خاصة ليتوسل به إلى انتزاع خطابات خاصة يوجهها إلى أمته كما جرى نظيره من الالتفات في الخطاب المتقدم يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا حيث قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لنظير الغرض.

ب. وبالجملة فقد استخرج من هذا الأصل الثابت في قصة الجنة وهو أمر ظهور السوآت الذي أفضى إلى خروج آدم وزوجته من الجنة أن الله لا يرضى بالفحشاء الشنيعة من أفعال بني آدم، فذكر إتيان المشركين بالفحشاء واستنادهم في ذلك إلى عمل آبائهم وأمر الله سبحانه بها فأمر رسوله ﷺ أن يرد عليهم بأن الله لا يأمر بالفحشاء، ويذكرهم أن ذلك من القول على الله بغير علم والافتراء عليه، كيف لا؟ وقصة الجنة شاهدة عليه.

ج. وقد ذكر لهم في فعلهم الفحشاء عذرين يعتذرون بهما ومستندين يستندون إليهما وهما فعل آبائهم وأمر الله إياهم بها، وكان الثاني هو الذي يرتبط بالخطاب العام المستخرج من قصة الجنة فقط، ولذلك تعرض لدفعه ورده عليهم، وأما استنادهم إلى فعل آبائهم فذلك وإن لم يكن مما يرتضيه الله سبحانه وقد رده في سائر كلامه بمثل قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فلم يتعرض لرده هاهنا لخروجه عن غرض الكلام.

د. وقد ذكر جمع من المفسرين أن قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، إشارة إلى ما كان معمولا عند أهل الجاهلية من الطواف بالبيت الحرام عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ولا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب، ونقل عن الفراء أنهم كانوا يعملون شيئا من سيور مقطعة يشدونهم على حقويهم يسمى حوفا وإن عمل من صوف سمي رهطا وكانت المرأة تضع على قبلها نسعة أو شيئا آخر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله...وما بدا منه فلا أحله

ولم يزل دائرا بينهم حتى منعهم النبي ﷺ بعد الفتح حين بعث عليا عليه السلام بآيات البراءة إلى

مكة، وكان النبي ﷺ أو بعض المسلمين كانوا يعيبونهم على ذلك فيعتذرون إليهم بقولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فرد الله سبحانه عليهم وذمهم بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

٢. وليس ما ذكروه ببعيد وفي الآية بعض التأييد له حيث وصفت ما كانوا يفعلونه بالفحشاء وهي الأمر الشنيع الشديد القبح ثم ذكرت أنهم كانوا يعتذرون بأن الله أمرهم بذلك، ولازم ذلك أن يكون ما فعلوه أمرا شنيعا أتوا به في صفة العبادة والنسك كالطواف عاريا، والآية مع ذلك الفحشاء فتصلح أن تنطبق على فعلهم ذلك، وعلى مصاديق أخرى ما أكثر وجودها بين الناس وخاصة في زماننا الذي نعيش فيه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا﴾ [الأعراف: ٢٨] الآية، قال: قال الذين عبدوا الأصنام، فرد الله عليهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨] إلى آخر الآية.

ب. وفي البصائر عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن محمد بن منصور قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨] إلى آخر الآية، فقال: أرأيت أحداً يزعم أن الله أمرنا بالزنا وشرب الخمور وشيء من المحارم؟ فقلت: لا، فقال: فما هذه الفاحشة التي يدعون أن الله أمرنا بها؟ فقلت: الله أعلم ورسوله، فقال: فإن هذه في أئمة الجور، ادعوا أن الله أمر بالائتمام بقوم لم يأمر الله بهم، فرد الله عليهم وأخبرنا أنهم قالوا عليه الكذب، فسمى الله ذلك منهم فاحشة.

• أقول: ورواه في الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن أبي وهب عن محمد بن منصور قال: سألته، وساق الحديث، وروي ما في معناه في تفسير العياشي عن محمد بن منصور عن عبد صالح، فعلم أن في السند أبا وهب، وعنه يروي الحسين بن سعيد، وأن الحديث مروي عن موسى بن جعفر عليه السلام.

• وكيف كان، فالرواية لا تنطبق بحسب مضمونها على حين نزول الآية، ولا ما ذكر فيه من الحجة

ينطبق على موردها، فإن أهل الجاهلية كانت عندهم أحكام كثيرة متعلقة بأمور من قبيل الفحشاء ينسبونه إلى الله سبحانه، كالطواف بالبيت عارياً.

• لكن الحجة المذكورة فيه من حيث انطباق الآية على مصاديق بعد زمن النزول أقرب انطباقاً على أئمة الجور والحكام الظلمة، فإن المسلمين مرت بهم أعصار يتولى فيها أمورهم أمثال الدعي زياد بن أبيه وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعتاة آخرون، وحول عروشهم وكراسيهم عدة من العلماء يفتون بنفوذ أحكامهم ووجوب طاعتهم بأمثال قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، فالرواية ناظرة إلى انطباق الآية على مصاديقها بعد عصر النزول.

ج. وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: من زعم أن الله يأمر بالفحشاء، فقد كذب على الله، ومن زعم أن الخير والشر إليه، فقد كذب على الله.

د. وفيه عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام: من زعم أن الله أمر بالسوء والفحشاء، فقد كذب على الله، ومن زعم أن الخير والشر بغير مشية منه، فقد أخرج الله من سلطانه، ومن زعم أن المعاصي عملت بغير قوة الله، فقد كذب على الله، ومن كذب على الله، أدخله الله النار.

• أقول: وقوله عليه السلام: (ومن زعم أن الخير والشر بغير مشية منه) إلخ، ناظر إلى قول المفوضة باستقلال العبد في أفعال الخير والشر، كما أن قوله في الرواية السابقة: (ومن زعم أن الخير والشر إليه) إلخ، ناظر إلى قول المجبرة: أن الخير والشر والطاعة والمعصية إنما تستند إلى إرادة الله من غير أن يكون لإرادة العبد ومشيته دخل في صدور الفعل، وإن أمكن بوجه إرجاع الضمير إلى العبد ليكون إشارة إلى قول المفوضة.

١٤. الله يأمر بالقسط والإخلاص والهداية:

المقطع [١٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩-٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٧٤»:

١. ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾:

أ. لما نفت الآية السابقة أن يأمر الله سبحانه بالفحشاء وذكرت أن ذلك افتراء عليه وقول بغير علم لعدم انتهائه إلى وحي ما أوحى به الله بادرت هذه الآية إلى ذكر ما أمر به وهو لا محالة أمر يقابل ما استشنعته الآية السابقة وعدته فحشاء لما فيه من بلوغ القبح والإفراط والتفريط فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾

ب. والقسط على ما ذكره الراغب هو النصيب بالعدل كالنصف والنصفة قال: (﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ والقسط هو أن يأخذ قسط غيره، وذلك جور والإقساط أن يعطي قسط غيره، وذلك إنصاف ولذلك قيل: قسط الرجل إذا جار وأقسط إذا عدل قال: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وقال: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾)

ج. فالمراد: قل أمر ربي بالنصيب العدل ولزوم وسط الاعتدال في الأمور كلها وأن تجتنبوا جانبي الإفراط والتفريط فأقسطوا وأنيبوا وأقروا نفوسكم عند كل معبد تعبدون الله فيه وادعوه بإخلاص الدين له من غير أن تشركوا بعبادته صنما أو أحدا من آبائكم وكبرائكم بالتقليد لهم وهذا هو القسط في العبادة.

٢. فقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ معطوف ظاهرا على مقول القول لأن معنى أمر ربي بالقسط: أقسطوا، فيكون التقدير: أقسطوا وأقيموا، والوجه هو ما يتوجه به إلى الشيء وهو في حال تمام النفس الإنسانية، وإقامتها عندها إيجاد القيام بالأمر لها أي إيفاؤه والإتيان به كما ينبغي تاما غير ناقص فيئول معنى إقامة الوجه عند العبادة إلى الاشتغال بالعبادة والانقطاع عن غيرها فيفيد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إذا انضم إليه قوله: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وجوب الانقطاع للعبادة عن غيرها ولله سبحانه عن غيره كما عرفت ومن الغير الذي يجب الانقطاع عنه إلى الله سبحانه نفس العبادة، وإنما العبادة توجه لا متوجه إليها، والتوجه إليها يبطل معنى كونها عبادة وتوجها إلى الله فيجب أن لا يذكر الناسك في نسكه إلا ربه وينسى غيره.

٣. وللمفسرين في معنى قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾، أقوال أخر:

أ. منها: أن المعنى: توجهوا إلى قبلة كل مسجد في الصلاة على استقامة.

ب. ومنها: أن المعنى توجهوا في أوقات السجود وهي أوقات الصلاة إلى الجهة التي أمركم الله بها وهي الكعبة.

ج. ومنها إذا أدركتم الصلاة في مسجد فصلوا ولا تقولوا حتى أرجع إلى مسجدي.

د. ومنها: أن المعنى: اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمر فيها بالجماعة.

هـ. ومنها: أن المعنى: أخلصوا وجوهكم لله بالطاعة فلا تشركوا وثنا ولا غيره.

٤. والوجوه المذكورة على علاتها وإباء الآية عنها لا تناسب الثلاثة الأول منها حال المسلمين في وقت نزول السورة وهي مكية ولم تكن الكعبة قبلة يومئذ، ولا كانت للمسلمين مساجد مختلفة متعددة، وآخر الوجوه وإن كان قريبا مما قدمناه إلا أنه ناقص في بيان الإخلاص المستفاد من الآية، وما تضمنه إنما هي معنى قوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا قوله: ﴿وَأَقِيمُوا﴾، كما تقدم.

٥. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. ظاهر السياق أن يكون قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ حالا من فاعل ﴿تَعُودُونَ﴾ ويكون هو الوجه المشترك الذي شبه فيه العود بالبدء، والمعنى تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤]، والمعنى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة فرادى.

ب. فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام، وأما كون ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾، حالا لا يعدو عامله، ووجه الشبه بين البدء والعود أمرا آخر غير مذكور ككونهم فرادى بدءا وعودا أو كون الخلق الأول والثاني جميعا من تراب أو كون البعث مثل الإنشاء في قدرة الله إلى غير ذلك مما احتملوه فوجوه بعيدة عن دلالة الآية، وأي فائدة في حذف وجه الشبه من الذكر وذكر ما لا حاجة إليه مع وقوع اللبس، وسيجيء إن شاء الله توضيح ذلك.

ج. وظاهر البدء في قوله: ﴿بَدَأَكُمْ﴾ أول خلقة الإنسان الدنيوية لا مجموع الحياة الدنيوية قبال الحياة الأخروية فيكون البدء هو الحياة الدنيا والعود هو الحياة الأخرى فيكون المعنى كنتم في الدنيا مخلوقين له هدى فريقا منكم وحقت الضلالة على فريق آخر كذلك تعودون كما يؤول إليه قول من قال: (إن معنى الآية: تبعثون على ما متم عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره)، وذلك أن ظاهر البدء إذا نسب إلى شيء ذي امتداد واستمرار بوجه أن يقع على أقدم أجزاء وجوده الممتد المستمر لا على الجميع، والخطاب للناس فبدؤهم أول خلقة النوع الإنساني وبدء ظهوره، على أن الآية من تتمة الآيات التي يبين الله سبحانه فيها بدء إيجاده الإنسان بمثل قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية،

فالمراد به كيفية البدء التي قصها في أول كلامه، وقد كان من القصة أن الله قال لإبليس لما رجمه: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وفيه قضاء أن ينقسم بنو آدم فريقين فريقا مهتدين على الصراط المستقيم، وفريقا ضالين حقا فهذا هو الذي بدأهم به وكذلك يعودون.

د. وقد بين ذلك في مواضع أخر من كلامه أوضح من ذلك وأصرح كقوله: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]، وهذا قضاء حتم وصراط مستقيم إن الناس طائفتان طائفة ليس لإبليس عليهم سلطان وهم الذين هداهم الله، وطائفة متبعون لإبليس غاوون وهم المقضي ضلالهم لاتباعهم الشيطان وتوليهم إياه قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٤]، وإنما قضي ضلالهم إثر اتباعهم وتوليهم لا بالعكس كما هو ظاهر الآية.

هـ. ونظيره في ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، فإنه يدل على أن هناك قضاء بتفرقهم فريقين، وهذا التفرق هو الذي فرع تعالى عليه قوله إذ قال: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا﴾، ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] وهو عمى الضلال.

و. وبعد ذلك كله فمن الممكن أن يكون قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾، في مقام التعليل لمضمون الكلام السابق والمعنى: أقسطوا في أعمالكم وأخلصوا لله سبحانه فإن الله سبحانه إذ بدأ خلقكم قضى فيكم أن تتفرقوا فريقين فريقا يهديهم وفريقا يضلون عن الطريق وستعودون إليه كما بدأكم فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة بتولي الشياطين فأقسطوا وأخلصوا حتى تكونوا من المهتدين بهداية الله لا الضالين بولاية الشياطين، فيكون الكلام جاريا مجرى قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨] فإنه في عين أنه بين أولا أن لكل وجهة خاصة محتومة هو موليها لا يتخلف عنه إن سعادة فسعادة وإن شقاوة فشقاوة أمرهم ثانيا أن استبقوا الخيرات، ولا يستقيم الأمر مع تحتم إحدى المنزلتين: السعادة والشقاوة لكن الكلام في معنى قولنا: إن كلا منكم لا محيص له عن وجهة متعينة في حقه لازمة له إما الجنة وإما النار فاستبقوا الخيرات حتى تكونوا من أهل وجهة السعادة دون غيرها، وكذلك الأمر فيما نحن فيه فالكلام في معنى قولنا: إنكم ستعودون فريقين كما بدأكم فريقين بقضائه فأقسطوا في أعمالكم وأخلصوا لله سبحانه حتى تكونوا من الفريق الذي هدى دون الفريق الذي

حق عليهم الضلالة.

ز. ومن الممكن أن يكون قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾، كلاما مستأنفا وهو مع ذلك لا يخلو عن تلويح بالدعوة إلى الأقساط والإخلاص على ما يتبادر من السياق.

٦. وأما قوله: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ فهو تعليل لثبوت الضلالة ولزومها لهم في قوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ كان كلمة الضلال والخسران صدرت من مصدر القضاء في حقهم مشروطا بولاية الشيطان كما يذكره في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج: ٤]

٧. فلما تولوا الشياطين في الدنيا حقت عليهم الضلالة ولزمتهم لزوما لا انفكاك بعده أبدا وهذا نظير ما يستفاد من قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[السجدة: ٢٥]

٨. وأما قوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾:

أ. فهو كعطف التفسير بالنسبة إلى الجملة السابقة يفسر به معنى تحقق الضلالة ولزومها فإن الإنسان مهما ركب غير طريق الحق واعتنق الباطل وهو يعترف بأنه من الباطل ولما ينس الحق أوشك أن يعود إلى الحق الذي فارقه وكان مرجوا أن ينتزع عن ضلاله إلى الهدى أما إذا اعتقد حقية الباطل الذي هو عليه، وحسب أنه على الهدى وهو في ضلال فقد استقر فيه شيمة الغي وحقت عليه الضلالة ولا يرجى معه فلاح أبدا.

ب. فقوله: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ كالتفسير لتحقق الضلالة لكونه من لوازمه، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]

ج. وإنه الإنسان يسير على الفطرة ويعيش على الخلقة لا ينقاد إلا للحق ولا يخضع إلا للصدق ولا يريد إلا ما فيه خيره وسعادته غير أنه إذا شمله التوفيق وكان على الهدى طبق ما يطلبه ويقصده على حقيقة مصداقه ولم يعبد إلا الله وهو الحق الذي يطلبه ولم يرد إلا الحياة الدائمة الخالدة وهي السعادة التي يقصدها، وإذا ضل عن الصراط انتكس وجهه من الحق إلى الباطل ومن الخير إلى الشر ومن السعادة إلى

الشقاء فيتخذ إلهه هواه، ويعبد الشيطان، ويخضع للأوثان، وأخلد إلى الأرض، وتعلق بالزخارف المادية الدنيوية وتبصر إليها لكنه إنما يعمل ما يعمل بإذعان أنه هكذا ينبغي أن يعمل وحسبان أنه مهتد في عمله فيأخذ بالباطل بعنوان أنه حق، ويركن إلى الشر أو الشقاء بعنوان أنه خير وسعادة فالإدراك الفطري محفوظ له غير أنه يطبقه في مقام العمل على غير مصداقه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ﴾ ﴿نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، وأما إنسان يتبع الباطل بما هو باطل، ويقصد الشقاء والخسران بما هو شقاء وخسران فمن المحال ذلك، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠] وشيء من العلل والأسباب ومنها الإنسان لا يريد غاية ولا يفعل فعلا إلا إذا كان ملائما لنفسه حاملا لما فيه نفعه وسعادته، وما ربما يتراءى من خلاف فإنما هو في بادئ النظر لا بحسب الحقيقة وفي نفس الأمر.

د. هذا كله ما يقتضيه التدبر وإيفاء النظر من معنى قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾، وهو يدور مدار كون ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾، حالا مبينا لوجه الشبه والمعنى المشترك بين البدء والعود سواء أخذنا الكلام مستأنفا أو واقعا موقع التعليل متصلا بما قبله.

٩. وأما جمهور المفسرين فكأنهم متسالمون على أن قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ حال مبين لكيفية العود فحسب دون العود والبدء جميعا، وأن المعنى المشترك الذي هو وجه تشبيه العود بالبدء أمر آخر وراءه إلا من فسر البدء بالحياة الدنيا والخلق الأول كما تقدم وسيجيء وكان ذلك فرارا منهم عن لزوم الجبر المبطل للاختيار مع احتفاف الكلام بالأوامر والنواهي، وقد عرفت أن ذلك غير لازم، وبالجملة فقد اختلفوا في وجه اتصال الكلام بما قبله بعد التسالم على ذلك:

أ. فمن قائل: أنه إنذار بالبعث تأكيدا للأحكام المذكورة سابقا، واحتجاج عليه بالبدء فالمعنى: ادعوه مخلصين فإنكم مبعوثون مجازون، وإن بعد ذلك في عقولكم فاعتبروا بالابتداء واعلموا أنه كما بدأكم في الخلق الأول فإنه يبعثكم فتعودون في الخلق الثاني، وفيه أنه مبني على أن تشبيه العود بالبدء في تساويهما بالنسبة إلى قدرة الله، وأن النكتة في التعرض لذلك هو الإنذار بالمجازاة، والسياق المناسب لهذا الغرض أن يقال: كما بدأكم يبعثكم فيجازيكم بوضع بعثه تعالى موضع عود الناس والتصريح بالمجازاة التي هي العمدة في الغرض المسوق لأجله الكلام كما صنع ذلك القائل نفسه فيما ذكره من المعنى، والآية خالية من

ذلك.

ب. ومن قائل: أنه احتجاج على منكري البعث، واتصاله بقوله تعالى قبل عدة آيات: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، فقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ معناه فليس بعثكم بأشد من ابتدائكم، وفيه: ما في الوجه السابق على أنه تحكم من غير دليل.

ج. ومن قائل: أنه كلام مستأنف، وقد تقدم ذكره.

د. ومن قائل: أنه متصل بما سبقه، والمعنى: أخلصوا لله في حياتكم فإنكم تبعثون على ما متم عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره، وفيه: أنه مبني على كون المراد بالبدء هو مجموع الحياة الدنيا في قبال الحياة الآخرة ثم تشبيه بالعود وهو الحياة الآخرة بآخر الحياة الأولى المسماة بعثا، والآية، كما تقدم، بمعزل عن الدلالة على هذا المعنى.

١٠. وضع هنا مبحثا حول [معنى السعادة والشقاوة الذاتية في القرآن والحديث]، خلاصته:

أ. الروايات الواردة في أن الله خلق الناس مؤمناً وكافراً، وشقياً وسعيداً، لا تعني السعادة والشقاوة الذاتية بمعنى الاقتضاء الذاتي المستقل عن الله، فإن ذلك يبطل إطلاق ملك الله ويوجب لغوية التكليف والتربية.

ب. معنى هذه الروايات يعود إلى أن آخر الخلقة يشاكل أولها، وأن المهتدي في آخر أمره مهتد من أول، والضال ضال من أول، وذلك من جهة الاستعدادات المادية والنفسية التي تناسب السعادة أو الشقاء.

ج. اختلاف الناس في السعادة والشقاء ينبع من اختلاف طيناتهم الأصلية (مادة الخلقة)، فمنهم من خلق من طينة الجنة ومنهم من خلق من طينة النار، وهذا الاختلاف له تأثير على الاستعدادات والصفات، لكنه تأثير اقتضائي لا علية تامة.

د. الروايات التي تذكر أن الله خلق ماءً عذباً وماءً ملحاً، وخلق من العذب أهل طاعته ومن الملح أهل معصيته، تشير إلى أن اختلاف المادة الأصلية يؤثر في اختلاف الصور والآثار، مع بقاء المشيئة الإلهية والبداء.

هـ. الروايات التي تذكر أن الله خلق الأنبياء وشيعتهم من نور، وأعداءهم من ظلمة، تشير إلى أن

طينة السعادة مما يظهر به الحق وتنجلي به المعرفة، وطينة الشقاوة مما يلازم الظلمة والعمى.

و. يوم القيامة هو يوم تبلى فيه السرائر وتظهر الحقائق، فيلحق كل شيء بأصله، وتنزع الحسنات من الأشقياء وتلحق بالسعداء، والسيئات من السعداء وتلحق بالأشقياء، وهذا هو الحكم الملكوتي والعدل الإلهي الباطن.

ز. معنى قوله تعالى: ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] هو أن فعل الله هو نفس الواقع الحق، فلا معنى للسؤال عنه بلم وكيف، بخلاف أفعالنا التي هي محاذاة للواقع وتحتاج إلى تعليل.

ح. اختصاص الذوات الطيبة بالحسنات والجنة، والذوات الخبيثة بالسيئات والنار، هو أمر تكويني واقعي لا أحكام وضعية اعتبارية، وهو من روابط ذوات الأشياء وآثارها الذاتية، ولا سؤال في الذاتيات.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في التهذيب بإسناده عن ابن مسكان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال: هذه القبلة.

• أقول: وهو من قبيل الجري والانطباق، كما تبين من البيان السابق، وروى مثله العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام.

ب. وفي التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام، وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، قال: مساجد محدثة، فأمروا أن يقيموا وجوههم شطر المسجد الحرام.

• أقول: الظاهر أن مراده عليه السلام أن معنى إقامة الوجوه في الآية التوجه إلى الله باستقبال القبلة عند كل مسجد يصلى فيه، ثم القبلة تعينت بمثل قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤]، وهي الكعبة، إذ قد تقدم في الكلام على آيات القبلة أن الكعبة إنما جعلت قبلة في المدينة بعد الهجرة، والآية التي نحن فيها وهي من سورة الأعراف مكية، ولعل أصل الجعل في هذه السورة، ثم تفصيل التشريع أو التفسير في سورة البقرة المدنية، إن ساعد سياق آيات القبلة على ذلك، كما أن الأحكام الأخرى المفصلة من الواجبات والحرمات تشتمل السور المكية على إجمالها،

وتشرع تفاصيلها أو تفسر وتبين في السور المدنية.

• فقوله عليه السلام: (مساجد محدثة) إلخ، معناه أن المراد بكل مسجد في الآية المساجد يحدثها المسلمون في أكناف الأرض، والمراد بإقامة الوجوه تولية الوجوه التي في آية الكعبة، وهي استقبال الشطر من المسجد الحرام.

ج. وفي تفسير العياشي عن الحسين بن مهران عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩]، يعني الأئمة.

• أقول: الظاهر أن المراد به أئمة الجماعات، وسيجيء له معنى آخر.

١٥. الزينة مباحة عند المسجد مع عدم الإسراف:

المقطع [١٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٨٠»:

١. ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ إلى آخر الآية، قال الراغب: (السرف تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر)، وأخذ الزينة عند كل مسجد هو التزين الجميل عند الحضور في المسجد، وهو إنما يكون بالطبع للصلاة والطواف وسائر ذكر الله فيرجع المعنى إلى الأمر بالتزين الجميل للصلاة ونحوها، ويشمل بإطلاقه صلوات الأعياد والجماعات اليومية وسائر وجوه العبادة والذكر.

٢. ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، أمران إباحيان ونهي تحريمي معلل بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ والجميع مأخوذة من قصة الجنة كما مرت الإشارة إليه، وهي كما تقدم خطابات عامة لا تختص بشرع دون شرع ولا بصنف من أصناف الناس دون صنف.

٣. ومن هنا يعلم فساد ما ذكره بعضهم: أن قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (يدل على بعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر، وأن الخطاب يشمل النساء بالتبع للرجال شرعا لا لغة)، نعم تدل الآية على أن هناك أحكاما عامة لجميع البشر برسالة واحدة أو أكثر، وأما شمول الحكم للنساء فبالتغليب في الخطاب والقرينة العقلية قائمة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن الحسين بن مهران عنه عليه السلام في قول الله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، قال: يعني الأئمة.

• أقول: وهو كالحديث السابق، فإن تقديم الإمام زينة الصلاة، ومن المستحب شرعاً تقديم خيار القوم ووجوههم للإمامة، ويمكن أن يكون المراد بالأئمة أئمة الدين، على ما سيجيء من رواية العلاء بن سيابة في آخر البحث.

ب. أخرج العقيلي وأبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن أنس عن النبي ﷺ في قول الله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، قال: صلوا في نعالكم.

• أقول: وروي هذا المعنى بعدة طرق أخرى عن علي وأبي هريرة وابن مسعود وشداد بن الأوس وغيرهم عنه ﷺ.

ج. وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: وجهني علي بن أبي طالب إلى ابن الكواء وأصحابه، وعلي قميص رقيق وحلة، فقالوا لي: أنت ابن عباس وتلبس مثل هذه الثياب؟ فقلت: أول ما أخاصمكم به قال الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، و﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكان رسول الله ﷺ يلبس في العيدين بردي حبرة.

د. وفي الكافي بإسناده عن يحيى بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال: بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عباس إلى ابن الكواء وأصحابه، وعليه قميص رقيق وحلة، فلما نظروا إليه قالوا: يا ابن عباس، أنت خيرنا في أنفسنا، وأنت تلبس هذا اللباس؟ فقال: وهذا أول ما أخاصمكم فيه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال الله عز وجل: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]

هـ. وفي الكافي بإسناده عن فضالة بن أيوب في قول الله عز وجل: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، قال: في العيد والجمعة.

• أقول: ورواه في التهذيب عن فضالة عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام، وروى ما في معناه العياشي في تفسيره عنه، وفي المجمع عن أبي جعفر عليه السلام.

و. وفي الفقيه سئل أبو الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، قال: من ذلك التمشط عند كل صلاة.

• أقول: وفي معناها غيرها من الروايات.

ز. وفي تفسير العياشي عن خيثمة بن أبي خيثمة قال: كان الحسن بن علي عليه السلام إذا قام إلى الصلاة لبس أجود ثيابه، فقيل له: يا ابن رسول الله، لم تلبس أجود ثيابك؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال، فأتجمل لربي، وهو يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، فأحب أن ألبس أجود ثيابي.

• أقول: والحديث مروي من طرق أهل السنة أيضاً.

١٦. نعم الله مباحة للمؤمنين في الدنيا والآخرة:

المقطع [١٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٨٠»:

١. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾:

أ. هذا من استخراج حكم خاص، بهذه الأمة، من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات نظير ما تقدم في قوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ الآية.

ب. والاستفهام إنكاري، والزين يقابل الشين وهو ما يعاب به الإنسان فالزينة ما يرتفع به العيب ويذهب بنفرة النفوس، والإخراج كناية عن الإظهار واستعارة تخييلية كأن الله سبحانه بإلهامه وهدايته الإنسان من طريق الفطرة إلى إيجاد أنواع الزينة التي يستحسنها مجتمعة ويستدعي انجذاب نفوسهم إليه وارتفاع نفرتهم واشمئزازهم عنه يخرج لهم الزينة وقد كانت مخبية خفية فأظهرها لحواسهم.

ج. ولو كان الإنسان يعيش في الدنيا وحده في غير مجتمع من أمثاله لم يحتج إلى زينة يتزين بها قط ولا تنبه للزوم إيجادها لأن ملاك التنبه هو الحاجة، لكنه لما لم يسعه إلا الحياة في مجتمع من الأفراد وهم يعيشون بالإرادة والكراهة والحب والبغض والرضى والسخط فلا محيص لهم من العثور على ما يستحسنونه وما يستقبحونه من الهيئات والأزياء فيلهمهم المعلم الغيبي من وراء فطرتهم بما يصلح ما فسد منهم ويزين ما يشين منهم وهو الزينة بأقسامها، ولعل هذا هو النكتة في خصوص التعبير بقوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾

د. وهذه المساة بالزينة من أهم ما يعتمد عليه الاجتماع الإنساني، وهي من الآداب العريقة التي تلازم المجتمعات وتترقى وتتنزل على حسب تقدم المدنية والحضارة ولو فرض ارتفاعها من أصلها في مجتمع من المجتمعات انهدم الاجتماع وتلاشت أجزاؤه من حينه لأن معنى بطلانها ارتفاع الحسن والقبح والحب والبغض والإرادة والكراهة وأمثالها من بينهم، ولا مصداق للاجتماع الإنساني عندئذ فافهم ذلك.

هـ. ثم الطيبات من الرزق، والطيب هو الملائم للطبع، هي الأنواع المختلفة مما يرتزق به الإنسان بالتغذي منه، أو مطلق ما يستمد به في حياته وبقائه كأنواع المطعم والمشرب والمنكح والمسكن ونحوها، وقد جهز الله سبحانه الإنسان بما يحس بحاجته إلى أقسام الرزق ويستدعي تناولها بأنواع من الشهوات الهائجة في باطنه إلى ما يلائمها مما يرفع حاجته وهذا هو الطيب والملاءمة الطبيعية.

و. وابتناء حياة الإنسان السعيدة على طيبات الرزق غني عن البيان فلا يسعد الإنسان في حياته من الرزق إلا بما يلائم طباع قواه وأدواته التي جهز بها ويساعده على بقاء تركيبه الذي ركب به، وما جهز بشيء ولا ركب من جزء إلا لحاجة له إليه فلو تعدى في شيء مما يلائم فطرته إلى ما لا يلائمها طبعا اضطر إلى تتميم النقص الوارد عليه في القوة المربوطة به إلى صرف شيء من سائر القوى فيه كالمنهوم الشره الذي يفرط في الأكل فيصيبه آفات الهضم، فيضطر إلى استعمال الأدوية المصلحة لجهاز الهضم والمشهية للمعدة ولا يزال يستعمل ويفرط حتى يعتاد بها فلا تؤثر فيه فيصير إنسانا عليلا تشغله العلة عن عامة واجبات الحياة، وأهمها الفكر السالم الحر وعلى هذا القياس.

ز. والتعدي عن طيب الرزق يبدل الإنسان إلى شيء آخر لا هو مخلوق لهذا العالم ولا هذا العالم مخلوق له وأي خير يرجى في إنسان يتوخى أن يعيش في ظرف غير ظرفه الذي أعده له الكون، ويسلك طريقا لم تهيئه له الفطرة، وينال غاية غير غايته وهو أن يتوسع بالتمتع بكل ما تزينه له الشهوة والشره، ويصوره له الخيال بآخر ما يقدر وأقصى ما يمكن.

ح. والله سبحانه يذكر في هذه الآية أن هناك زينة أخرجها لعباده وأظهرها وبينها لهم من طريق الإلهام الفطري، ولا تلهم الفطرة إلا بشيء قامت حاجة الإنسان إليه بحسبها.

ط. ولا دليل على إباحة عمل من الأعمال وسلوك طريق من الطرق أقوى من الحاجة إليه بحسب الوجود والطبيعة الذي يدل على أن الله سبحانه هو الرابط بين الإنسان المحتاج وبين ما يحتاج إليه بما أودع

في نفسه من القوى والأدوات الباعثة له إليه بحسب الخلقة والتكوين.

ي. ثم يذكر بعطف الطيبات من الرزق على الزينة في حيز الاستفهام الإنكاري أن هناك أقساما من الرزق طيبة ملائمة لطباع الإنسان يشعر بطيبه من طريق قواه المودعة في وجوده، ولا يشعر بها ولا يتنبه لها إلا لقيام حاجته في الحياة إليها وإلى التصرف فيها تصرفا يستمد به لبقائه، ولا دليل على إباحة شيء من الأعمال أقوى من الحاجة الطبيعية والفقر التكويني إليه كما سمعت.

ك. ثم يذكر بالاستفهام الإنكاري أن إباحة زينة الله والطيبات من الرزق مما لا ينبغي أن يرتاب فيها فهو من إمضاء الشرع لحكم العقل والقضاء الفطري.

ل. وإباحة الزينة وطيبات الرزق لا تعدو مع ذلك حد الاعتدال فيها والوسط العدل بين الإفراط والتفريط فإن ذلك هو الذي يقضي به الفطرة، وقد قال الله سبحانه في الآية السابقة: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ وقال فيما قبل ذلك: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾

م. ففي التعدي إلى أحد جانبي الإفراط والتفريط من تهديد المجتمع الإنساني بالانحطاط، وفساد طريق السعادة ما في انثلام ركن من أركان البناء من تهديده بالانهدام فقلما ظهر فساد في البر والبحر وتنازع يفضي إلى الحروب المبيدة للنسل المخربة للمعمورة إلا عن إتراف الناس وإسرافهم في أمر الزينة أو الرزق، وهو الإنسان إذا جاوز حد الاعتدال، وتعدى ما خط له من وسط الجادة ذهب لوجهه لا يقف على حد ولا يلوي على شيء فمن الحري أن لا يرفع عنه سوط التربية ويذكر حتى بأوضح ما يقضي به عقله، ومن هذا القليل الأمر الإلهي بضروريات الحياة كالأكل والشرب واللبس والسكنى وأخذ الزينة.

ن. قال صاحب المنار، في بعض كلامه، وما أجود ما قال: وإنما يعرفها، يعني قيمة الأمر بأخذ الزينة مع بساطته ووضوحه، من قراء تواريخ الأمم والملل، وعلم أن أكثر المتوحشين الذين يعيشون في الحرجات والغابات أفرادا وجماعات يأوون إلى الكهوف والمغارات.

س. ومما يناسب المقام ما روي: أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق، فقال ذات يوم لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان! فقال له علي: قد جمع الله الطب كله في نصف آية، وهو قوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وجمع نبينا الطب في قوله: (المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء، وأعط كل بدن ما عودته) فقال الطبيب: ما ترك كتابكم

ولا نبيكم لجالينوس طبا.

٢. ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾:

أ. لا ريب أن الخطاب في صدر الآية إما لخصوص الكفار أو يعمهم والمؤمنين جميعا كما يعمهم جميعا ما في الآية السابقة من الخطاب بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ولازمه أن تكون الزينة وطيبات الرزق موضوعة على الشركة بين الناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم.

ب. فقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، مسوق لبيان ما خص الله سبحانه به المؤمنين من عباده من الكرامة والمزية، وإذ قد اشتركوا في نعمه في الدنيا فهي خالصة لهم في الآخرة، ولازم ذلك أن يكون قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلقا بقوله: ﴿آمَنُوا﴾، وقوله: ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ متعلقا بما تعلق به قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو قولنا كائنة أو ما يقرب منه، و﴿خَالِصَةً﴾ حال عن الضمير المؤنث وقدمت على قوله: ﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ لتكون فاصلة بين قوليه: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ و﴿يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ والمعنى: قل هي للمؤمنين يوم القيامة وهي خالصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم كما شاركوهم في الدنيا فمن آمن في الدنيا ملك نعمها يوم القيامة.

٣. وبهذا البيان يظهر:

أ. ما في قول بعضهم: إن المراد بالخلوص إنما هو الخلوص من الهموم والمنغصات والمعنى: هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا غير خالصة من الهموم والأحزان والمشقة، وهي خالصة يوم القيامة من ذلك، وذلك أنه ليس في سياق الآية ولا في سياق ما تقدمها من الآيات إشعار باحتفاف النعم الدنيوية بما ينغص عيش المتنعمين بها ويكدرها عليهم حتى يكون قرينة على إرادة ما ذكره من معنى الخلوص.

ب. وكذا ما في قول بعض آخر: إن قوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بما تعلق به قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والمعنى: هي ثابتة للذين آمنوا بالأصالة والاستحقاق في الحياة الدنيا، ولكن يشاركهم غيرهم فيها بالتبع لهم وإن لم يستحقها مثلهم، وهي خالصة لهم يوم القيامة، أو حال كونها خالصة لهم يوم القيامة فقد قرأ نافع ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع على أنها خبر والباقون بالنصب على الحالية، وذلك أن المؤمنين هم الذين ينتهي إليهم العلوم النافعة في الحياة الصالحة، والأوامر المحرضة لإصلاح الحياة بأخذ الزينة والارتزاق بالطيبات

والقيام بواجبات المعاش ثم التفكر في آيات الآفاق والأنفس المؤدي إلى إيجاد الصناعات والفنون المستخدمة في الرقي في المدنية والحضارة، ومعرفة قدرها والشكر عليها، كل ذلك من طريق الوحي والنبوة، وجه فساده: أنه إن أراد أن ما ذكره من الأصالة والتبعية هو مدلول الآية فمن الواضح أن الآية أجنبية عن الدلالة على ذلك، وإن أراد أن الآية تفيد أن النعم الدنيوية للمؤمنين ثم بينت مشاركة الكفار لهم فيها وأن ذلك بالأصالة والتبعية فقد عرفت أن الآية لا تدل إلا على اشتراك الطائفتين معا في النعم الدنيوية لا اختصاص المؤمنين بها في الدنيا فأين حديث الأصالة والتبعية.

ج. بل ربما كان الظاهر من أمثال قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٥]، خلاف ذلك وأن زهرة الحياة الدنيا أجدر أن يخصوا به.

٤. وقد امتن الله تعالى في ذيل الآية على أهل العلم بتفصيل البيان إذ قال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد عن سعيد بن جبير قال: كان الناس يطوفون بالبيت عراة، يقولون: لا نطوف في ثياب أذنبنا فيها، فجاءت امرأة فألقت ثيابها وطافت، ووضعت يدها على قبلها وقالت:

اليوم يبدو بعضه أو كله... فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] إلى قوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]

• أقول: وروي ما يقرب منه عن ابن عباس ومجاهد وعطاء، لكنك قد عرفت أن الآيات المصدرة بقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ أحكام وشرائع عامة لجميع بني آدم، من غير أن يختص بأمة دون أمة، فهذه الآحاد من الأخبار لا تزيد على اجتهاد من المنقول عنهم، لا حجية فيها، وأعدل الروايات في هذا المعنى الروايتان الآتيتان.

ب. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة، فأمرهم الله بالزينة والزينة اللباس، وهو ما يواري السوآت، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع.

ج. أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها، وهو قول الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩]، وهو هذا، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٣٢]، يعني شارك المسلمون الكفار في الطيبات في الحياة الدنيا، فأكلوا من طيبات طعامها ولبسوا من جياد ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء.

• أقول: والروايتان كما ترى ظاهرتان في التطبيق دون سبب النزول، والمعول على ذلك.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي بإسناده عن يونس بن إبراهيم قال: دخلت يوماً على أبي عبد الله عليه السلام وعلي جبة خز وطيلسان خز، فنظر إلي فقلت: جعلت فداك، علي جبة خز وطيلسان خز، هذا ما تقول فيه؟ فقال: لا بأس بالخز، قلت: وسداه إبريسم؟ فقال: وما بأس يا إبراهيم، فقد أصيب الحسين عليه السلام وعليه جبة خز، ثم ذكر عليه السلام قصة عبد الله بن عباس مع الخوارج، واحتجاجه عليهم بالآيتين.

ب. وفيه بإسناده عن أحمد بن أبي عبد الله عن محمد بن علي رفعه قال: مر سفيان الثوري في المسجد الحرام، فرأى أبا عبد الله عليه السلام وعليه أثواب كثيرة قيمة حسان، فقال: والله لآتينه ولأوبخنه، فدنا منه فقال: يا ابن رسول الله، والله ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس، ولا علي ولا أحد من آبائك! فقال أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله ﷺ في زمان قتر مقتر، وكان يأخذ لقتره وإقتاره، وإن الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها، وأحق أهلها بها أبرارها، ثم تلا: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فنحن أحق من أخذ ما أعطاه الله، يا ثوري، ما ترى علي من ثوب، إنما لبسته للناس، ثم اجتذب بيد سفيان فجرها إليه، ثم رفع الثوب الأعلى، وأخرج ثوباً تحت ذلك على جلده غليظاً، ثم قال: هذا لبسته لنفسي، وما رأيته للناس، ثم جذب ثوباً على سفيان أعلاه غليظاً خشناً، وداخل ذلك الثوب لين، فقال: لبست هذا الأعلى للناس، ولبست هذا لنفسك تسترها.

ج. وفيه بإسناده عن ابن القداح قال: كان أبو عبد الله عليه السلام متكئاً عليه ثياب مروية حسان، فلقيه عباد بن كثير فقال: يا أبا عبد الله، إنك من أهل بيت النبوة، وكان أبوك، فما لهذه الثياب المروية عليك؟

فلو لبست دون هذه الثياب، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ويلك يا عباد، من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ إن الله عز وجل إذا أنعم على عبده نعمة، أحب أن يراها عليه، وليس به بأس.

د. أخرج الترمذي وحسنه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده.

هـ. وفي قرب الإسناد للحميري عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن الرضا عليه السلام في حديث طويل: قال عليه السلام لي: ما تقول في اللباس الخشن؟ فقلت: بلغني أن الحسن كان يلبس، وأن جعفر بن محمد كان يأخذ الثوب الجديد فيأمر به فيغمس في الماء، فقال لي: البس وتجمل، فإن علي بن الحسين كان يلبس الجبة الخز بخمسمائة درهم، والمطرف الخز بخمسين ديناراً، فيشتو فيه، فإذا خرج الشتاء باعه وتصدق بثمنه، وتلا هذه الآية: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهَّ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]

• أقول: والروايات في هذه المعاني كثيرة جداً، ومن أجمعها معنى الرواية الآتية في تفسير العياشي عن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه، أو منع من منع من هوان به عليه؟ لا، ولكن المال مال الله، يضعه عند الرجل ودائع، وجوز لهم أن يأكلوا قصدا، ويشربوا قصدا، ويلبسوا قصدا، وينكحوا قصدا، ويركبوا قصدا، ويعودوا بها سوى ذلك على فقراء المؤمنين، ويلموا به شعثهم، فمن فعل ذلك، كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً، ويركب حلالاً، وينكح حلالاً، ومن عدا ذلك، كان عليه حراماً، ثم قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، أترى الله ائتمن رجلاً على مال خول له، أن يشتري فرساً بعشرة آلاف درهم، ويجزيه فرساً بعشرين درهماً، ويشتري جارية بألف دينار، ويجزيه جارية بعشرين ديناراً، وقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]

و. وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن عبد العزيز عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نكون بطريق مكة ونريد الإحرام، فنطلي ولا يكون معنا نخالة فنتدلك بها من النورة، فنتدلك بالدقيق، وقد دخلني من ذلك ما الله أعلم به، فقال: مخافة الإسراف؟ قلت: نعم، فقال: ليس فيما أصلح البدن إسراف، إني ربما أمرت بالنقي فيلت بالزيت فأتدلك به، إنما الإسراف فيما أفسد المال وأضر بالبدن،

قلت: وما الإقتار؟ قال: أكل الخبز والملح وأنت تقدر على غيره، قلت: فما القصد؟ قال: الخبز واللحم واللبن والخل والسمن، مرة هذا ومرة هذا.

ز. وفي الكافي بإسناده عن علي بن يقطين عن أبي الحسن عليه السلام قال: قال: قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٣٣]، فأما قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾، يعني الزنا المعلن، ونصب الرايات التي كانت ترفعها الفواحش في الجاهلية للفواحش، وأما قوله عز وجل: ﴿وَمَا بَطَنَ﴾، يعني ما نكح من أزواج الآباء، لأن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي ﷺ، إذا كان للرجل زوجة ومات عنها، تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمه، فحرم الله عز وجل ذلك، وأما ﴿الْإِثْمَ﴾، فإنها الخمر بعينها.

• أقول: والرواية ملخصة من كلامه عليه السلام مع المهدي، وقد رواها في صورة المحاجة في الكافي مسندة، وفي تفسير العياشي مرسلة، وأوردناها في روايات آية الخمر من سورة المائدة.

١٧. تحريم الفواحش والشرك والقول بلا علم:

المقطع [١٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٨٦»:

١. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ إلى آخر الآية، قد تقدم البحث المستوفى عن مفردات الآية فيما مر، وإن الفواحش هي المعاصي البالغة قبحا وشناعة كالزنا واللواط ونحوهما، والإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته وذلة وهوانا وسقوطا كشرب الخمر الذي يستعقب للإنسان تهلكة في جاهه وماله وعرضه ونفسه ونحو ذلك، والبغي هو طلب الإنسان ما ليس له بحق كأنواع الظلم والتعدي على الناس والاستيلاء غير المشروع عليهم، ووصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم نظير التقييد الذي في قوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾

٢. وكان إلقاء الخطاب بإباحة الزينة وطيبات الرزق داعيا لنفس السامع إلى أن يحصل على ما حرمه الله فألقى الله سبحانه في هذه الآية جماع القول في ذلك، ولا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينية، وهي تنقسم بوجه إلى قسمين: ما يرجع إلى الأفعال وهي الثلاثة الأول، وما يرجع إلى الأقوال

والاعتقادات وهو الأخيران، والقسم الأول منه ما يرجع إلى الناس وهو البغي بغير الحق، ومنه غيره وهو إما ذو قبح وشناعة فالفاحشة، وإما غيره فالإثم، والقسم الثاني إما شرك بالله أو افتراء على الله سبحانه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي عن محمد بن منصور قال: سألت عبداً صالحاً عليه السلام عن قول الله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، قال: إن للقرآن ظهراً وبطناً، فأما ما حرم به في الكتاب، هو في الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحل في الكتاب هو في الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الحق.

• أقول: ورواه في الكافي عن محمد بن منصور مسنداً، وفيه: فجميع ما حرم الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الجور، وجميع ما أحل الله في القرآن هو الظاهر، والباطن من ذلك أئمة الحق.

• أقول: انطباق المعاصي والمحرمات على أولئك، والمحللات على هؤلاء، لكون كل واحد من الطائفتين سبباً للقرب من الله أو البعد عنه، أو لكون اتباع كل سبباً لما يناسبه من الأعمال.

• ومن هذا الباب ما في التهذيب بإسناده عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، قال: الغسل عند لقاء كل إمام، وكذا ما تقدم من روايتي الحسين بن مهران.

ب. أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن مردويه عن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي، لضربته بالسيف، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، ومن أجله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله.

ج. وفي تفسير العياشي عن علي بن أبي حمزة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال النبي ﷺ: ما من أحد أغير من الله تبارك وتعالى، ومن أغير ممن حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن؟

١٨. أجل كل أمّة محدد لا يتقدم ولا يتأخر:

المقطع [١٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٨٧»:

١. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ إلى آخر الآية هي حقيقة مستخرجة من قوله تعالى في ذيل القصة: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ نظير الأحكام الآخر المستخرجة منها المذكورة سابقا، ومفاده أن الأمم والمجتمعات لها أعمار وآجال نظير ما للأفراد من الأعمار والآجال.

٢. وربما استفيد من هذا التفريع والاستخراج أن قوله تعالى في ذيل القصة سابقا: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾، راجع إلى حياة كل فرد فرد وكل أمة أمة، وهي بعض عمر الإنسانية العامة، وإن قوله قبله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ راجع إلى حياة النوع إلى حين وهو حين الانقراض أو البعث، وهذا هو عمر الإنسانية العامة في الدنيا.

٣. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، قال: هو الذي يسمى لملك الموت.

• أقول: وقد تقدمت روايات في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]

١٩. التقوى والإصلاح ينجيان من الخوف والحزن:

المقطع [١٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥-٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٨٧»:

١. ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ إلى آخر الآيتين، ﴿إِمَّا﴾ أصله إن الشرطية دخلت على ما، وفي شرطها النون الثقيلة، وكأن ذلك يفيد أن الشرط محقق لا محالة، والمراد بقص الآيات بيانها وتفصيلها لما فيه من معنى القطع والإبانة عن مكمن الخفاء.

٢. والآية إحدى الخطابات العامة المستخرجة من قصة الجنة المذكورة هاهنا وهي رابعها وآخرها يبين للناس التشريع الإلهي العام للدين باتباع الرسالة وطريق الوحي، والأصل المستخرج عنه هو مثل قوله في سورة طه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ الآية، فبين أن

إتيان الهدى منه إنما يكون بطريق الرسالة.

٢٠. عاقبة الافتراء على الله والتكذيب بآياته:

المقطع [٢٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١١٢»:

١. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾:

أ. تفريع على ما تتضمنه الآية السابقة من إعلام الشريعة العامة المبلغة بواسطة الرسل أي إذا كان الأمر على ذلك وقد أبلغ الله دينه العام جميع أولاد آدم وأخبر بما أعده من الجزاء للأخذ به وتركه فمن أظلم ممن استنكف عن ذلك إما بافتراء الكذب على الله، ونسبة دين إليه، ووضعه موضع ما أتى به الرسل من دين التوحيد، وقد أخبر الله أنهم وسائط بينه وبين خلقه في تبليغهم دينه، وإما بالتكذيب لآياته الدالة على وحدانيته وما يتبعه من الشرائع.

ب. ومن هنا يظهر أن افتراء الكذب على الله وإن كان يعم كل بدعة في الدين أصوله وفروعه غير أن المورد هو الشرك بالله باتخاذ آلهة دون الله، ويدل عليه ما سيأتي من قوله: ﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

٢. ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ إلى آخر الآية:

أ. المراد بالكتاب ما قضي وكتب أن يصيب الإنسان من مقدرات الحياة من عمر ومعيشة وغنى وصحة ومال وولد وغير ذلك، والدليل عليه تقييده بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾، والمراد به أجل الموت، ومن المعلوم أنه غاية للحياة الدنيا بجميع شئونها ومقارناتها.

ب. والمراد بالنصيب من الكتاب السهم الذي يختص كل واحد منهم من مطلق ما كتب له ولغيره، وفي جعل النصيب من الكتاب هو الذي ينالهم، والأمر منعكس بحسب الظاهر دلالة على أن النصيب الذي فرض للإنسان وقضي له من الله سبحانه لم يكن ليخطئه البتة وما لم يفرض له لم يكن ليصيبه البتة.

ج. والمعنى: أولئك الذين كذبوا على الله بالشرك أو كذبوا بآياته بالرد لجميع الدين أو شطر منه

ينالهم نصيبهم من الكتاب، ونصيبهم ما قضي في حقهم من الخير والشر في الحياة الدنيا حتى إذا قضوا أجلهم وجاءتهم رسلنا من الملائكة وهم ملك الموت وأعوانه نزلوا عليهم وهم يتوفونهم ويأخذون أرواحهم ونفوسهم من أبدانهم سألوهم وقالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله من الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء الله فيكم وشفعاؤكم عنده؟ قالوا ضلوا عنا وإنما ضلت أوصافهم ونعوتهم، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بمعاينة حقيقة الأمر أن غير الله سبحانه لا ينفع ولا يضر شيئا، وقد أخطئوا في نسبة ذلك إلى أوليائهم.

٣. وفي مضمون الآية جهات من البحث تقدمت في نظيرة الآية من سورة الأنعام وغيرها.

٢١. أهل النار يتلاعنون ويتضاعف عليهم العذاب:

المقطع [٢١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨ـ٣٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١١٣»:

١. ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾:

أ. الخطاب من الله سبحانه دون الملائكة وإن كانوا في وسائط في التوفي وغيره، والمخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار وهم الذين توفيت قبلهم أمم من الجن والإنس إلا أن الخطاب في معنى: ادخلوا فيما دخل فيه سابقوكم ولاحقوكم وإنما نظم الكلام هذا النظم ليتخلص به إلى ذكر التخاصم الذي يقع بين متقدميهم ومتأخريهم، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤]

ب. وفي الآية دلالة على أن من الجن أمما يموتون بآجال خاصة قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقي إلى يوم الوقت المعلوم.

٢. ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ هذا من جملة خصامهم في النار وهو لعن كل داخل من تقدم عليه في الدخول، واللعن هو الإبعاد من الرحمة ومن كل خير والأخت المثل.

٣. ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. اداركوا أي تداركوا أي أدرك بعضهم بعضا اللاحقون السابقين أي اجتمعوا في النار جميعا.

ب. والمراد ب الأولى والأخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبة أو بحسب الزمان فإن الأولى منهم مقاما وهم رؤساء الضلال، وأئمة الكفر المتبوعون أعانوا تابعيهم بإضلالهم على الضلال، وكذا الأولى منهم زمانا وهم الأسلاف المتقدمون أعانوا متأخريهم على ضلالتهم لأنهم هم الذين جرءوهم بفتح الباب لهم وتمهيد الطريق لسلوكهم.

ج. والضعف بالكسر فالسكون ما يكرر الشيء فضعف الواحد اثنان وضعف الاثنين أربعة غير أنه ربما أريد به ما يوجب تكرار شيء آخر فقط كالاثنين يوجب بنفسه تكرار الواحد فضعف الواحد اثنان وضعفاه أربعة، وربما أريد به ما يوجب التكرار بانضمامه إلى شيء كالواحد يوجب تكرار واحد آخر بانضمامه إليه لأنهما يصيران بذلك اثنين فكل واحد من جزئي الاثنين ضعف وهما جميعا ضعفان نظير الزوج فالاثنان زوج وهما زوجان وعلى كلا الاعتبارين ورد استعماله في كلامه تعالى، قال تعالى كما في هذه الآية ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ وقال تعالى: ﴿ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾

٤. ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾، نوع من الالتفات لطيف في بابه فيه رجوع من مخاطبتهم بالمخاصمة إلى مخاطبة الله سبحانه بالدعاء عليهم معللا بظلمهم فيفيد فائدة التكنية بالإشارة إلى الملزوم وإفادة الملازمة، وفيه مع ذلك نوع من الإيجاز فإن فيه اكتفاء بمحاورة واحدة عن محاورتين، والتقدير قالت أخراهم لأولاهم أنتم أشد ظلما منا لأنكم ضالون في أنفسكم وقد أضللتمونا فليعذبكم الله عذابا ضعفا من النار، ثم رجعوا إلى ربهم بالدعاء عليهم وقالوا ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا﴾.، إلخ، فأجابهم الله وقال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، ثم أجابتهم أولاهم وقالوا: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾

٥. فمعنى الآية: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا﴾ واجتمعوا بلحوق أخراهم لأولاهم ﴿فِيهَا﴾ أي في النار تخاصموا و﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾ وهم اللاحقون مرتبة أو زمانا من التابعين ﴿لِأُولَاهُمْ﴾ وهم الملحوقون المتبوعون من رؤسائهم وأئمتهم، ومن آبائهم والأجيال السابقة عليهم زمانا الممهدين لهم الطريق إلى الضلال أنتم أضللتمونا بإعانتكم عليه فلتعذبوا بأشد من عذابنا فسألوا ربهم ذلك وقالوا: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾ يكون ضعف عذابنا لأنهم ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم بالإعانة.

٦. ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه ﴿لِكُلٍّ﴾ من الأولى والأخرى ﴿ضَعْفٌ﴾ من العذاب، أما أولاكم فإنهم ضلوا وأعانوكم على الضلال، وأما أنتم فإنكم ضللتم وأعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم وإجابة دعوة الرؤساء منهم، وتكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم.

٧. ﴿وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن العذاب إنما يتحقق أو يتم في مرحلة الإدراك والعلم، وأنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم في شمول العذاب وإحاطة النار فتتوهمون أن عذابهم مثل عذابكم وليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم إلى إدراكه والشعور به كما أنهم بالنسبة إليكم كذلك فما عندكم وعندهم من العذاب ضعف ولكن إحاطة العذاب شغلكم عن العلم بذلك.

٨. وهذا خطاب إلهي مبني على القهر والإذلال فيه تعذيب لهم يسمعه أولاهم وأخراهم جميعا فتعود به أولاهم لأخراهم بالتهكم وتقول كما حكى الله: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ بخفة العذاب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا من الذنوب والآثام.

٩. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ إذ دعوهم إلى سبيلهم، ذلك قول الله عز وجل فيهم إذ جمعهم إلى النار: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ﴾، وقوله: كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضا، يريد أن بعضهم يحج بعضا رجاء الفلج، فيفلتوا من عظيم ما نزل بهم، وليس بأوان بلوى ولا اختبار، ولا قبول معذرة ولا حين نجاة.

• أقول: وقوله عليه السلام: قوله كلما دخلت أمة نقل للآية بالمعنى.

٢٢. المكذبون المستكبرون لا يدخلون الجنة:

المقطع [٢٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١١٥»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية، السم هو الثقب وجمعه السموم، والخياط والمخيط الإبرة، والذي نفاه الله تعالى من تفتيح أبواب السماء مطلق في نفسه يشمل الفتح

لولوج أدعيتهم وصعود أعمالهم ودخول أرواحهم غير أن تعقيبه بقوله: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، كالقرينة على أن المراد نفي أن يفتح بابها لدخولهم الجنة فإن ظاهر كلامه سبحانه أن الجنة في السماء كما هو في قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]

٢. ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ من التعليق بالمحال وإنما يعلق الأمر بالمحال كناية عن عدم تحققه وإياسا من وجوده كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب ويبيض الفأر، وقد قال تعالى في موضع آخر في هذا المعنى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، والآية في معنى تعليل مضمون الآية السابقة، والباقي ظاهر.

٣. ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾، جهنم اسم من أسماء نار الآخرة التي بها التعذيب، وقد قيل: إنه مأخوذ من قولهم (بئر جهنام) أي بعيدة القعر وقيل: فارسي معرب، والمهاد الوطاء الذي يفترش، ومنه مهد الصبي والغواشي جمع غاشية وهي ما يغشى الشيء ويستره ومنه غاشية السرج.

٤. وقد أفيد بقوله: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أنهم محاطون بالعذاب من تحتهم ومن فوقهم، والباقي ظاهر.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور في قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، أخرج ابن مردويه عن البراء بن عازب قال: قرأ رسول الله ﷺ: (لا يفتح لهم) بالياء.

ب. أخرج الطيالسي وابن شيبة وأحمد وهناد بن السري وعبد بن حميد وأبو داود في سننه وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في كتاب عذاب القبر عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله، وكأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا من عذاب القبر، مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم أكفان من كفن الجنة وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطر من في السقاء، وإن كنتم ترون

غير ذلك، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فتخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فتفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيعاد روحه في جسده، فيأتيه الملكان فيجلسان فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت، فينادي مناد من السماء: إن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد! فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، فيفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح فلا تفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فيطرح روحه طرحاً، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، هاه، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري! فيقولان له: ما هذا

الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه، هاه، لا أدري! فينادي مناد من السماء: أن كذب عبدي، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه القبر حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة.

• أقول: والرواية من المشهورات، رواها جمع من المؤلفين في كتبهم كما رأيت، وفي معناها روايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، أودعنا بعضها في البحث الروائي الموضوع في ذيل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ [البقرة: ١٥٤]، في الجزء الأول من الكتاب.

ج. وفي تفسير العياشي عن سعيد بن جناح قال: حدثني عوف بن عبد الله الأزدي عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قبض روح الكافر: فإذا أوتي بروحه إلى السماء الدنيا، أغلقت منه أبواب السماء، وذلك قوله: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ﴾ [الأعراف: ٤٠] إلى آخر الآية، يقول الله: ردوها عليه، فمنها خلقناكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى.

• أقول: وروي ما في معناه في المجمع عنه عليه السلام.

د. أخرج ابن مردويه عن عائشة: أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، قال: هي طبقات من فوقه، وطبقات من تحته، لا يدري ما فوقه أكبر أو ما تحته، غير أنه ترفعه الطبقات السفلى وتضعه الطبقات العليا، ويضيق عليهما حتى يكون بمنزلة الزج في القدح.

٢٣. المؤمنون في الجنة بلا غل ولا حزن:

المقطع [٢٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢-٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١١٦»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، الآية وما يتلوها لتتميم بيان

حال الطائفتين الكفار والمؤمنين، ولتكون كالتوطئة لقوله الآتي: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾

٢. ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ مسوق للتخفيف وتقوية الرجاء في قلوب المؤمنين فإن تقييد الإيمان بعمل الصالحات، والصالحات جمع محلى باللام وهو يفيد الاستغراق، يفيد بظاهره لزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشذ عنها شاذ، وما أقل من وفق لذلك من طبقة أهل الإيمان ويسد ذلك باب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر الله سبحانه أن التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعمله من غير أن يشق على نفسه ويتحمل ما لا طاقة له به بعد الإيمان بالله فهو من أهل هذه الآية، ومن أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

٣. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الغل هو الحقد وضغن القلوب وعداوتها، وفي مادتها معنى التوسط باللطف والحيلة ومنه الغلالة وهي الثوب المتوسط بين الدثار والشعار، وغل الصدور من أعظم ما ينغص عيش الإنسان، وما من إنسان يعاشر إنسانا ويأتلف به إلا وائتلافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه ويريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرتضيه جأش صدره بالغل وراحت الألفة وتنغصت العيشة فإذا ذهب الله سبحانه بغل الصدور لم يسؤ الإنسان ما يشاهده من أليفه على الإطلاق وهي اللذة الكبرى وفي قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى أنهم ساكنون في قصورها العالية.

٤. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا﴾ إلى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾:

أ. في نسبة التحميد إليهم دلالة على أن الله سبحانه يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل ولا عمل سيء كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾: الواقعة ٢٦، فيصح منهم تحميد الله سبحانه ويقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه تعالى بحيث يصيب غرضه ويقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل نائل، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ الله الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]، وقد تقدم القول في معنى الحمد وخصوصية حمده تعالى في تفسير سورة الحمد.

ب. وفي قولهم: ﴿هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ إشارة إلى اختصاص الهداية به تعالى فليس إلى الإنسان من الأمر شيء.

ج. وفي قولهم: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ اعتراف بحقية ما وعدهم الله تعالى بلسان أنبيائه،

وهو الذي يأخذون الاعتراف به من أصحاب النار على ما تقصه الآية التالية، وفي هذا الاعتراف وسائر الاعترافات المأخوذة من الفريقين يوم القيامة من قبل مصدر العظمة والكبرياء ظهور منه تعالى بالقهر وتمام الربوبية، ويكون ذلك من أهل الجنة شكرا، ومن أهل النار تماما للحجة.

د. واعتراف أهل الجنة بحقية ما وعدهم الله سبحانه بواسطة رسله هو من الحقائق العالية القرآنية وإن كان بحسب ساذج النظر معنى بسيطا مبتذلا، ولعلنا نوفق لشطر من البحث فيه في ذيل الكلام على هذه الآيات.

٥. ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

أ. في الإشارة بلفظ البعيد ﴿تِلْكُمُ﴾، إشارة إلى رفعة قدر الجنة وعلو مكانها فإن ظاهر السياق، كما قيل، إن النداء إنما هو حين كونهم في الجنة، وقد جعلت الجنة إرثا لهم في قبال عملهم.

ب. وإنما يتحقق الإرث فيما إذا كان هناك مال أو نحوه مما ينتفع به وهو في معرض انتفاع شخص ثم زال عنه الشخص فبقي لغيره يقال: ورث فلان أباه أي مات وترك مالا بقي له، والعلماء ورثة الأنبياء أي مختصون بما تركوا لهم من العلم، ويرث الله الأرض أي إنه كان خولهم ما بها من مال ونحوه وسوف يموتون فيبقى له ما خولهم، وعلى هذا فكون الجنة إرثا لهم أورثوها معناه كونها خلقت معروضة لأن يكسبها بالعمل المؤمن والكافر جميعا غير أن الكافر زال عنها بشركه ومعاصيه فتركها فبقيت للمؤمن فهو الوارث لها بعمله، ولولا عمله لم يرثها، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١]، وقال تعالى: حكاية عن أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]

ج. وهذا أوضح مما ذكره الراغب في المفردات، إذ قال الوراثة والإرث انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة ميراث وإرث وتراث فقلبت الواو ألفا وتاء قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾، وقال عليه السلام: اثبتوا على مشاعركم فإنكم على إرث أبيكم أي أصله وبقيته، قال الشاعر:

فنظر في صحف كالرباط...فيهن إرث كتاب محي

قال: (ويقال لكل من حصل له شيء من غير تعب: قد ورث كذا ويقال لكل من خول شيئا مهنئا:

أورث، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها﴾، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ فإنه يعني وراثة النبوة والعلم والفضيلة دون المال فالمال لا قدر له عند الأنبياء حتى يتنافسوا فيه بل قلما يقتنون المال ويملكونه ألا ترى أنه قال عليه السلام: (إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة) نصب على الاختصاص فقد قيل: ما تركناه هو العلم وهو صدقة يشترك فيها الأمة، وما روي عنه عليه السلام من قوله: (العلماء ورثة الأنبياء) فإشارة إلى ما ورثوه من العلم واستعمل لفظ الورثة لكون ذلك بغير ثمن ولا منة،: وقال لعلي: أنت أخي ووارثي، قال وما إرثك؟ قال ما ورثت الأنبياء قبلي كتاب الله وسنتي، ووصف الله تعالى نفسه بأنه الوارث من حيث إن الأشياء كلها صائرة إلى الله تعالى)

د. وإنما كان ما قدمناه أوضح مما ذكره لصعوبة إرجاع ما ذكره من المعاني إلى أصل واحد هو معنى المادة.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن علي بن طالب قال: فينا والله أهل بدر نزلت هذه الآية: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣]

• أقول: وقوع الجملة في سياق هذه الآيات وهي مكية يأبى نزولها يوم بدر أو في أهل بدر، وقد وقعت الجملة أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، وهي أيضاً في سياق آيات أهل الجنة، وهي مكية.

ب. وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط، حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم في الدنيا، فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل.

ج. وفيه أخرج النسائي وابن أبي الدنيا وابن جرير في ذكر الموت وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: كل أهل النار يرى منزله من الجنة، يقول: لو هدانا الله، فيكون حسرة عليهم، وكل أهل الجنة يرى منزله من النار، فيقول: لولا أن هدانا الله، فهذا شكرهم.

د. وفيه أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والدارمي ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبي ﷺ: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ

أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، قال: نودوا أن صحوا فلا تسقموا، وأنعموا فلا تيأسوا، وشبوا فلا تهرموا، واخلدوا فلا تموتوا.

• أقول: وفي معنى وراثة الجنة أخبار أخر سيأتي إن شاء الله.

٢٤. حوار أهل الجنة والنار ولعنة الظالمين:

المقطع [٢٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤ـ٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١١٩»:

١. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. هذا في نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتوسط أصحاب الجنة وواقع موقع التهكم والسخرية يتهكم ويسخر به أصحاب الجنة من أصحاب النار، والاستهزاء والسخرية إنما يكون من اللغو الباطل إذا لم يتعلق به غرض حق كالاستهزاء بالحق وأهله أما إذا كان لغرض المقابلة والمجاراة أو لغرض آخر حق من غير محذور فليس من قبيل اللغو الذي لا يصدر عن أهل الجنة قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾، إلى أن قال ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]

ب. وأما الفرق بين قولهم: ﴿مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾، وقولهم: ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ حيث ذكر المفعول في الوعد الأول دون الثاني فلعل ذلك للدلالة على نوع من التشريف فإن الظاهر أن المراد بها وعد الله جميع ما وعده من الثواب والعقاب لعامة الناس.

ج. وهناك وجه آخر وهو أن متعلق اعتراف المؤمنين وإنكار الكفار من أمر المعاد مختلف في الدنيا فإن المؤمنين يثبتون البعث بجميع خصوصياته التي بينها الله لهم ووعدها إياهم، وأما الكفار المنكرون فإنهم ينكرون أصل البعث الذي اشترك في الوعد به المؤمنون والكفار جميعا، ولذلك احتج الله سبحانه ويتم الحجة عليهم بأصله دون خصوصياته كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا

بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا﴾ ﴿بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [الأحقاف: ٣٤]

د. وعلى هذا فقولهم: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ اعتراف منهم بحقية ما وعدهم الله وكانوا يذعنون به ويشهدون من جميع خصوصيات البعث بما قصهم الله في الدنيا بلسان أنبيائه، وأما الكفار فقد كانوا ينكرون أصل البعث والعذاب، وهو مما يشتركون فيه هم والمؤمنون فلذا قيل: ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ ولم يقل ما وعدكم ربكم لأن الوعد بأصل البعث والعذاب لم يكن مختصا بهم.

هـ. وبذلك يظهر الجواب عما قيل: إن الوفاء بالوعد واجب دون الوفاء بالوعيد على ما ذكره المتكلمون فما معنى أخذ الاعتراف بحقية ما ذكره الله من عقاب الكفار والمجرمين وأنذرهم به في الدنيا، وليس تحققه بلازم.

و. وذلك أن الملاك فيما ذكروه من الفرق أن الثواب حق العامل على ولي الثواب الذي بيده الأمر، والعقاب حق الولي المثيب على العامل، ومن الجائز أن يصرف الشخص نظره عن إعمال حق نفسه لكن لا يجوز إبطال حق الغير فإنجاز الوعد واجب دون إنجاز الوعيد، وهذا إنما يتم في موارد الوعيد الخاصة ومصاديقه في الجملة، وأما عدم إنجاز أصل العقاب على الذنب وإبطال أساس المجازاة على التخلف فليس كذلك إذ في إبطاله إبطال التشريع من أصله وإخلال النظام العام.

ز. وربما وجه الفرق في قوليه: ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ ﴿وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ بأن المراد بقوله: ﴿وَعَدَنَا﴾ ما وعد الله المتقين من خصوصيات ما يعاملهم به يوم القيامة، وبقوله: ﴿وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ عموم ما وعد به المؤمنين والكفار من الثواب والعقاب يوم القيامة كالذي في قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ إلى آخر الآيتين، ومن المعلوم أن هذا الوعد لا يختص بالكفار حتى يقال: وعدكم ربكم بل التعبير الحق وعد ربكم.

ح. وفيه: أن أصل الفرق لا بأس به لكنه لا يقطع السؤال فللسائل أن يعود فيقول ما هو السبب الفارق في أن أصحاب الجنة لما أوردوا اعتراف نفسهم اقتصروا بذكر ما يخصهم من أمور يوم القيامة، وأما إذا سألوا أصحاب النار سألوهم عن جميع ما وعد الله به المؤمنين والكفار؟ وبعبارة أخرى هناك ما يشترك فيه الطائفتان وما يختص به كل منهما فما بالهم إذا اعترفوا هم أنفسهم اعترفوا بما يختص بأنفسهم ويسألون

أصحاب النار الاعتراف بما يشترك فيه الجميع؟

ط. وربما وجه الفرق بأن المراد بقوله: ﴿مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ الذي وعده أصحاب الجنة من أنواع الثواب الجزيل فإن أصحاب النار يشاهدون ذلك كما يجدون ما بهم من أليم العقاب، وهو وجه سخيف على سخافته لا يغني طائلا.

٢. ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾:

أ. تفريع على تحقق الاعتراف من الطائفتين جميعا على حقية ما وعده الله سبحانه، والأذان هو قوله: ﴿لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وهو إعلام عام للفريقين، والدليل عليه ظاهر قوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾، بقضاء اللعنة وهي الإبعاد والطرد من الرحمة الإلهية على الظالمين وقد فسر الظالمين الذين ضربت عليهم باللعنة بقوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فهم الكافرون المنكرون للآخرة الذين يصدون عن سبيل الله محرفة منحرفة، ويصرفون غيرهم عن سلوك الصراط المستقيم فهؤلاء هم المعاندون للحق المنكرون للمعاد.

ب. وهذا الوصف يشمل جميع المعاندين للحق الكافرين بالجزاء حتى المنكرين للصانع الذين لا يدينون بدين فإن الله سبحانه يذكر في كتابه أن دينه وسبيله الذي يهدي إليه وبه هو سبيل الإنسانية الذي تدعو إليه الفطرة الإنسانية والخلقة خص بها الإنسان ليس وراءه إسلام ولا دين.

ج. فالسبيل الذي يسلكه الإنسان في حياته هو سبيل الله وصراطه وهو الدين الإلهي فإن سلكه على استقامة ما تدعو إليه الفطرة وهو الذي يسوقه إلى سعادته كان هو الصراط المستقيم والإسلام الذي هو الدين عند الله وسبيل الله الذي لا عوج فيه، وإن سلك غير ذلك سواء كان فيه إذعان بألوهية وعبادة لمعبود كالملل والأديان الباطلة أو لم يكن فيه خضوع لشيء وعبادة لمعبود كالمادية المحضة فهو سلوك يبغون فيه سبيل الله عوجا وهو الإسلام محرفا عن وجهه، ونعمة الله التي بدلت كفرا، فافهم ذلك.

٣. وقد أبهم الله هذا الذي يخبر عنه بقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ ولم يعرفه من هو؟ أمن الإنس أم من الجن أم من الملائكة؟ لكن الذي يقتضيه التدبر في كلامه تعالى أن يكون هذا المؤذن من البشر لا من الجن ولا من الملائكة:

أ. أما الجن فلم يذكر في شيء من تضاعيف كلامه تعالى أن يتصدى الجن شيئا من التوسط في أمر

الإنسان من لدن وروده في عالم الآخرة وهو حين نزول الموت إلى أن يستقر في جنة أو نار فيختم أمره فلا موجب لاحتمال كونه من الجن.

ب. وأما الملائكة فإنهم وسائط لأمر الله وحملة لإرادته بأيديهم إنفاذ الأوامر الإلهية، وبوساطتهم يجري ما قضى به في خلقه، وقد ذكر الله سبحانه أشياء من أمرهم وحكمهم في عالم الموت وفي جنة الآخرة ونارها كقولهم للظالمين حين القبض: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقولهم لأهل الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: ٣٢] وقول مالك لأهل النار: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ونظائر ذلك، وأما المحشر وهو حظيرة البعث والسؤال والشهادة وتطاير الكتب والوزن والحساب والظرف الذي فيه الحكم الفصل فلم يذكر للملائكة فيه شيء من الحكم أو الأمر والنهي ولا لغيرهم صريحا إلا ما صرح تعالى به في حق الإنسان، كقوله تعالى في أصحاب الأعراف في ذيل هذه الآيات حكاية عنهم: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾، وقولهم لجمع من المؤمنين هناك: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وهذا حكم وأمر وتأمين بإذن الله، وقوله تعالى فيما يصف يوم القيامة: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧] وقوله تعالى بعد ذكر سؤاله أهل الجمع عن مدة لبثهم في الأرض: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]

٤. فهذه جهات من تصدي الشئون، والقيام بالأمر يوم القيامة حبا الله الإنسان به دون الملائكة مضافا إلى أمثال الشهادة والشفاعة اللتين له، فهذا كله يقرب إلى الذهن أن يكون هذا المؤذن من الإنسان دون الملائكة، ويأتي في البحث الروائي ما له تعلق بالمقام.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي وتفسير القمي بإسنادهما عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، قال: المؤذن أمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: ورواه العياشي عنه عليه السلام، ورواه في روضة الواعظين عن الباقر عليه السلام قال: المؤذن علي عليه السلام.

ب. وفي المعاني بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام قال: خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة منصرفه من النهروان، وبلغه أن معاوية يسبه ويعيبه ويقتل أصحابه، فقام خطيباً، وذكر الخطبة إلى أن قال فيها: وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة، قال الله عز وجل: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، أنا ذلك المؤذن، وقال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٣]، أنا ذلك الأذان.

• أقول: أي أنا المؤذن بذلك الأذان، بقرينة صدر الكلام، ويشير عليه السلام به إلى قصة آيات البراءة.

ج. وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده عن محمد بن الحنفية عن علي أنه قال: أنا ذلك المؤذن.

د. وبإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: لعلي في كتاب الله أسماء لا يعرفها الناس، قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]، يقول: ألا لعنة الله على الذين كذبوا بولايتي واستخفوا بحقي.

• أقول: قال الآلوسي في روح المعاني في قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [الأعراف: ٤٤] الآية: هو على ما روي عن ابن عباس صاحب الصور، وقيل: مالك خازن النار، وقيل: ملك من الملائكة غيرهما، يأمره الله تعالى بذلك، ورواية الإمامية عن الرضا وابن عباس: أنه علي كرم الله وجهه، مما لم يثبت من طريق أهل السنة، وبعيد عن هذا الإمام أن يكون مؤذناً وهو إذ ذاك في حظائر القدس.

• وقال صاحب المنار في تفسيره بعد نقله عنه: وأقول: إن واضعي كتب الجرح والتعديل لرواة الآثار لم يضعوها على قواعد المذاهب، وقد كان في أئمتهم من يعد في شيعة علي وآله، كعبد الرزاق والحاكم، وما منهم أحد إلا وقد عدل كثيراً من الشيعة في روايتهم، فإذا ثبت هذه الرواية بسند صحيح، قبلناها، ولا نرى كونه في حظائر القدس مانعاً منها، ولو كنا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه كرم الله وجهه معنى يعد به فضيلة أو مثوبة عند الله تعالى، لقبلنا الرواية بها دون السند الصحيح، ما لم يكن موضوعاً أو معارضاً برواية أقوى سنداً أو أصح متناً.

• ولقد أجاد فيما أفاد، غير أن الآحاد من الروايات لا تكون حجة عندنا إلا إذا كانت محفوفة بالقرائن المفيدة للعلم، أعني الوثوق التام الشخصي، سواء كانت في أصول الدين أو التاريخ أو الفضائل

أو غيرها، إلا في الفقه فإن الوثوق النوعي كاف في حجية الرواية، كل ذلك بعد عدم مخالفة الكتاب، والتفصيل موكول إلى فن أصول الفقه.

• وأما كون هذا التأذين فضيلة، فلا ينبغي الارتياب فيه، وليعتبر التأذين الأخروي بالتأذين الدنيوي، فالتأذين هو إعلام الحكم من قبل صاحبه ليستقر على المحكومين، فالمؤذن هو الرابطة يربط صاحب الحكم بالمحكومين بتقرير حكمه عليهم، والرابطة في شرفها وخستها يتبع الطرفين، ومن الواضح أن الطرف إذا كان هو الله عز اسمه، كان في ذلك من الشرف والكرامة ما لا يعادله شيء، كما في وساطة إبراهيم عن الله سبحانه في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، ووساطة علي عليه السلام في إبلاغ آيات البراءة: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ [التوبة: ٣]، هذا في الأذان والإعلام التشريعي الذي يستقر به حكم الحاكم على المحكومين به، وأما الأذان غير التشريعي، كما في أذان يوم القيامة أن لعنة الله على الظالمين، ففيه استقرار البعد التام واللعن المطلق الدائم على الظالمين بعد إشهادهم حقية الوعد الإلهي الذي بلغهم منه تعالى من طريق أنبيائه ورسله، وفيه تثبيت ما في ظهور حقائق الوعد والوعيد للظالمين من النتيجة العائدة إليهم، فافهم ذلك، ولا يهونن عليك أمر الحقائق، ولا تساهل في البحث عنها إن كنت ذا قدم فيه.

• وهذا هو الذي يشير إليه علي عليه السلام نفسه فيما مر من خطبته، إذ قال: (وأنا المؤذن في الدنيا والآخرة)

• والرواية كما تقدم مروية بطرق متعددة من الشيعة عن علي والباقر والرضا عليهم السلام، ومن طرق أهل السنة ما رواه الحاكم بإسناده عن ابن الحنفية عن علي، وبإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، والرجل جيد الرواية ضابط في الحديث، ينقل في التفاسير الروائية وغيرها رواياته في التفسير، لكنهم لم يذكروا روايته هذه حتى مثل السيوطي الذي يستوفي في الدر المنثور ما رواه في التفسير، ترك ذكر الحديث، وما أدري ما هو السبب في ذلك؟

٢٥. أصحاب الأعراف ينادون أهل الجنة والنار:

المقطع [٢٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ

أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٢٢»:

١. ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾:

أ. الحجاب معروف وهو الستر المتخلل بين شيئين يستر أحدهما من الآخر، والأعراف أعالي الحجاب، والتلال من الرمل والعرف للديك وللفرس وهو الشعر فوق رقبته وأعلى كل شيء ففيه معنى العلو على أي حال، وذكر الحجاب قبل الأعراف، وما ذكر بعده من إشرافهم على الجميع وندائهم أهل الجنة والنار جميعا كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بالأعراف أعالي الحجاب الذي بين الجنة والنار وهو المحل المشرف على الفريقين أهل الجنة وأهل النار جميعا، والسيماء العلامة قال الراغب: (السيماء والسيمياء العلامة، قال الشاعر: (له سيمياء لا تشق على البصر وقال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ﴾ وقد سومته أي أعلمته، ومسومين أي معلمين)

ب. والذي يعطيه التدبر في معنى هذه الآية وما يلحق بها من الآيات أن هذا الحجاب الذي ذكره الله تعالى إنما هو بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فهما مرجع الضمير في قوله: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ وقد أنبأنا الله سبحانه بمثل هذا المعنى عند ذكر محاورة بين المنافقين والمؤمنين يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وإنما هو حجاب لكونه يفرق بين الطائفتين ويحجب إحداهما عن الأخرى لا أنه ثوب منسوج مخيط على هيئة خاصة معلق بين الجنة والنار ثم أخبر الله سبحانه أن على أعراف الحجاب وأعاليه رجالا مشرفين على الجانبين لارتفاع موضعهم يعرفون كلا من الطائفتين أصحاب الجنة وأصحاب النار بسيماهم وعلامتهم التي تختص بهم.

ج. ولا ريب في أن السياق يفيد أن هؤلاء الرجال منحازون على الطائفتين متمايزون من جماعتهم فهل ذلك لكونهم خارجين عن نوع الإنسان كالملائكة أو الجن مثلا، أو لكونهم خارجين عن أهل الجمع من حيث ما يتعلق بهم من السؤال والحساب وسائر الشئون الشبيهة بهما فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين إلى طوائف ثلاث: أصحاب الجنة، وأصحاب النار، وأصحاب الأعراف كما قسمهم الله في الدنيا إلى طوائف ثلاث: المؤمنين والكفار والمستضعفين الذين لم تتم عليهم الحجة وقصروا عن بلوغ التكليف

كضعفاء العقول من النساء والأطفال غير البالغين والشيخ الهرم الخرف والمجنون والسفيه وأضرابهم، أو لكونهم مرتفعين عن موقف أهل الجمع بمكانتهم؟

د. لا ريب أن إطلاق لفظ ﴿رِجَالٌ﴾ لا يشمل الملائكة فإنهم لا يتصفون بالرجولية والأنوثية كما يتصف به جنس الحيوان وإن قيل: إنهم ربما يظهرون في شكل الرجال فإن ذلك لا يصحح الاتصاف والتسمية، على أنه لا دليل يدل عليه، ثم إن التعبير بمثل قوله: ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ﴾، وخاصة بالتنكير يدل بحسب عرف اللغة على اعتناء تام بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظرا إلى دلالة الرجل بحسب العادة على الإنسان القوي في تعقله وإرادته الشديد في قوامه.

هـ. وعلى ذلك يجري ما يوجد في كلامه تعالى من مثل هذا التعبير كقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور: ٣٧]، وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩] حتى في مثل قوله: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فالمراد برجال في الآية أفراد تامون في إنسانيتهم لا محالة، وإن فرض أن فيهم أفرادا من النساء كان من التغليب.

و. وأما المستضعفون فإنهم ضعفاء أفراد الإنسان لا مزية في أمرهم توجب الاعتناء بشأنهم، وفيهم النساء والأطفال حتى الأجنة، ولا فضل لبعضهم على بعض، ولرجالهم على غيرهم حتى يعبر به عنهم بالرجال تغليبا فلو كانوا هم المرادين بقوله: ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ﴾، لكان حق التعبير أن يقال: قوم يعرفون إلخ، أو أناس أو طائفة أو نحو ذلك كما هو المعهود من تعبيرات القرآن الكريم في أمثال هذه الموارد كقوله تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقوله: ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤]

٢. على أن ما يصفهم الله تعالى به في الآيات التالية من الأوصاف ويذكرهم به من الشئون أمور تأبى إلا أن يكون القائمون به من أهل المنزلة والمكانة، وأصحاب القرب والزلفى فضلا أن يكونوا من الناس المتوسطين فضلا أن يكونوا من المستضعفين.

أ. فأول ذلك: أنهم جعلوا على الأعراف ووصفوا بأنهم مشرفون على أهل الجمع عامة، ومطلعون

على أصحاب الجنة وأصحاب النار يعرفون كل إنسان منهم بسيماه الخاص به ويحيطون بخصوصيات نفوسهم وتفاصيل أعمالهم، ولا ريب أن ذلك منزلة رفيعة يختصون بها من بين الناس، وليست مشاهدة جميع الناس يوم القيامة وخاصة بعد دخول الجنة والنار أمرا عاما موجودا عند الجميع فإن الله يقول حكاية عن قول أهل النار: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ [ص: ٦٢]، وقولهم: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾: حم السجدة: ٢٩، وقال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، وليس معنى السيماء أن يعلم المؤمنون والكفار بعلامة عامة يعرف صنفهم بها كل من شاهدهم كبياض الوجه وسواده مثلا فإن قوله تعالى في الآية التالية: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ يفيد أنهم ميزوا خصوصيات من أحوالهم وأعمالهم من سيماهم ككونهم مستكبرين أولي جمع وقد أقسموا كذا وكذا، وهذه أمور وراء الكفر والإيمان في الجملة.

ب. وثانيا: أنهم يحاورون الفريقين فيكلمون أصحاب الجنة ويحيونهم بتحية الجنة، ويكلمون أئمة الكفر والضلال والطغاة من أهل النار فيقرعون عليهم بأحوالهم وأقوالهم مسترسلين في ذلك من غير أن يحجزهم حاجز، وليس التكلم بمجاز يومئذ إلا للأوحدي من عباد الله الذين لا ينطقون إلا بحق، قال تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وهذا وراء ما يناله المستضعفون.

ج. وثالثا: أنهم يؤمنون أهل الجنة بالتسليم عليهم ثم يأمرونهم بدخول الجنة في أمر مطلق على ما هو ظاهر السياق في الآيات التالية.

د. ورابعا: أنه لا يشاهد فيما يذكره الله من مكانتهم وما يحاورون به أصحاب الجنة والجبابرة المستكبرين من أصحاب النار شيء من آثار الفزع والقلق عليهم ولا اضطراب في أقوالهم، ولم يذكر أنهم محضرون فيه مختلطون بالجماعة داخلون فيما دخلوا فيه من الأهوال التي تجعل الأفئدة هواء والجبال سرابا، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٨]، فجعل ذلك من خاصة مخلصي عباده، ثم استثناهم من كل هول أعد ليوم القيامة، ثم إنه تعالى ذكر دعاءهم في قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يعقبه بالرد فدل ذلك على أنهم مجازون فيما يتكلمون به مستجاب دعاؤهم، ولولا ذلك لعقبه بالرد كما في موارد ذكرت فيها أدعية أهل

الجمع ومسائل أصحاب النار وأدعية أخرى من غيرهم.

٣. فهذه الخصوصيات التي تنكشف واحدة بعد واحدة من هذه الآيات بالتدبر فيها وأخرى تتبعها لا تبقي ريبا للمتدبر في أن هؤلاء الذين أخبر الله سبحانه عنهم في قوله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ جمع من عباد الله المخلصين من غير الملائكة هم أرفع مقاما وأعلى منزلة من سائر أهل الجمع يعرفون عامة الفريقين، لهم أن يتكلموا بالحق يوم القيامة ولهم أن يشهدوا، ولهم أن يشفعوا، ولهم أن يأمروا ويقضوا، وأما أنهم من الإنس أو من الجن أو من القبيلين مختلطين؟ فلا طريق من اللفظ يوصلنا إلى العلم به غير أن شيئا من كلامه تعالى لا يدل على تصدي الجن شيئا من شئون يوم القيامة ولا توسطا في أمر يعود إلى الحكم الفصل الذي يجري على الإنسان يومئذ كالشهادة والشفاعة ونحوهما.

٤. ولا ينافي ما قدمناه من أوصافهم ونعوتهم أمثال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، فإن الآية مفسرة بآيات أخرى تدل على أن المراد بها إنما هو ظهور ملكه تعالى لكل شيء وإحاطته بكل أمر لا حدوث ملكه يومئذ فإنه مالك على الإطلاق دائما لا وقتا دون وقت، ولا يملك نفس لنفس شيئا دائما لا في الآخرة فحسب لنفسه؟ والملائكة على وساطتهم يومئذ، والشهداء يملكون شهادتهم يومئذ، والشفعاء يملكون شفاعتهم يومئذ وقد نص على ذلك كلامه تعالى قال: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ﴾ ﴿بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، فلله سبحانه الملك يومئذ وله الحكم يومئذ، ولغيره ما أذن له فيه كالدنيا غير أن الذي يختص به يوم القيامة ظهور هذه الحقائق ظهور عيان لا يقبل الخفاء، وحضورها بحيث لا يغيب بغفلة أو جهل أو خطأ أو بطلان.

٥. وقد اشتد الخلاف بينهم في معنى الآية حتى ساق بعضهم إلى أقوال لا تخلو عن المجازفة فقد اختلفوا في معنى الأعراف:

أ. فمن قائل: أنه شيء مشرف على الفريقين.

ب. وقيل: سور له عرف كعرف الديك.

ج. وقيل: تل بين الجنة والنار جلس عليه ناس من أهل الذنوب.

د. وقيل: السور الذي ذكره الله في القرآن بين المؤمنين والمنافقين إذ قال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ﴾

هـ. وقيل: معنى الأعراف التعرف أي على تعرف حال الناس رجال.

و. وقيل: هو الصراط.

٦. ثم اختلفوا في الرجال الذين على الأعراف على أقوال أنهيت إلى اثني عشر قولا:

أ. أنهم أشراف الخلق الممتازون بكرامة الله.

ب. أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يترجح حسناتهم حتى يدخلوا الجنة ولا غلبت سيئاتهم حتى يؤمروا بدخول النار فأوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنة والنار ثم يدخلهم الجنة برحمته.

ج. أنهم أهل الفترة.

د. أنهم مؤمنوا الجن.

هـ. أنهم أولاد الكفار الذين لم يبلغوا في الدنيا أوان البلوغ.

و. أنهم أولاد الزنا.

ز. أنهم أهل العجب بأنفسهم.

ح. أنهم ملائكة واقفون عليها يعرفون كلا بسيماهم، وإذا أورد عليهم أن الملائكة لا تتصف بالرجولية والأنوثية قالوا: إنهم يتشكلون بأشكال الرجال.

ط. أنهم الأنبياء عليه السلام يقامون عليها تمييزا لهم على سائر الناس ولأنهم شهداء عليهم.

ي. أنهم عدول الأمم الشهداء على الناس يقومون عليها للشهادة على أممهم.

ك. أنهم قوم صالحون فقهاء علماء.

ل. أنهم العباس وحمزة وعلي وجعفر يجلسون على موضع من الصراط يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسوادها ذكر الآلوسي في روح المعاني، أن هذا القول رواه الضحاك عن ابن عباس، قال في المنار: (ولم نره في شيء من كتب التفسير المأثور، والظاهر أنه نقله عن تفاسير الشيعة، وفيه أن أصحاب الأعراف يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم فيميزون بينهم أو يشهدون عليهم فأي

فائدة في تمييز هؤلاء السادة على الصراط لمن كان يبغضهم من الأمويين ومن يبغضون عليا خاصة من المنافقين والنواصب؟ وأين الأعراف من الصراط؟ هذا بعيد عن نظم الكلام وسياقه جدا):

• أقول: أما الرواية فلا توجد في شيء من تفاسير الشيعة بطرقهم إلى الضحاك، وقد نقله في مجمع البيان، عن الثعلبي في تفسيره بإسناده عن الضحاك عن ابن عباس، وسيأتي ما في روايات الشيعة في رجال الأعراف في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

• وأما طرحه الرواية فهو في محله غير أن الذي استند إليه في طرحها ليس في محله فإنه يكشف عن نحو السلوك الذي يسلكه في الأبحاث المتعلقة بالمعاد فإنه يقيس نظام الوقائع التي يقصها القرآن والحديث ليوم القيامة إلى النظام الجاري في النشأة الدنيوية، ويعده من نوعه فيوجه منها ما لاح سبب وقوعه، ويبقي ما لا ينطبق على النظام، الدنيوي على الجمود وهو الجزاف في الإرادة فافهم ذلك.

• ولو جاز أن يغني تمييز أهل الأعراف عن تمييز أهل الصراط فتبطل فائدته فيبطل بذلك أصله، كما ذكره، لأغنى الصراط نفسه عن تمييز أهل الأعراف، وأغنى عن المسألة والحساب، ونشر الدواوين، ونصب الموازين، وحضور الأعمال، وإقامة الشهود وإنطاق الأعضاء، ولأغنى بعض هذه عن بعض، ووراء ذلك كله إحاطة رب العالمين فعلمه يغني عن الجميع، وهو لا يسأل عما يفعل.

• وكأنه فرض أن نسبة الأعراف وهي أعالي الحجاب من الصراط الممدود هناك كنسبة السور والحائط الذي عندنا إلى الصراط الممدود الذي يسلكه الطراق السالكون لا يجتمع هاهنا الصراط والسور ولا يتحدان فلا يسع لأحد أن يكون سالك صراط أو واقفا عليه وواقفا على السور معا في زمان واحد، ولذلك قال وأين الصراط من الأعراف؟ فقاس ما هناك إلى ما هاهنا، وقد عرفت فساده.

• ثم الوارد في ظواهر الحديث أن الصراط جسر ممدود على النار يعبر منه أهل المحشر من موقفهم إلى الجنة فينجي الله الذين آمنوا ويسقط الظالمون من الناس في النار فما المانع من أن يكون الحجاب الموعود مضروبا عليه والأعراف في الحجاب؟

• على أنه فات منه أن أحد الأقوال في معنى الأعراف أنه الصراط كما رواه الطبري في تفسيره، عن ابن مسعود ورواه في الدر المنثور، عن ابن أبي حاتم عن ابن جريح قال زعموا أنه الصراط.

• وأما قوله: (هذا بعيد عن نظم الكلام وسياقه جدا) فأوضح فسادا فسياق هذه الأنباء الغيبية

والنظم المأخوذ فيها يذكر لنا أمورا بنعوت عامة وبيانات مطلقة معانيها معلومة، وحقائقها مبهمة مجهولة إلا المقدار الذي تهدي إليه بياناته تعالى، ويوضع بعض أجزائه بعضا، ولا يأبى ذلك أن يقصد ببعض النعوت المذكورة فيها رجال معينون بأشخاصهم إذا انطبقت عليهم الأوصاف المذكورة فيها، ولا أن ينطبق بعض البيانات على بعض في موارد مع تعدد البيان لفظا كالعدل والميزان مثلا.

٧. فهذه اثنا عشر قولا ويمكن أن يضاف إلى عدتها قولان آخران:

أ. أحدهما: أنهم المستضعفون ممن لم تتم عليهم الحجة ولم يتعلق بهم التكليف كالضعفاء من الرجال والنساء والأطفال غير البالغين، ويمكن أن يدرج في القول الثاني المتقدم بأن يقال: إنهم الذين لا تترجح أعمالهم من الحسنات أو السيئات على خلافها سواء كان ذلك لعدم تمام الحجة فيهم وتعلق التكليف بهم حتى يحاسبوا عليه كالأطفال والمجانين وأهل الفترة ونحوهم أو لأجل استواء حسناتهم وسيئاتهم في القدر والوزن فحكم القسمين واحد.

ب. الثاني: أنهم الذين خرجوا إلى الجهاد من غير إذن آبائهم فاستشهدوا فيها فهم من أهل النار لمعصيتهم ومن أهل الجنة لشهادتهم! وعليه رواية، ويمكن إدراجه في القول الثاني.

٨. والأقوال المذكورة غير متقابلة جميعا في الحقيقة فإن القول بكونهم أهل الفترة والقول بكونهم أولاد الكفار إنما ملاكهما عدم ترجح شيء من الحسنات والسيئات على الآخر فيرجعان بوجه إلى القول الثاني وكذا القول بكونهم أولاد الزنا نظرا إلى أنهم لا مؤمنون ولا كفار، وكذا رجوع القول التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر إلى القول الأول بوجه.

٩. فأصول الأقوال في رجال الأعراف ثلاثة:

أ. أحدها: أنهم رجال من أهل المنزلة والكرامة على اختلاف بينهم في أنهم من هم؟

- فقيل: هم الأنبياء.
- وقيل: الشهداء على الأعمال.
- وقيل: العلماء الفقهاء.
- وقيل: غير ذلك كما مر.

ب. الثاني: أنهم الذين لا رجحان في أعمالهم للحسنة على السيئة وبالعكس على اختلاف منهم في

تشخيص المصداق.

ج. الثالث: أنهم من الملائكة، وقد مال الجمهور إلى الثاني من الأقوال، وعمدة ما استندوا إليه في ذلك أخبار مأثورة سنوردها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

١٠. وقد عرفت أن الذي يعطيه سياق الآيات هو الأول من الأقوال حتى أن بعضهم مع تمايله إلى القول الثاني لم يجد بدا من بعض الاعتراف بعدم ملاءمة سياق الآيات ذلك كالآلوسي في روح المعاني.

١١. ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾:

أ. المنادون هم الرجال الذين على الأعراف، على ما يعطيه السياق، وقوله: ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يفسر ما نادوا به، وقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ جملتان حاليتان فجملة ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ من أصحاب الجنة، وجملة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حال آخر من أصحاب الجنة والمعنى: أن أصحاب الجنة نودوا وهم في حال لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في أن يدخلوها، أو حال من ضمير الجمع في ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ وهو العامل فيه، والمعنى أن أصحاب الجنة نودوا بذلك وهم في الجنة لكنهم لم يدخلوا الجنة على طمع في دخولها لأن ما شاهدوه من أهوال الموقف ودقة الحساب كان أيأسهم من أن يفوزوا بدخول الجنة لكن قوله بعد: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ إلى آخر الآية يؤيد أول الاحتمالين وأنهم إنما سلموا عليهم قبل دخولهم الجنة.

ب. وأما احتمال أن تكون الجملتان حالين من ضمير الجمع في ﴿نَادُوا﴾ فيوجب سقوط الجملة عن الإفادة كما هو ظاهر، وذلك لرجوع المعنى إلى أن هؤلاء الرجال الذين هم على أعراف الحجاب بين الجنة والنار نادوا وهم لم يدخلوا.

ج. وعلى من يميل إلى أن يجعل قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ بيانا لحال أصحاب الأعراف أن يجعل قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ استئنافا يخبر عن حال أصحاب الأعراف أو صفة لرجال والتقدير: وعلى الأعراف رجال لم يدخلوها وهم يطمعون وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا،إلخ كما نقل عن الزمخشري في الكشاف.

د. لكن يبعد الاستئناف أن اللازم حينئذ إظهار الفاعل في قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ دون إضماره لمكان اللبس كما فعل ذلك في قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾، ويبعد الوصفية الفصل بين الموصوف

والصفة بقوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ من غير ضرورة موجبة.

هـ. وهذا التقدير الذي تقدم أعني رجوع معنى قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ إلى آخر الآية، إلى قولنا: وعلى الأعراف رجال يطمعون في دخول الجنة ويتعوذون من دخول النار، على ما زعموا، هو الذي مهد لهم الطريق وسواه للقول بأن أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم يترجح لهم أن يدخلوا الجنة أو النار فأوقفوا على الأعراف، لكنك عرفت أن قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾، حال أصحاب الجنة لا وصف أصحاب الأعراف، وأما قوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾، فسيأتي ما في كونه بيانا لحال أصحاب الأعراف من الكلام.

١٢. ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

أ. التلقاء كالبيان مصدر لقي يلقى ثم استعمل بمعنى جهة اللقاء، وضمير الجمع في قوله: ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا﴾ عائد إلى ﴿رِجَالٌ﴾ والتعبير عن النظر إلى أصحاب النار بصرف أبصارهم إليه كأن الوجه فيه أن الإنسان لا يحب إلقاء النظر إلى ما يؤلمه النظر إليه وخاصة في مثل المورد الذي يشاهد الناظر فيه أفظع الحال وأمر العذاب وأشقه الذي لا يطاق النظر إليه غير أن اضطراب النفس وقلق القلب ربما يفتح العين نحوه للنظر إليه كان غيره هو الذي صرف نظره إليه وإن كان الإنسان لو خلي وطبعه لم يرغب في النظر ولو بوجه نحوه، ولذا قيل: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ ولم يقل وإذا نظروا إليه أو ما يفيد مفاده.

ب. ومعنى الآية: وإذا نظر أصحاب الأعراف أحيانا إلى أصحاب النار تعوذوا بالله من أن يجعلهم مع أصحاب النار فيدخلهم النار، وقالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

ج. وليس دعاؤهم هذا الدعاء دالا على سقوط منزلتهم، وخوفهم من دخول النار كما يدل على رجائهم دخول الجنة قوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وذلك أن ذلك مما دعا به أولو العزم من الرسل والأنبياء المكرمون والعباد الصالحون وكذا الملائكة المقربون فلا دلالة فيه ولو بالإشعار الضعيف على كون الداعي ذا سقوط في حاله وحيرة من أمره، هذا ما فسروا به الآية بإرجاع ضميري الجمع إلى ﴿رِجَالٌ﴾

د. لكنك خبير بأن ذلك لا يلائم الإظهار الذي في مفتتح الآية التالية في قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ إذ الكلام في هذه الآيات الأربع جار في أوصاف أصحاب الأعراف وأخبارهم كقوله:

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾، وقوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ وقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾، على احتمال، وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾، فكان من اللازم أن يقال: (ونادوا، أي أصحاب الأعراف، رجالا يعرفونهإلخ، وليس في الكلام أي لبس ولا نكتة ظاهرة توجب العدول من الإضمار الذي هو الأصل في المقام إلى الإظهار بمثل قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾

هـ. فالظاهر أن ضميري الجمع أعني ما في قوله: ﴿أَبْصَارُهُمْ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا﴾ راجعان إلى أصحاب الجنة، والجملة إخبار عن دعائهم إذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار كما أن الجملة السابقة بيان لطمعهم في دخول الجنة، وكل ذلك قبل دخولهم الجنة.

١٣. وضع هنا مبحثا حول [معنى الأعراف في القرآن]، خلاصته:

أ. الأعراف لم يذكر في القرآن إلا في أربع آيات من سورة الأعراف، وهي تدل على أنه مقام كريم إنساني يظهر يوم القيامة.

ب. الأعراف هو حجاب بين الجنة والنار، خارج عن حكم الطرفين مع ارتباطه بهما، وعليه رجال مشرفون على الناس من الأولين والآخرين.

ج. أهل الأعراف يعرفون كل إنسان بسيماه وبعمله، ولهم القدرة على مخاطبة من يشاؤون، والأمر بدخول الجنة بإذن الله.

د. الأعراف يمثل موقفاً خارجاً عن موقفي السعادة والشقاوة، ومقاماً أرفع من المقامين معاً، وهو مصدر للحكم والسلطة عليهما.

هـ. يمكن تمثيل الأعراف بظرف ثالث في الملكوت، يشبه دور الخدمة والتدبير في البلاط الملكي، حيث يكونون وسائط بين العرش والرعية.

و. ليس من الممتنع على ملك يوم الدين أن يخص قوماً برحمته ويدخلهم الجنة، وآخرين بناره، ويأذن لطائفة ثالثة بالتوسط بينه وبين الفريقين بإجراء أحكامه، فإنه الواحد القهار.

١٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج أبو الشيخ وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: يوضع الميزان يوم القيامة، فيوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة، دخل

الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة، دخل النار، قيل: يا رسول الله، فمن استوى حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون.

ب. أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير قال: سئل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف، فقال: هم آخر من يفصل بينهم من العباد، فإذا فرغ رب العالمين من الفصل بين العباد، قال: أنتم قوم أخرجتكم حسناتكم من النار ولم تدخلوا الجنة، فأنتم عتقائي، فارعوا في الجنة حيث شئتم.

• أقول: وروي القول بكون أهل الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم عن ابن مسعود وحذيفة وابن عباس من الصحابة.

ج. وفي الكافي بإسناده عن حمزة الطيار قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: الناس على ستة أصناف، إلى أن قال: قلت: وما أصحاب الأعراف؟ قال: قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فإن أدخلهم النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنة فبرحمته، الحديث.

د. وفيه بإسناده عن زرارة قال: قال أبو جعفر عليه السلام: ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلا مؤمنون أو كافرون، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون، وإن دخلوا النار فهم كافرون، فقال: والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين لدخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون، ولكنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم الأعمال، وأنهم كما قال الله عز وجل، فقلت: أمن أهل الجنة هم أم من أهل النار؟ فقال: اتركهم كما تركهم الله، قلت: أفأرجئهم؟ قال: نعم، أرجئهم كما أرجأهم الله، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته، وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم، فقلت: هل يدخل الجنة كافر؟ قال: لا، قلت: فهل يدخل النار إلا كافر؟ فقال: لا، إلا أن يشاء الله، يا زرارة، أما إن كبرت، رجعت وتحللت عنك عقدك.

• أقول: قوله عليه السلام: (أما إن كبرت) إلخ، أي إن استعظمت قولي ولم تقبله، خرجت عما كنت عليه من الحق، وانحل ما عقدت عليه قلبك من التصديق.

• والروايات كما ترى تفسر أصحاب الأعراف بمن استوت حسناتهم وسيئاتهم في الميزان، وفي بعضها أن قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦] إلخ، من كلامهم، وهذا لا ينطبق على آيات الأعراف البتة، كما مر بيانه.

• على أنك عرفت فيما تقدم من تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]، أن الميزان الذي يذكره إما أن يثقل وهو رجحان الحسنات، أو يخف وهو رجحان السيئات، ولا معنى حينئذ لاستواء الحسنات والسيئات، الذي هو ثقل الميزان وخفته معاً! فلو فرض أن هناك من لا يشخص الميزان رجحان بعض أعماله على بعض مثلاً، كان ممن لا يقام له وزن يوم القيامة، كالكافر الذي أحبطت أعماله، والمستضعف الذي لم تتم عليه الحجة ولم يتعلق به التكليف.

• نعم، ربما يستفاد من الرواية الأخيرة أن المراد بالذين استوت حسناتهم وسيئاتهم هم المستضعفون المرجون لأمر الله، إن يشأ يغفر لهم، وإن يشأ يعذبهم، فالاستواء كناية عن عدم الرجحان، ويندفع حينئذ إشكال الوزن، لكن يبقى الإشكال من جهة الانطباق على ظاهر الآيات، وفيها من صفات رجال الأعراف وأصحابه ما لا يتصف به إلا السابقون المقربون المتصدرون في حظيرة الكرامة والسعادة، وهؤلاء المستضعفون إن صح عدهم من أهل السعادة، فهم نازلون في أنزل منازلها.

هـ. وفي المجمع قال أبو عبد الله عليه السلام: الأعراف كثبان بين الجنة والنار، يوقف عليها كل نبي وكل خليفة مع المذنبين من أهل زمانه، كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سبق المحسنون إلى الجنة، فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: انظروا إلى إخوانكم المحسنين قد سبقوا، فيسلم عليهم المذنبون، وذلك قوله: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ثم أخبر سبحانه وتعالى: أنهم لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني هؤلاء المذنبين لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون أن يدخلهم الله بشفاعة النبي والإمام، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار فيقولون: ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين، ثم ينادي أصحاب الأعراف وهم الأنبياء والخلفاء رجالاً من أهل النار مقرعين لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨]، أهؤلاء الذين أقسمتم، يعني أهؤلاء المستضعفين الذين كنتم تستضعفونهم وتحتقرونهم بفقرهم، وتستطيلون بدنياكم عليهم، ثم يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر من الله بذلك لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]

• أقول: وروى القمي في تفسيره عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن أبي أيوب عن مرثد عن أبي عبد الله عليه السلام ما يقرب منه.

• وهذه الرواية كما ترى تذكر المستضعفين مكان من استوت حسناتهم وسيئاتهم صريحاً، ثم تذكر

أن هناك جماعة من المستضعفين يطمعون في دخول الجنة ويتعوذون من دخول النار، من غير أن تفسر بهم الرجال الذين ذكر الله تعالى أنهم على الأعراف يعرفون كلاً بسيماهم، ويسميهم أصحاب الأعراف، ويسهل حينئذ انطباق مضمونها على الآيات، ولا يبقى من الإشكال إلا ظهور الآيات في أن المسلّم على أهل الجنة هم أصحاب الأعراف، والرجال الذين على الأعراف.

• والظاهر أن في الروايات اختلالاً، وهو ناشئ عن سوء فهم بعض النقلة ثم النقل، ولعل الذي بينه النبي ﷺ أو بعض الأئمة أن هناك جماعة من المستضعفين يدخلهم الله الجنة بشفاعة أو مشية، ثم غيره النقل بالمعنى وأخرجه إلى الصورة التي تراها، وهذا ظاهر كسائر الروايات الواردة عن ابن عباس وابن مسعود وحذيفة وغيرهم القائلة إن الرجال على الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، مع ما فيها من الاختلاف في المتون، وكذا رواية القمي عن الصادق عليه السلام، فراجعها تعرف صدق ما ادعيناه.

هـ. وفي البصائر بإسناده عن جابر بن يزيد قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن الأعراف ما هم؟ قال: هم أكرم الخلق على الله تبارك وتعالى.

• أقول: السائل يأخذ الأعراف والرجال الذين عليه واحداً، وعلى ذلك ورد الجواب منه عليه السلام، فكأنه أخذ (الأعراف) جمعاً لعرف بمعنى العريف والعارف، وفي هذا المعنى روايات كثيرة، يأتي بعضها.

و. وفيه بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، قال: نحن أصحاب الأعراف، من عرفنا فمآله إلى الجنة، ومن أنكرنا فمآله إلى النار.

• أقول: قوله: (من عرفنا ومن أنكرنا)، إن كان فعلاً وفاعلاً فهو، وإن كان فعلاً ومفعولاً كان على وزان سائر الروايات: (من عرفهم وعرفوه، ومن أنكرهم وأنكروه)

ز. وفيه بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام، فقال له رجل: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، فقال له علي عليه السلام: نحن الأعراف، نعرف أنصارنا بسيماهم، ونحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا، ونحن

الأعراف، نوقف يوم القيامة بين الجنة والنار، فلا يدخل الجنة إلا من عرفنا وعرفناه، ولا يدخل النار إلا من أنكرنا وأنكرناه، وذلك قول الله عز وجل: لو شاء لعرف الناس نفسه حتى يعرفوا حده ويأتونه من بابه، جعلنا أبوابه وصراطه وسبيله وبابه الذي يؤتى منه.

• أقول: ورواه أيضاً بإسناده عن مقرن عن أبي عبد الله عليه السلام، والرجل السائل هو ابن الكواء، وروى هذه القصة أيضاً الكليني في الكافي عن مقرن قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: جاء ابن الكواء إلخ.

• والظاهر أن المراد بالمعرفة والإنكار في الرواية المعرفة بالحب والبغض، أي لا يدخل الجنة إلا من عرفنا بالولاية وعرفناه بالطاعة، ولا يدخل النار إلا من أنكر ولايتنا وأنكرنا طاعته، وهذا غير معرفتهم الجميع بأعيانهم، وإلا أشكل انطباقه على قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٨] إلخ، ولعل ذلك إنما نشأ من نقل بعض الرواة الرواية بالمعنى، ويؤيد ما استظهرناه ما يأتي في الرواية التالية.

ح. وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده رفعه إلى الأصبغ بن نباتة قال: كنت جالساً عند علي عليه السلام، فأتاه ابن الكواء فسأله عن هذه الآية، فقال: ويحك يا ابن الكواء، نحن نوقف يوم القيامة بين الجنة والنار، فمن نصرنا عرفناه بسيماه فأدخلناه الجنة، ومن أبغضنا عرفناه بسيماه فأدخلناه النار، وفي تفسير العياشي عن هلقام عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]، ما يعني بقوله: ﴿عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾؟ قال: ألستم تعرفون عليكم عرفاء على قبائلكم، ليعرفوا من فيها من صالح أو طالح؟ قلت: بلى، قال: فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلاً بسيماهم.

• أقول: وهو مبني على أخذ الأعراف جمعاً للعرف، كأقطاب جمع قطب، والعرف هو المعروف من الأمر، ولعله مصدر بمعنى المفعول، فمعنى ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: وكل على أمورهم وأحوالهم المعروفة منهم رجال، ولا ينافي ذلك ما تقدم أن الأعراف أعالي الحجاب، وكذا ما تقدم في بعض الروايات أن الأعراف كثبان بين الجنة والنار، فإن المعرفة التي هي مادة اللفظ حافظة لمعناه في مشتقاته وموارد استعمالها على أي حال.

• واعلم أن الأخبار من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام في ما يقرب من هذه المعاني في الأعراف كثيرة جداً، وفيما أوردناه للإشارة إلى أنواع مضامينها في تفسير الأعراف وأصحاب الأعراف كفاية.

ط. وفي تفسير البرهان عن الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس أنه قال: الأعراف موضع عال من الصراط، عليه العباس وحمزة وعلي بن أبي طالب وجعفر ذو الجناحين، يعرفون شيعتهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسواد الوجوه.

• أقول: وقد تقدم في البيان السابق نقل الرواية عن مجمع البيان عن تفسير الثعلبي عن الضحاك عن ابن عباس.

ي. أخرج الحارث بن أبي أسامة في مسنده وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن مالك الهلالي عن أبيه: قال قائل: يا رسول الله، ما أصحاب الأعراف؟ قال: هم قوم خرجوا في سبيل الله بغير إذن آبائهم، فاستشهدوا، فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار، ومنعتهم معصية آبائهم أن يدخلوا الجنة، فهم آخر من يدخل الجنة.

• أقول: وهذا المعنى مروي بطرق أخرى عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة وابن عباس، وقد تقدم الإشكال عليه بعدم الانطباق على ظاهر الآيات، والأصول المسلمة تعطي أنه إن تعين الخروج وجوباً عينياً، لم يؤثر فيه عدم إذن الوالدين، وإن لم يتعين وبقي على الكفاية، كان الخروج محرماً، ولم ينفعه القتل في المعركة، إلا أن يكون مستضعفاً من جهة الجهل بالحكم، فيعود إلى القول بكون أصحاب الأعراف هم المستضعفين، ويجري فيه البحث السابق.

٢٦. أصحاب الأعراف يخاطبون أهل النار وأهل الجنة:

المقطع [٢٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨-٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٣٢»:

١. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ إلى آخر الآية، في توصيف الرجال

بقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَاهُمْ﴾ دلالة على أن سيماءهم كما يدلهم على أصل كونهم من أصحاب الجنة يدلهم على أمور أخر من خصوصيات أحوالهم، وقد مرت الإشارة إليه.

٢. ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تقريع لهم وشماتة، وكشف عن تقطع الأسباب الدنيوية عنهم فقد كانوا يستكبرون عن الحق ويستذلونه ويغترون بجمعهم.

٣. ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ﴾ إلى آخر الآية، الإشارة إلى أصحاب الجنة، والاستفهام للتقرير أي هؤلاء هم الذين كنتم تجزمون قولا أنهم لا يصيبهم فيما يسلكونه من طريق العبودية خير، وأصابه الخير هي نيله تعالى إياهم برحمة ووقوع النكرة ﴿بِرَحْمَةٍ﴾، في حيز النفي يفيد استغراق النفي للجنس، وقد كانوا ينفون عن المؤمنين كل خير.

٤. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾:

أ. أمر من أصحاب الأعراف للمؤمنين أن يدخلوا الجنة بعد تقرير حالهم بالاستفهام، وهذا هو الذي يفيده السياق.

ب. وقول بعضهم في الآية: (إنها بتقدير القول أي قيل لهم من قبل الرحمن: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم مما يكون في مستقبل أمركم، ولا أنتم تحزنون من شيء ينغص عليكم حاضركم، وحذف القول للعلم به من قرائن الكلام كثير في التنزيل وفي كلام العرب الخلص)، مدفوع بعدم مساعدة السياق ودلالة القرائن عليه بوجه كما تقدم بيانه، وليس إذا جاز تقدير القول في محل لتبادر معناه من الكلام جاز ذلك في أي مقام أريد، وأي سياق أم أية قرينة تدل على ذلك في المقام؟

٢٧. أهل النار يستغيثون بأهل الجنة:

المقطع [٢٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالُوا إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠ـ٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٣٤»:

١. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا﴾:

أ. الإفاضة من الفيض وهو سيلان الماء منصبا، قال تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي

يسيل دمعها منصبا، وعطف سائر ما رزقهم الله من النعم على الماء يدل على أن المراد بالإفاضة صب مطلق النعم أعم من المائع وغيره على نحو عموم المجاز، وربما قيل: إن الإفاضة حقيقة في إعطاء النعمة الكثيرة فيكون تعليقه على الماء وغيره حقيقة حينئذ، وكيف كان ففي الآية إشعار بعلو مكانة أهل الجنة بالنسبة إلى مكان أهل النار.

ب. وإنما أفرز الماء وهو من جملة ما رزقهم الله ثم قدم في الذكر على سائر ما رزقهم الله لأن الحاجة إلى بارد الماء أسبق إلى الذهن طبعا بالنسبة إلى غيره عندما تحيط الحرارة بالإنسان، ومعنى الآية ظاهر.

٢. ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ إلى آخر الآية، اللهو ما يشغلك عما يهمك، واللعب الفعل المأتي به لغاية خيالية غير حقيقية، والغرور إظهار النصح واستبطان الغش، والنسيان يقابل الذكر، وربما يستعار لترك الشيء وعدم الاعتناء بشأنه كالشيء المنسي، وعلى ذلك يجري في الآية، والجحد النفي والإنكار، والآية مسوقة لتفسير الكافرين، ويستفاد منها تفسيرات ثلاثة للكفر:

أ. أولها: أنه اتخاذ الإنسان دينه لهوا ولعبا وغرور الحياة الدنيا له.

ب. الثاني: نسيان يوم اللقاء.

ج. الثالث: الجحد بآيات الله، ولكل من التفاسير وجه.

٣. وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ دلالة على أن الإنسان لا غنى له عن الدين على أي حال حتى من اشتغل باللهو واللعب ومحض حياته فيها محضا فإن الدين، كما تقدمت الإشارة إليه في تفسير قوله: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الآية، هو طريق الحياة الذي يسلكه الإنسان في الدنيا، ولا محيص له عن سلوكه، وقد نظمه الله سبحانه بحسب ما تهدي إليه الفطرة الإنسانية ودعت إليه، وهو دين الإنسان الذي يخصه وينسب إليه، وهو الذي يهم الإنسان ويسوقه إلى غاية حقيقية هي سعادة حياته، فحيث جرى عليه الإنسان وسلكه كان على دينه الذي هو دين الله الفطري، وحيث اشتغل عنه إلى غيره الذي يلهو عنه ولا يهديه إلا إلى غايات خيالية وهي اللذائذ المادية التي لا بقاء لها ولا نفع فيها يعود إلى سعادته فقد اتخذ دينه لهوا ولعبا وغرته الحياة الدنيا بسراب زخارفها.

٤. ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي اليوم نتركهم ولا نقوم بلوازم حياتهم السعيدة كما تركوا يومهم هذا فلم يقوموا بما يجب أن يعملوا له وبما كانوا بآياتنا يجحدون ونظير الآية في جعل

تكذيب الآيات سببا لنسيان الله له يوم القيامة قوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]، وقد بدل هناك الجحد نسيانا.

٢٨. القرآن هدى ورحمة لمن آمن به:

المقطع [٢٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٣٦»:

١. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾:

أ. الآية عود على بدء الكلام أعني قوله في أول الآيات: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أي من أعظم من هؤلاء ظلما ولقد أتممنا عليهم الحجة وأقمنا لهم البيان فجئناهم بكتاب فصلناه وأنزلناه إليهم على علم منا بنزوله؟

ب. فقوله: ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ والكلمة تتضمن احتجاجا على حقية الكتاب والتقدير: ولقد جئناهم بكتاب حق: وكيف لا يكون حقا؟ وقد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب.

ج. وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هدى وإراءة طريق للجميع ورحمة للمؤمنين به خاصة، أو هدى وإيصالا بالمطلوب للمؤمنين ورحمة لهم، الأول أنسب بالمقام وهو مقام الاحتجاج.

٢. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الضمير في تأويله راجع إلى الكتاب، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ الآية: آل عمران: ٧ إن التأويل في عرف القرآن هو الحقيقة التي يعتمد عليها حكم أو خبر أو أي أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن والمثل على المثل.

ب. فقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ معناه هل ينتظر هؤلاء الذين يفترون على الله كذبا أو يكذبون بآياته وقد تمت عليهم الحجة بالقرآن النازل عليهم، إلا حقيقة الأمر التي كانت هي الباعثة على سوق بياناته وتشريع أحكامه والإنذار والتبشير الذين فيه؟ فلو لم ينتظروه لم يتركوا الأخذ بما فيه.

ج. ثم يخبر تعالى عن حالهم في يوم إتيان التأويل بقوله: يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه إلخ، أي إذا انكشفت حقيقة الأمر يوم القيامة يعترف التاركون له بحقية ما جاءت به الرسل من الشرائع التي أوجبوا العمل بها، وأخبروا أن الله سيبعثهم ويجازيهم عليها.

د. وإذ شاهدوا عند ذلك أنهم صفر الأيدي من الخير، هالكون بفساد أعمالهم سألوا أحد أمرين يصلح به ما فسد من أمرهم إما شفعاء ينجونهم من الهلاك الذي أطل عليهم أو أنفسهم، بأن يردوا إلى الدنيا فيعملوا صالحا غير الذي كانوا يعملونه من السيئات وذلك قوله حكاية عنهم: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾؟

٣. ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فصل في معنى التعليل لما حكي عنهم من سؤال أحد أمرين: إما الشفعاء وإما الرد إلى الدنيا كأنه قيل: لماذا يسألون هذا الذي يسألون؟ فقيل: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فيما بدلوا دينهم لهوا ولعبا، واختاروا الجحود على التسليم وقد زال عنهم الافتراءات المضلة التي كانت تحجبهم عن ذلك في الدنيا فبان لهم أنهم في حاجة إلى من يصلح لهم أعمالهم إما أنفسهم أو غيرهم ممن يشفع لهم، وقد تقدم في مبحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن في قوله: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ دلالة على أن هناك شفعاء يشفعون للناس إذ قال: ﴿مِنْ شُفَعَاءَ﴾، ولم يقل: من شفيع فيشفع لنا.

٢٩. الله خالق السماوات والأرض والعرش:

المقطع [٢٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٤٨»:

١. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سيأتي البحث في معنى السماء والأيام الستة التي خلقتا فيها في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله.

٢. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ ودلالته على التدبير الإلهي]، خلاصته:

أ. بيان أن الاستواء في اللغة يعني الاعتدال والاستقرار، وأن العرش هو مقام السلطنة والتدبير، وأن استواء الله على العرش كناية عن استيلائه على ملكه وتدبيره للأمر.

ب. توضيح أن العرش في النظام التكويني هو المنزلة التي تنتهي إليها أزمة الحوادث والأسباب، وفيه صور الأمور الكونية المدبرة بتدبير الله.

ج. إثبات أن استواء الله على العرش لا يعني الجلوس أو الاستقرار المكاني، بل هو كناية عن قيامه بتدبير الأمر قياماً ينبسط على كل شيء.

د. بيان أن نظام التدبير في الكون يشبه نظام التدبير في الممالك، حيث تنتهي التفاصيل إلى أزمة واحدة هي العرش، ثم تنبسط منه إلى مراتب أدنى.

هـ. الرد على من يفهم الاستواء على العرش على نحو التشبيه والتجسيم، وبيان أن الله منزه عن المكان والحركة والاستقرار الحسي.

و. توضيح أن قوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في سورة يونس فسر معنى الاستواء، وأن التدبير هو حقيقة الاستواء.

٣. ثم فصل بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ ويستره به ﴿يَطْلُبُهُ﴾ أي يطلب الليل النهار ليغشيه ويستره ﴿حَثِيثًا﴾ أي طلبا حثيثا سريعا، وفيه إشعار بأن الظلمة هي الأصل، والنهار الذي يحصل من إنارة الشمس ما يواجهها مما حولها، عارض لليل الذي هو الظلمة المخروطية اللازمة لأقل من نصف كرة الأرض المقابل للجانب المواجه للشمس كان الليل يعقبه ويهجم عليه.

٤. ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي خلقهن والحال أنها مسخرات بأمره يجرين على ما يشاء ولما يشاء وقرئ الجميع بالرفع، وعلى ذلك فالشمس مبتدأ والقمر والنجوم معطوفة عليها، ومسخرات خبره، والباء في قوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ للسببية.

٥. ومجموع قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، يجري مجرى التفسير لقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ على ما يعطيه السياق، وهو الذي تعطيه أغلب الآيات القرآنية التي يذكر فيها العرش فإنها تذكر معه شيئا من التدبير أو ما يؤول إليه بحسب المعنى.

٦. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ودلالته على نظام التكوين

والتدبير]، خلاصته:

أ. بيان أن الخلق هو التقدير والإيجاد بضم شيء إلى شيء، والأمر هو النظام المستقر في وجود الشيء وتدبير شؤونه.

ب. توضيح أن الأمر في القرآن يستعمل بمعنى الإيجاد، وأن قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)﴾ هو كلمة الإيجاد التي يفيض بها الوجود على الموجودات.

ج. إثبات أن الخلق يتعلق بذوات الأشياء، والأمر يتعلق بآثارها ونظامها الجاري بينها، وكلاهما لله سبحانه.

د. بيان أن الخلق يقبل التدريج بخلاف الأمر، لقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)﴾

هـ. توضيح أن الخلق نسب في القرآن إلى غير الله بخلاف الأمر، فإن الأمر خص به الله ولم ينسبه إلى غيره.

و. الرد على من يزعم أن العطف لا يقتضي المغايرة، وبيان أن المغايرة هنا اعتبارية بين الخلق والأمر، كما بين جبريل وغيره من الملائكة.

٧. ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من في العالمين فهو ربهم.

٨. وضع هنا مبحثا حول [معنى العرش في القرآن]، خلاصته:

أ. اختلف الناس في معنى العرش وفي معنى الاستواء عليه، فمنهم من حمله على ظاهره المشبه (المشبهة)، ومنهم من فسره بالفلك التاسع (وفُسخ هذا التطبيق ببطلان الفرضيات الفلكية القديمة)، ومنهم من جعله كناية عن الاستيلاء أو الشروع في التدبير.

ب. القول بأن العرش مجرد كناية عن الاستيلاء لا ينفي وجود حقيقة خارجية للعرش، لأن مفاهيم الملك والسلطنة والإحاطة عند الله لها مصاديق حقيقية على ما يليق بساحته، بخلاف ما عندنا من مفاهيم وضعية اعتبارية لا تتعدى الوهم.

ج. القرآن يدل بظاهره على أن العرش حقيقة من الحقائق العينية، فهو مقام في الوجود يجتمع فيه أزمة الحوادث والأمور، كما يجتمع أزمة المملكة في عرش الملك.

د. الاستواء على العرش فُسر في القرآن بتدبير الأمر، والعرش هو مقام التدبير العام الذي تصدر عنه الأوامر التكوينية، وفيه صور جميع الوقائع بنحو الإجمال، وهو مقام العلم الإلهي المحيط.

هـ. العرش موجود مع هذا العالم المشهود، وكان موجوداً قبل خلق السماوات والأرض، وسيبقى بعد رجوع الخلق إليه يوم القيامة، وعليه حملة من الملائكة يحفون به ويسبحون بحمد ربهم.

و. قوله: ﴿ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣] يدل على أن جميع الأسباب التكوينية والمخالفات التي تحول دون التدبير الإلهي، هي داخلة في التدبير الإلهي نفسه بإذنه، فكل شيء منقاد لحكمه وإن ظاهره المخالفة.

٣٠. الدعاء والتضرع والنهي عن الإفساد:

المقطع [٣٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥ـ٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٦٠»:

١. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. التضرع هو التذلل من الضراعة وهي الضعف والذلة، والخفية هي الاستتار وليس من البعيد أن يكون كناية عن التذلل جيء به لتأكيد التضرع فإن المتذلل يكاد يختفي من الصغار والهوان.

ب. الآية السابقة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ الآية تذكر بربوبيته وحده لا شريك له من جهة أنه هو الخالق وحده، وإليه تدبير خلقه وحده، فتعقيبها بهاتين الآيتين بمنزلة أخذ النتيجة من البيان، وهي الدعوة إلى دعائه وعبوديته، والحكم بأخذ دين يوافق ربوبيته تعالى وهي الربوبية من غير شريك في الخلق ولا في التدبير.

ج. ولذلك دعا أولا إلى دين العبودية فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فأمر أن يدعوه بالتضرع والتذلل وأن يكون ذلك خفته من غير المجاهرة البعيدة عن أدب العبودية الخارجة عن زيها، بناء على أن تكون الواو في ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ للجمع، أو أن يدعوه بالتضرع والابتهال الملازم عادة للجهر بوجه أو بالخفية إخفاتا فإن ذلك هو لازم العبودية ومن عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبودية وإن الله لا يحب المعتدين.

د. ومن الممكن أن يكون المراد بالتضرع والخفية: الجهر والسر وإنما وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر في الدعاء منافيا لأدب العبودية إلا أن يصاحب التضرع.

٢. هذا فيما بينهم وبين الله، وأما فيما بينهم وبين الناس فأن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها فليس حقيقة الدين فيما يرجع إلى حقوق الناس إلا أن يصلح شأنهم بارتفاع المظالم من بينهم ومعاملتهم بما يعينهم على التقوى ويقربهم من سعادة الحياة في الدنيا والآخرة ثم كرر الدعوة إليه وأعاد البعث إلى دعائه بالجمع بين الطريقين الذين لم يزل البشر يعبد الرب أو الأرباب من أحدهما وهما طريق الخوف وطريق الرجاء فإن قوما كانوا يتخذون الأرباب خوفا فيعبدونهم ليسلموا من شرورهم، وكان قوما يتخذون الأرباب طمعا فيعبدونهم لينالوا خيرهم وبركتهم لكن العبادة عن محض الخوف ربما ساق الإنسان إلى اليأس والقنوط فدعاه إلى ترك العبادة، وقد شوهد ذلك كثيرا، والعبادة عن محض الطمع ربما قاد إلى استرسال الوقاحة وزوال زي العبودية فدعاه إلى ترك العبادة، وقد شوهد أيضا كثيرا فجمع سبحانه بينهما ودعا إلى الدعاء باستعمالهما معا فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ليصلح كل من الصفتين ما يمكن أن تفسده الأخرى، وفي ذلك وقوع في مجرى الناموس العام الجاري في العالم أعني ناموس الجذب والدفع.

٣. وقد سمى الله سبحانه هذا الاعتدال في العبادة والتجنب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها إحسانا وبشر المجيبين لدعوته بأنهم يكونون حينئذ محسنين فتقرب منهم رحمته إن رحمة الله قريب من المحسنين.

٤. ولم يقل: رحمة الله قريبة، قيل: لأن الرحمة مصدر يستوي فيه الوجهان، وقيل: لأن المراد بالرحمة الإحسان، وقيل: لأن قريب فعيل بمعنى المفعول فيستوي فيه المذكر والمؤنث ونظيره قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]

٣١. الرياح والمطر وإحياء الأرض من آيات الله:

المقطع [٣١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٦١»:

١. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. في الآية بيان لربوبيته تعالى من جهة العود كما أن في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ﴾ الآية بيانا لها من جهة البدء.

ب. ﴿بَشَرًا﴾ وأصله البشر بضمتين جمع بشير كالنذر جمع نذير، والمراد بالرحمة المطر، وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي قدام المطر، وفيه استعارة تخييلية بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذي ينتظره أهله فيقدم وبين يديه بشير يبشر بقدومه.

ج. والإقلال الحمل، والسحاب والسحابة الغمام والغمامة كتمر وتمرة وكون السحاب ثقالا باعتبار حمله ثقل الماء، وقوله: ﴿لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ أي لأجل بلد ميت أو إلى بلد ميت والباقي ظاهر.

٢. والآية تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنهما من نوع واحد، وحكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد وليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدمين من أصلهم فإن أنفسهم وأرواحهم باقية محفوظة وإن تغيرت أبدانهم، كما أن النبات يتغير ما على وجه الأرض منها ويبقى ما في أصله من الروح الحية على انعزال من النشوء والنماء ثم تعود إليه حياته الفعالة كذلك يخرج الله الموتى فما إحياء الموتى في الحشر الكلي يوم البعث إلا كإحياء الأرض الميتة في بعثه الجزئي العائد كل سنة، وللكلام ذيل سيوافيك في محل آخر إن شاء الله تعالى.

٣. ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ إلى آخر الآية، النكد القليل، والآية بالنظر إلى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحة والآثار الحسنة على الذوات الطيبة الكريمة كخلافها على خلافها كما تقدم في قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ لكنها بانضمامها إلى الآية السابقة تفيد أن الناس وإن اختلفوا في قبول الرحمة فالاختلاف من قبلهم والرحمة الإلهية عامة مطلقة.

٣٢. البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه:

المقطع [٣٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يضرب الله مثلاً للأرض الطيبة والأرض الخبيثة، فالأرض الجيدة تخرج نباتها بكثرة وبركة بإذن الله، بينما الأرض الرديئة لا تخرج إلا نباتًا ضعيفًا قليلًا أو شوكًا، وكذلك الناس: المؤمن يخرج الخير والعلم

والعمل الصالح، والكافر لا يخرج إلا شرًا أو نفعًا قليلًا، وهذا المثل من تصريف الآيات لمن يشكر الله فيتدبر ويتعظ.

٢. وهي تدعو إلى:

أ. أن ثمرة الإيمان تظهر في حياة المؤمن كالأرض الطيبة، فلا بد أن يخرج عملاً صالحًا وهدىً ونفعًا للخلق.

ب. أن القلب الخبيث كالأرض الخبيثة، لا يخرج إلا نكدًا وقلة خير، فلا يُرجى منه نفع حقيقي إلا نادرًا.

ج. أن إخراج الخير والبركة لا يكون إلا بإذن الله وتوفيقه، فالمؤمن يستمد عونه من ربه.

د. أن الله يصرّف الآيات بأنواع الأمثال والبراهين، لتكون عبرة لمن يشكر الله فيتفكر ويعمل.

هـ. أن الشكر هو المفتاح لفهم آيات الله والاستفادة منها، فغير الشاكر لا ينتفع بها ولا يزداد إلا غفلة.

٣٣. نوح يدعو قومه فيكذبونه ويهلكون بالطوفان

المقطع [٣٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٧٤»:

١. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. بدأ الله سبحانه بقصته وهو أول رسول يذكر الله سبحانه تفصيل قصته في القرآن كما سيأتي تفصيل القول في قصته في سورة هود إن شاء الله تعالى.

ب. ٢. واللام في قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ للقسم جيء بها للتأكيد لأن وجه الكلام إلى المشركين وهم ينكرون النبوة، وقوله: ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ ناداهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾

فأضافهم إلى نفسه ليكون جريا على مقتضى النصح الذي سيخبرهم به عن نفسه، ودعاهم أول ما دعاهم إلى توحيد الله تعالى فإن دعاهم إلى عبادته، وأخبرهم بانتفاء كل إله غيره فيكون دعوة إلى عبادة الله وحده من غير أن يشرك به في عبادته غيره، وهو التوحيد.

٢. ثم أنذرهم بقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وظاهره يوم القيامة فيكون في ذلك دعوة إلى أصلين من أصول الدين وهما التوحيد والمعاد، وأما الأصل الثالث وهو النبوة فسيصرح به في قوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ الآية.

٣. على أن في نفس الدعوة وهي دعوة إلى نوع من العبادة لا يعرفونها وكذا الإنذار بها لم يكونوا يعلمونه وهو عذاب القيامة إشعارا بالرسالة من قبل من يدعو إليه، ومن الشاهد على ذلك قوله في جوابهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ فإنه يدل على تعجبهم من رسالته باستماع أول ما خاطبهم به من الدعوة وهو قوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

٤. ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الملأ هم أشراف القوم وخواصهم سموا به لأنهم يملئون القلوب هيبة والعيون جمالا وزينة، وإنما رموا بالضلال المبين وأكدوه تأكيدا شديدا لأنهم لم يكونوا ليتوقعوا أن معترضا يعترض عليهم بالدعوة إلى رفض آلهتهم وتوجيه العبادة إلى الله سبحانه بالرسالة والإنذار فتعجبوا من ذلك فأكدوا ضلاله مدعين أن ذلك من بين الضلال تحقيقا، والرؤية هي الرؤية بحسب الفكر أعني الحكم.

٥. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ الآية، أجابهم بنفي الضلال عن نفسه والاستدراك بكونه رسولا من الله سبحانه، وذكره بوصفه ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ليجمع له الربوبية كلها قبال تقسيمهم إياها بين آلهتهم بتخصيص كل منها بشيء من شئونها وأبوابها كربوبية البحر وربوبية البر وربوبية الأرض وربوبية السماء وغير ذلك، وقد جرد عليه السلام جوابه عن التأكيد للإشارة إلى ظهور رسالته وعدم ضلالته تجاه إصرارهم بذلك وتأكيد دعواهم.

٦. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أخبرهم بأوصاف نفسه فبين أنه يبلغهم رسالات ربه، وهذا شأن الرسالة ومقتضاها القريب الضروري، وفي جمع الرسالة دلالة على كونها كثيرة وأن له مقاصد أمره ربه أن يبلغها إياهم وراء التوحيد والمعاد فإنه نبي رسول من أولي

العزم صاحب كتاب وشريعة.

٧. ثم ذكر أنه ينصح لهم وهو عظاته بالإنذار والتبشير ليقربهم من طاعة ربهم ويبعدهم عن الاستكبار والاستنكاف عن عبوديته كل ذلك بذكر ما عرفه الله من بدء الخلقة وعودها وسننه تعالى الجارية فيها ولذا ذكر ثالثا أنه يعلم من الله ما لا يعلمون كوقائع يوم القيامة من الثواب والعقاب وغير ذلك، وما يستتبع الطاعة والمعصية من رضاه تعالى وسخطه ووجوه نعمه ونقمه.

٨. ومن هنا يظهر أن الجمل الثلاث كل مسوق لغرض خاص أعني قوله: ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ الآية و﴿أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ و﴿أَعْلَمُ﴾ الآية وهي ثلاثة أوصاف متوالية لا كما قيل: إن الأوليان صفتان، والثالثة جملة حالية عن فاعل ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾

٩. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية، استفهام إنكاري ينكر تعجبهم من دعواه الرسالة ودعوته إياهم إلى الدين الحق والمراد بالذكر ما يذكر به الله وهو المعارف الحقة التي أوحيت إليه، وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ متعلق بمقدر أي ذكر كائن من ربكم.

١٠. ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ و﴿لِتَتَّقُوا﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ متعلقات بقوله: ﴿جَاءَكُمْ﴾ والمعنى لغرض أن ينذركم الرسول، ولتتقوا أنتم، ويؤدي ذلك إلى رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فإن التقوى وإن كان يؤدي إلى النجاة لكنها ليست بعلة تامة، وقد اشتمل ما حكي من إجمال كلامه عليه السلام من معارف عالية إلهية.

١١. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ الفلك السفينة يستعمل واحدا وجمعا على ما ذكره الراغب ويذكر ويؤنث كما في الصحاح، وقوله: ﴿قَوْمًا عَمِينَ﴾ موصوف وصفة، وعمين جمع عمي كخشن صفة مشبهة من عمي يعمى، عمي كالأعمى إلا أن العمي يختص بعمى البصيرة والأعمى بعمى البصر، كما قيل، ومعنى الآية ظاهر.

٣٤. هود يدعو عاداً فيستكبرون ويهلكون بالريح:

المقطع [٣٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا

لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٦٥-٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٧٧»:

١. ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الأخ وأصله أخو هو المشارك غيره في الولادة تكوينا لمن ولده وغيره أب أو أم أو هما معا أو بحسب شرع إلهي كالأخ الرضاعي أو سنة اجتماعية كالأخ بالدعاء على ما كان يراه أقوام فهذا أصله، ثم أستعير لكل من ينتسب إلى قوم أو بلدة أو صنعة أو سجية ونحو ذلك يقال: أخو بني تميم وأخو يثرب وأخو الحياكة وأخو الكرم، ومن هذا الباب قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾

ب. والكلام في قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ كالكلام في نظير الخطاب من القصة السابقة.

ج. سؤال وإشكال: فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ ولم يقل: فقال كما في قصة نوح؟ والجواب: هو على تقدير سؤال كأنه لما قال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ قيل: فما قال هود؟ فأجيب وقيل: قال يا قوم اعبدوا الله الآية، كذا قاله الزمخشري في الكشاف، ولا يجري هذا الكلام في قصة نوح لأنه أول قصة أوردت، وهذه القصة قصة بعد قصة يهيأ فيها ذهن المخاطب للسؤال بعد ما وعى إجمال القصة وعلم أن قصة الإرسال تتضمن دعوة وردا وقبولا فكان بالحري إذا سمع المخاطب قوله: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أن يسأل فيقول: ما قال هود لقومه؟ وجوابه قال لهم.

٢. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إلى آخر الآية، لما كان في هذا الملإ من يؤمن بالله ويستر إيمانه كما سيأتي في القصة بخلاف الملإ من قوم نوح قال هاهنا في قصة هود: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وقال في قصة نوح: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ كذا ذكره الزمخشري، وقوله تعالى حكاية عن قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أكدوا كلامهم مرة بعد مرة لأنهم سمعوا منه مقالا ما كانوا ليتوقعوا

صدوره من أحد، وقد أخذت آلهتهم موضعها من قلوبهم، واستقرت سنة الوثنية بينهم استقرارا لا يجترئ معه أحد على أن يعترض عليها فتعجبوا من مقاله فردوه ردا عن تعجب، فجبهوه أولا بأن فيه سفاهة وهو خفة العقل التي تؤدي إلى الخطإ في الآراء، وثانيا بأنهم يظنون بظن قوي جدا أنه من الكاذبين، وكأنهم يشيرون بالكاذبين إلى أنبيائهم لأن الوثنيين ما كانوا ليذعنوا بالنبوة وقد جاءهم أنبياء قبل هود كما يذكره تعالى بقوله: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩]

٣. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ الكلام في الآية نظير الكلام في نظيره من قصة نوح غير أن عادا زادوا وقاحة على قوم نوح حيث إن أولئك رموا نوحا بالضلال في الرأي وهؤلاء رموا هودا بالسفاهة لكن هودا لم يترك ما به من وقار النبوة، ولم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوة الإلهية فأجابهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فأظهر عطوفته عليهم وحرصه على إنجائهم ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فجرى على تجريد الكلام من كل تأكيد واكتفى بمجرد رد تهمتهم وإثبات ما كان يدعيه من الرسالة للدلالة على ظهوره.

٤. ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أي لا شأن لي بما أني رسول إلا تبليغ رسالات ربي خالصا من شوب ما تظنون بي من كوني كاذبا فلست بغاش لكم فيما أريد أن أحملكم عليه، ولا خائن لما عندي من الحق بالتغيير ولا لما عندي من حقوقكم بالإضاعة، فما أريده منكم من التدين بدين التوحيد هو الذي أراه حقا، وهو الذي فيه نفعكم وخيركم، فإنما وصف نفسه بالأمين محاذاة لقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

٥. ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إلى آخر الآية، البصطة هي البسطة قلبت السين صادا لمجاورتها الطاء وهو من حروف الإطباق كالصراط والسراط والآلاء جمع إلى بفتح الهمزة وكسرها بمعنى النعمة كآناء جمع أنى وإني ثم أنكر عليه السلام تعجبهم من رسالته إليهم نظير ما تقدم من نوح عليه السلام وذكرهم نعم الله عليهم، وخص من بينها نعمتين ظاهرتين هما أن الله جعلهم خلفاء في الأرض بعد نوح، وأن الله خصهم من بين الأقوام ببسطة الخلق وعظم الهيكل البدني المستلزم لزيادة الشدة والقوة، ومن هنا يظهر أنهم كانوا ذوي حضارة وتقدم، وصيت في البأس والقوة والقدرة، ثم أتبعها بالإشارة إلى سائر النعم بقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

٦. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الآية، فيه تعلق منهم بتقليد الآباء، وتعجيز هود مشوبا بنوع من الاستهزاء بما أنذرهم به من العذاب.

٧. ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ إلى آخر الآية، الرجس والرجز هو الأمر الذي إذا وقع على الشيء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه، ولذا يطلق على القاذورة لأن الإنسان يتنفر ويبتعد عنه، وعلى العذاب لأن المعذب، اسم مفعول، يبتعد عمن يعذبه أو من الناس الآمنين من العذاب، أجابهم بأن إصرارهم على عبادة الأوثان بتقليد آبائهم أوجب أن يحق عليهم البعد عن الله بالرجس والغضب، ثم فرع عليه أن هددهم بما يستعجلون من العذاب، وأخبرهم بنزوله عليهم لا محالة، وكنى عن ذلك بأمرهم بالانتظار وإخبارهم بأنه مثلهم في انتظار نزول العذاب فقال: ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾

٨. وأما قوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ فهو رد لما استندوا إليه في ألوهية آلهتهم وهو أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها، وهم أكمل منهم وممن في طبقتهم كهود وأعقل، فيجب عليهم أن يقلدوهم، ومحصله أنكم وآباءكم سواء في أنكم جميعا أتيتم بأشياء ليس لكم على ما ادعيتم من صفتها وهي الألوهية من سلطان وهو البرهان والحجة القاطعة فلا يبقى لها من الألوهية إلا الأسماء التي سميتموها بها إذ قلتم: إله الخصب وإله الحرب وإله البحر وإله البر، وليس لهذه الأسماء مصاديق إلا في أوهامكم، فهل تجادلونني في الأسماء، وللإنسان أن يسمي كل ما شاء بما شاء إذا لم يعتبر تحقق المعنى في الخارج.

٩. وقد تكرر في القرآن الاستدلال على بطلان الوثنية بهذا البيان: ﴿أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وهو من ألطف البيان وأرقه، وأبلغ الحجة وأقطعها إذ لو لم يأت الإنسان لما يدعيه من دعوى بحجة برهانية لم يبق لما يدعيه من النعت إلا التسمية والتعبير، ومن أبده الجهل أن يعتمد الإنسان على مثل هذا النعت الموهوم، وهذا البيان يطرد ويجري بالتحليل في جميع الموارد التي يثق فيها الإنسان على غير الله سبحانه من الأسباب، ويعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلق قلبه بها وطاعته لها وتقربه منها فإن الله سبحانه عد في موارد من كلامه طاعة غيره والركون إلى من سواه عبادة له قال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦١]

١٠. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ إلى آخر الآية، تنكير الرحمة للدلالة على النوع أي بنوع من

الرحمة وهي الرحمة التي تختص بالمؤمنين من النصرة الموعودة لهم قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]، وقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]

١١. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية كناية عن إهلاكهم وقطع نسلهم فإن الدابر هو الذي يلي الشيء من خلفه فربما وصف به الأمر السابق على الشيء كأمس الدابر، وربما وصف به اللاحق كدابر القوم وهو الذي في آخرهم فنسبه القطع إلى الدابر بعناية أن النسل اللاحق دابر متصل بالإنسان في سبب ممتد، وإهلاك الإنسان كذلك كأنه قطع هذا السبب الموصول فيما بينه وبين نسله، وسيأتي تفصيل البحث عن قصة هود عليه السلام في تفسير سورة هود إن شاء الله.

٣٥. صالح يدعو ثمود فيعقرون الناقة ويهلكون:

المقطع [٣٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَّ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهَّ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهَّ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهَّ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٨٢»:

١. ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر الآية، ثمود أمة قديمة من العرب سكنوا أرض اليمن بالأحقاف بعث الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ وهو منهم فـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعاهم إلى التوحيد وقد كانوا مشركين يعبدون الأصنام على النحو الذي دعا نوح وهود عليه السلام قومهما المشركين.

٢. ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي شاهد قاطع في شهادته ويبينه قوله بالإشارة إلى نفس البينة: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ وهي الناقة التي أخرجها الله لهم من الجبل آية لنبوته بدعائه عليه السلام، وهي

العناية في إضافة الناقة إلى الله سبحانه.

٣. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ﴾ الآية، تفريع على كون الناقة آية لله، وحكم لا يخلو عن تشديد عليهم يستتبع كلمة العذاب التي تفصل بين كل رسول وأمته قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وفي الآية تلويح إلى أن تخليتهم الناقة وشأنها في الأكل والسير في الأرض كانت مما يشق عليهم فكانوا يتحرجون من ذلك، وفي قوله: ﴿فِي أَرْضِ اللهِ﴾ إيماء إليه فوصاهم وحذرهم أن يمنعوها من إطلاقها ويمسوها بسوء كالعقر والنحر فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم.

٤. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ إلى آخر الآية، دعاهم إلى أن يذكروا نعم الله عليهم كما دعا هود عادا إلى ذلك، وذكرهم أن الله جعلهم خلفاء يخلفون أمما من قبلهم كعاد، وبوأهم من الأرض أي مكنهم في منازلهم منها، يتخذون من سهولها، والسهل خلاف الجبل سمي به لسهولة قطعه، قصورا وهي الدور التي لها سور على ما قيل، وينحتون الجبال بيوتا يأوون إليها ويسكنونها.

٥. ثم جمع الجميع ولخصها في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ وأورده في صورة التفريع مع أنه إجمال للتفصيل الذي قبله بإيهام المغايرة كأنه لما أمر بذكر النعم وعد من تفاصيل النعم أشياء كأنهم لا يعلمون بها قيل ثانيا: فإذا كان لله فيكم آلاء ونعم عظيمة أمثال التي ذكرت فاذكروا آلاء الله.

٦. وأما قوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فمعطوف على قوله: ﴿فَاذْكُرُوا﴾ عطف اللازم على ملزومه، وفسر العثي بالفساد وفسر بالاضطراب والمبالغة، قال الراغب في المفردات: العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلا أن العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يدرك حسا، والعثي فيما يدرك حكما يقال: عثى يعثي عثيا، وعلى هذا: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

٧. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ إلى آخر الآيتين، دل سبحانه ببيان قوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ بقوله: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ على أن المستضعفين هم المؤمنون وأن المؤمنين إنما كانوا من المستضعفين ولم يكن ليؤمن به أحد من المستكبرين، والباقي ظاهر.

٨. قوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ إلى آخر الآية عقر النخلة قطعها من أصلها، وعقر الناقة نحرها، وعقر الناقة أيضا قطع قوائمها، والعتو هو التمرد والامتناع وضمن في الآية معنى الاستكبار

بدليل تعديته بعن، والباقي ظاهر.

٩. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ إلى آخر الآيتين، الرجفة هي الاضطراب والاهتزاز الشديد كما في زلزلة الأرض وتلاطم البحر، والجثوم في الإنسان والطير كالبروك في البعير.

١٠. وقد ذكر الله هنا في سبب هلاكهم أنه أخذتهم الرجفة، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وفي موضع آخر: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾[فصلت: ١٧، والصواعق السماوية لا تخلو عن صيحة هائلة تقارنها، ولا ينفك ذلك غالبا عن رجفة الأرض هي نتيجة الاهتزاز الجوي الشديد إلى الأرض، وتوجف من جهة أخرى القلوب وترتعد الأركان، فالظاهر أن عذابهم إنما كان بصاعقة سماوية اقترنت صيحة هائلة ورجفة في الأرض أو في قلوبهم فأصبحوا في دارهم أي في بلدهم جاثمين ساقطين على وجوههم وركبهم.

١١. والآية تدل على أن ذلك كان مرتبطا بما كفروا وظلموا آية من آيات الله مقصودا بها عذابهم عذاب الاستئصال، ولا نظر في الآية إلى كيفية حدوثها، والباقي ظاهر.

٣٦. لوط ينكر على قومه الفاحشة فيدمرون:

المقطع [٣٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٨٤»:

١. ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ إلى آخر الآية، ظاهره أنه من عطف القصة على القصة أي عطف قوله: ﴿لُوطًا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ في قوله في القصة الأولى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ فيكون التقدير ولقد أرسلنا لوطا إذ قال لقومه، لكن المعهود من نظائر هذا النظم في القرآن أن يكون بتقدير (اذكر) بدلالة السياق، وعلى ذلك فالتقدير: واذكر لوطا الذي أرسلناه إذ قال لقومه والظاهر أن تغيير السياق من جهة أن لوطا من الأنبياء التابعين لشريعة إبراهيم عليه السلام لا لشريعة نوح عليه السلام، ولذلك غير السياق في بدء قصته عن السياق السابق في قصص نوح وهود وصالح فغير السياق في بدء قصته ثم رجع إلى

السياق في قصة شعيب عليه السلام، وقد كان لوط، على ما سيأتي إن شاء الله من تفصيل قصته في سورة هود، مرسلا إلى أهل سدوم وغيره يدعوهم إلى دين التوحيد وكانوا مشركين عبدة أصنام.

٢. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ يريد بالفاحشة اللواط بدليل قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ وفي قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي أحد من الأمم والجماعات دلالة على أن تاريخ ظهور هذه الفاحشة الشنيعة تنتهي إلى قوم لوط، وسيأتي جل ما يتعلق به من الكلام في تفصيل قصته في سورة هود.

٣. ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ الآية:

أ. إتيان الرجال كناية عن العمل بهم بذلك، وقوله: ﴿شَهْوَةً﴾ قرينة عليه، وقوله: ﴿مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ قرينة أخرى على ذلك، ويفيد مضافا إلى ذلك أنهم كانوا قد تركوا سبيل النساء واكتفوا بالرجال، ولتعديهم سبيل الفطرة والخلقة إلى غيره عدهم متجاوزين مسرفين فقال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾

ب. ولكون عملهم فاحشة مبتدعة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين استفهم عن ذلك مقارنا بـ (أن) المفيدة للتحقيق فأفاد التعجب والاستغراب، والتقدير: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ الآية.

٤. ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ إلى آخر الآية، أي لم يكن عندهم جواب فهددوه بالإخراج من البلد فإن قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية ليس جوابا عن قول لوط لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ الآية، فجواب الكلام في ظرف المناظرة إما إمضاؤه والاعتراف بحقيته وإما بيان وجه فساده، وليس في قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ إلى آخره شيء من ذلك فوضع ما ليس بجواب في موضع الجواب كناية عن عدم الجواب ودلالة على سفههم.

٥. وقد استهانوا أمر لوط إذ قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ الآية أي إن القرية أي البلدة لكم وهم نزلاء ليسوا منها وهم يتنزهون عما تأتونه ويتطهرون، ولا يهمنكم أمرهم فليسوا إلا أناسا لا عدة لهم ولا شدة.

٦. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ فيه دلالة على أنه لم يكن آمن به إلا أهله، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]

٧. ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي الماضين من القوم، وهو استعارة بالكناية عن الهلاك والباقي ظاهر.

٨. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ذكر الأمطار في مورد ترقب ذكر

العذاب يدل على أن العذاب كان به وقد نكر المطر للدلالة على غرابة أمره وغزارة أثره، وقد فسره الله تعالى في موضع آخر بقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، وقوله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ توجيه خطاب إلى النبي ﷺ ليعتبر به هو وأمته.

٣٧. شعيب يدعو مدين للعدل في الكيل والميزان:

المقطع [٣٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥-٩٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٨٧»:

١. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الآية معطوف على القصة الأولى، وهي قصة نوح عليه السلام، وقد بنى عليه السلام دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكورين في القصص المتقدمة.

٢. ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يدل على مجيئه بآية تدل على رسالته ولكن الله سبحانه لم يذكر ذلك في كتابه وليست هذه الآية هي آية العذاب التي يذكرها الله تعالى في آخر قصته فإن عامة قومه من الكفار لم ينتفعوا بها بل كان فيها هلاكهم ولا معنى لكون آية العذاب آية للرسالة مبينة للدعوة، على أنه

يفرع قوله: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ الآية على مجيء الآية ظاهرا، وإنما يستقيم الدعوة إلى العمل بالدين قبل نزول العذاب وتحقق الهلاك، وهو ظاهر.

٣. وقد دعاهم أولا بعد التوحيد الذي هو أصل الدين إلى إيفاء الكيل والميزان وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم فقد كان الإفساد في المعاملات رائجا فيهم شائعا بينهم.

٤. ثم دعاهم ثانيا بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ إلى الكف عن الإفساد في الأرض بعد ما أصلحها الله بحسب طبعها، والفطرة الإنسانية الداعية إلى إصلاحها كي ينتظم بذلك أمر الحياة السعيدة، والإفساد في الأرض وإن كان بحسب إطلاق معناه يشمل جميع المعاصي والذنوب مما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق الناس كائنة ما كانت لكن مقابلته لما قبله وما بعده يخصه، تقريبا، بالإفساد الذي يسلب الأمن العام في الأموال والأعراض والنفوس كقطع الطرق ونهب الأموال وهتك الأعراض وقتل النفوس المحترمة.

٥. ثم علل دعوته إلى الأمرين بقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

أ. أما كون إيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم خيرا فلأن حياة الإنسان الاجتماعية في استقامتها مبنية على المبادلة بين الأفراد بإعطاء كل منهم ما يفضل من حاجته، وأخذ ما يعادله مما يتمم به نقصه في ضروريات الحياة وما يتبعها، وهذا يحتاج إلى أمن عام في المعاملات تحفظ به أوصاف الأشياء ومقاديرها على ما هي عليه فمن يجوز لنفسه البخس في أشياء الناس فهو يجوز ذلك لكل من هو مثله، وهو شيوعه، وإذا شاع البخس والغش والغرر من غير أن يؤمن حلول السم محل الشفاء والردي مكان الجيد، والخليط مكان الخالص، وبالآخرة كل شيء محل كل شيء بأنواع الحيل والعلاجات كان فيه هلاك الأموال والنفوس جميعا.

ب. وأما كون الكف عن إفساد الأرض خيرا لهم فلأن سلب الأمن العام يوقف رحى المجتمع الإنساني عن حركتها من جميع الجهات وفي ذلك هلاك الحرث والنسل وفناء الإنسانية، فالمعنى: إيفاء الكيل والميزان وعدم البخس والكف عن الفساد في الأرض خير لكم يظهر لكم خيريته إن كنتم مصدقين لقولي مؤمنين بي، أو المعنى: ذلكم خير لكم تعلمون أنه خير إن كنتم ذوي إيمان بالحق.

ج. وربما قيل: إن المعنى ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين بدعوتي فإن غير المؤمن لا ينتفع بسبب ما

عنده من الكفر القاضي بشقائه وخسرانه وضلال سعيه بهذه الخيرات الدنيوية بحسب الحقيقة لأن انتفاعه إنما هو انتفاع في موطن خيالي وهو الحياة الدنيا التي هي لعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون.

د. هذا كله على تقدير كون المشار إليه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ هو إيفاء الكيل وما بعده كما هو ظاهر السياق، وأما أخذ الإشارة إلى جميع ما تقدم وجعل المراد بالإيمان هو الإيمان المصطلح دون الإيمان اللغوي كما احتمله بعضهم فهو أشبه باشتراط الشيء بنفسه لرجوع المعنى إلى نحو قولنا إن كنتم مؤمنين فالعبادة لله وحده بالإيمان به وإيفاء الكيل والميزان وعدم الفساد في الأرض خير لكم.

هـ. ويرد على الوجهين الأخيرين جميعا أن ظاهر قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ثبوت اتصافهم بالإيمان قبل حال الخطاب فإنه مقتضى تعليق الحكم بقوله: ﴿كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ المؤلف من ماضي الكون الناقص واسم الفاعل من الإيمان المقتضي لاستقرار الصفة فيهم زمانا، ولا يخاطب بمثل هذا المعنى القوم الذين فيهم الكافر والمؤمن والمستكبر والمنقاد ولو كان كما يقولون لكان من حق الكلام أن يقال: ذلكم خير لكم إن آمنتم أو أن تؤمنوا فالظاهر أنه لا محيص من كون المراد بالإيمان غير الإيمان المصطلح.

٦. ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾:

أ. الآية ظاهر السياق أن ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾ حالان من فاعل ﴿لا تَقْعُدُوا﴾ وقوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ حال من فاعل ﴿تَصُدُّونَ﴾

ب. ثم دعاهم ثالثا إلى ترك التعرض لصراط الله المستقيم الذي هو الدين فإن في الكلام تلويحا إلى أنهم كانوا يقعدون على طريق المؤمنين بشعيب عليه السلام ويوعدونهم على إيمانهم به والحضور عنده والاستماع منه وإجراء العبادات الدينية معه، ويصرفونهم عن التدين بدين الحق والسلوك في طريقة التوحيد وهم يسلكون طريق الشرك، ويطلبون سبيل الله الذي هو دين الفطرة عوجا.

ج. وبالجملة كانوا يقطعون الطريق على الإيمان بكل ما يستطيعون من قوة واحتيال فنهاهم عن ذلك، ووصاهم أن يذكروا نعمة الله عليهم ويعتبروا بالنظر إلى ما يعلمونه من تاريخ الأمم الغابرة، وما آل إليه أمر المفسدين من عاقبة السوء.

٧. فقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾:

أ. كلام مسوق سوق العظة والتوصية وهو يقبل التعلق بجميع ما تقدم من الأوامر والنواهي فقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ أمر بتذكر تدرجهم من القلة إلى الكثرة بازدياد النسل فإن ذلك من نعم الله العظيمة على هذا النوع الإنساني لأن الإنسان لا يقدر على أن يعيش وحده من غير اجتماع إذ الغاية الشريفة والسعادة العالية الإنسانية التي يمتاز بها عن سائر الأنواع الحيوانية وغيرها اقتضت أن تهب العناية الإلهية له أدوات وقوى مختلفة وتركيبا وجوديا خاصا لا يستطير أن يقوم بضروريات حوائجها العجيبة المتفننة وحده بل بالتعاضد مع غيره في تحصيل المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمنكح وغيرها تعاضدا في الفكر والإرادة والعمل.

ب. ومن المعلوم أنه كلما ازداد عدد المجتمعين ازدادت القوة المركبة الاجتماعية، واشتدت في فكرتها وإرادتها وعملها فأحست وشعرت بدقائق الحوائج، وتنبهت للطائف من الحيل لتسخير القوى الطبيعية في رفع نواقصها.

ج. فمن المنن الإلهية أن النسل الإنساني آخذ دائما في الزيادة متدرج من القلة إلى الكثرة، وذلك من الأركان في سير النوع من النقص إلى الكمال فليست الأمم العظيمة كالشراذم القليلة التي تتخطف من كل جانب، ولا الأقوام والعشائر الكبيرة كالطوائف الصغيرة التي لا تستقل في شأن من شئونها السياسية والاقتصادية والحربية وغيرها مما يوزن بزنة العلم والإرادة والعمل.

د. وأما عاقبة المفسدين فيكفي في التبصر بها ما نقل عن عواقب أحوال الأمم المستعلية المستكبرة الطاغية التي ملأت القلوب رعبا، والنفوس دهشة، وخربت الديار، ونهبت الأموال، وسفكت الدماء، وأفنت الجموع، واستعبدت العباد، وأذلت الرقاب، مهلهم الله في عتوهم واعتدائهم حتى إذا بلغوا أوج قدرتهم، واستووا على أريكة شوكتهم غرتهم الدنيا بزينتها واجتذبتهم الشهوات إلى خلاعتها فألهتهم عن فضيلة التعقل واشتغلوا بملاهي الحياة والعيش واتخذوا إلههم هواهم وأضلهم الله على علم فسلبوا القدرة والإرادة، وحرموا النعمة فتفرقوا أيادي سبإ، فكم في ذكر الدهر من أسماء القياصرة والفراعنة والأكاسرة والفغافرة وغيرهم لم يبق منهم إلا أسماء إن لم تنس، ولم تثبت من هيمنتهم إلا أحاديث فمن السنة الإلهية الجارية في الكون أن تبتنى حياة الإنسان على التعقل فإذا تعدى ذلك وأخذ في الفساد والإفساد أبى طباع الكون ذلك، وضادته الأسباب بقواها، وطحنته بجموعها، وضربت عليه بكل ذلة ومسكنة.

٨. ﴿وَإِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. ثم دعاهم رابعا إلى الصبر على تقدير وقوع الاختلاف بينهم بالإيمان والكفر فإنه كان يوصيهم جميعا قبل هذه الوصية بالاجتماع على الإيمان بالله والعمل الصالح، وكأنه أحس منهم أن ذلك مما لا يكون البتة، وأن الاختلاف كائن لا محالة، وأن الملأ المستكبرين من قومه وهم الذين كانوا يوعدون ويصدون عن سبيل الله سيأخذون في إفساد الأرض وإيذاء المؤمنين ويوجب ذلك في المؤمنين وهن عزيمتهم، وتسلط الناس على قلوبهم فأمرهم جميعا بالصبر وانتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم وهو خير الحاكمين، فإن في ذلك صلاح المجتمع، أما المؤمنون فلا يقعون في البأس من الحياة الآمنة، والاضطراب والحيرة من جهة دينهم، وأما الكفار فلا يقعون في ندامة الإقدام من غير رؤية ومفسدة المظلمة على جهالة فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين فهو خير الحاكمين لا يساهل في حكم إذا حان حينه، ولا يجور في حكم إذا ما حكم.

ب. فقوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ بالنسبة إلى الكفار أمر إرشادي، وبالنسبة إلى المؤمنين أمر مولوي أو إرشادي، وهو إرشاد الجميع إلى ما يصلح حالهم.

٩. ﴿قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ﴾ الآية:

أ. لم يسترشد الملأ المستكبرون من قومه بما أرشدهم إليه من الصبر وانتظار الحكم الفصل في ذلك من الله سبحانه بل بادروه بتهديده وتهديد المؤمنين بإخراجهم من أرضهم إلا أن يرجعوا إلى ملتهم بالارتداد عن دين التوحيد.

ب. وفي تأكيدهم القول ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ و﴿لَتَعُودُنَّ﴾ بالقسم ونون التأكيد دلالة على قطعهم العزم على ذلك، ولذا بادر عليه السلام بعد استماع هذا القول منهم إلى الاستفتاح من الله سبحانه.

١٠. ﴿قالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ الآية:

أ. أجاب عليه السلام بكراهة العود في ملتهم بدليل ما بعده من الجمل، ولازم ذلك اختيار الشق الآخر على تقدير الاضطرار إلى أحدهما كما أخبروه.

ب. وقد أجاب عليه السلام عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه، وذكر أنه والمؤمنين به جميعا كارهون للعود إلى ملتهم فإن في ذلك افتراء للكذب على الله سبحانه بنسبة الشركاء إليه، وما يتبعها من

الأحكام المفتراة في دين الوثنية فقوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ الآية، بمنزلة التعليل لقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كارِهِينَ﴾

ج. ومن أسخف الاستدلال الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْها﴾ على أن شعيبا عليه السلام كان قبل نبوته مشركا وثنيا، حاشاه، وقد تقدم آنفا أنه يتكلم عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه وقد كانوا كفارا مشركين قبل الإيمان به فأنجاهم الله من ملة الشرك وهداهم بشعيب إلى التوحيد فقول شعيب: ﴿نَجَّانَا اللهُ﴾ تكلم عن المجموع بنسبة وصف الجل إلى الكل، هذا لو كان المراد بالتنجية التنجية الظاهرية من الشرك الفعلي وأما لو أريد بها التنجية الحقيقية وهي الإخراج من كل ضلال محقق موجود أو مقدر مترقب كان شعيب، وهو لم يشرك بالله طرفة عين، وقومه، وهم كانوا مشركين قبل زمان إيمانهم بشعيب، جميعا ممن نجاهم الله من الشرك إذ لا يملك الإنسان لنفسه الهالكة ضرا ولا نفعا وما أصابه من خير فهو من الله سبحانه.

١١. ﴿وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا﴾:

أ. كالإضراب والترقي بالجواب القاطع كأنه قال نحن كارهون العود إلى ملتكم لأن فيه افتراء على الله بل إن ذلك مما لا يكون البتة، وذلك أن كراهة شيء إنما توجب تعسر التلبس به دون تعذره فأجاب عليه السلام ثانيا بتعذر العود بعد جوابه أولا بتعسره، وهو ما ذكرناه من الإضراب والترقي.

ب. ولما كان قوله: ﴿وَما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها﴾ في معنى أن يقال: (لن نعود إليها أبدوالقطع في مثل هذه العزمات مما هو بعيد عن أدب النبوة فإنه في معنى: لن نعود على أي تقدير فرض حتى لو شاء الله، وهو من الجهل بمقامه تعالى، استثنى مشية الله سبحانه فقال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّنا﴾ فإن الإنسان كيفما كان جائز الخطإ فمن الجائز أن يخطئ بذنب فيعاقبه الله بسلب عنايته به فيطرده من دينه فيهلك على الضلال.

ج. وفي الجمع بين الاسمين في قوله: ﴿اللهُ رَبُّنا﴾ إشارة إلى أن الله الذي يحكم ما يشاء هو الذي يدبر أمرنا وهو إله ورب، على ما يقتضيه دين التوحيد لا كما يعلمه دين الوثنية فإنه يسلم الألوهية لله ثم يفرز الربوبية بمختلف شئونها بين الأوثان ويسميها رب البحر ورب البر وهكذا.

١٢. ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ كالتعليل لتعقيب الكلام بالاستثناء كأنه قيل لما استثنيت بعد ما

أطلقت الكلام وقطعت في العزم؟ فقال: لأنه وسع ربي كل شيء علما ولا أحيط من علمه إلا بما شاء فمن الجائز أن يتعلق مشيته بشيء غائب عن علمي ساءني أو سرني كان يتعلق علمه بأنا سنخالفه في بعض أوامره فيشاء عودنا إلى ملتكم، وإن كنا اليوم كارهين له، ولعل هذا المعنى هو السبب في تعقيب هذا القول بمثل قوله: ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنا﴾ فإن من يتوكل على الله كان حسبه وصانه من شر ما يخاف.

١٣. ولما بلغ الكلام هذا البلاغ وقد أخبروهم بعزمهم على أحد الأمرين: الإخراج أو العود، وأخبرهم شعيب عليه السلام بالعزم القاطع على عدم العود إلى ملتهم البتة التجأ عليه السلام إلى ربه واستفتح بقوله عن نفسه وعن المؤمنين: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾ يسأل ربه أن يفتح بينهم أي بين شعيب والمؤمنين به، وبين المشركين من قومه، وهو الحكم الفصل فإن الفتح بين شيئين يستلزم إبعاد كل منهما عن صاحبه حتى لا يماس هذا ذاك ولا ذاك هذا دعا عليه السلام بالفتح وكنى به عن الحكم الفصل وهو الهلاك أو هو بمنزلته وأبهم الخاسر من الرابح والهالك من الناجي وهو يعلم أن الله سينصره وأن الخزي اليوم والسوء على الكافرين لكنه عليه السلام أخذ بالنصفة للحق وتأدب بإرجاع الأمر في ذلك إلى الله كما أتى بنظير ذلك في قوله السابق: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنا وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾

١٤. وخير الحاكمين وخير الفاتحين اسمان من أسماء الله الحسنى، وقد تقدم البحث عن معنى الحكم فيما مر، وعن معنى الفتح آنفا، وسيجيء الكلام المستوفى في الأسماء الحسنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾ الآية ١٨٠ من السورة إن شاء الله تعالى.

١٥. ﴿وَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. هذا تهديد منهم لمن آمن بشعيب أو أراد أن يؤمن به ويكون من جملة الإيعاد والصد اللذين كان شعيب ينهى عنهما بقوله: ﴿وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ ويكون إفراد هذا بالذكر هاهنا من بين سائر أقوالهم ليكون كالتوطئة والتمهيد لما سيأتي من قولهم بعد ذكر هلاكهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ﴾

ب. ويحتمل أن يكون الاتباع بمعناه الظاهر العرفي وهو اقتفاء أثر الماشي على الطريق والسالك السبيل بأن يكون الملأ المستكبرون لما اضطروه ومن معه إلى أحد الأمرين: الخروج من أرضهم أو العود في

ملتهم ثم سمعوه يرد عليهم العود إلى ملتهم ردا قاطعا ثم يدعو بمثل قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ﴾ لم يشكوا أنه سيتركهم ويهاجر إلى أرض غير أرضهم، ويتبعه في هذه المهاجرة المؤمنون به من القوم خاطبوا عند ذلك طائفة المؤمنين بقولهم: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ﴾ فهددوهم وخوفوهم بالخسران إن تبعوه في الخروج من أرضهم ليخرج شعيب وحده فإنهم إنما كانوا يعادونه إياه بالأصالة، وأما المؤمنون فإنما كانوا يبغضون من جهته ولأجله.

ج. وعلى أي الوجهين كان فالآية كالتوطئة والتمهيد للآية الآتية: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ﴾ كما تقدمت الإشارة إليه.

١٦. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ أصبحوا أي صاروا أو دخلوا في الصباح، وقد تقدم معنى الآية في نظيرتها من قصة صالح.

١٧. ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ إلى قوله: ﴿الْخَاسِرِينَ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: وغني في مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره بغنى قال: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾، و﴿كَانَ﴾ مخفف كأن خفف لدخوله الجملة الفعلية.

ب. فقوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ فيه تشبيه حال المكذبين من قومه بمن لم يطيلوا الإقامة في أرضهم فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها في عشيرة أو أهل أو دار أو ضياع وعقار، وأما من تمكن في أرض واستوطنها وأطال المقام بها وتعلق بها بكل ما يقع به التعلق في الحياة المادية فإن تركها له متعسر كالمتعذر وخاصة ترك الأمة القاطنة في أرض أرضها وما اقتنته فيها طول مقامها، وقد ترك هؤلاء وهم أمة عريقة في الأرض دارهم وما فيها، في أيسر زمان أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، وقد كانوا يزعمون أن شعيبا ومن تبعه منهم سيحشرون فخاب ظنهم وانقلبت الدائرة عليهم فكانوا هم الخاسرين فمكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

ج. وإلى هذا يشير تعالى حيث ذكر أولا قولهم: إن متبعي شعيب خاسرون، ثم ذكر نزول العذاب وأبهم الذين أخذتهم الرجفة فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ ولم يقل: فأخذت الذين كفروا الرجفة، ثم صرح في قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾ الآية أن الحكم الإلهي والهلاك والخسران كان لشعيب ومن تبعه على الذين كذبوه من قومه فكانوا هم الخاسرين المكور بهم، وهم يزعمون خلافه.

١٨. ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ إلى آخر الآية، ظاهر السياق أنه إنما تولى بعد نزول العذاب عليهم وهلاكهم، وأن الخطاب خطاب اعتبار، وقوله: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ هو من الأسى أي كيف أحزن، والباقي ظاهر.

٣٨. الله يبتلي الناس بالضراء والسراء ليتذكروا:

المقطع [٣٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ١٩٦»:

١. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى سنن الله في الأمم: البأساء والضراء، والتبديل بالحسنة، والاستدراج]، خلاصته:

أ. بيان أن الآيات تبين سنناً إلهية جارية في الأمم: الابتلاء بالبأساء والضراء لتضرعهم، ثم التبديل بالحسنة ليعفوا ويغتروا، ثم الأخذ بغتة.

ب. توضيح أن العالم الإنساني مرتبط الارتباط بأجزاء الكون، وأن فساد الإنسان ينعكس على غيره ثم يعود إليه بالبلاء والمحن.

ج. إثبات أن التبديل بالحسنة هو سنة الاستدراج، حيث يمهل الله الأمم بعد أن يعرضوا عن آياته، فيزدادوا طغياناً حتى يؤخذوا بغتة.

د. بيان أن الإنسان إذا انحرف عن صراط الفطرة، تظهر الاختلالات في اجتماعاته، وتتراكم عليه المصائب الكونية داعية إلى الرجوع.

هـ. الرد على من يظن أن التقدم العلمي يمكنه أن يغلب طبيعة الكون ويبطل حكم الله، وبيان أن الله فوق الأسباب لا في عرضها.

و. توضيح أن القرآن يقرر حقيقة ارتباط الإنسان بالكون، وأن صلاح العمل يفتح بركات السماء، وفساده يجر الفساد والهلاك.

٢. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قيل: البأساء في المال كالفقر، والضراء في النفس كالمرض، وقيل: يعني بالبأساء ما نالهم من

الشدة في أنفسهم وبالضراء ما نالهم في أموالهم، وقيل: غير ذلك، وقيل: إن البأس والبأساء يكثر استعمالها في الشدة التي هي بالنكاية والتنكيل كما في قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾

ب. ولعل قوله بعد: ﴿الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ حيث أريد بهما ما يسوء الإنسان وما يسره يكون قرينة على إرادة مطلق ما يسوء الإنسان من الشدائد من الضراء، ويكون قوله: ﴿بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ من ذكر العام بعد الخاص.

ج. يذكر سبحانه أن السنة الإلهية جرت على أنه كلما أرسل نبيا من الأنبياء إلى قرية من القرى، وما يرسلهم إليهم إلا ليهديهم سبيل الرشاد، ابتلاهم بشيء من الشدائد في النفوس والأموال رجاء أن يبعثهم ذلك إلى التضرع إليه سبحانه ليتم بذلك أمر دعوتهم إلى الإيمان بالله والعمل الصالح.

د. فالابتلاءات والمحن نعم العون لدعوة الأنبياء فإن الإنسان ما دام على النعمة شغله ذلك عن التوجه إلى من أنعمها عليه واستغنى بها، وإذا سلب النعمة أحس بالحاجة، ونزلت عليه الذلة والمسكنة، وعلاه الجزع، وهدده الفناء فيبعثه ذلك بحسب الفطرة إلى الالتجاء والتضرع إلى من بيده سد خلته ودفع ذلته، وهو الله سبحانه وإن كان لا يشعر به وإذا نبه عليه كان من المرجو اهتداؤه إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجانِبِهِ وَإِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ﴾ [حم السجدة: ٥١]

٣. ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ إلى آخر الآية:

أ. تبديل الشيء شيئا وضع الشيء الثاني مكان الشيء الأول والسيئة والحسنة معناهما ظاهر، والمراد بهما ما هما كالشدة والرخاء، والخوف والأمن، والضراء والسراء كما يدل عليه قوله بعده: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾

ب. ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ من العفو وفسر بالكثرة أي حتى كثروا أموالا ونفوسا بعد ما كان الله قللهم بالابتلاءات والمحن، وليس، ببعيد وإن لم يذكروه، أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر كقوله:

ربع عفاه الدهر طولا فانمحى... قد كاد من طول البلى أن يمسحا

ج. فيكون المراد أنهم محوا بالحسنة التي أوتوها آثار السيئة السابقة وقالوا: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ أي إن الإنسان وهو في عالم الطبيعة المتحولة المتغيرة من حكم موقفه أن يمسه الضراء والسراء، وتتعاقب عليه الحدثان مما يسوؤه أو يسره من غير أن يكون لذلك انتساب إلى امتحان إلهي ونقمة ربانية.

د. ومن الممكن بالنظر إلى هذا المعنى الثاني أن يكون قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، عطف تفسير لقوله: ﴿عَفَوْا﴾ والمراد أنهم محوا رسم الامتحان الإلهي بقولهم: إن الضراء والسراء إنما هما من عادات الدهر المتبادلة المتداولة يداولنا بذلك كما كان يداول آباءنا كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]

هـ. و﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا﴾ الآية، للغاية، والمعنى: ثم آتيناهم النعم مكان النقم فاستغرقوا فيها إلى أن نسوا ما كانوا عليه في حال الشدة وقالوا: إن هذه الحسنات وتلك السيئات من عادة الدهر فانتهى بهم إرسال الشدة ثم الرخاء إلى هذه الغاية، وكان ينبغي لهم أن يتذكروا عند ذلك ويهتدوا إلى مزيد الشكر بعد التضرع لكنهم غيروا الأمر فوضعوا هذه الغاية مكان تلك الغاية التي رضيها لهم ربهم فطبع الله بذلك على قلوبهم فلا يسمعون كلمة الحق.

و. ولعل قوله: ﴿الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ قدم فيه الضراء على السراء ليحاذي ما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ من الترتيب.

٤. وفي قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تلويح إلى جهل الإنسان بجريان الأمر الإلهي، ولذا كان الأخذ بغتة وفجأة من غير أن يشعروا به، وهم يظنون أنهم عالمون بمجاري الأمور، وخصوصيات الأسباب، لهم أن يتقوا ما يهددهم من أسباب الهلاك بوسائل دافعة يهديهم إليها العلم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]

٣٩. الإيمان والتقوى سبب البركات من السماء والأرض:

المقطع [٣٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٠٢»:

١. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ﴾ إلى آخر الآية، البركات أنواع الخير الكثير ربما يبتلى الإنسان بفقده كالأمن والرخاء والصحة والمال والأولاد وغير ذلك.

٢. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ فيه استعارة بالكناية فقد شبهت البركات بمجاري تجري منها عليهم كل ما يتنعمون به من نعم الله لكنها سدت دونهم فلا يجري عليهم منها شيء

لكنهم لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه فجرى عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحر والبرد وغير ذلك كل في موقعه وبالمقدار النافع منه، وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها ففي الكلام استعارة المجاري لبركات ثم ذكر بعض لوازمه وآثاره وهو الفتح للمستعار له.

٣. وفي قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ الآية دلالة على أن افتتاح أبواب البركات مسبب لإيمان أهل القرى جميعا وتقواهم أي إن ذلك من آثار إيمان النوع الإنساني وتقواه لا إيمان البعض وتقواه فإن إيمان البعض وتقواه لا ينفك عن كفر البعض الآخر وفسقه، ومع ذلك لا يرتفع سبب الفساد وهو ظاهر.

٤. وفي قوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ دلالة على أن الأخذ بعنوان المجازاة وقد تقدم في البيان المذكور آنفا ما يتبين به كيفية ذلك، وأنه في الحقيقة أعمال الإنسان ترد إليه.

٤٠. القرى والغفلة ومكر الله:

المقطع [٤٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٠٢»:

١. ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾:

أ. البيات والتبييت قصد العدو ليلا، وهو من المكر لأن الليل سكن يسكن فيه الإنسان ويميل بالطبع إلى أن يستريح وينقطع عن غيره بالنوم والسكون.

ب. وقد فرع مضمون الآية على ما قبله أي إذا كان هذا حال أهل القرى أنهم يغترون بما تحت حسهم عما وراءه فيفجئون ويأخذهم العذاب بغتة وهم لا يشعرون فهل أمنوا أن يأتيهم عذاب الله ليلا وهم في حال النوم، وقد عمتهم الغفلة؟

٢. ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ الضحى صدر النهار حين تنبسط الشمس، والمراد باللعب الأعمال التي يشتغلون بها لرفع حوائج الحياة الدنيا والتمتع من مزايا الشهوات، وهي إذا لم تكن في سبيل السعادة الحقيقية، وطلب الحق كانت لعبا، فقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ كناية عن العمل للدنيا وربما قيل: إنه استعارة أي يشتغلون بما لا نفع فيه كأنهم يلعبون، وليس ببعيد أن يكون قوله

في الآية السابقة ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ كناية عن الغفلة، ومعنى الآية ظاهر.

٣. ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ مكر به مكرا أي مسه بالضرر أو بما ينتهي إلى الضرر وهو لا يشعر وهو إنما يصح منه تعالى إذا كان على نحو المجازاة كأن يأتي الإنسان بالمعصية فيؤاخذه الله بالعذاب من حيث لا يشعر أو يفعل به ما يسوقه إلى العذاب وهو لا يشعر، وأما المكر الابتدائي من غير تحقق معصية سابقة فمما يمتنع عليه تعالى وقد مرت الإشارة إليه كرارا.

٤. وما ألطف قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ و﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ ثم قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾، الثالث: وهو الذي في هذه الآية، جمع وتلخيص للإنكارين السابقين في الآيتين، وقد أظهر في الآيتين جميعا من غير أن يقول في الثانية أوأمنوا ليعود الضمير في الآية الثالثة إلى من في الآيتين جميعا كأنه أخذ أهل القرى وهم نائمون غير أهل القرى وهم يلعبون.

٥. ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ذلك لأنه تعالى بين في الآيتين الأوليين أن الأمن من مكر الله نفسه مكر إلهي يتعقبه العذاب الإلهي فالآمنون من مكر الله خاسرون لأنهم ممكور بهم بهذا الأمن بعينه.

٤١. الله يضل الظالمين ويطبع على قلوبهم:

المقطع [٤١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٠٣»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ إلى آخر الآية:

أ. الظاهر أن فاعل قوله: ﴿يَهْدِ﴾ ضمير راجع إلى ما أجمله من قصص أهل القرى، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ مفعوله عدي إليه باللام لتضمينه معنى التبيين، والمعنى: أولم يبين ما تلوناه من قصص أهل القرى للذين يرثون الأرض من بعد أهلها هاديا لهم، وقوله: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ﴾ الآية مفعول ﴿يَهْدِ﴾ والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها الأخلاف الذين ورثوا الأرض من أسلافهم.

ب. ومحصل المعنى: أولم يتبين أخلاف هؤلاء الذين ذكرنا أنا آخذناهم بمعاصيهم بعد ما امتحناهم ثم طبعنا على قلوبهم فلم يستطيعوا أن يسمعوا مواعظ أنبيائهم إنا لو نشاء لأصبناهم بذنوبهم

من غير أن يمنعنا منهم مانع أو يتقوا بأسنا بشيء وربما قيل: إن قوله: ﴿يَهْدِ﴾ منزل منزلة اللازم والمعنى: أولم يفعل بهم الهداية أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [السجدة: ٢٦]

٢. وأما قوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ فمعطوف على قوله: ﴿أَصَبْنَاهُمْ﴾ لأن الماضي هاهنا في معنى المستقبل، والمعنى أولم يهد لهم أولو نشاء نطبع، وقيل جملة معترضة تذييلية، وفي الآية وجوه وأقوال أخر خالية عن الجدوى.

٤٢. القرى والرسل والطبع والفسق:

المقطع [٤٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٠٣»:

١. ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ إلى آخر الآية تلخيص ثان لقصصهم المقصوصة سابقا بعد التلخيص الذي مر في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ﴾ إلى آخر الآيتين أو الآيات الثلاث، والفرق بين التلخيصين أن الأول تلخيص من جهة صنع الله من أخذهم بالبأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثم الأخذ بغتة وهم لا يشعرون، والثاني تلخيص من جهة حالهم في أنفسهم قبال الدعوة الإلهية، وهو أنهم وإن جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لم يؤمنوا لتكذيبهم من قبل وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، وهذا من طبع الله على قلوبهم.

٢. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. ظاهر الآية أن قوله: ﴿بِمَا﴾ متعلق بقوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ ولازم ذلك أن تكون ﴿فَمَا﴾ موصولة ويؤيده قوله تعالى في موضع آخر ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤] فإنه أظهر في كون ﴿فَمَا﴾ موصولة لمكان ضمير ﴿بِهِ﴾ ويئول المعنى إلى أنهم كذبوا بما دعوا إليه أولا ثم لم يؤمنوا به عند الدعوة النبوية ثانيا.

ب. ويؤيده ظاهر قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فإن هذا التركيب يدل على نفي التهيؤ القبلي يقال:

ما كنت لآتي فلانا، وما كنت لأكرم فلانا وقد فعل كذا أي لم يكن من شأني كذا ولم أكن بمتهيئ لكذا، وفي التنزيل: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، أي كان في إرادته التمييز من قبل، وقال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] ويؤيده أيضا قوله في الآية التالية: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ فإن ظاهر السياق أن هذه الآية معطوفة عطف تفسير على قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فيتبين بها أنهم كانوا عهد إليهم بعهد ففسقوا عنه وكذبوا به حين عهد إليهم ثم إذا جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم ولم يؤمنوا بهم، وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

٣. والآية أعني قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾:

أ. مذيلة بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فدل ذلك على أن ما وصفه من مجيء الرسل بالبينات وعدم إيمانهم لتكذيبهم بذلك قبلا هو من مصاديق الطبع المذكور، وحقيقته أن الله ثبت التكذيب في قلوبهم ومكنه من نفوسهم حتى إذا جاءتهم الرسل بالبينات لم يكن محل لقبول دعوتهم لكون المحل مشغولا بضده، فتنطبق هاتان الآيتان بحسب المعنى على الآيتين الأوليين أعني قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ إلى آخر الآيتين حيث تصفان سنة الله أنه يرسل آيات دالة على حقية أصول الدعوة من التوحيد وغيره بأخذهم بالبأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثم يطبع على قلوبهم جزاء لجرمهم.

ب. وعلى هذا فالمعنى في الآية: لقد جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لما لم يؤمنوا بالآيات المرسلة إليهم الداعية لهم إلى التضرع إلى الله والشكر لإحسانه بل شكوا فيها بل حملوها على عادة الدهر وتصريف الأيام وتقليبها الإنسان من حال إلى حال فكذبوا بهذه الآيات، واستقر التكذيب في قلوبهم فلما دعاهم الأنبياء إلى الدين الحق لم يؤمنوا بما كانوا يدعون إليه من الحق وبما كانوا يذكرونهم بها من الآيات لأنهم كذبوا بها من قبل وما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل فإن الله عز وجل طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

ج. فعدم إيمانهم أثر الطبع الإلهي، والطبع أثر تكذيبهم بدلالة الابتلاء بالبأساء والضراء ثم تبديل السيئة حسنة ثانيا، ومن الدليل عليه قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾،

يعني نوحا ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]، وعلى هذا فقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ تفريع على قوله:

٤. ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾:

أ. والمراد بما كذبوا به الآيات البينات التي ذكرتهم بها الأنبياء من آيات الآفاق والأنفس وما جاءوا به من الآيات المعجزة فالجميع آياته، والمراد بتكذيبهم بها من قبل، تكذيبهم بها من حيث دلالة عقولهم بمشاهدتها أنهم مربوبون لله لا رب سواه، وبعدم إيمانهم ثانيا عدم إيمانهم بها حين يذكرهم بها الأنبياء، فالمعنى فما كانوا ليؤمنوا بما يذكرهم به ويأتي به الأنبياء من الآيات التي كذبوا بها حين ذكرتهم بها عقولهم، وأرسلها الله إليهم ليذكروا ويتضرعوا إليه ويشكروا له.

ب. وعلى هذا فالمراد بالعهد في قوله في الآية التالية: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ هو العهد الذي عهده الله سبحانه إليهم من طريق العقل بلسان الآيات: أن لا يعبدوا إلا إياه، والمراد بالفسق خروجهم عن ذلك العهد بعدم الوفاء به.

ج. ولهذا العهد تحقق سابق على هذا التحقق وهو أن الله سبحانه أخذه بعينه منهم حين خلقهم وسواهم بخلق أبيهم آدم وتسويته ثم جعله مثالا للإنسانية العامة فأسجد له الملائكة وأدخله الجنة ثم عهد إليه حين أمر بهبوطه الأرض أن يعبده هو وذريته ولا يشركوا به شيئا.

د. وقد قدر الله سبحانه هنالك ما قدر فهدى بحسب تقديره قوما ولم يهد آخرين ثم إذا وردوا الدنيا وأخذوا في سيرهم في مسير الحياة اهتدى الأولون، وفسق عن عهده الآخرون حتى طبع الله على قلوبهم وحقت عليهم الضلالة في الدنيا بعد أعمالهم السيئة كما تقدم بيانه في تفسير قوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾: الآية ٣٠ من السورة.

هـ. فمعنى الآية على هذا: فما كانوا ليؤمنوا عند دعوة الأنبياء بما كذبوا به ولم يقبلوه عند أخذ العهد الأول، وما وجدنا لأكثرهم من وفاء في الدنيا بالعهد الذي عهدناه هناك وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين خارجين عن حكم ذلك العهد، فهذا معنى لكنه غير مناف للمعنى السابق فإن أحد المعنيين في طول الآخر وليسا بمتعارضين فإن تعين طريق الإنسان وغايته من سعادة وشقاوة بحسب القدر لا ينافي إمكان سعادته وشقاوته في الدنيا، وإناطة تحقق كل منهما باختياره ذلك وانتخابه.

٥. وللقوم في تفسير الآية أقوال أخر:

أ. أن المراد بتكذيبهم من قبل، تكذيبهم من حين مجيء الرسل إلى حين الإصرار والعناد وبقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾، كفرهم حين الإصرار، والمعنى فما كانوا ليؤمنوا حين العناد بما كذبوا به من أول الدعوة إلى ذلك الحين، وهذا وجه سخيف لا شاهد له من جهة اللفظ البتة.

ب. أن المراد بتكذيبهم قبلا، تكذيبهم بأصول الشرائع الإلهية التي لا يختلف في شيء منها كالتوحيد والمعاد، ومسألة حسن العدل وقبح الظلم مثلا مما يستقل به العقل، وبتكذيبهم بعدا تكذيبهم بتفاصيل الشرائع، والمعنى فما كانوا ليؤمنوا بهذه الشرائع المفصلة وهي التي كذبوا بها قبلا إجمالا قبل الدعوة التفصيلية، وفيه أنه خلاف ظاهر الآية فلا يقال للكفر بالله وبسائر ما ثبوته فطري عند العقل أنه تكذيب، على أن ما تقدم من القرائن على خلافه يكذبه.

ج. أن الآية على حد قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ فالمعنى: ما كانوا لو أهلكناهم ثم أحييناهم ليؤمنوا بما كذبوا به قبل إهلاكهم، هذا، وهو أسخف ما قيل في تفسير الآية.

د. أن ضمير ﴿كَذَّبُوا﴾ راجع إلى أسلافهم كما أن ضمير ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ للأخلاف والمعنى: فما كانوا ليؤمنوا بما كذب به أسلافهم، وفيه: أنه قول من غير دليل وظاهر سياق قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا﴾ أن مرجع الثلاثة جميعا واحد، ومن الممكن أن يقرر هذا الوجه بما يرجع إلى الوجه الآتي.

هـ. أن الكلام مبني على أخذ عامة أهل القرى من أسلافهم وأخلافهم واحدا بعث إليه الرسل، وهم مأخوذون كالشخص الواحد فيكون تكذيب الأسلاف لأنبيائهم تكذيبا من الأخلاف لهم، وعدم إيمان الأخلاف أيضا عدم إيمان من الأسلاف وهذا كما يذكر القرآن أهل الكتاب وخاصة اليهود ثم يؤاخذ أخلافهم بما قدمته أيدي أسلافهم، وتنسب إلى لاحقيهم مظالم سابقيهم في آيات كثيرة فيكون المعنى: هو ذا البشر منذ خلقوا إلى اليوم جاءتهم رسلهم بالبينات فما كان يؤمن آخرهم بما كذب به أولهم، هذا:

• وفيه: أنه وإن كان في نفسه معنى صحيحا لكن السياق لا يلائمه فالكلام مسوق لبيان حال الأمم الغابرة كما يدل عليه قوله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ ولو كانوا مأخوذين على نعت الوحدة الممتدة بامتداد أعصارهم حتى يكون لها أول وآخر وصدر وذيل تكفر بآخرها وذيلها بما كذبت به بأولها وصدرها كان من حق الكلام أن يدل على مثل هذا الاستمرار في قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فيقال:

كانت تأتيهم رسلهم بالبينات أو ما يؤدي هذا المعنى لا بمثل قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ الظاهر في اعتبار الدفعة والمرة فافهم ذلك، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠]، فمن المعلوم أنه ربما كان المكذبون غير القاتلين، وقد نسب الجميع إلى مجتمع واحد لكن دل على استمرار مجيء الرسول، ونظيره قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ﴾ [التغابن: ٦]، وكذا قوله في قصص الأنبياء بعد نوح: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ١٤]، فإن مفاد قوله: ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ بعثنا كل رسول إلى قومه.

و. أن الباء في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ سببية وما مصدرية، والمراد بتكذيبهم من قبل ما اعتادوه من تكذيب الرسل أو كل حق واجههم، والمعنى: فما كانوا ليؤمنوا بسبب التكذيب الذي تقدم منهم للرسل أو لكل حق، بربهم.

• وفيه: أنه محجوج بنظير الآية وهو قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فإن وجود ضمير ﴿بِهِ﴾ فيه دليل على أن ما موصولة، على أن ظاهر الآية أن الباء للتعدية، و﴿بِمَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ على أنه بوجه راجع إلى الوجه الأول.

ز. أن المراد بما أشير إليه آخرا تكذيبهم الذي أسروه يوم الميثاق والمعنى: فما كانوا ليؤمنوا عند دعوة الأنبياء في الدنيا بما كذبوا به قبله يوم الميثاق، وفيه: أنه معنى صحيح في نفسه غير أنه من البطن دون الظهر الذي عليه يدور التفسير، والدليل عليه قوله بعده: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فإنه يصرح بأن عدم إيمانهم كذلك إنما كان بالطبع على قلوبهم، وأن الله طبع على قلوبهم بتكذيبهم السابق فلم يؤمنوا به عند الدعوة اللاحقة، والطبع لا يكون ابتدائيا في الدنيا بل لجرم سابق فيها، وهذا أحسن شاهد على أن هذا التكذيب الذي أورث لهم الطبع على قلوبهم كان في الدنيا ثم الطبع أوجب لهم أن لا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، وفي هذا المعنى آيات أخر تدل على أن الطبع والختم الإلهي إنما هو عن جرم سابق دنيوي، وليس مجرد سبق التكذيب في الميثاق ينتج الطبع الابتدائي في الدنيا فإنه مما لا يليق به سبحانه البتة، وقد قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

٦. ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ إلى آخر الآية، قال في المجمع: (من عهد أي من وفاء بعهد

كما يقال: فلان لا عهد له أي لا وفاء له بالعهد، وليس بحافظ للعهد)، ومن الجائز أن يراد بالعهد عهد الله الذي عهده إليهم من ناحية آياته أو عهدهم الذي عاهدوا الله عليه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ومن ناحية حاجة أنفسهم ودلالة عقولهم، وقد ظهر معنى الآية مما تقدم.

٧. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن الحسين بن الحكم قال كتبت إلى العبد الصالح أخبره أني شاك، وقد قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ فإني أحب أن تريني شيئا من ذلك، فكتب إليه: أن إبراهيم كان مؤمنا وأحب أن يزداد إيمانا، وأنت شاك والشاك لا خير فيه، وكتب: أنما الشك ما لم يأت اليقين، فإذا جاء اليقين لم يجز الشك، وكتب: أن الله عز وجل يقول: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ قال نزلت في الشاك.

• أقول: وانطباقه على ما مر في البيان السابق ظاهر، وقد روى ذيل الحديث العياشي عن الحسين بن الحكم الواسطي وفيه: نزلت في الشكاك.

٤٣. موسى وفرعون والآيات والسحر:

المقطع [٤٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١٠٣-١١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢١٠»:

١. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. في تغيير السياق في أول القصة دلالة على تجدد الاهتمام بأمر موسى عليه السلام فإنه من أولي العزم صاحب كتاب وشريعة، وقد ورد الدين ببعثته في مرحلة جديدة من التفصيل بعد المرحلتين اللتين قطعهما ببعثة نوح وإبراهيم عليه السلام، وفي لفظ الآيات شيء من الإشارة إلى تبدل المراحل فقد قال تعالى أولا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ فجرى على

سياق واحد لأن هودا وصالحا كانا على شريعة نوح، ثم غير السياق فقال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ لأن لوطا من أهل المرحلة الثانية في الدين وهي مرحلة شريعة إبراهيم، وكان لوط على شريعته ثم عاد إلى السياق السابق في بدء قصة شعيب، ثم غير السياق في بدء قصة موسى بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ لأنه ثالث أولي العزم صاحب كتاب جديد وشريعة جديدة، ودين الله وشرائعه وإن كان واحدا لا تناقض فيه ولا تنافي غير أنه مختلف بالإجمال والتفصيل والكمال وزيادته بحسب تقدم البشر تدريجيا من النقص إلى الكمال، واشتداد استعداده لقبول المعارف الإلهية عصرا بعد عصر إلى أن ينتهي إلى موقف علمي هي أعلى المواقف فيختتم عند ذلك الرسالة والنبوة، ويستقر الكتاب والشريعة استقرارا لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعة جديدة ولا يبقى للبشر بعد ذلك إلا التدرج في الكمال من حيث انتشار الدين وانبساطه على المجتمع البشري واستيعابه لهم، وإلا التقدم من جهة التحقق بحقائق المعارف، والترقي في مراقي العلم والعمل التي يدعو إليها الكتاب، ويحرض عليها الشريعة والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

ب. فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ إلى آخر الآية، إجمال لقصة موسى عليه السلام ثم يؤخذ في التفصيل من قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ﴾ الآية، وإنا وإن كنا نسمي هذه القصص بقصة موسى وقصة نوح وقصة هود وهكذا فإنها بحسب ما سردت في هذه السورة قصص الأمم والأقوام الذين أرسل إليهم هؤلاء الرسل الكرام يذكر فيها حالهم فيما واجهوا به رسل الله من الإنكار والرد، وما آل إليه أمرهم من نزول العذاب الإلهي الذي أفنى جمعهم، وقطع دابرهم ولذلك ترى أن عامة القصص المذكورة مختومة بذكر نزول العذاب وهلاك القوم.

ج. ولا تنس ما قدمناه في مفتتح الكلام أن الغرض منها بيان حال الناس في قبول العهد الإلهي المأخوذ منهم جميعا ليكون إنذارا للناس عامة وذكرى للمؤمنين خاصة، وأنه الغرض الجامع بين ما في سور (الم) وما في سورة (ص) من الغرض وهو الإنذار والذكرى.

د. فقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد من ذكروا من الأنبياء وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليه السلام ﴿مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ﴾ أي إلى ملك مصر والأشراف الذين حوله، و(فرعون) لقب كان يطلق على ملوك مصر كالخديو كما كان يلقب بقيصر وكسرى وفغفور ملوك الروم

وإيران والصين، ولم يصرح القرآن الكريم باسم هذا الفرعون الذي أرسل إليه موسى فأغرقه الله بيده.

هـ. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الظاهر أن المراد بها ما أتى به في أول الدعوة من إلقاء العصا فإذا هي ثعبان، وإخراج يده من جيبه فإذا هي بيضاء، والآيات التي أرسلها الله إليهم بعد ذلك من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، ولم ينقل القرآن الكريم لنبي من الأنبياء من الآيات الكثيرة ما نقله عن موسى عليه السلام.

و. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي بالآيات التي أرسل بها على ما سيذكره الله سبحانه في خلال القصة، وظلم كل شيء بحسبه، وظلم الآيات إنما هو التكذيب بها والإنكار لها.

٢. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ذكر عاقبة الإفساد في الاعتبار بأمرهم لأنهم كانوا يفسدون في الأرض ويستضعفون بني إسرائيل، وقد كان في متن دعوة موسى حين ألقاها إلى فرعون ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وفي سورة طه: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧]

٣. ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ شروع في تفصيل قصة الدعوة كما تقدمت الإشارة إليه، وقد عرف نفسه بالرسالة ليكون تمهيدا لذكر ما أرسل لأجله، وذكره تعالى باسمه رب العالمين أنسب ما يتصور في مقابلة الوثنيين الذين لا يرون إلا أن لكل قوم أو لكل شأن من شئون العالم وطرف من أطرافه ربا على حدة.

٤. ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إلى آخر الآية:

أ. تأكيد لصدقه في رسالته أي أنا حري بأن أقول قول الحق ولا أنسب إلى الله في رسالتي منه إليك شيئا من الباطل لم يأمرني به الله سبحانه، وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في موضع التعليل بالنسبة إلى جميع ما تقدم أو بالنسبة إلى قوله: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه هو الأصل الذي يتفرع عليه غيره.

ب. ولعل تعدية ﴿حَقِيقٌ﴾ بعلى من جهة تضمينه معنى حريص أي حريص على كذا حقيقا به، والمعروف في اللغة تعدية حقيق بمعنى حري بالباء يقال: فلان حقيق بالإكرام أي حري به لائق، وقرئ: ﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ﴾ بتشديد الياء والحقيق على هذا مأخوذ من حق عليه كذا أي وجب، والمعنى واجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق فالحقيق خبر ومبتدؤه قوله: ﴿أَنْ لَا أَقُولَ﴾، الآية والباقي ظاهر.

٥. ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الشرط في صدر الآية أعني قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ يتضمن صدقه عليه السلام فإنه إذا كان جائيا بآية واقعة فقد صدق في إخباره بأنه قد جاء بآية لكن الشرط في ذيل الآية تعريض يومئ به إلى أنه ما يعتقد بصدقه في إخباره بوجود آية معه، فكأنه قال إن كنت جئت بآية فأت بها وما أظنك تصدق في قولك، فلا تكرار في الشرط.

٦. ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾:

أ. الفاء جوابية كما قيل أي فأجابه بإلقاء عصاه، وهذه هي فاء التفريع والجواب مستفاد من خصوصية المورد.

ب. والثعبان الحية العظيمة ولا تنافي بين وصفه هاهنا بالثعبان المبين وبين ما في موضع آخر من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]، والجان هي الحية الصغيرة لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجان إنما جاء في قصة ليلة الطور وقد قال تعالى فيها في موضع آخر: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]، وأما ذكر الثعبان فقد جاء في قصة إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك.

٧. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾:

أ. أي نزع يده من جيبه على ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢]، وقوله: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص: ٣٢]

ب. والأخبار وإن وردت فيها أن يده عليه السلام كانت تضيء كالشمس الطالعة عند إرادة الإعجاز بها لكن الآيات لا تقص أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين إلا أن كونها آية معجزة تدل على أنها كانت تبيض ابيضاضا لا يشك الناظرون في أنها حالة خارقة للعادة.

٨. ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾:

أ. لم يذكر تعالى ما قاله فرعون عند ذلك، وإنما الذي ذكر محاورة الملإ بعضهم بعضا كأنهم في مجلس مشاورة يذاكر بعضهم بعضا ويشير بعضهم إلى ما يراه ويصوبه آخرون فيقدمون ما صوبوه من رأي إلى فرعون ليعمل به فهم لما تشاوروا في أمر موسى وما شاهدوه من آياته المعجزة قالوا: إن هذا لساحر عليم، وإذا كان ساحرا غير صادق فيما يذكره من رسالة الله سبحانه فإنما يتوسل بهذه الوسيلة إلى نجاة بني

إسرائيل واستقلالهم في أمرهم ليتأيد بهم ثم يخرجكم من أرضكم ويذهب بطريقتكم المثلى فماذا تأمرون به في إبطال كيده، وإخماد ناره التي أوقدها؟ أمن الواجب مثلا أن يقتل أو يصلب أو يسجن أو يعارض بساحر مثله؟ فاستصوبوا آخر الآراء، وقدموه إلى فرعون أن أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم.

ب. ومن ذلك يظهر أن قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ حكاية ما قاله بعض الملإ لبعض وقوله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ﴾، حكاية ما قدموه من رأي الجميع إلى فرعون وقد اتفقوا عليه، وقد حكى الله سبحانه في موضع آخر من كلامه هذا القول بعينه من فرعون يخاطب به ملأه قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧]

ج. ويظهر مما في الموضعين أنهم إنما شاوروا حول ما قاله فرعون ثم صوبوه ورأوا أن يجيبه بسحر مثل سحره، وقد حكى الله أيضا هذا القول عن فرعون يخاطب به موسى حتى بالذي أشار إليه الملأ من معارضة سحره بسحر آخر مثله إذ قال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٨]، ولعل ذلك محصل ما خرج من مشاورتهم حول ما قاله فرعون بعد ما قدم إلى فرعون مخاطب به موسى من قبل نفسه.

د. وللملإ جلسة مشاورة أخرى أيضا بعد قدوم السحرة إلى فرعون ناجى فيها بعضهم بعضا بمثل ما في هذه الآيات قال تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: ٦٣]

هـ. فتبين أن أصل الكلام لفرعون ألقاه إليهم ليتشاوروا فيه ويروا رأيهم فيما يفعل به فرعون فتشاوروا وصدقوا قوله وأشاروا بالإرجاء وجمع السحرة للمعارضة فقبله ثم ذكره لموسى ثم اجتمعوا للمشاورة والمناجاة ثانيا بعد مجيء السحرة واتفقوا أن يجتمعوا عليه ويعارضوه بكل ما يقدرون عليه من السحر صفا واحدا.

٩. ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي يريد أن يتأيد ببني إسرائيل فيتملك مصر، ويبطل استقلالكم ويخرجكم من أرضكم، وكثيرا ما كان يتفق في الأعصار السابقة أن يهجم قوم على قوم

فيتغلبوا عليهم فيشغلوا أرضهم ويتملكوا ديارهم فيخرجوهم منها ويشردوهم في الأرض.

١٠. ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ إلى آخر الآية التالية، أرجه بسكون الهاء أمر من الإرجاء بمعنى التأخير والهاء للسكت أي أخره وأخاه ولا تعجل لهما بشر كالقتل ونحوه حتى ترمي بظلم أو قسوة ونحوهما بل ابعث في المدائن من جنودك حاشرين يجمعون السحرة فيأتوك بهم ثم عارض سحر موسى بسحر السحرة، وقرئ: ﴿أَرْجِهْ﴾ بكسر الجيم والهاء وأصله أرجئه قلبت الهمزة ياء ثم حذفت، والهاء ضمير راجع إلى موسى، وأخوه هو هارون عليه السلام.

٤٤. موسى والسحرة:

المقطع [٤٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢١٦»:

١. ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ إلى آخر الآية التالية:

أ. أي فأرسل حاشرين فحشروهم وجاء السحرة كل ذلك محذوف للإيجاز.

ب. وقولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ سؤال للأجر جيء به في صورة الخبر للتأكيد، وإفادة الطلب الإنشائي في صورة الإخبار شائع، ويمكن أن يكون استفهاما بحذف أداته، ويؤيده قراءة ابن عامر: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾، وقوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إجابة لمسئولهم مع زيادة وعدهم بالتقريب.

٢. ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ خيروه بين أن يكون هو الملقي بعصاه، وبين أن يكونوا هم الملقين لما أعدوه من الحبال والعصي وهذا التخيير في مقام استعدوا لمقابلته، ولا محالة يفيد التخيير في الابتداء بالإلقاء فمعناه إن شئت ألق عصاك أولا وإن شئت ألقينا حبالنا وعصينا

أولا، وفيه نوع من التجلد لدلالته على أنهم لا يبالون بأمره سواء ألقى قبلهم أو بعدهم فلا يهابونه على أي حال لوثوقهم بأنهم هم الغالبون، ولا يخلو التخيير مع ذلك عن نوع من التأدب.

٣. ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ إلى آخر الآية، السحر هاهنا نوع تصرف في حاسة الإنسان بإدراك أشياء لا حقيقة لها في الخارج، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: ١٠٢] في الجزء الأول من الكتاب، والاسترهاب الإخافة، ومعنى الآية ظاهر، وقد عد الله فيها سحرهم عظيما.

٤. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ﴾ إلى آخر الآيتين، أن تفسيرية واللقف واللقفان تناول الشيء بسرعة، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه ولذا يطلق على الكذب، وفي الآية وجوه من الإيجاز ظاهرة، والتقدير: وأوحينا إلى موسى بعد ما ألقوا أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حية وإذا هي تلقف ما يأفكون.

٥. ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فيه استعارة بالكناية بتشبيه الحق بشيء كأنه معلق لا يعلم عاقبة حاله أيستقر في الأرض بالوقوع عليها والتمكن فيها أم لا؟ فوقع واستقر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر.

٦. ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي غلب فرعون وأصحابه ﴿هُنَالِكَ﴾ أي في ذلك المجمع العظيم الذي تهاجم عليهم فيه الناس من كل جانب ففي لفظ ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى ذلك وهو للبعيد، ﴿وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ أي عادوا وصاروا أذلاء مهانين.

٧. ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾:

أ. أبهم فاعل الإلقاء في قوله: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ وهو معلوم فإن السحرة هم الذين ألقوا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين، وذلك للإشارة إلى كمال تأثير آية موسى فيهم وإدهاشها إياهم فلم يشعروا بأنفسهم حين ما شاهدوا عظمة الآية وظهورها عليهم إلا وهم ملقون ساجدون فلم يدروا من الذي أوقع بهم ذلك، فاضطرتهم الآية إلى الخرور على الأرض ساجدين، والإيمان برب العالمين الذي اتخذه موسى وهارون، وفي ذكر موسى وهارون دلالة على الإيمان بهما مع الإيمان برب العالمين.

ب. وربما قيل: إن بيانهم رب العالمين برب موسى وهارون لدفع توهم أن يكون إيمانهم لفرعون فإنه كان يدعي أنه رب العالمين فلما بينوه بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ولم يأخذا فرعون ربا اندفع ذلك التوهم، ولا يخلو عن خفاء فإن الوثنية ما كانت تقول برب العالمين بحقيقة معناه بمعنى من يملك العالمين

ويدبر أمر جميع أجزائها بالاستقامة بل قسموا أجزاء العالم وشئونها بين أرباب شتى، وإنما أعطوا الله سبحانه مقام إله الآلهة ورب الأرباب لا رب الأرباب ومربوبيها.

ج. والذي ادعاه فرعون لنفسه على ما حكاه الله من قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، إنما هو العلو من جهة القيام بحاجة الناس، وهم أهل مصر خاصة، عن قرب واتصال لا من جهة القيام بربوبية جميع العالمين، ومع ذلك كله قد أحاطت الخرافات على الوثنية بحيث لا يستبعد أن يتفوهوا بكون فرعون رب العالمين وإن خالف أصول مذاهبهم قطعا.

٨. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآيتين خاطبهم فرعون بقوله: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ تأنفا واستكبارا، وهو إخبار يفيد بحسب المقام والإنكار والتوبيخ، ومن الجائز أن يكون استفهاما إنكاريا أو توبيخيا محذوف الأداة.

٩. ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الآية:

أ. يتهمهم بالمواطاة والمواضعة في المدينة يريد أنهم لما اجتمعوا في مدينته بعد ما حشرهم الحاشرون من مدائن مختلفة شتى فجاءوا بهم إليه ولقوا موسى أجمعوا على أن يمكروا بفرعون وأصحابه فيتسلطوا على المدينة فيخرجوا منها أهلها، وذلك لأنهم لم يشاهدوا موسى قبل ذلك فلو كانوا تواطئوا على شيء فقد كان ذلك بعد اجتماعهم في مدينته.

ب. أنكر عليهم إيمانهم بقوله: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ ثم اتهمهم بأنهم تواطئوا جميعا على المكر ليخرجوا أهل المدينة منها بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ﴾ ليثبت لهم جرم الإفساد في الأرض المبيح له سياستهم وتنكيلهم بأشد العقوبات.

ج. ثم هددهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم بينه وفصله بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فهددهم تهديدا أكيدا أولا بقطع الأيدي والأرجل من خلاف وهو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى وبالجملة قطع كل من اليد والرجل من خلاف الجهة التي قطعت منها الأخرى، وثانيا بالصلب وهو شد المجرم بعد تعذيبه على خشبة ورفع الخشبة بإثبات جانبه على الأرض ليشاهده الناس فيكون لهم عبرة، وقد تقدم تفصيل بيانه في قصص المسيح عليه السلام في تفسير سورة آل عمران.

١٠. ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ إلى آخر الآيات:

أ. جواب السحرة وهم القائلون هذا المقال وقد قابلوه بما يبطل به كيده، وتنقطع به حجته، وهو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظنا منك أن ذلك شر لنا من جهة انقطاع حياتنا به وما نقاسيه من ألم العذاب، وليس ذلك شرا فإنا نرجع إلى ربنا، ونحيا عنده بحياة القرب السعيدة، ولم نجترم إلا ما تعده أنت لنا جرما وهو إيماننا بربنا فما دوننا إلا الخير.

ب. وهذا معنى قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ وهو إيمان منهم بالمعاد ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ وعدوا أمر العصا، على الظاهر آيات كثيرة لاشتماله على جهات كل منها آية كصيرورتها ثعبانا، ولقفها حبالهم وعصيهم واحدا بعد واحد، ورجوعها إلى حالتها الأولى، والنقم هو الكراهة والبغض يقال: نقم منه كذا ينقم من باب ضرب وعلم: إذا كره وأبغض.

ج. ثم أخذتهم الجذبة الإلهية من غير أن يذعروا مما هددهم به، واستغاثوا بربهم على ما عزم به من تعذيبهم وقتلهم فسألوه تعالى قائلين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، على ما يريد أن يوقع بنا من العذاب الشديد ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ إن قتلنا، وفي إطلاق الإفراغ على إعطاء الصبر استعارة بالكناية فشبهوا نفوسهم بالآنية، والصبر بالماء، وإعطاءه بإفراغ الإناء بالماء وهو صبه فيه حتى يغمره، وإنما سألوا ذلك ليفيض الله عليهم من الصبر ما لا يجزعون به عند نزول أي عذاب وألم ينزل بهم.

د. وقد جاءوا بالعجب العجاب في مشافهتهم هذه مع فرعون وهو الجبار العنيد الذي ينادي {أنا ربكم الأعلى} ويعبده ملك مصر فلم يذعرهم ما شاهدوا من قدرته وسطوته فأعربوا عن حجتهم بقلوب مطمئنة، ونفوس كريمة، وعزم راسخ، وإيمان ثابت، وعلم عزيز، وقول بليغ، وإن تدبرت ما حكاه الله سبحانه من مشافهتهم ومحاورتهم فرعون في موقفهم هذا في هذه السورة وفي سورتي طه والشعراء أرشدك ما في خلال كلامهم من الحجج البالغة إلى علوم جمة، وحالات روحية شريفة، وأخلاق كريمة، ولولا محذور الخروج عن طور هذا الكتاب لأوردنا شذرة منها في هذا المقام فلينتظر إلى حين.

١١. أحاديث وآثار:

أ. ما قصة الله في كتابه من قصة مجيء موسى بما آتاه الله من الرسالة، وأيده به من آية العصا واليد البيضاء، ومعه أخوه هارون إلى فرعون وإتيانه بالآيتين ثم جمع فرعون السحرة ومعارضته بسحرهم،

وإظهار الله آية موسى على سحرهم، وإيمان السحرة لا يجاوز ما ذكر في هذه الآيات إجمالا، وقد اشتملت الروايات الواردة من طرق الشيعة أو طرق أهل السنة على هذه المعاني غير أنها تشتمل مع ذلك من تفاصيل القصة على أمور عجيبة لم يتعرض لها كتاب الله كما ورد: أن عصا موسى كان من آس الجنة، وأنها كانت عصا آدم وصلت إلى شعيب ثم أعطاها موسى، وفي بعض الروايات أنها كانت عصا آدم أعطاها ملك لموسى حين توجه إلى مدين فكانت تضيء له بالليل، ويضرب بها الأرض في النهار فيخرج له رزقه وفي بعضها: أنها كانت تنطق إذا استنطقت، وكانت إذا صارت ثعبانا عند فرعون بعد ما بين لحييه اثنا عشر ذراعا، وروي أربعون ذراعا وفي بعضها ثمانون ذراعا وأنها ارتفعت في السماء ميلا، وفي بعضها أنها وضعت أحد مشفريها على الأرض والآخر على سور قصر فرعون وفي بعضها أنها أخذت قبة فرعون بين أنيابها، وحملت على الناس فانهزموا مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا، وفي بعضها: أنها كانت ثمانون ذراعا، وفي بعضها: أنها كانت في العظم كالمدينة، وفي الرواية: أن فرعون أحدث في ثيابه من هول ما رأى، وفي بعضها: أنه أحدث في ذلك اليوم أربع مائة مرة وفي بعضها: أنه استمر معه داء البطن حتى غرق، وفي الروايات أنه عليه السلام كان إذا أخرج يده من جيبه كان يغلب نورها نور الشمس.

ب. وفي الرواية: أن السحرة كانوا سبعين رجلا، وفي بعضها: ستمائة إلى تسع مائة وفي بعضها: اثني عشر ألفا، وفي بعضها خمسة عشر ألفا، وفي بعضها: سبعة عشر ألفا، وفي بعضها: تسعة عشر ألفا، وفي بعضها بضعة وثلاثين ألفا، وفي بعضها سبعين ألفا، وفي بعضها: ثمانين ألفا.

ج. وفي الرواية أنهم كانوا أخذوا السحر من رجلين مجوسيين من أهل (نينوى) وفيها: أنه كان اسم رئيسهم شمعون، وفي بعضها: يوحنا، وفي بعضها أنه كان لهم رؤساء أربعة أسماؤهم: سابور، وعازور، وحطحط، ومصفى.

د. وكذا ورد في نفس فرعون أن اسمه الوليد بن المصعب بن الريان، وأنه كان من أهل إصطخر فارس، وفي بعضها: أنه من أبناء مصر، وفي بعضها: أن فرعون هذا هو فرعون يوسف عاش أربعمائة سنة ولم يشب ولا ابيض منه شعر.

هـ. وفي بعضها: أنه بنى مدائن يتحصن فيها من موسى، وجعل فيما بينها آجام وغياض، وجعل فيها الأسد ليتحصن بها من موسى فلما بعث الله موسى إلى فرعون دخل المدينة فلما رآه الأسد تبصبصت

وولت مدبرة، ثم لم يأت مدينة إلا انفتح له بابها حتى انتهى إلى قصر فرعون الذي هو فيه، قال فقعد على بابه، وعليه مدرعة من صوف ومعه عصاه فلما خرج الآذن قال استأذن لي على فرعون فلم يلتفت إليه قال فقال له موسى: أنا رسول رب العالمين فلم يلتفت إليه قال فمكث بذلك ما شاء الله يسأله أن يستأذن له قال فلما أكثر عليه قال أما وجد رب العالمين من يرسله غيرك؟ قال فغضب موسى فضرب الباب بعصاه فلم يبق بينه وبين فرعون باب إلا انفتح حتى نظر إليه فرعون وهو في مجلسه فقال: أدخلوه قال فدخل عليه وهو في قبة له مرتفعة كثيرة الارتفاع ثمانون ذراعا فقال: أنا رسول رب العالمين إليك، قال فقال: فأت بآية إن كنت من الصادقين، قال فألقى عصاه وكان له شعبتان، قال فإذا هي حية قد وقع إحدى الشعبتين على الأرض والشعبة الأخرى في أعلى القبة، قال فنظر فرعون جوفها وهي تلهب نيرانا، قال وأهوى إليه فأحدث وصاح يا موسى خذها.

و. إلى غير ذلك مما يشتمل عليه الروايات من العجائب في هذه القصة وأغلبها أمور سكت عنها القرآن لا سبيل إلى رد أغلبها إلا الاستبعاد، ولا إلى قبولها إلا حسن الظن بكل رواية مروية، وهي ليست بمتواترة ولا محفوفة بقرائن قطعية بل جلها مراسيل أو موقوفة أو ضعيفة من سائر جهات الضعف على ما بينها من التعارض فالغض عنها أولى.

٤٥. فرعون يهدد بقتل أبناء المؤمنين:

المقطع [٤٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٢٣»:

١. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ﴾ هذا إغراء منهم لفرعون وتحريض له أن يقتل موسى وقومه، ولذلك رد فرعون قولهم بأنه لا يهمنا قتلهم فإنا فوقهم قاهرون على أي حال بل سنعيد عليهم سابق عذابنا فنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم، ولو كان ما سألوا مطلق تعذيبهم غير القتل لم يقع قوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ موقعه ذلك الوقوع.

٢. وقولهم: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾:

أ. تأكيد لتحريضهم إياه على قتلهم، والمعنى أن موسى يتركك وآلهتك فلا يعبدكم مع ما يفسد هو

وقومه في الأرض، وفيه دلالة على أن فرعون كما كان يدعي الألوهية، ويستعبد الناس لنفسه كان يعبد آلهة أخرى، وهو كذلك والتاريخ يثبت نظائر لذلك في الأمم السالفة، وقد نقل: أن عظماء البيوت وسادات القوم في الروم وممالك أخرى غيرها كان يعبدهم مرؤوسوهم من بيتهم وعشائرهم وهم أنفسهم كانوا يعبدون آباءهم الأولين وأصناما أخرى غيرهم كما يعبدهم ضعفاؤهم، وأيضا بين الأرباب التي تعبدها الوثنية ما هو رب لغيره من الأرباب أو رب لرب آخر كربوبية الأب والأم للابن وغير ذلك، إلا أن قوله لقومه فيما حكاه الله سبحانه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ظاهر في أنه كان لا يتخذ لنفسه ربا، وكان يأمر قومه أن لا يعبدوا إلا إياه، ولذلك قال بعضهم: إنه كان دهريا لا يعترف بصانع، ويأمر قومه بترك عبادة الآلهة مطلقا، وقصر العبادة فيه، ولذلك قرأ بعضهم، على ما قيل، (وإلهتك) بكسر الهمزة وفتح اللام وإثبات الألف بعدها كالعبادة وزنا ومعنى.

ب. لكن الأوجه أنه كان يريد بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ نفي إله يخص قومه القبطيين يملكهم ويدبر أمورهم غير نفسه كما هو المعهود من عقائد الوثنيين أن لكل صنف من أصناف الخلائق كالسماء والأرض والبر والبحر وقوم كذا، أو من أصناف الحوادث والأمور كالسلم والحرب والحب والجمال ربا على حدة، وإنما كانوا يعبدون من بينها ما يهمهم عبادته كعبادته سكان سواحل البحار رب البحر والطوفان.

ج. فمعنى كلامه أني أنا ربكم معاشر القبطيين لا ما اتخذه موسى وهو يدعي أنه ربكم أرسله إليكم، ويؤيد ما ذكرناه ما احتف به من القرينة بقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾، فإنه تعالى يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]، فظاهرها أنه كان يشك في كونه إلها لموسى، وأن معنى قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ نفي العلم بوجود إله غيره لا العلم بعدم وجود إله غيره، وبالجملة فكلامه لا ينفي إلها غيره.

د. وأما احتمال كون فرعون دهريا غير قائل بوجود الصانع فالظاهر أنه الذي يوجد في كلام الرازي قال في التفسير الكبير، ما لفظه: (الذي يخطر ببالي أن فرعون إن قلنا: إنه ما كان كامل العقل لم يجز

في حكمة الله تعالى إرسال الرسول إليه، وإن كان عاقلا لم يجز أن يعتقد في نفسه كونه خالق السماوات والأرض، ولم يجز في الجمع العظيم من العقلاء أن يعتقدوا فيه ذلك لأن فساده معلوم بضرورة العقل، بل الأقرب أن يقال: إنه كان دهريا ينكر وجود الصانع، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلى هو الكواكب، وأما المجدي في هذا العالم للخلق ولتلك الطائفة والمربي لهم فهو نفسه فقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ أي مربيكم والمنعم عليكم والمطعم لكم، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي لا أعلم لكم أحدا يجب عليكم عبادته إلا أنا، وإذا كان مذهبه ذلك لم يبعد أن يقال: إنه كان قد اتخذ أصناما على صور الكواكب ويعبدها ويتقرب إليها على ما هو دين عبدة الكواكب، وعلى هذا التقدير فلا امتناع في حمل قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ على ظاهره فهذا ما عندي في هذا الباب)

هـ. وقد أخطأ في ذلك فليس معنى الألوهية والربوبية عند الوثنيين وعبدة الكواكب خالقية السماوات والأرض بل تدبير شيء من أمور العالم كما احتمله أخيرا، ولا في الدهريين من يعبد الكواكب، ولا في الصابئين وعبدة الكواكب من ينكر وجود الصانع، بل الحق أن فرعون، كما تقدم، كان يرى نفسه ربا لمصر وأهله، وكان إنما ينكر كونهم مربوبي إله آخر على قاعدتهم لا أنهم أو غيرهم من العالم ليسوا مخلوقين لله سبحانه.

٣. ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وعد منه للملإ من قومه أن يعيد إلى بني إسرائيل تعذيبه السابق وهو قتل أبنائهم واستحياء نسائهم واستبقاؤهن للخدمة، وعقبه بقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ وهو تطييب قلوبهم وإسكان ما في نفوسهم من الاضطراب والطيش.

٤٦. موسى يأمر قومه بالصبر والاستعانة بالله:

المقطع [٤٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٢٥»:

١. ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ إلى آخر الآية:

أ. وهذا من موسى عليه السلام بعث لبني إسرائيل واستنهاض لهم على الاستعانة بالله على

مقصدهم وهو التخلص من إسارة آل فرعون واستعبادهم ثم بعث على الصبر على شدائد يهددهم بها فرعون من ألوان العذاب، والصبر هو رائد الخير وفرط كل فرج، ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾

ب. ومحصله أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، ويمنع من التمتع بها من يشاء بل هي لله يورثها من يشاء، وقد جرت السنة الإلهية أن يخص بحسن العاقبة من يتقيه من عباده فإن استعنتم بالله وصبرتم في ذات الله على ما يهددكم من الشدائد، وهو التقوى، أورثكم الأرض التي ترونها في أيدي آل فرعون ولذلك عقب قوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ﴾ الآية بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبة ما يعقب الشيء كالبادئة لما يبدأ بالشيء وكون العاقبة مطلقا للمتقين من جهة أن السنة الإلهية تقضي بذلك وذلك أنه تعالى نظم الكون نظما يؤدي كل نوع إلى غاية وجوده وسعادته التي خلق لأجلها فإن جرى على صراطه الذي ركب عليه، ولم يخرج عن خط مسيره الذي خط له بلغ غاية سعادته لا محالة، والإنسان الذي هو أحد هذه الأنواع أيضا حاله هذا الحال إن جرى على صراطه الذي رسمته له الفطرة واتقى الخروج عنه والتعدي منه إلى غير سبيل الله بالكفر بآياته والإفساد في أرضه هداه الله إلى عاقبته الحسنة، وأحياه الحياة الطيبة، وأرشده إلى كل خير يبتغيه.

٢. ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ الإتيان والمجيء في الآية بمعنى واحد، والاختلاف في التعبير للتفنن، وما قيل إن المعنى من قبل أن تأتينا بالآيات ومن بعد ما جئتنا لا دليل على ما فيه من التقدير، على أن غرضهم إظهار أن مجيء موسى وقد وعدوا أن الله ينجيهم بيده من مصيبة الإسارة وهاوية المذلة لم يؤثر أثره فإن الأذى الذي كانوا يحملونه ويؤذون به على حاله، ولا تعلق لغرضهم بأنه أتاهم بالآيات البتة، وهذا الكلام شكوى منهم يبثونها إلى موسى عليه السلام.

٣. ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا جواب من موسى عن قولهم: ﴿أُوذِينَا﴾، يسليهم به ويعزيهم بالرجاء، وهو في الحقيقة تكرار لقوله السابق: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ للهِ﴾ الآية، كأنه يقول: ما أمرتكم به أن اتقوا الله في سبيل مقصدكم كلمة حية ثابتة فإن عملتم بها كان من المرجو أن يهلك الله عدوكم، ويستخلفكم في الأرض بإيراثكم إياها ولا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاء جزافا، ولا يكرمكم إكراما مطلقا من غير شرط ولا قيد بل

ليمتحنكم بهذا الملك ويبتليكم بهذا التسليط والاستخلاف فينظر كيف تعملون، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: آل عمران: ١٤٠]، وهذا مما يخطئ به القرآن ما يعتقده اليهود من كرامتهم على الله كرامة لا تقبل عزلا، ولا تحتمل شرطا ولا قيدا، والتوراة تعد شعب إسرائيل شعب الله الذي لهم الأرض المقدسة كأنهم ملكوها من الله سبحانه ملكا لا يقبل نقلا ولا إقالة.

٤٧. الله يبتلي آل فرعون بالسنين ونقص الثمرات:

المقطع [٤٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٢٧»:

١. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ السنون جمع سنة وهي القحط والجدب، وكان أصله سنة القحط ثم قيل: السنة إشارة إليها ثم كثر الاستعمال حتى تعينت السنة لمعنى القحط والجدب، والله سبحانه يذكر في الآية، ويقسم، أنه أخذ آل فرعون وهم قومه المختصون به من القبطيين بالقحوط المتعددة ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون، وهما نوعان من الآيات التي أرسلها الله إلى آل فرعون وظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منهما فصلا فصلا ولذا جمع السنين ولا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنة وسنة، على أنه يقول: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ الآية، وظاهره الحسنة التي بعد السيئة ثم السيئة التي بعد هذه الحسنة.

٢. ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. كانوا إذا جاءهم الخصب ووفور النعمة وسعة الرزق بعد ارتفاع السنة ونقص الثمرات قالوا: ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ يريدون به الاختصاص وإنما قلنا: إنهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنة ونقص الثمرات لأن الإنسان بحسب الطبع لا ينتقل إلى ذكر النعمة بما هي نعمة، ولا يتنبه لقدرها إلا بعد مشاهدة النقمة التي هي خلافها، ولا داعي يدعو آل فرعون إلى ذكر النعمة الحسنة وتخصيصها بأنفسهم لولا أنهم رأوا خلافها وعدوه أمرا بدعا لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى ومن معه ثم إذا بدلت السيئة حسنة

عدوها لأنفسهم فالتطير عند السيئة بحسب الوقوع قبل قولهم في الحسنة: لنا هذه وإن كان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنهم لو لم يزعموا ولم يرتكز في نفوسهم من اعتيادهم بالرفاهية ووفور النعمة والخصب أنهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبة عليهم فإن من لم تروحه الراحة والعافية لا يتحرج عن خلافهما.

ب. ولعل هذا هو الوجه في تقديمه تعالى اغترارهم بالنعمة قبل تطيرهم عند النقمة ثم ذكر الحسنة بكلمة ﴿فَإِذَا﴾ والسيئة بلفظة ﴿إِنَّ﴾ حيث قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ فقد جعل مجيء الحسنة كالأصل الثابت فذكره بإذا والتعريف بلام الجنس، ثم ذكر إصابة السيئة بطريق الشرط، ونكر السيئة ليدل على ندرتها وكونها اتفاقية.

ج. والتطير مشتق من الطير باعتبار اشتماله على نسبة من النسب، وهي نسبة التشؤم فإنهم كانوا يتشأمون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشؤم وهو التطير ومعناه التشؤم بالطير حتى سمي مطلق النصيب أو النصيب من الشر والشأمة طائرا.

د. فقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه أن نصيبهم من الشر والشؤم الذي يحق به أن يسمى نصيب الشر وهو العذاب، هو عند الله، ولكن أكثرهم لا يعلمون لظنهم أن ما تجنيه أيديهم يفوت ويزول ولا يحفظ عليهم، وربما يذكر للطائر في الآية معان أخر ككتاب الأعمال الذي سماه الله طائرا وغير ذلك لكن الأنسب بالسياق هو الذي تقدم.

٤٨. إرسال الطوفان والجراد والقمل وغيرها على آل فرعون:

المقطع [٤٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٢٩»:

١. ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مهما من أسماء الشرط معناه

أي شيء وقولهم هذا إياس منهم لموسى من أن يؤمنوا به وإن أتى بأي آية وفي قولهم: ﴿مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ استهزاء به حيث سموها آية وجعلوا غرضه منها أن يسحرهم أي إنك تأتينا بالسحر وتسميها آية.

٢. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ الآية:

أ. الطوفان على ما قاله الراغب، (كل حادثة تحيط بالإنسان، وصار متعارفا في الماء المتناهي في الكثرة، وفي المجمع: (أنه السيل الذي يعم بتغريقه الأرض وهو مأخوذ من الطوف فيها)

ب. والقمل بالضم والتشديد قيل: كبار القردان، وقيل: صغار الذباب وبالفتح فالسكون معروف، والجراد والضفادع والدم معروفة.

ج. والتفصيل تفريق الشيء إلى أجزاء مفصولة منفصلة بعضها عن بعض، ولازم ذلك تميز كل بعض وظهوره في نفسه فقوله: ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ يدل على أنها أرسلت إليهم لا مجتمعة ودفعة بل متفرقة منفصلة بعضها عن بعض ظاهرة في أنها آيات إلهية مقصودة غير اتفاقية ولا جزافية، ومن الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله في الآية التالية: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا﴾ الآية، الظاهر أن الآية كانت تأتيهم عن إخبار من موسى وإنذار ثم إذا نزلت بهم ودهمتهم التجئوا إليه فسألوه أن يدعو لهم لتنكشف عنهم، وأعطوه عهدا إن كشفت عنهم آمنوا به وأرسلوا معه بني إسرائيل فلما كشفت نكثوا ونقضوا وعلى هذا القياس.

٣. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ إلى آخر الآية، الرجز هو العذاب ويعني به العذاب الذي كانت تشتمل عليه كل واحدة من الآيات المفصلات فإنها آيات عذاب ونكال وقوله: ﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ على ما يؤيده المقام أي بما التزم عندك أن لا يرد دعاءك فيما تسأله، واللام عندئذ للقسم، والمعنى ادع لنا ربك بالعهد الذي له عندك.

٤. ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هو ما عاهدوا به موسى لكشف الرجز عنهم.

٥. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ النكث نقض العهد، وقوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَشَفْنَا﴾ وهو يدل على أنه كان يضم إلى معاهدة أجل مضروب كأن يقول موسى عليه السلام إن الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا وترسلوا معي بني إسرائيل

إلى أجل كذا، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلما كشف العذاب عنهم وحل الأجل المضروب نكثوا ونقضوا عهدهم الذي عاهدوا الله وعاهدوا موسى عليه، والباقي ظاهر.

٦. ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ اليم البحر، والباقي ظاهر.

٤٩. الله يورث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها:

المقطع [٤٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٣٠»:

١. ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ إلى آخر الآية، الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام وفلسطين ويؤيده أو يدل عليه قوله بعد: ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ فإن الله سبحانه لم يذكر بالبركة غير الأرض المقدسة التي هي نواحي فلسطين إلا ما وصف به الكعبة المباركة، والمعنى: أورثنا بني إسرائيل وهم المستضعفون الأرض المقدسة بمشارقها ومغاربها، وإنما ذكرهم بوصفهم فقال: القوم الذين كانوا يستضعفون ليدل على عجيب صنعه تعالى في رفع الوضيع، وتقوية المستضعف، وتمليكه من الأرض ما لا يقدر على مثله عادة إلا كل قوي ذو أعضاد وأنصار.

٢. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ الآية يريد به ما قضاه في حقهم أنه سيورثهم الأرض ويهلك عدوهم، وإليه إشارة موسى عليه السلام في قوله لهم وهو يسليهم ويؤكد رجاءهم: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ ويشير سبحانه إليه في قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، وتمام الكلمة خروجها من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعلية، وعلل ذلك بصبرهم.

٣. ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ الآية، أي أهلكنا ما كانوا يصنعونه وما كانوا يسقفونه من القصور والأبنية وما كانوا يعرشونه من الكرم وغيره.

٤. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن محمد بن قيس عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾، قال الرجز هو الثلج، ثم قال: بلاد خراسان بلاد رجز.

• أقول: والرواية لا تنطبق على الآية ذاك الانطباق.

٥٠. بنو إسرائيل يطلبون صنما ليعبدوه بعد النجاة:

المقطع [٥٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٣٤»:

١. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ الآية:

أ. العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم، ذكره الراغب في المفردات، وقولهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أي كما لهم آلهة مجعولة.

ب. كان بنو إسرائيل على شريعة جدهم إبراهيم عليه السلام، وقد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق ويعقوب ويوسف، وهم على دين التوحيد الذي لا يعبد فيه إلا الله سبحانه وحده لا شريك له المتعالي عن أن يكون جسما أو جسمانيا يعرض له شكل أو قدر غير أن بني إسرائيل كما يستفاد من قصصهم كانوا قوما ماديين حسيين يجرون في حياتهم على أصالة الحس ولا يعتنون بما وراء الحس إلا اعتناء تشريفيا من غير أصالة ولا حقيقة، وقد مكثوا تحت إسارة القبط سنين متطاولة، وهم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلك أرواحهم وإن كانت العصبية القومية تحفظ لهم دين آبائهم بوجه، ولذلك كان جلهم لا يتصورون من الله سبحانه إلا أنه جسم من الأجسام بل جوهر ألوهي يشاكل الإنسان كما هو الظاهر المستفاد من التوراة الدائرة اليوم، وكلما كان موسى يقرب الحق من أذهانهم حولوه إلى إشكال وتماثيل يتوهمون له تعالى، لهذه العلة لما شاهدوا في مسيرهم قوما يعكفون على أصنام لهم استحسنوا مثل ذلك لأنفسهم فسألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهة يعكفون عليها، فلم يجد موسى عليه السلام بدا من أن يتنزل في بيان توحيد الله سبحانه إلى ما يقارب أفهامهم على قصورها فلامهم أولا على جهلهم بمقام ربهم مع وضوح أن طريق الوثنية طريق باطل هالك ثم عرف لهم ربهم بالصفة، وأنه لا يقبل صنما ولا يحد بمثال كما سيجيء.

٢. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ المتبر من التبار وهو الهلاك، والمراد بقوله: ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ سبيلهم الذي يسلكونه وهو عبادة الأصنام والمراد بقوله: ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أعمالهم العبادية، والمعنى أن هؤلاء الوثنية طريقتهم هالكة وأعمالهم باطلة فلا يحق أن يميل إليه إنسان عاقل لأن الغرض من عبادة الله سبحانه أن يهتدي به الإنسان إلى سعادة دائمة وخير باق.

٣. ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ أي أطلب لكم وألتمس، يعرف ربهم ويصفه لهم، وقوله: ﴿أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ فيه تأسيس أن كل إله أبغيه لكم بجعل أو صنع فإنما هو غير الله سبحانه، والذي يجب عليكم أن تعبدوا الله ربكم بصفة الربوبية التي هي تفضيله إياكم على العالمين، فكأنهم قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فقال: كيف ألتمس لكم ربا مصنوعا وهو غير الله ربكم، وإذا كان غيره فعبادته متبرة باطلة؟ فقالوا: فكيف نعبده ولا نراه ولا سبيل لنا إلى ما لا نشاهده؟ كما يقوله عبدة الأصنام، فقال: اعبدوه بما تعرفونه من صفته فإنه فضلكم على سائر الأمم بآياته الباهرة ودينه الحق وإنجائكم من فرعون وعمله، فالآية، كما ترى، ألطف بيان وأوجز برهان يجلي عن الحق الصريح للأذهان الضعيفة التعقل.

٤. ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. سامه العذاب يسومه أي حمله ذلك على طريق الإذلال، والتقتيل الإكثار في القتل والاستحياء الاستبقاء للخدمة وقد تقدم، والظاهر أن قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من سوء تعذيب آل فرعون لهم.

ب. والآية خطاب امتناني للموجودين من أخلافهم حين النزول يمتن الله فيها عليهم بما من به على آبائهم في زمن فرعون كما قيل، والأنسب بالسياق أن يكون خطابا لأصحاب موسى بعينهم مسوقا سوق التعجب إذا نسوا عظيم نعمة الله عليهم إذ أنجاهم من تلك البلية العظيمة، ونظيره في الغيبة قوله تعالى فيما سيأتي: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

٥١. موسى يذهب للميقات ويستخلف هارون:

المقطع [٥١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ

سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٣٦»:

١. ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ إلى آخر الآية:

أ. الميقات قريب المعنى من الوقت، قال في المجمع: الفرق بين الميقات والوقت أن الميقات ما قدر ليعمل فيه عمل من الأعمال، والوقت وقت الشيء وقدره، ولذلك قيل: مواقيت الحج وهي المواضع التي قدرت للإحرام فيها.

ب. وقد ذكر الله سبحانه المواعدة وأخذ أصلها ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر ليال أخر ثم ذكر الفذلكة وهي أربعون، وأما الذي ذكره في موضع آخر إذ قال: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] فهو المجموع المتحصل من المواعدتين أعني أن آية البقرة تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعدة، وآية الأعراف على أن ما في آية البقرة مجموع المواعدتين.

ج. وبالجملة يعود المعنى إلى أنه تعالى وعده ثلاثين ليلة للتقريب والتكليم ثم وعده عشرا آخر لإتمام ذلك فتم ميقات ربه أربعين ليلة، ولعله ذكر الليالي دون الأيام، مع أن موسى مكث في الطور الأربعين بأيامها ولياليها، والمتعارف في ذكر المواقيت والأزمنة ذكر الأيام دون الليالي، لأن الميقات كان للتقرب إلى الله سبحانه ومناجاته وذكره، وذلك أخص بالليل وأنسب لما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق وزيادة تهيؤ النفس للأنس وقد كان من بركات هذا الميقات نزول التوراة.

د. وهذا كما يشير إلى مثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، إلى أن قال ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ إنما قاله حين ما كان يفارقهم للميقات، والدليل على ذلك قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ فإن الاستخلاف لا يكون إلا في غيبة، وإنما عبر بلفظ ﴿قَوْمِي﴾ دون بني إسرائيل لتجري القصة على سياق سائر القصص المذكورة في هذه السورة فقد حكي فيها عن لفظ نوح وهود وصالح وغيرهم: يا قوم يا قوم، وعلى ذلك أجريت هذه القصة فعبر فيها عن بني إسرائيل في بضعة مواضع بلفظ القوم، وقد عبر عنهم في سورة طه ببني إسرائيل.

٢. وأما قوله لأخيه ثانيا: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾:

أ. فهو أمر له بالإصلاح وأن لا يتبع سبيل أهل الفساد، وهارون نبي مرسل معصوم لا تصدر عنه

المعصية، ولا يتأتى منه اتباع أهل الفساد في دينهم، وموسى عليه السلام أعلم بحال أخيه فليس مراده نهيه عن الكفر والمعصية بل أن لا يتبع في إدارة أمور قومه ما يشير إليه ويستصوبه المفسدون من القوم أيام خلافته ما دام موسى غائبا، ومن الدليل عليه قوله: ﴿وَأَصْلِحْ﴾ فإنه يدل على أن المراد بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أن يصلح أمرهم ولا يسير فيهم سيرة هي سبيل المفسدين الذي يستحسنونه ويشيرون إليه بذلك.

ب. ومن هنا يتأيد أنه كان في قومه يومئذ جمع من المفسدين يفسدون ويقلبون عليه الأمور ويتربصون به الدوائر فنهى موسى أخاه أن يتبع سبيلهم فيشوشوا عليه الأمر ويكيدوا ويمكروا به فيتفرق جمع بني إسرائيل ويتشتت شملهم بعد تلك المحن والأذايا التي كابدها في إحياء كلمة الاتحاد بينهم.

٥٢. موسى والرؤية والجبل والتوبة:

المقطع [٥٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٣٧»:

١. ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ الآية التجلي مطاوعة التجلية من الجلاء بمعنى الظهور، والدك هو أشد الدق، وجعله دكا أي مدكوكا والخرور هو السقوط، والصعقة هي الموت أو الغشية بجمود الحواس وبطلان إدراكها، والإفاقة الرجوع إلى حال سلامة العقل والحواس يقال: أفاق من غشيته أي رجع إلى حال استقامة الشعور والإدراك.

٢. ومعنى الآية على ما يستفاد من ظاهر نظمها أنه ﴿لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بكلامه ﴿قَالَ﴾ أي موسى ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أرني نفسك أنظر إليك أي مكني من النظر إليك حتى أنظر إليك وأراك فإن الرؤية فرع النظر، والنظر فرع التمكين من الرؤية والتمكن منها، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لموسى ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ أبدا.

٣. ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾:

أ. وكان جبلا بحياله مشهودا له أشير إليه بلام العهد الحضوري، ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ أي لن تطيق رؤيتي فانظر إلى الجبل فإني أظهر له فإن استقر مكانه وأطاق رؤيتي فاعلم أنك تطيق النظر إلي ورؤيتي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى﴾ وظهر ﴿رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ﴾ بتجليه ﴿دَكًّا﴾ مدكوكا متلاشيا في الجو أو سائحا ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ ميتا أو مغشيا عليه من هول ما رأى ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ رجعت إليك مما اقترحته عليك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك لا ترى، هذا ظاهر ألفاظ الآية.

ب. والذي يعطيه التدبر فيها أن حديث الرؤية والنظر الذي وقع في الآية إذا عرضناه على الفهم العامي المتعارف حمله على رؤية العين ونظر الأبصار، ولا نشك ولن نشك أن الرؤية والإبصار يحتاج إلى عمل طبيعي في جهاز الأبصار يهيئ للباصر صورة مماثلة لصورة الجسم المبصر في شكله ولونه، وبالجملة هذا الذي نسميه الإبصار الطبيعي يحتاج إلى مادة جسمية في المبصر والباصر جميعا، وهذا لا شك فيه، والتعليم القرآني يعطي إعطاء ضروريا أن الله تعالى لا يماثله شيء بوجه من الوجوه البتة فليس بجسم ولا جسماني، ولا يحيط به مكان ولا زمان، ولا تحويه جهة ولا توجد صورة مماثلة أو مشابهة له بوجه من الوجوه في خارج ولا ذهن البتة، وما هذا شأنه لا يتعلق به الإبصار بالمعنى الذي نجده من أنفسنا البتة، ولا تنطبق عليه صورة ذهنية لا في الدنيا ولا في الآخرة ضرورة، ولا أن موسى ذاك النبي العظيم أحد الخمسة أولي العزم وسادة الأنبياء عليه السلام ممن يليق بمقامه الرفيع وموقفه الخطير أن يجهل ذلك، ولا أن يمني نفسه بأن الله سبحانه أن يقوي بصر الإنسان على أن يراه ويشاهده سبحانه منزها عن وصمة الحركة والزمان، والجهة والمكان، وألواث المادة الجسمية وأعراضها فإنه قول أشبه بغير الجد منه بالجد فما محصل القول: أن من الجائز في قدرة الله أن يقوي سببا ماديا أن يعلق عمله الطبيعي المادي، مع حفظ حقيقة السبب وهوية أثره، بأمر هو خارج عن المادة وآثارها متعال عن القدر والنهاية؟ فهذا الإبصار الذي عندنا وهو خاصة مادية من المستحيل أن يتعلق بها لا أثر عنده من المادة الجسمية وخواصها فإن كان موسى يسأل الرؤية فإنما سأل غير هذه الرؤية البصرية، وبالملازمة ما ينفيه الله سبحانه في جوابه فإنما ينفي غير هذه الرؤية البصرية فأما هي فبديهية الانتفاء لم يتعلق بها سؤال ولا جواب.

ج. وقد أطلق الله الرؤية وما يقرب منها معنى في موارد من كلامه وأثبتها كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]، وقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ الله فَإِنَّ أَجَلَ الله لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[فصلت: ٥٤، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المثبتة للرؤية وما في معناه قبال الآيات النافية لها كما في هذه الآية: ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾، وقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وغير ذلك.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الرؤية واللقاء في القرآن، وتفسير قصة تجلي الله للجبل وموسى عليه السلام]، خلاصته:

أ. بيان أن الرؤية في القرآن نوعان: رؤية حسية بصرية، ورؤية قلبية شعورية وهي العلم الضروري الذي يجد فيه الإنسان المعلوم بنفسه بلا حجاب.

ب. إثبات أن قوله: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ نفي مؤبد للرؤية الحسية في الدنيا، وأن المراد بالرؤية المسئولة من موسى عليه السلام هي الرؤية القلبية الشعورية التي لا تتم في الدنيا لكثرة الشواغل.

ج. توضيح أن تجلي الله للجبل لم يكن رؤية حسية، بل كان إشهاداً لموسى بعدم استطاعته رؤية الله في الدنيا، حيث دك الجبل وتلاشى.

د. بيان أن صعق موسى عليه السلام لم يكن من هول اندكاك الجبل، بل مما تمثل له من معنى ما سأله وعظمة القهر الإلهي الذي أشرف أن يشاهده.

هـ. توضيح أن قوله: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣)﴾ توبة عن سؤال ما لا يطاق، وإقرار بأن الله لا يُرى في الدنيا.

و. بيان أن العلم الحضوري بالله هو من نعم القرآن التي كشف عنها، ولم تكن معروفة في الكتب السابقة ولا في الفلسفات القديمة.

٥. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى رؤية القلب والمعرفة بالله في كلام أئمة أهل البيت عليهم السلام]، خلاصته:

أ. بيان أن رؤية القلب هي المعرفة الحضورية بالله، وهي غير الرؤية البصرية الحسية وغير المعرفة

الفكرية الاستدلالية.

ب. إثبات أن الله سبحانه معروف عند كل جاهل، وأن المعرفة به ضرورية لا تزول بالغفلة، وإنما الغفلة عن العلم بالعلم لا عن أصل العلم.

ج. توضيح أن الحجاب بين الله وخلقه هو الخلق نفسه، وأن الالتفات إلى الأشياء هو العائق عن مشاهدة الله.

د. بيان أن قول أمير المؤمنين عليه السلام: (ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله) يدل على أن معرفة الله سابقة على معرفة كل شيء.

هـ. توضيح أن من زعم أنه يعرف الله بحجاب أو صورة أو مثال فهو مشرك، لأن ذلك يثبت واسطة بين الخالق والمخلوق.

و. إثبات أن المعرفة بالله لا تكون إلا بالله، وأن من لم يعرفه به فليس يعرفه، إنما يعرف غيره.

٦. وضع هنا مبحثا حول [معنى رؤية القلب والمعرفة الإلهية في الروايات]، خلاصته:

أ. الرؤية القلبية لله ثابتة وهي غير الرؤية البصرية الحسية، وغير الاعتقاد والإيمان المكتسب بالدليل، بل هي نيل الشيء بالمشاهدة العلمية من غير طريق الاستدلال الفكري.

ب. الله سبحانه معروف عند كل جاهل، وهذه المعرفة ضرورية لكل مدرك، ولا تزول بزوال صورة الدليل عن الذهن، وهي غير المعرفة الحاصلة من طريق الاستدلال.

ج. ليس بين الله وخلقه حجاب غير خلقه، فالالتفات إلى الأشياء هو العائق عن الالتفات إلى مشاهدته تعالى، وهذا الحاجب غير مانع حقيقة، فهو حجاب غير حاجب وستر غير ساتر.

د. الله سبحانه مشهود لخلقه معروف لهم، غير غائب عنهم، لكن اشتغالهم بأنفسهم حجبهم عن التنبه على أنهم يشهدونه دائماً، فالعلم موجود أبداً، والعلم بالعلم مفقود في بعض الأحيان.

هـ. معرفة الله لا تحصل بشيء آخر غير نفسه، فلو عُرف بشيء كان ذلك الشيء هو نفسه بعينه، وإن لم يعرف بنفسه لم يعرف بشيء آخر أبداً، فمن زعم أنه يعرفه بحجاب أو صورة أو مثال فهو مشرك.

و. الله سبحانه معروف بذاته، أي أن ذاته المتعالية والمعروفية شيء واحد، فمن المستحيل أن يكون مجهولاً لأن ثبوت ذاته عين ثبوت معروفيته.

ز. لا تدرك معرفة الله إلا بالله، ولا يدرك مخلوق شيئاً إلا بالله، فالله هو المعلوم أولاً ويعلم به المعلوم ثانياً، كما أنه هو العالم أولاً وبه يكون الشيء عالماً ثانياً.

٧. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: أخرج البزاز وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الأسماء والصفات عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: لما كلم الله موسى يوم الطور، كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه، فقال له موسى: يا رب أهذا كلامك الذي كلمتني به؟ قال يا موسى إنما كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان، ولي قوة الألسن كلها وأقوى من ذلك، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل قالوا: يا موسى صف لنا كلام الرحمن فقال: لا تستطيعونه ألم تروا إلى أصوات الصواعق، الذي يقبل في أحلى حلاوة سمعتموه؟ فذاك قريب منه وليس به.

• أقول: أما ذيل الرواية فهو تمثيل للتقريب وليس به بأس، وأما صدره ففيه خفاء ولعل المراد بقوة عشرة آلاف لسان ما في العشرة آلاف من قوة التفهيم لو تأيد بعضها ببعض فإن ألسن الناس مختلفة في قوة التفهيم فالمراد أن ذلك يعادل من حيث إعطاء التفهيم والكشف عن المراد عشرة آلاف لسان لو جمع بعضها مع بعض، وعلى هذا يكون المراد بالمغايرة في قوله: (كلمه بغير الكلام الذي كلمه يوم ناداه) التفاوت من حيث كيفية التفهيم.

ب. وفي المعاني، بإسناده عن هشام قال: كنت عند الصادق جعفر بن محمد ﷺ، إذ دخل عليه معاوية بن وهب وعبد الملك بن أعين، فقال له معاوية بن وهب: يا ابن رسول الله ما تقول في الخبر المروي: أن رسول ﷺ رأى ربه؟ على أي صورة رآه؟ وفي الخبر الذي رواه أن المؤمنين يرون ربهم في الجنة؟ على أي صورة يرونه؟ فتبسم ثم قال: يا معاوية ما أقبح بالرجل، يأتي عليه سبعون سنة وثمانون سنة، يعيش في ملك الله ويأكل من نعمه، ثم لا يعرف الله حق معرفته، ثم قال يا معاوية إن محمدا ﷺ لم ير الرب تبارك وتعالى، بمشاهدة العيان، وإن الرؤية على وجهين: رؤية القلب ورؤية البصر، فمن عنى برؤية القلب فهو مصيب، ومن عنى برؤية البصر فقد كذب وكفر بالله وآياته، لقول رسول الله ﷺ: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ولقد حدثني أبي عن أبيه عن الحسين بن علي عليه السلام قال سئل أمير المؤمنين عليه السلام فقيل له: يا أخا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: لم أعبد ربا لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن تراه

القلوب بحقائق الإيمان وإذا كان المؤمن يرى ربه بمشاهدة البصر، فإن كل من جاز عليه البصر والرؤية فهو مخلوق، ولا بد للمخلوق من خالق فقد جعلته إذا محدثا مخلوقا، ومن شبهه بخلقه فقد اتخذ مع الله شريكا، ويلهم ألم يسمعوا لقول الله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقوله لموسى: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ وإنما طلع من نوره على الجبل، كضوء يخرج من سم الخياط فدكدكت الأرض، وصعقت الجبال، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أي ميتا ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ ورد عليه روحه ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من قول من زعم أنك ترى ورجعت إلى معرفتي بك: أن الأبصار لا تدركك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنك ترى ولا ترى وأنت بالمنظر الأعلى (الحديث)

ج. وفي التوحيد، بإسناده عن علي عليه السلام في حديث: وسأل موسى وجرى على لسانه من حمد الله عز وجل: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فكانت مسألته تلك أمرا عظيما، وسأل أمرا جسيما فعوتب فقال الله عز وجل: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ في الدنيا حتى تموت وتراني في الآخرة، ولكن إن أردت أن تراني فـ ﴿انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فأبدى الله بعض آياته وتجلى ربنا للجبل، فتقطع الجبل فصار رميما ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ ثم أحياه الله وبعثه فقال: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني أول من آمن بك منهم بأنه لا يراك.

• أقول: الروايتان، كما ترى، تؤيدان ما تقدم في البيان السابق، ويتحصل منهما:

● أولا: أن السؤال إنما كان عن رؤية القلب دون رؤية البصر المستحيل عليه تعالى بأي وجه تصور، وحاشا مقام الكليم عليه السلام أن يجهل من ساحة ربه المنزهة ما هو من البداهة على مكان وهو يسمي القوم الذين اختارهم للميقات سفهاء إذ سألوا الرؤية إذ يقول لربه: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فكيف يقدم هو نفسه على ما سماه سفهاء؟ وقد كان النزاع والمشاجرة في الصدر الأول وخاصة في زمان الصادقين إلى زمان الرضا عليه السلام في المسألة بالغا أوج شدته ينكرها المعتزلة مطلقا ويثبتها الأشاعرة في الآخرة وهناك طائفة أخرى تثبتها في الدنيا والآخرة جميعا، والفريقان جميعا يستدلان بالآية ولم تزل المنازعة قائمة على ساقها لم تنقطع ظاهرا إلا بسيوف آل أيوب التي أبادت المعتزلة وألحقت طالعهم بغاربهم، وجملة احتجاج المعتزلة، أنهم كانوا يستدلون بقوله في الآية: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ وبسائر ما ينفي

الرؤية البصرية من طريق العقل والنقل، ويأولون ما يدل على جوازها من الآيات والروايات، وجملة احتجاج الأشاعرة أنهم كانوا يستدلون بالتنظير الواقع في الآية بقوله: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ الآية وبما في غيرها من الآيات وبعض الروايات من جوازها في الآخرة، ويأولون ما عدا ذلك على ما هو شأن الأبحاث الكلامية عندهم وربما استدلّ لذلك بأنه لا دليل على وجوب انحصار الرؤية البصرية في الجسمانيات فمن الجائز أن يتعلق بغير الأمور المادية، وبأن الإبصار يتعلق بالجوهر والعرض، ولا جامع بينهما إلا الموجود المطلق فكل موجود يمكن أن يتعلق به الإبصار وإن لم يكن جسما أو جسمانيا، وقد اتضح بطلان هاتين الحجتين وما يسانخهما من الحجج والأقاويل في هذه الأزمنة اتضاحا كاد يلحق بالبديهيات، وعلى أي حال لا يهمنا إيراد ما أوردوه من الجانبين من نقض وإبرام فمن أراد الوقوف عليها أمكنه أن يراجع الكتب الكلامية ومطولات تفاسير الفريقين، وعلى أي حال لا يهمنا إيراد ما أوردوه من الجانبين من نقض وإبرام فمن أراد الوقوف عليها أمكنه أن يراجع الكتب الكلامية ومطولات تفاسير الفريقين.

- والذي تحصل من سابق بحثنا:

- أولا، أن الرؤية البصرية سواء كانت على هذه الصفة التي هي عليها اليوم أو تحولت إلى أي صفة أخرى هي معها مادية طبيعية متعلقة بقدر وشكل ولون وضوء تعملها أداة مادية طبيعية فإنها مستحيلة التعلق بالله سبحانه في الدنيا والآخرة، وعليه يدل البرهان وما ورد من الآيات والروايات في نفي الرؤية، نعم هناك علم ضروري خاص يتعلق به تعالى غير العلم الضروري الحاصل بالاستدلال تسمى رؤية، وإياه تعني الآيات والروايات الظاهرة في إثبات الرؤية لما فيها من القرائن الكثيرة الصريحة في ذلك، وموطن هذه المعرفة الآخرة.

- ثانيا، أن قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ الآية أجنبية أصلا عن الرؤية البصرية الحسية إثباتا ونفيا وسؤالا وجوابا، وإنما يدور الكلام فيها مدار الرؤية بالمعنى الآخر الذي هو رؤية القلب بحسب ما اصطلح عليه في الروايات، وقد روى الصدوق في العيون: فيما سأله المأمون عن الرضا عليه السلام، أنه أجاب عن سؤال الرؤية في الآية، أن موسى إنما سأل ذلك عن لسان قومه لا لنفسه، فإنهم لما قالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة، ثم أحياهم الله سألوا موسى أن يسأله لنفسه، فرد عليهم بالاستحالة فأصروا

عليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ أي على ما يقترحه على قومي، والرواية كما أشرنا إليه في أخبار جنة آدم ضعيفة السند على أنها لا توافق الأصول المسلمة في أخبار أئمة أهل البيت عليه السلام فإن أخبارهم وخاصة خطب علي والرضا عليه السلام مملوءة من حديث التجلي والرؤية القلبية فلا موجب له عليه السلام أن يلتزم كون الرؤية المذكورة في الآية سؤالا وجوابا هي الرؤية البصرية ثم الجواب بطريق جدلي لا ينطبق كثير انطباق على الآية لكونه خلاف ظاهرها البتة، وخلاف ظاهر حال موسى فإنهم لو اقترحوا عليه ذلك لرد عليهم كما رد عليهم بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ حين قالوا: ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾

- وثانيا: يتحصل من الروايتين أن موسى عليه السلام ما أجيب إلى الرؤية بالمعنى المذكور في الدنيا، وإنما أجيب إليها في الآخرة، والظاهر أنه يستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ فإن الاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ إن الذي فرض في الجبل هو بعينه مثل ما فرض في موسى فهو لا يطيق الظهور والإرادة كما أن ذاك لا يطيقه، وقد وقع التجلي للجبل فدك به وصعق ولو وقع لموسى أيضا لدك به وصعق فالتجلي في نفسه ممكن لكنه بالنسبة إلى المتجلى له يوجب اندكاكه وصعقته، وهذا يشعر أن التجلي لا مانع منه في نفسه مع الصعقة والموت، وقد استفاضت الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى يتجلى لأهل الجنة، وإن لهم في كل جمعة زورة كما وقع ذلك في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]

- وثالثا تحصل من الروايتين: أن صعقة موسى عليه السلام كانت موتا ثم رد الله إليه روحه لا غشية.

- ورابعا: أن ما ذكره عليه السلام أنه تجلى له من نوره مقدار ما يخرج من سم الخياط من النور من قبيل تمثيل المعنى بالأمور المحسوسة فلا نوره تعالى نور حسي، ولا أنه يتقدر بأمر حسي كسم الخياط، ولذلك مثل ذلك في غير هذه الرواية بوضع طرف الإبهام على أنملة الخنصر كما سيأتي، والغرض على أي تقدير بيان صغره وحقارته.

- وعلى أي حال فالتجلي إنما هو بما يكفي لدكه وصعقته، وأما كمال نوره تعالى فهو غير متناه لا يحاذيه أي أمر متناه مفروض فلا نسبة بين المتناهي وغير المتناهي.

د. أخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي في الكامل وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في كتاب الرؤية من طرق عن أنس بن مالك: أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ قال هكذا وأشار بإصبعيه، ووضع طرف إبهامه على أنملة الخنصر، وفي لفظ: على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل وخر موسى صعقا، وفي لفظ: فساخ الجبل في الأرض، فهو يهوي فيها إلى يوم القيامة.

• أقول: ووقع في أحاديث أئمة أهل البيت عليه السلام أن الجبل دك فصار رميما، وفي بعضها أنه ساخ في البحر فهو يهوي حتى الساعة، وفي بعضها: إلى هذه الساعة، والمحصل من تفسير بعضها ببعض أنه صار رميما نزل البحر فلا يرى منه أثر أبدا وينبغي أن يكون هذا معنى قوله: فساخ الجبل في الأرض أو في البحر فهو يسخ إلى يوم القيامة أو إلى الساعة.

هـ. وفيه: أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ قال: قال الله عز وجل يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده ولا رطب إلا تفرق، وإنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم، ولا تبلى أجسادهم.

• أقول: والرواية نظيرة ما تقدم من رواية التوحيد عن علي عليه السلام وتقدم توضيح معناها.

و. وفي تفسير العياشي، عن أبي بصير، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام قال لما سأل موسى ربه تبارك وتعالى، ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ قال فلما صعد موسى على الجبل فتحت أبواب السماء، وأقبلت الملائكة أفواجا في أيديهم العمد، وفي رأسها النور يمرون به فوجا بعد فوج، يقولون: يا ابن عمران اثبت فقد سألت عظيما، قال فلم يزل موسى واقفا حتى تجلى ربنا جل جلاله، فجعل الجبل دكا وخر موسى صعقا، فلما أن رد الله عليه روحه أفاق ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ز. وفيه، أيضا عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن موسى بن عمران لما سأل ربه النظر إليه، وعد الله أن يقعد في موضع، ثم أمر الملائكة تمر عليه موكبا موكبا، بالرعد والبرق والريح والصواعق، فكلما مر به موكب من المواكب ارتعدت فرائصه، فيرفع رأسه فيسأل: أيكم ربي؟ فيجاب هو آت وقد سألت عظيما يا ابن عمران.

• أقول: والرواية موضوعة، وما تشمل عليه لا يقبل الانطباق على شيء من مسلمات الأصول المتخذة من الكتاب والسنة.

ح. وفي البصائر، بإسناده عن أبي محمد عبد الله بن أبي عبد الله الفارسي وغيره فرفعوه إلى أبي عبد الله عليه السلام: أن الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأول: جعلهم الله خلف العرش، لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم، ثم قال إن موسى عليه السلام لما سأل ربه ما سأل، أمر واحدا من الكروبيين تجلى للجبل فجعله دكا.

• أقول: محصل الرواية أن تجليه سبحانه يقبل الوسائط كما أن سائر الأمور المنسوبة إليه تعالى كالتوفي والإحياء والرزق والوحي وغيرها يقبل الوسائط فهو تعالى يتجلى بالوسائط كما يتوفى بملك الموت، ويحيي بصاحب الصور، ويرزق بميكائيل، ويوحي بجبرئيل الروح الأمين، وسيوافيك شرح الرواية في موضع مناسب له إن شاء الله، وللكروبيين ذكر في التوراة.

ط. أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لما تجلى الله لموسى تطايرت سبعة أجبال، ففي الحجاز منها خمسة، وفي اليمن اثنان: في الحجاز أحد وثبير وحراء وثور وورقان، وفي اليمن حصور وصير.

• أقول: وروي في تقطع الجبل غير ذلك، وهذه الروايات على ما فيها من الاختلاف في عدد الجبال المتطايرة إن كان المراد بها تفسير دك الجبل لم ينطبق على الآية، وإن أريد غير ذلك فهو وإن كان ممكن الوقوع غير أنه لا يكفي لإثباته أمثال هذه الآحاد.

ي. وكذا ما ورد من طرق الشيعة وأهل السنة أن ألواح التوراة كانت من زبرجد، وفي بعضها من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ: إن الألواح التي أنزلت على موسى، كانت من سدر الجنة كان طول اللوح اثني عشر ذراعا، وفي بعضها: كتب الله الألواح لموسى وهو يسمع صريف الأقلام في الألواح، وفي بعض أخبارنا أن هذه الألواح مدفونة في جبل من جبال اليمن، أو التقمها حجر هناك فهي محفوظة في بطنه إلى غير ذلك من آحاد الأخبار غير المؤيدة بقرائن قطعية، على أن البحث التفسيري لا يتوقف على الغور في البحث عنها.

٥٣. اصطفاء موسى والتوراة:

المقطع [٥٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤ـ١٤٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٤٤»:

١. ﴿قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

أ. المراد بالاصطفاء الاختيار على وجه التصفية، ولذلك عدي إلى الناس بعلى، والمراد بالرسالات هو ما حمل من الأوامر والنواهي الإلهية من المعارف والحكم والشرائع ليبلغه الناس سواء كان التحميل بواسطة ملك أو بتكليم بلا واسطة ملك فهي غير الكلام وإن حملت بكلام فإن الكلام أمر، والمعاني التي يتلقاها السامع منه أمر آخر.

ب. والمراد بالكلام هو ما شافه به الله سبحانه من غير واسطة ملك وبعبارة أخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب، وأما أن يكون من نوع الكلام الدائر بيننا معاشر الإنسان فلا فإن الكلام عندنا هو أنا نصطلح ونتعهد فيما بيننا على تخصيص صوت مخصوص من الأصوات لمعنى من المعاني لينتقل ذهن السامع إلى ذلك المعنى ثم نتوسل عند إرادة تفهيمه إلى إيجاد تموج خاص في الهواء يبتدي منا وينتهي إلى السامع لننقل به ما في ضميرنا إلى ضمير السامع المخاطب والتكلم بهذا الوجه يستلزم التجسم في المتكلم والله سبحانه منزه عنه، ومجرد إيجاد الصوت وتمويج الهواء بإيجاد أسباب الصوت في مكان لا يدل على كون المعاني التي ينتقل إليها الذهن مقصودة لله سبحانه ما لم تكشف الإرادة بأمر آخر وراء نفس الصوت كما أن من أوجد منا بدق أو ضرب أو نحوهما صوتا يدل على معنى لم نحكم بإرادته ذلك ما لم يكشف من حاله أو مقاله قبلا أنه قاصد لمعنى ما يوجده من الأصوات.

ج. وما كلم به الله سبحانه موسى عليه السلام مما حكاه القرآن الشريف خال عن سؤال الدليل على كونه كلامه، وعلى كونه تعالى مريدا لمعناه فلم يسأل موسى ربه حين سمع النداء من جانب الطور الأيمن من الشجرة: هل هذا منك يا رب؟ وهل أنت مريد معناه؟ بل أيقن بذلك إيقانا، ونظير الكلام جار في سائر أقسام الوحي غير الكلام.

د. وهذا يكشف كشفا قطعيا عن ارتباط خاص من السامع بإرادة مصدر الكلام والوحي يوجب الانتقال إلى المعنى المقصود وإلا فمجرد صدور صوت له معنى مفهوم في اللغة منه تعالى لا يستلزم صحة الانتساب إليه تعالى ولا كونه كلامه كيف؟ وجميع الألفاظ الصادرة من المتكلمين بها أنها أصوات تنتهي إليه تعالى وليست كلاما له تعالى بل المتكلم بها غيره، وكثيرا ما يحدث من تصادم الأجسام المختلفة أصوات ذوات معان في اللغة ولا نعده كلاما له تعالى.

هـ. وبالجملة تكليمه تعالى هو إيجاده اتصالا وارتباطا خاصا بين مخاطبه وبين الغيب ينتقل به بمشاهدة بعض مخلوقاته إلى معنى مراد، ولا نمنع مقارنة ذلك بأصوات يوجدها الله تعالى في خارج أو سمع أو غير ذلك، وقد تقدم بعض الكلام في الكلام فيما تقدم، وسيأتي منه تتمة في تفسير سورة الشورى إن شاء الله تعالى.

و. وكيف كان فقوله تعالى: ﴿قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ الآية، وارد في مورد الامتنان وموعظة لموسى عليه السلام أن يكتفي بما اصطفاه الله به من رسالاته وكلامه ويشكره ولا يستزيد.

٢. ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الآية:

أ. اللوح صحيفة معدة للكتابة فيه لأنه يلوح ويظهر بما فيه من الخط وأصله من لاح البرق إذا لمع.

ب. ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من فيه للتبعيض كما يؤيده السياق اللاحق، وقوله: ﴿مَوْعِظَةً﴾ الظاهر أنه بيان لكل شيء ويعطف عليه قوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ وتنكير قوله: ﴿تَفْصِيلًا﴾ لإفادة الإبهام والتبعيض، ويئول المعنى إلى مثل قولنا: وكتبنا لموسى في الألواح وهي التوراة النازلة مختارات من كل شيء ونعني بذلك أنا كتبنا له موعظة وتفصيلا ما وتشريحا ما لكل شيء حسب ما يحتاج إليها قومه في الاعتقاد والعمل، ففي الكلام دلالة على أن التوراة لم تستكمل جميع ما تمس به حاجة البشر من المعارف والشرائع، وهو كذلك كما يدل عليه أيضا قوله تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقد تقدم تفسيره.

٣. ﴿فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها﴾ عطف تفريع على قوله: ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ﴾ الآية لأنه مشعر بمعنى القول، والتقدير: وقلنا إنا كتبنا لك في الألواح من كل شيء فخذها بقوة، والأخذ بالقوة كناية عن الأخذ بالجد والحزم فإن من يجد ويحزم في أمر يستعمل ما عنده من القوة فيه حذرا أن

يفوته فالأخذ بالقوة لازم الأخذ بالجد والحزم كنى به عنه.

٤. ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ الظاهر أن الضمير في ﴿بِأَحْسَنِهَا﴾ راجع إلى الأشياء المدلول عليها بقوله قبلا: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المواعظ وتفاصيل الآداب والشرائع والأخذ بالأحسن كناية عن ملازمة الحسن في الأمور واتباعه واختياره فإن من يهم بأمر الحسن في الأمور إذا وجد سيئا وحسنا اختار الحسن الجميل، وإذا وجد حسنا وأحسن منه اضطره حب الجمال إلى اختيار الأحسن وتقديمه على الحسن فالأخذ بأحسن الأمور لازم حب الجمال وملازمة الحسن فكنى به عنه، والمعنى: وأمر قومك يجتنبوا السيئات ويلازموا ما تهدي إليه التوراة من الحسنات، ونظير الآية في التكنية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]

٥. ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء الفاسقين هم الذين يفسقون بعدم ائتمار قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ على ما تقدم من معناه من ملازمة طريق الإحسان في الأمور واتباع الحق والرشد فإن من فسق عن الطريق صرفه الله عن الصراط المستقيم إلى تتبع السيئات والميل عن الرشد إلى الغي كما يفصله في الآية التالية فكانت عاقبة أمره خسرانا وآل أمره إلى الهلاك.

ب. وعلى هذا فما في الآية التالية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ الآية تفسير أو كالتفسير لقوله: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ وقيل المراد بدار الفاسقين جهنم، وفي الكلام تهديد وتحذير، وقيل المراد بها منازل فرعون وقومه بمصر، وقيل: منازل عاد وثمود، وقيل المراد دار العمالقة وغيرهم بالشام وأن الله سيدخلهم فيها فيرونها، وقيل: المراد سيجيئكم قوم فساق تكون الدولة لهم عليكم.

٥٤. الله يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض:

المقطع [٥٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٦-١٤٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٤٧»:

١. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾:

أ. الآية تقييد التكبر في الأرض بغير الحق مع أن التكبر فيها لا يكون إلا بغير الحق كتقييد البغي في الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز ويراد به الدلالة على وجه الذم في العمل وأن التكبر كالبغي مذموم لكونه بغير الحق، وأما ما قيل: إن القيد احترازي للدلالة على أن المراد هو التكبر المذموم دون التكبر الممدوح كالتكبر على أعداء الله والتكبر على المتكبر وهو تكبر بالحق ففيه أن المذكور في الآية ليس مطلق التكبر بل التكبر في الأرض، وهو الاستعلاء على عباد الله واستذلالهم والتغلب عليهم، وهذا لا يكون إلا بغير الحق.

ب. ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ عطف على قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ وبيان لأحد أوصافهم وهو الإصرار على الكفر والتكذيب.

ج. وكذا قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الآية وتكرار الجملتين المثبتة والمنفية بجميع خصوصياتها للدلالة على اعتنائهم الشديد ومراقبتهم الدقيقة على مخالفة سبيل الرشد واتباع سبيل الغي بحيث لا يعذرون بخطإ ولا يحتمل في حقهم جهل أو اشتباه.

٢. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ إلى آخر الآية تعليل لما تحقق فيهم من رذائل الصفات أي إنها جروا على ما جروا بسبب تكذيبهم لآياتنا وغفلتهم عنها، ومن المحتمل أن يكون تعليلا لقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾

٣. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾:

أ. معنى الآية ظاهر ويتحصل منها:

- أولا: أن الجزاء هو نفس العمل وقد تقدم توضيحه كرارا في أبحاثنا السابقة.
- وثانيا: أن الحبط من الجزاء فإن الجزاء بالعمل وإذا كان العمل حابطا فإحباطه هو الجزاء، والحبط إنما يتعلق بالأعمال التي فيها جهة حسن فتكون نتيجة إحباط الحسنات ممن له حسنات وسيئات أن يجزى بسيئاته جزاء سيئا ويجزى بحسناته بإحباطها فيتمحض له الجزاء السيئ.

ب. ويمكن أن تنزل الآية على معنى آخر وهو أن يكون المراد بالجزاء، الجزاء الحسن وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كناية عن أنهم لا يثابون بشيء إذ لا عمل من الأعمال الصالحة عندهم لمكان

الحبط قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، والدليل على كون المراد بالجزاء هو الثواب أن هذا الجزاء هو جزاء الأعمال المذكورة في الآية قبلا، والمراد بها بقرينة ذكر الحبط هي الأعمال الصالحة.

ج. ومن هنا يظهر فساد ما استدلّ به بعضهم بالآية على أن تارك الواجب من غير أن يشتغل بضده لا عقاب له لأنه لم يعمل عملا حتى يعاقب عليه وقد قال تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وجه الفساد أن المراد بالجزاء في الآية الثواب والمعنى أنهم لا ثواب لهم في الآخرة لأنهم لم يأتوا بحسنة ولم يعملوا عملا يثابون عليها.

د. على أن ثبوت العقاب على مجرد ترك الأوامر الإلهية مع الغض عما يشتغل به من الأعمال المضادة كالضروري من كلامه تعالى قال الله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

٥٥. بنو إسرائيل يعبدون العجل بعد ذهاب موسى:

المقطع [٥٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٤٩»:

١. ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الحلي على فعول جمع حلي كالثدي جمع ثدي، وهو ما يتحلى ويتزين به من ذهب أو فضة أو نحوهما، والعجل ولد البقرة، والخوار صوت البقرة خاصة، وفي قوله تعالى: ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾، وهو بيان للعجل، دلالة على أنه كان غير ذي حياة وإنما وجدوا عنده خوارا كخوار البقر.

ب. والآية وما بعده تذكر قصة عبادة بني إسرائيل العجل بعد ما ذهب موسى إلى ميقات ربه واستبطئوا رجوعه إليهم، فكادهم السامري وأخذ من حليهم فصاغ لهم عجلا من ذهب له خوار كخوار العجل وذكر لهم أنه إلههم وإله موسى فسجدوا له واتخذوه إلها، وقد فصل الله سبحانه القصة في سورة طه تفصيلا، والذي ذكره في هذه الآيات من هذه السورة لا يستغني عما هناك، وهو يؤيد نزول سورة طه قبل

سورة الأعراف.

ج. وكيف كان فقوله: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ معناه اتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه قبل أن يرجع، فإنه سيذكر رجوعه إليهم غضبان، عجلا فعبدوه، وكان هذا العجل الذي اتخذوه ﴿جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ ثم ذمهم الله سبحانه بأنهم لم يعبئوا بما هو ظاهر جلي بين عند العقل في أول نظرته أنه لو كان هو الله سبحانه لكلمهم ولهداهم السبيل فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

د. وإنما ذكر من صفاته المنافية للألوهية عدم تكليمه إياهم وعدم هدايته لهم وسكت عن سائر ما فيه كالجسمية وكونه مصنوعا ومحدودا ذا مكان وزمان وشكل إلى غير ذلك مع أن الجميع ينافي الألوهية لأن هاتين الصفتين أعني التكليم والهداية من أوضح ما تستلزمه الألوهية من الصفات عند من يتخذ شيئا إلها إذ من الواجب أن يعبده بما يرتضيه ويسلك إليه من طريق يوصل إليه، ولا يعلم ذلك إلا من قبل الإله بوجه فهو الذي يجب أن يهديه إلى طريق عبادته بنوع من التكليم والتفهيم، وقد رأوا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، على أنهم عهدوا من موسى أن الله سبحانه يكلمه ويهديه، ويكلمهم ويهديهم بواسطته، وقد قالوا حين أخرج السامري لهم العجل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، فلو كان العجل هو الذي أومأ إليه السامري لكلمهم وهداهم سبيلا.

هـ. وبالجملة فقد كان من الواضح البين عند عقولهم لو عقلوا أنه ليس هو، ولذلك أردفه بقوله: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ كأنه قيل: فلم اتخذوه وأمره بذاك الوضوح، فقيل: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾

٢. ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال في المجمع: (معنى ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ وقع البلاء في أيديهم أي وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عندما يجده مما كان خفي عليه، ويقال: سقط في يده، وأسقط في يده وبغير ألف أفصح، وقيل: معناه صار الذي يضر به ملقى في يده)

ب. وقد ذكر في مطولات التفاسير وجوه كثيرة توجه بها هذه الجملة، جلها أو كلها لا تخلو من تعسف، وأقرب الوجوه ما نقلناه عن المجمع، منقولا عن بعضهم فإن ظاهر سياق الآية أن المراد بقوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ إنهم لما التفتوا إلى ما فعلوه وأجالوا النظر فيه دقيقا ثانيا ورأوا

عند ذلك أنهم قد ضلوا قالوا: كذا وكذا فالجملة تفيد معنى التنبه لما ذهلوا عنه والتبصر بما أغفلوه كأنهم عملوا شيئا فقدموه إلى ما عملوا له فرده إليهم ورمى به نحوهم فتناولوه بأيديهم فسقط فيها فرأوا من قريب أنهم ضلوا فيما زعموا، وأهملوا فيه أمرا ما كان لهم أن يهملوه، وفات منهم ما فسد بفوته ما عملوه، وعلى أي حال تجري الجملة مجرى المثل السائر.

ج. والآية أعني قوله: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ﴾ بحسب المعنى مترتب على الآيات التالية فإنهم إنما تبينوا ضلالهم بعد رجوع موسى إليهم كما تفصل ذلك سورة طه لكنه سبحانه كأنه قدم الآية لأنها مشتملة على حديث ندامتهم على ما صنعوا وتحسرهم مما فات منهم، وقد أظهروا ذلك بقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ والأحرى بالندامة والحسرة أن يذكرا مع ما تعلقنا به من غير فصل طويل، ولذا لما ذكر اتخاذهم العجل في الآية الأولى: وصله بندامتهم وحسرتهم في الآية الثانية، ولأن ذيل حديث رجوع موسى في الآية التالية مشغول بدعائه لنفسه وأخيه ففصل بينه وبين هذا الذي هو صورة دعاء.

٥٦. عودة موسى غضبان إلى قومه واستغفاره:

المقطع [٥٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠-١٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٥١»:

١. ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ إلى آخر الآية:

أ. الأسف بكسر السين صفة مشبهة من الأسف وهو شدة الغضب والحزن والخلافة القيام بالأمر بعد غيره، والعجلة طلب الشيء وتحريه قبل أوانه على ما ذكره الراغب يقال: عجلت أمرا كذا أي طلبته قبل أوانه الذي له بحسب الطبع فمعنى الآية: ولما رجع موسى إلى قومه وهو في حال غضب وأسف لما أخبره الله تعالى لدى الرجوع بأن قومه ضلوا بعبادة العجل بعده فوبخهم وذمهم بما صنعوا وقال: بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وطلبتموه قبل بلوغ أجله، وهو أمر من بيده خيركم وصلاحكم

ولا يجري أمرا إلا على ما يقتضيه حكمته البالغة، ولا يؤثر فيه عجلة غيره ولا طلبه ولا رضاه إلا بما شاء، والظاهر أن المراد بأمر ربهم أمره الذي لأجله واعد موسى لميقاته، وهو نزول التوراة.

ب. وربما قيل: إن معنى ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾: أعجلتم بعبادة العجل قبل أن يأتيكم أمر من ربكم، وقيل: المعنى استعجلتم وعد الله وثوابه على عبادته فلما لم تنالوه عدلتم إلى عبادة غيره؟ وقيل: المعنى أعجلتم عما أمركم به ربكم وهو انتظار رجوع موسى حافظين لعهده فبنيتم على أن الميقات قد بلغ آخره ولم يرجع إليكم فغيرتم هذا، وما قدمناه من الوجه أنسب بالسياق.

ج. وبالجملة اشتد غضب موسى عليه السلام لما شاهد قومه ووبخهم وذمهم بقوله: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ وهو استفهام إنكاري ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ وهي ألواح التوراة ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ قابضا على شعره ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وقد قال له، فيما حكى الله في سورة طه: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؟

٢. ﴿قَالَ﴾ هارون يا ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ وإنما خاطبه بذكر أمهما دون أن يقول: يا أخي أو يا ابن أبي للترقيق وتهييج الرحمة ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ لما خالفتهم في أمر العجل ومنعتهم عن عبادته ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بحسباني كأحدهم في مخالفتك، وكان مما قال له على ما حكاه الله في سورة طه ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

٣. وظاهر سياق الآية وكذا ما في سورة طه من آيات القصة:

أ. أن موسى غضب على هارون كما غضب على بني إسرائيل غير أنه غضب عليه حسبانا منه أنه لم يبذل الجهد في مقاومة بني إسرائيل لما زعم أن الصلاح في ذلك مع أنه وصاه عند المفارقة وصية مطلقة بقوله: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذا المقدار من الاختلاف في السليقة والمشية بين نبيين معصومين لا دليل على منعه، وإنما العصمة فيما يرجع إلى حكم الله سبحانه دون ما يرجع إلى السلائق وطرق الحياة على اختلافها.

ب. وكذا ما فعله موسى بأخيه من أخذ رأسه يجره إليه كأنه مقدمة لضربه حسبانا منه إن استقل بالرأي زاعما المصلحة في ذلك وترك أمر موسى فما وقع منه إنما هو تأديب في أمر إرشادي لا عقاب في أمر مولوي وإن كان الحق في ذلك مع هارون، ولذلك لما قص عليه القصص عذره في ذلك، ودعا لنفسه

ولأخيه بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾

٤. وقد وجه قوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ بوجوه أخر:

أ. الأول: أن موسى إنما فعل ذلك مستعظما لفعلهم مفكرا فيما كان منهم كما يفعل الإنسان ذلك بنفسه عند الوجد وشدة الغضب فيقبض على لحيته ويعض على شفته فأجرى موسى أخاه هارون مجرى نفسه فصنع به ما يصنع الإنسان بنفسه عند الغضب والأسف.

ب. الثاني: أنه أراد أن يظهر ما اعتراه من الغضب على قومه لإكباره منهم ما صاروا إليه من الكفر والارتداد فصدر ذلك منه لإعلامهم عظم الحال عنده لينزجروا عن مثله في مستقبل الأحوال.

ج. الثالث: أنه إنما جره إلى نفسه ليناجيه ويستفسر حال القوم منه، ولذلك لما ذكر هارون ما ذكر، قبله منه ودعا له.

د. الرابع: أنه لما رأى أن بهارون مثل ما به من الغضب والأسف أخذ برأسه متوجعا له مسكنا لما به من القلق فكره هارون أن يظن الجهال أنه استخفاف وإهانة فأظهر براءة نفسه ودعا له أخوه وجل هذه الوجوه أو كلها لا تلائم سياق الآيات.

٥. وقوله في صدر الآية ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ يدل على أنه كان عالما بأمر ارتداد قومه من قبل، وهو كذلك فإن الله سبحانه، كما حكى في سورة طه، قال له وهو في الميقات: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾، وإنما ظهر حكم غضبه عندما شاهد قومه فاشتد عليهم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه كل ذلك فعله بعد ما رجع إليهم لا حينما أخبره بذلك ربه، وإخبار الله سبحانه أصدق من الحس لأن الحس يصدق ويكذب، والله سبحانه لا يقول إلا الحق، وذلك لأن للعلم حكما وللمشاهدة حكما آخر، والغضب هيجان القوة الدافعة للدفع أو الانتقام، ولا يتحقق مورد للدفع والانتقام بمجرد تحقق العلم لكن الحس والمشاهدة تصاحب وجود المغضوب عليه عند العصيان فيتأتى منه الدفع والانتقام بالقول والفعل، ولا يؤثر العلم قبل المشاهدة إلا حزنا وغما ونظير ذلك بالمقابلة أنك لو بشرت بقدوم من تحبه وتتوق نفسك إلى لقائه فلك عند تحقق البشرى حال وهو الفرح، وعند لقاء الحبيب حال آخر وحكم جديد، وكذا إذا شاهدت أمرا عجيبا وأنت وحدك كان حكمه التعجب، وإذا شاهدته ومعك غيرك تعجبت وضحكت، وله نظائر أخر.

٦. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الآية دعاء منه عليه السلام وقد تقدم في الكلام على المغفرة في آخر الجزء السادس من الكتاب أن المغفرة أعم موردا من المعصية.

٥٧. العجل والذلة والتوبة:

المقطع [٥٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٢-١٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٥٤»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الآية، تنكير الغضب وكذا الذلة للإشعار بعظمتهما وقد أبهم الله سبحانه ما سينالهم من غضبه وذلة الحياة فلم يبين ما هما فمن المحتمل أن تكون الإشارة بذلك إلى ما جرى عليهم بعد ذلك من تحريق العجل المعبود ونسفه في اليم وطرد السامري وقتل جمع منهم، أو أن يكون المراد به ما ضرب الله على قومهم من الذلة والمسكنة والقتل والإبادة والإسارة، ويمكن أن يكون المراد بالغضب هو عذاب الآخرة فيجمع لهم بذلك هوان الآخرة وذلة الدنيا.

٢. وكيف كان فذيل الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ بظاهره يدل على أن ذلك أعني نيل غضب الرب سبحانه وذلة الحياة الدنيا سنة جارية إلهية في المفترين على الله وهذا الذي يدل عليه الآية يهدي إليه الأبحاث العقلية أيضا كما مر مرارا.

٣. ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾:

أ. ضمير ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ الأول راجع إلى السيئات، والثاني إلى التوبة، ومعنى الآية ظاهر.

ب. والآية وإن كانت في نفسها عامة لكنها بالنظر إلى المورد بمنزلة الاستثناء من الذين اتخذوا العجل المذكورين في الآية السابقة فالتوبة إذا تحققت بحقيقة معناها في أية سيئة كانت لم يمنع من قبولها مانع كما تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ﴾ الآية[النساء: ١٧]

٤. وهذه الآية والتي قبلها معترضتان في القصة، ووجه الخطاب فيهما إلى النبي ﷺ والدليل على ذلك قوله في الآية الأولى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ وفي الآية الثانية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآية وظاهر السياق أن الكلام فيهما جار على حكاية الحال الماضية بدليل قوله: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾

٥٨. ألواح التوراة والرجفة والرحمة:

المقطع [٥٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤-١٥٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٥٤»:

١. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ الآية، الرهبة هي خوف مع تحرز: والباقي ظاهر.

٢. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ فصول أخرى من قصص بني إسرائيل يذكر فيها آيات كثيرة أنزلها الله إليهم وحباهم بها يهديهم بها إلى سبيل الحق، ويدلهم على منهج التقوى فكفروا بها وظلموا أنفسهم.

٣. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾:

أ. أي اختار من قومه فالقوم منصوب بنزع الخافض، والآية تدل على أن الله سبحانه عين لهم ميقاتا فحضره منهم سبعون رجلا اختارهم موسى من القوم، ولا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن الله سبحانه لم يبين هاهنا ما هو الغاية المقصودة من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفة ولم تأخذهم إلا لظلم عظيم ارتكبوه حتى أدى بهم إلى الهلاك بدليل قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ فيظهر من هنا أن الرجفة أهلكتهم.

ب. ويتأيد بذلك أن هذه القصة هي التي يشير سبحانه إليها بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]، وبقوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣]

ج. ومن ذلك يظهر أن المراد بالرجفة التي أخذتهم في الميقات رجفة الصاعقة لا رجفة في أبدانهم كما احتمله بعض المفسرين ولا ضير في ذلك فقد تقدم نظير التعبير في قصة قوم صالح حيث قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال فيهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾[فصلت: ١٧]

د. وفي آية النساء المنقولة آنفا إشعار بأن سؤالهم الرؤية كان مربوطا بنزول الكتاب وأن اتخاذ العجل كان بعد ذلك فكأنهم حضروا الميقات لنزول التوراة، وأنهم إنما سألوا الرؤية ليكونوا على يقين من كونها كتابا سماويا نازلا من عند الله، ويؤيد ذلك أن الظاهر أن هؤلاء المختارين كانوا مؤمنين بأصل دعوة موسى، وإنما أرادوا بقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ تعليق إيمانهم به من جهة نزول التوراة عليه على الرؤية.

هـ. وبهذا كله يتأيد أن هذه القصة جزء من قصة الميقات ونزول التوراة، وأن موسى عليه السلام لما أراد الحضور لميقات ربه ونزول التوراة اختار هؤلاء السبعين فذهبوا معه إلى الطور ولم يقنعوا بتكليم الله كليمه، وسألوا الرؤية فأخذتهم الصاعقة فماتوا ثم أحياهم الله بدعوة موسى، ثم كلم الله موسى وسأل الرؤية وكان ما كان، ومما كان اتخاذ بني إسرائيل العجل بعد غيبتهم وذهابهم لميقات الله، وقد وقع هذا المعنى في بعض الأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت عليه السلام كما سيجيء إن شاء الله.

و. وعلى أي حال العناية في هذه القصة ببيان ظلمهم ونزول العذاب عليهم ودعاء موسى لهم لا بيان كون هذه القصة جزءا من القصة السابقة لو كان جزءا، ولا مغايرتها لها لو كانت مغايرة فلا دلالة في اللفظ تنبه على شيء من ذلك.

ز. وما قيل: إن ظاهر الحال أن تكون هذه القصة مغايرة للمتقدمة إذ لا يليق بالفصاحة ذكر بعض القصة ثم النقل إلى أخرى ثم الرجوع إلى الأولى فإنه اضطراب يصان عند كلامه، على أنه لو كانت الرجفة بسبب سؤال الرؤية لقيل: أتهلكنا بما قال السفهاء منا لا بما فعل، ولم يذكر هاهنا أنهم قالوا شيئا، وليس من المعلوم أن يكون قولهم ﴿أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ صدر منهم هاهنا بل الحق أنها قصص ثلاث: قصة سؤالهم الرؤية ونزول الصاعقة، وقصة ميقات موسى وصعقته، وقصة ميقات السبعين وأخذ الرجفة، وسنوردها في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

ح. ولذلك ذكر بعضهم أن هذا الميقات غير الميقات الأول، وذلك أنهم لما عبدوا العجل أمر الله موسى أن يأتي في أناس منهم إلى الطور فيعتذروا من عبادة العجل فاختار منهم سبعين فأتوا الطور فقالوا ما قالوا فأخذتهم رجفة في أبدانهم كادت تهلكهم ثم انكشفت عنهم بدعاء موسى.

ط. وذكر بعض آخر أن هارون لما مات اتهم بنو إسرائيل موسى في أمره، وقالوا له: أنت حسدته فينا فقتلته، وأصروا على ذلك فاختار منهم سبعين وفيهم ابن هارون فأتوا قبره فكلمه موسى فبرأه هارون من قتله فقالوا: ما نقضي يا موسى ادع لنا ربك يجعلنا أنبياء فأخذتهم الرجفة فصعقوا.

ي. وذكر آخرون أن بني إسرائيل سألوا موسى الرؤية فاختار منهم السبعين فجاءوا إلى الطور فقالوا ما قالوا وأخذتهم الرجفة فهلكوا ثم أحياهم الله بدعاء موسى إلا أنها قصة مستقلة ليست بجزء من قصة موسى.

ك. وأنت خبير بأن شيئا من هذه الأقوال وبالخصوص القولان الأولان لا دليل عليه من لفظ القرآن، ولا يؤيده أثر معتبر، وتقطيع القصة الواحدة إلى قصص متعددة، والانتقال من حديث إلى آخر لتعلق عناية بذلك غير عزيز في القرآن الكريم، وليس القرآن كتاب قصة حتى يعاب بالانتقال عن قصة قبل تمامها، وإنما هو كتاب هداية ودلالة وحكمة يأخذ من القصص ما يهمه.

ل. وأما قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ﴾ وقد كان الصادر منهم قولا لا فعلا فالوجه في ذلك أن المؤاخذة إنما هو على المعصية، والمعصية تعد عملا وفعلا وإن كانت من قبيل الأقوال كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧]، فإنه شامل لقول كلمة الكفر والكذب والافتراء ونحو ذلك بلا ريب، والظاهر أنهم عذبوا بما كان يستلزمه قولهم من سوء الأدب والعناد والاستهانة بمقام ربهم، على أن ظاهر تلك الأقوال جميعا أنهم إنما عذبوا بالرجفة قبال ما قالوه دون ما فعلوه فالإشكال على تقدير وروده مشترك بين جميع الأقوال فالأقرب كون القصة جزءا من سابقتها كما تقدم.

٤. ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ تَشَاءُ﴾:

أ. يريد عليه السلام بذلك أن يسأل ربه أن يحييهم خوفا من أن يتهمه بنو إسرائيل فيخرجوا به عن الدين، ويبطل بذلك دعوته من أصلها فهذا هو الذي يبتغيه غير أن المقام والحال يمنعانه من ذلك فها هو عليه السلام واقع أمام معصية موبقة من قومه صرعتهم وغضب إلهي شديد أحاط بهم حتى أهلكهم،

ولذلك أخذ يمهد الكلام رويدا ويسترحم ربه بجمل من الثناء حتى يهيج الرحمة على الغضب، ويثير الحنان والرأفة الإلهية ثم يتخلص إلى مسألته وذكر حاجته في جو خال من موانع الإجابة.

ب. ﴿قَالَ﴾ مبتدئا باسم الربوبية المهيجة للرحمة ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ فالأمر إلى مشيتك، ولو أهلكتهم من قبل ﴿وَإِيَّايَ﴾ لم يتجه من قومي إلي تهمة في هلاكهم، ثم ذكر أنه ليس من شأن رحمته وسنة ربوبيته أن يؤاخذ قوما بفعل سفهائهم فقال في صورة الاستفهام تأدبا: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؟

ج. ثم أكد القول بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ وامتحانك ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي بالفتنة ﴿مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ أي إن هذا المورد أحد موارد امتحانك وابتلائك العام الذي تبتلي به عبادك وتجريه عليهم ليضل من ضل ويهتدي من اهتدى، وليس من سنتك أن تهلك كل من افتتن بفتنتك فانحرف عن سوي صراطك.

د. وبالجملة أنت الذي سبقت رحمتك غضبك ليس من دأبك أن تستعجل المسيئين من عبادك بالعقوبة أو تعاقبهم بما فعل سفهاؤهم، وأنت الذي أرسلتني إلى قومي ووعدتني أن تنصرني في نجاح دعوتي، وهلاك هؤلاء المصعوقين يجلب علي التهمة من قومي.

٥. ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾:

أ. شروع منه عليه السلام في الدعاء بعد ما قدمه من الثناء، وبدأه بقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ وختمه بقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ليقع ما يسأله بين صفتي ولاية الله الخاصة به، ومغفرته التي هي خير مغفرة ثم سأل حاجته بقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ لأنه خير حاجة يرتضي الله من عباده أن يسألوها عنه، ولم يصرح بخصوص حاجته التي بعثته إلى الدعاء، وهي إحياء السبعين الذين أهلكهم الله تذللا واستحياء.

ب. وحاجته هذه مندرجة في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ لا محالة فإن الله سبحانه يذكر في آية سورة البقرة أنه بعثهم بعد موتهم، ولم يكن ليحييهم بعد ما أهلكهم إلا بشفاعة موسى عليه السلام ولم يذكر من دعائه المرتبط بحالهم إلا هذا الدعاء فهو إنما سأله ذلك تلويحا بقوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ كما تقدم لا تصريحا.

٦. ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا إليك من هاد يهود إذا

رجع، وهو أعني قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تعليل لهذا الفصل من الدعاء سأل فيه أن يكتب الله أي يقضي لهم بحسنة في الدنيا وحسنة في الآخرة والمراد بالحسنة لا محالة الحياة والعيشة الحسنة فإن الرجوع إلى الله أي سلوك طريقته والتزام سبيل فطرته يهدي الإنسان إلى حياة طيبة وعيشة حسنة في الدنيا والآخرة جميعا، وهذا هو الوجه فيما ذكرنا أن قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ تعليل لهذا الفصل من دعائه فإن الحياة الطيبة من آثار الرجوع إلى الله، وهي شيء من شأنه أن يرزقوه، لو رزقوا، في مستقبل أمرهم، وهو المناسب للكتابة والقضاء، وأما الفصل الأول من الدعاء أعني قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فتكفي في تعليله الجمل السابقة عليه، وما احتف به من قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ ولا يتعلق بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ فافهم ذلك.

٧. ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾:

أ. هذا جواب منه سبحانه لموسى، وفيه محاذاة لما قدمه موسى قبل مسألته من قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾، وقد قيد الله سبحانه إصابة عذابه بقوله: ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ دون سعة رحمته لأن العذاب إنما ينشأ من اقتضاء من قبل المعذبين لا من قبله سبحانه، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧] فلا يعذب الله سبحانه باقتضاء من ربوبيته ولو كان كذلك لعذب كل أحد بل إنما يعذب بعض من تعلقت به مشيته فلا تتعلق مشيته إلا بعذاب من كفروا نعمه فالعذاب إنما هو باقتضاء من قبل المعذبين لكفرهم لا من قبله.

ب. على أن كلامه سبحانه يعطي أن العذاب إنما حقيقته فقدان الرحمة، والنقمة عدم بذل النعمة، ولا يتحقق ذلك إلا لعدم استعداد المعذب بواسطة الكفران والذنب لإفاضة النعمة عليه وشمول الرحمة له، فسبب العذاب في الحقيقة عدم وجود سبب الرحمة.

ج. وأما سعة الرحمة وإفاضة النعمة فمن المعلوم أنه من مقتضيات الألوهية ولوازم صفة الربوبية فما من موجود مخلوق إلا ووجوده نعمة لنفسه ولكثير ممن دونه لارتباط أجزاء الخلقة، وكل ما عنده من خير أو شر نعمة إما لنفسه ولغيره كالقوة والثروة وغيرهما التي يستفيد منها الإنسان وغيره، وإما لغيره إذا كان نقمة بالنسبة إليه كالعاهات والآفات والبلايا يستضر بها شيء وينتفع أشياء وعلى هذا فالرحمة الإلهية

واسعة كل شيء فعلا لا شأنا، ولا يختص بمؤمن ولا كافر ولا ذي شعور ولا غيره ولا دنيا ولا آخرة، والمشيئة لازمة لها.

د. نعم تحقق العذاب والنقمة في بعض الموارد، وهو معنى قياسي، يوجب أن يتحقق هناك رحمة تقابلها وتقاس إليها فإن حرمان البعض من النعمة التي أنعم الله بها على بعض آخر إذا كان عذابا كان ما يجده البعض الآخر رحمة تقابل هذا العذاب، وكذا نزول ما يتألم به ويؤذى على بعض كالعقوبات الدنيوية والأخروية إذا كان عذابا كان الأمن والسلامة التي يجدها البعض الآخر رحمة بالنسبة إليه وتقابله، وإن كانت الرحمة المطلقة بالمعنى الذي تقدم بيانه يشملهما جميعا، فهناك رحمة إلهية عامة يتنعم بها المؤمن والكافر والبر والفاجر وذو الشعور وغير ذي الشعور فيوجدون بها ويرزقون بها في أول وجودهم ثم في مسيرة الوجود ما داموا سالكين سبيل البقاء، ورحمة إلهية خاصة وهي العطية الهنيئة التي يجود بها الله سبحانه في مقابل الإيمان والعبودية، وتختص لا محالة بالمؤمنين الصالحين من عباده من حياة طيبة نورانية في الدنيا، وجنة ورضوان في الآخرة ولا نصيب فيها للكافرين والمجرمين، ويقابل الرحمة الخاصة عذاب وهو اللاملائم الذي يصيب الكافرين والمجرمين من جهة كفرهم وجرمهم في الدنيا كعذاب الاستئصال والمعيشة الضنك وفي الآخرة من النار وآلامها، ولا يقابل الرحمة العامة شيء من العذاب إذ كل ما يصدق عليه اسم شيء فهو من مصاديق الرحمة العامة لنفسه أو لغيره، وكونه رحمة هي المقصودة في الخلقة، وليس وراء الشيء شيء إذا تحقق هذا تبين أن قوله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بيان لخصوص العذاب وعموم الرحمة، وإنما قابل بين العذاب والرحمة العامة مع عدم تقابلهما لأن ذكر الرحمة العامة توطئة وتمهيد لما سيذكره من صيرورتها رحمة خاصة في حق المتقين من المؤمنين.

هـ. وقد اتضح بما تقدم أن سعة الرحمة ليست سعة شأنية وأن قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ليس مقيدا بالمشيئة المقدرة بل من لوازم سعة الرحمة الفعلية كما تقدم، وذلك لأن الظاهر من الآية أن المراد بالرحمة الرحمة العامة وهي تسع كل شيء بالفعل وقد شاء الله ذلك فلزمتها فلا محل لتقدير (إن شئت) خلافا لظاهر كلام جمع من المفسرين.

٨. ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. تفريع على قوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي﴾ الآية أي لازم وجوب إصابة العذاب

بعض الناس وسعة الرحمة لكل شيء أن أوجب الرحمة على البعض الباقي، وهم الذين يتقون ويؤتون الزكاة الآية.

ب. وقد ذكر سبحانه الذين تنالهم الرحمة بأوصاف عامة وهي التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بآيات الله من غير أن يقيدهم بما يخص قومه كقولنا: للذين يتقون منكم ونحو ذلك لأن ذلك مقتضى عموم البيان في قوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ الآية والبيان العام ينتج نتيجة عامة.

ج. وإذا قوبلت مسألة موسى بالآية كانت الآية بمنزلة المقيدة لها فإنه عليه السلام سأل الحسنة والرحمة لقومه ثم عللها بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ فكان معنى ذلك مسألة الرحمة لكل من هاد ورجع منهم بأن يكتب الله حسنة الدنيا والآخرة لمجرد هودهم وعودهم إليه فكان فيما أجابه الله به أنه سيكتب رحمته للذين آمنوا واتقوا فكأنه قال اكتب رحمتك لمن هاد إليك منا، فأجابه الله أن سأكتب رحمتي لمن هاد واتقى وآمن بآياتي فكان في ذلك تقييد لمسألته.

د. ولا ضير في ذلك فإنه سبحانه هو الهادي لأنبيائه ورسله المعلم لهم يعلم كليمه أن يقيد مسألته بالتقوى وهو الورع عن محارمه وبالإيمان بآياته وهو التسليم لأنبيائه وللأحكام النازلة إليهم، ولا يطلق الهود وهو الرجوع إلى الله بالإيمان به، فهذا تصرف في دعاء موسى بتقييده كما تصرف تعالى في دعاء إبراهيم بالتقييد في قوله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وبالتعميم والإطلاق في قوله فيما يحكي من دعائه لأهل مكة: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فقد تبين أولا أن الآية تتضمن استجابته تعالى لدعاء موسى: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتقييد ما له فمن العجيب ما ذكره بعضهم: أن الآية بسياقها تدل على أن الله سبحانه رد دعوة موسى ولم يستجبها، وكذا قول بعضهم: إن موسى عليه السلام دعا لقومه فاستجابه الله في حق أمة محمد ﷺ بناء على بيانية قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الآية لقوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية وسيجيء وثانيا: أنه تعالى استجاب ما اشتمل عليه الفصل الأول من دعائه فإنه تعالى لم يرده، وحاشا أن يحكي الله في كلامه دعاء لاغيا غير مستجاب، وقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ﴾ الآية فإنه يحاذي ما سأله عليه السلام من الحسنة المستمرة الباقية في الدنيا والآخرة لقومه، وأما طلب المغفرة لذنب دفعي صدر عنهم بقولهم: ﴿أَرِنَا اللهَ

جَهْرَةً﴾ فلا يحاذيه قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ الآية بوجه، فسكوته تعالى عن رد دعوته دليل إجابتها كما في سائر الموارد التي تشابهه في القرآن.

هـ. ويلوح إلى استجابة دعوته لهم بالمغفرة قوله في القصة في موضع آخر: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦] فمن البعيد المستبعد أن يحييهم الله بعد إهلاكهم ولم يغفر لهم ذنبهم الذي أهلكوا به.

و. وعلى أي حال معنى الآية: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ أي سأكتب رحمتي وأقضيها وأوجبها استعيرت الكتابة للإيجاب لأن الكتابة أثبت وأحكم ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ويجتنبون المعاصي وترك الواجبات ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ وهي الحق المالي أو مطلق الإنفاق في سبيل الله الذي ينمو به المال، ويصلح به مفاسد الاجتماع، ويتم به نواقصه، وربما قيل: إن المراد بها زكاة النفس وطهارتها، وإيتاء الزكاة إصلاح أخلاق النفس، وليس بشيء ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي يسلمون لما جاءتهم من عند الله من الآيات والعلامات سواء كانت آيات معجزة كمعجزات موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم، أو أحكاما سماوية كشرائع موسى وأوامره وشرائع غيره من الأنبياء، أو الأنبياء أنفسهم أو علامات صدق الأنبياء كعلائم محمد ﷺ التي ذكرها الله تعالى لهم في كتاب موسى وعيسى عليه السلام فكل ذلك آيات له تعالى يجب عليهم وعلى غيرهم أن يؤمنوا بها ويسلموا لها، ولا يكذبوا بها.

ز. وفي الآية التفات من سياق التكلم مع الغير إلى الغيبة فإنه قال أولا: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾، ثم قال: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ﴾ الآية وكان النكتة فيه إظهار ما له سبحانه من العناية الخاصة باستجابة دعاء الداعين من عباده فيقبل عليهم هو تعالى من غير أن يشاركه فيه غيره ولو بالتوسط فإن التكلم بلفظ المتكلم مع الغير لإظهار العظمة لمكان أن العظماء يتكلمون عنهم وعن أتباعهم فإذا أريد إظهار عناية خاصة بالمخاطب أو بالخطاب تكلم بلفظ المتكلم وحده، وعلى هذا جرى كلامه تعالى فاختار سياق المتكلم وحده المناسب لمعنى المناجاة والمسارة فيما حكى من أدعية أنبيائه وأوليائه واستجابته لهم في كلامه كأدعية نوح وإبراهيم ودعاء موسى ليلة الطور، وأدعية سائر الصالحين واستجابته لهم، ولم يعدل عن سياق المتكلم وحده إلا لنكتة زائدة.

ح. وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ وما فيه من العدول من التكلم وحده، السياق

السابق، إلى التكلم مع الغير فالظاهر أن النكتة فيه إيجاد الاتصال بين هذه الآية والآية التالية التي هي نوع من البيان لهذه الجملة أعني قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإن الآية التالية، كما سيجيء، بمنزلة المعترضة من النتيجة المأخوذة في ضمن الكلام الجاري، وسياقها سياق خارج عن سياق هذه القطعة المتعرضة للمشافهة والمناجاة بين موسى وبينه تعالى راجع إلى السياق الأصلي السابق الذي هو سياق المتكلم مع الغير، فتبديل (والذين هم بآياتي يؤمنون) إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ يتصل الآية التالية بسابقتها في السياق بنحو لطيف فافهم ذلك وتدبر فيه فإنه من أعجب السياقات القرآنية.

٩. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن سالم بياع القصب عن الحارث بن المغيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: إن عبد الله بن عجلان، قال في مرضه الذي مات فيه: أنه لا يموت فمات، فقال: لا غفر الله شيئا من ذنوبه أين ذهب، إن موسى اختار سبعين رجلا من قومه، فلما أخذتهم الرجفة قال رب: أصحابي أصحابي، قال إني أبدلك بهم من هو خير لكم منهم، فقال: إني عرفتهم ووجدت ريحهم، قال فبعث الله له أنبياء.

• أقول: المراد أن الله بدل له بعبد الله بن عجلان أصحابا هم خير منه كما فعل بموسى، والخبر غريب في بابه ولا يوافق ظاهر الكتاب.

ب. وفي البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن سعد بن عبد الله القمي في حديث طويل عن القائم عليه السلام قال قلت: فأخبرني يا مولاي عن العلة التي تمنع القوم، من اختيار إمام لأنفسهم، قال مصلح أو مفسد؟ قلت: مصلح، قال فهل يجوز أن يقع خيرتهم على المفسد، بعد أن لا يعلم أحدهم ما يخطر ببال غيره، من صلاح أو فساد؟ قلت: بلى، قال هي العلة التي أوردها لك برهانا: أخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله، وأنزل عليهم الكتاب وأيدهم بالعصمة، إذ هم أعلام الأمم وأهدى، للاختيار منهم مثل موسى وعيسى، هل يجوز مع وفور عقلهما وكمال علمهما، إذا هما بالاختيار أن يقع خيرتهما على المنافق، وهما يظنان أنه مؤمن؟ قلت: لا، فقال: هذا موسى كليم الله مع وفور عقله، وكمال علمه: ونزول الوحي عليه، اختار من أعيان قومه، ووجوه عسكره، لميقات ربه سبعين رجلا ممن لا يشك في إيمانهم وإخلاصهم، فوقعت خيرته على المنافقين قال الله عز وجل: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ إلى قوله: ﴿لَنْ

نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ ..، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾، فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه للنبوة واقعا، على الأفسد دون الأصلح، وهو يظن أنه الأصلح دون الأفسد، علمنا أن الاختيار ليس إلا لمن يعلم بما تخفي الصدور، وتكن الضمائر وتنصرف عليه السرائر، وأن لا خطر لاختيار المهاجرين والأنصار، بعد وقوع خيرة الأنبياء على ذوي الفساد، لما أرادوا أهل الصلاح.

• أقول: الآية فيها منقولة بالمعنى بمعنى أنها ملفقة من آيات القصة في سورتي الأعراف والنساء.

ج. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن نوف الحميري قال لما اختار موسى قومه سبعين رجلا لميقات ربه، قال الله لموسى: أجعل لكم الأرض مسجدا وطهورا، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرءون التوراة من ظهور قلوبكم، فيقرؤها الرجل منكم والمرأة، والحر والعبد والصغير والكبير، فقال موسى: إن الله قد جعل لكم الأرض مسجدا وطهورا، قالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس، قال ويجعل السكينة معكم في بيوتكم، قالوا: لا نريد إلا كما كانت في التابوت، قال ويجعلكم تقرءون التوراة عن ظهور قلوبكم، فيقرؤها الرجل منكم والمرأة، والحر والعبد والصغير والكبير، قالوا: لا نريد أن نقرأها إلا نظرا، قال الله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ ـ، قال موسى: أتيتك بوفد قومي فجعلت وفادتهم لغيرهم، اجعلني من هذه الأمة، قال إن نبيهم منهم، قال اجعلني من هذه الأمة، قال إنك لن تدركهم، قال رب أتيتك بوفد قومي فجعلت وفادتهم لغيرهم، قال فأوحى إليه ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال فرضي موسى، قال نوف: ألا تحمدون ربا شهد غيبتكم، وأخذ لكم بسمعكم، وجعل وفادة غيركم لكم.

د. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن نوف البكالي: أن موسى لما اختار من قومه سبعين رجلا قال لهم: فدوا إلى الله وسلوه فكانت لموسى مسألة ولهم مسألة، فلما انتهى إلى الطور المكان الذي وعده الله به، قال لهم موسى: سلوا الله، قالوا: أرنا الله جهرة، قال ويحكم تسألون الله هذا مرتين؟ قالوا: هي مسألتنا أرنا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة فصعقوا، فقال موسى: أي رب جئتك بسبعين من خيار بني إسرائيل، فارجع إليهم وليس معي منهم أحد، فكيف أصنع ببني إسرائيل؟ أليس يقتلوني؟ فقال له: سل مسألتك، قال أي رب إني أسألك أن تبعثهم، فبعثهم الله، فذهبت مسألتهم ومسألته، وجعلت تلك الدعوة لهذه الأمة.

• أقول: وإنما أوردنا الروايتين لكونهما بما فيهما من القصة شبيهتين بالموقوفات لكنهما مع الاختلاف لا ينطبقان على شيء مما فيهما من أطراف القصة ونزول الآيات، على ظاهر شيء من الآيات فمسألتهم إنما هي الرؤية وقد ردت إليهم، ومسألة موسى عليه السلام إنما هي بعثهم، وقد أجيبت فبعثوا، وكتابة الرحمة على بني إسرائيل، وقد أجيبت بشرط التقوى والإيمان بآيات الله، ولم يجعل شيء من وفادتهم لغيرهم، والخطاب بقوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ للنبي ﷺ دون موسى على ما يعطيه السياق.

• ونظير الروايتين في عدم الانطباق على الآية ما روي عن ابن عباس: في قوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال فلم يعطها موسى قال: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ والمراد أنه لم يعطها بل أعطيتها هذه الأمة وقد مر أن ظهور الآية في غير ذلك.

• ونظير ذلك ما روي عن السدي: في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ الآية، قال: قال موسى: يا رب إن هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل، أرأيت الروح من نفخها فيه؟ قال الرب: أنا، قال فأنت إذا أضللتهم، وروى العياشي في تفسيره، مثله عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام مرسلا، وفيه: قال موسى: يا رب ومن أخار العجل؟ قال أنا، قال موسى عنده: إن هي إلا فتنتك، تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، وذلك أن الآية أعني قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ من كلامه عليه السلام في قصة هلاك السبعين، وأين هي من قصة العجل؟ إلا أن يتكرر منه ذلك.

هـ. أخرج أحمد وأبو داوود عن جندب بن عبد الله البجلي قال جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدا ولا تشرك في رحمتنا أحدا، فقال رسول الله ﷺ: لقد حظرت رحمة واسعة، إن الله خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق، جنها وإنسها وبهائمها، وعنده تسعة وتسعون.

و. أخرج أحمد ومسلم عن سلمان عن النبي ﷺ قال إن لله مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وآخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة.

ز. أخرج ابن أبي شيبة عن سلمان موقوفا وابن مردويه عن سلمان قال: قال النبي ﷺ: إن الله خلق مائة رحمة يوم خلق السماوات والأرض، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأهبط منها رحمة إلى

الأرض فبها تراحم الخلائق، وبها تعطف الوالدة على ولدها، وبها تشرب الطير والوحوش من الماء، وبها تعيش الخلائق، فإذا كان يوم القيامة انتزعها من خلقه، ثم أفاضها على المتقين، وزاد تسعة وتسعين رحمة، ثم قرأ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾

• أقول: وهذا المعنى مروي أيضا من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام، والرواية الثانية: كأنها نقل بالمعنى للرواية الأولى، وقد أفسد الراوي المعنى بقوله: (فإذا كان يوم القيامة انتزعها من خلقه) وليت شعري إذا سلب الرحمة عن غير المتقين من خلقه فبما ذا يبقى ويعيش السماوات والأرض والجنة والنار ومن فيها والملائكة وغيرهم ولا رحمة تشملهم، والأحسن في التعبير ما ورد في بعض رواياتنا، على ما أذكر، أن الله يومئذ يجمع المائة للمؤمنين، وجمع المائة لهم واستعمالها فيهم غير انتزاعها عن غيرهم وتخصيصها بهم فالأول جائز معقول دون الثاني فافهم ذلك.

ح. أخرج الطبراني عن حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ في حديث: والذي نفسي بيده ليغفرن الله يوم القيامة، مغفرة يتطاول بها إبليس رجاء أن تصيبه.

• أقول: ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام ما في معناه.

ط. أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي بكر الهذلي قال لما نزلت ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: يا رب وأنا من الشيء، فنزلت ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الآية، فنزعها الله من إبليس.

• أقول: والظاهر أنه فرض وتقدير من أبي بكر، ولا ريب في تنعم إبليس بالرحمة العامة التي يشتمل عليها صدر الآية، وحرمانه من الرحمة الخاصة الأخروية التي يتضمنها ذيلها.

ي. في تفسير البرهان، عن نهج البيان روي عن النبي ﷺ أنه قال أي الخلق أعجب إيمانا؟ فقالوا: الملائكة، فقال: الملائكة عند ربهم فما لهم لا يؤمنون؟ فقالوا: الأنبياء، فقال: الأنبياء يوحى إليهم فما لهم لا يؤمنون؟ فقالوا: نحن، فقال: أنا فيكم فما لكم لا تؤمنون؟ إنما هم قوم يكونون بعدكم فيجدون كتابا في ورق، فيؤمنون به، وهذا معنى قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

• أقول: والخبر لا بأس به، وهو من الجري والانطباق، وفي بعض الروايات أن النور هو علي عليه السلام وهو أيضا من قبيل الجري أو الباطن.

٥٩. صفات النبي الأمي والفلاح باتباعه:

المقطع [٥٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٧٩»:

١. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ إلى قوله: ﴿كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾:

أ. قال الراغب في المفردات: (الإصر عقد الشيء وحبسه بقهره يقال: أصرته فهو مأصور، والمأصر والمأصر، بفتح الصاد وكسرها، محبس السفينة، قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي الأمور التي تثبطهم وتقيدهم عن الخيرات، وعن الوصول إلى الثوابات، وعلى ذلك: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾، وقيل ثقلا وتحقيقه ما ذكرت) والأغلال جمع غل وهو ما يقيد به.

ب. ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية بحسب ظاهر السياق بيان لقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويؤيده ما هو ظاهر الآية أن كونه ﷺ رسولا نبيا أميا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم كل ذلك من أمارات النبوة الخاتمية وآياتها المذكورة لهم في التوراة والإنجيل فمن الإيمان بآيات الله الذي شرطه الله تعالى لهم في كلامه: أن يؤمنوا بالآيات المذكورة لهم أمارات لنبوة محمد ﷺ.

ج. غير أن من المسلم الذي لا مرية فيه أن الرحمة التي وعد الله كتابته لليهود بشرط التقوى والإيمان بآيات الله ليست بحيث تختص بالذين آمنوا منهم بالنبي ﷺ، ويحرم عنها صالحو بني إسرائيل من لدن أجاب الله دعوة موسى عليه السلام إلى أن بعث الله محمدا ﷺ فآمن به شرذمة قليلة من اليهود، فإن ذلك مما لا ينبغي توهمه أصلا، فبين موسى وعيسى عليه السلام، وكذا بعد عيسى عليه السلام ممن آمن به من بني إسرائيل جم غفير من المؤمنين الذين آمنوا بالدعوة الإلهية فقبل الله منهم إيمانهم ووعدهم بالخير، والكلام الإلهي بذلك ناطق فكيف يمكن أن تقصر الرحمة الإلهية المبسوطة على بني إسرائيل في جماعة قليلة منهم آمنوا بالنبي ﷺ؟

د. فقوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية وإن كان بيانا لقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلا أنه ليس بيانا مساويا في السعة والضيق لمبينه بل بيان مستخرج من مبينه انتزع منه، وخص بالذكر ليستفاد منه فيما هو الغرض من سوق الكلام، وهو بيان حقيقة الدعوة المحمدية، ولزوم إجابتهم لها وتلبيتهم لداعيها.

هـ. ولذلك في القرآن الكريم نظائر من حيث التضييق والتوسعة في البيان كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الآية ثم قال في موضع آخر حاكيا عنه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾ [النساء: ١١٩] فإن القول الثاني المحكي عن إبليس مستخرج من عموم قوله المحكي أولا: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وقال تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾، إلى أن قال ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ الآية وقد تقدم أن ذلك من قبيل استخراج الخطاب من الخطاب لغرض التعميم إلى غير ذلك من النظائر.

و. فيئول معنى بيانية قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ إلى استخراج بيان من بيان للتطبيق على مورد الحاجة كأنه قيل: فإذا كان المكتوب من رحمة الله لبني إسرائيل قد كتب للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون فمصداقه اليوم، يوم بعث محمد ﷺ، هم الذين يتبعونه من بني إسرائيل لأنهم الذين اتقوا وآتوا الزكاة وهم الذين آمنوا بآياتنا فإنهم آمنوا بموسى وعيسى ومحمد ﷺ وهم آياتنا، وآمنوا بمعجزات هؤلاء الرسل وما نزل عليهم من الشرائع والأحكام وهي آياتنا، وآمنوا بما ذكرنا لهم في التوراة والإنجيل من أمارات نبوة محمد ﷺ وعلامات ظهوره ودعوته، وهي آياتنا.

ز. ثم قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية أخذ فيه ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ موضع يؤمنون، وهو من أحسن التعبير لأن الإيمان بآيات الله سبحانه كأنبيائه وشرائعهم إنما هو بالتسليم والطاعة فاختير لفظ الاتباع للدلالة على أن الإيمان بمعنى الاعتقاد المجرد لا يغني شيئا فإن ترك التسليم والطاعة عملا تكذيب بآيات الله وإن كان هناك اعتقاد بأنه حق.

ح. وذكره ﷺ بهذه الأوصاف الثلاث: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾، ولم يجتمع له في موضع من كلامه تعالى إلا في هذه الآية والآية التالية، مع قوله تعالى بعده: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ

وَالْإِنْجِيلِ﴾ تدل على أنه ﷺ كان مذكورا فيهما معرفا بهذه الأوصاف الثلاث، ولولا أن الغرض من توصيفه بهذه الثلاث هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكورة له في كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث: ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ وخاصة الصفة الثالثة نكتة ظاهرة.

ط. وكذلك ظاهر الآية يدل أو يشعر بأن قوله: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إلى آخر الأمور الخمسة التي وصفه ﷺ بها في الآية من علائمه المذكورة في الكتابين، وهي مع ذلك من مختصات النبي ﷺ وملته البيضاء فإن الأمم الصالحة وإن كانوا يقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ذكره تعالى من أهل الكتاب في قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾، إلى أن قال ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران ١١٤]، وكذلك تحليل الطيبات وتحريم الخبائث في الجملة من الجملة الفطريات التي أجمع عليها الأديان الإلهية، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وكذلك وضع الإصر والأغلال وإن كان مما يوجد في الجملة في شريعة عيسى عليه السلام كما يدل عليه قوله فيما حكى الله عنه في القرآن الكريم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ويشعر به قوله خطابا لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ﴾ ﴿الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [الزخرف ٦٣]

ي. إلا أنه لا يرتاب ذو ريب في أن الدين الذي جاء به محمد ﷺ بكتاب من عند الله مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية، وهو دين الإسلام، هو الدين الوحيد الذي نفخ في جثمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كل ما يسعه من روح الحياة، وبلغ به من حد الدعوة الخالية إلى درجة الجهاد في سبيل الله بالأموال والنفوس، وهو الدين الوحيد الذي أحصى جميع ما يتعلق به حياة الإنسان من الشئون والأعمال ثم قسمها إلى طيبات فأحلها، وإلى خبائث فحرمها، ولا يعادله في تفصيل القوانين المشرعة أي شريعة دينية وقانون اجتماعي، وهو الدين الذي نسخ جميع الأحكام الشاقة الموضوعة على أهل الكتاب واليهود خاصة، وما تكلفها علماؤهم، وابتدعها أحبارهم ورهبانهم من الأحكام المبتدعة، فقد اختص الإسلام بكمال هذه الأمور الخمسة وإن كانت توجد في غيره نماذج من ذلك.

ك. على أن كمال هذه الأمور الخمسة في هذه الملة البيضاء أصدق شاهد وأبين بينة على صدق

الناهض بدعوتها ﷺ، ولو لم تكن تذكر أمارات له في الكتابين فإن شريعته كمال شريعة الكليم والمسيح عليه السلام وهل يطلب من شريعة حقة إلا عرفانها المعروف وإنكارها المنكر، وتحليلها الطيبات، وتحريمها الخبائث، وإلغاؤها كل إصر وغل؟ وهي تفاصيل الحق الذي يدعو إليه الشرائع الإلهية فليعترف أهل التوراة والإنجيل أن الشريعة التي تتضمن كمال هذه الأمور بتفاصيلها هي عين شريعتهم في مرحلة كاملة.

ل. وبهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية يفيد بمجموعه معنى تصديقه لما في كتابيهم من شرائع الله تعالى كأنه قيل مصدقا لما بين يديه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ١٠١] وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] يريد مجيء النبي ﷺ بكمال ما في كتابهم من الشريعة مصدقا له ثم كفرهم به وهم يعلمون أنه المذكور في كتبهم المبشر به بلسان أنبيائهم كما حكى سبحانه عن المسيح في قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، وسنبحث عن بشاراته عليه السلام الواقعة في كتبهم المقدسة بما تيسر من البحث إن شاء الله العزيز.

م. غير أنه تعالى لم يقل: مصدقا لما بين يديه بدل قوله: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الآية لأن وجه الكلام إلى جميع الناس دون أهل الكتاب خاصة، ولذا أمر نبيه ﷺ في الآية التالية بقوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ولم يقيد الكلام في قوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ بما يختص به بأهل الكتاب.

٢. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. التعزير النصرة مع التعظيم، والمراد بالنور النازل معه القرآن الكريم ذكر بنعت النورية ليدل به على أنه ينير طريق الحياة، ويضيء الصراط الذي يسلكه الإنسان إلى موقف السعادة والكمال، والكلام في هذا الشأن.

ب. وفي قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ ولم يقل: أنزل عليه أو أنزل إليه و(مع) تدل على المصاحبة والمقارنة تلويح إلى معنى الأمارة والشهادة التي ذكرناها كأنه قيل: واتبعوا النور الذي أنزل عليه وهو بما يحتوي عليه من كمال الشرائع السابقة، ويظهره بالإضاءة شاهد على صدقه، وأمارة أنه هو الذي وعد به

أنبياؤهم، وذكر لهم في كتبهم فقوله: ﴿مَعَهُ﴾ حال من نائب فاعل ﴿أُنْزِلَ﴾، وقد وقع نظيره في قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]

ج. وقد اختلف المفسرون في توجيه هذه المعية ومعناها:

- فقيل: إن الظرف ﴿مَعَهُ﴾، متعلق بأنزل، والكلام على حذف مضاف أي مع نبوته أو إرساله ﷺ لأنه لم ينزل معه، وإنما أنزل مع جبرئيل.
- وقيل: متعلق بـ ﴿اتَّبَعُوا﴾ والمعنى شاركوا النبي عليه السلام في اتباعه، أو المعنى اتبعوا القرآن مع اتباعهم له
- وقيل: حال عن فاعل ﴿اتَّبَعُوا﴾، والمعنى اتبعوا القرآن مصاحبين للنبي ﷺ في اتباعه.
- وقيل: و(مع) هنا بمعنى على.
- وقيل: بمعنى عند، ولا يخفى بعد الجميع.

٣. ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾:

أ. الآية بمنزلة التفسير لقوله في صدر الآية: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ وأن المراد باتباعه حقيقة اتباع كتاب الله المشتمل على شرائعه، وأن الذي له عليه السلام من معنى الاتباع هو الإيمان بنبوته ورسالته من غير تكذيب به، واحترامه بالتسليم له ونصرته فيما عزم عليه من سيرته.

ب. والكلام أعني قوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ الآية نتيجة متفرعة على قوله في صدر الآية: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ الآية بناء على ما قدمناه من أنه بيان خاص مستخرج من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الذي هو بيان عام، والمعنى إذا كان اتباع الرسول بهذه الأوصاف والنعوت هو من الإيمان بآياتنا الذي شرطناه على بني إسرائيل في قبول دعوة موسى لهم ببسط الرحمة في الدنيا والآخرة وفيه الفلاح بكتابة الحسنة في الدنيا والآخرة فالذين آمنوا به، إلى آخر ما شرط الله، أولئك هم المفلحون.

٦٠. الرسالة عامة للناس كلهم ودعوتهم للإيمان:

المقطع [٦٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ

الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِّ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٨٤»:

١. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيُمِيتُ﴾ لما لاح من الأوصاف التي وصف بها نبيه ﷺ أن عنده كمال الدين الذي به حياة الناس الطيبة في أي مكان فرضوا وفي أي زمان قدر وجودهم، ولا حاجة للناس في طيب حياتهم إلى أزيد من أن يؤمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، وتحلل لهم الطيبات، وتحرم عليهم الخبائث، ويوضع عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم أمر نبيهم ﷺ أن يعلن بنبوته الناس جميعا من غير أن تختص بقوم دون قوم فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

٢. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾:

أ. صفات وصف الله بها، وهي بمجموعها بمنزلة تعليل يبين بها إمكان الرسالة من الله في نفسها أولا وإمكان عمومها لجميع الناس ثانيا فيرتفع به استيحاش بني إسرائيل أن يرسل إليهم من غير شعبهم وخاصة من الأميين وهم شعب الله ومن مزاعمهم أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وهم خاصة الله وأبناؤه وأحباؤه، وبه يزول استبعاد غير العرب من جهة العصبية القومية أن يرسل إليهم رسول عربي.

ب. وذلك أن الله الذي اتخذه رسولا هو الذي له ملك السماوات والأرض والسلطنة العامة عليها، ولا إله غيره حتى يملك شيئا منها فله أن يحكم بما يشاء من غير أن يمنع عن حكمه مانع يزاحمه أو تعوق إرادته إرادة غيره فله أن يتخذ رسولا إلى عباده وأن يرسل رسوله إلى بعض عباده أو إلى جميعهم كيف شاء، وهو الذي له الإحياء والإماتة فله أن يحيي قوما أو الناس جميعا بحياة طيبة سعيدة والسعادة والهدى من الحياة كما أن الشقاوة والضلالة موت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]

٣. ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ إلى آخر الآية:

أ. تفريع على ما تقدم أي إذا كان الحال هذا الحال فآمنوا بي فإني ذاك الرسول النبي الأمي الذي بشر به في التوراة والإنجيل، وأنا أومن بالله ولا أكفر به وأومن بكلماته وهي ما قضى به من الشرائع النازلة

علي وعلى الأنبياء السالفين، واتبعوني لعلكم تفلحون.

ب. هذا ما يقتضيه السياق، ومنه يعلم وجه الالتفات من التكلم إلى الغيبة في قوله: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي﴾ الآية فإن الظاهر من السياق أن هذه الآية ذيل الآية السابقة، وهما جميعا من كلام النبي ﷺ، ووجه الالتفات، كما ظهر مما تقدم، أن يدل بالأوصاف الموضوعة مكان ضمير المتكلم على تعليل الأمر في قوله: ﴿فَآمِنُوا﴾، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

ج. والمراد بالاهتداء الاهتداء إلى السعادة الآخرة التي هي رضوان الله والجنة لا الاهتداء إلى سبيل الحق فإن الإيمان بالله ورسوله واتباع رسوله بنفسه اهتداء، فيرجع معنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى معنى قوله في الآية السابقة في نتيجة الإيمان والاتباع: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

٦١. من قوم موسى أمة يهدون بالحق ويعدلون:

المقطع [٦١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٨٥»:

١. ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾:

أ. وهذا من نصفة القرآن مدح من يستحق المدح، وحمد صالح أعمالهم بعد ما قرعهم بما صدر عنهم من السيئات فالمراد أنهم ليسوا جميعا على ما وصفنا من مخالفة الله ورسوله، والتزام الضلال والظلم بل منهم أمة يهدون الناس بالحق وبالحق يعدلون فيما بينهم فالباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ للآلة وتحتمل الملابسة.

ب. وعلى هذا فالآية من الموارد التي نسبت الهداية فيها إلى غيره تعالى وغير الأنبياء والأئمة كما في قوله حكاية عن مؤمن آل فرعون ولم يكن بنبي ظاهرا: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]

٢. ولا يبعد أن يكون المراد بهذه الأمة من قوم موسى عليه السلام الأنبياء والأئمة الذين نشئوا فيهم بعد موسى وقد وصفهم الله في كلامه بالهداية كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] وغيره من الآيات وذلك أن الآية أعني قوله: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ لو حملت على حقيقة معناها من الهداية بالحق والعدل بالحق لم يتيسر لغير النبي والإمام أن يتلبس بذلك وقد تقدم كلام في الهداية في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة

١٢٤] وقوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وغيرهما من الآيات.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال افترقت بنو إسرائيل بعد موسى إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، وافترقت النصارى بعد عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا فرقة، فأما اليهود فإن الله يقول: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وأما النصارى فإن الله يقول: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ فهذه التي تنجو، وأما نحن فنقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه التي تنجو من هذه الأمة.

ب. وفي تفسير العياشي، عن أبي الصهبان البكري قال سمعت علي بن أبي طالب، عليه السلام دعا رأس الجالوت وأسقف النصارى فقال: إني سائلكما عن أمر وأنا أعلم به منكما ولا تكتماني، يا رأس الجالوت بالذي أنزل التوراة على موسى، وأطعمهم المن والسلوى، وضرب لهم في البحر طريقا يبسا، وفجر لهم من الحجر الطوري اثنتي عشرة عينا، لكل سبط من بني إسرائيل عينا، إلا ما أخبرتني على كم افترقت بنو إسرائيل بعد موسى؟ فقال: فرقة واحدة، فقال: كذبت والذي لا إله إلا هو، لقد افترقت على إحدى وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة فإن الله يقول: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه التي تنجو.

ج. وفي المجمع: أنهم قوم من وراء الصين، وبينهم وبين الصين واد من الرمال، لم يغيروا ولم يبدلوا، قال وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام.

• أقول: الرواية ضعيفة غير مسلمة، ولا خبر عن هذه الأمة اليهودية الهادية العادلة اليوم، ولو كانوا اليوم لم يكونوا هادين ولا مهتدين لنسخ شريعة موسى بشريعة عيسى عليه السلام أولا ثم نسخ شريعتهما جميعا بشريعة محمد ﷺ ثانيا، ولذا اضطر بعض من أورد هذه القصة الخرافية فأضاف إليها أن النبي ﷺ نزل إليهم ليلة المعراج ودعاهم فآمنوا به وعلمهم الصلاة.

د. وقد اختلقوا لهم قصصا عجيبة مختلفة:

• فعن مقاتل: أن مما فضل الله به محمدا ﷺ، أنه عاين ليلة المعراج قوم موسى، الذين من وراء الصين، وذلك أن بني إسرائيل حين عملوا بالمعاصي، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من الناس، دعوا ربهم

وهم بالأرض المقدسة فقالوا: اللهم أخرجنا من بين أظهرهم، فاستجاب لهم فجعل لهم سربا في الأرض فدخلوا فيه، وجعل معهم نهرا يجري، وجعل لهم مصباحا من نور بين أيديهم، فساروا فيه سنة ونصفا، وذلك من بيت المقدس إلى مجلسهم الذي هم فيه، فأخرجهم الله إلى أرض يجتمع فيها، الهوام والبهائم والسباع مختلطين بها، ليست فيها ذنوب ولا معاص، فأتاهم النبي ﷺ تلك الليلة ومعه جبرئيل، فآمنوا به وصدقوه وعلمهم الصلاة، وقالوا: إن موسى قد بشرهم به.

• وعن الشعبي قال إن لله عبادا من وراء الأندلس، كما بيننا وبين الأندلس، لا يرون أن الله عصاه مخلوق، رضراضهم الدر والياقوت، وجبالهم الذهب والفضة، لا يزرعون ولا يحصدون ولا يعملون عملا، لهم شجر على أبوابهم لها أوراق عراض هي لبوسهم، ولهم شجر على أبوابهم لها ثمر فمنها يأكلون، إلى غير ذلك مما ورد في قصتهم، وهي جميعا مجعولة، وقد عرفت معنى الآية في البيان المتقدم.

٦٢. تقطيع بني إسرائيل:

المقطع [٦٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٨٦»:

١. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ إلى آخر الآية، السبط بحسب اللغة ولد الولد أو ولد البنت، والجمع أسباط، وهو في بني إسرائيل بمعنى قوم خاص، فالسبط عندهم بالمنزلة القبيلة عند العرب، وقد نقل عن ابن الحاجب أن ﴿أَسْبَاطًا﴾ في الآية بدل من العدد لا تمييز وإلا لكانوا ستة وثلاثين سبطا على إرادة أقل الجمع من ﴿أَسْبَاطًا﴾ وتمييز العدد محذوف للدلالة عليه بقوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ والتقدير وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أسباطا هذا، وربما قيل: إنه تمييز لكونه بمعنى المفرد والمعنى اثنتي عشرة جماعة مثلا.

٢. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ الآية:

أ. الانبجاس هو الانفجار وقيل الانبجاس خروج الماء بقلة، والانفجار خروجه بكثرة، وظاهر من قوله: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ أن العيون كانت بعدد الأسباط وأن كل سبط اختصوا بعين من العيون، وأن ذلك كانت عن مشاجرة بينهم ومنافسة، وهو يؤيد ما في الروايات من قصتها، وباقي الآية ظاهر.

ب. وقد عد الله سبحانه في هذه الآيات من معجزات موسى عليه السلام وآياته: الثعبان واليد البيضاء، وسني آل فرعون ونقص ثمراتهم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وإهلاك السبعين، وإحياءهم، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، والتظليل بالغمام، وإنزال المن والسلوى، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة، ويمكنك أن تضيف إليها التكليم ونزول التوراة، ومسخ بعضهم قردة خاسئين، وسيجيء تفصيل البحث في قصته عليه السلام في تفسير سورة هود إن شاء الله.

٦٣. الاستسقاء والمن والسلوى:

المقطع [٦٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يذكّر الله تعالى نعمه المتتابعة على بني إسرائيل في التيه، حين طلبوا السقيا من موسى، فأمره بضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا حسب عدد أسباطهم، كل سبط يعرف عينه المختصة به، ثم ظلّل الله عليهم الغيوم من حر الشمس، وأنزل عليهم المنّ (وهو شيء يشبه العسل أو الترنجبين) والسلوى (وهو طائر السماني) طعامًا طيبًا، وأمرهم بالأكل من هذه الطيبات، مبينًا أن ظلمهم لم يضر الله شيئًا، وإنما كان ضرره عائدًا على أنفسهم.

٢. وهي تشير إلى:

أ. تذكّر نعم الله المتتابعة، وأنه يفيض على عباده من فضله عاجلاً وآجلاً.

ب. أن الله ييسر أرزاق عباده بتنظيمها لكل جماعة بما يكفيهم، كما جعل لكل سبط عينًا خاصة، فلا تنازع ولا ضرر.

ج. أن نعمة الطعام والشراب والظلّ من أجلّ النعم، فينبغي شكرها واستعمالها في طاعته.

د. أن الله لا يظلم عباده، بل هو المنعم المتفضل، وكل ظلم إنما يقع من العبد على نفسه بمعصيته.

هـ. أن المعاصي والكفر بالنعم هو الظلم الحقيقي، وهو سبب زوال النعم أو عقوبتها، فالله غني عن العالمين،

٦٤. أمر بني إسرائيل بدخول القرية وقول حطة

المقطع [٦٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦١-١٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٩٤»:

١. ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إلى آخر الآيتين، القرية هي التي كانت في الأرض المقدسة أمروا بدخولها وقتال أهلها من العمالقة وإخراجهم منها فتمردوا عن الأمر، وردوا على موسى عليه السلام فابتلوا بالتيه، والقصة مذكورة في سورة المائدة آية ٢٠، ٢٦.

٢. ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً﴾ الآية تقدم الكلام في نظيره من سورة البقرة آية: ٥٨، ٥٩.

٣. ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ في موضع الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ﴾ قيل: ثم ماذا فقال: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

٦٥. قصة أصحاب السبت ومسخهم قردة:

المقطع [٦٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٩٥»:

١. ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ إلى آخر الآية، أي أسأل بني إسرائيل عن حال أهل الْقَرْيَةِ ﴿الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي قريبة منه مشرفة عليه من حضر الأمر إذا أشرف عليه وشهده ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ ويتجاوزون حدود ما أمر الله به في أمر ﴿السَّبْتِ﴾ وتعظيمه وترك الصيد فيه ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ﴾ والسمك الذي في ناحيتهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ جمع شارع وهو الظاهر

البين ﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ أي إن تجاوزهم عن حدود ما أمر به الله كان إذ كانت الحيتان تأتيهم شرعا يوم منعوا من الصيد وأمروا بالسبت، وأما إذا مضى اليوم وأبيح لهم الصيد وذلك غير يوم السبت فكان لا تأتيهم الحيتان وكان ذلك من بلاء الله وامتحانه ابتلاهم بذلك لشيوع الفسق بينهم فبعثهم الحرص على صيدها على مخالفة أمر الله سبحانه، ولم يمنعهم تقوى عن التعدي، ولذلك قال: ﴿كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي نمتحنهم ﴿بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾

٢. ﴿وَإِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إلى آخر الآية، إنما قالت هذه الأمة ما قالت، لأمة أخرى منهم كانت تعظهم وتنهاهم عن مخالفة أمر الله في السبت، فالتقدير: (وإذ قالت أمة منهم لأمة أخرى كانت تعظهم) حذف للإيجاز وظاهر كلامهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً﴾ أنهم كانوا أهل تقوى يجتنبون مخالفة الأمر إلا أنهم تركوا نهيهم عن المنكر فخالطوهم وعاشروهم ولو كان هؤلاء اللائمون من المتعدين الفاسقين لوعظهم أولئك الملومون، ولم يجيبوهم بمثل قولهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ﴾ الآية، وأن المتعدين طغوا في تعديهم وتجاهروا في فسقهم فلم يكونوا لينتهوا بنهي ظاهرا غير أن الأمة التي كانت تعظهم لم ييأسوا من تأثير العظة فيهم، وكانوا يرجون منهم الانتهاء لو استمروا في عظتهم، ولا أقل من انتهاء بعضهم ولو بعض الانتهاء، وليكون ذلك معذرة منهم إلى الله سبحانه بإظهار أنهم غير موافقين لهم في فسقهم منزجرون عن طغيانهم بالتمرد، ولذلك أجابوا عن قولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ الآية، بقولهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي إنما نعظهم ليكون ذلك عذرا إلى ربكم، ولأنا نرجو منهم أن يتقوا هذا العمل.

٣. وفي قولهم: ﴿إِلى رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب إلى اللائمين ولم يقولوا: إلى ربنا إشارة إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصا بنا بل أنتم أيضا مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يعتذر إليه، ويبذل الجهد في فراغ الذمة من تكاليفه والوظائف التي أحالها إلى عباده، وأنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا.

٤. ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾:

أ. المراد بنسيانهم ما ذكروا انقطاع تأثير الذكر في نفوسهم وإن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقة فإنما الأخذ الإلهي مسبب عن الاستهانة بأمره والإعراض عن ذكره، بل حقيقة النسيان بحسب الطبع مانع

عن فعلية التكليف وحلول العقوبة، فالإنسان يطوف عليه طائف من توفيق الله يذكره بتكاليف هامة إلهية ثم إن استقام وثبت، وإن ترك الاستقامة ولم يزجره زاجر باطني ولا ردعه رادع نفساني عدا حدود الله بالمعصية غير أنه في بادئ أمره يتألم تألما باطنيا ويتحرج تحرجا قلبيا من ذلك ثم إذا عاد إليها ثانيا من غير توبة زادت صورة المعصية في نفسه تمكنا، وضعف أثر التذكير وهان أمره، وكلما عاد إليها وتكررت منه المخالفة زادت تلك قوة وهذه ضعفا حتى يزول أثر التذكير من أصله، ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان في عدم التأثير، وهو المراد بقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا﴾ أي زال أثره كأنه منسي زائل، الصورة عن النفس.

ب. وفي الآية دلالة على أن الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، وقد أخذ الله الباقين، وهم الذين يعدون في السبت والذين قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ الآية، وفيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين في ظلمهم وفسقهم حيث تركوا عظتهم ولم يهجروهم.

ج. وفي الآية دلالة على سنة إلهية عامة، وهي أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع، وعظة إن لم يمكن المنع أو هجره إن لم تمكن العظة أو بطل تأثيرها، مشاركة معهم في ظلمهم، وأن الأخذ الإلهي الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم في ظلمهم.

٥. ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ﴾ العتو المبالغة في المعصية والقردة جمع القرد وهو الحيوان المعروف، والخاسئ الطريد البعيد من خسأ الكلب إذا بعد، وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ﴾ أي عن ترك ما نهوا عنه فإن العتو إنما يكون عن ترك المنهيات لا عن نفسها، والباقي ظاهر.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، عن أبيه عن الحسن بن محبوب عن ابن أبي عمير عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال: وجدنا في كتاب علي عليه السلام، أن قوما من أهل أيلة من قوم ثمود، وأن الحيتان كانت سيقت إليهم يوم السبت، ليختبر الله طاعتهم في ذلك، فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم، وقدام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم، فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها ويأكلونها، فلبثوا في ذلك ما شاء الله لا ينهاهم الأحبار، ولا يمنعهم العلماء عن صيدها، ثم إن الشيطان أوحى إلى طائفة منهم، أنما نهيتم عن أكلها يوم السبت ولم تنهوا عن صيدها، فاصطادوها يوم السبت، وأكلوها في ما سوى ذلك من الأيام، فقالت طائفة منهم: الآن نصطادها، فعتت وانحازت طائفة أخرى منهم ذات اليمين فقالوا: ننهاكم عن عقوبة الله أن

تتعرضوا لخلاف أمره، واعتزلت طائفة منهم ذات اليسار فسكتت ولم تعظهم، فقالت للطائفة التي وعظتهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾؟ فقالت الطائفة التي وعظتهم: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فقال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾، يعني لما تركوا ما وعظوا به مضوا على الخطيئة، فقالت الطائفة التي وعظتهم: لا والله لا نجامعكم ولا نبايتكم الليلة، في مدينتكم هذه التي عصيتم الله فيها، مخافة أن ينزل عليكم البلاء فيعمنا معكم، قال فخرجوا عنهم من المدينة مخافة أن يصيبهم البلاء، فنزلوا قريبا من المدينة فباتوا تحت السماء، فلما أصبح أولياء الله المطيعون لأمر الله، غدوا لينظروا ما حال أهل المعصية، فأتوا باب المدينة فإذا هو مصمت، فدقوا فلم يجاوبوا ولم يسمعوا منها حس أحد، فوضعوا فيها سلما على سور المدينة، ثم أصعدوا رجلا منهم فأشرف على المدينة فنظر، فإذا هو بالقوم قرد يتعاونون ولهم أذناب، فكسروا الباب فعرفت الطائفة أنسابها من الإنس، ولم يعرف الإنس أنسابها من القردة، فقال القوم للقردة: ألم ننهكم؟ فقال علي عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إني لأعرف أنسابها من هذه الأمة لا ينكرون ولا يغيرون، بل تركوا ما أمروا به فتفرقوا، وقد قال الله: ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فقال الله: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

ب. أقول: ورواه العياشي في تفسيره، عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام، وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عبد الرزاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عكرمة عن ابن عباس غير أن فيها أن المذكورين في الآية حي من اليهود من أهل أيلة وظاهره أنهم كانوا من بني إسرائيل ورواية أبي جعفر عليه السلام تصرح بأنهم كانوا من قوم ثمود، وليس من البعيد أن يكونوا قوما من عرب ثمود دخلوا في دين اليهود لقرب دارهم وجوارهم فإن أيلة كما يقال: كانت بلدة بين مصر والمدينة على شاطئ البحر، وربما قيل: إن القرية التي أشارت إليها الآية هي مدين، وقيل: هي طبرية، وقيل: هي قرية يقال لها: مقنا، بين مدين وعينونا.

ج. وفي رواية ابن عباس التي أشرنا إليها وغيرها مما روي عنه أيضا أنه كان يبكي ويقول: نجا الناهون، وهلك الفاعلون، ولا أدري ما فعل بالساكتين، وفي رواية عكرمة: قلت لابن عباس: أي جعلني الله فداك ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه وخالفوهم وقالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم؟ قال فأمرني

فكسيت ثوبين غليظين، يريد أنه استحسن قولي بنجاتهم لكراهتهم فعلهم واعتقادهم بأنهم معاقبون لا محالة فخلع علي بثوبين، وأخذ بقولي.

• وقد أخطأ عكرمة فإن القوم وإن كانوا كرهوا فعلهم ولم يشاركوهم في الصيد المحرم لكنهم اقترفوا معصية هي أعظم من ذلك وهو ترك النهي عن المنكر، وقد نبههم الناهون بذلك إذ قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وكلامهم يدل على أن المقام لم يكن مقام اليأس عن تأثير الموعظة حتى يسقط بذلك التكليف، ولما يئس منهم الناهون هجروهم وفارقوهم، ولم يهجرهم الآخرون ولم يفارقوهم على ما في الروايات.

• على أن الله تعالى قال: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فلم يذكر في جانب النجاة إلا الذين ينهون عن السوء وأخذ في جانب الأخذ الذين ظلموا دون الذين صادوا، ولا مانع من شمول ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ لأولئك التاركين للنهي عن المنكر.

• وأما قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ فإن كان معناه عتوا عن ترك ما نهوا عنه كما تقدم عن المفسرين كان هذا العذاب بحسب دلالة هذه الآية مختصا بالصائدين لكنها لا تمنع عموم الآية السابقة للصائدين والساكتين جميعا لاشتراكهم في الظلم والفسق، وإن كان معنى الآية الإعراض عما نهوا عنه من غير تقدير الترك وما بمعناه اختصت الآية ببيان عذاب الساكتين وكان عذاب الصائدين مبينا في الآية السابقة: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ الآية كما يومئ إليه بعض الروايات الآتية.

د. وفي المجمع: أنه هلكت الفرقتان، ونجت الفرقة الناهية، روي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام.

• أقول: ولا ينافيه نص الآية على مسخ العاتين فإن الهلاك يعم مثل المسخ، على أن الأخبار متظافرة في أن الممسوخ لا يعيش بعد المسخ إلا أياما ثم يهلك.

هـ. وفي الكافي، عن سهل بن زياد عن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن المغيرة عن طلحة بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ قال كانوا ثلاثة أصناف: صنف ائتمروا وأمروا ونجوا، وصنف ائتمروا ولم يأمروا فمسخوا، وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا.

• أقول: والرواية، كما ترى، مبنية على كون قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ الآية ناظرا إلى عذاب الساكتين دون المرتكبين للصيد المحرم، ومعنى ﴿عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا﴾ كفوا عن الصيد الذي نهوا عنه ولا حاجة حينئذ إلى تقدير الترك ونحوه في الكلام ويبقى لبيان عذاب الفرقة الأخرى قوله في الآية السابقة، ولا مانع من هذا المعنى إلا أن مقتضى المقام أن يذكر السبب لعذاب الساكتين كفهم عن موعظة الفاعلين لا عتوهم عما نهوا عنه مع ما في استعمال العتو في مورد الكف والإعراض من البعد، والرواية مع ذلك ضعيفة وقد رواها الصدوق بالسند بعينه عن طلحة عن أبي جعفر عليه السلام في الآية وفيها: قال كانوا ثلاثة أصناف: صنف ائتمروا وأمروا، وصنف ائتمروا ولم يأمروا، وصنف لم يأتمروا ولم يأمروا فهلكوا

• ورواها العياشي عن طلحة عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام في الآية قال افترق القوم ثلاث فرق فرقة انتهت واعتزلت، وفرقة أقامت ولم يقارف الذنوب، وفرقة اقترفت الذنوب، فلم ينج من العذاب إلا من انتهت، قال جعفر: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما صنع بالذين أقاموا ولم يقارفوا الذنوب؟ قال أبو جعفر عليه السلام: بلغني أنهم صاروا ذرا.

• والظاهر أنها جميعا رواية واحدة على ما في سندها من الضعف، وفي متنها من التشويش والاختلاف.

و. وفي الكافي، بإسناده عن إسحاق بن عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن الله خص عباده بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا حتى يعلموا، ولا يردوا ما لم يعلموا قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾

• أقول: ورواه العياشي عن إسحاق عنه عليه السلام، وروي مثله عن إسحاق بن عبد العزيز عن أبي الحسن الأول عليه السلام.

٦٦. عقوبة اليهود والتفريق:

المقطع [٦٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ

أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٧-١٦٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٩٧»:

١. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى آخر الآية تأذن وأذن بمعنى أعلم، واللام في قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ للقسم، والمعنى: واذكر إذ أعلم ربك أنه قد أقسم ليبعثن على هؤلاء الظالمين بعثا يدوم عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم ويوليهم سوء العذاب.

٢. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾:

أ. معناه أن من عقابه ما يسرع إلى الناس كعقاب الطاغي لطغيانه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] والدليل على ما فسرنا به قوله بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الظاهر أنه لم يؤت به إلا للدلالة على أنه تعالى ليس بسريع العقاب دائما وإلا فمضمون الآية ليس مما يناسب التذليل باسمي الغفور والرحيم لتمحضه في معنى المؤاخذة والانتقام فمعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إنه تعالى غفور للذنوب رحيم بعباده لكنه إذا قضى لبعض عباده بالعقاب لاستيجابهم ذلك بطغيان وعتو ونحو ذلك فسرعان ما يتبعهم إذ لا مانع يمنع عنه ولا عائق يعوقه.

ب. ولعل هذا هو معنى قول بعضهم: إن معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ سريع العقاب لمن شاء أن يعاقبه في الدنيا، وإن كان الأنسب أن يقال: إن ذلك معنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، ويرتفع به ما يمكن أن يتوهم أن كونه تعالى سريع العقاب ينافي كونه حليما لا يسرع إلى المؤاخذة.

٣. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ إلى آخر الآية، قال في المجمع: (دون في موضع الرفع بالابتداء، ولكنه جاء منصوبا لتمكنه في الظرفية، ومثله على قول أبي الحسن (لقد تقطع بينكم) هو في موضع الرفع فجاء منصوبا لهذا المعنى، وكذلك في قوله: (يوم القيامة يفصل بينكم) بين في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، وإن شئت كان التقدير: ومنهم جماعة دون ذلك فحذف الموصوف وقامت صفته مقامه)، والمراد بالحسنات والسيئات نعماء الدنيا وضرائها والباقي ظاهر.

٦٧. الخلف والكتاب والميثاق:

المقطع [٦٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٩-١٧٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٢٩٨»:

١. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ إلى آخر الآية، العرض ما لا ثبات له، ومنه قوله تعالى: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] أي ما لا ثبات له من شئونها، والمراد بعرض هذا الأدنى عرض هذه الحياة الدنيا والدار العاجلة غير أنه أشير إليها بلفظ التذكير لأخذها شيئا ليس له من الخصوصيات إلا أن يشار إليه تجاهلا بخصوصياتها تحقيرا لشأنها كأنها لا يخص بنعت من النعوت يرغب فيها، وقد تقدم نظيره في قول إبراهيم عليه السلام على ما حكاه الله، ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨] يريد الشمس.

٢. ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾:

أ. قول جزافي لهم قالوه، ولا معول لهم فيه إلا الاغترار بشعبهم الذي سموه شعب الله كما سموا أنفسهم أبناء الله وأحباءه، ولم يقولوا ذلك لوعد النفس بالتوبة لأن ذلك قيد لا يدل عليه الكلام، ولا أنهم قالوا ذلك رجاء للمغفرة الإلهية فإن للرجاء آثارا لا تلائم هذه المشيئة إذ رجاء الخير لا ينفك عن خوف الشر الذي يقابله وكما أن الرجاء يستدعي شيئا من ثبات النفس وطيبها كذلك الخوف يوجب قلق النفس واضطرابها ومساءتها فآية الرجاء الصادق توسط النفس بين سكون واضطراب، وجذب ودفع، ومسرة ومساءة، وأما من توغل في شهوات نفسه وانغمر في لذائذ الدنيا من غير أن يتذكر بعقوبة ما يجنيه ويقترفه ثم إذا ردعه رادع من نفسه أو غيره بما أوعد الله الظالمين، وذكره شيئا من سوء عاقبة المجرمين قال إن الله غفور رحيم يتخلص به من اللوم، ويخلص به إلى صافي لذائذه الدنية فليس ما يتظاهر به رجاء صادقا بل أمنية نفسانية كاذبة، وتسويل شيطاني موبق فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

ب. ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي لم يقنعوا بما أخذوه من العرض بمرة حتى يكون تركهم ذلك ورجوعهم إلى اتقاء محارم الله نحوا من التوبة.

ج. وقولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ نوعا من الرجاء يتلبس به التائبون بل كلما وجدوا شيئا من عرض الدنيا أخذوه من غير أن يراقبوا الله تعالى فيه فالجملة أعني قوله: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ في معنى قوله تعالى في وصفهم في موضع آخر: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: ٧٩]

٣. ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ كان الواو للحال، والجملة حال عن ضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وقيل الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ في صدر الآية، ولا يخلو من بعد، والمعنى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي من بعد هؤلاء الأسلاف من بني إسرائيل وحالهم في تقوى الله واجتناب محارمه ما وصف ﴿خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ وتحملوا ما فيه من المعارف والأحكام والمواعظ والعبر، وكان لازمه أن يتقوا ويختاروا الدار الآخرة، ويتركوا أعراض الدنيا الفانية الصارفة عما عند الله من الثواب الدائم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ وينكبون على اللذائذ الفانية العاجلة، ولا يبالون بالمعصية وإن كثرت ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قولا بغير الحق ولا يرجعون عن المعصية بالمرة والمرتين بل هم على قصد العود إليها كلما أمكن ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ ولا يتناهون عما اقترفوه من المعصية.

٤. ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ وهو الميثاق المأخوذ عليهم عند حملهم إياه ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ والحال أنهم درسوا ما فيه، وعلموا بذلك أن قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ قول بغير الحق ليس لهم أن يتفوهوا به، وهو يجرئهم على معاصي الله وهدم أركان دينه، ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لدوام ثوابها وأمنها من كل مكروه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

٥. ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾:

أ. قال في المجمع: (أمسك ومسك وتمسك واستمسك بالشيء بمعنى واحد أي اعتصم به)، وتخصيص إقامة الصلاة بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها وكونها ركنا من الدين يحفظ بها ذكر الله والخضوع إلى مقامه الذي هو بمنزلة الروح الحية في هيكل الشرائع الدينية.

ب. والآية تعد التمسك بالكتاب إصلاحا والإصلاح يقابل الإفساد وهو الإفساد في الأرض أو إفساد المجتمع البشري فيها، ولا تفسد الأرض ولا المجتمع البشري إلا بإفساد طريقة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والدين الذي يشتمل عليه الكتاب الإلهي النازل في عصر من الأعصار هو المتضمن لطرق الفطرة بحسب ما يستدعيه استعداد أهله فإن الله سبحانه يذكر في كلامه أن الدين القيم الذي يقوم بحوائج

الحياة هي الفطرة التي فطر الناس عليها، والخلقة التي لا حقيقة لهم وراءها قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] ثم قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] والإسلام هو التسليم لله سبحانه في سننه الجارية في تكوينه المبتنية عليها تشريعه.

ج. فالآيتان، كما ترى، تناديان بأن دين الله سبحانه هو تطبيق الإنسان حياته على ما تقتضيه فيه قوانين التكوين ونواميسه حتى يقف بذلك موقفا تتحراه نفسية النوع الإنساني ثم يسير في مسيرها أي يعود بذلك إنسانا نسميه إنسانا طبيعيا ويتربى تربية يستدعيها ذاته بحسب ما ركب عليه تركيبه الطبيعي، فما تقتضيه نفسية الإنسان الطبيعية من الخضوع إلى المبدإ الغيبي الذي يقوم بإيجاده وإبقائه وإسعاده، وتوفيق شئون حياته مع القوانين الحاكمة في الكون حكومة حقيقية هو الدين المسمى بالإسلام الذي يدعو إليه القرآن وسائر كتب الله السماوية المنزلة على أنبيائه ورسله.

د. فإصلاح شئون الحياة الإنسانية وتخليصها من كل دخيل خرافي، ووضع الإصر والأغلال التي اختلقتها الأوهام والأهواء ثم وضعتها على الناس، جزء معنى الدين المسمى بالإسلام لا أثر من آثاره وحكم من أحكامه حتى تختلف فيه الآراء فيسلمه مسلم، ويرده، راد، ويبحث فيه باحث منصف فيتبع ما أدى إليه جهد نظره.

هـ. وبعبارة أخرى: الذي يدعي إليه الناس بمنطق الدين الإلهي هو الشرائع والسنن القائمة بمصالح العباد في حياتهم الدنيوية والأخروية لا أنه يضع مجموعة من معارف وشرائع ثم يدعي أن المصالح الإنسانية تطابقه وهو يطابقها فافهم ذلك.

و. وإياك أن تتوهم أن الدين الإلهي مجموع أمور من معارف وشرائع جافة تقليدية لا روح لها إلا روح المجازفة بالاستبداد، ولا لسان لها إلا لسان التأمر الجاف والتحكم الجافي وقد قضى شارعها بوجوب اتباعها والانقياد لها تجاه ما هيأ لهم بعد الموت من نعيم مخلد للمطيعين منهم، والعذاب المؤبد للعاصين، ولا رابط لها يربطها بالنواميس التكوينية الماسة للإنسان الحاكمة في حياته القائمة بشئونها القيمة بإصلاحها فتعود الأعمال الدينية أغلالا غلت بها أيدي الناس في دنياهم، وأما الآخرة فقد ضمنت إصلاحها إرادة مولوية إلهية فحسب، وليس للمنتحل بالدين في دنياه من سعادة الحياة إلا ما استلذها

بالعادة كمن اعتاد بالأفيون والسم حتى عاد يلتذ بما يتألم به المزاج الطبيعي السالم، ويتألم بما يلتذ به غيره، فهذا من الجهل بالمعارف الدينية، والفرية على ساحة شارعة الطاهرة يدفعه الكلام الإلهي فكم من آية تتبرأ من ذلك بتصريح أو تلويح أو بإشارة أو كناية وغير ذلك.

ز. وبالجملة الكتاب الإلهي يتضمن مصالح العباد، وفيه ما يصلح المجتمع الإنساني بإجرائه فيه بل الكتاب الإلهي هو الكتاب الذي يشتمل على ذلك، والدين الإلهي هو مجموع القوانين المصلحة، ومجموع القوانين المصلحة هو الدين فلا يدعو الدين الناس إلا إلى إصلاح أعمالهم وسائر شئون مجتمعهم ويسمى ذلك إسلاما لله لأن من جرى على مجرى الإنسان الطبيعي الذي خطه له التكوين فقد أسلم للتكوين ووافقه بأعماله فيما يقتضيه وموافقته والسير على المسير الذي مهده وخطه إسلام لله سبحانه في ما يريده منه، وليس يدعو الدين إلى متابعة مواد قوانينه ومحتوياته ثم يدعي أن في ذلك خيرهم وسعادتهم حتى يكون لشاك أن يشك فيه،

٦. والآية أعني قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ الآية في نفسها عامة مستقلة لكنها بحسب دخولها في سياق الكلام في بني إسرائيل معتنية بشأنهم، والمراد بالكتاب بهذا النظر التوراة أو هي والإنجيل.

٦٨. رفع الجبل فوق بني إسرائيل وأخذ الميثاق:

المقطع [٦٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٠٢»:

١. ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ الآية، النتق قلع الشيء من أصله، والظلة هي الغمامة، وما يستظل بها من نحو السقف، والباقي ظاهر.

٢. والآية تقص رفع الطور فوق رؤوس بني إسرائيل، وقد تقدمت هذه القصة مكررة في سورتي البقرة والنساء.

٣. أحاديث وآثار:

أ. وفي تفسير القمي: في معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ الآية، قال الصادق عليه السلام: لما أنزل الله التوراة على بني إسرائيل لم يقبلوه، فرفع الله عليهم جبل طور سيناء، فقال لهم موسى: إن لم تقبلوا

وقع عليكم الجبل، فقبلوه وطأطئوا رؤوسهم.

ب. وفي الاحتجاج عن أبي بصير قال كان مولانا أبو جعفر محمد بن علي عليه السلام جالسا في الحرم، وحوله جماعة من أوليائه، إذ أقبل طاووس اليماني في جماعة من أصحابه، ثم قال لأبي جعفر عليه السلام: أتأذن لي في السؤال؟ قال أذنا لك فاسأل، فسأله عن سؤال وأجابه وكان فيما سأله قال فأخبرني عن طائر طار ولم يطر قبلها ولا بعدها، ذكره الله عز وجل في القرآن، ما هو؟ فقال: طور سيناء أطاره الله عز وجل، على بني إسرائيل الذين أظلهم بجناح منه، فيه ألوان العذاب حتى قبلوا التوراة، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ الآية.

• أقول: وقد روي ما في معنى الرواية الأولى: من طرق أهل السنة عن ثابت بن الحجاج قال جاءتهم التوراة جملة واحدة، فكبر عليهم فأبوا أن يأخذوه، حتى ظلل الله عليهم الجبل فأخذوه عند ذلك، والرواية الثانية: من طرقهم عن ابن عباس في مسائل كتبها هرقل ملك الروم إلى معاوية يسأله عنها فقيل له: لست هناك وإنك متى تخطئ شيئا في كتابك إليه يغتمزه فيك فاكتب إلى ابن عباس فكتب إليه بها فأرسل ذلك إلى قيصر فقال قيصر: ما يعلم هذا إلا نبي أو أهل بيت نبي.

ج. واعلم أن في الآية بعض روايات أخر تقدمت في نظيرة الآية من سورة البقرة فراجعها إن شئت.

٦٩. أخذ الميثاق على بني آدم وإشهادهم على أنفسهم:

المقطع [٦٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٠٧»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى آية الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ وبيان عالم الذر والفطرة]، خلاصته:

أ. بيان أن الآية تدل على أخذ الميثاق من بني آدم في عالم الذر، وأن الله أخرج ذريتهم من ظهورهم

وأشهدهم على أنفسهم، وأخذ منهم الإقرار بالربوبية.

ب. توضيح أن الإشهاد في الآية هو إراءة حقيقة النفس، وأن قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ بيان لما أشهدوا عليه، وقولهم: ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ اعتراف بوقوع الشهادة.

ج. الرد على من أنكر دلالة الآية على عالم الذر، وبيان أن نسيان الموقف لا يضر بتمام الحجة، لأن أصل المعرفة بالربوبية باقٍ في الفطرة.

د. إثبات أن للإنسان نشأة سابقة على هذه النشأة الدنيوية، وهي النشأة الملكوتية التي يشهد فيها الإنسان ربه بلا حجاب.

هـ. بيان أن هذه النشأة السابقة ليست زمانية منفصلة، بل هي مع هذه النشأة محيطة بها، وهي بمنزلة قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)﴾

و. عرض الروايات المتواترة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والصحابة في إثبات عالم الذر وأخذ الميثاق.

ز. الرد على شبهات المنكرين، ومنها: استحالة نسيان الجمع الكثير، وعدم دلالة اللفظ على الإخراج من صلب آدم، واستحالة التكليف مع النسيان.

٧٠. مثل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها:

المقطع [٧٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٣٢»:

١. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ إلى آخر الآية:

أ. معنى إيتاء الآيات على ما يعطيه السياق التلبس من الآيات الأنفسية والكرامات الخاصة الباطنية بما يتنور به طريق معرفة الله له، وينكشف له ما لا يبقى له معه ريب في الحق والانسلاخ خروج

الشيء وانتزاعه من جلده، وهو كناية استعارية عن أن الآيات كانت لزمتها لزوم الجلد فخرج منها الخبث في ذاته، والإتباع كالتبع والإتباع التعقيب واقتفاء والأثر يقال: تبع وأتبع واتبع، والكل بمعنى واحد، والغي والغواية هي الضلال كأنه خروج من الطريق للقصور عن حفظ المقصد الذي يوصل إليه الطريق ففيه نسيان المقصد والغاية، فالمتحير في أمره وهو في الطريق غوي، والخارج عن الطريق وهو ذاكر لمقصده ضال، وهو الأنسب لمورد الآية فإن صاحب النبإ بعد ما انسلخ عن آيات الله وأتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكن من إنجاء نفسه عن ورطة الهلاك، وربما استعمل كل من الغواية والضلالة في معنى واحوهو الخروج عن الطريق الموصل إلى الغاية.

ب. وقد اختلف المفسرون في تعيين من هو صاحب النبإ في هذه الآية على أقوال مختلفة سنشير إلى جلها أو كلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

ج. والآية، كما ترى، أبهمت اسمه واقتصرت على الإشارة إلى إجمال قصته لكنها مع ذلك ظاهرة في أنه نبأ واقع لا مجرد تمثيل فلا وقع لقول من قال: إنها مجرد تمثيل من غير نبإ واقع.

د. والمعنى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على بني إسرائيل أو على الناس خبرا عن أمر عظيم وهو ﴿نَبَأَ﴾ الرجل ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنا﴾ وكشفنا لباطنه عن علائم وآثار إلهية عظام يتنور له بها حق الأمر ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ ورفضها بعد لزومها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ﴾ فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

٢. ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ الآية:

أ. الإخلاد اللزوم على الدوام، والإخلاد إلى الأرض اللصوق بها وهو كناية عن الميل إلى التمتع بالملاذ الدنيوية والتزامها، واللهث من الكلب أن يدلع لسانه من العطش.

ب. فقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها﴾ أي لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات وقربناه إلينا لأن في القرب إلى الله ارتفاعا عن حضيض هذه الدنيا التي هي بما لها من اشتغال الإنسان بنفسها عن الله وآياته أسفل سافلين، ورفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهية ظاهرية تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعادة للإنسان لأن تمام تأثيرها في ذلك منوط بمشيئة الله، والله سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه وأقبل إلى غيرهوهي الحياة الأرضية اللاهية عن الله ودار كرامته فإن الإعراض عن الله سبحانه وتكذيب آياته ظلم، وقد حق القول منه سبحانه أنه لا يهدي القوم الظالمين، وأن الذين كفروا وكذبوا بآياته أولئك أصحاب

النار هم فيها خالدون.

ج. ولذلك عقب تعالى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها﴾ بقوله: ﴿لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ﴾ فالتقدير: لكنا لم نشأ ذلك لأنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان ذلك موردا لإضلالنا لا لهدايتنا كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]

٣. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي إنه ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته ومنعته أو تركته و﴿تَحْمِلْ﴾ من الحملة لا من الحمل ﴿ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ فالتكذيب منهم سجية وهيئة نفسانية خبيثة لازمة فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم ويتكرر التكذيب بها منهم ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ وهو مصدر أي اقصص قصصا أو اسم مصدر أي اقصص القصة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينقادوا للحق وينتزعوا عن الباطل.

٤. ﴿ساءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَأَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ذم لهم من حيث وصفهم، وإعلام لهم أنهم لا يضرون شيئا في تكذيب آياته بل ذلك ظلم منهم لأنفسهم إذ يستضر بذلك غيرهم.

٥. ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾:

أ. اللام في ﴿الْمُهْتَدِي﴾ و﴿الْخاسِرُونَ﴾ يفيد الكمال دون الحصر ظاهرا.

ب. ومفاد الآية أن مجرد الاهتداء إلى شيء لا ينفع شيئا ولا يؤثر أثر الاهتداء إلا إذا كانت معه هداية الله سبحانه فهي التي يكمل بها الاهتداء، وتتحتم معها السعادة، وكذلك مجرد الضلال لا يضر ضررا قطعيا إلا بانضمام إضلال الله سبحانه إليه فعند ذلك يتم أثره، ويتحتم الخسران.

ج. فمجرد اتصال الإنسان بأسباب السعادة كظاهر الإيمان والتقوى وتلبسه بذلك لا يورده مورد النجاة، وكذلك اتصاله وتلبسه بأسباب الضلال لا يورده مورد الهلاك والخسران إلا أن يشاء الله ذلك فيهدي بمشيئته من هدى، ويضل بها من أضل فيئول المعنى إلى أن الهداية إنما تكون هداية حقيقية تترتب عليها آثارها إذا كانت لله فيها مشية، وإلا فهي صورة هداية وليست بها حقيقة، وكذلك الأمر في الإضلال، وإن شئت فقل: إن الكلام يدل على حصر الهداية الحقيقية في الله سبحانه وكذلك الإضلال ولا يضل به إلا الفاسقين.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا﴾ الآية: قال: حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: أنه أعطي بلعم بن باعوراء الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون، فلما مر فرعون في طلب موسى وأصحابه، قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمر في طلب موسى، فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها، فأنطقها الله عز وجل فقالت ويلك على ما ذا تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ ولم يزل يضربها حتى قتلها فانسلخ الاسم من لسانه، وهو قوله: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ، وَلَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها، وَلكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ وهو مثل ضربه الله.

• أقول: قوله عليه السلام: (وهو مثل ضربه الله) الظاهر أنه يشير إلى نبإ بلعم، وسيجيء الكلام في معنى الاسم الأعظم في الكلام على الأسماء الحسنى إن شاء الله.

ب. أخرج الفرياني وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها﴾ قال هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن أبر.

ج. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء، وفي لفظ: بلعام بن عامر، الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل.

• أقول: وقد روي كون اسمه بلعم وكونه من بني إسرائيل عن غير ابن عباس وروي عنه غير ذلك.

د. وفي روح المعاني: عند ذكر القول، بأن الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي الشاعر: أنه كان قرأ الكتب القديمة، وعلم أن الله تعالى يرسل رسولا، فرجا أن يكون هو ذلك الرسول، فاتفق أن خرج إلى البحرين وتنبأ رسول الله ﷺ، فأقام هناك ثماني سنين ثم قدم، فلقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه، فدعاه إلى الإسلام، وقرأ عليه سورة يس، حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه، فتبعته قريش تقول: ما تقول يا أمية؟ قال: حتى أنظر في أمره، فخرج إلى الشام وقدم بعد وقعة بدر يريد أن يسلم، فلما أخبر بها ترك الإسلام وقال: لو كان نبيا ما قتل ذوي قرابته، فذهب إلى الطائف ومات به، فأتت أخته

الفارعة إلى رسول الله ﷺ، فسألها عن وفاته فذكرت له أنه أنشد عند موته:

كل عيش وإن تطاول دهرا...صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي...في قلال الجبال أرعى الوعولا

إن يوم الحساب يوم عظيم...شاب فيه الصغير يوما ثقيلا

ثم قال ﷺ لها أنشديني من شعر أخيك فأنشدت:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا...ولا شيء أعلى منك جدا وأمجد

مليك على عرش السماء مهيمن...لعزته تعنو الوجوه وتسجد

من قصيدة طويلة أتت على آخرها، ثم أنشدته قصيدته التي يقول فيها:

وقف الناس للحساب جميعاً...فشقي معذب وسعيد

والتي فيها:

عند ذي العرش يعرضون عليه...يعلم الجهر والسرار الخفيا

يوم يأتي الرحمن وهو رحيم...إنه كان وعده مأتيا

رب إن تعف فالمعافاة ظني...أو تعاقب فلم تعاقب بريا

فقال رسول الله ﷺ: إن أخاك آمن شعره، وكفر قلبه، وأنزل الله تعالى الآية.

• أقول: والقصة مجموعة من عدة روايات، وقد ذكر في المجمع، إجمال القصة وذكر أن نزول الآية فيه مروي عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وأبي روق، والظاهر أن الآيات مكية نزلت بنزول السورة بمكة، وما ذكروه من باب التطبيق.

هـ. وفي المجمع: (وقيل: إنه أبو عامر بن النعمان بن صيفي الراهب، الذي سماه النبي ﷺ (الفاسق) وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسموح، فقدم المدينة فقال للنبي ﷺ: ما هذا الذي جئت به؟ قال: جئت بالحنيفية دين إبراهيم قال: فأنا عليها، فقال ﷺ: لست عليها، ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها، فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا وحيدا طريدا، فخرج إلى أهل الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا السلاح، ثم أتى قيصر وأتى بجند ليخرج النبي ﷺ من المدينة، فمات بالشام وحيدا طريدا، عن سعيد بن المسيب.

• أقول: وإشكال كون السورة مكية في محله، وقد روي في ذلك قصص لا جدوى في استقصائها.

و. وفيه، قال أبو جعفر عليه السلام: الأصل في ذلك بلعم ثم ضربه الله مثلا، لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة.

٧١. كثير من الجن والإنس خلقوا لجهنم:

المقطع [٧١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٣٤»:

١. ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ إلى آخر الآية، الذرء هو الخلق، وقد عرف الله سبحانه جهنم غاية لخلق كثير من الجن والإنس، ولا ينافي ذلك ما عرف في موضع آخر أن الغاية لخلق الخلق هي الرحمة وهي الجنة في الآخرة كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩] فإن الغرض يختلف معناه بحسب كمال الفعل ونهاية الفعل التي ينتهي إليها:

أ. ذلك أن النجار إذا أراد أن يصنع بابا عمد إلى أخشاب يهيئها له ثم هندسه فيها ثم شرع في النشر والنحت والخرط حتى أتم الباب فكمال غرضه من إيقاع الفعل على تلك الخشبات هو حصول الباب لا غير، هذا من جهة ومن جهة أخرى هو يعلم من أول الأمر أن جميع أجزاء تلك الخشبات ليست تصلح لأن تكون أجزاء للباب فإن للباب هيئة خاصة لا تجامع هيئة الخشبات، ولا بد في تغيير هيئتها من ضيعة بعض الأجزاء لخروجها عن هندسة العمل فصيرورة هذه الأبعاض فضلة يرمى بها داخلة في قصد الصانع مرادة له بإرادة تسمى قصدا ضروريا فللنجار في صنع الباب بالنسبة إلى الأخشاب التي بين يديه نوعان من الغاية: أحدهما الغاية الكمالية وهي أن يصنع منها بابا، والثاني الغاية التابعة وهي أن يصنع بعضها بابا ويجعل بعضها فضلة لا ينتفع بها وضيعة يرمى بها، وذلك لعدم استعدادها لتلبس صورة الباب.

ب. وكذا الزارع يزرع أرضا ليحصد قمحا فلا يخلص لذلك إلى يوم الحصاد إلا بعض ما صرفه من البذر، ويذهب غيره سدى يضيع في الأرض أو تفسده الهوام أو يخصفه المواشي والجميع مقصودة للزراع من وجه، والمحصول من القمح مقصود من وجه آخر.

ج. وقد تعلقت المشية الإلهية أن يخلق من الأرض إنسانا سويا يعبده ويدخل بذلك في رحمته، واختلاف الاستعدادات المكتسبة من الحياة الدنيوية على ما لها من مختلف التأثيرات لا يدع كل فرد من

أفراد هذا النوع أن يجري في مجراه الحقيقي ويسلك سبيل النجاة إلا من وفق له، وعند ذلك تختلف الغايات وصح أن لله سبحانه غاية في خلقة الإنسان مثلا وهو أن يشملهم برحمته ويدخلهم جنته، وصح أن لله غاية في أهل الخسران والشقاوة من هذا النوع وهو أن يدخلهم النار وقد كان خلقهم للجنة غير أن الغاية الأولى غاية أصلية كمالية، والغاية الثانية غاية تبعية ضرورية، والقضاء الإلهي المتعلق بسعادة من سعد وشقاوة من شقي ناظر إلى هذا النوع الثاني من الغاية فإنه تعالى يعلم ما يئول إليه حال الخلق من سعادة أو شقاء فهو مريد لذلك بإرادة تبعية لا أصلية.

د. وعلى هذا النوع من الغاية ينزل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وما في هذا المساق من الآيات الكريمة وهي كثيرة.

٢. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾:

أ. إشارة إلى بطلان استعدادهم للوقوع في مجرى الرحمة الإلهية، والوقوف في مهب النفحات الربانية، فلا ينفعهم ما يشاهدونه من آيات الله، وما يسمعونه من مواعظ أهل الحق، وما تلقنه لهم فطرتهم من الحجة والبينة، ولا يفسد عقل ولا عين ولا أذن في عمله وقد خلقها الله لذلك، وقد قال: ﴿لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم: ٣٠] إلا أن يكون الذي يغيره هو الله سبحانه فيكون من جملة الخلق لكنه سبحانه لا يغير ما أنعمه على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]

ب. فالذي أبطل ما عندهم من الاستعداد، وأفسد أعمال قلوبهم وأعينهم وآذانهم هو الله سبحانه فعل بهم ما فعل جزاء بما كسبوا نكالا فهم غيروا نعمة الله بتغيير طريق العبودية فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم فلا يفقهون بها، وجعل الغشاوة على أبصارهم فلا يبصرون بها، والوقر على آذانهم فلا يسمعون بها فهذه آية أنهم مسيرون إلى النار.

٣. ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾:

أ. نتيجة ما تقدم، وبيان لحالهم فإنهم فقدوا ما يتميز به الإنسان من سائر الحيوان، وهو تمييز الخير والشر والنافع والضار بالنسبة إلى الحياة الإنسانية السعيدة من طريق السمع والبصر والفؤاد.

ب. وإنما شبهوا من بين الحيوان العجم بالأنعام مع أن فيهم خصال السباع الضارية وخصائصها

كخصال الأنعام الراعية، لأن التمتع بالأكل والسفاد أقدم وأسبق بالنسبة إلى الطبع الحيواني فجلب النفع أقدم من دفع الضر، وما في الإنسان من القوى الدافعة الغضبية مقصودة لأجل ما فيه من القوى الجاذبة الشهوية، وغرض النوع بحسب حياته الحيوانية يتعلق أولا بالتغذي والتوليد، ويتحفظ على ذلك بإعمال القوى الدافعة فالآية تجري مجرى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾ [سورة [محمد: ١٢]

ج. وأما كونهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام، ولازمه ثبوت ضلال ما في الأنعام فلأن الضلال في الأنعام نسبي غير حقيقي فإنها مهتدية بحسب ما لها من القوى المركبة الباعثة لها إلى قصر الهمة في الأكل والتمتع غير ضالة فيما هيئت لها من سعادة الحياة ولا مستحقة للذم فيما أخذت إليه، وإنما تعد ضالة بقياسها إلى السعادة الإنسانية التي ليست لها ولا جهزت بما تتوسل به إليها، وأما هؤلاء المطبوع على قلوبهم وأعينهم وآذانهم فالسعادة سعادتهم وهم مجهزون بما يوصلهم إليها ويدلهم عليها من السمع والبصر والفؤاد لكنهم أفسدوها وضيعوا أعمالها ونزلوها منزلة السمع والبصر والقلب التي في الأنعام، واستعملوها فيما تستعملها فيه الأنعام وهو التمتع من لذائذ البطن والفرج فهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام، وإليهم يعود الذم.

٤. ﴿أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ﴾ نتيجة وبيان حال أخرى لهم وهو أن حقيقة الغفلة هي التي توجد عندهم فإنها بمشية الله سبحانه، ألبسها إياهم بالطبع الذي طبع به على قلوبهم وأعينهم وآذانهم والغفلة مادة كل ضلال وباطل.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها﴾ يقول: طبع الله عليها فلا تعقل ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ عليها غطاء عن الهدى ﴿لا يُبْصِرُونَ بِها، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾ أي جعل في آذانهم وقرا فلن يسمعوا الهدى.

ب. أخرج البيهقي في الأسماء والصفات عن عبد الله بن عمر بن العاصي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدى، ومن أخطأ ضل.

ج. أخرج الحكيم الترمذي وابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وأبو يعلى وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي الدرداء قال قال رسول الله ﷺ: خلق الله الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهواء، وصنف عليهم الحساب والعقاب، وخلق الله الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم قال الله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها، وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها، أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وجنس أجسادهم أجساد بني آدم، وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

• أقول: وسيأتي الكلام في الجن والشياطين من الإنس في مقام يناسبه إن شاء الله تعالى.

٧٢. الأسماء الحسنى والدعاء بها:

المقطع [٧٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٤١»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ ودلالته على التوحيد والإلحاد]، خلاصته:

أ. بيان أن الأسماء الحسنى لله هي الأسماء التي تدل على معاني كمالية خالصة من شوائب النقص، وأن كل اسم أحسن في الوجود فهو لله حقيقة.

ب. توضيح أن الناس في موقفهم من أسماء الله ثلاثة أصناف: مصيب يدعو بالأسماء الحسنى، وملحد يعدل بها إلى غيره، وملحد يثبت لله صفات النقص.

ج. إثبات أن الإلحاد في أسماء الله يشمل: تسمية غيره باسمه، وتسميته باسم غيره، وإثبات صفات النقص له، وتجريد الأسماء عن معانيها الكمالية.

د. بيان أن الدعاء في الآية بمعنى العبادة، وأن التسمية والنداء من لواحق العبادة، بدليل الآيات التي تضع الدعاء موضع العبادة.

هـ. توضيح أن الهداية من الله، والضلال هو عدم اهتداء المحل، وأن إسناد الإضلال إلى الله إنما

يكون بالاستدراج والإملاء جزاءً للضالين.

و. الرد على من حمل لام ﴿الْأَسْمَاءُ﴾ على العهد، وبيان أن الآية تدل على أن كل اسم أحسن فهو لله، لا يشاركه فيه أحد.

٢. وضع هنا مبحثا حول [الأسماء الحسنى (بحث في المعنى والطريق والانقسامات والاسم الأعظم والعدد والتوقيف)]، خلاصته:

أ. الطريق إلى معرفة الأسماء الحسنى هو الفطرة الإنسانية، فالإنسان يرى نفسه فقيراً محتاجاً، فيقضي بذات تقوم بحاجته وتسد خلته، وهي الله سبحانه، ثم يثبت له صفات الكمال التي يراها في الوجود، وينفي عنه صفات النقص.

ب. نثبت لله صفات الكمال (كالحياة والقدرة والعلم) بمعناها الثبوتي، وننفي عنها خصوصيات المصداق المؤدية إلى النقص والحاجة (كالحدود والآلات المادية)، فصفاته تعالى عين ذاته، وكل صفة عين الأخرى، فلا تمايز إلا بحسب المفهوم.

ج. الأسماء الحسنى تنقسم إلى: ثبوتية وسلبية، وذاتية وفعلية، ونفسية وإضافية، والصفة والاسم لا فرق بينهما إلا أن الصفة تدل على معنى يتلبس به الذات، والاسم يدل على الذات مأخوذة بوصف.

د. الآثار الموجودة في العالم تربطنا بأسماء الله، والأسماء تنسبنا إلى الذات المتعالية، والأسماء لها سعة وضيق بحسب آثارها، فبعضها خاص وبعضها عام، وتنتهي إلى الاسم الأعظم الذي يسع وحده جميع حقائق الأسماء.

هـ. الاسم الأعظم ليس اسماً لفظياً مؤلفاً من حروف مجهولة، بل هو حقيقة وجودية مؤثرة بحقيقتها لا بلفظها، والتأثير الحقيقي يدور مدار وجود الأشياء ومسانختها، والاسم اللفظي أو مفهومه الذهني لا أثر له في نفسه، ومعنى تعليم الله لعبده اسماً من أسمائه هو فتح طريق الانقطاع إليه تعالى.

و. لا دليل في القرآن على توقيفية أسماء الله، ولا على تعين عدد معين لها، وظاهر الآيات أن كل اسم في الوجود هو أحسن الأسماء في معناه فهو له تعالى، وما ورد من حديث (تسعة وتسعين اسماً) لا يدل على الحصر أو التوقيف.

ز. الأسماء الحسنى لله تعالى حقيقة وعلى نحو الأصالة، ولغيره بالتبع، والاشتراك المعنوي في ما

يطلق عليه وعلى غيره تدل عليه صيغ أفعل التفضيل والإضافة (كخير الحاكمين)

٣. وضع هنا مبحثا حول [الأسماء الحسنى في الروايات]، خلاصته:

أ. وردت روايات كثيرة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام في أن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة، ومن دعا بها استجيب له.

ب. روايات الإحصاء مختلفة في الأسماء التي تحصيها، وتتفق في أن العدد تسعة وتسعون، لكنها لا تدل على انحصار الأسماء الحسنى في هذا العدد، بل غاية ما تدل عليه أن من أسماء الله تسعة وتسعين من خاصتها أن من دعا بها استجيب له.

ج. هناك روايات أخرى تدل على أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين، كرواية الكافي التي تذكر ثلاثمائة وستين اسماً، والأدعية المأثورة تشتمل على أسماء غير ما ورد في القرآن.

د. الاسم الأعظم ليس اسماً لفظياً مؤلفاً من حروف الهجاء، بل هو حقيقة وجودية، والروايات التي تذكر أنه على ثلاثة وسبعين حرفاً تشير إلى حقيقة ذات مراتب، وأن الأنبياء أعطوا منها حروفاً بحسب مقاماتهم.

هـ. رواية الكافي في خلق اسم بالحروف غير متصوت تشير إلى أن الاسم ليس لفظاً ولا مفهوماً ذهنياً، بل هو ظهور من الذات المتعالية، والأسماء الثلاثة (الله، تبارك، تعالى) هي حجاب للاسم المكنون المخزون.

و. معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أن الأسماء منسوبة قائمة جميعاً بمقام لا خبر عنه ولا إشارة إليه إلا بعدم الخبر والإشارة.

ز. رواية (نحن الأسماء الحسنى) تأخذ الاسم بمعنى ما دل على الشيء، فالأنبياء والأوصياء أسماء دالة على الله وسائط بينه وبين خلقه، وهم المظهرون لأسمائه وصفاته.

٤. وضع هنا مبحثا حول [تحقيق معنى الأسماء الحسنى في الروايات وبيان حقيقتها]، خلاصته:

أ. بيان أن روايات الإحصاء لا تدل على انحصار أسماء الله في تسعة وتسعين، بل تدل على أن من أسمائه تسعة وتسعين لها خاصية الإجابة لمن دعا بها والإحصاء لمن أحصاها.

ب. توضيح أن الأسماء الإلهية غير محصورة بعدد، وأن في الأدعية المأثورة أسماء كثيرة غير ما ورد

في القرآن.

ج. إثبات أن الاسم الإلهي ليس مجرد لفظ، بل هو ظهور من الذات المتعالية، وأن الأسماء مترتبة بعضها فوق بعض، وينتهي إلى اسم مكنون مخزون.

د. بيان أن الاسم الأعظم على ثلاثة وسبعين حرفاً، وأن حقيقة ذلك ليست حروفاً هجائية، بل مراتب من الظهور الإلهي.

هـ. توضيح أن قول الصادق عليه السلام: (نحن الأسماء الحسنى) يعني أن الأئمة مظهرون لأسماء الله، ووسائط بينه وبين خلقه.

و. الرد على من يظن أن الأسماء الحسنى محصورة في روايات الإحصاء، وبيان أن الروايات تشير إلى ما هو أوسع من ذلك.

٧٣. الأمة الهادية والحق والعدل:

المقطع [٧٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٤٥»:

١. ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قد مر بعض ما يتعلق به من الكلام في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الآية ١٥٩] من السورة وتختص هذه الآية بأنها لوقوعها في سياق تقسيم الناس إلى ضال ومهتد، وبيان أن الملاك في ذلك دعاؤه سبحانه بأحسن الأسماء اللائقة بحضرته والإلحاد في أسمائه، تدل على أن النوع الإنساني يتضمن طائفة قليلة أو كثيرة مهتدية حقيقة إذ الكلام في الاهتداء والضلال الحقيقيين المستندين إلى صنع الله، ومن يهدي الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون، والاهتداء الحقيقي لا يكون إلا عن هداية حقيقية، وهي التي لله سبحانه، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، وغيره أن الهداية الحقيقية الإلهية لا تتخلف عن مقتضاها بوجه وتوجب العصمة من الضلال، كما أن الترديد الواقع في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس: ٣٥]، يدل على أن من يهدي إلى الحق يجب أن لا يكون مهتديا بغيره إلا بالله فافهم ذلك.

٢. وعلى هذا فإسناد الهداية إلى هذه الأمة لا يخلو عن الدلالة على مصونيتهم من الضلال

واعتصامهم بالله من الزيغ إما بكون جميع هؤلاء المشار إليهم بقوله: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ متصفين بهذه العصمة والصيانة كالأنبياء والأوصياء، وإما بكون بعض هذه الأمة كذلك وتوصيف الكل بوصف البعض نظير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦]، وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾ [المائدة: ٢٠]، وقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وإنما المتصف بهذه المزايا بعضهم دون الجميع.

٣. والمراد بالآية، والله أعلم، أنا لا نأمركم بأمر غير واقع أو خارج عن طوق البشر فإن ممن خلقنا أمة متلبسة بالاهتداء الحقيقي هادين بالحق لأن الله كرمهم بهدايته الخاصة.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال هم الأئمة.

• أقول: ورواه العياشي عن حمران عنه عليه السلام قال: وقال محمد بن عجلان عنه عليه السلام: (نحن هم) وقد تقدم ما يؤيده في البيان المتقدم.

ب. أخرج ابن أبي حاتم عن الربيع في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: إن من أمتي قوما على الحق، حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل.

ج. وفي تفسير البرهان، عن موفق بن أحمد عن السري عن ابن المنذر عن الحسين بن سعيد عن أبيه عن أبان بن تغلب عن فضل عن عبد الملك الهمداني عن زادان عن علي قال يفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعون فرقة، اثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهم الذين قال الله عز وجل في حقهم: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أنا وشيعتي.

• أقول: وروى العياشي عن زادان عنه عليه السلام: مثله، وفي آخره: (وهم على الحق) مكان قوله: (أنا وشيعتي)، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾، رواية العياشي عن أبي الصهباء عن علي عليه السلام ما في معناه، وكذا رواية السيوطي في الدر المنثور بطرق عنه مثله.

٧٤. الكافرون والاستدراج والكيد:

المقطع [٧٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٤٦»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾:

أ. الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة فدرجة، والاستدناء من أمر أو مكان، وقرينة المقام تدل على أن المراد به هنا الاستدناء من الهلاك إما في الدنيا أو في الآخرة.

ب. وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أن هذا التقريب خفي غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياة المادية فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتى يصرفهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم كما مر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧]

ج. ومن وجه آخر لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربهم وكذبوا بآياته سلبوا اطمئنان القلوب وأمنها بالتشبث بذيل الأسباب التي من دون الله، وعذبوا باضطراب النفوس وقلق القلوب وقصور الأسباب وتراكم النوائب، وهم يظنون أنها الحياة ناسين معنى حقيقة الحياة السعيدة فلا يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذابا وهم يحسبونه زيادة في النعمة حتى يردوا عذاب الآخرة وهو أمر وأدهى، فهم يستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون، قال تعالى: ﴿أَلا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]، وقال: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وهذا معنى آخر من الاستدراج لكن قوله تعالى بعده: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ لا يلائم ذلك فالمتعين هو المعنى الأول.

٢. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾:

أ. الإملاء هو الإمهال، وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ تعليل لمجموع ما في الآيتين، وفي قوله: ﴿وَأُمْلِي﴾ بعد قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ الآية، التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده للدلالة على

مزيد العناية بتحريمهم من الرحمة الإلهية وإيرادهم مورد الهلكة.

ب. وأيضا الإملاء هو إمهالهم إلى أجل مسمى، فيكون في معنى قوله: ﴿وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وهذه الكلمة هي قوله لآدم عليه السلام حين إهباطه إلى الأرض: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] وهو القضاء الإلهي والقضاء مختص به تعالى لا يشاركه فيه غيره، وهذا بخلاف الاستدراج الذي هو إيصال النعمة بعد النعمة وتجديدها فإنها نعم إلهية مفاضة بالوسائط من الملائكة والأمر فلهذا السبب جيء في الاستدراج بصيغة المتكلم مع الغير، وغير ذلك في الإملاء وفي الكيد الذي هو أمر متحصل من الاستدراج والإملاء إلى لفظ المتكلم وحده.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن سفيان بن السمط قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله إذا أراد بعبد خيرا فأذنب ذنبا، أتبعه بنقمة ويذكره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شرا فأذنب ذنبا، أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قوله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي.

ب. وفيه، بإسناده عن سماعة بن مهران قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾ قال: هو العبد يذنب الذنب فيجدد له النعم معه، تلهيه تلك النعم عن الاستغفار من ذلك الذنب، أقول: ورواه أيضا بإسناده عن ابن رئاب عن بعض أصحابنا عنه عليه السلام مثله.

٧٥. النبي نذير مبين وليس به جِنة:

المقطع [٧٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٤٧»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ في تركيب الكلام اختلاف شديد بينهم، والذي يستبق إلى الذهن من السياق أن يكون قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ كلاما تاما سيق للإنكار والتوبيخ ثم قوله: ﴿ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ الآية كلاما آخر سيق لبيان صدق النبي ﷺ في دعواه النبوة، وهو يشير إلى ما يتفكرون فيه كأنه قيل: أولم يتفكروا في أنه ما بصاحبهم من جنة الآية حتى يتبين لهم ذلك؟ نعم، ما به من جنة إن هو إلا نذير مبين.

٢. والتعبير عن النبي ﷺ بصاحبهم للإشارة إلى مادة الاستدلال الفكري فإنه ﷺ كان يصحبهم ويصحبونه طول حياته بينهم فلو كان به شيء من جنة لبان لهم ذلك البتة فهو فيما جاء به نذير لا مجنون، والجنة بناء نوع من الجنون على ما قيل وإن كان من الجائز أن يكون المراد به الفرد من الجن بناء على ما يزعمونه أن المجنون يحل فيه بعض الجن فيتكلم من فيه وبلسانه.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، وفيه، بإسناده عن الحسن الصيقل قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عما روى الناس: (تفكر ساعة خير من قيام ليلة) قلت: كيف؟ يتفكر؟ قال: يمر بالخربة أو بالدار فيقول أين ساكنوك؟ أين بانوك؟ ما لك لا تتكلمين؟

• أقول: وهو من قبيل إراءة بعض المصاديق الظاهرة.

ب. وفيه، بإسناده عن معمر بن خلاد قال سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله عز وجل.

ج. وفيه، بإسناده عن الربعي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: قال أمير المؤمنين عليه السلام: التفكر يدعو إلى البر والعمل به.

د. وفيه، بإسناده عن محمد بن أبي النصر عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته.

هـ. وفي تفسير القمي: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال: قال نكله إلى نفسه.

• أقول: ومعنى تركهم يعمهون في طغيانهم عدم إعانتهم على أنفسهم وتركهم وإياها بقطع التوفيق فينطبق على الوكول إلى النفس.

٧٦. النظر في ملكوت السماوات والأرض والتفكر:

المقطع [٧٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥ـ١٨٦]، وفيه المسائل التالية

«الميزان: ٨/ ٣٤٨»:

١. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآية قد مر كرارا أن الملكوت في عرف القرآن على ما يظهر من قوله تعالى: ﴿إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس: ٨٣] هو الوجه الباطن من الأشياء الذي يلي جهة الرب تعالى، وأن النظر إلى هذا الوجه واليقين متلازمان كما يفهم من قوله: ﴿وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، فالمراد توبيخهم في الإعراض والانصراف عن الوجه الملكوتي للأشياء لم نسوه ولم ينظروا فيه حتى يتبين لهم أن ما يدعوهم إليه هو الحق؟

٢. ﴿وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ عطف على موضع السماوات، وقوله ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لما الموصولة، ومعنى الآية: لم لم ينظروا في خلق السماوات والأرض وأي شيء آخر مما خلقه الله؟ لكن لا من الوجه الذي يلي الأشياء حتى ينتج العلم بخواص الأشياء الطبيعية بل من جهة أن وجوداتها غير مستقلة بنفسها مرتبطة بغيرها محتاجة إلى رب يدبر أمرها وأمر كل شيء، وهو رب العالمين.

٣. ﴿وَأَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ عطف على قوله: ﴿مَلَكُوتِ﴾ الآية لكونه في تأويل المفرد والتقدير: أولم ينظروا في أنه عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فإن النظر في هذا الاحتمال ربما صرفهم عن التمادي على ضلالهم وغيهم فأغلب ما يصرف الإنسان عن الاشتغال بأمر الآخرة، ويوجه وجهه إلى الاغترار بالدنيا نسيان الموت الذي لا يدري متى يرد رائده، وأما إذا التفت إلى ذلك وشاهد جهله بأجله وأن من المرجو المحتمل أن يكون قد اقترب منهم فإنه يقطع منابت الغفلة ويمنعه عن اتباع الهوى وطول الأمل.

٤. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ الضمير للقرآن على ما يستدعيه السياق، وفي الكلام إيئاس من إيمانهم بالمرة أي إن لم يؤمنوا بالقرآن وهو تجليه سبحانه عليهم بكلامه يكلمهم بما يضطر عقولهم بقبوله من الحجج والبراهين والموعظة الحسنة وهو مع ذلك معجزة باهرة فلا يؤمنون بشيء آخر البتة، وقد أخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم فلا سبيل لهم إلى فقه القول والإيمان بالحق، ولذلك عقبه بقوله في الآية التالية: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ﴾ الآية.

٥. ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ العمه الحيرة والتردد في الضلال

أو عدم معرفة الحجة، وإنما لم يذكر ما يقابله وهو أن من يهدي فلا مضل له لأن الكلام مسوق لتعليل الآية السابقة: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ الآية كأنه قيل: لم لا يؤمنون بحديث البتة؟ فقيل: لأن من يضلل الله الآية.

٧٧. علم الساعة عند الله لا يعلمه إلا هو:

المقطع [٧٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٧٠»:

١. ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا هُوَ﴾:

أ. الساعة ساعة البعث والرجوع إلى الله لفصل القضاء العام فاللام للعهد لكنه صار في عرف القرآن والشرع كالحقيقة في هذا المعنى، والمرسى اسم زمان ومكان ومصدر ميمي من أرسيت الشيء إذا أثبته، أي متى وقوعها وثبوتها، والتجلية الكشف والإظهار يقال جلاه فانجلى أي كشف عنه فانكشف.

ب. فقوله: ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يظهرها ولا يكشف عنها في وقتها وعند وقوعها إلا الله سبحانه، ويدل ذلك على أن ثبوتها ووجودها والعلم بها واحد أي إنها محفوظة في مكمن الغيب عند الله تعالى يكشف عنها ويظهرها متى شاء من غير أن يحيط بها غيره سبحانه أو يظهر لشيء من الأشياء، وكيف يمكن أن يحيط بها شيء من الأشياء أو ينكشف عنده، وتحققها وظهورها يلازم فناء الأشياء، ولا شيء منها يسعه أن يحيط بفناء نفسه أو يظهر له فناء ذاته، والنظام السببي الحاكم في الكون يتبدل عند وقوعها، وهذا العلم الذي يصحبها من هذا النظام.

ج. ومن هنا يظهر: أن المراد بقوله: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾، والله أعلم، ثقل علمها في السماوات والأرض وهو بعينه ثقل وجودها فلا ثمرة لاختلافهم في أن المراد بثقل الساعة فيها ثقل علمها عليها، أو المراد ثقل صفتها على أهل السماوات والأرض لما فيها من الشدائد والعقاب والحساب والجزاء، أو ثقل وقوعها عليهم لما فيها من انطواء السماء وانتشار الكواكب واجتماع الشمس والقمر وتسيير الجبال، أو أن السماوات والأرض لا تطيق حملها لعظمتها وشدتها، وذلك أنها ثقيلة بجميع ما يرجع إليها من ثبوتها والعلم بها وصفاتها على السماوات والأرض، ولا تطيق ظهورها لملازمته فناءها والشيء لا يطيق فناء نفسه.

د. ومن ذلك يظهر أيضا وجه قوله سبحانه: ﴿لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فإن البغتة والفجأة ظهور الشيء من غير أن يعلم به قبل ظهوره، والساعة لثقلها لا يظهر وصف من أوصافها، ولا جزء من أجزائها قبل ظهورها التام، ولذلك كان ظهورها لجميع الأشياء بغتة.

هـ. ومن هنا أيضا يظهر معنى تتمة الآية: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ الآية على ما سيأتي.

٢. ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب: (الحفي العالم بالشيء) وكأنه مأخوذ من حفيت في السؤال إذا ألحت، وقوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ متخلل بين يسألونك والظرف المتعلق به، والأصل: يسألونك عنها كأنك حفي عالم بها، وهو يلوح إلى أنهم كرروا السؤال وألحوا عليه، ولذلك كرر السؤال والجواب بوجه في اللفظ.

ب. ففي قوله ثانيا: ﴿يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها﴾ إشعار أو دلالة على أنهم حسبوا أن جوابه ﷺ بأمر ربه أولا: ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ من قبيل إحالة علم ما لا يعلمه إلى ربه، على ما هو من أدب الدين، ولذا قال: ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ إشعارا بالعبودية ووظيفتها، وأن قوله: ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ﴾ وصف لعظمتها من غير أن يرتبط ذلك بالعلم بوقتها، ولذلك كله كرروا السؤال ليقول ﷺ في ذلك شيئا أو يعترف بجهله لنفسه.

ج. فأمره الله سبحانه أن يعيد الجواب عليهم: ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللهِ﴾ دالا به على أن القول جد والجواب فصل، فهو من العلم لا من الجهل، والغرض به إفادة العلم بانحصار علمها فيه تعالى دون الجهل بها، وإحالة علمها إلى ربه عملا بوظيفة العبودية، ولذا بدل قوله في الجواب الأول ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾ في هذا الجواب الثاني إلى قوله ﴿عِنْدَ اللهِ﴾

٣. ثم قال: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ يشير به إلى جهلهم بمعنى قوله: ﴿إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي﴾ الآية فإنهم لأنسهم بالحس والمحسوس يقيسون كل شيء سمعوه إلى المحسوس، ويعممون حكمه عليه فيظنون أن كل ما وصف لهم بوجه يسع لهم أن يعلموه ويحيطوا به علما، وأنه لو كان هناك أمر أخفي عنهم فإنما يخفى بالكتمان، ولو أظهر لهم أحاطوا به علما كسائر ما عندهم من الأمور المحسوسة، وقد أخطأ قياسهم واشتبه عليهم فإن بعض ما في الغيب ومن جملته الساعة لا يطيق علمه إلا الله سبحانه.

٤. وقد ظهر من الآية أن علم الساعة مما لا يطيقه شيء من الأشياء إلا الله سبحانه، وكذا حقيقة ما له من الأوصاف والنعوت فإن الجميع ثقيلة بثقلها.

٥. أحاديث وآثار: في تفسير القمي: في قوله ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾ الآية، قال: قال: إن قريشا بعثوا العاص بن وائل السهمي، والنضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط، إلى نجران ليتعلموا من علماء اليهود مسائل، يسألونها عن رسول الله ﷺ، وكان فيها سألوا محمدا متى تقوم الساعة، أنزل الله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها﴾ الآية.

٧٨. النبي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً:

المقطع [٧٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٧٢»:

١. ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللهُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. لما كان في سؤالهم الغيب عنه ﷺ إيهام أن دعواه النبوة دعوى لعلم الغيب، ولا يعلم الغيب حقيقة غيره تعالى إلا بوحي وتعليم إلهي، أمر نبيه ﷺ أن يتبرأ من دعوى العلم بالغيب.

ب. وحقيقة السبب في اختصاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره تعالى أيا ما كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنه غائب، ولا شيء غير محدود ولا غير متناه محيط بكل شيء إلا الله سبحانه فله العلم بالغيب، لكن لما كان أولئك السائلون لا يسعهم فهم هذا السبب على ما لهم من الأفهام البسيطة العامية أمره ﷺ أن يكلمهم بما يسعهم فهمه، وهو أن العلم بالغيب يهدي الإنسان إلى كل خير وشر والعادة تأبى أن يعلم أحد الخير والشر ويهتدي إلى موقعهما ثم لا يستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان إذا لم يستكثر من الخير ولم يوق من الشر كيف يعلم الغيب؟

ج. فقوله في صدر الآية: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ الآية وصف لنفسه بما ينافي نتيجة العلم بالغيب ثم قوله: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الآية بيان نتيجة العلم بالغيب، لينتج من الفصلين عدم علمه بالغيب، ثم قوله: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بيان حقيقة حاله فيما يدعيه من الرسالة من غير أن يكون معها دعوى أخرى.

٢. أحاديث وآثار: في تفسير العياشي، عن خلف بن حماد عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام

قال: إن الله يقول في كتابه: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ، لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ يعني الفقر.

• أقول: ورواه أيضا الصدوق في المعاني، بإسناده عن خلف بن حماد عن رجل عنه عليه السلام، ورواه الحسين بن بسطام في طب الأئمة، عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام.

٧٩. خلق آدم وحواء وشرك بعض الناس بالله:

المقطع [٧٩] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ـ١٩٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٧٤»:

١. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ إلى آخر الآيتين.، الكلام في الآيتين جار مجرى المثل المضروب لبني آدم في نقضهم موثقهم الذي واثقوه، وظلمهم بآيات الله.

٢. والمعنى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ يا معشر بني آدم ﴿مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ هو أبوكم ﴿وَجَعَلَ مِنْها﴾ أي من نوعها ﴿زَوْجَها لِيَسْكُنَ﴾ الرجل الذي هو النفس الواحدة ﴿إِلَيْها﴾ أي إلى الزوج التي هي امرأته ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاها﴾ والتغشي هو الجماع ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً﴾ والمحمول النطفة وهي خفيفة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي استمرت الزوج بحملها تذهب وتجيء وتقوم وتقعد حتى نمت النطفة في رحمها وصارت جنينا ثقيلا أثقلت به الزوج ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُما﴾ وعاهداه وواثقاه ﴿لَئِنْ آتَيْتَنا﴾ ورزقتنا ولدا ﴿صالِحاً﴾ يصلح للحياة والبقاء بكونه إنسانا سويا تام الأعضاء غير ذي عاهة وآفة فإن ذلك هو المرجو للولد حين ولادته وبدء نشوئه دون الصلاح الديني ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك بإظهار نعمتك، والانقطاع إليك في أمره لا نميل إلى سبب دونك، ولا نتعلق بشيء سواك.

٣. ﴿فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً﴾ كما سألاه وجعله إنسانا سويا صالحا للبقاء وقرت به أعينهما ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾ من الولد الصالح حيث بعثتهما المحبة والشفقة عليه أن يتعلقا بكل سبب سواه، ويخضعا لكل شيء دونه مع أنهما كانا قد اشترطا له أن يكونا شاكرين له غير كافرين لنعمته وربوبيته فنقضا عهدهما وشرطهما، وهكذا عامة الإنسان إلا من رحمة الله مهتمون بنقض مواثيقهم وخلف وعدهم، وعدم الوفاء بعهدهم مع الله ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

٤. والقصة، كما ترى:

أ. يمكن أن يراد بها بيان حال الأبوين من نوع الإنسان في استيلادهما الولد بالاعتبار العام النوعي فإن كل إنسان فإنه مولود أبويه فالكثرة الإنسانية نتيجة أبوين يولدان ولدا كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ﴾ [الحجرات: ١٣]

ب. والغالب على حال الأبوين وهما يحبان ولدهما ويشفقان عليه أن ينقطعا طبعا إلى الله في أمر ولدهما وإن لم يلتفتا إلى تفصيل انقطاعهما كما ينقطع راكب البحر إلى الله سبحانه إذا تلاطمت وأخذت أمواجها تلعب به ينقطع إلى ربه وإن لم يعبد ربا قط فإنما هو حال قلبي يضطر الإنسان إليه.

ج. فللأبوين انقطاع إلى ربهما في أمر ولدهما لئن آتيتنا صالحا نرضاه لنكونن من الشاكرين فلما استجاب لهما وآتاهما صالحا جعلا له شركاء وتشبثا في حفظه وتربيته بكل سبب، ولاذا إلى كل كهف.

د. ويؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فإن المراد بالنفس وزوجها في صدر الكلام لو كان شخصين من الإنسان بعينهما كآدم وحواء مثلا كان من حق الكلام أن يقال: فتعالى الله عن شركهما أو عما أشركا.

هـ. على أنه تعالى يعقب هذه الآية بآيات أخر يذم فيها الشرك ويوبخ المشركين بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عبادة غير الله، وحاشا أن يكون صفي الله آدم يعبد غير الله وقد نص الله سبحانه على أنه اجتباه وهداه، ونص على أن لا سبيل للضلال على من هداه الله وأي ضلال أضل من عبادة غير الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى﴾ [طه: ١٢٢]، وقال: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥] وبذلك يظهر أن الضلال والشرك غير منسوب إلى آدم وإن لم نقل بنبوته أو قلنا بها ولم نقل بعصمة الأنبياء عليهمالسلام.

و. وإن أريد بالنفس وزوجها في القصة آدم وزوجته كان المراد بشركهما المذكور في الآية أنهما اشتغلا بتربية الولد واهتما في أمره بتدبير الأسباب والعوامل، وصرفهما ذلك عن بعض ما لهما من التوجه إلى ربهما والخلوص في ذلك، ومن الدليل على ذلك قوله تعالى حكاية عنهما: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ وقد تقدم في تفسير أوائل هذه السورة في قوله: ﴿وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ﴾ [الآية: ١٧] أن الشاكرين في عرف

القرآن هم المخلصون، بفتح اللام، الذين لا سبيل لإبليس عليهم ولا دبيب للغفلة في قلوبهم فالعتاب المتوجه إليهما في قوله: ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إنما هو بالشرك بمعنى الاشتغال عن الله بغيره من الأسباب الكونية يوجه خلاف إخلاص القلب له تعالى.

ز. لكن يبقى عليه إتيان قوله: ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بصيغة الجمع، وتعقيبه بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عبادة غير الله.

ح. وربما دفعه بعضهم بأن الآية في التخصيص أولا والتعميم ثانيا عكس قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس ٢٢] حيث خاطب أولا عامتهم بالتسيير ثم خص الكلام براكبي الفلك منهم خاصة، والآية التي نحن فيها تخص أول القصة بآدم وزوجته فهما المعنيان بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها﴾ ثم انقضى حديث آدم وزوجته، وخص بالذكر المشركون من بني آدم الذين سألوا ما سألوا، وجعلوا له شركاء فيما آتاهم أي إن كل اثنين منهم يولدان ولدا هذا حالهما من العهد ثم النقض.

ط. وفيه أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ الآية محفوف بقرينة قطعية تدل على المراد وتزيل اللبس بخلاف التدرج من الخصوص إلى العموم في هذه الآية فإنه موقع في اللبس لا يصار إليه في الكلام البليغ، اللهم إلا أن يجعل قوله: ﴿فَتَعالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى آخر الآيات قرينة على ذلك.

ي. وكيف كان فهذا الوجه كالمأخوذ من الوجهين الأولين بحمل صدر الآية على الوجه الثاني وذيلها على الوجه الأول.

ك. وربما دفع الاعتراض السابق بأن في الكلام حذفا وإيصالا والتقدير: (فلما آتاهما أي آدم وحواء صالحا جعل أولادهما له شركاء) فحذف المضاف وهو الأولاد، وأقيم المضاف إليه وهو ضمير التثنية المدلول عليه في قوله: (جعلا مقامه) وفيه أنه لا دليل عليه.

ل. وربما التزم بعض المفسرين الإشكال، وتسلم أن المراد بهما آدم وزوجته، وأنهما أشركا بالله عملا بروايات وردت في القصة عن بعضهم، وهي موضوعة أو مدسوسة مخالفة للكتاب لا سبيل إلى الأخذ بأمثالها.

٥. ﴿أَيُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، صدر الآيات وإن احتمل

أن يكون المراد الشرك بالأصنام أو بسائر الأسباب غير الله، التي الاعتماد عليها نوع من الشرك لكن ذيلها ظاهر في أن المراد هو الشرك بالأصنام المتخذة آلهة وهي جماد لا يستطيع نصر من يعبدها ولا نصر أنفسها، ولا يشعر بشيء من الدعاء وعدمه.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في العيون، بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عليه السلام في حديث: قال له المأمون: فما معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما﴾ فقال الرضا عليه السلام: إن حواء ولدت لآدم خمس مائة بطن، في كل بطن ذكرا وأنثى، وإن آدم وحواء عاهدا الله تعالى ودعواه وقالا: لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين، فلما آتاهما صالحا من النسل خلقا سويا، بريئا من الزمانة والعاهة، كان ما آتاهما صنفين: صنفا ذكرانا وصنفا إناثا، فجعل الصنفان لله تعالى ذكره شركاء فيما آتاهما، ولم يشكراه كشكر أبويهما له عز وجل، قال المأمون: أشهد أنك ابن رسول الله حقا.

• أقول: مرجعه إلى بعض الوجوه السابقة في دفع ما أورد على الآية.

ب. وقد وردت في تفسير الآية عدة من الروايات مروية عن سمرة بن جندب وأبي وزيد وابن عباس فيها أن آدم وحواء لم يكن يعيش لهما ولد فأمرهما الشيطان أو أمر حواء أن يسمياه عبد الحارث حتى يعيش، وكان الحارث اسمه في السماء، وفي بعضها: عبد الشمس، وفي بعضها: أنه خوفها أن تلد ناقة أو بقرة أو بهيمة أخرى، وشرط لها إن سمته عبد الحارث ولدت إنسانا سويا، الأحاديث، وهي موضوعة أو مدسوسة من الإسرائيليات.

ج. وقد روي في المجمع، عن تفسير العياشي عنهم عليه السلام: أنه كان شركهما شرك طاعة ولم يكن شرك معصية، وظاهره أنه جرى على ما يجري عليه تلك الأحاديث فحاله حالها وكيف يفرق بين الطاعة والعبادة وخاصة في مورد إبليس وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: ٦١] ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أن هذه الروايات لا تدل على أزيد من الإشراك في التسمية، وليس ذلك بكفر ولا معصية، واختاره الطبري هذا.

٨٠. الأصنام لا تخلق شيئاً ولا تنفع ولا تضر:

المقطع [٨٠] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ

يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٣]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يُنكِر الله تعالى على المشركين عبادةَ الأصنام التي لا تخلق شيئًا بل هي مخلوقة، ولا تملك نصرًا لأنفسها فضلًا عن نصر عابديها، ولا تستجيب لدعائهم، ولا تهدي إلى طريق، فسواء دعوتموها أو سكتّم عن دعائها فهي لا تسمع ولا تبصر، فكيف تُعبد من دون الخالق القادر؟

٢. وهي تشير إلى:

أ. إبطال عبادة ما لا يخلق ولا ينفع ولا يضر، وأن العبادة لا تليق إلا بالخالق الرازق المدبّر.

ب. أن من لا يقدر على نصر نفسه لا يُرجى منه نفع غيره، فكيف يُتّخذ إلهًا؟

ج. أن الأصنام والأوثان جمادات صمّاء، لا تستجيب لدعاء ولا تفقه هدى، فدعاؤها جهل وضلال.

د. أن المشرك في دعائه للصنم كمن يخاطب حجرًا أو خشبًا، وهذا من أعظم السفه وأبعد الخذلان.

هـ. أن طريق الهدى ليس في الأصنام، بل في توحيد الله وعبادته وحده، واتّباع رسله.

٨١. الأصنام والعباد والعجز:

المقطع [٨١] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٧٧»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾:

أ. احتجاج على مضمون الآيات الثلاث السابقة، والمعنى إنما قلنا إنهم مخلوقون لا يقدرون على شيء لأنهم عباد أمثالكم فكما أنكم مخلوقون مدبرون كذلك هم.

ب. والحجة عليه أنهم لا يستجيبون لكم إن دعوتموهم فادعوهم إن كنتم صادقين في دعواكم أن لهم علما وقدرة وإنما نسب إليهم دعوى كونهم ذوي علم وقدرة لما في دعوتهم من الدلالة على ذلك، وكيف يستجيبون لكم؟ وليست ما عبأتم لهم من الأرجل والأيدي ماشية وباطشة، ولا ما صورتم لهم من الأعين

والآذان مبصرة وسامعة لأنهم جمادات.

ج. وفي الآيات إطلاق العباد على الجمادات.

٢. ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ إلى آخر الآيات ثم أمره ﷺ أن يكر عليهم على انتصارهم بأربابهم وآلهتهم بالتحدي والإعجاز ليستبين سبيله من سبيلهم، ويظهر أن ربه هو الله الذي له كل العلم والقدرة، وأن أربابهم لا يملكون علما ليهتدوا به إلى شيء ولا قدرة لينصروهم في شيء، فقال: قل لهم ادعوا شركاءكم لنصركم علي ثم كيدوني فلا تنظروني ولا تمهلوني إن ربي ينصرني ويدفع عني كيدكم فإنه الذي نزل الكتاب ليهدي به الناس، وهو يتولى الصالحين من عباده فينصرهم، وهو القائل: إن الأرض يرثها عبادي الصالحون وأنا من الصالحين فينصرني ولا محالة، وأما أربابكم الذين تدعون من دونه فلا يستطيعون نصركم ولا نصر أنفسهم ولا يسمعون ولا يبصرون فلا قدرة لهم ولا علم.

٣. وفي الآيات أمر النبي ﷺ أن يخبرهم أنه من الصالحين ولم يعهد فيما يخبر به القرآن من صلاح الأنبياء مثل ذلك في غيره ﷺ.

٤. وفيها التحدي على الأصنام وعبدتهم كما تحدى بذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام.

٨٢. الله ولي المؤمنين:

المقطع [٨٢] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٦ـ١٩٨]، لم يفسر الآية الكريمة، ومعناها واضح، وهو:

١. يُعلن النبي ﷺ أن وليه وناصره ومعينه هو الله وحده، الذي أنزل الكتاب العظيم، وهو يتولى عباده الصالحين بالحفظ والنصر والتوفيق، وأما الأصنام التي يعبدها المشركون من دون الله فهي عاجزة عن نصرهم وعن نصر أنفسها، فلا تنفع ولا تضر، وهي صُمٌّ لا تسمع دعاءهم، وتراهم ينظرون إليها بأعينهم الظاهرة وهم لا يبصرون حقيقتها أنها جماد لا يفقه شيئًا، وهذا غاية الذم لها ولعبادتها.

٢. وهي تشير إلى:

أ. إخلاص التولّي لله وحده، والاعتماد عليه في كل الأمور، فهو الناصر الحقيقي.

ب. أن ولاية الله لعباده الصالحين تكون بحفظهم وتأييدهم وتوفيقهم للخير، وهي ولاية خاصة.

ج. إبطال عبادة الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف تنصر غيرها؟

د. أن الأصنام وإن رآها الناظرون بأبصارهم، فهي عمياء لا تبصر ولا تسمع، فكيف تُتّخذ آلهة؟

هـ. الحث على التمسك بالكتاب المنزَّل، فهو سبب النصر والفلاح، والبعيد عنه في خسران.

٨٣. العفو والمعروف والجاهلون

المقطع [٨٣] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٧٩»:

١. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾:

أ. الأخذ بالشيء هو لزومه أو عدم تركه فأخذ العفو ملازمة الستر على إساءة من أساء إليه، والإغماض عن حق الانتقام الذي يعطيه العقل الاجتماعي لبعضهم على بعهذا بالنسبة إلى إساءة الغير بالنسبة إلى نفسه والتضييع لحق شخصه، وأما ما أضيع فيه حق الغير بالإساءة إليه فليس مما يسوغ العفو فيه لأنه إغراء بالإثم وتضييع لحق الغير بنحو أشد، وإبطال للنواميس الحافظة للاجتماع، ويمنع عنه جميع الآيات الناهية عن الظلم والإفساد وإعانة الظالمين والركون إليهم بل جميع الآيات المعطية لأصول الشرائع والقوانين، وهو ظاهر.

ب. فالمراد بقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ هو الستر بالعفو فيما يرجع إلى شخصه ﷺ، وعلى ذلك كان يسير فقد تقدم في بعض الروايات المتقدمة في أدبه ﷺ: أنه لم ينتقم من أحد لنفسه قط.

ج. هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يسارق المغفرة، وفي بعض الروايات الآتية عن الصادق عليه السلام أن المراد به الوسط وهو أنسب بالآية وأجمع للمعنى من غير شائبة التكرار الذي يلزم من قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ على التفسير الأول.

٢. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ والعرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن والسير الجميلة الجارية بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع وينكره العقل الاجتماعي من الأعمال النادرة الشاذة، ومن المعلوم أن لازم الأمر بمتابعة العرف أن يكون نفس الآمر مؤتمرا بما يأمر به من المتابعة، ومن ذلك أن يكون نفس أمره بنحو

معروف غير منكر فمقتضى قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أن يأمر بكل معروف، وأن لا يكون نفس الأمر بالمعروف على وجه منكر.

٣. ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أمر آخر بالمداراة معهم، وهو أقرب طريق وأجمله لإبطال نتائج جهلهم وتقليل فساد أعمالهم فإن في مقابلة الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل والإدامة على الغي والضلال.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن الحسن بن علي بن النعمان عن أبيه عمن سمع أبا عبد الله عليه السلام وهو يقول: إن الله أدب رسوله فقال: يا محمد، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾، قال: خذ منهم ما ظهر وما تيسر، والعفو الوسط.

ب. أخرج ابن مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إن مكارم الأخلاق عند الله أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

• أقول: وفي هذا المعنى روايات كثيرة مروية عن النبي ﷺ من طرق أهل السنة.

ج. أخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق عن إبراهيم بن أدهم قال: لما أنزل الله ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: أمرت أن آخذ العفو من أخلاق الناس.

٨٤. الاستعاذة بالله من الشيطان عند الوسوسة:

المقطع [٨٤] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٨٠»:

١. ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال الراغب في المفردات: النزغ دخول في أمر لأجل إفساده، قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، وقيل: هو الإزعاج والإغراء وأكثر ما يكون حال الغضب، وقيل: هو من الشيطان أدنى الوسوسة، والمعاني متقاربة، وأقربها

من الآية هو الأوسط لمناسبته الآية السابقة الآمرة بالإعراض عن الجاهلين فإن مماستهم الإنسان بالجهالة نوع مداخلة من الشيطان لإثارة الغضب، وسوقه إلى جهالة مثله، فيرجع معنى الآية إلى أنه لو نزغ الشيطان بأعمالهم المبنية على الجهالة وإساءتهم إليك ليسوقك بذلك إلى الغضب والانتقام فاستعذ بالله إنه سميع عليم، والآية مع ذلك عامة خوطب بها النبي ﷺ وقصد بها أمته لعصمته.

٢. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾:

أ. نحو تعليل للأمر في الآية السابقة والطائف من الشيطان هو الذي يطوف حول القلب ليلقي إليه الوسوسة أو وسوسته التي تطوف حول القلب لتقع فيه وتستقر عليه، و﴿مِنَ﴾ بيانية على الأول، ونشوئية على الثاني، ومآل المعنيين مع ذلك واحد، والتذكر تفكر من الإنسان في أمور لتهديه إلى نتيجة مغفول عنها أو مجهولة قبله.

ب. والآية بمنزلة التعليل للأمر بالاستعاذة في الآية السابقة، والمعنى استعذ بالله عند نزغة الشيطان فإن هذا طريق المتقين فهم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا أن الله هو ربهم الذي يملكهم ويربيهم يرجع إليه أمرهم فارجعوا إليه الأمر فكفاهم مئونته، ودفع عنهم كيده، ورفع عنهم حجاب الغفلة فإذا هم مبصرون غير مضروب على أبصارهم بحجاب الغفلة.

ج. فالآية، كما عرفت، في معنى قوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]

د. وقد ظهر أيضا أن الاستعاذة بالله نوع من التذكر لأنها مبنية على أن الله سبحانه وهو ربه هو الركن الوحيد الذي يدفع هذا العدو المهاجم بما له من قوة، وأيضا الاستعاذة نوع من التوكل كما مر.

٣. ﴿وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ﴾ كان الجملة حالية، والمراد بإخوانهم إخوان المشركين وهم الشياطين كما وقع قوله: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧] والإقصار الكف والانتهاء، والمعنى: أن الذين اتقوا على هذا الحال من التذكر والإبصار والحال أن إخوان المشركين من الشياطين يمدون المشركين في غيهم ويعينونهم ثم لا يكفون عن مدهم وإعانتهم، أو لا يكف المشركون ولا ينتهون عن غيهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ قال رسول الله ﷺ: كيف يا رب والغضب؟ فنزل: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ الآية.

• أقول: وفي الرواية شيء، ويمكن أن يوجه بما قدمناه في الآية.

ب. وفي تفسير القمي: في الآية قال: إن عرض في قلبك منه شيء ووسوسة، فاستعذ بالله إنه سميع عليم.

ج. أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ﴾ بالألف.

د. وفي الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: ﴿إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا، فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ قال: هو العبد يهم بالذنب ثم يتذكر فيمسك، فذلك قوله: ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾

• أقول: ورواه العياشي عن أبي بصير، وعلي بن أبي حمزة، وزيد بن أبي أسامة عنه عليه السلام، ولفظ الأولين: هو الرجل يهم بالذنب ثم يتذكر فيدعه، ولفظ الأخير: هو الذنب يهم به العبد فيتذكر فيدعه، وفي معناه روايات أخر.

٨٥. النبي يتبع الوحي والقرآن بصائر للناس:

المقطع [٨٥] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٨٢»:

١. ﴿وَإِذا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها﴾ إلى آخر الآية، الاجتباء افتعال من الجباية، وقولهم: ﴿لَوْ لا اجْتَبَيْتَها﴾ كلام منهم جار مجرى التهكم والسخرية والمعنى على ما يعطيه السياق: أنك إذا أتيتهم بآية كذبوا بها وإذا لم تأتهم بآية كما لو أبطأت فيها قالوا: لولا اجتبيت ما تسميه آية وجمعتها من هنا وهناك فأتيت بها ﴿قُلْ﴾ ليس لي من الأمر شيء و﴿إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا﴾ القرآن ﴿بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يريد أن يبصركم بها ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

٨٦. الاستماع للقرآن والإنصات عند تلاوته:

المقطع [٨٦] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٨٢»:

١. ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الإنصات السكوت مع استماع، وقيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث وأنصت له أي استمع ساكتا، وأنصته غيره وأنصت الرجل أي سكت، فالمعنى: استمعوا للقرآن واسكتوا.

٢. والآية بحسب دلالتها عامة وإن قيل: إنها نزلت في الصلاة جماعة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: صلى النبي ﷺ فقرأ خلفه قوم فنزلت: ﴿وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾

• أقول: وفي ذلك عدة روايات من طرق أهل السنة وفي بعضها: أنهم كانوا يتكلمون خلفه وهم في الصلاة فنزلت، وفي بعضها: أنه كان فتى من الأنصار، وفي بعضها رجل.

ب. وفي المجمع، بعد ذكر القول: إن الآية نزلت في الصلاة جماعة خلف الإمام: قال: وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام، وفيه، وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: يجب الإنصات للقرآن في الصلاة وغيرها، أقول: ورواه العياشي عن زرارة عنه عليه السلام، وفي آخره: وإذا قرئ عندك القرآن، وجب عليك الإنصات والاستماع.

ج. وفيه، عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: الرجل يقرأ القرآن وأنا في الصلاة، هل يجب على الإنصات والاستماع؟ قال: نعم إذا قرئ القرآن، وجب عليك الإنصات والاستماع.

د. وفي تفسير العياشي، عن أبي كهمش عن أبي عبد الله عليه السلام قال قرأ ابن الكواء خلف أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾ فأنصت أمير المؤمنين عليه السلام.

• أقول: والروايات في غير صورة قراءة الإمام محمولة على الاستحباب وتمام البحث في الفقه.

هـ. أخرج الحكيم الترمذي عن عمر بن الخطاب قال: أتاني رسول الله ﷺ وأنا أعرف الحزن في

وجهه، فأخذ بلحيتي فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أتاني جبرئيل آنفا فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قلت: أجل فإنا لله وإنا إليه راجعون، فمم ذاك يا جبرئيل؟ فقال: إن أمتك مفتتنة بعدك بقليل من الدهر غير كثير، قلت: فتنة كفر أو فتنة ضلالة؟ قال: كل ذلك سيكون، قلت: ومن أين ذاك وأنا تارك فيهم كتاب الله؟ قال: بكتاب الله يضلون، وأول ذلك من قبل قرائهم وأمرائهم، يمنع الأمراء الناس حقوقهم فلا يعطونها فيقتتلون، وتتبع القراء أهواء الأمراء، فيمدونهم في الغي ثم لا يقصرون، قلت يا جبرئيل فبم يسلم من سلم منهم، فقال: بالكف والصبر، إن أعطوا الذي لهم أخذوه وإن منعوه تركوه.

٨٧. ذكر الله في كل الأحوال:

المقطع [٨٧] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٨٢»:

١. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قسم الذكر إلى ما في النفس ودون الجهر من القول: ثم أمر بالقسمين، وأما الجهر من القول في الذكر فمضرب عنه لا لأنه ليس ذكرا بل لمنافاته لأدب العبودية ويدل على ذلك ما ورد: أن النبي ﷺ سار بأصحابه في بعض غزواته، فدخلوا واديا موحشا والليل داج، فكان ينادي بعض أصحابه بالتكبير، فنهاه النبي ﷺ وقال: إنكم لا تدعون غائبا بعيدا.

ب. والتضرع من الضراعة وهو التملق بنوع من الخشوع والخضوع، والخيفة بناء نوع من الخوف، والمراد به نوع من الخوف يناسب ساحة قدسه تعالى ففي التضرع معنى الميل إلى المتضرع إليه والرغبة فيه والتقرب منه، وفي الخيفة معنى اتقائه والرهبة والتبعد عنه، فمقتضى توصيف الذكر بكونه عن تضرع وخيفة أن يكون بحركة باطنية إليه ومنه كالذي يحب شيئا ويهابه فيدنو منه لحبه ويتبعد عنه لمهابته، والله سبحانه وإن كان محض الخير لا شر فيه، وإنما الشر الذي يمسنا هو من قبلنا لكنه تعالى ذو الجلال والإكرام له أسماء الجمال التي تدعوا إليه وتجذب نحوه كل شيء وله أسماء الجلال التي تقهر وتدفع عنه كل شيء فحق ذكره وهو الله له الأسماء الحسنى كلها أن يكون على ما يقتضيه مجموع أسمائه الجمالية والجلالية، وهو أن يذكر تعالى تضرعا وخيفة، ورغبا ورهبا.

٢. ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ ظاهره أنه قيد لقوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ فيكون الذكر القولي هو الموزع إلى الغدو والآصال، وينطبق على بعض الفرائض اليومية.

٣. ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ تأكيد للأمر بالذكر في أول الآية ولم ينه تعالى عن أصل الغفلة، وإنما نهى عن الدخول في زمرة الغافلين، وهم الموصوفون بالغفلة الذين استقرت فيهم هذه الصفة.

٤. ويتبين بذلك أن الذكر المطلوب المأمور به هو أن يكون الإنسان على ذكر من ربه حينا بعد حين، ويبادر إليه لو عرضت له غفلة منسية، ولا يدع الغفلة تستقر في نفسه، وفي الآية التالية: دلالة على ذلك على ما سيجيء.

٥. فمحصل الآية: الأمر بالاستمرار على ذكر الله في النفس تضرعا وخيفة حينا بعد حين، وذكره بالقول دون الجهر بالغدو والآصال.

٨٨. الملائكة لا يستكبرون عن عبادة الله:

المقطع [٨٨] من سورة الأعراف، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٨/ ٣٨٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أنه في موضع التعليل للأمر الواقع في الآية السابقة فيكون المعنى: اذكر ربك كذا وكذا فإن الذين عند ربك كذلك أي اذكر ربك كذا لتكون من الذين عند ربك ولا تخرج من زمرتهم.

ب. ويتبين بذلك أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ليس هم الملائكة فقط، على ما فسره كثير من المفسرين، إذ لا معنى لقولنا: اذكر ربك كذا لأن الملائكة يذكرونه كذلك بل مطلق المقربين عنده تعالى على ما يفيده لفظ: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الحضور من غير غيبة.

ج. ويظهر من الآية أن القرب من الله إنما هو بذكره، فبه يرتفع الحجاب بينه وبين عبده، وإلا فجميع الأشياء متساوية في النسبة إليه من غير اختلاف بينها بقرب أو بعد أو غير ذلك.

٢. ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ فيه أمور ثلاثة يتصف بها الذكر النفسي كما يتصف بها الذكر القولي فإن للنفس أن تتصف بحال عدم الاستكبار، وبحال تنزيهه تعالى، وبحال

السجدة وكمال الخشوع له كما يتصف بها الذكر القولي ويعنون بها العمل الخارجي، فليس التسبيح والسجود مما يختص بالأعضاء من لسان وغيره كما يدل عليه قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماوات وَما فِي الْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩]

٣. وما في الآية من توصيف القوم بعدم الاستكبار والتسبيح والسجود أخف وأهون مما يشتمل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] وقوله: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨] فإن هذه الآيات ظاهرها الاستمرار الذي لا يتخلله عدم، ولا يتوسطه مناف، والآية التي نبحث عنها لم يأمر إلا بما لا تثبت معه الغفلة في النفس كما عرفت.

٤. فهذه الآية تأمر بمرتبة من الذكر هي دون ما تتضمنه آيات سورتي الأنبياء وفصلت والله العالم.

سورة الأنفال

هذه السورة الكريمة تحتوي على [٥٦] مقطعاً، وهذا تعريف بمقاصدها، ومحتويات مقاطعها:

مقاصد السورة ومحتوياتها:

أ. سياق الآيات في السورة يعطي أنها مدنية نزلت بعد وقعة بدر، وهي تقص بعض أخبار بدر، وتذكر مسائل متفرقة تتعلق بالجهاد والغنائم والأنفال ونحوها، وأموراً أخرى تتعلق بالهجرة وبها تختتم السورة.

ب. أورده ضمن تفسيره للآية الأولى: ارتباط الآيات في السورة والتصريح بقصة وقعة بدر فيها يكشف أن السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبعيدها حتى إن ابن عباس، على ما نقل عنه، كان يسميها سورة بدر، والتي تتعرض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة، قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ج. وسياق الآية الثانية يفيد أنها نزلت بعد الآية الأولى والآيات الأخيرة جميعاً لمكان قوله فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ فهي نازلة بعد الوقعة بزمان.

د. ثم الآيات الأخيرة تدل على أنهم كلموا رسول الله ﷺ في أمر الأسرى وسألوه أن لا يقتلهم ويأخذ الفدية، وفيها عتابهم على ذلك، ثم تجويز أن يأكلوا مما غنموا وكأنهم فهموا من ذلك أنهم يملكون الغنائم والأنفال على إبهام في أمره: هل يملكه جميع من حضر الوقعة أو بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلاً؟ وهل يملكون ذلك بالسوية فيقسم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة والنقيصة كأن يكون سهم الفرسان منها أزيد من المشاة؟ أو نحو ذلك، وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الأمر، ورفعوا

ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية الأولى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، فخطأتهم الآية فيما زعموا أنهم مالكوا الأنفال بما استفادوا من قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية، وأقرت ملك الأنفال لله والرسول ونهتهم عن التخاصم والتشاجر، فلما انقطع بذلك تخاصمهم أرجعها النبي ﷺ إليهم، وقسمها بينهم بالسوية، وعزل السهم لعدة من أصحابه لم يحضروا الوقعة، ولم يقدم مقاتلاً على قاعد، ولا فارساً على ماش، ثم نزلت الآية الثانية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية، بعد حين فأخرج النبي ﷺ مما رد إليهم من السهام الخمس وبقي لهم الباقي، هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطة بالأنفال بعضها ببعض.

مقاطع السورة ونظمها:

١. الآيات [١ ـ ٦] سياق الآيات في السورة يعطي أنها مدنية نزلت بعد وقعة بدر، وهي تقص بعض أخبار بدر، وتذكر مسائل متفرقة تتعلق بالجهاد والغنائم والأنفال ونحوها، وأموراً أخرى تتعلق بالهجرة وبها تختتم السورة.

٢. الآيات [٧ ـ ١٤] تشير الآيات إلى قصة بدر، وهي أول غزوة في الإسلام، وظاهر سياق الآيات أنهم نزلت بعد انقضائها على ما سيتضح.

٣. الآيات [١٥ ـ ٢٩] أوامر ونواه متعلقة بالجهاد الإسلامي مما يناسب سوق القصة، وحث على تقوى الله وإنذار وتخويف من مخالفة الله ورسوله والتعرض لسخطه سبحانه، وفيها إشارة إلى بعض ما جرى في وقعة بدر من منن الله وأياديه على المؤمنين.

٤. الآيات [٣٠ ـ ٤٠] الآيات في سياق الآيات السابقة وهي متصلة بها ومنعطفة على آيات أول السورة إلا قوله: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ الآية والآية التي تليها، فإن ظهور اتصالها دون بقية الآيات، وسيجيء الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

٥. الآيات [٤١ ـ ٥٤] تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم وبالثبات عند اللقاء وتذكرهم، وتقص عليهم بعض ما نكب الله به أعداء الدين وأخزاهم بالمكر الإلهي، وأجرى فيهم سنة آل فرعون ومن قبلهم من المكذبين لآيات الله الصادين عن سبيله.

٦. الآيات [٥٥ ـ ٦٦]:

أ. أحكام ودستورات في الحرب والسلم والمعاهدات ونقضها وغير ذلك، وصدر الآيات يقبل الانطباق على طوائف اليهود التي كانت في المدينة وحولها وقد كان النبي ﷺ عاهدهم بعد هجرته إلى المدينة أن لا يضروه ولا يغدروا به ولا يعينوا عليه عدواً ويقروا على دينهم ويأمنوا في أنفسهم فنقضوا العهد نقضاً بعد نقض حتى أمر الله سبحانه بقتالهم فآل أمرهم إلى ما آل إليه، وسيجيء بعض أخبارهم في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

ب. وعلى هذا فالآيات الأربع الأول غير نازلة مع ما سبقها من الآيات ولا متصلة بها كما يعطيه سياقها وأما السبع الباقية فليست بواضحة الاتصال بما قبلها من الآيات الأربع ولا بما قبل ما قبلها.

٧. الآيات [٦٧ ـ ٧١]:

أ. عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حين أخذوا الأسرى من المشركين ثم اقترحوا على رسول الله ﷺ أن لا يقتلهم ويأخذ منهم الفداء ليصلح به حالهم ويتقووا بذلك على أعداء الدين، وقد شدد سبحانه في العتاب إلا أنه أجابهم إلى مقترحهم وأباح لهم التصرف من الغنائم، وهي تشتمل الفداء.

ب. وفي آخر الآيات ما هو بمنزلة التطميع والوعد الجميل للأسرى إن أسلموا والاستغناء عنهم إن أرادوا خيانة النبي ﷺ.

٨. الآيات [٧٢ ـ ٧٥] الآيات تختم السورة، ويرجع معناها نوع رجوع إلى ما افتتحت به السورة وفيها إيجاب الموالاة بين المؤمنين إلا إذا اختلفوا بالمهاجرة وعدمها وقطع موالاة الكافرين.

١. الأنفال لله والرسول:

المقطع [١] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٥»:

١. ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء، ولذا يطلق النفل والنافلة على التطوع لزيادته على الفريضة، وتطلق الأنفال على ما يسمى فيئا أيضا وهي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرءوس الجبال، وبطون الأودية، والديار الخربة، والقرى التي باد أهلها وتركة من لا وارث له، وغير ذلك

كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد وهي لله ولرسوله، وتطلق على غنائم الحرب كأنها زيادة على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب والغزوة الظفر على الأعداء واستئصالهم فإذا غلبوا وظفر بهم فقد حصل المقصود، والأموال التي غنمه المقاتلون والقوم الذين أسروهم زيادة على أصل الغرض.

ب. و(ذات) في الأصل مؤنث (ذا) بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمة الإضافة غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال: ذات الإنسان أي ما به الإنسان إنسان، وذات زيد أي النفس الإنسانية الخاصة التي سميت بزيد، وكان الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدي مؤداه ثم قيل ذات، وكذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومة لا تتحقق إلا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أي الحالة والرابطة السيئة التي هي صاحبة البين فالمراد بقوله: ﴿أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي أصلحوا الحالة الفاسدة والرابطة السيئة التي بينكم.

ج. وقال الراغب في المفردات: (ذو) على وجهين: أحدهما يتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع، ويضاف إلى الظاهر دون المضمر، ويثنى ويجمع، ويقال في التثنية: ذواتا، وفي الجمع: ذوات، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافا، قال: وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهرا كان أو عرضا، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضمر وبالألف واللام، وأجروها مجرى النفس والخاصة فقالوا: ذاته ونفسه وخاصته، وليس ذلك من كلام العرب، والثاني في لفظ ذو لغة لطيء يستعملونه استعمال (الذي) ويجعل في الرفع والنصب والجر والجمع والتأنيث على لفظ واحد نحو: وبئري ذو حفرت وذو طويت، أي التي حفرت والتي طويت، والذي ذكره من عدم إضافته إلى الضمير منقول عن الفراء، ولازمه كون استعماله مضافا إلى الضمير من كلام المولدين والحق أنه قليل لا متروك، وقد وقع في كلام علي عليه السلام في بعض خطبه كما في نهج البلاغة.

٢. وقد اختلف المفسرون في معنى الآية وموقعها اختلافا شديدا من جهات:

أ. من جهة معنى قوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ وقد نسب إلى أهل البيت (عليه السلام) وبعض آخر كعبد الله بن مسعود وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن مصرف أنهم قرءوا: (يسئلونك الأنفال) فقيل: عن زائدة في القراءة المشهورة، وقيل: بل مقدرة في القراءة الشاذة، وقيل: إن المراد بالأنفال غنائم الحرب، وقيل: غنائم غزوة بدر خاصة بجعل اللام في الأنفال للعهد، وقيل: الفيء الذي لله والرسول والإمام،

وقيل: إن الآية منسوخة بآية الخمس، وقيل: بل محكمة، وقد طالت المشاجرة بينهم كما يعلم بالرجوع إلى مطولات التفاسير كتفسيري الرازي والآلوسي وغيرهما.

ب. والذي ينبغي أن يقال بالاستمداد من السياق: أن الآية بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ﴾ تخاصم خاصم به بعضهم بعضا بأخذ كل جانبا من القول لا يرضى به خصمه، والتفريع الذي في قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ يدل على أن الخصومة كانت في أمر الأنفال، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكي في صدر الآية إنما وقع لقطع الخصومة، كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله ﷺ يسألونه عن حكمها لتنقطع بما يجيبه الخصومة وترتفع عما بينهم، وهذا، كما ترى، يؤيد:

• أولا القراءة المشهورة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ فإن السؤال إذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم والخبر، وأما إذا استعمل متعديا بنفسه كان بمعنى الاستعطاف ولا يناسب المقام إلا المعنى الأول.

• وثانيا: أن الأنفال بحسب المفهوم وإن كان يعم الغنيمة والفيء جميعا إلا أن مورد الآية هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوة بدر خاصة إذ لا وجه للتخصيص فإنهم إذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصة بل لأنها غنائم مأخوذة من أعداء الدين في جهاد ديني، وهو ظاهر.

ج. واختصاص الآية بحسب موردها بغنيمة الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد، فإن المورد لا يخصص، فإطلاق حكم الآية بالنسبة إلى كل ما يسمى بالنفل في محله، وهي تدل على أن الأنفال جميعا لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمة والفيء.

٣. ثم الظاهر من قوله: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وما يعظهم الله به بعد هذه الجملة ويحرضهم على الإيمان هو أن الله سبحانه فصل الخصومة بتشريع ملكها لنفسه ولرسوله، ونزعها من أيديهم وهو يستدعي أن يكون تخاصمهم من جهة دعوى طائفة منهم أن الأنفال لها خاصة دون غيرها، أو أنها تختص بشيء منها، وإنكار الطائفة الأخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها وإثبات ملك نفسه ورسوله، وموعظتهم أن يكفوا عن المخاصمة والمشاجرة، وأما قول من يقول: إن الغزاة يملكون ما أخذوه من الغنيمة بالإجماع فأحرى به أن يورد في الفقه دون التفسير.

٤. وبالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمة لهم أو ما في معناه غير أنه كان حكما مجملا اختلف فيه المتخاصمان وكل يجر النار إلى قرصته، والآيات الكريمة تؤيد ذلك، توضيحه: أن ارتباط الآيات في السورة والتصريح بقصة وقعة بدر فيها يكشف أن السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبعيدها حتى إن ابن عباس، على ما نقل عنه، كان يسميها سورة بدر، والتي تتعرض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة، قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

٥. وسياق الآية الثانية يفيد أنها نزلت بعد الآية الأولى والآيات الأخيرة جميعا لمكان قوله فيها ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ﴾ فهي نازلة بعد الوقعة بزمان.

٦. ثم الآيات الأخيرة تدل على أنهم كلموا رسول الله ﷺ في أمر الأسرى وسألوه أن لا يقتلهم ويأخذ الفدية، وفيها عتابهم على ذلك، ثم تجويز أن يأكلوا مما غنموا وكأنهم فهموا من ذلك أنهم يملكون الغنائم والأنفال على إبهام في أمره: هل يملكه جميع من حضر الوقعة أو بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلا؟ وهل يملكون ذلك بالسوية فيقسم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة والنقيصة كأن يكون سهم الفرسان منها أزيد من المشاة؟ أو نحو ذلك.

٧. وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الأمر، ورفعوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية الأولى: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، فخطأتهم الآية فيما زعموا أنهم مالكوا الأنفال بما استفادوا من قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية، وأقرت ملك الأنفال لله والرسول ونهتهم عن التخاصم والتشاجر، فلما انقطع بذلك تخاصمهم أرجعها النبي ﷺ إليهم، وقسمها بينهم بالسوية، وعزل السهم لعدة من أصحابه لم يحضروا الوقعة، ولم يقدم مقاتلا على قاعد، ولا فارسا على ماش، ثم نزلت الآية الثانية: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ﴾ الآية، بعد حين فأخرج النبي

ﷺ مما رد إليهم من السهام الخمس وبقي لهم الباقي، هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطة بالأنفال بعضها ببعض.

٨. فقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ يفيد بما ينضم إليه من قرائن السياق أنهم سألوا النبي ﷺ عن حكم غنائم الحرب بعد ما زعموا أنهم يملكون الغنيمة، واختلفوا فيمن يملكها، أو في كيفية ملكها وانقسامها بينهم، أو فيهما معا، وتخاصموا في ذلك، وقوله: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ جواب عن مسألتهم وفيه بيان أنهم لا يملكونها وإنما هي أنفال يملكها الله ورسوله، فيوضع حيثما أراد الله ورسوله، وقد قطع ذلك أصل ما نشب بينهم من الاختلاف والتخاصم.

٩. ويظهر من هذا البيان:

أ. أن الآية غير ناسخة لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمّا غَنِمْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنما تبين معناها بالتفسير، وإن قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ ليس بكناية عن ملكهم للغنيمة بحسب الأصل، وإنما المراد هو التصرف فيها والتمتع منها إلا أن يمتلكوا بقسمة النبي ﷺ إياها بينهم.

ب. ويظهر أيضا أن قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى﴾ الآية ليس بناسخ لقوله: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية فإن قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ﴾ الآية إنما يؤثر بالنسبة إلى المجاهدين منعهم عن أكل تمام الغنيمة والتصرف فيه إذ لم يكن لهم بعد نزول قوله: ﴿الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ إلا ذلك، وأما قوله: ﴿الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فلا يفيد إلا كون أصل ملكها لله والرسول من دون أن يتعرض لكيفية التصرف وجواز الأكل والتمتع، فلا يناقضه في ذلك قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ﴾ الآية حتى يكون بالنسبة إليه ناسخا، فيتحصل من مجموع الآيات الثلاث: أن أصل الملك في الغنيمة لله والرسول ثم يرجع أربعة أخماسها إلى المجاهدين يأكلونها ويمتلكونها ويرجع خمس منها إلى الله والرسول وذي القربى وغيرهم لهم التصرف فيها والاختصاص بها.

ج. ويظهر بالتأمل في البيان السابق أيضا: أن في التعبير عن الغنائم بالأنفال وهو جمع نفل بمعنى الزيادة إشارة إلى تعليل الحكم بموضوعه الأعم، كأنه قيل: يسألونك عن الغنائم وهي زيادات لا مالك لها من بين الناس، وإذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال، و﴿قُلِ: الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ولازم ذلك كون الغنيمة لله والرسول، وبذلك ربما تأيد كون اللام في لفظ الأنفال الأول للعهد وفي الثاني

للجنس أو الاستغراق، وتبين وجه الإظهار في قوله: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ﴾ الآية حيث لم يقل: قل هي لله والرسول.

د. ويظهر بذلك أيضا: أن قوله: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ حكم عام يشمل بعمومه الغنيمة وسائر الأموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية والقرى البائدة ورءوس الجبال وبطون الأودية وقطائع الملوك وتركة من لا وارث له، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهي متعلقة بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي ﷺ، وبقي الباقي تحت ملك الله ورسوله.

١٠. هذا ما يفيده التأمل في كرائم الآيات، وللمفسرين فيها أقاويل مختلفة تعلم بالرجوع إلى مطولات التفاسير لا جدوى في نقلها والتعرض المنقض والإبرام فيها.

١١. أحاديث وآثار:

أ. في جامع الجوامع للطبرسي: قرأ ابن مسعود وعلي بن الحسين زين العابدين والباقر والصادق عليه السلام: يسألونك الأنفال.

• أقول: ورواه عن ابن مسعود وكذا عن السجاد والباقر والصادق غيره.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن العبد الصالح عليه السلام قال: الأنفال كل أرض خربة قد باد أهلها، وكل أرض لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب، ولكن صالحوا صلحا وأعطوا بأيديهم على غير قتال، فقال ـ: وله، يعني الوالي، رءوس الجبال وبطون الأودية والآجام، وكل أرض ميتة لا رب لها، وله صوافي الملوك: ما كان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود، وهو وارث من لا وارث له، ويعول من لا حيلة له.

ج. وفيه: بإسناده عن الصادق عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ قال: من مات وليس له مولى فماله من الأنفال.

• أقول: وفي معنى الروايتين روايات كثيرة مروية من طرق أهل البيت عليه السلام ولا ضير في عدم ذكرها الأنفال بمعنى غنائم الحرب، فإن الآية بموردها تدل عليه على ما يفيده سياقها.

د. أخرج الطيالسي والبخاري في الأدب المفرد ومسلم والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت في أربع آيات من كتاب الله: كانت أمي حلفت أن لا تأكل

ولا تشرب، حتى أفارق محمدا ﷺ فأنزل الله: {وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا}، والثانية: أني كنت أخذت سيفا أعجبني فقلت: يا رسول الله هب لي هذا فنزلت: {يسألونك عن الأنفال}، والثالثة: أني مرضت فأتاني رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني أريد أن أقسم مالي أفأوصي بالنصف؟ قال: لا، فقلت: الثلث؟ فسكت فكان الثلث بعده جائزا، والرابعة: أني شربت الخمر مع قوم من الأنصار، فضرب رجل منهم أنفي بلحيي جمل، فأتيت النبي فأنزل الله تحريم الخمر.

• أقول: الرواية لا تخلو عن شيء:

● أما أولا فلأن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ الآية ذيل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤] وهي بسياقها تأبى أن تكون نازلة عن سبب خاص، على أنه قد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً﴾ [الأنعام: ١٥١]، إن الإحسان بالوالدين من الأحكام العامة غير المختصة بشريعة دون شريعة.

● وأما ثانيا: فلأن ما ذكر من أخذ السيف واستيهابه من النبي ﷺ إنما يناسب قراءة: (يسئلونك الأنفال) لا قراءة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ وقد تقدم توضيحه في البيان المتقدم.

● وأما ثالثا: فلأن استقرار السنة على الإيصاء بالثلث لم يكن بآية نازلة بل بسنة نبوية.

● وأما رابعا: فلأن قصة شربه الخمر مع جماعة من الصحابة وشج أنفه بلحيي بعير وإن كانت حقة لكنه إنما شرب الخمر مع جماعة مختلطة من المهاجرين والأنصار، وقد شج أنفه عمر بن الخطاب ثم أنزل الله آية المائدة، ولم ينزل للتحريم بل لتشديده، وقد تقدم ذلك كله في ذيل قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ﴾ المائدة: ٩٠.

هـ. وفيه: أخرج أحمد وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم والبيهقي في سننه عن أبي أمامة قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، فساءت فيه أحلامنا فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، عن براء يقول: عن سواء.

و. وفيه: أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وأبو الشيخ

والحاكم، وصححه والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرا، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون، وأكبت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا تصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة واشتغلنا به فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، الحديث.

ز. وفيه: أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وأبو الشيخ وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: لما كان يوم بدر قال النبي: من قتل قتيلا فله كذا وكذا، ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان فتسارعوا إلى القتل والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا ولو كان منكم شيء، للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ فقسم الغنائم بينهم بالسوية.

• أقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وهنا روايات تدل على تفصيل القصة تتضح بها معنى الآيات سنوردها في ذيل الآيات التالية.

ح. وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ وعدهم أن يعطيهم السلب والغنيمة ثم نسخه الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ﴾ وإلى ذلك يشير ما في هذه الرواية، ولذلك ربما قيل: إنه لا يجب على الإمام أن يفي بما وعد به المحاربين، لكن يبعده اختلافهم في أمر الغنائم يوم بدر إذ لو كان النبي ﷺ وعدهم بذلك لم يختلفوا مع صريح بيانه.

ط. وفيه: أخرج ابن جرير عن مجاهد: أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس، فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾

• أقول: وهو لا ينطبق على ما تقدم من مضمون الآية على ما يعطيه السياق، وفي بعض ما ورد عن

المفسرين السلف كسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وكذا عن ابن عباس أن قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية منسوخة بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية، وقد تقدم في بيان الآية ما ينتفي به احتمال النسخ.

ي. وفيه: أخرج مالك وابن أبي شيبة وأبو عبيد وعبد بن حميد وابن جرير والنحاس وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن القاسم بن محمد، قال: سمعت رجلا يسأل ابن عباس عن الأنفال، فقال: الفرس من النفل والسلب من النفل، فأعاد المسألة فقال ابن عباس ذلك أيضا، ثم قال الرجل: الأنفال التي قال الله في كتابه، ما هي؟ فلم يزل يسأله حتى كاد يحرجه، فقال ابن عباس: هذا مثل صبيغ الذي ضربه عمر، وفي لفظ: ما أحوجك إلى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقي، وكان عمر ضربه حتى سالت الدماء على عقبيه.

ك. وفيه: في قوله تعالى: ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أخرج الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري، أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارث؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عرفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، قال: يا حارث عرفت فالزم، ثلاثا.

- أقول: والحديث مروي من طرق الشيعة بأسانيد عديدة.

٢. المؤمنون الحقيقيون تخشع قلوبهم عند ذكر الله:

المقطع [٢] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١»:

١. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى آخر الآيتين الآيتان والتي بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقة الإيمان ويختصون به من الأوصاف الكريمة والثواب الجزيل بينت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ﴾ إلى آخر الآية.

٢. وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمة لكرائم صفاتهم على كثرتها وملازمة لحق الإيمان، وهي بحيث إذا تنبهوا لها وتأملوها كان ذلك مما يسهل لهم توطين النفس على التقوى وإصلاح ذات بينهم، وإطاعة الله ورسوله.

٣. وهاتيك الصفات الخمس هي: وجل القلب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند استماع آيات الله، والتوكل، وإقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله، ومعلوم أن الصفات الثلاث الأول من أعمال القلوب، والأخيرتان من أعمال الجوارح.

٤. وقد روعي في ذكرها الترتيب الذي بينها بحسب الطبع:

أ. فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجا، فلا يزال يشتد ويضاعف حتى يتم ويكمل بحقيقته، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل والخشية إذا تذكر بالله عند ذكره، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

ب. ثم لا يزال ينبسط الإيمان ويتعرق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالة عليه تعالى، والهادية إلى المعارف الحقة، فكلما تأمل المؤمن في شيء منها زادته إيمانا، فيقوى الإيمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾

ج. وإذا زاد الإيمان وكمل كمالا عرف عندئذ مقام ربه وموقع نفسه، معرفة تطابق واقع الأمر، وهو أن الأمر كله إلى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذي إليه يرجع كل شيء، فالواجب الحق على الإنسان أن يتوكل عليه ويتبع ما يريده منه بأخذه وكيلا في جميع ما يهمه في حياته، فيرضى بما يقدر له في مسير الحياة، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرعه من الشرائع فيأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

د. ثم إذا استقر الإيمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية إلى ربه، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة، وهي أمر بينه وبين ربه، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعة، وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

٥. وقد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾ إشارة إلى الزيادة من حيث الكيفية وهو

الاشتداد والكمال، دون الكمية وهي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين.

٦. ﴿أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ قضاء منه تعالى بثبوت الإيمان حقا فيمن اتصف بما عده تعالى من الصفات الخمس، ولذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية فلهؤلاء من صفات الكمال وكريم الثواب وعظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقي.

٧. وأما قوله: ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾:

أ. فالمغفرة هي الصفح الإلهي عند ذنوبهم، والرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنة، وقد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة ونعمها في مواضع من كلامه، كقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١] وغير ذلك.

ب. وبذلك يظهر أن المراد بقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مراتب القرب والزلفى ودرجات الكرامة المعنوية، وهو كذلفإن المغفرة والجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه وفروعه البتة.

ج. والذي يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبة بإزائه كذلك لا محالة، فمن المؤمنين من له درجة واحدة، ومنهم ذو الدرجتين، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم في الإيمان، ويؤيده قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣]

د. وبما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما في الآية من الدرجات بدرجات الجنة، ليس على ما ينبغي، وإن المتعين كون المراد بها درجات القرب؛ كما تقدم وإن كان كل منها يلازم الآخر.

٣. الخروج للجهاد مع كراهة بعض المؤمنين:

المقطع [٣] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾

[الأنفال: ٥-٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٣»:

١. ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. ظاهر السياق أن قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ متعلق بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ والتقدير: إن الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله بالحق مع كراهتهم له، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهة فريق منهم له، فللجميع حق يترتب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ما هم غافلون عنه.

ب. وقيل: إنه متعلق بقوله: ﴿يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِ﴾ وقيل: إن العامل فيه معنى الحق والتقدير: هذا الذكر من الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحو المعنيان، كما ترى، بعيدان عن سياق الآية.

ج. والمراد بالحق ما يقابل الباطل، وهو الأمر الثابت الذي يترتب عليه آثاره الواقعية المطلوبة، وكون الفعل، وهو الإخراج، بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع، وقيل: المراد به الوحي، وقيل: المراد به الجهاد، وقيل غير ذلك، وهي معان بعيدة.

د. والأصل في معنى الجدل شدة الفتل: يقال: زمان جديل أي شديد الفتل، وسمي الجدال جدالا لأنه فيه نزاعا بالفتل عن مذهب إلى مذهب كما ذكره في المجمع.

٢. ومعنى الآيتين: أن الله تعالى حكم في أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجا يصاحب الحق، والحال أن فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك، ينازعونك في الحق بعد ما تبين لهم إجمالا، والحال أنهم يشبهون جماعة يساقون إلى الموت، وهم ينظرون إلى ما أعد لهم من أسبابه وأدواته.

٤. الله يريد إحقاق الحق وإبطال الباطل:

المقطع [٤] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧-٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٨»:

١. ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ﴾:

أ. أي واذكروا إذ يعدكم الله، وهو بيان منن الله وعد نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من أن الله

سبحانه لا يستقبلهم بأمر ولا يأتيهم بحكم إلا بالحق وفيه حفظ مصالحهم وإسعاد جدهم فلا يختلفوا فيما بينهم، ولا يكرهوا ما يختاره لهم، ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه ورسوله.

ب. والمراد بالطائفتين العير والنفير، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلا منهم أبو سفيان بن حرب، والنفير جيش قريش وهم زهاء ألف رجل.

ج. ﴿إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ﴾ مفعول ثان لقوله: ﴿يَعِدُكُمُ﴾ وقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدل منه وقوله ﴿وَتَوَدُّونَ﴾ الآية في موضع الحال، والمراد بغير ذات الشوكة: الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير الذي كان أقل عدة وعدة من النفير، والشوكة الحدة، استعارة من الشوك.

٢. ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ في موضع الحال، والمراد بإحقاق الحق إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه، وكلمات الله هي ما قضى به من نصرة أنبيائه وإظهار دينه الحق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩] وقرئ: (بكلمته): وهو أوجه وأقرب والدابر ما يأتي بعد الشيء مما يتعلق به ويتصل إليه وقطع دابر الشيء، كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرعة عليه المرتبطة به.

٣. ومعنى الآية: واذكروا إذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إما العير وإما النفير وأنتم تودون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكة النفير، وقوتهم وشدتهم، مع ما لكم من الضعف والهوان، والحال أن الله يريد خلاف ذلك وهو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم ويظهر ما قضى ظهوره من الحق، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم.

٤. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾:

أ. ظاهر السياق أن اللام للغاية، وقوله: ﴿لِيُحِقَ﴾ الآية متعلق بقوله: ﴿يَعِدُكُمُ اللهُ﴾ أي إنما وعدكم الله ذلك وهو لا يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق ويبطل الباطل ولو كان المجرمون يكرهونه ولا يريدونه.

ب. وبذلك يظهر أن قوله: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَ﴾ الآية ليس تكرارا لقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ

﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ وإن كان في معناه.

٥. أحاديث وآثار:

أ. وفي المجمع: ذكر البلخي عن الحسن: أن قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ﴾ الآية، نزلت قبل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾، وهي في القراءة بعدها.

• أقول: وتقدم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الأخرى بحسب الوقوع لا يلازم سبقها نزولا، ولا دليل من جهة السياق يدل على ما ذكره.

ب. وفي تفسير العياشي، عن محمد بن يحيى الخثعمي عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾، فقال: الشوكة التي فيها القتال.

• أقول: وروى مثله القمي في تفسيره.

ج. وفي المجمع، قال أصحاب السير وذكر أبو حمزة وعلي بن إبراهيم في تفسيرهما، دخل حديث بعضهم في بعض: أقبل أبو سفيان بعير قريش من الشام، وفيها أموالهم وهي اللطيمة، وفيها أربعون راكباً من قريش، فندب النبي ﷺ أصحابه للخروج إليها ليأخذوها، وقال: لعل الله أن ينفلكموها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم، ولم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى كيداً ولا حرباً، فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان، والركب لا يرونها إلا غنيمة لهم، فلما سمع أبو سفيان بمسير النبي ﷺ، استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم، ويخبرهم أن محمداً قد تعرض لعيرهم في أصحابه، فخرج ضمضم سريعاً إلى مكة، وكانت عاتكة بنت عبد المطلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بثلاث ليال: أن رجلاً أقبل على بعير له ينادي: يا آل غالب، اغدوا إلى مصارعكم، ثم وافى بجمله على أبي قبيس، فأخذ حجراً فدهدهه من الجبل، فما ترك داراً من دور قريش إلا أصابته منه فلذة، فانتبهت فزعة من ذلك، وأخبرت العباس بذلك، فأخبر العباس عتبة بن ربيعة، فقال عتبة: هذه مصيبة تحدث في قريش، وفشت الرؤيا فيهم، وبلغ ذلك أبا جهل، فقال: هذه نبية ثانية في بني عبد المطلب، واللات والعزى لننظرن ثلاثة أيام، فإن كان ما رأت حقاً، وإلا لنكتبن كتاباً بيننا: أنه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالاً ونساء من بني هاشم، فلما كان اليوم الثالث، أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت:

يا آل غالب، يا آل غالب، اللطيمة اللطيمة، العير العير، أدركوا وما أراكم تدركون، إن محمداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لعيركم، فتهيئوا للخروج، وما بقي أحد من عظماء قريش إلا أخرج مالاً لتجهيز الجيش، وقالوا: من لم يخرج نهدم داره، وخرج معهم العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب، وأخرجوا معهم القيان يضربن بالدفوف، وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، فلما كان بقرب بدر، أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم، وفي حديث أبي حمزة: بعث رسول الله ﷺ أيضاً عيناً له على العير اسمه عدي، فلما قدم على رسول الله ﷺ فأخبره أين فارق العير، نزل جبرائيل على رسول الله ﷺ، فأخبره بنفير المشركين من مكة، فاستشار أصحابه في طلب العير وحرب النفير، فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، ما آمنت منذ كفرت، ولا ذلت منذ عزت، ولم نخرج على هيئة الحرب، وفي حديث أبي حمزة: أنا عالم بهذا الطريق، فارق عدي العير بكذا وكذا، وساروا وسرنا، فنحن والقوم على ماء بدر يوم كذا وكذا، كأنا فرسا رهان، فقال ﷺ: اجلس، فجلس، ثم قام عمر بن الخطاب فقال مثل ذلك، فقال ﷺ: اجلس، فجلس، ثم قام المقداد فقال: يا رسول الله، إنها قريش وخيلاؤها، وقد آمنا بك وصدقنا، وشهدنا أن ما جئت به حق، والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس، لخضناه معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكنا نقول: امض لأمر ربك، فإنا معك مقاتلون، فجزاه رسول الله ﷺ خيراً على قوله ذاك، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، لأن أكثر الناس منهم، ولأنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا: إنا برآء من ذمتك حتى تصل إلى دارنا، ثم أنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع أبناءنا ونساءنا، فكان ﷺ يتخوف أن لا يكون الأنصار ترى عليها نصرته إلا على من دهمه بالمدينة من عدو، وأن ليس عليهم أن ينصروه خارج المدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، كأنك أردتنا، فقال: نعم، قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق من عند الله، فمرنا بما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر، لخضناه معك، ولعل الله عز وجل أن يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح بذلك رسول الله ﷺ وقال: سيروا على بركة الله، فإن الله عز وجل قد وعدني إحدى الطائفتين، ولن يخلف الله وعده، والله لكأني أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وفلان وفلان،

وأمر رسول الله ﷺ بالرحيل، وخرج إلى بدر وهو بئر، وفي حديث أبي حمزة الثمالي: بدر رجل من جهينة، والماء ماؤه، فإنما سمي الماء باسمه، وأقبلت قريش، وبعثوا عبيدها ليستقوا من الماء، فأخذهم أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن عبيد قريش، قالوا: فأين العير؟ قالوا: لا علم لنا بالعير، فأقبلوا يضربونهم، وكان رسول الله ﷺ يصلي، فانفتل من صلاته وقال: إن صدقوكم ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم، فأتوه بهم، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: يا محمد، نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟ قالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون في كل يوم من جزور؟ قالوا: تسعة إلى عشرة، فقال رسول الله ﷺ: القوم تسعمائة إلى ألف رجل، وأمر ﷺ بهم فحبسوا، وبلغ ذلك قريشاً ففزعوا وندموا على مسيرهم، ولقي عتبة بن ربيعة أبا البختري بن هشام، فقال: أما ترى هذا البغي؟ والله ما أبصر موضع قدمي، خرجنا لنمنع عيرنا وقد أفلتت، فجئنا بغياً وعدواناً، والله ما أفلح قوم بغوا قط، ولوددت أن ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت، ولم نسر هذا المسير، فقال له أبو البختري: إنك سيد من سادات قريش، فسر في الناس، وتحمل العير التي أصابها محمد وأصحابه بنخلة، ودم ابن الحضرمي فإنه حليفك، فقال له: علي ذلك، وما على أحد منا خلاف إلا ابن الحنظلية يعني أبا جهل، فصر إليه وأعلمه أني حملت العير ودم ابن الحضرمي وهو حليفي وعلي عقله، قال: فقصدت خباءه وأبلغته ذلك، فقال: إن عتبة يتعصب لمحمد، فإنه من بني عبد مناف وابنه معه، يريد أن يخذل بين الناس، لا واللات والعزى حتى نقحم عليهم يثرب، أو نأخذهم أسارى فندخلهم مكة، وتتسامع العرب بذلك، وكان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول الله ﷺ، وكان أبو سفيان لما جاز بالعير، بعث إلى قريش: قد نجى الله عيركم، فارجعوا ودعوا محمداً والعرب، وادفعوه بالراح ما اندفع، وإن لم ترجعوا، فردوا القيان، فلحقهم الرسول في الجحفة، فأراد عتبة أن يرجع، فأبى أبو جهل وبنو مخزوم، وردوا القيان من الجحفة، قال: وفزع أصحاب رسول الله ﷺ لما بلغهم كثرة قريش، واستغاثوا وتضرعوا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] وما بعده.

د. قال الطبرسي: ولما أصبح رسول الله ﷺ يوم بدر، عبا أصحابه، فكان في عسكره فرسان: فرس للزبير بن عوام، وفرس للمقداد بن الأسود، وكان في عسكره سبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها، وكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يتعاقبون على جمل لمرثد بن أبي مرثد، وكان في عسكر قريش أربعمائة فرس، وقيل: مائتا فرس، فلما نظرت قريش إلى قلة أصحاب رسول

الله ﷺ، قال أبو جهل: ما هم إلا أكلة رأس، لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد، فقال عتبة بن ربيعة: أترى لهم كميناً أو مدداً؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحي وكان فارساً شجاعاً، فجال بفرسه حتى طاف على عسكر رسول الله ﷺ، ثم رجع فقال: ليس لهم كمين ولا مدد، ولكن نواضح يثرب قد حملت الموت الناقع، أما ترونهم خرساً لا يتكلمون، ويتلمظون تلمظ الأفاعي، ما لهم ملجأ إلا سيوفهم، وما أراهم يولون حتى يقتلوا، ولا يقتلون حتى يقتلوا بعددهم، فارتئوا رأيكم، فقال له أبو جهل: كذبت وجبنت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: يا معشر قريش، إني أكره أن أبدأ بكم، فخلوني والعرب وارجعوا، فقال عتبة: ما رد هذا قوم قط فأفلحوا، ثم ركب جملاً له أحمر، فنظر إليه رسول الله ﷺ وهو يجول بين العسكرين وينهى عن القتال، فقال ﷺ: إن يك عند أحد خير، فعند صاحب الجمل الأحمر، وإن يطيعوه يرشدوا، وخطب عتبة فقال في خطبته: يا معشر قريش، أطيعوني اليوم واعصوني الدهر، إن محمداً له آل وذمة، وهو ابن عمكم، فخلوه والعرب، فإن يك صادقاً، فأنتم أعلى عيناً به، وإن يك كاذباً، كفتكم ذؤبان العرب أمره، فغاظ أبا جهل قوله، وقال له: جبنت وانتفخ سحرك، فقال: يا مصفر استه، مثلي يجبن؟ وستعلم قريش أينا ألأم وأجبن، وأينا المفسد لقومه، ولبس درعه، وتقدم هو وأخوه شيبة وابنه الوليد، وقال: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قريش، فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار وانتسبوا لهم، فقالوا: ارجعوا، إنما نريد الأكفاء من قريش، فنظر رسول الله ﷺ إلى عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان له يومئذ سبعون سنة، فقال: قم يا عبيدة، ونظر إلى حمزة فقال: قم يا عم، ثم نظر إلى علي بن أبي طالب فقال: قم يا علي، وكان أصغر القوم، فاطلبوا بحقكم الذي جعله الله لكم، فقد جاءت قريش بخيلائها وفخرها، تريد أن تطفئ نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ثم قال: يا عبيدة، عليك بعتبة بن ربيعة، وقال لحمزة: عليك بشيبة، وقال لعلي: عليك بالوليد، فمروا حتى انتهوا إلى القوم، فقالوا: أكفاء كرام، فحمل عبيدة على عتبة، فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فأطنها، فسقطا جميعاً، وحمل شيبة على حمزة، فتضاربا بالسيفين حتى انثلما، وحمل أمير المؤمنين علي عليه السلام على الوليد، فضربه على حبل عاتقه، فأخرج السيف من إبطه، قال علي: لقد أخذ الوليد يمينه بيساره، فضرب بها هامتي، فظننت أن السماء وقعت على الأرض، ثم اعتنق حمزة وشيبة، فقال المسلمون: يا علي، أما ترى أن الكلب قد نهز عمك؟ فحمل عليه علي عليه السلام ثم قال: يا عم، طأطئ

رأسك، وكان حمزة أطول من شيبة، فأدخل حمزة رأسه في صدره، فضربه علي فطرح نصفه، ثم جاء إلى عتبة وبه رمق، فأجهز عليه.

هـ. وفي رواية أخرى أنه برز حمزة لعتبة، وبرز عبيدة لشيبة، وبرز علي للوليد، فقتل حمزة عتبة، وقتل عبيدة شيبة، وقتل علي عليه السلام الوليد، فضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها، فاستنقذه حمزة وعلي، وحمل عبيدة حمزة وعلي حتى أتيا به رسول الله ﷺ، فاستعبر فقال: يا رسول الله، ألست شهيداً؟ قال: بلى، أنت أول شهيد من أهل بيتي، وقال أبو جهل لقريش: لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر أبناء ربيعة، عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً، وعليكم بقريش فخذوهم أخذاً حتى ندخلهم مكة، فنعرفهم ضلالتهم التي هم عليها، وجاء إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال لهم: أنا جار لكم، ادفعوا إلي رايتكم، فدفعوا إليه راية الميسرة، وكانت الراية مع بني عبد الدار، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال لأصحابه: غضوا أبصاركم، وعضوا على النواجذ، ورفع يده فقال: اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد، ثم أصابه الغشي، فسري عنه وهو يسلك العرق عن وجهه، فقال: هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكة مردفين.

و. وفي الأمالي، بإسناده عن الرضا عن آبائه عليهم‌السلام: أن رسول الله ﷺ سافر إلى بدر في شهر رمضان، وافتتح مكة في شهر رمضان.

• أقول: وعلى ذلك أطبق أهل السير والتواريخ، قال اليعقوبي في تاريخه: وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه ص، يعني إلى المدينة، بثمانية عشر شهرا.

ز. وقال الواقدي: ونزل رسول الله ﷺ وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان، فبعث علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص وبسبس بن عمرو يتجسسون على الماء، فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم، فأسروهم وأفلت بعضهم، وأتوا بهم النبي ﷺ وهو قائم يصلي، فسألهم المسلمون فقالوا: نحن سقاء قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فضربوهم، فلما أن لقوهم بالضرب قالوا: نحن لأبي سفيان ونحن في العير، وهذا العير بهذا القوز، فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم، فسلم رسول الله ﷺ من صلاته ثم قال: إن صدقوكم ضربتموهم، وإن كذبوكم تركتموهم، فلما أصبحوا عدل رسول الله ﷺ الصفوف، وخطب المسلمين فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله

على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم، تدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإنه تعالى يقول: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]، انظروا في الذي أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وما أعزكم به بعد الذلة، فاستكينوا له يرض ربكم عنكم، وأبلوا ربكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، ويغفر الله لي وللمسلمين.

ح. وفي المجمع ذكر جماعة من المفسرين كابن عباس وغيره: أن جبرائيل قال للنبي ﷺ يوم بدر: خذ قبضة من تراب فارمهم بها، فقال رسول الله ﷺ لما التقى الجمعان لعلي: أعطني قبضة من حصا الوادي، فناوله كفاً من حصا عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم.

ط. وفي الأمالي بإسناده عن ابن عباس قال: وقف رسول الله ﷺ على قتلى بدر فقال: جزاكم الله من عصابة شراً، لقد كذبتموني صادقاً، وخونتم أميناً، ثم التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال: إن هذا أعتى على الله من فرعون؛ إن فرعون لما أيقن بالهلاك وحد الله، وإن هذا لما أيقن بالهلاك دعا باللات والعزى.

ي. وفي المغازي للواقدي: وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بالقليب أن تغور، ثم أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلهم إلا أمية بن خلف، فإنه كان مسمناً، انتفخ من يومه، فلما أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه، فقال النبي ﷺ: اتركوه، فأقروه، وألقوا عليه من التراب والحجارة ما غيبه، ثم وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً، بئس القوم كنتم لنبيكم، كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فقالوا: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد ماتوا؟ فقال: لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق، وفي رواية أخرى: فقال رسول الله ﷺ: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني، قال: وكان انهزام قريش حين زالت

الشمس، فأقام رسول الله ﷺ ببدر، وأمر عبد الله بن كعب بقبض الغنائم وحملها، وأمر نفراً من أصحابه أن يعينوه، فصلى العصر ببدر ثم راح، فمر بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به وبات، وبأصحابه جراح وليست بالكثيرة، وأمر ذكوان بن عبد قيس أن يحرس المسلمين، حتى كان آخر الليل فارتحل.

ك. وفي تفسير القمي في خبر طويل: وخرج أبو جهل من بين الصفين وقال: اللهم إن محمداً أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة، فأنزل الله على رسوله: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، ثم أخذ رسول الله ﷺ كفاً من حصى، ورمى به في وجوه قريش وقال: شاهت الوجوه، فبعث الله رياحاً تضرب في وجوه قريش، فكانت الهزيمة، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا يفلتن فرعون هذه الأمة أبو جهل بن هشام، فقتل منهم سبعون، وأسر منهم سبعون، والتقى عمرو بن الجموع مع أبي جهل، فضرب عمرو أبا جهل على فخذه، وضرب أبو جهل عمراً على يده، فأبانها من العضد فتعلقت بجلده، فاتكى عمرو على يده برجله، ثم تراخى إلى السماء حتى انقطعت الجلدة ورمى بيده، وقال عبد الله بن مسعود: انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحط بدمه، فقلت: الحمد لله الذي أخزاك، فرفع رأسه فقال: إنما أخزى الله عبداً، ابن أم عبد، لمن الدبرة ويلك؟ قلت: لله ولرسوله، وإني قاتلك، ووضعت رجلي على عنقه، فقال: ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، أما إنه ليس شيء أشد من قتلك إياي في هذا اليوم، ألا تولى قتلي رجل من المطلبيين، أو رجل من الأحلاف؟ فاقتلعت بيضة كانت على رأسه، فقتلته وأخذت رأسه، وجئت به إلى رسول الله ﷺ وقلت: يا رسول الله، البشرى، هذا رأس أبي جهل بن هشام، فسجد لله شكراً.

ل. وفي الإرشاد للمفيد: ثم بارز أمير المؤمنين عليه السلام العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه، فلم يلبث أن قتله، وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله، وبرز إليه بعده طعيمة بن عدي فقتله، وقتل بعده نوفل بن خويلد، وكان من شياطين قريش، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتى أتى على شطر المقتولين منهم، وكانوا سبعين رجلاً، تولى كافة من حضر بدراً من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسومين قتل الشطر منهم، وتولى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده.

م. وفي الإرشاد أيضاً: قد أثبتت رواة العامة والخاصة معاً أسماء الذين تولى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح، فكان ممن سموه: الوليد بن عتبة

كما قدمنا، وكان شجاعاً جرياً وقاحاً فتاكاً تهابه الرجال، والعاص بن سعيد، وكان هولاً عظيماً تهابه الأبطال، وهو الذي حاد عنه عمر بن الخطاب، وقصته فيما ذكرناه مشهورة، نحن نبينها فيما نورده، وطعيمة بن عدي بن نوفل، وكان من رءوس أهل الضلال، ونوفل بن خويلد، وكان من أشد المشركين عداوة لرسول الله ﷺ، وكانت قريش تقدمه وتعظمه وتطيعه، وهو الذي قرن أبا بكر وطلحة قبل الهجرة بمكة، وأوثقهما بحبل وعذبهما يوماً إلى الليل، حتى سئل في أمرهما، ولما عرف رسول الله ﷺ حضوره بدراً، سأل الله أن يكفيه أمره فقال: اللهم اكفني نوفل بن خويلد، فقتله أمير المؤمنين عليه السلام، وزمعة بن الأسود، والحارث بن زمعة، والنضر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عم طلحة بن عبيد الله، وعثمان ومالك ابنا عبيد الله أخوا طلحة بن عبيد الله، ومسعود بن أبي أمية بن المغيرة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن مخزوم، وأبو منذر بن أبي رفاعة، ومنبه بن الحجاج السهمي، والعاص بن منبه، وعلقمة بن كلدة، وأبو العاص بن قيس بن عدي، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، ولوذان بن ربيعة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، ومسعود بن أمية بن المغيرة، وحاجب بن السائب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوذان، وزيد بن مليص، وعاصم بن أبي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر، ومعاوية بن عامر بن عبد القيس، وعبد الله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد، والسائب بن مالك، وأبو الحكم بن الأخنس، وهشام بن أبي أمية بن المغيرة، فذلك خمسة وثلاثون رجلاً، سوى من اختلف فيه، أو شرك أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره، وهم أكثر من شطر المقتولين ببدر على ما قدمناه.

• أقول: وذكر غيره كما في المجمع أنه قتل يوم بدر سبعة وعشرين رجلا، وذكر الواقدي: أن الذي اتفق عليه قول النقلة والرواة من قتلاه تسعة رجال والباقي مختلف فيه، لكن البحث العميق عن القصة وما يحتف بها من أشعارهم والحوادث المختلفة التي حدثت بعدها تسيء الظن بهذا الاختلاف، وقد نقل عن محمد بن إسحاق أن أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعلي عليه السلام، وقد عد الواقدي فيما ذكره ابن أبي الحديد من قتلى المشركين في وقعة بدر اثنين وخمسين رجلا ونسب قتل أربعة وعشرين منهم إليه عليه السلام ممن انفرد بقتله أو شارك غيره، ومن شعر أسيد بن أبي إياس يحرض مشركي قريش على علي عليه السلام على ما في الإرشاد والمناقب قوله:

في كل مجمع غاية أخزاكم...جزع أبر على المذاكي القرح

لله دركم ألما تنكروا...قد ينكر الحر الكريم ويستحي

هذا ابن فاطمة الذي أفناكم...ذبحا وقتله قعصة لم تذبح

أعطوه خرجا واتقوا تضريبه...فعل الذليل وبيعه لم تربح

أين الكهول وأين كل دعامة...في المعضلات وأين زين الأبطح

أفناهم قعصا وضربا يفتري...بالسيف يعمل حدة لم يصفح

م. وفي الإرشاد، روى شعبة عن أبي إسحاق عن حارث بن مضرب قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: لقد حضرنا بدرا، وما فينا فارس غير المقداد بن الأسود، ولقد رأيتنا ليلة بدر، وما فينا إلا من نام غير رسول الله ﷺ، فإنه كان منتصبا في أصل شجرة، يصلي فيها ويدعو حتى الصباح.

ن. أقول: والروايات في قصة بدر كثيرة جدا وقد اقتصرنا منها على ما يتضح به فهم مضامين الآيات، ومن الأخبار ما سيأتي إن شاء الله في تضاعيف البحث عن الآيات التالية المشيرة إلى بعض أطراف القصة.

س. فهرس أسماء شهداء بدر رضي الله عنهم، في البحار، عن الواقدي قال: حدثني عبد الله بن جعفر قال: سألت الزهري كم استشهد من المسلمين ببدر؟ قال: أربعة عشر: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.، فمن بني المطلب بن عبد مناف، عبيدة بن الحارث قتله عتبة ـ وفي غير رواية الواقدي قتله شيبة ـ فدفنه النبي ﷺ بالصفراء، ومن بني زهرة عمير بن أبي وقاص ـ قتله عمرو بن عبد ود فارس الأحزاب، وعمير بن عبد ود ذو الشمالين حليف لبني زهرة ـ قتله أبو أسامة الجشمي، ومن بني عدي عاقل بن أبي البكير ـ حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير، ومهجع مولى عمر بن الخطاب قتله عامر بن الحضرمي ـ ويقال: إن مهجعا أول من قتل من المهاجرين، ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء ـ قتله طعيمة بن عدي ـ ومن الأنصار ثم من بني عمرو بن عوف، مبشر بن عبد المنذر قتله أبو ثور، وسعد بن خيثمة قتله عمرو بن عبد ود، ويقال: طعيمة بن عدي، ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة ـ رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله، ومن بني مالك بن النجار ـ عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلها أبو جهل، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم، ويقال: إنه أول قتيل

قتل من الأنصار، وقد روي: أن أول قتيل منهم حارثة بن سراقة، ومن بني زريق رافع بن المعلى ـ قتله عكرمة بن أبي جهل، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث ـ قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار.

ع. وروي عن ابن عباس: أن أنسة مولى النبي ﷺ قتل ببدر، وروي: أن معاذ بن ماعص جرح ببدر ـ فمات من جراحته بالمدينة، وابن عبيد بن السكن جرح ـ فاشتكى جرحه فمات منه.

٥. استجابة الله للمؤمنين بإمدادهم بالملائكة:

المقطع [٥] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩ـ١٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٠»:

١. ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾:

أ. الاستغاثة طلب الغوث وهو النصرة كما في قوله: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥] والإمداد معروف، وقوله: ﴿مُرْدِفِينَ﴾ من الإرداف وهو أن يجعل الراكب غيره ردفا له، والردف التابع، قال الراغب: (الردف التابع، وردف المرأة عجيزتها، والترادف: التتابع، والرادف: المتأخر، والمردف المقدم الذي أردف غيره)

ب. وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به إلى هذه القصة في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح أن المراد بنزول ألف من الملائكة مردفين نزول ألف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين.

ج. وبذلك يظهر فساد ما قيل: إن المراد بكون الملائكة مردفين كون الألف متبعين ألفا آخر لأن مع كل واحد منهم ردفا له فيكونون ألفين، وكذا ما قيل: إن المراد كون بعضهم أثر بعض، وكذا ما قيل: إن المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين، وكذا ما قيل: إن المراد إردافهم المسلمين

بأن يتقدموا عسكر المسلمين فيلقوا في قلوب الذين كفروا الرعب.

٢. ﴿وما جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

أ. الضميران في قوله: ﴿جَعَلَهُ﴾ وقوله: ﴿بِهِ﴾ للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق، والمعنى أن الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى واطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير إليه قوله تعالى بعد: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾

ب. وبذلك يتأيد ما ذكره بعضهم: أن الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم أحدا فقد قتل ثلث المقتولين منهم أو النصف علي عليه السلام والثلثين الباقين أو النصف سائر المسلميوإنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم وتثبيت قلوب المسلمين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين، وسيجيء بعض الكلام في ذلك.

٣. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وأنه لو كان بكثرة العدد والقوة والشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوة على المسلمين على ما بهم من القلة والضعف.

٤. وقد علل بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ جميع مضمون الآية وما يتعلق به من الآية السابقة فبعزته نصرهم وأمدهم، وبحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع، قال ابن عباس: لما كان يوم بدر واصطف القوم للقتال قال أبو جهل: اللهم أولانا بالنصر فانصره، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ إلى آخره.

ب. وقيل: إن النبي ﷺ لما نظر إلى كثرة عدد المشركين، وقلة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف ربه مادا يديه، حتى سقط رداؤه من منكبيه فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية: عن عمر بن الخطاب والسدي وأبي صالح وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: ولما أمسى رسول الله وجنه الليل، ألقى الله على أصحابه النعاس، وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل، لا تثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذا،

حتى لبد الأرض وثبت أقدامهم، وكان المطر على قريش مثل العزالي، وألقى الله في قلوبهم الرعب كما قال الله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾

• أقول: لفظ الآية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية لا يلائم نزولها يوم بدر عقيب استغاثتهم بل السياق يدل على نزولها مع قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ﴾ والآيات التالية له، وهي تدل على حكاية حال ماضية وامتنانه تعالى على المسلمين بما أنزل عليهم من آيات النصر وتفاريق النعم ليشكروا له ويطيعوه فيما يأمرهم وينهاهم، ولعل المراد من ذكر نزول الآية بعد ذكر استغاثتهم انطباق مضمون الآية على الواقعة، وهو كثير النظير في الروايات المشتملة على أسباب النزول.

ج. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب: قال النبي ﷺ في العريش: اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة اليوم، لا تعبد بعد هذا اليوم فنزل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فخرج يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، فأيده الله بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وكثرهم في أعين المشركين، وقلل المشركين في أعينهم فنزل: ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى﴾ من الوادي خلف العقنقل، والنبي ﷺ بالعدوة الدنيا عند القليب.

• أقول: والكلام فيه كالكلام في سابقه.

٦. نعمة النعاس والمطر لتثبيت المؤمنين:

المقطع [٦] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢١»:

١. ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ إلى آخر الآية، النعاس أول النوم وهو خفيفة والتغشية الإحاطة، والأمنة الأمان، وقوله: ﴿أَمَنَةً﴾ أي من الله وقيل: أي من العدو، والرجز هو الرجس والقذارة، والمراد برجز الشيطان القذارة التي يطرأ القلب من وسوسته وتسويله.

٢. ومعنى الآية: أن النصر والإمداد بالبشرى واطمئنان القلوب كان في وقت يأخذكم النعاس للأمن الذي أفاضه الله على قلوبكم فنمتم ولو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس ولا نوم، وينزل عليكم المطر ليطهركم به ويذهب عنكم وسوسة الشيطان وليربط على قلوبكم ويشد عليها، وهو كناية عن التشجيع، وليثبت بالمطر أقدامكم في الحرب بتلبد الرمل أو بثبات القلوب.

٣. والآية تؤيد ما ورد أن المسلمين سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل، وأصبحوا محدثين ومجنبين، وأصابهم الضمأ، ووسوس إليهم الشيطان فقال: إن عدوكم قد سبقكم إلى الماء، وأنتم تصلون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابة، وتطهروا به من الحدث، وتلبدت به أرضهم، وأوحلت أرض عدوهم.

٧. الله يوحي للملائكة بتثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب:

المقطع [٧] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٢»:

١. ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ إلى آخر الآية حال الظرف في أول الآية كحال الظرف في قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ ومعنى الآية ظاهر.

٢. وأما قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرءوس وبكل بنان جميع الأطراف من اليدين والرجلين أو أصابع الأيدي لئلا يطيقوا حمل السلاح بها والقبض عليه.

٣. ومن الجائز أن يكون الخطاب بقوله: ﴿فَاضْرِبُوا﴾ للملائكة كما هو المتسابق إلى الذهن، والمراد بضرب فوق الأعناق وكل بنان ظاهر معناه، أو الكناية عن إذلالهم وإبطال قوة الإمساك من أيديهم بالإرعاب، وأن يكون الخطاب للمؤمنين والمراد به تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم والربط على قلوبهم، وحثهم وإغراؤهم بالمشركين.

٨. شقاق الله ورسوله سبب العذاب الشديد:

المقطع [٨] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٣-١٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٢٢»:

١. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ المشاقة

المخالفة وأصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل إلى شق غير شق من يخالفه، والمعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم، لأنهم خالفوا الله ورسوله وألحوا وأصروا على ذلك ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب.

٢. ﴿ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ﴾ خطاب تشديدي للكفار يشير إلى ما نزل بهم من الخزي ويأمرهم بأن يذوقوه، ويذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار.

٩. النهي عن الفرار يوم الزحف والتحذير من غضب الله:

المقطع [٩] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٦»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ﴾:

أ. ﴿الْأَدْبارَ﴾ اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرد ولاقى يلاقي من المزيد فيه، قال الراغب في مفردات القرآن: (اللقاء مقابلة الشيء ومصادفته معا، وقد يعبر به عن كل واحد منهما يقال: لقيه يلقاه لقاء ولقيا ولقية، ويقال ذلك في الإدراك بالحس وبالبصر وبالبصيرة قال: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾، وقال: ﴿لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً﴾، وملاقاة الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ﴾، وقال: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللهِ﴾، واللقاء الملاقاة، قال: ﴿وَقالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا﴾، وقال: ﴿إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾)، وقال في المجمع: (اللقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأن الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحل الواحد)، وقال فيه: (الزحف الدنو قليلا قليلا، والتزاحف التداني يقال: زحف يزحف زحفا وأزحفت للقوم إذا دنوت لقتالهم وثبت لهقال الليث الزحف جماعة يزحفون إلى عدو لهم بمرة وجمعه زحوف)، وتولية الأعداء الأدبار جعلهم يلونها وهو استدبار العدو واستقبال جهة الهزيمة.

ب. وخطاب الآية عام غير خاص بوقت دون وقت ولا غزوة دون غزوة فلا وجه لتخصيصها بغزوة بدر وقصر حرمة الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين على أنك عرفت أن ظاهر سياق الآيات أنها نزلت بعد غزوة بدر لا يومها، وأن الآيات ذيل ما في صدر السورة من قوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ

عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ للهِّ وَالرَّسُولِ﴾ الآية، وللكلام تتمة ستوافيك في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

٢. ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ﴾ إلى آخر الآية:

أ. التحرالزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف وهو طرف الشيء وهو أن ينحرف وينعطف المقاتل من جهة إلى جهة أخرى ليتمكن من عدوه ويبادر إلى إلقاء الكيد عليه، والتحيز هو أخذ الحيز وهو المكان، والفئة القطعة من جماعة الناس، والتحيز إلى فئة أن ينعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو إلى فئة من قومه فيلحق بهم ويقاتل معهم.

ب. والبواء الرجوع إلى مكان واستقرار فيه، ولذا قال الراغب: (أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الذي هو منافاة الأجزاء) فمعنى قوله: ﴿باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي رجع ومعه غضب من الله.

٣. فمعنى الآيتين: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم ومن يفر منهم يومئذ أي وقتئذ فقد رجع ومعه غضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز إلى فئة فلا بأس به.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، بإسناده عن عقيل الخزاعي: أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن الرعب والخوف من جهاد المستحق للجهاد، والمتوازرين على الضلال، ضلال في الدين وسلب للدنيا مع الذل والصغار، وفيه استيجاب النار بالفرار من الزحف، عند حضرة القتال يقول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً، فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ﴾

ب. وفي الفقيه، والعلل، بإسناده عن ابن شاذان: أن أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: حرم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين، والاستخفاف بالرسل والأئمة العادلة، وترك نصرتهم على الأعداء، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا إليه، من الإقرار بالربوبية وإظهار العدل، وترك الجور وإماتة الفساد، لما في ذلك من جرأة العدو على المسلمين، وما يكون في ذلك من السبي والقتل، وإبطال دين الله عز وجل وغيره من الفساد.

- أقول: وقد استفاضت الروايات عن أئمة أهل البيت عليه السلام أن الفرار من الزحف من

المعاصي الكبيرة الموبقة، وقد تقدم طرف منها في البحث عن الكبائر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]

• وعلى ذلك روايات من طرق أهل السنة كما في صحيحي البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وهناك روايات أخرى عن ابن عباس وغيره تدل على كون الفرار من الزحف من الكبائر.

• نعم قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الآية يقيد إطلاق آية تحريم الفرار بما دون الثلاثة لواحد.

• وقد روي من طرقهم عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري وغيرهم كما في الدر المنثور: أن تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاص بيوم بدر.

• وربما وجه ذلك بأن الآية نزلت يوم بدر، وأن الظرف في قوله ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾ إشارة إلى يوم بدر، وقد عرفت أن سياق الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر، وأن المراد بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو يوم الزحف لا يوم بدر، على أنه لو فرض نزولها يوم بدر لم يوجب خصوص السبب في عموم مدلول الآية شيئا كما في سائر الآيات التي جمعت بين عموم الدلالة وخصوص السبب.

• قال صاحب المنار في تفسيره: وإنما قد يتجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال، خلافا للجمهور، مع ما لغزوة بدر من الخصائص ككونها أول غزوة في الإسلام لو انهزم فيها المسلمون والنبي ﷺ فيهم لكانت الفتنة كبيرة، وتأييد المسلمين بالملائكة يثبتونهم، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، فإذا نظرنا إلى مجموع الخصائص وقرينة الحال في النهي اتجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الذي في الآية خاصا بها، أضف إلى ذلك أن الله تعالى امتحن الصحابة بالتولي والإدبار في القتال مرتين مع وجوده ﷺ معهم: يوم أحد وفيه يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ ويوم حنين، وفيه يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ

كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، وهذا لا ينافي كون التولي حراما ومن الكبائر، ولا يقتضي أن يكون كل تول لغير السببين المستثنيين في آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من الله ومأواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك، ويتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها كما تقدم في سورة البقرة وسيأتي تفصيله قريبا.

• وقد روى أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي من حديث ابن عمر قال: (كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ، فحاص الناس حيصة وكنت فيمن حاص، فقلنا: كيف نصنع، وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة فبتنا؟ ثم قلنا: لو عرضنا نفوسنا على رسول الله ﷺ؟ فإن كان لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: من الفرارون؟ فقلنا: نحن الفرارون، قال: بل أنتم العكارون إنا فئتكم وفئة المسلمين، قال: فأتينا حتى قبلنا يده، (ولفظ أبي داود) فقلنا: ندخل المدينة فنبيت فيها، لنذهب ولا يرانا أحد فدخلنا فقلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا، فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا: نحن الفرارون إلخ.

• تأول بعضهم هذا الحديث بتوسع في معنى التحيز إلى فئة لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للغة حكم، وقد قال الترمذي فيه: حسن لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن أبي زياد أقول: وهو مختلف فيه ضعفه الكثيرون، وقال ابن حبان كان صدوقا إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغير فسماعه صحيح، وجملة القول: أن هذا الحديث لا وزن له في هذه المسألة لا متنا ولا سندا، وفي معناه أثر عن عمر هو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة)

• أقول: والذي نقله في أول كلامه من الوجوه والقرائن المحتفة بغزوة بدر من كونه أول غزوة في الإسلام، وكون النبي ﷺ بينهم ونحو ذلك مشتركة بحسب حقيقة الملاك بينها وبين أمثال غزوة أحد والخندق وخيبر وحنين، والإسلام أيامئذ في حاجة شديدة إلى الرجال المقاتلين وثباتهم في الزحوف، والنبي ﷺ بينهم، والله وعدهم بالنصر وأنزل في بعضها الملائكة لتأييدهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم.

• والذي ذكره من الآيات النازلة في فرارهم يوم أحد ويوم حنين لا دلالة فيها على عدم شمول

وعيد آية الأنفال لهم إذ ذاك وأي مانع يمنع من ذلك والآية مطلقة وليس هناك مقيد يقيدها.

• ومن العجيب تسليمه كون فرارهم في اليومين كبيرة محرمة ثم قوله: إن ذلك لا يقتضي كونه مما يبوء صاحبه بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك مع أن الكبائر الموبقة هي المعاصي التي أوعد الله عليها النار.

• وأعجب منه قوله: إنه يتقيد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها! مع أن آية رخصة الضعف إنما تدل على الرخصة في الفرار إذا كان يربو عدد الزاحفين من الأعداء على الضعف.

• وآية النهي عن إلقاء النفس في التهلكة لو دلت بعمومها على أزيد مما يدل عليه آية رخصة الضعف لغت آية الأنفال وبقيت بلا مصداق كما أن التأول في قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ﴾ على حسب ما تقتضيه رواية ابن عمر يوجب إلغاء الآية كما ذكره صاحب المنار فقد تلخص أن لا مناص عن إبقاء الآية على ظاهر إطلاقها.

ج. وفي تفسير العياشي، عن موسى بن جعفر عليه السلام: في الآية: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ﴾ قال متطردا يريد الكرة عليهم ﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ﴾ يعني متأخرا إلى أصحابه من غير هزيمة، من انهزم حتى يجوز صف أصحابه فقد باء بغضب من الله.

• أقول: تشير الرواية إلى نكتة مهمة في لفظ الآية، وهي أن النهي إنما تعلقت في الآية على تولي الأدبار وهي أعم من الانهزام فإذا استثني الموردان أعني التحرف لقتال والتحيز إلى فئة وهي غير موارد الفرار عن هزيمة، بقيت موارد الهزيمة تحت النهي فكل انهزام عن أعداء الدين إذا لم يجوزوا الضعف عددا حرام محرم.

١٠. النصر من الله وليس من قتال المؤمنين:

المقطع [١٠] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَّ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللهَّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللهَّ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٧ـ١٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٣٨»:

١. ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمى﴾ إلى آخر الآية:

أ. التدبر في السياق لا يدع شكا في أن الآية تشير إلى وقعة بدر وما صنعه رسول الله ﷺ من رميهم بكف من الحصى، والمؤمنون بوضع السيف فيهم وقتلهم القتل الذريع، وذيل الآية أعني قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى، وقد أثبت تعالى عين ما نفاه في جملة واحدة أعني قوله: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾

ب. فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾ نفي أن تكون وقعة بدر وما ظهر فيها من استئصال المشركين والظهور عليهم والظفر بهم جارية على مجرى العادة والمعروف من نواميس الطبيعة، وكيف يسع لقوم هم شرذمة قليلون ما فيهم على ما روي إلا فرس أو فرسان وبضعة أدرع وبضعة سيوف، أن يستأصلوا جيشا مجهزا بالأفراس والأسلحة والرجال والزاد والراحلة، هم أضعافهم عدة ولا يقاسون بهم قوة وشدة، وأسباب الغلبة عندهم، وعوامل البأس معهم، والموقف المناسب للتقدم لهم، إلا أن الله سبحانه بما أنزل من الملائكة ثبت أقدام المؤمنين وأرعب قلوب المشركين، وألقى الهزيمة بما رماه النبي ﷺ من الحصاة عليهم فشملهم المؤمنين قتلا وأسرا فبطل بذلك كيدهم وخمدت أنفاسهم وسكنت أجراسهم، فبالحري أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين والرمي الذي شتت شملهم وألقى الهزيمة فيهم إليه سبحانه دون المؤمنين.

ج. فما في الآية من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العناية، بالنظر إلى استناد القتل بأطرافها إلى سبب إلهي غير عادي، ولا ينافي ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع إلى أسبابها القريبة المعهودة في الطبيعة بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم، والنبي ﷺ راميا لما رماه من الحصاة.

٢. ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً﴾ الظاهر أن ضمير ﴿مِنْهُ﴾ راجع إلى الله تعالى، والجملة لبيان الغاية وهي معطوفة على مقدر محذوف، والتقدير: إنما فعل الله ما فعل من قتلهم ورميهم لمصالح عظيمة عنده، وليبلي المؤمنين ويمتحنهم بلاء وامتحانا حسنا أو لينعم عليهم بنعمة حسنة، وهو إفناء خصمهم وإعلاء كلمة التوحيد بهم وإغناؤهم بما غنموا من الغنائم.

٣. ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي إنه تعالى يبليهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاء حسنا.

٤. والتفريع الذي في صدر الآية: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآية متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة: ﴿إِذْ

تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ إلى آخر الآيات من المعنى، فإنها تعد منن الله عليهم من إنزال الملائكة وإمدادهم بهم وتغشية النعاس إياهم وإمطار السماء عليهم وما أوحي إلى الملائكة من تأييدهم وتثبيت أقدامهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرع عليه قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾

٥. وعلى هذا فقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ معترضة متعلقة بقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ﴾ أو بمعناه المفهوم من الجمل المسرودة، وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ الآية متصل بما قبله بحسب النظم.

٦. وربما يذكر في نظم الآية وجهان آخران:

أ. أحدهما: أن الله سبحانه لما أمرهم بالقتل في الآية المتقدمة ذكر عقيبها أن ما كان من الفتح يوم بدر وقهر المشركين إنما كان بنصرته ومعونته تذكيرا للنعمة، ذكره أبو مسلم.

ب. والثاني: أنهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول: أنا قتلت فلانا وأنا فعلت كذا نزلت الآية على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم، وربما قيل: إن الفاء في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض، والوجه ما قدمناه.

٧. ﴿ذلِكُمْ وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ﴾ قال في المجمع: (﴿ذلِكُمْ﴾ موضعه رفع، وكذلك ﴿أَنَّ اللهَ﴾ في موضع رفع، والتقدير: الأمر ذلكم والأمر أن الله موهن، وكذلك الوجه فيما تقدم من قوله: ﴿ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ﴾، ومن قال: إن ﴿ذلِكُمْ﴾ مبتدأ و﴿فَذُوقُوهُ﴾ خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرا لمبتدإ، ولا يجوز: زيد فمنطلق، ولا: زيد فاضربه إلا أن تضمر (هذا) تريد: هذا زيد فاضربه) فمعنى الآية: الأمر ذلكم الذي ذكرناه والأمر أن الله موهن كيد الكافرين.

٨. أحاديث وآثار:

أ. وفي تفسير البرهان، عن ابن شهرآشوب عن الثعلبي عن ضحاك عن عكرمة عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أن النبي ﷺ قال لعلي: ناولني كفا من حصى، وناوله ورمى به في وجوه قريش، فما بقي أحد إلا امتلأت عيناه من الحصى:

• أقول: ورواه في الدر المنثور، عن الطبراني وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس وروى العياشي

في تفسيره حديث المناولة عن محمد بن كليب الأسدي عن أبيه عن الصادق عليه السلام وفي خبر آخر عن علي عليه السلام.

ب. أخرج ابن جرير عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب رضي الله عنهما قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: شاهت الوجوه، فدخلت في أعينهم كلهم، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ إلى قوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

• أقول: والمراد بنزول الآية نزولها بعد ذلك وهي تقص القصة لا نزولها وقتئذ، وهو شائع في أسباب النزول، وقد ذكر ابن هشام في سيرته: أن النبي ﷺ رماهم بالتراب ثم أمر أصحابه بالكرة فكانت الهزيمة.

١١. الفتح للمؤمنين والله معهم:

المقطع [١١] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠»:

١. ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية:

أ. ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسرودة كقوله: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ الآية أن تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكم، وهو المناسب لقوله في الآية السابقة: ﴿وَأَنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ﴾

ب. فالمعنى: إن طلبتم الفتح وسألتم الله أيها المشركون أن يفتح بينكم وبين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحق يوم بدر فكانت الدائرة للمؤمنين عليكم، وإن تنتهوا عن المكيدة على الله ورسوله فهو خير لكم وإن تعودوا إلى مثل ما كدتم نعد إلى مثل ما أوهنا به كيدكم، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئا ولو كثرت كما لم تغن في هذه المرة وإن الله مع المؤمنين ولن يغلب من هو معه.

٢. وبهذا يتأيد ما ورد أن أبا جهل قال يوم بدر حين اصطف الفريقان أو حين التقى الفئتان: اللهم إن محمدا أقطعنا للرحم وأتانا بما لا نعرف فانصر عليه، وفي بعض الروايات، وهو الأنسب، كما في المجمع،

عن أبي حمزة: قال أبو جهل: اللهم ربنا ديننا القديم ودين محمد الحديث فأي الدينين كان أحب إليك وأرضى عندك فانصر أهله اليوم.

٣. وذكر بعضهم: أن الخطاب في الآية للمؤمنين ووجهوا مضامين جملها بما لا يرتضيه الذوق السليم، ولا جدوى للإطالة بذكرها والمناقشة فيها فمن أراد ذلك فعليه بالمطولات.

١٢. الأمر بطاعة الله والرسول والتحذير من التولي:

المقطع [١٢] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠ـ٢١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٠»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ الضمير على ما يفيده السياق راجع إلى الرسول ﷺ، والمعنى، ولا تولوا عن الرسول وأنتم تسمعون ما يلقياه إليكم من الدعوة الحقة وما يأمركم به وينهاكم عنه مما فيه صلاح دينك ودنياكم، ومصب الكلام أوامره الحربية وإن كان لفظه أعم.

٢. ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ المعنى ظاهر وفيه نوع تعريض للمشركين إذ قالوا: سمعنا، وهو لا يسمعون، وقد حكى الله عنهم ذلك إذ قال بعد عدة آيات: ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾ [الأنفال: ٣١]، لكنهم كذبوا ولم يسمعوا ولو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى حكاية عن أصحاب السعير: ﴿وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فالمراد بالسمع في الآية الأولى تلقي الكلام الحق الذي هو صوت من طريق الأذن، وفي الآية الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع.

٣. والآيتان، كما ترى، خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآية السابقة عليهما وتعريض للمشركين، فهو تعالى لما التفت إلى المشركين فذمهم وتهكم عليهم بسؤالهم الفتح، وذكر لهم أن الغلبة دائما لكلمة الإيمان على كلمة الكفر ولدعوة الحق على دعوة الباطل، التفت إلى حزبه وهم المؤمنون فأمرهم بالطاعة له ولرسوله، وحذرهم عن التولي عنه بعد استماع كلمة الحق، وأن يكونوا كأولئك إذ قالوا: سمعنا

وهم لا يسمعون.

٤. ومن الممكن أن يكون في الآية إشارة إلى عدة من أهل مكة آمنوا بالنبي ﷺ ولما تخلص قلوبهم من الشك خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ فابتلوا بما ابتلي به مشركو قريش، فقد ورد في الخبر: أن فئة من قريش أسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش، يوم بدر، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، والحارث بن زمعة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة ولما رأوا قلة المسلمين قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، وسيذكرهم الله بعد عدة آيات بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ الآية.

٥. وربما قيل: إن المراد بالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظة والنضير، وهو بعيد.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ﴾ الآية، قال قال الباقر عليه السلام: هم بنو عبد الدار، لم يكن أسلم منهم غير مصعب بن عمير، وحليف لهم يقال له: سويبط.

ب. وفي جامع الجوامع: قال الباقر عليه السلام: هم بنو عبد الدار، لم يسلم منهم غير مصعب بن عمير وسويد بن حرملة، وكانوا يقولون: نحن صم بكم عمي عما جاء به محمد، وقد قتلوا جميعا بأحد وكانوا أصحاب اللواء.

• أقول: وروي في الدر المنثور، ما في معناه بطرق عن ابن عباس وقتادة، والرواية من قبيل الجري والانطباق، والآية عامة.

١٣. شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون:

المقطع [١٣] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٢»:

١. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ إلى آخر الآيتين، تعريض وذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام وما اشتملت عليه الآية من الموصول والضمائر

المستعملة في أولي العقل، وعلى هذا فالظاهر أن اللام في قوله: ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ للعهد الذكري، ويئول المعنى إلى أن شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان وأنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون، وإنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم إلى تلقي الحق لفقدهم السمع والنطق فلا يسمعون ولا ينطقون.

٢. ثم ذكر تعالى أن الله إنما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلا يسمعون كلمة الحق ولا ينطقون بكلمة الحق، وبالجملة حرمهم نعمة السمع والقبول، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيرا ولم يعلم به ولو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفقهم للسمع والقبول، ولو أنه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم بل تولوا عن الحق وهم معرضون.

٣. ومن هنا يعلم أن المراد بالخير حسن السريرة الذي يثبت به الاستعداد لقبول الحق ويستقر في القلب، وأن المراد بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ الأسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد أنه تعالى لو أسمعهم ورزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم ولا وجه مع ذلك لتوليهم وإعراضهم وذلك أن الشرط في قوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على تقدير فقدهم الخير على ما يفيده السياق.

١٤. الاستجابة لله والرسول والحياة:

المقطع [١٤] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٤٢»:

١. لأهمية ما أورده في تفسير الآية الكريمة، ولعلاقتها بالكثير من المباحث، فقد وضعنا ما ذكره في تفسيرها المفصل ضمن الجزء الخاص بالبحوث التفسيرية، وقد عنوناه بـ [تحقيق معنى قوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ ودلالته على الحياة الحقيقية والحيلولة الإلهية]، خلاصته:

أ. بيان أن دعوة الرسول ﷺ هي دعوة إلى الحياة الحقيقية، وأن الحياة التي يدعو إليها الإسلام هي حياة روحية أعلى من الحياة الدنيوية.

ب. توضيح أن الفطرة الإنسانية تهتدي إلى الخير والسعادة، وأن الانحراف عنها إنما يقع بسبب اتباع الهوى وتزيين الشيطان، لا بسبب خلل في الفطرة.

ج. إثبات أن للإنسان حياة أخرى أرفع من الحياة الدنيوية، وهي الحياة الأخروية التي ينكشف

عنها الغطاء، ويؤيدها الله بروح منه.

د. بيان أن قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يعني أن الله هو المالك الحقيقي للقلب، وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه، وهو الحائل بينه وبين قلبه.

هـ. توضيح أن هذه الحيلولة تقطع كل عذر في ترك الاستجابة، وتبطل استقلال الإنسان بقلبه، وتزيل الكبر واليأس معاً.

و. الرد على الأقوال التي تقيد الآية بالجهاد أو الشهادة أو الإيمان فقط، وبيان أنها أوسع من ذلك، تشمل جميع دعوات الرسول المحيية.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ الآية، قال: قال الحياة الجنة.

ب. وفي الكافي، بإسناده عن أبي الربيع الشامي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ، إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ قال: نزلت في ولاية علي عليه السلام.

• أقول: ورواه في تفسير البرهان، عن ابن مردويه عن رجاله مرفوعا إلى الإمام محمد بن علي الباقر، عليه السلام وكذا عن أبي الجارود عنه عليه السلام كما رواه القمي في تفسيره، والرواية من قبيل الجري وكذا الرواية السابقة عليها وقد قدمنا في الكلام على الآية أنها عامة.

ج. وفي تفسير القمي، عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يقول: بين المرء ومعصيته أن يقوده إلى النار، ويحول بين الكافر وطاعته أن يستكمل بها الإيمان، واعلموا أن الأعمال بخواتيمها.

د. وفي المحاسن، بإسناده عن علي بن الحكم عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام: في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال: يحول بينه وبين أن يعلم أن الباطل حق.

• أقول: ورواه الصدوق في المعاني، عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عنه عليه السلام.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن يونس بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا يستيقن القلب أن

الحق باطل أبدا، ولا يستيقن أن الباطل حق أبدا.

و. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: سألت النبي ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال: يحول بين المؤمن والكفر، ويحول بين الكافر وبين الهدى.

• أقول: وهو قريب من الخبر المتقدم عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في معنى الآية.

ز. وفي تفسير العياشي، عن حمزة الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ قال: هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده، أما إنه لا يغشى شيئا منها وإن كان يشتهيه، فإنه لا يأتيه إلا وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي، يعرف أن الحق ليس فيه:

• أقول: ورواه البرقي في المحاسن بإسناده عن حمزة الطيار عنه عليه السلام وروى ما يقرب منه العياشي في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام، ويئول معنى الرواية إلى الروايتين المتقدمتين عن هشام بن سالم ويونس بن عمار عن الصادق عليه السلام.

١٥. الفتنة لا تصيب الظالمين خاصة:

المقطع [١٥] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٥٠»:

١. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾:

أ. قرأ علي والباقر عليه السلام من أئمة أهل البيت وكذا زيد بن ثابت والربيع بن أنس وأبو العالية على ما في المجمع: لتصيبن باللام ونون التأكيد الثقيلة، والقراءة المشهورة: لا تصيبن بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة.

ب. وعلى أي تقدير كان، تحذر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختص بالظالمين منهم، ولا يتعداهم إلى غيرهم من الكفار والمشركين، واختصاصها بالظالمين من المؤمنين وأمر عامتهم مع ذلك باتقائها يدل على أنها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة لكن السيئ من أثرها يعم الجميع ثم قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تهديد للجميع بالعقاب الشديد ولا دليل يدل على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيوي من قبيل الاختلافات القومية وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك.

ج. ومقتضى ذلك أن تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم مما يوجب على عامة الأمة أن يبادروا على دفعها، ويقطعوا دابرها ويطفئوا لهيب نارها بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، فيئول معنى الكلام إلى تحذير عامة المسلمين عن المساهلة في أمر الاختلافات الداخلية التي تهدد وحدتهم وتوجب شق عصاهم واختلاف كلمتهم، ولا تلبث دون أن تحزبهم أحزابا وتبعضهم أبعاضا، ويكون الملك لمن غلب منهم، والغلبة لكلمة الفساد لا لكلمة الحق والدين الحنيف الذي يشترك فيه عامة المسلمين.

د. فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصة وهم الظالمون غير أن سيئ أثره يعم الكل ويشمل الجميع فيستوعبهم الذلة والمسكنة وكل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، وهم جميعا مسئولون عند الله والله شديد العقاب.

هـ. وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة ولم يعرفها بكمال اسمها ورسمها غير أن قوله فيما بعد: ﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، كما تقدم، يوضحها بعض الإيضاح، وهو أنها اختلاف البعض من الأمة مع بعض منها في أمر يعلم جميعه وجه الحق فيه فيجمح البعض عن قبول الحق ويقدم إلى المنكر بظلمه فلا يرد عونه عن ظلمه ولا ينهونه عن ما يأتيه من المنكر، وليس كل ظلم، بل الظلم الذي يسري سوء أثره إلى كافة المؤمنين وعامة الأمة لمكان أمره سبحانه الجميع باتقائه، فالظلم الذي هو لبعض الأمة ويجب على الجميع أن يتقوه ليس إلا ما هو من قبيل التغلب على الحكومة الحقة الإسلامية، والتظاهر بهدم القطعيات من الكتاب والسنة التي هي من حقوقها.

و. وأيا ما كان ففي الفتن الواقعة في صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآية أوضح انطباق وقد انهدمت بها الوحدة الدينية، وبدت الفرقة ونفدت القوة، وذهبت الشوكة على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب وهتك الأعراض والحرمات وهجر الكتاب وإلغاء السنة، وقال الرسول: يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا، ومن شمول مشامتها وتعرق فسادها أن الأمة لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق.

ز. وقد تفطن بعض المفسرين بأن الآية تحذر الأمة وتهددهم بفتنة تشمل عامتهم وتفرق جمعهم،

وتشتت شملهم، وتوعدهم بعذاب الله الشديد، وقد أحسن التفطن غير أنه تكلف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيوي، وتمحل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد.

٢. ولنرجع إلى لفظ الآية:

أ. أما على قراءة أهل البيت عليه السلام وزيد: (واتقوا فتنة لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) فاللام في (لتصيبن) للقسم والنون الثقيلة لتأكيده، والتقدير: واتقوا فتنة أقسم لتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، وخاصة حال من الفتنة، والمعنى اتقوا فتنة تختص إصابته بالذين ظلموا منكم أيها المخاطبون وهم الذين آمنوا، وعليك أن تتذكر ما سلف بيانه أن لفظ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في القرآن خطاب تشريفي للمؤمنين في أول البعثة وبدء انتشار الدعوة لولا قرينة صارفة عن ذلك، ثم تذكر أن فتن صدر الإسلام تنتهي إلى أصحاب بدر، والآية على أي حال يأمر الجميع أن يتقوا فتنة تثيرها بعضهم، وليس إلا لأن أثرها السيئ يعم الجميع كما تقدم.

ب. وأما على قراءة المشهور: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ فقد ذكروا: أن لا في ﴿لا تُصِيبَنَ﴾ ناهية والنون لتأكيد النهي، وليس ﴿لا تُصِيبَنَ﴾ جوابا للأمر في ﴿اتَّقُوا﴾ بل الكلام جار مجرى الابتداء والاستيناف كقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ﴾ النمل: ١٨ فقد قال أولا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ ثم استأنف وقال: ﴿لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ لاتصال الجملتين معنى.

ج. وربما جوز بعض النحاة أن يكون ﴿لا تُصِيبَنَ﴾ نهيا واردا في جواب الأمر كما يقال: اتق زيدا لا يضربك أو لا يضربنك والتقدير: اتق زيدا فإنك إن اتقيته لا يضربك ولم يشترط في نون التأكيد أن لا يدخل الخبر.

د. وربما قال بعضهم: إن لا زائدة والمعنى: اتقوا فتنة تصيبن الآية.

هـ. وربما ذكر آخرون: (أن أصل ﴿لا تُصِيبَنَ﴾ (لتصيبن) أشبعت فتحة اللام حتى تولدت الألف، وإشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال:

فأنت من الغوائل حين ترمي...ومن ذم الرجال بمنتزاح

يريد: بمنتزح، والوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى، ومآل المعنى على هذا الوجه أي

على قراءة ﴿لا تُصِيبَنَ﴾ أيضا إلى ما تفيده القراءة الأولى (لتصيبن) كما عرفت.

٣. والآية، كما عرفت، تتضمن خطابا اجتماعيا متوجها إلى مجموع الأمة وذلك يؤيد كون الخطاب في الآية السابقة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ خطابا اجتماعيا متوجها إلى كافة المؤمنين، ويتفرع عليه أن المراد بالدعوة إلى ما يحييهم الدعوة إلى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله وإقامة الدين وعدم التفرق فيه كما قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] وقوله: ﴿وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]

٤. وبهذا يتأيد بعض الوجوه المذكورة سابقا في قوله: ﴿إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾ وكذا في قوله: ﴿أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ وتختص الآية به بحسب السياق وإن كانت تفيد معنى أوسع من ذلك باعتبار أخذها في نفسها مفردة عن السياق، والباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك والله الهادي.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن الصيقل: سئل أبو عبد الله عليه السلام ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ قال: أخبرت أنهم أصحاب الجمل.

ب. وفي تفسير القمي، قال: قال: نزلت في الطلحة والزبير، لما حاربا أمير المؤمنين عليه السلام وظلماه.

ج. وفي المجمع، عن الحاكم بإسناده عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ قال النبي ﷺ: من ظلم عليا مقعدي هذا بعد وفاتي، فكأنما جحد نبوتي ونبوة الأنبياء من قبلي.

د. أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد ونعيم بن حماد في الفتن وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن الزبير قال: لقد قرأنا زمانا وما نرى أنا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

هـ. أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال: هذه نزلت في أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا، فكان من المقتولين طلحة والزبير وهما من أهل بدر.

و. أخرج أحمد والبزاز وابن المنذر وابن مردويه وابن عساكر عن مطرف قال: قلنا للزبير: يا أبا عبد الله ضيعتم الخليفة حتى قتل، ثم جئتم تطلبون بدمه؟ فقال الزبير: إنا قرأنا على عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، ولم نكن نحسب أنا أهلها، حتى وقعت فينا حيث وقعت.

ز. أخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال: علم والله ذوو الألباب من أصحاب محمد ﷺ، أنه سيكون فتن.

١٦. تذكير المؤمنين بحال استضعافهم:

المقطع [١٦] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٥٣»:

١. ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ إلى آخر الآية، الاستضعاف عد الشيء ضعيفا بتوهين أمره، والتخطف والخطف والاختطاف أخذ الشيء بسرعة انتزاع، والإيواء جعل الإنسان ذا مأوى ومسكن يرجع إليه ويأوي، والتأييد من الأيد وهو القوة.

٢. والسياق يدل على أن المراد بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكة قبل الهجرة وهم قليل مستضعفون، وبقوله: ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ مشركو العرب وصناديد قريش، وبقوله ﴿فَآوَاكُمْ﴾ أي بالمدينة وبقوله ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ ما أسبغ عليهم من نعمة النصر ببدر، وبقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ما رزقهم من الغنائم وأحلها لهم.

٣. وما عده في الآية من أحوال المؤمنين ومننه عليهم بالإيواء وإن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا أن المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين والأنصار فإنهم أمة واحدة يوحدهم دين واحد، على أن فيما ذكره الله في الآية من مننه التأييد بالنصر والرزق من الطيبات وهما يعمان الجميع، هذا بحسب ما تقتضيه الآية من حيث وقوعها في سياق آيات بدر، ولكن هي وحدها وباعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث إنهم أمة واحدة يرجع لاحقهم إلى سابقهم فقد بدا ظهور الإسلام فيهم وهم قليل مستضعفون بمكة يخافون أن يتخطفهم الناس فآواهم بالمدينة وكثرهم بالأنصار وأيدهم بنصره في بدر

وغيره ورزقهم من جميع الطيبات الغنائم وغيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون.

٤. أحاديث وآثار: أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي في مسند الفردوسي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ قيل: يا رسول الله ومن الناس؟ قال: أهل فارس.

• أقول: والرواية لا تلائم سياق الآية.

١٧. النهي عن خيانة الله والرسول والأمانات:

المقطع [١٧] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٧-٢٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٥٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الخيانة نقض الأمانة التي هي حفظ الأمن لحق من الحقوق بعهد أو وصية ونحو ذلك، قال الراغب: (الخيانة والنفاق واحد إلا أن الخيانة تقال اعتبارا بالعهد والأمانة، والنفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانة مخالفة الحق بنقض العهد في السر، ونقيض الخيانة الأمانة يقال: خنت فلانا، وخنت أمانة فلان وعلى ذلك قوله: ﴿لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾)

ب. ﴿وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾ من الجائز أن يكون مجزوما معطوفا على تخونوا السابق، والمعنى: ولا تخونوا أماناتكم، وأن يكون منصوبا بحذف أن والتقدير: وأن تخونوا أماناتكم ويؤيد الوجه الثاني قوله بعده: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

ج. وذلك أن الخيانة وإن كانت إنما يتعلق النهي التحريمي بها عند العلم فلا نهي مع جهل بالموضوع ولا تحريم غير أن العلم من الشرائط العامة التي لا ينجز تكليف من التكاليف المولوية إلا به فلا نكتة ظاهرة في تقييد النهي عن الخيانة بالعلم مع أن العلم لكونه شرطا عاما مستغنى عن ذكره، وظاهر قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بحذف متعلقات الفعل أن المراد: ولكم علم بأنه خيانة لا ما قيل: إن المعنى: وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وسوء عاقبتها وتحريم الله إياها فإن ذلك لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا من جهة السياق.

د. فالوجه أن تكون الجملة بتقدير: وأن تخونوا أماناتكم، ويكون مجموع قوله: ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ﴾ نهيا واحدا متعلقا بنوع خيانة هي خيانة أمانة الله ورسوله وهي بعينها خيانة لأمانة المؤمنين أنفسهم فإن من الأمانة ما هي أمانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرعة من عنده ومنها ما هي أمانة الرسول كسيرته الحسنة، ومنها ما هي أمانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم، ومنها ما يشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون، وهي الأمور التي أمر بها الله سبحانه وأجراها الرسول وينتفع بها الناس ويقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسية والمقاصد الحربية التي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضل بإذاعتها مساعي الحكومة الإسلامية فيبطل به حق الله ورسوله ويعود ضرره إلى عامة المؤمنين، فهذا النوع من الأمانة خيانته خيانة لله ورسوله وللمؤمنين فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم أن هذه الأمانة التي يخونها أمانة لنفسه ولسائر إخوانه المؤمنين وهو يخون أمانة نفسه، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه فإن الإنسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانة للأمانة فكيف يخون أمانة نفسه.

هـ. فالمراد بقوله: ﴿وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، والله أعلم، وتخونوا في ضمن خيانة الله والرسول أماناتكم والحال أنكم تعلمون أنها أمانات أنفسكم وتخونونها، وأي عاقل يقدم على خيانة أمانة نفسه والإضرار بها لا يعود إلا إلى شخصه فتذييل النهي بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لتهييج العصبية الحقة وإثارة قضاء الفطرة لا لبيان شرط من شرائط التكليف، فكأن بعض أفراد المسلمين كان يفشي أمورا من عزائم النبي ﷺ المكتومة من المشركين أو يخبرهم ببعض أسراره فسماه الله تعالى خيانة ونهى عنه، وعدها خيانة لله والرسول والمؤمنين.

٢. ويؤيد ذلك قوله بعد هذا النهي: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية فإن ظاهر السياق أنه متصل بما قبله غير مستقل عنه، ويفيد حينئذ أن موعظتهم في أمر الأموال والأولاد مع النهي عن خيانة الله والرسول وأماناتهم إنما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومة، استمالة منهم مخافة أن يتعدوا على أموالهم وأولادهم الذين تركوهم بمكة بالهجرة إلى المدينة، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاء للمودة واستبقاء للمال والولد أو ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبي لبابة مع بني قريظة.

٣. وهذا يؤيد ما ورد في سبب النزول أن أبا سفيان خرج من مكة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي

ﷺ بخروجه وأشار عليه بالخروج إليه وكتمان أمره فكتب إليه بعضهم بالخبر فأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي نزول الآية بعض أحاديث أخر سيأتي إن شاء الله في البحث الروائي التالي.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور، في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية: أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن جابر بن عبد الله: أن أبا سفيان خرج من مكة، فأتى جبرائيل النبي ﷺ فقال: إن أبا سفيان بمكان كذا وكذا، فاخرجوا إليه واكتموا، فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان، أن محمدا يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله: ﴿لا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية.

• أقول: ومعنى الرواية قريب الانطباق على ما استفدناه من الآية في البيان المتقدم.

ب. وفيه: أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال: نزلت هذه الآية في قتل عثمان.

• أقول: والآية لا تنطبق عليه بسياقها البتة.

ج. وفي المجمع، عن الباقر والصادق عليه السلام والكلبي والزهري: نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة، إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح، على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم، إلى أذرعات وأريحات من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله ﷺ، إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحا لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: ما ترى يا أبا لبابة؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: أنه الذبح، فلا تفعلوا فأتاه جبرائيل فأخبره بذلك، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي عن مكانهما، حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله، فنزلت الآية فيه، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شرابا، حتى أموت أو يتوب الله علي، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاما ولا شرابا، حتى خر مغشيا عليه ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك، فقال: لا والله لا أحل نفسي، حتى يكون رسول الله هو الذي يحلني، فجاءه وحله بيده، ثم قال أبو لبابة: إن من تمام توبتي، أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وإن انخلع من مالي، فقال النبي ﷺ: يجزيك الثلث أن تصدق به.

• أقول: قصة أبي لبابة وتوبته صحيحة قابلة الانطباق على مضمون الآيتين غير أنها وقعت بعد قصة بدر بكثير، وظاهر الآيتين إذا اعتبرتا وقيستا إلى الآيات السابقة عليهما أن الجميع في سياق واحد نزلت بعد وقعة بدر بقليل، والله أعلم.

١٨. التقوى سبب للفرقان وتكفير السيئات:

المقطع [١٨] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٥٦»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفرقان ما يفرق به بين الشيء والشيء، وهو في الآية بقرينة السياق وتفريعه على التقوى الفرقان بين الحق والباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الإيمان والكفر وكل هدى وضلال أو في العمل بالتمييز بين الطاعة والمعصية وكل ما يرضي الله أو يسخطه، أو في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطإ فإن ذلك كله مما تثمره شجرة التقوى، وقد أطلق الفرقان في الآية ولم يقيده قد عد جمل الخير والشر في الآيات السابقة والجميع يحتاج إلى الفرقان.

٢. ونظير الآية بحسب المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وقد تقدم الكلام في معنى تكفير السيئات والمغفرة، والآية بمنزلة تلخيص الكلام في الأوامر والنواهي التي تتضمنها الآيات السابقة أي إن تتقوا الله لم يختلط عندكم ما يرضي الله في جميع ما تقدم بما يسخطه ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم.

١٩. مكر الكفار بالنبي ومكر الله بهم:

المقطع [١٩] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٦٦»:

١. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ إلى آخر الآية:

أ. قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: ضرب محمود وذلك أن

يتحرى به فعل جميل وعلى ذلك قال: ﴿وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح قال: ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، وقال في الأمرين: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنا مَكْراً﴾، وقال بعضهم: من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا، ولذلك قال أمير المؤمنين: (من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به، فهو مخدوع عن عقله)، وفي المجمع: (الإثبات الحبس يقال: رماه فأثبته أي حبسه مكانه، وأثبت الحرب أي جرحه جراحة مثقلة)

ب. ومقتضى سياق الآيات إن يكن قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية معطوفة على قوله سابقا: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ﴾ فالآية مسوقة لبيان ما أسبغ الله عليهم من نعمته، وأيدهم به من أياديه التي لم يكن لهم فيها صنع.

ج. ومعنى الآية: واذكر أو وليذكروا إذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك أن يوقعوا بك أحد أمور ثلاثة: إما أن يحبسوك وإما أن يقتلوك وإما أن يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

د. والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج بيانا لما كانوا يمكرونه من مكر يدل أنه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضا في أمر النبي ﷺ وما كان يهمهم ويهتمون به من إطفاء نور دعوته، وبذلك يتأيد ما ورد من أسباب النزول أن الآية تشير إلى قصة دار الندوة على ما سيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

٢. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، أنها نزلت بمكة قبل الهجرة.

ب. أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن جريح: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: هي مكية.

• أقول: وهو ظاهر ما رواه أيضا عن عبد بن حميد عن معاوية بن قرة، لكن عرفت أن سياق الآيات لا يساعد عليه.

ج. أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عباس: في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ قال: تشاورت

قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي ﷺ، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فبات علي على فراش النبي ﷺ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون عليا يحسبونه النبي ﷺ فلما أصبحوا ثاروا عليه، فلما رأوه عليا رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل، اختلط عليهم فصعدوا في الجبل، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث ثلاث ليال.

د. وفي تفسير القمي: كان سبب نزولها، أنه لما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة بمكة، قدمت عليه الأوس والخزرج، فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنعوني وتكونون لي جارا، حتى أتلو كتاب الله عليكم وثوابكم على الله الجنة؟ فقالوا: نعم خذ لربك ولنفسك ما شئت، فقال لهم: موعدكم العقبة، في الليلة الوسطى من ليالي التشريق، فحجوا ورجعوا إلى منى، وكان فيهم ممن قد حج بشر كثير، فلما كان اليوم الثاني من أيام التشريق، قال لهم رسول الله ﷺ: إذا كان الليل، فاحضروا دار عبد المطلب على العقبة، ولا تنبهوا نائما، ولينسل واحد فواحد، فجاء سبعون رجلا من الأوس والخزرج، فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله ﷺ: تمنعوني وتجيروني حتى أتلو عليكم كتاب ربي، وثوابكم على الله الجنة، فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور، وعبد الله بن حرام نعم يا رسول الله، اشترط لربك ونفسك ما شئت، فقال: أما ما أشترط لربي، فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وما أشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون أنفسكم، وتمنعون أهلي مما تمنعون أهليكم وأولادكم، فقالوا فما لنا على ذلك؟ فقال: الجنة في الآخرة، وتملكون العرب، ويدين لكم العجم في الدنيا، وتكونون ملوكا في الجنة فقالوا: قد رضينا، فقال: أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا، يكونون شهداء عليكم بذلك، كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيبا، فأشار إليهم جبرائيل فقال: هذا نقيب، وهذا نقيب تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس: فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء بن معرور، وعبد الله بن حرام أبو جابر بن عبد الله، ورافع بن مالك وسعد بن عبادة والمنذر بن عمر، وعبد الله بن رواحة وسعد بن ربيع، وعبادة بن صامت ومن الأوس أبو الهيثم بن التيهان وهو من اليمن، وأسيد بن حصين وسعد بن خيثمة، فلما اجتمعوا وبايعوا لرسول الله ﷺ صاح إبليس: يا معشر قريش والعرب، هذا محمد والصباة من أهل يثرب، على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم، فأسمع أهل منى، وهاجت قريش

فأقبلوا بالسلاح، وسمع رسول الله ﷺ النداء فقال للأنصار: تفرقوا فقالوا: يا رسول الله، إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: لم أومر بذلك، ولم يأذن الله لي في محاربتهم، قالوا: فتخرج معنا؟ قال: أنتظر أمر الله، فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلاح، وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام بالسلاح، ومعهما السيوف فوقفا على العقبة، فلما نظرت قريش إليهما، قالوا: ما هذا الذي اجتمعتم له؟ فقال حمزة: ما اجتمعنا وما هاهنا أحد، والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلا ضربته بسيفي، فرجعوا إلى مكة وقالوا: لا نأمن أن يفسد أمرنا، ويدخل واحد من مشائخ قريش في دين محمد، فاجتمعوا في دار الندوة، وكان لا يدخل دار الندوة إلا من أتى عليه أربعون سنة، فدخلوا أربعين رجلا من مشائخ قريش، وجاء إبليس في صورة شيخ كبير، فقال له البواب، من أنت؟ فقال: أنا شيخ من أهل نجد، لا يعدمكم مني رأي صائب، إني حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل، جئت لأشير عليكم، فقال: ادخل فدخل إبليس، فلما أخذوا مجلسهم قال أبو جهل: يا معشر قريش إنه لم يكن أحد من العرب أعز منا، نحن أهل الله، تفد إلينا العرب في السنة مرتين ويكرموننا، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا محمد بن عبد الله، فكنا نسميه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله، وأن أخبار السماء تأتيه فسفه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شباننا، وفرق جماعتنا، وزعم أنه من مات من أسلافنا ففي النار، ولم يرد علينا شيء أعظم من هذا، وقد رأيت فيه رأيا، قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيت أن ندس إليه رجلا منا ليقتله، فإن طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات، فقال الخبيث: هذا رأي خبيث، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: لأن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فإنه إذا قتل محمدا تعصبت بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على الأرض، فتقع بينكم الحروب في حرمكم وتتفانون، فقال آخر منهم: فعندي رأي آخر، قال: وما هو؟ قال: نثبته في بيت ونلقي عليه قوته، حتى يأتي عليه ريب المنون فيموت، كما مات زهير والنابغة وإمرؤ القيس، فقال إبليس: هذا أخبث من الآخر، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: لأن بني هاشم لا ترضى بذلك، فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم، فاجتمعوا عليكم فأخرجوه، قال آخر منهم: لا ولكنا نخرجه من بلادنا، ونتفرغ لعبادة آلهتنا، قال إبليس: هذا أخبث من ذينك الرأيين المتقدمين، قالوا: وكيف؟ قال: لأنكم تعمدون إلى أصبح الناس وجها، وأتقن الناس لسانا

وأفصحهم لهجة، فتحملوه إلى بوادي العرب فيخدعهم ويسحرهم بلسانه، فلا يفجئوكم إلا وقد ملأها خيلا ورجلا، فبقوا حائرين، ثم قالوا لإبليس: فما الرأي يا شيخ؟ قال: ما فيه إلا رأي واحد، قالوا: وما هو؟ قال: يجتمع من كل بطن من بطون قريش، فيكون معهم من بني هاشم رجل، فيأخذون سكينا أو حديدة أو سيفا، فيدخلون عليه فيضربونه كلهم ضربة واحدة، حتى يتفرق دمه في قريش كلها، فلا يستطيع بنو هاشم أن يطلبوا بدمه، فقد شاركوه فيه، فإن سألوكم أن تعطوكم الدية فأعطوهم ثلاث ديات، قالوا: نعم وعشر ديات، قالوا: الرأي رأي الشيخ النجدي فاجتمعوا فيه، ودخل معهم في ذلك أبو لهب عم النبي ﷺ، فنزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فأخبره، أن قريشا قد اجتمعت في دار الندوة يدبرون عليك، فأنزل الله عليه في ذلك: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ، أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾، واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلا فيقتلوه، وخرجوا إلى المسجد يصفرون ويصفقون، ويطوفون بالبيت فأنزل الله: ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فالمكاء التصفير والتصدية صفق اليدين، وهذه الآية معطوفة على قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قد كتبت بعد آيات كثيرة، فلما أمسى رسول الله ﷺ جاءت قريش ليدخلوا عليه، فقال أبولهب: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإن في الدار صبيانا ونساء، ولا نأمن أن يقع بهم يد خاطئة فنحرسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه، فناموا حول حجرة رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ أن يفرش له فرش، فقال لعلي بن أبي طالب عليه السلام: أفدني بنفسك، قال: نعم يا رسول الله، قال: نم على فراشي والتحف ببردتي، فنام علي عليه السلام على فراش رسول الله ﷺ والتحف ببردته، وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول الله ﷺ، فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرأ عليهم: ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ وقال له جبرئيل: خذ على طريق ثور، وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور، فدخل الغار وكان من أمره ما كان، فلما أصبحت قريش وأتوا إلى الحجرة، وقصدوا الفراش فوثب علي عليه السلام في وجوههم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: أين محمد؟ قال: أجعلتموني عليه رقيبا؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبي لهب يضربونه، ويقولون: أنت تخدعنا منذ الليل، فتفرقوا في الجبال، وكان فيهم رجل من خزاعة يقال له: أبو كرز يقفو الآثار، فقالوا: يا أبا كرز اليوم اليوم، فوقف بهم على باب حجرة رسول الله ﷺ وقال لهم: هذه قدم محمد والله إنها لأخت القدم التي في المقام، وكان أبو بكر بن أبي قحافة استقبل

رسول الله ﷺ فرده معه، فقال أبو كرز: وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه، ثم قال: وهاهنا غير ابن أبي قحافة، ولا يزال يقف بهم حتى أوقفهم على باب الغار، ثم قال: ما جاوزوا هذا المكان، إما أن يكونوا صعدوا إلى السماء أو دخلوا تحت الأرض، وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار، وجاء فارس من الملائكة ثم قال: ما في الغار أحد، فتفرقوا في الشعاب، وصرفهم الله عن رسوله ﷺ، ثم أذن لنبيه ﷺ في الهجرة.

• أقول: وروي ما يقرب من هذا المعنى ملخصا في الدر المنثور عن ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم والبيهقي معا في الدلائل عن ابن عباس لكن نسب فيه إلى أبي جهل ما نسب في هذه الرواية إلى الشيخ النجدي ثم ذكر أن الشيخ النجدي صدق أبا جهل في رأيه واجتمع القوم على قوله.

• وقد روي دخول إبليس عليهم في دار الندوة في زي شيخ نجدي في عدة روايات من طرق الشيعة وأهل السنة.

• وأما ما في الرواية من قول أبي كرز لما اقتفى أثر رسول الله ﷺ: (هذه قدم محمد، وهذه قدم ابن أبي قحافة، وهاهنا غير ابن أبي قحافة) فقد ورد في الروايات أن ثالثهما هند بن أبي هالة ربيب رسول الله ﷺ وأمه خديجة بنت خويلد.

هـ. وقد روى الشيخ في أماليه، بإسناده عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر عن أبيه وعبد الله بن أبي رافع جميعا عن عمار بن ياسر وأبي رافع وعن سنان بن أبي سنان عن ابن هند بن أبي هالة، وقد دخل حديث عمار وأبي رافع وهند بعضه في بعض، وهو حديث طويل في هجرة النبي ﷺ وفيه: واستتبع رسول الله ﷺ أبا بكر بن أبي قحافة، وهند بن أبي هالة فأمرهما أن يقعدا له، بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار، وثبت رسول الله ﷺ بمكانه مع علي، يأمره في ذلك بالصبر حتى صلى العشاءين، ثم خرج رسول الله ﷺ في فحمة العشاء، والرصد من قريش قد أطافوا بداره، ينتظرون أن ينتصف الليل وتنام الأعين، فخرج وهو يقرأ هذه الآية ﴿وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا، فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ وكان بيده قبضة من تراب فرمى بها في رءوسهم، فما شعر القوم به حتى تجاوزهم، ومضى حتى أتى إلى هند وأبي بكر، فنهضا معه حتى وصلوا إلى الغار، ثم رجع هند إلى مكة بما أمره به رسول الله ﷺ، ودخل رسول الله وأبو بكر الغار، قال بعد سوق القصة الليلة: حتى إذا اعتم من الليلة القابلة انطلق هو، يعني عليا عليه السلام،

وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله ﷺ في الغار، فأمر رسول الله ﷺ هندا أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين، فقال أبو بكر قد كنت أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين، نرتحلهما إلى يثرب فقال: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن، قال: فهي لك بذلك فأمر رسول الله ﷺ عليا عليه السلام، فأقبضه الثمن ثم وصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته، وكانت قريش قد سموا محمدا في الجاهلية: الأمين، وكانت تودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءت النبوة والرسالة والأمر كذلك، فأمر عليا عليه السلام أن يقيم صارخا بالأبطح غدوة وعشيا: من كان له قبل محمد أمانة أو دين فليأت فلنؤد إليه أمانته، قال: فقال رسول الله ﷺ: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه، حتى تقدم علي فأد أمانتي على أعين الناس ظاهرا، ثم إني مستخلفك على فاطمة ابنتي، ومستخلف ربي عليكما ومستحفظه فيكما، فأمر أن يبتاع رواحل له وللفواطم ومن أزمع الهجرة معه من بني هشام، قال أبو عبيدة: فقلت لعبيد الله يعني ابن أبي رافع: أوكان رسول الله ﷺ يجد ما ينفقه هكذا؟ فقال: إني سألت أبي عما سألتني، وكان يحدث لي هذا الحديث، فقال: وأين يذهب بك عن مال خديجة عليه السلام، قال عبيد الله بن أبي رافع: وقد قال علي بن أبي طالب عليه السلام يذكر مبيته على الفراش، ومقام رسول الله ﷺ في الغار ثلاثا نظما:

وقيت بنفسي خير من وطء الحصى...ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

محمد لما خاف أن يمكروا به...فوقاه ربي ذو الجلال من المكر

وبت أراعيهم متى ينشرونني...وقد وطنت نفسي على القتل والأسر

وبات رسول الله في الغار آمنا...هناك وفي حفظ الإله وفي ستر

أقام ثلاثا ثم زمت قلائص...قلائص يفرين الحصى أينما تفري

وقد روي الأبيات عنه عليه السلام بتفاوت يسير في الدر المنثور عن الحاكم عن علي بن الحسين عليه السلام.

و. وفي تفسير العياشي، عن زرارة وحمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام: قوله: ﴿خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ قال: إن رسول الله ﷺ قد كان لقي من قومه بلاء شديدا، حتى أتوه ذات يوم وهو ساجد، حتى طرحوا عليه رحم شاة، فأتته ابنته وهو ساجد لم يرفع رأسه فرفعته عنه ومسحته، ثم أراه الله بعد ذلك

الذي يحب، أنه كان ببدر وليس معه غير فارس واحد، ثم كان معه يوم الفتح اثنا عشر ألفا، حتى جعل أبو سفيان والمشركون يستغيثون الحديث.

ز. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدي قال: كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة، فيسمع سجع أهلها وكلامهم، فلما قدم إلى مكة سمع كلام النبي ﷺ والقرآن، فقال: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين.

• أقول: وهناك بعض روايات أخر في أن القائل بهذا القول كان هو النضر بن الحارث وقد قتل يوم بدر صبرا.

٢٠. ادعاء الكافرين أن القرآن أساطير الأولين:

المقطع [٢٠] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٦٧»:

١. ﴿وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا﴾ إلى آخر الآية الأساطير الأحاديث جمع أسطورة ويغلب في الأخبار الخرافية، وقوله حكاية عنهم: ﴿قَدْ سَمِعْنا﴾ وقوله: ﴿لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا﴾ وقوله: ﴿مِثْلَ هذا﴾ ولم يقل: مثل هذه أو مثلها كل ذلك للدلالة على إهانتهم بآيات الله وإزرائهم بمقام الرسالة، ونظيرها قولهم: ﴿إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

٢. والمعنى: وإذا تتلى عليهم آياتنا التي لا ريب في دلالتها على أنها من عندنا وهي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق لجوا واعتدوا بها وهونوا أمرها وأزروا برسالتنا وقالوا قد سمعنا وعقلنا هذا الذي تلي علينا لا حقيقة له إلا أنه من أساطير الأولين، ولو نشاء لقلنا مثله غير أنا لا نعتني به ولا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافية.

٢١. الكفار يطلبون العذاب استهزاءً:

المقطع [٢١] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٦٧»:

١. ﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ إلى آخر الآيتين:

أ. الإمطار هو إنزال الشيء من فوق، وغلب في قطرات الماء من المطر أو هو استعارة إمطار المطر لغيره كالحجارة وكيف كان فقولهم: أمطر علينا حجارة من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآية السماوية والإهلاك الإلهي محضا.

ب. فإمطار الحجارة من السماء عليهم على ما سألوا أحد أقسام العذاب ويبقى الباقي تحت قولهم: ﴿أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ ولذلك نكر العذاب وأبهم وصفه ليدل على باقي أقسام العذاب، ويفيد مجموع الكلام: أن أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليما، وإنما أفرد إمطار الحجارة من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلة والإهانة.

٢. ثم قوله: ﴿إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ يدل بلفظه على أن الذي سمعوه من النبي ﷺ بلسان القال أو الحال بدعوته هو قوله: (هذا هو الحق من عند الله) وفيه شيء من معنى الحصر، وهذا غير ما كان يقوله لهم: هذا حق من عند الله فإن القول الثاني يواجه به الذي لا يرى دينا سماويا ونبوة إلهية كما كان يقوله المشركون وهم الوثنية: ما أنزل الله على بشر من شيء، وأما القول الأول فإنما يواجه به من يرى أن هناك دينا حقا من عند الله ورسالة إلهية يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبي ﷺ أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله تعالى فيواجه بأنه هو الحق من عند الله لا غيره ثم، يرد بالاشتراط في مثل قوله، اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فالأشبه أن لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته إلى جميعهم لاتفاقهم في الرأي أو رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن أسلم ثم ارتد أو عن بعض أهل الكتاب المعتقدين بدين سماوي حق فافهم ذلك.

٢٢. الله لا يعذب قوما والنبي بينهم وهم يستغفرون:

المقطع [٢٢] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٦٨»:

١. ويؤيد هذا الآية التالية لهذه الآية: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ﴾:

أ. أما قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فإن كان المراد به نفي تعذيب الله كفار قريش بمكة قبل الهجرة والنبي فيهم كان مدلوله أن المانع من نزول العذاب يومئذ هو وجود النبي ﷺ بينهم، والمراد بالعذاب غير العذاب الذي جرى عليهم بيد النبي ﷺ من القتل والأسر كما سماه الله في الآيات السابقة عذابا وقال في مثلها: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا﴾ [التوبة: ٥٢]، بل عذاب الاستئصال بآية سماوية كما جرى في أمم الأنبياء الماضين لكن الله سبحانه هددهم بعذاب الاستئصال في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وكيف يلائم أمثال هذه التهديدات قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ لو كان المراد بالمعذبين هم كفار قريش ومشركو العرب ما دام النبي ﷺ بمكة.

ب. ولو كان المراد بالمعذبين جميع العرب أو الأمة، والمراد بقوله: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ حياة النبي ﷺ، والمعنى: ولا يعذب الله هذه الأمة وأنت فيهم حيا كما ربما يؤيده قوله بعده: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ كان ذلك نفيا للعذاب عن جميع الأمة ولم يناف نزوله على بعضهم كما سمي وقوع القتل بهم عذابا كما في الآيات السابقة، وكما ورد أن الله تعالى عذب جمعا منهم كأبي لهب والمستهزءين برسول الله ﷺ، وعلى هذا لا تشمل الآية القائلين: ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ إلى آخر الآية وخاصة باعتبار ما روي أن القائل به أبو جهل كما في صحيح البخاري أو النضر بن الحارث بن كلدة كما في بعض روايات أخر وقد حقت عليهما كلمة العذاب وقتلا يوم بدر فلا ترتبط الآية: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية، بهؤلاء القائلين: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية مع أنها مسوقة سوق الجواب عن قولهم.

ج. ويشتد الإشكال بناء على ما وقع في بعض أسباب النزول أنهم قالوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزل قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ لِلْكافِرينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ﴾ وسيجيء الكلام فيه وفي غيره من أسباب النزول المروية في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

د. والذي تمحل به بعض المفسرين في توجيه مضمون الآية بناء على حملها على ما مر من المعنى أن

الله سبحانه أرسل محمدا ﷺ رحمة للعالمين ونعمة لهذه الأمة لا نقمة وعذابا، فيه أنه ليس مقتضى الرحمة للعالمين أن يهمل مصلحة الدين، ويسكت عن مظالم الظالمين وإن بلغ ما بلغ وأدي إلى شقاء الصالحين واختلال نظام الدنيا والدين، وقد حكى الله سبحانه عن نفسه بقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم يمنع ذلك من حلول غضبه على من حل به من الأمم الماضية والقرون الخالية كما ذكره في كلامه.

هـ. على أنه تعالى سمى ما وقع على كفار قريش من القتل والهلاك في بدر وغيره عذابا ولم يناف ذلك قوله: ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وهدد هذه الأمة بعذاب واقع قطعي في سور يونس والإسراء والأنبياء والقصص والروم والمعارج وغيرها ولم يناف ذلك كونه ﷺ رحمة للعالمين فما بال نزول العذاب على شرذمة تفوهت بهذه الكلمة: ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ﴾ الآية، ينافي قول النبي ﷺ نبي الرحمة مع أن من مقتضى الرحمة أن يوفى لكل ذي حق حقه، وأن يقتص للمظلوم من الظالم وأن يؤخذ كل طاغية بطغيانه.

٢. وأما قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾:

أ. فظاهره النفي الاستقبالي على ما هو ظاهر الصفة: ﴿مُعَذِّبَهُمْ﴾ وكون قوله: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ مسوقا لإفادة الاستمرار والجملة حالية، والمعنى: ولا يستقبلهم الله بالعذاب ما داموا يستغفرونه.

ب. والآية كيفما أخذت لا تنطبق على حال مشركي مكة وهم مشركون معاندون لا يخضعون لحق ولا يستغفرون عن مظلمة ولا جريمة، ولا يصلح الأمر بما ورد في بعض الآثار أنهم قالوا ما قالوا ثم ندموا على ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم: (غفرانك اللهم)، وذلك، مضافا إلى عدم ثبوته، أنه تعالى لا يعبأ في كلامه باستغفار المشركين ولا سيما أئمة الكفر منهم، واللاغي من الاستغفار لا أثر له، ولو لم يكن استغفارهم لاغيا وارتفع به ما أجرموه بقولهم: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية لم يكن وجه لذمهم وتأنيبهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ﴾ في سياق هذه الآيات المسوقة لذمهم ولومهم وعد جرائمهم ومظالمهم على النبي ﷺ والمؤمنين.

٣. على أن قوله تعالى بعد الآيتين: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾:

أ. الآية لا يلائم نفي العذاب في هاتين الآيتين فإن ظاهر الآية أن العذاب المهدد به هو عذاب القتل بأيدي المؤمنين كما يدل عليه قوله بعده: ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وحينئذ فلو كان القائلون:

﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الحَقَ﴾ الآية مشركي قريش أو بعضهم وكان المراد من العذاب المنفي العذاب السماوي لم يستقم إنكار وقوع العذاب عليهم بالقتل ونحوه فإن الكلام حينئذ يئول إلى معنى التشديد:

ب. ومحصله: أنهم كانوا أحق بالعذاب ولهم جرم آخر وراء ما أجرموه وهو الصد عن المسجد الحرام، وهذا النوع من الترقي أنسب بإثبات العذاب لهم لا لنفيه عنهم.

ج. وإن كان المراد بالعذاب المنفي هو القتل ونحوه كان عدم الملاءمة بين قوله: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وبين قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية، أوضح وأظهر.

د. وربما وجه الآية بهذا المعنى بعضهم بأن المراد بقوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ عذاب أهل مكة قبل الهجرة، وبقوله: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ عذاب الناس كافة بعد هجرته ﷺ إلى المدينة وإيمان جمع واستغفارهم ولذا قيل: إن صدر الآية نزلت قبل الهجرة، وذيلها بعد الهجرة!، وهو ظاهر الفساد فإن النبي ﷺ لما كان فيهم بمكة قبل الهجرة كان معه جمع ممن يؤمن بالله ويستغفره، وهو ﷺ بعد الهجرة كان في الناس فما معنى تخصيص صدر الآية بقوله: ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وذيلها بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

٤. ولو فرض أن معنى الآية أن الله لا يعذب هذه الأمة ما دمت فيهم ببركة وجودك، ولا يعذبهم بعدك ببركة استغفارهم لله والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الآيتين التاليتين: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ الآية مع ما تقدم من الإشكال عليه.

٥. فقد ظهر من جميع ما تقدم، على طوله:

أ. أن الآيتين أعني قوله: ﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً﴾ إلى آخر الآيتين لا تشاركان الآيات السابقة واللاحقة المسرودة في الكلام على كفار قريش في سياقها الواحد فهما لم تنزلا معها.

ب. والأقرب أن يكون ما حكي فيهما من قولهم والجواب عنه بقوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ غير مرتبط بهم وإنما صدر هذا القول من بعض أهل الكتاب أو بعض من آمن ثم ارتد من الناس، ويتأيد بذلك بعض ما ورد أن القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهري، وقد تقدم الحديث نقلا عن تفسيري الثعلبي

والمجمع في ذيل قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية: [المائدة: ٦٧] في الجزء السادس من الكتاب.

ج. وعلى هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفي العذاب السماوي المستعقب للاستئصال الشامل للأمة على نهج عذاب سائر الأمم، والله سبحانه ينفي فيها العذاب عن الأمة ما دام النبي ﷺ فيهم حيا، وبعده ما داموا يستغفرون الله تعالى.

٦. ويظهر من قوله تعالى: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بضمه إلى الآيات التي توعد هذه الأمة بالعذاب الذي يقضي بين الرسول وبينهم كآيات سورة يونس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] إلى آخر الآيات أن في مستقبل أمر هذه الأمة يوما ينقطع عنهم الاستغفار ويرتفع من بينهم المؤمن الإلهي فيعذبون عند ذاك.

٧. أحاديث وآثار:

أ. أخرج البخاري وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك قال: قال أبو جهل بن هشام: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فنزلت: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ، وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

• أقول: وروى القمي هذا المعنى في تفسيره، وروى السيوطي أيضا في الدر المنثور، عن ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير وعن ابن جرير عن عطاء: أن القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، النضر بن الحارث وقد تقدم في البيان السابق ما يقتضيه سياق الآية.

ب. أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمد بن قيس قالا: قالت قريش بعضها لبعض: محمد أكرمه الله من بيننا؟ ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ الآية، فلما أمسوا ندموا على ما قالوا فقالوا: غفرانك اللهم، فأنزل الله: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾إلى قوله ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾

ج. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن أبزى قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأنزل الله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة فأنزل الله: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ

وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فلما خرجوا أنزل الله: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ الآية، فأذن في فتح مكة فهو العذاب الذي وعدهم.

د. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطية: في قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يعني المشركين حتى يخرجك منهم ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: يعني المؤمنين، ثم أعاد المشركين فقال: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ، وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾

هـ. أخرج ابن أبي حاتم عن السدي: في قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقول: لو استغفروا وأقروا بالذنوب لكانوا مؤمنين، وفي قوله: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ، وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ﴾ يقول: وكيف لا أعذبهم وهم لا يستغفرون.

و. أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد: في قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ قال: بين أظهرهم ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قال: يسلمون.

ز. أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك: ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ يعني أهل مكة ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وفيهم المؤمنون يستغفرون.

ح. أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن رضي عنهما: في قوله: ﴿وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ قالا: نسختها الآية التي تليها: ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ﴾ فقوتلوا بمكة فأصابهم فيها الجوع والحصر.

• أقول: عدم انطباقها على الآية بظاهرها المؤيد بسياقها ظاهر، وإنما دعاهم إلى هذه التكلفات الاحتفاظ باتصال الآية في التأليف بما قبلها وما قبلها من الآيات المتعرضة لحال مشركي أهل مكة، ومن عجيب ما فيها تفسير العذاب في الآية بفتح مكة، ولم يكن إلا رحمة للمشركين والمؤمنين جميعا.

ط. أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: أنزل الله علي أمانين لأمتي ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة.

• أقول: مضمون الرواية مستفاد من الآية، وقد روي ما في معناها عن أبي هريرة وابن عباس عنه ﷺ ورواها في نهج البلاغة عن علي عليه السلام.

• وفي ذيل هذه الرواية شيء؛ وهو أنه لا يلائم ما مر في البيان المتقدم من إيعاد القرآن هذه الأمة بعذاب واقع قبل يوم القيامة، ولازمه أن يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامة.

ي. أخرج أحمد عن فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ قال: العبد آمن من عذاب الله ما استغفر الله.

ك. وفي الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: مقامي بين أظهركم خير لكم، فإن الله يقول، ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، ومفارقتي إياكم خير لكم، فقالوا: يا رسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا، فكيف يكون مفارقتك خير لنا؟ فقال: أما مفارقتي لكم خير لكم، فإن أعمالكم تعرض علي كل خميس واثنين، فما كان من حسنة حمدت الله عليها، وما كان من سيئة أستغفر الله لكم.

• أقول: وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره والشيخ في أماليه، عن حنان بن سدير عن أبيه عنه عليه السلام، وفي روايتهما أن السائل هو جابر بن عبد الله الأنصاري، ورواه أيضا في الكافي، بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وغير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام.

٢٣. الكفار يصدون عن المسجد الحرام وليسوا أهله:

المقطع [٢٣] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٧١»:

١. ﴿وَما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾ إلى آخر الآية استفهام في معنى الإنكار أو التعجب، وقوله: ﴿وَما لَهُمْ﴾ بتقدير فعل يتعلق به الظرف ويكون قوله: ﴿أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ﴾ مفعوله أو هو من التضمين نظير ما قيل في قوله: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨]، والتقدير على أي حال نحو من قولنا: (وما الذي يثبت ويحق لهم عدم تعذيب الله إياهم والحال أنهم يصدون عن المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين من دخوله ﴿وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾)، فقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ الآية حال عن ضمير ﴿يُعَذِّبَهُمُ﴾ وقوله: ﴿وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾ حال عن ضمير ﴿يَصُدُّونَ﴾

٢. ﴿إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾ أي ليس لهم أن يلوا أمر البيت فيجيزوا ويمنعوا من شاءوا لأن هذا المسجد مبني على تقوى الله فلا يلي أمره إلا المتقون وليسوا بهم.

٣. فقوله: ﴿إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ جملة خبرية تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذي لب، وليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين، ويشهد لما ذكرناه قوله بعد: ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ كما لا يخفى.

٤. والمراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعم منه على ما يفيده السياق باتصال الآية بالآية التالية، وقد تقدم أن الآية غير متصلة ظاهرا بما تقدمها أي أن الآيتين: ﴿وَإِذْ قالُوا اللهُمَّ﴾ الآية ﴿وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ الآية خارجتان عن سياق الآيات، ولازم ذلك ما ذكرناه.

٥. سؤال وإشكال: قال في المجمع: ويسأل فيقال: كيف يجمع بين الآيتين وفي الأولى نفي تعذيبهم، وفي الثانية إثبات ذلك؟ والجواب: على ثلاثة أوجه:

أ. أحدها: أن المراد بالأول عذاب الاصطلام والاستئصال كما فعل بالأمم الماضية، وبالثاني عذاب القتل بالسيف والأسر وغير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم.

ب. والآخر: أنه أراد: وما لهم أن لا يعذبهم الله في الآخرة، ويريد بالأول عذاب الدنيا، عن الجبائي.

ج. والثالث: أن الأول استدعاء للاستغفار، يريد أنه لا يعذبهم بعذاب دنيا ولا آخرة إذا استغفروا وتابوا فإذا لم يفعلوا عذبوا ثم بين أن استحقاقهم العذاب بصدهم عن المسجد الحرام)

٦. وفيه: أن مبني الإشكال على اتصال الآية بما قبلها وقد تقدم أنها غير متصلة، هذا إجمالا، وأما تفصيلا:

أ. فيرد على الوجه الأول: أن سياق الآية وهو كما تقدم سياق التشدد والترقي، ولا يلائم ذلك نفي العذاب في الأولى مع إثباته في الثانية وإن كان العذاب غير العذاب.

ب. وعلى الثاني أن سياق الآية ينافي كون المراد بالعذاب فيها عذاب الآخرة، وخاصة بالنظر إلى قوله في الآية الثالثة، وهي في سياق الآية الأولى، ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ج. وعلى الثالث: أن ذلك خلاف ظاهر الآية بلا شك حيث إن ظاهرها إثبات الاستغفار لهم حالا مستمرا لا استدعائه وهو ظاهر.

٢٤. صلاة الكفار عند البيت مكاء وتصدية:

المقطع [٢٤] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٧٣»:

١. ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ المكاء بضم الميم الصفير، والمكاء بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير، ومنه المثل السائر: بنيك حمري ومكئكيني، والتصدية التصفيق بضرب اليد على اليد.

٢. ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ﴾ الضمير لهؤلاء الصادين المذكورين في الآية السابقة وهم المشركون من قريش، وقوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينة التفريع بالفاء.

٣. ومن هنا يتأيد أن الآيتين متصلتان كلاما واحدا وقوله: ﴿وَما كانَ﴾ الآية جملة حالية والمعنى: وما لهم أن لا يعذبهم الله والحال أنهم يصدون العباد من المؤمنين عن المسجد الحرام وما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبة من المكاء والتصدية فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون، والالتفات في قوله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذابَ﴾ عن الغيبة إلى الخطاب لبلوغ التشديد.

٤. ويستفاد من الآيتين أن الكعبة المشرفة لو تركت بالصد استعقب ذلك المؤاخذة الإلهية بالعذاب قال علي عليه السلام في بعض وصاياه: (الله الله في بيت ربكم فإنه إن ترك لم تنظروا)

٥. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن سعيد بن جبير قال: كانت قريش تعارض النبي ﷺ في الطواف، يستهزءون ويصفرون ويصفقون فنزلت: ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾

ب. أخرج أبو الشيخ عن نبيط وكان من الصحابة: في قوله: ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ﴾ الآية، قال: كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفرون.

ج. أخرج الطستي عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله عز وجل: ﴿إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: المكاء صوت القنبرة، والتصدية صوت العصافير وهو التصفيق، وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكة، كان يصلي قائما بين الحجر والركن اليماني، فيجيء رجلان من بني سهم، يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ويصيح أحدهما كما يصيح المكاء، والآخر يصفق بيده تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته.

د. وفي تفسير العياشي، عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَما كانُوا أَوْلِياءَهُ﴾ يعني أولياء البيت يعني المشركين ﴿إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ حيث ما كانوا هم أولى به من المشركين، ﴿وَما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَتَصْدِيَةً﴾ قال: التصفير والتصفيق.

٢٥. الكفار ينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله:

المقطع [٢٥] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٧٣»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية يبين حال الكفار في ضلال سعيهم الذي يسعونه لإبطال دعوة الله والمنع عن سلوك السالكين لسبيل الله، ويشرح ذلك قوله: ﴿فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ الآية.

٢. وبهذا السياق يظهر أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ بمنزلة التعليل، ومحصل المعنى أن الكفر سيبعثهم، بحسب سنة الله في الأسباب، إلى أن يسعوا في إبطال الدعوة والصد عن سبيل الحق غير أن الظلم والفسق وكل فساد لا يهدي إلى الفلاح والنجاح فسينفقون أموالهم في سبيل هذه الأغراض الفاسدة فتضيع الأموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة لتحسرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها، وذلك أن الكفار يحشرون إلى جهنم ويكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر والخروج إلى محاربة الله ورسوله بحذاء خروجهم محشورين إلى جهنم يوم القيامة.

٣. ﴿فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إلى آخر الآية من ملاحم القرآن والآية من سورة الأنفال النازلة بعد غزوة بدر فكأنها تشير إلى ما سيقع من غزوة أحد أو هي وغيرها، وعلى هذا فقوله: ﴿فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ إشارة إلى غزوة أحد أو هي وغيرها، وقوله: ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ إلى فتح مكة، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ إلى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه

قال: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حيان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمر قال: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش، إلى من كان معه تجارة فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، فلعلنا أن ندرك منه ثارا ففعلوا، ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾إلى قوله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾

ب. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَموالَهُمْ، لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ قال نزلت في أبي سفيان بن حرب.

ج. أخرج ابن سعد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن سعيد بن جبير: في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ، لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية، قال: نزلت في أبي سفيان بن حرب، استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة، يقاتل بهم رسول الله ﷺ سوى من استجاش من العرب، فأنزل الله فيه هذه الآية، وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه...أحابيش منهم حاسر ومقنع

ثلاثة آلاف ونحن نصية...ثلاث مئين إن كثرن فأربع

- أقول: ورواه ملخصا عن ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن عباد بن عبد الله بن الزبير.

٢٦. الله يميز الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث في جهنم:

المقطع [٢٦] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٧٤»:

١. ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾:

أ. الخباثة والطيب معنيان متقابلان وقد مر شرحهما والتمييز إخراج الشيء عما يخالفه وإلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه، والركم جمع الشيء فوق الشيء ومنه سحاب مركوم أي مجتمع الأجزاء

بعضها إلى بعض ومجموعها وتراكم الأشياء تراكب بعضها بعضا.

ب. والآية في موضع التعليل لما أخبر به في الآية السابقة من حال الكفار بحسب السنة الكونية، وهو أنهم يسعون بتمام وجدهم ومقدرتهم إلى أن يطفئوا نور الله ويصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الأموال ويبذلون في طريقه المساعي غير أنهم لا يهتدون إلى مقاصدهم ولا يبلغون آمالهم بل تضيع أموالهم وتحبط أعمالهم وتضل مساعيهم، ويرثون بذلك الحسرة والهزيمة.

ج. وذلك أن هذه الأعمال والتقلبات تسير على سنة إلهية وتتوجه إلى غاية تكوينية ربانية، وهي أن الله سبحانه يميز في هذا النظام الجاري الشر من الخير والخبيث من الطيب ويركم الخبيث بجعل بعضه على بعض، ويجعل ما اجتمع منه وتراكم في جهنم وهي الغاية التي تسير إليها قافلة الشر والخبيث يحلها الجميع وهي دار البوار كما أن الخير والطيب إلى الجنة، والأولون هم الخاسرون كما أن الآخرين هم الرابحون المفلحون.

٢. ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الآية قريب المضمون من قوله تعالى في مثل ضربه للحق والباطل: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] والآية تشير إلى قانون كلي إلهي وهو إلحاق فرع كل شيء بأصله.

٢٧. دعوة الكفار للتوبة:

المقطع [٢٧] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٧٥»:

١. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ﴾ إلى آخر الآية الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي، والسلوف التقدم، والسنة هي الطريقة والسيرة.

٢. أمر النبي ﷺ أن يبلغهم ذلك وفي معناه تطميع وتخويف وحقيقته دعوة إلى ترك القتال والفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم وإيذائهم للمؤمنين فإن لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنة الله في

الأولين منهم بالإهلاك والإبادة وخسران السعي.

٢٨. القتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله:

المقطع [٢٨] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٣٩ـ٤٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٧٥»:

١. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

أ. الآية وما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار في الآية السابقة، والمعنى: قل لهم أن ينتهوا عن المحادة لله ورسوله يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا إلى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم كذا وأما أنت والمؤمنون فلا تهنوا فيما يهمكم من إقامة الدين وتصفية جو صالح للمؤمنين، وقاتلوهم حتى تنتهي هذه الفتن التي تفاجئكم كل يوم، ولا تكون فتنة بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من أعمالهم، وإن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال والله مولاكم فاعلموا ذلك ولا تهنوا ولا تخافوا.

ب. والفتنة ما يمتحن به النفوس وتكون لا محالة مما يشق عليها، وغلب استعمالها في المقاتل وارتفاع الأمن وانتقاض الصلح، وكان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي ﷺ قبل الهجرة وبعدها إلى مدة في مكة ويعذبونهم ويجبرونهم على ترك الإسلام والرجوع إلى الكفر، وكانت تسمى فتنة.

٢. وقد ظهر بما يفيده السياق من المعنى السابق:

أ. أن قوله: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم ولا يلقوا فتنة يفتتن بها المؤمنون ويكون الدين كله لله لا يدعو إلى خلافه أحد، وأن قوله: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ المراد به الانتهاء عن القتال ولذلك أردفه بمثل قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب أعمالهم وهو بصير بها، وأن قوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ الآية أي إن تولوا عن الانتهاء، ولم يكفوا عن القتال ولم يتركوا الفتنة فاعلموا أن الله مولاكم وناصركم وقاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى ونعم النصير.

ب. وقد ظهر أن قوله: ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا ينافي إقرار أهل الكتاب على دينهم إن دخلوا

في الذمة وأعطوا الجزية فلا نسبة للآية مع قوله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] بالناسخية والمنسوخية.

٣. ولبعض المفسرين وجوه في معنى الانتهاء والمغفرة وغيرهما من مفردات الآيات الثلاث لا كثير جدوى في التعرض لها تركناها.

٤. وقد ورد في بعض الأخبار كون (نعم المولى ونعم النصير) من أسماء الله الحسنى والمراد بالاسم حينئذ لا محالة غير الاسم بمعناه المصطلح بل كل ما يخص بلفظه شيئا من المصاديق كما ورد نظيره في قوله تعالى: ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ وقد مر استيفاء الكلام في الأسماء الحسنى في ذيل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ [الأعراف، ١٨٠]

٥. أحاديث وآثار: في المجمع: في قوله تعالى: ﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ، وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ الآية، قال: روى زرارة وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لم يجيء تأويل هذه الآية، ولو قام قائمنا بعد سيرى من يدركه، ما يكون من تأويل هذه الآية، وليبلغن دين محمد ﷺ ما بلغ الليل، حتى لا يكون مشرك على ظهر الأرض.

• أقول: ورواه العياشي في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام، وفي معناه ما في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام، وروى هذا المعنى أيضا العياشي عن عبد الأعلى الحلبي عن أبي جعفر عليه السلام في رواية طويلة.

٢٩. الغنيمة والخمس والمستحقون:

المقطع [٢٩] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٨٩»:

١. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب وينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمة الحرب، قال الراغب: (الغنم، بفتحتين، معروف قال: ومن البقر والغنم ما حرمنا عليهم شحومهما، والغنم، بالضم فالسكون، إصابته والظفر به ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدى

وغيرهم قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً﴾، والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم قال: فعند الله مغانم كثيرة.

ب. وذو القربى القريب والمراد به قرابة النبي ﷺ أو خصوص أشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعية، واليتيم هو الإنسان الذي مات أبوه وهو صغير، قالوا: كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا الإنسان فإن يتمه من قبل أبيه.

ج. ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية قرئ بفتح أن، ويمكن أن يكون بتقدير حرف الجر والتقدير: واعلموا أن ما غنمتم من شيء فعلى أن لله خمسه أي هو واقع على هذا الأساس محكوم به، ويمكن أن يكون بالعطف على أن الأولى، وحذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه، والتقدير: اعلموا أن ما غنمتم من شيء يجب قسمته فاعلموا أن خمسه لله، أو يكون الفاء لاستشمام معنى الشرط فإن مآل المعنى إلى نحو قولنا: إن غنمتم شيئا فخمسه لله إلخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء، وكرر أن للتأكيد، والأصل: اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه لله إلخ، والأصل الذي تعلق به العلم هو: ما غنمتم من شيء خمسه لله وللرسول إلخ، وقد قدم لفظ الجلالة للتعظيم.

د. فمعنى الآية، والله أعلم، واعلموا أن خمس ما غنمتم أي شيء كان هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فردوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله وما أنزله على عبده محمد ﷺ يوم بدر، وهو أن الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد، وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرف فيها فالذي أباح لكم التصرف فيها يأمركم أن تئودوا خمسها إلى أهله.

٢. وظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية، وأن الحكم متعلق بما يسمى غنما وغنيمة سواء كان غنيمة حربية مأخوذة من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز والمعادن، وإن كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصص.

٣. وكذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ انحصار الموارد في هؤلاء الأصناف، وأن لكل منهم سهما بمعنى استقلاله في أخذ السهم كما يستفاد مثله من آية الزكاة من غير أن يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

٤. فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر إلى المتبادر من ظاهر معنى الآية، وعليه وردت الأخبار من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليه السلام وقد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنة في تفسير الآية وستتعرض لها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الكافي، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان عن سماعة قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخمس فقال: في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير.

ب. وفيه، عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد بن عيسى عن بعض أصحابنا عن العبد الصالح قال: الخمس في خمسة أشياء: من الغنائم والغوص ومن الكنوز ومن المعادن والملاحة، يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمس، فيجعل لمن جعل الله له، ويقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليه وولي ذلك، ويقسم بينهم الخمس على ستة أسهم: سهم لله، وسهم لرسوله، وسهم لذي القربى، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل، فسهم الله وسهم رسوله لأولي الأمر من بعد رسول الله وراثة، فله ثلاثة أسهم: سهمان وراثة، وسهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس كلا، ونصف الخمس الثاني بين أهل بيته: فسهم ليتاماهم، وسهم لمساكينهم، وسهم لأبناء سبيلهم يقسم بينهم على الكتاب والسنة، ما يستغنون به في سنتهم، فإن فضل منهم شيء فهو للوالي، وإن عجز أو نقص عن استغنائهم كان على الوالي أن ينفق من عنده ما يستغنون به، وإنما صار عليه أن يمونهم لأن له ما فضل عنهم، وإنما جعل الله هذا الخمس خاصة لهم، دون مساكين الناس وأبناء سبيلهم، عوضا لهم عن صدقات الناس تنزيها من الله، لقرابتهم من رسول الله ﷺ، وكرامة من الله لهم من أوساخ الناس، فجعل لهم خاصة من عنده وما يغنيهم به، أن يصيرهم في موضع الذل والمسكنة، ولا بأس بصدقة بعضهم على بعض، وهؤلاء الذين جعل الله لهم الخمس، هم قرابة النبي ﷺ الذين ذكرهم الله فقال: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو عبد المطلب أنفسهم الذكر منهم والأنثى، ليس فيهم من أهل بيوتات قريش ولا من العرب أحد، ولا فيهم ولا منهم في هذا الخمس من مواليهم، وقد تحل صدقات الناس لمواليهم، وهم والناس سواء، ومن كانت أمه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش، فإن الصدقات تحل له، وليس له من الخمس شيء لأن الله يقول، ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾

ج. وفي التهذيب، بإسناده عن علي بن مهزيار قال: قال لي علي بن راشد: قلت له: أمرتني بالقيام

بأمرك وأخذ حقك، فأعلمت مواليك بذلك، فقال لي بعضهم: وأي شيء حقه؟ فلم أدر ما أجيبه! فقال: يجب عليهم الخمس فقلت: ففي أي شيء؟ فقال: في أمتعتهم وضياعهم، قلت: والتاجر عليه والصانع بيده؟ فقال: ذلك إذا أمكنهم بعد مئونتهم.

د. وفيه، بإسناده عن زكريا بن مالك الجعفي عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه سئل عن قول الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَأَنَّ للهِّ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى، وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ فقال: خمس الله عز وجل للإمام، وخمس الرسول للإمام، وخمس ذي القربى لقرابة الرسول للإمام، واليتامى يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم.

هـ. وفيه، بإسناده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال له إبراهيم بن أبي البلاد: وجب عليك زكاة؟ قال: لا ولكن يفضل ونعطي هكذا، وسئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَأَنَّ للهِّ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى﴾ فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ قال: للرسول، وما كان للرسول فهو للإمام، قيل: أفرأيت إن كان صنف أكثر من صنف، وصنف أقل من صنف؟ فقال: ذلك للإمام، قيل أفرأيت رسول الله ﷺ كيف يصنع؟ قال: إنما كان يعطي على ما يرى هو، وكذلك الإمام.

• أقول: والأخبار عن أئمة أهل البيت عليه السلام متواترة في اختصاص الخمس بالله ورسوله والإمام من أهل بيته ويتامى قرابته ومساكينهم وأبناء سبيلهم لا يتعداهم إلى غيرهم، وأنه يقسم ستة أسهم على ما مر في الروايات، وأنه لا يختص بغنائم الحرب بل يعم كل ما كان يسمى غنيمة لغة من أرباح المكاسب والكنوز والغوص والمعادن والملاحة، وفي رواياتهم، كما تقدم، أن ذلك موهبة من الله لأهل البيت بما حرم عليهم الزكوات والصدقات.

و. أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عباس: أن نجدة الحروري أرسل يسأله عن سهم ذي القربى، الذين ذكر الله فكتب إليه: أنا كنا نرى أنا هم فأبى ذلك علينا قومنا، وقالوا: ويقول لمن تراه؟ فقال ابن عباس: هو لقربى رسول الله ﷺ، قسمه لهم رسول الله ﷺ، وقد كان عمر عرض علينا من ذلك عرضا، رأيناه دون حقنا فرددناه عليه وأبينا أن نقبله، وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم، وأن يقضي عن غارمهم، وأن يعطي فقيرهم، وأبى أن يزيدهم على ذلك.

• أقول: وقوله في الرواية: (قالوا لمن تراه) معناه: قال الذين أرسلهم نجدة الحروري لابن عباس: ويقول نجدة لمن ترى الخمس أي يسألك عن فتواك فيمن يصرف إليه الخمس.

• وقوله: هو لقربى رسول الله قسمها لهم (إلخ) ظاهره أنه فسر ذي القربى بأقرباء النبي ﷺ، وظاهر الروايات السابقة عن أئمة أهل البيت عليه السلام أنهم فسروا ذي القربى بالإمام من أهل البيت، وظاهر الآية يؤيد ذلك حيث عبر بلفظ المفرد!

ز. أخرج ابن المنذر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: سألت عليا فقلت: يا أمير المؤمنين، أخبرني كيف كان صنع أبي بكر، وعمر في الخمس نصيبكم؟ فقال: أما أبو بكر فلم يكن في ولايته أخماس، وأما عمر فلم يزل يدفعه إلي في كل خمس، حتى كان خمس السوس وجنديسابور، فقال وأنا عنده، هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس، وقد أحل ببعض المسلمين واشتدت حاجتهم، فقلت، نعم، فوثب العباس بن عبد المطلب فقال، لا تعرض في الذي لنا، فقلت؛ ألسنا من أرفق المسلمين، وشفع أمير المؤمنين، فقبضه، فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان، ثم أنشأ علي يحدث فقال: إن الله حرم الصدقة على رسوله ﷺ فعوضه سهما من الخمس عوضا مما حرم عليه، وحرمها على أهل بيته خاصة دون أمته، فضرب لهم مع رسول الله ﷺ سهما، عوضا مما حرم عليهم.

ح. أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: رغبت لكم عن غسالة الأيدي، لأن لكم في خمس الخمس ما يغنيكم أو يكفيكم.

• أقول: وهو مبني على كون سهم أهل البيت هو ما لذي القربى فحسب.

ط. أخرج ابن أبي شيبة عن جبير بن مطعم قال: قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى على بني هاشم وبني المطلب، قال: فمشيت أنا وعثمان بن عفان حتى دخلنا عليه، فقلنا: يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم، لا ينكر فضلهم، لمكانك الذي وضعك الله به منهم، أرأيت إخواننا من بني المطلب أعطيتهم دوننا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب؟ فقال: إنهم لم يفارقونا في الجاهلية والإسلام، أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: آل محمد الذين أعطوا الخمس: آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل.

• أقول: والروايات في هذا الباب كثيرة من طرق أهل السنة وقد اختلفت الروايات الحاكية لعمل

النبي ﷺ من طرقهم بين ما مضمونه أنه ﷺ كان يقسم الخمس على أربعة أسهم وبين ما مضمونه التقسيم على خمسة أسهم، غير أنه يقرب من المسلم فيها أن من سهام الخمس ما يختص بقرابة النبي ﷺ وهم المعنيون بذي القربى في آية الخمس على خلاف ما في الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

• ومما يقرب من المسلم فيها أن النبي ﷺ كان يقسمه بين المطلبيين ما دام حيا، وأنه انقطع عنهم على هذا الوصف في زمن الخلفاء الثلاث ثم جرى على ذلك الأمر بعدهم.

• ومن المسلم فيها أيضا أن الخمس يختص بغنائم الحرب، على خلاف ما عليه الروايات من طرق أئمة أهل البيت (عليهم السلام) ولا يتعداها إلى كل ما يصدق عليه اسم الغنيمة لغة.

• وما يتعلق بالآية من محصل البحث التفسيري هو الذي قدمناه وهناك أبحاث أخر كلامية أو فقهية خارجة عن غرضنا، وهناك بحث حقوقي اجتماعي في ما يؤثره الخمس من الأثر في المجتمع الإسلامي سيوافيك في ضمن الكلام على الزكاة.

• بقي الكلام فيما تتضمنه الروايات أن الله سبحانه أراد بتشريع الخمس إكرام أهل بيت النبي ﷺ وأسرته وترفيعهم من أن يأخذوا أوساخ الناس في أموالهم، والظاهر أن ذلك مأخوذ من قوله تعالى في آية الزكاة خطابا لنبيه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ التوبة: ١٠٣ فإن التطهير والتزكية إنما يتعلق بما لا يخلو من دنس ووسخ ونحوهما ولم يقع في آية الخمس ما يشعر بذلك.

٣٠. يوم الفرقان يوم التقى الجمعان:

المقطع [٣٠] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٩٠»:

١. ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾ الآية قيد للأمر الذي يدل عليه صدر الآية أي أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا، وربما قيل: إنه متصل بقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلاكُمْ﴾ هذا والسياق الذي يتم بحيلولة قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية لا يلائم ذلك.

٢. ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلَى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ الظاهر أن المراد به القرآن بقرينة تخصيص النبي ﷺ

بالإنزال، ولو كان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر، كما قيل، لكان الأنسب أولا: أن يقال: ومن أنزلنا على عبدنا، أو ما يؤدي هذا المعنى وثانيا: أن يقال: عليكم لا على عبدنا فإن الملائكة كما أنزلت لنصرة النبي ﷺ أنزلت لنصرة المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: ﴿فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] وقوله بعد ذلك: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية: [الأنفال: ١٢] ونظيرهما قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]

٣. وفي الالتفات من الغيبة إلى التكلم في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا﴾ من بسط اللطف على رسول الله ﷺ واصطفائه بالقرب ما لا يخفى.

٤. ويظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث في قوله تعالى في أول السورة: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية أن المراد بقوله: ﴿وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ هو قوله تبارك وتعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً﴾ بما يحتف به من الآيات، والمراد بقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ يوم بدر كما يشهد به قوله بعده: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ﴾ فإن يوم بدر هو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل فأحق الحق بنصرته، وأبطل الباطل بخذلانه.

٥. ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق والباطل كأنه قيل: والله على كل شيء قدير فهو قادر أن يفرق بين الحق والباطل بما فرق.

٦. أحاديث وآثار:

أ. أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن عروة بن الزبير قال: أمر رسول الله ﷺ بالقتل في آي من القرآن، فكان أول مشهد شهده رسول الله ﷺ بدرا، وكان رئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فالتقوا يوم الجمعة ببدر، لسبع أو ست عشرة ليلة مضت من رمضان، وأصحاب رسول الله ﷺ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، والمشركون بين الألف والتسعمائة، وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرق الله بين الحق والباطل، فكان أول قتيل قتل يومئذ مهجع، مولى عمرو رجل من الأنصار، وهزم الله يومئذ المشركين، فقتل منهم زيادة على سبعين رجلا، وأسر منهم مثل ذلك.

ب. أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان في صبيحتها، ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان.

• أقول: وروي مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن علي وعن ابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه، وأيضا عنه عن أبي بكر عن عبد الرحمن بن هشام وعنه عن عامر بن ربيعة البدري: مثله لكن فيه، كان يوم بدر يوم الإثنين لسبع عشرة من رمضان.

• وربما أطلق في بعض أخبار أئمة أهل البيت عليه السلام على التسعة عشر من رمضان يوم يلتقي الجمعان لما عد ليلته في أخبارهم من ليلة القدر، وهذا معنى آخر غير ما أريد في الآية من ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقى الْجَمْعانِ﴾ ففي تفسير العياشي، عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان، قلت: ما معنى قوله: يلتقي الجمعان؟ قال: يجتمع فيها ما يريد، من تقديمه وتأخيره وإرادته وقضائه.

٣١. التقاء الجمعين في بدر وقضاء الله الأمر:

المقطع [٣١] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٩١»:

١. ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾:

أ. العدوة بالضم وقد يكسر شفير الوادي، والدنيا مؤنث أدنى كما أن القصوى وقد يقال: القصيا مؤنث أقصى والركب كما قيل هو العير الذي كان عليه أبو سفيان بن حرب.

ب. والظرف في قوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ﴾ بيان ثان لقوله في الآية السابقة: ﴿يَوْمَ الْفُرْقانِ﴾ كما أن قوله: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ﴾ بيان أول له متعلق بقوله: ﴿أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا﴾ وأما ما يظهر من بعضهم أنه بيان لقوله: ﴿وَاللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما يفيده بحسب المورد، والمعنى: والله قدير على نصركم وأنتم أذلة إذ أنتم نزول بشفير الوادي الأقرب، فلا يخفى بعده ووجه التكلف فيه.

٢. ﴿وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ﴾ سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفة عن تلاقي الجيشين، وكون الركب أسفل منهم، وأن الله بقدرته التي قهرت كل شيء فرق بين الحق والباطل، وأيد الحق على الباطل، وكذا قوله بعد: ﴿وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾ كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله: ﴿وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ﴾ بيان أن التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلا بمشية خاصة من الله سبحانه حيث نزل المشركون وهم ذوو عدة وشدة بالعدوة القصوى وفيها الماء والأرض الصلبة، والمؤمنون على قلة عددهم وهوان أمرهم بالعدوة الدنيا ولا ماء فيها والأرض رملية لا تثبت تحت أقدامهم، وتخلص العير منهم إذ ضرب أبو سفيان في الساحل أسفل، وتلاقى الفريقان لا حاجز بينهما ولا مناص عندئذ عن الحرب، فالتلاقي والمواجهة على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين، لم يكن عن أسباب عادية بل لمشية خاصة إلهية ظهرت بها قدرته وبانت بها عنايته الخاصة ونصره وتأييده للمؤمنين.

٣. فقوله: ﴿وَلَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ﴾ بيان أن هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد وعزيمة، ولا روية أو مشورة، ولهذا المعنى عقبه بقوله: ﴿وَلكِنْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾ بما فيه من الاستدراك.

٤. وقوله ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ لتعليل ما قضي به من الأمر المفعول أي إن الله إنما قضى هذا الذي جرى بينكم من التلاقي والمواجهة ثم تأييد المؤمنين وخذلان المشركين ليكون ذلك بينة ظاهرة على حقية الحق وبطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وبذلك يظهر أن المراد بالهلاكة والحياة هو الهدى والضلال لأن ذلك هو الذي يرتبط به وجود الآية البينة ظاهرا.

٥. وكذا قوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطف على قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الآية، أي وإن الله إنما قضى ما قضى وفعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما في صدوركم، وفيه إشارة إلى ما ذكره في صدر الآيات: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

٦. وعلى هذا السياق، أي لبيان أن مرجع الأمر في هذه الواقعة هو القضاء الخاص الإلهي دون الأسباب العادية، سيق قوله تعالى بعد: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ الآية.

٧. ومعنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الذي أنتم نزول بالعدوة الدنيا وهم نزول بالعدوة

القصوى، وقد توافق نزولكم بها ونزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم أن تلتقوا بهذا الميعاد لاختلفتم فيه ولم تتلاقوا على هذه الوتيرة فلم يكن ذلك منكم ولا منهم ولكن ذلك كان أمرا مفعولا والله قاضيه وحاكمه، وإنما قضى ما قضى ليظهر آية بينة فتتم بذلك الحجة، ولأنه قد استجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم وعلم به من حاجة قلوبكم.

٨. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير العياشي، عن محمد بن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ قال: أبو سفيان وأصحابه.

ب. وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ، وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ الآية، قال: قال: يعلم من بقي أن الله نصره.

٣٢. تقليل الأعداء في عيون المؤمنين:

المقطع [٣٢] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣-٤٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٩٣»:

١. ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً﴾ إلى آخر الآية:

أ. الفشل هو الضعف مع الفزع، والتنازع هو الاختلاف وهو من النزع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه، والتسليم هو النتيجة.

ب. والكلام على تقدير اذكر أي اذكر وقتا يريكهم الله في منامك قليلا، وإنما أراكهم قليلا ليربط بذلك قلوبكم وتطمئن نفوسكم ولو أراكهم كثيرا ثم ذكرتها للمؤمنين أفزعكم الضعف واختلفتم في أمر الخروج إليهم ولكنه تعالى نجاكم بإراءتهم قليلا عن الفشل والتنازع إنه عليم بذات الصدور وهي القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب في اطمئنانها وارتباطها وقوتها.

ج. والآية تدل على أن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ رؤيا مبشرة رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين أنها لهم وقد أراهم قليلا لا يعبأ بشأنهم، وأن النبي ﷺ ذكر ما رآه للمؤمنين ووعدهم وعد تبشير

فعزموا على لقائهم، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَلَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ﴾ الآية وهو ظاهر.

٢. ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، معنى الآية ظاهر، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ [آل عمران: ١٣] بناء على أن الآية تشير إلى وقعة بدر، وذلك أن التقليل الذي يشير إليه في الآية المبحوث عنها مقيد بقوله: ﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ وبذلك يرتفع التنافي كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلا في أعين المشركين في بادئ الالتقاء ليستحقروا جمعهم ويشجعهم ذلك على القتال والنزال حتى إذا زحفوا واختلطوا، كثر المؤمنين في أعينهم فرأوهم مثليهم رأي العين فأوهن بذلك عزمهم وأطار قلوبهم فكانت الهزيمة فآية الأنفال تشير إلى أول الوقعة، وآية آل عمران إلى ما بعد الزحف والاختلاط وقوله: ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً﴾ متعلق بقوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ وتعليل لمضمونه.

٣٣. الثبات والذكر والطاعة والصبر عند لقاء العدو:

المقطع [٣٣] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَّ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٩٤»:

١. ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، قال الراغب في المفردات: (الثبات، بفتح الثاء، ضد الزوال) فهو في المورد ضد الفرار من العدو، وهو بحسب ما له من المعنى أعم من الصبر الذي يأمر به في قوله: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف ولا يفزع ولا يجزع، وبالبدن بأن لا يتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

٢. والريح على ما قيل، العز والدولة، وقد ذكر الراغب أن الريح في الآية بمعنى الغلبة استعارة كأن من شأن الريح أن تحرك ما هبت عليه وتقلعه وتذهب به، والغلبة على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها.

٣. وقال الراغب: (البطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها

إلى غير وجهها قال عز وجل: ﴿بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ﴾ وقال: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَها﴾ وأصله: بطرت معيشته فصرف عنه الفعل ونصب، ويقارب البطر الطرب، وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح وقد يقال ذلك في الترح، والبيطرة معالجة الدابة) والرئاء المراءاة.

٤. ﴿فَاثْبُتُوا﴾ أمر بمطلق الثبوت أمام العدو، وعدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانيا بالصبر كما تقدمت الإشارة إليه.

٥. ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً﴾ أي في جنانكم ولسانكم فكل ذلك ذكر، ومن المعلوم أن الأحوال القلبية الباطنة من الإنسان هي التي تميز مقاصده وتشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره وهو يقول: يا غني والمريض المستغيث به من مرضه وهو يقول: يا شافي ولو قال الفقير في ذلك: يا الله أو قال المريض فيه ذلك لكان معناه: يا غني ويا شافي لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثة والدعوة لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر.

٦. والذي يخرج إلى قتال عدوه، ثم لقيه واستعد الظرف للقتال، وليس فيه إلا زهاق النفوس، وسفك الدماء ونقص الأطراف وكل ما يهدد الإنسان بالفناء في ما يحبه فإن حاله يحول فكرته ويصرف إرادته إلى الظفر بما يريده بالقتال، والغلبة على العدو الذي يهدده بالفناء، والذي حاله هذا الحال وتفكيره هذا التفكير إنما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله وتنصرف إليه فكرته.

٧. وهذا أقوى قرينة على أن المراد بذكر الله كثيرا أن يذكر المؤمن ما علمه تعالى من المعارف المرتبطة بهذا الشأن وهو أنه تعالى إلهه وربه الذي بيده الموت والحياة وهو على نصره لقدير، وأنه هو مولاه نعم المولى ونعم النصير، وقد وعده النصر إذ قال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾، و﴿إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وإن مآل أمره في قتاله إلى إحدى الحسنيين إما الظفر على عدوه ورفع راية الإسلام وإخلاص الجو لسعادته الدينية، وإما القتل في سبيل الله والانتقال بالشهادة إلى رحمته، والدخول في حظيرة كرامته، ومجاورة المقربين من أوليائه، وما في هذا الصف من المعارف الحقيقية التي تدعو إلى السعادة الواقعية والكرامة السرمدية.

٨. وقد قيد الذكر بالكثير لتتجدد به روح التقوى كلما لاح للإنسان ما يصرف نفسه إلى حب الحياة الفانية والتمتع بزخارف الدنيا الغارة والخطورات النفسانية التي يلقيها الشيطان بتسويله.

٩. ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ظاهر السياق أن المراد بها إطاعة ما صدر من ناحيته تعالى وناحية رسوله من التكاليف والدساتير المتعلقة بالجهاد والدفاع عن حومة الدين وبيضة الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد والسنة النبوية كالابتداء بإتمام الحجة وعدم التعرض للنساء والذراري والكف عن تبييت العدو وغير ذلك من أحكام الجهاد.

١٠. ﴿وَلا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي ولا تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتى يورث ذلكم ضعف إرادتكم وذهاب عزتكم ودولتكم أو غلبتكم فإن اختلاف الآراء يخل بالوحدة ويوهن القوة.

١١. ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال مما يهددكم به العدو، وعلى الإكثار من ذكر الله، وعلى طاعة الله ورسوله من غير أن يهزهزكم الحوادث أو يزجركم ثقل الطاعة أو تغويكم لذة المعصية أو يضلكم عجب النفس وخيلاؤها.

١٢. وقد أكد الأمر بالصبر بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ لأن الصبر أقوى عون على الشدائد وأشد ركن تجاه التلون في العزم وسرعة التحول في الإرادة، وهو الذي يخلي بين الإنسان وبين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشة والأفكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين.

٣٤. النهي عن الخروج رياءً والتحذير من تزيين الشيطان:

المقطع [٣٤] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٧-٤٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٩٦»:

١. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ﴾ الآية نهي عن اتخاذ طريقة هؤلاء البطرين المرائين الصادين عن سبيل الله، وهم على ما يفيده سياق الكلام في الآيات، كفار قريش، وما ذكره من أوصافهم أعني البطر ورئاء الناس والصد عن سبيل الله هو الذي أوجب النهي عن التشبه بهم واتخاذ طريقتهم بدلالة السياق.

٢. ﴿وَاللهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ينبئ عن إحاطته تعالى بأعمالهم وسلطنته عليها وملكه لها، ومن المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخلة في قضائه متمشية بإذنه ومشيته وما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجملة كالكناية عما يصرح به بعد عدة آيات بقوله: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]

٣. وظاهر أن أخذ هذه القيود أعني قوله: ﴿بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ يوجب تعلق النهي بها والتقدير: ولا تخرجوا من دياركم إلى قتل أعداء الدين بطرين ومرائين بالتجملات الدنيوية، وصد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم وأفعالكم إلى ترك تقوى الله والتوغل في معاصيه والانخلاع عن طاعة أوامره ودساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم ويطفئ نور الإيمان ويبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السعي والفوز بالمقاصد الهامة إلا سوي الصراط الذي يمهده الدين القويم وتسهله الملة الفطرية والله لا يهدي القوم الفاسقين إلى مقاصدهم الفاسدة.

٤. وقد اشتملت الآيات الثلاث على أمور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء وهي الثبات، وذكر الله كثيرا، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع، وأن لا يخرجوا بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله.

٥. ومجموع الأمور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربية شيئا، والتأمل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلامية الواقعة في زمن النبي ﷺ كبدر وأحد والخندق وحنين وغير ذلك يوضح أن الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين مواد هذا الدستور الإلهي وعدم رعايتها، والمراقبة لها والمساهلة فيها.

٦. ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾ إلى آخر الآية، تزيين الشيطان للإنسان عمله هو إلقاؤه في قلبه كون العمل حسنا جميلا يستلذ به وذلك بتهييج قواه الباطنة وعواطفه الداخلة المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه، ولا يجد فراغا يعقل ما له من سوء الأثر وشؤم العاقبة.

٧. وليس من البعيد أن يكون قوله: ﴿وَقالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ﴾ الآية مفسرا أو بمنزلة المفسر للتزيين الشيطاني على أن يكون المراد بالأعمال نتائجها وهي ما هيئوه من قوة وسلاح وعدة وما أخرجوه من القيان والمعازف والخمور، وما تظاهروا به من نظام الجيش والجنائب تساق بين أيديهم، ويمكن أن

يكون المراد بها نفس الأعمال وهي أنواع تماديهم في الغي والضلال وإصرارهم في محادة الله ورسوله، واسترسالهم في الظلم والفسق فيكون قوله المحكي: ﴿لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ مما يتم به تزيين الشيطان، وتطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين.

٨. وقد أكمل ذلك بقوله: ﴿وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ﴾ والجوار من سنن العرب في الجاهلية التي كانت تعيش عيشة القبائل، ومن حقوق الجوار نصرة الجار للجار إذا دهمه عدو، وله آثار مختلفة بحسب السنن الجارية في المجتمعات الإنسانية.

٩. ﴿فَلَمّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ﴾ النكوص الإحجام عن الشيء و﴿عَلى عَقِبَيْهِ﴾ حال والعقب مؤخر القدم أي أحجم وقد رجع القهقرى منهزما وراءه.

١٠. ﴿إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ﴾ الآية تعليل لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ ولعله إشارة إلى نزول الملائكة المردفين الذين نصر الله المسلمين بهم، وكذا قوله: ﴿إِنِّي أَخافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾ تعليل لقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ ومفسر للتعليل السابق.

١١. والمعنى ويوم الفرقان هو الوقت الذي زين الشيطان للمشركين ما كانوا يعملونه لمحادة الله ورسوله وقتال المؤمنين، ويتلبسون به للتهيؤ على إطفاء نور الله، فزين ذلك في أنظارهم، وطيب نفوسهم بقوله: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين والمؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقرى منهزما وراءه وقال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول ملائكة النصر للمؤمنين وما عندهم من العذاب الذي يهددكم إني أخاف عذاب الله والله شديد العقاب.

١٢. وهذا المعنى، كما ترى، يقبل الانطباق على وسوسة الشيطان لهم في قلوبهم وتهييجهم على المؤمنين وتشجيعهم على قتالهم وتطييب نفوسهم بما استعدوا به حتى إذا تراءت الفئتان ونزل النصر واستولى الرعب على قلوبهم انتكست أوهامهم وتبدلت أفكارهم وعادت مزعمة الغلبة وأمنية الفتح والظفر مخافة مستولية على نفوسهم وخيبة ويأسا شاملة لقلوبهم.

١٣. ويقبل الانطباق على تصور شيطاني يبدو لهم فتنجذب إليه حواسهم بأن يكون قد تصور لهم في صورة إنسان ويقول لهم ما حكاه الله من قوله: ﴿لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ﴾ فيغويهم

ويسيرهم ويقربهم من القتال حتى إذا تقاربت الفئتان وتراءتا فلما تراءت الفئتان ورأى الوضع على خلاف ما كان يؤمله ويطمع فيه نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون من نزول النصر والملائكة إني أخاف الله والله شديد العقاب، وقد ورد في روايات القصة من طرق الشيعة وأهل السنة ما يؤيد هذا الوجه، وهو أن الشيطان تصور للمشركين في صورة سراقة بن مالك بن جشعم الكناني ثم المدلجي وكان من أشراف كنانة وقال لهم ما قال وحمل رايتهم حتى إذا تلاقى الفريقان فر منهزما وهو يقول: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ﴾ إلى آخر ما حكاه الله تعالى، وستجيء الرواية في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

١٤. وقد أصر بعض المفسرين على الوجه الأول، ورد الثاني بتزييف الآثار المروية وتضعيف أسناد الأخبار، وهي وإن لم تكن متواترة ولا محفوفة ببعض القرائن القطعية الموجبة للوثوق التام لكن أصل المعنى ليس من المستحيل الذي يدفعه العقل السليم، ولا من القصص التي تدفعها آثار صحيحة، ولا مانع من أن يتمثل لهم الشيطان فيوردهم مورد الضلال والغي حتى إذا تم له ما أراد تركهم في تهلكتهم أو حتى شاهد عذابا إلهيا نكص على عقبيه هاربا.

١٥. على أن سياق الآية الكريمة أقرب إلى إفادة هذا الوجه الثاني منه إلى الوجه الأول، وخاصة بالنظر إلى قوله: ﴿وَإِنِّي جارٌ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ﴾ الآية فإن إرجاع معنى قوله: ﴿إِنِّي أَرى﴾ الآية مثلا إلى الخواطر النفسانية بنوع من العناية الاستعارية بعيد جدا.

١٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البرهان: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ﴾ الآية: بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال: حدثنا أبو المقدم ثعلبة بن زيد الأنصاري قال: سمعت جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري رحمه الله يقول: تمثل إبليس في أربع صور: تمثل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جشعم المدلجي، فقال لقريش: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال إني بريء منكم، وتصور يوم العقبة في صورة منبه بن الحجاج، فنادى: أن محمدا والصباة معه عند العقبة فأدركوهم، قال رسول الله ﷺ للأنصار: لا تخافوا فإن صوته لن يعدوه، وتصور في يوم اجتماع قريش

في دار الندوة، في صورة شيخ من أهل نجد وأشار عليهم في أمرهم فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، وتصور في يوم قبض رسول الله ﷺ في صورة المغيرة بن شعبة، فقال: أيها الناس لا تجعلوا كسروانية ولا قيصرانية، وسعوها تتسع فلا تردوا إلى بني هاشم فينظر بها الحبالى.

ب. وفي المجمع، قيل: إنهم لما التقوا كان إبليس في صف المشركين، أخذ بيده الحارث بن هشام فنكص على عقبيه، فقال له الحارث بن هشام: يا سراقة إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحالة؟ فقال: إني أرى ما لا ترون، فقال: والله ما نرى إلا جعاميس يثرب، فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس، وفلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة فقال: والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغني هزيمتكم، فقالوا: إنك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان، قال: وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهم السلام.

• أقول: وروى مثله ابن شهرآشوب عنهما عليه السلام، وفي معنى هاتين الروايتين روايات كثيرة من طرق أهل السنة عن ابن عباس وغيره.

• وقد مر في البيان المتقدم استبعاد بعض المفسرين ذلك وتضعيفه ما ورد فيه من الروايات، وهي إنما تثبت أمرا ممكنا غير مستحيل، والاستبعاد الخالي لا يبني عليه في الأبحاث العلمية، والتمثلات البرزخية ليست بشاذة نادرة فلا موجب للإصرار على النفي كما أن الإثبات كذلك غير أن ظاهر الآية أوفق للإثبات.

٣٥. غرور المنافقين وأصحاب القلوب المريضة:

المقطع [٣٥] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ٩٩»:

١. ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ إلى آخر الآية، أي يقول المنافقون وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، والذين في قلوبهم مرض وهم الضعفاء في الإيمان ممن لا يخلو نفسه من الشك والارتياب، يقولون، مشيرين إلى المؤمنين إشارة تحقير واستذلال ـ: غر هؤلاء

دينهم إذ لولا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكة الظاهرة، وهم شرذمة أذلاء لا عدة لهم ولا عدة، وقريش على ما بهم من العدة والقوة والشوكة.

٢. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في مقام الجواب عن قولهم وإبانة غرورهم أنفسهم؛ وقوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ من وضع السبب موضع المسبب، والمعنى: وقد أخطأ هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض في قولهم فإن المؤمنين توكلوا على الله ونسبوا حقيقة التأثير إليه وضموا أنفسهم إلى قوته وحوله، ومن يتوكل أمره على الله فإن الله يكفيه لأنه عزيز ينصر من استنصره حكيم لا يخطئ في وضع كل أمر موضعه الذي يليق به.

٣. وفي الآية دليل على حضور جمع من المنافقين وضعفاء الإيمان ببدر حين تلاقي الفئتين:

أ. أما المنافقون وهم الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فلا معنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلا بين المسلمين لكن الشأن في العامل الذي أوجب منهم الثبات واليوم يوم شديد.

ب. وأما الضعفاء الإيمان أو الشاكون في حقيقة الإسلام فمن الممكن أن يكونوا بين المؤمنين أو في فئة المشركين وقد قيل إنهم كانوا فئة من قريش أسلموا بمكة واحتبسهم آباؤهم واضطروا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتى إذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة والذلة قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، وسيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

٤. وعلى أي حال ينبغي إمعان النظر في البحث عما تفيده هذه الآية من حضور جمع من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يوم بدر عند القتال، واستخراج حقيقة السبب الذي أوجب لهؤلاء المنافقين والضعفاء حضور هذه الغزوة، والوقوف في ذلك الموقف الصعب الهائل الذي لا يساعد عليه الأسباب العادية ولا يقف فيه إلا رجال الحقيقة الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان، وأنهم لما ذا حضروها؟ وكيف ولماذا صبروا مع الصابرين من فئة الإسلام؟ ولعلنا نوفق لبعض البحث في ذلك فيما سيوافي من آيات سورة التوبة في شأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض إن شاء الله تعالى.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في الدر المنثور: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ﴾ الآيتين، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق في قوله: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ قال: هم الفئة الذين خرجوا مع قريش،

احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: غر هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه، من قلة عددهم وكثرة عدوهم، وهم فئة من قريش مسمون خمسة: قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة المخزوميان، والحارث بن زمعة، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه.

• أقول: وهذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ فحسب، وفي بعض التفاسير أن القائل: ﴿غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ هم المنافقون والذين في قلوبهم مرض من أهل المدينة، ولم يخرجوا مع النبي ﷺ، وسياق الآية الظاهر في حضورهم وقولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك.

ب. وفي رواية أبي هريرة، على ما رواه في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط عنه، ما لفظه: وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر، ﴿غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾ فأنزل الله، ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ﴾، والذي ذكره لا ينطبق على الآية البتة فالقرآن الكريم لا يسمي المشركين منافقين ولا الذين في قلوبهم مرض.

٣٦. الملائكة تضرب الكافرين عند الوفاة:

المقطع [٣٦] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٠٠»:

١. ﴿وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ﴾ إلى تمام الآيتين، التوفي أخذ الحق بتمامه، ويستعمل في كلامه تعالى كثيرا بمعنى قبض الروح، ونسبة قبض أرواحهم إلى الملائكة مع ما في بعض الآيات من نسبته إلى ملك الموت، وفي بعض آخر إلى الله سبحانه كقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، وقوله: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها﴾ [الزمر: ٤٢] دليل على أن لملك الموت أعوانا يتولون قبض الأرواح هم بمنزلة الأيدي العمالة له يصدرون عن إذنه ويعملون عن أمره، كما أنه يصدر عن إذن من الله ويعمل عن أمر منه، وبذلك يصح نسبة التوفي إلى الملائكة الأعوان، وإلى ملك الموت، وإلى الله سبحانه.

٢. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ﴾ ظاهره أنهم يضربون مقاديم أبدانهم وخلاف ذلك فيكنى به

عن إحاطتهم واستيعاب جهاتهم بالضرب، وقيل: إن الأدبار كناية عن الأستاه فبالمناسبة يكون المراد بوجوههم مقدم رءوسهم، وضرب الوجوه والأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء والإذلال.

٣. ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي يقول لهم الملائكة: ذوقوا عذاب الحريق وهو النار.

٤. ﴿ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ تتمة لقولهم المحكي أو إشارة إلى مجموع ما يفعل بهم وما يقول لهم الملائكة، والمعنى إنما نذيقكم عذاب الحريق بما قدمت أيديكم أو: نضرب وجوهكم وأدباركم ونذيقكم عذاب الحريق بما قدمت أيديكم.

٥. ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ معطوف على موضع قوله ﴿بِما قَدَّمَتْ﴾ أي وذلك بأن الله ليس بظلام للعبيد أي لا يظلم أحدا من عبيده فإنه تعالى على صراط مستقيم لا تخلف ولا اختلاف في فعله فلو ظلم أحدا لظلم كل أحد، ولو كان ظالما لكان ظلاما للعبيد فافهم ذلك.

٦. وسياق الآيات يشهد على أن المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم ويعذبهم هم المقتولون ببدر من مشركي قريش.

٣٧. سنة آل فرعون في الكفر والعقاب:

المقطع [٣٧] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٠١»:

١. ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية، الدأب والديدن: العادة وهي العمل الذي يدوم ويجري عليه الإنسان، والطريقة التي يسلكها، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون والذين من قبلهم من الأمم الخالية الكافرة كفروا بآيات الله وأذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي لا يضعف عن أخذهم شديد العقاب إذا أخذ.

٣٨. تغيير النعمة وتغيير النفوس:

المقطع [٣٨] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٠٢»:

١. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ الآية:

أ. أي إن العقاب الذي يعاقب به الله سبحانه إنما يعقب نعمة إلهية سابقة بسلبها واستخلافها، ولا تزول نعمة من النعم الإلهية ولا تتبدل نقمة وعقابا إلا مع تبدل محله وهو النفوس الإنسانية، فالنعمة التي أنعم بها على قوم إنما أفيضت عليهم لما استعدوا لها في أنفسهم، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نقمة وعقابا إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد وملاك الإفاضة وتلبسهم باستعداد العقاب.

ب. وهذا ضابط كلي في تبدل النعمة إلى النقمة والعقاب، وأجمع منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وإن كان ظاهره أظهر انطباقا على تبدل النعمة إلى النقمة.

ج. وكيف كان فقوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً﴾ الآية من قبيل التعليل بأمر عام وتطبيقه على مورده الخاص أي أخذ مشركي قريش بذنوبهم، وعقابهم بهذا العقاب الشديد، وتبديل نعمة الله عليهم عقابا شديدا إنما هو فرع من فروع سنة جارية إلهية هي أن الله لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

٢. ﴿وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تعليل آخر بعد التعليل بقوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً﴾ الآية وظاهره، بمقتضى إشعار السياق، أن المراد به: وذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم وعلم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله، ويحتمل أن يكون المراد: ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك، ويمكن الجمع بين المحتملين.

٣. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير الصافي، عن الكافي عن الصادق عليه السلام: أن الله بعث نبيا من أنبيائه إلى قومه، وأوحى إليه؛ أن قل لقومك، إنه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي، فأصابهم فيها سراء فتحولوا عما أحب إلى ما أكره، إلا تحولت لهم عما يحبون إلى ما يكرهون، وإنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي، فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عما أكره إلى ما أحب، إلا تحولت لهم عما يكرهون إلى ما يحبون.

ب. وفيه، أيضا عنه عليه السلام أنه قال، كان أبي يقول: إن الله عز وجل قضى قضاء حتما، لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه، حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النقمة.

٣٩. تكذيب آل فرعون وإغراقهم في اليم:

المقطع [٣٩] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٠٢»:

١. ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية:

أ. كرر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الآية السابق تنظير لقوله: ﴿ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ كما أن قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾إلى قوله ﴿وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ﴾ ثانيا تنظير لقوله: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً﴾ الآية.

ب. غير أن التنظير الثاني يشتمل على نوع من الالتفات في قوله: ﴿فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقد وقع بحذائه في التنظير الأول: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ من غير التفات ولعل الوجه فيه أن التنظير الثاني لما كان مسبوقا بإفادة أن الله هو المفيض بالنعم على عباده ولا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم، وهذا شأن الرب بالنسبة إلى عبيده اقتضى ذلك أن يعد هؤلاء عبيدا غير جارين على صراط عبودية ربهم ولذلك غير بعض سياق التنظير فقال في الثاني: ﴿كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ﴾ وقد كان بحذائه في الأول قوله: ﴿كَفَرُوا بِآياتِ اللهِ﴾ ولذلك التفت هاهنا من الغيبة إلى التكلم مع الغير فقال: ﴿فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ للدلالة على أنه سبحانه هو ربهم وهو مهلكهم، وقد أخذ المتكلم مع الغير للدلالة على عظمة الشأن وجلالة المقام، وأن له وسائط يعملون بأمره ويجرون بمشيته.

٢. ﴿وَأَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أظهر المفعول ولم يقل: وأغرقناهم ليؤمن الالتباس برجوع الضمير إلى آل فرعون والذين من قبلهم جميعا.

٣. ﴿وَكُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ﴾:

أ. أي جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفار قريش وآل فرعون والذين من قبلهم كانوا ظالمين في جنب الله.

ب. ٥ . وفيه بيان أن الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحدا، ولا يبدل نعمته على أحد نقمة إلا إذا كان ظالما ظلما يبدل نعمة الله كفرا بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه.

٤٠. شر الدواب الكافرون الذين ينقضون العهد:

المقطع [٤٠] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥-٥٧]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١١»:

١. ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾:

أ. الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحية من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله: ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ من الدلالة عليه فإن معناه الحكم؛ وما يحكم ويقضي به الله سبحانه لا يتطرق إليه خطأ وقد قال تعالى: ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى﴾ [طه: ٥٢]

ب. وقد افتتح هذه القطعة من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم ودفعهم، ومن المغروز في الطباع أن الشر الذي لا يرجى معه خير يجب دفعه بأي وسيلة صحت وأمكنت فناسب ما سيأمره في حقهم بقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ الآية الافتتاح ببيان كونهم شر الدواب.

ج. وعقب قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بقوله: ﴿فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأ بفاء التفريع أي إن من وصفهم الذي يتفرع على كفرهم أنهم لا يؤمنون، ولا يتفرع عدم الإيمان على الكفر إلا إذا رسخ في النفس رسوخا لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ في دخول الإيمان في قلب هذا شأنه لمكان المضادة التي بين الكفر والإيمان.

د. ومن هنا يظهر أن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين ثبتوا على الكفر، وعند هذا يرجع معنى هذه الآية إلى نظيرتها السابقة: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]

هـ. على أن الآيتين لما دلتا على حصر الشر عند الله في طائفة معينة من الدواب كانت الآية الأولى مع دلالتها على كون أهلها ممن لا يؤمنون البتة دالة على أن المراد بقوله في الآية الثانية: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتة.

٢. ﴿الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾:

أ. بيان للذين كفروا في الآية السابقة أو بدل منهم بدل البعض من الكل، ويتفرع عليه أن (من) في قوله ﴿مِنْهُمْ﴾ تبعيضية والمعنى: الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا، وأما احتمال أن يكون من زائدة والمعنى: الذين عاهدتهم، أو بمعنى مع والمعنى: الذين عاهدت معهم فليس: بشيء.

ب. ٧. والمراد بكل مرة مرات المعاهدة أن ينقضون عهدهم في كل مرة عاهدتهم وهم لا يتقون الله في نقض العهد أو لا يتقونكم ولا يخافون نقض عهدكم، وفيه دلالة على تكرر النقض منهم.

٣. ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾:

أ. قال في المجمع: (الثقف الظفر والإدراك بسرعة، والتشريد التفريق على اضطراب)، وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ أصله إن تثقفهم دخل (ما) التأكيد على إن الشرطية ليصحح دخول نون التأكيد على الشرط والكلام مسوق للتأكيد في ضمن الشرط.

ب. والمراد بتشريد من خلفهم بهم أن يفعل بهم من التنكيل والتشديد ما يعتبر به من خلفهم، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرقوا وينحل عقد عزيمتهم واتحاد إرادتهم على قتال المؤمنين وإبطال كلمة الحق.

ج. وعلى هذا فالمراد بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ رجاء أن يتذكروا ما لنقض العهد والإفساد في الأرض والمحادة مع كلمة الحق من التبعة السيئة والعاقبة المشئومة فإن الله لا يهدي القوم الفاسقين وإن الله لا يهدي كيد الخائنين.

٤. ففي الآية إيماء إلى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم والتنكيل بهم عند الظفر بهم وثقفهم، وإيماء إلى أن وراءهم من حاله حالهم في نقض العهد وتربص الدوائر على الحق وأهله.

٥. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير البيضاوي، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ هم يهود بني قريظة عاهدهم رسول الله ﷺ أن لا يمالئوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح، وقالوا: نسينا، ثم عاهدهم فنكثوا، ومالئوهم عليه يوم الخندق، وركب كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم.

• أقول: وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد، وروي عن سعيد بن جبير أن الآية نزلت في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت، وإيضاح ما تشير إليه الآية من نقض اليهود ميثاق النبي ﷺ مرة بعد مرة وما

قاساه من المحن من ناحيتهم يحتاج إلى سير إجمالي فيما جرى بينه ﷺ وبينهم من الأمر بعد هجرته ﷺ إلى المدينة إلى سبع سنين من الهجرة.

• وقد كانت طوائف من اليهود هاجرت من بلادها إلى الحجاز وتوطنوا بها وبنوا فيها الحصون والقلاع، وزادت نفوسهم وكثرت أموالهم وعظم أمرهم وقد مرت في ذيل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَكانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] في الجزء الأول من الكتاب روايات في بدء مهاجرتهم إلى الحجاز وكيفية نزولهم حول المدينة وبشارتهم الناس بالنبي ﷺ.

• ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ودعاهم إلى الإسلام استنكفوا عن الإيمان به فصالح يهود المدينة وعاهدهم بكتاب كتب بينه وبينهم وهم ثلاثة رهط حول المدينة: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة أما بنو قينقاع فنكثوا العهد في غزوة بدر فسار إليهم النبي ﷺ في منتصف شوال في السنة الثانية من الهجرة بعد بضعة وعشرين يوما من وقعة بدر فتحصنوا في حصونهم فحاصرهم أشد الحصار، وبقوا على ذلك خمسة عشر يوما، ثم نزلوا على حكم النبي ﷺ في نفوسهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم، فأمر بهم فكتفوا، وكلم عبد الله بن أبي بن سلول النبي ﷺ فيهم وألح عليه وكانوا حلفاءه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات الشام ومعهم نساؤهم وذراريهم، وقبض منهم أموالهم غنيمة الحرب، وكانوا ستمائة مقاتل من أشجع اليهود، وأما بنو النضير، فإنهم كادوا النبي ﷺ إذ خرج إليهم في نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوة بدر، وكلمهم أن يعينوه في دية نفر أو رجلين من الكلابيين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض فتأمروا بقتله، واختاروا من بينهم عمرو بن جحاش أن يأخذ حجر رحى فيصعد فيلقه على رأسه ويشدخه به، وحذرهم سلام بن مشكم وقال لهم: لا تفعلوا ذلك، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، فجاءه الوحي وأخبره ربه بما هموا به، فقام ﷺ من مجلسه مسرعاً وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه واستفسروه عن قيامه وتوجهه، فأخبرهم بما همت به بنو النضير، وبعث إليهم من المدينة: أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم، فمن وجدته بعد ذلك بها منكم ضربت عنقه، فأقاموا أياماً يتجهزون للخروج، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين

يدخلون معكم حصنكم ويموتون دونكم، وينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وأرضاهم بذلك، فبعث رئيسهم حيي بن أخطب إلى النبي ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ﷺ وكبر أصحابه، وأمر علياً عليه السلام بحمل الراية والسير إليهم، فساروا وأحاطوا بديارهم، وغدر بهم عبد الله بن أبي، ولم ينصرهم بنو قريظة ولا حلفاؤهم من غطفان، وقد كان النبي ﷺ أمر بقطع نخيلهم وإحراقها، فجزعوا من ذلك وقالوا: يا محمد، لا تقطع، فإن كان لك فخذه، وإن كان لنا فاتركه لنا، ثم قالوا له بعد أيام: يا محمد، نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا، قال: لا، ولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل، فلم يقبلوا ذلك، وبقوا أياماً على ذلك، ثم رضوا وسألوه ذلك، قال: لا، ولكن تخرجون ولا يحمل أحد منكم شيئاً، ومن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه، فخرجوا، فوقع قوم منهم إلى فدك ووادي القرى، وقوم إلى أرض الشام، وكان ما لهم فيئاً لله ورسوله، من غير أن ينال شيئاً من ذلك جيش الإسلام، وقصتهم مذكورة في سورة الحشر، ومن كيد بني النضير للنبي ﷺ تخريب الأحزاب من قريش وغطفان وغيرهم عليه ﷺ، وأما بنو قريظة، فقد كانوا على الصلح والسلم، حتى وقعت غزوة الخندق، وقد كان حيي بن أخطب رئيس بني النضير ركب إلى مكة وحث قريشاً على النبي ﷺ وحزب الأحزاب، وفي ذلك ركب إلى بني قريظة وجاءهم في ديارهم، فلم يزل يوسوس إليهم ويعزهم ويلح عليهم، ويكلم رئيسهم كعب بن أسد في ذلك، ونقض العهد ومناجزة النبي ﷺ حتى أرضاهم بذلك، واشترطوا عليه أن يدخل في حصنهم فيصيبه ما أصابهم، فقبل ودخل، فنقضوا العهد ومالوا إلى الأحزاب الذين حاصروا المدينة، وأظهروا سب النبي ﷺ، وأحدثوا ثلمة أخرى، فلما فرغ النبي ﷺ من أمر الأحزاب، أتاه جبرئيل بوحي من الله يأمره بالمسير إليهم، فسار إليهم ويحمل رايته علي عليه السلام، ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسة وعشرين يوماً، فلما اشتد عليهم الحصار، عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يختاروا أحد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا في دين محمد، وإما أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا إليه بسيوفهم مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا عليه ويكسبوه يوم السبت، لأنهم يعني المسلمين قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه! فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن، فبعثوا إلى النبي ﷺ: أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره في الأمر، وكان أبو لبابة مناصحاً لهم، لأن عياله وذريته وماله كانت عندهم، فأرسله إليهم، فلما رأوه قاموا إليه يبكون، وقالوا له: كيف ترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه:

أنه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زلت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله، وأوحى الله إلى نبيه ﷺ في أمر أبي لبابة، فندم أبو لبابة، ومضى على وجهه حتى أتى المسجد وربط نفسه على سارية من سواري المسجد تائباً لله، وحلف ألا يحله إلا النبي ﷺ أو يموت، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: دعوه حتى يتوب الله عليه، ثم إن الله تاب عليه، وأنزل توبته، وحله النبي ﷺ، ثم إن بني قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ، وكانوا موالي أوس، فكلمته أوس في أمرهم مستشفعين، وآل الأمر إلى تحكيم سعد بن معاذ الأوسي في أمرهم، ورضوا ورضي به النبي ﷺ، فأحضر سعد وكان جريحاً، ولما كلم سعد رحمه الله في أمرهم قال: لقد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم، ثم حكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري وأخذ الأموال، فأجري عليهم ما حكم به سعد، فضربت أعناقهم عن آخرهم، وكانوا ستمائة مقاتل أو سبعمائة، وقيل أكثر، ولم ينج منهم إلا نفر يسير آمنوا قبل تقتيلهم، وهرب عمرو بن سعدى منهم، ولم يكن داخلاً معهم في نقض العهد، وسبيت النساء، إلا امرأة واحدة ضربت عنقها، وهي التي طرحت على رأس خلاد بن السويد بن الصامت رحى فقتلته، ثم أجلى النبي ﷺ من كان بالمدينة من اليهود، ثم سار ﷺ إلى يهود خيبر، لما كان من كيدهم وسعيهم في حث الأحزاب عليه، وتأليفهم من جميع القبائل العربية لحربه، فنازل حصونهم وحصرهم أياماً، وأرسل النبي ﷺ إلى قتالهم أبا بكر في جمع يوماً فانهزم، ثم عمر بن الخطاب في جمع يوماً فانهزم، وعند ذلك قال النبي ﷺ: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كراراً غير فرار، لا يرجع حتى يفتح الله على يديه)، ولما كان من غد، أعطى الراية علياً عليه السلام وأرسله إلى قتال القوم، فتقدم إليهم وقتل مرحباً الفارس المعروف منهم، وهزمهم، وقلع بيده باب حصنهم، وفتح الله على يده الحصن، وكان ذلك بعد صلح الحديبية في المحرم سنة سبع من الهجرة، ثم أجلى النبي ﷺ من بقي من اليهود، وقد نصح لهم قبل ذلك أن يبيعوا أموالهم ويأخذوا أثمانها.

• انتهى ما أردنا تلخيصه من قصة اليهود مع النبي ﷺ.

ب. وفي تفسير العياشي، عن جابر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ﴾ الآية، نزلت في بني أمية هم شر خلق الله، هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في باطن القرآن، وهم ﴿الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾

• أقول: وروى مثله القمي عن أبي حمزة عنه عليه السلام، وهو من باطن القرآن كما صرح به في الرواية ليس بالظاهر.

٤١. نبذ عهد الخائنين على سواء:

المقطع [٤١] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١٣»:

١. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَواءٍ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾:

أ. الخيانة، على ما في المجمع،، نقض العهد فيما يؤتمن عليه، وهذا معنى الخيانة في العهود والمواثيق، وأما الخيانة بمعناها العام فهي نقض ما أبرم من الحق في عهد أو أمانة، والنبذ هو الإلقاء ومنه قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ﴾ آل عمران: ١٨٧ والسواء بمعنى الاستواء والعدل.

ب. وقوله: ﴿وَإِمَّا تَخافَنَّ﴾ كقوله في الآية السابقة: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ ومعنى الخوف ظهور أمارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه والحذر عنه وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ﴾

٢. ومعنى الآية: وإن خفت من قوم بينك وبينهم عهد أن يخونوك وينقضوا عهدهم ولاحت آثار دالة على ذلك فانبذ وألق إليهم عهدهم وأعلمهم إلغاء العهد لتكونوا أنتم وهم على استواء من نقض عهد أو تكون مستويا على عدل فإن من العدل المعاملة بالمثل والسواء لأنك إن قاتلتهم قبل إلغاء العهد كان ذلك منك خيانة والله لا يحب الخائنين.

٣. وملخص الآيتين دستوران إلهيان في قتال الذين لا عهد لهم بالنقض أو بخوفه فإن كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه في كل مرة فعلى ولي الأمر أن يقاتلهم ويشدد عليهم، وإن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم ولا وثوق بعهدهم فيعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون ولا يبدأ بقتالهم قبل الاعلام فإنما ذلك خيانة، وأما إن كانوا عاهدوا ولم ينقضوا ولم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم واحترام عقدهم وقد قال تعالى: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤] وقال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]

٤. أحاديث وآثار: في الكافي، بإسناده عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث من كن فيه كان منافقا، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم: من إذا اؤتمن خان، وإن حدث كذب، وإذا وعد أخلف إن الله عز وجل قال في كتابه: ﴿إِنَّ اللهَ

لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾ وقال: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾ وفي قوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ، إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾

٤٢. الكافرون لا يسبقون الله ولا يعجزونه:

المقطع [٤٢] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١٤»:

١. ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ القراءة المشهورة (تحسبن) بتاء الخطاب، وهو خطاب للنبي ﷺ تطيبا لنفسه وتقوية لقلبه كالخطاب الآتي بعد عدة آيات: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وكالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ﴾

٢. والسبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به، والإعجاز إيجاد العجز، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ تعليل لقوله: {ولا تحسبن}، والمعنى: يا أيها النبي لا تحسبن أن الذين كفروا سبقونا فلا ندركهم، لأنهم لا يعجزون الله وله القدرة على كل شيء.

٤٣. إعداد القوة والخيل لترهيب أعداء الله:

المقطع [٤٣] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١٤»:

١. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ﴾ إلى آخر الآية:

أ. الإعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد ما يحتاج إليه الشيء المطلوب في تحققه كإعداد الحطب والوقود للإيقاد وإعداد الإيقاد للطبخ، والقوة كل ما يمكن معه عمل من الأعمال، وهي في الحرب كل ما يتمشى به الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة، والرجال المدربين والمعاهد الحربية التي تقوم بمصلحة ذلك كله، والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال: ربطه يربطه ربطا ورابطه يرابطه مرابطة ورباطا فالكل بمعنى غير أن الرباط أبلغ من الربط، والخيل هو الفرس، والإرهاب قريب المعنى من التخويف.

ب. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ﴾ أمر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود أو في الفرض والاعتبار فإن المجتمع الإنساني لا يخلو من التآلف من أفراد أو أقوام مختلفي الطباع ومتضادي الأفكار لا ينعقد بينهم مجتمع على سنة قيمة ينافعهم إلا وهناك مجتمع آخر يضاده في منافعه، ويخالفه في سنته، ولا يعيشان معا برهة من الدهر إلا وينشب بينهما الخلاف ويؤدي ذلك إلى التغلب والقهر.

ج. فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها مما لا مناص عنها في المجتمعات الإنسانية والمجتمعات هي هذه المجتمعات، ويدل على ذلك ما نشاهده من تجهز الإنسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب والشدة في الأبدان، والفكر العامل في القهر والغلبة، فمن الواجب الفطري على المجتمع الإسلامي أن يتجهز دائما بإعداد ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

د. والذي اختاره الله للمجتمع الإسلامي بما أنزل عليهم من الدين الفطري الذي هو الدين القيم هي الحكومة الإنسانية التي يحفظ فيها حقوق كل فرد من أفراد مجتمعها، ويراعى فيها مصلحة الضعيف والقوي والغني والفقير والحر والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكل على حد سواء دون الحكومة الفردية الاستبدادية التي لا تسير إلا على ما تهواه نفس الفرد المتولي لها الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بما شاء وأراد، ولا الحكومة الأكثرية التي تطابق أهواء الجمهور من الناس وتبطل منافع آخرين وترضي الأكثرين (النصف + واحد) وتضطهد وتسخط الأقلين (النصف، واحد)

هـ. ولعل هذا هو السر في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ حيث وجه الخطاب إلى الناس بعد ما كان الخطاب في الآيات السابقة موجها إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ وقوله: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَواءٍ﴾ وقوله: {ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا} وكذا في الآيات التالية كقوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ إلى غير ذلك.

و. ٦ . وذلك أن الحكومة الإسلامية حكومة إنسانية بمعنى مراعاة حقوق كل فرد وتعظيم إرادة البعض واحترام جانبه أي من كان من غير اختصاص الإرادة المؤثرة بفرد واحد أو بأكثر الأفراد.

ز. فالمنافع التي يهددها عدوهم هي منافع كل فرد فعلى كل فرد أن يقوم بالذب عنها، ويعد ما

استطاع من قوة لحفظها من الضيعة، والإعداد وإن كان منه ما لا يقوم بأمره إلا الحكومات بما لها من الاستطاعة القوية والإمكانات البالغة لكن منها ما يقوم بالأفراد بفرديتهم كتعلم العلوم الحربية والتدرب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع.

٢. ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾:

أ. في مقام التعليل لقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ أي وأعدوا لهم ذلك لترهبوا وتخوفوا به عدو الله وعدوكم، وفي عدهم عدوا لله ولهم جميعا بيان للواقع وتأكيد في التحريض.

ب. وفي قوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ دلالة على أن المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله ولهم، والمراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون، على ما يعطيه إطلاق اللفظ، كل من لا خبرة للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم في كسوة المؤمنين وصورتهم يصلون ويصومون ويحجون ويجاهدون ظاهرا، ومن غير المنافقين من الكفار الذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد.

ج. والإرهاب بإعداد القوة، وإن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة التي تتفرع عليها فوائد عظيمة ظاهرة غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوة، ولذلك أردفه بقوله: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ ليدل على جماع الغرض.

هـ. وهذا أمر ينتفع به كل فرد من أفراد المجتمع الديني فما أنفقه فرد أو جماعة في سبيل الله، وهو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع إلى نفسه وإن كان في صورة أخرى فإن أنفق في سبيله مالا أو جاها أو أي نعمة من هذا القبيل فهو من الإنفاق في سبيل الضروريات الذي لا يلبث دون أن يرجع إليه نفسه نفعه وما استعقبه من نماء في الدنيا والآخرة، وإن أنفق في سبيله نفسا فهو الشهادة في سبيل الله التي تستتبع حياة باقية خالدة حقة لمثلها فليعمل العاملون لا كما يغر به آحاد الفادين في سبيل المقاصد الدنيوية ببقاء الاسم وخلود الذكر وتمام الفخر فهؤلاء وإن تنبهوا اليوم لهذا التعليم الإسلامي، وأن المجتمع كنفس واحدة تشترك أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع وضرر لكنهم خبطوا في مسيرهم واشتبه عليهم الأمر في تشخيص الكمال الإنساني الذي لأجله تندبه الفطرة وتدعوه إلى الاجتماع، وهو التمتع من الحياة الدائمة، فحسبوه الحياة الدنيا الدائرة فضاق عليهم المسلك في أمثال التفدية بالنفس لأجل تمتع الغير بلذائذ المادة.

و. وبالجملة فإعداد القوة إنما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الإسلامي ومنافعه الحيوية،

والتظاهر بالقوة المعدة ينتج إرهاب العدو، وهو أيضا من شعب الدفع ونوع معه، فقوله تعالى: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ﴾ الآية يذكر فائدة من فوائد الإعداد الراجعة إلى أفراد المجتمع، وقوله: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ يذكر أن ما أنفقوه في سبيله لا يبطل ولا يفوت بل يرجع إليهم من غير أن يفوت عن ذي حق حقه.

٣. وهذا أعني قوله: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ الآية أعم فائدة من مثل قوله: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فإن الخير منصرف إلى المال فلا يشمل النفس بخلاف قوله هاهنا: ﴿وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾

٤. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الآية، قال: قال: السلاح.

ب. وفي التفسير العياشي، عن محمد بن عيسى عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام: في الآية قال: سيف وترس.

ج. وفي الفقيه، عن الصادق عليه السلام مرسلا: في الآية قال: منه الخضاب بالسواد.

د. وفي الكافي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام: دخل قوم على الحسين بن علي عليه السلام فرأوه مختضبا بالسواد، فسألوه عن ذلك فمد يده إلى لحيته ثم قال: أمر رسول الله ﷺ في غزاة غزاها أن يختضبوا بالسواد، ليقووا به على المشركين.

هـ. وفي تفسير العياشي، عن جابر الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ قال: الرمي:

• أقول: ورواه في الكافي، بإسناده عن عبد الله بن المغيرة رفعه عنه ﷺ، والزمخشري في ربيع الأبرار، عن عقبة بن عامر عنه، والسيوطي في الدر المنثور، عن أحمد ومسلم وأبي داود وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني عنه ﷺ.

و. أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة والحاكم وصححه والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي يحتسب في

صنعته الخير، والذي يجهز به في سبيل الله، والذي يرمي به في سبيل الله، وقال: ارموا واركبوا، وأن ترموا خير من أن تركبوا، وقال: كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثة: رميه عن قوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله فإنهن من الحق، ومن علم الرمي ثم تركه فهي نعمة كفرها.

• أقول: وفي هذه المعاني روايات أخر، وخاصة في الخيل والرمي والروايات على أي حال من باب عد المصاديق.

ز. أخرج سعد والحارث بن أبي أسامة وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والروياني في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن يزيد بن عبد الله بن غريب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: في قوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ قال: هم الجن، ولا تخبل الشيطان إنسانا في داره فرس عتيق.

• أقول: وفي معناها روايات أخر، ومحصل الروايات ربط قوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ﴾ وهي من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء، والمراد من الآية بظاهرها العدو من الإنسان كالكفار والمنافقين.

٤٤. الجنوح للسلم مع التوكل على الله:

المقطع [٤٤] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١٧»:

١. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في المجمع: (الجنوح الميل، ومنه جناح الطائر لأنه يميل به في أحد شقيه، ولا جناح عليه أي لا ميل إلى مأثم)، والسلم بفتح السين وكسرها الصلح.

٢. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ من تتمة الأمر بالجنوح فالجميع في معنى أمر واحد، والمعنى: وإن مالوا إلى الصلح والمسالمة فمل إليها وتوكل في ذلك على الله ولا تخف من أن يضطهدك أسباب خفية عنك على غفلة منك وعدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب ولا يعجزه مكر بل ينصرك ويكفيك وهذا هو الذي يثبته قوله في الآية التالية ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾

٣. وقد تقدم فيما أسلفناه من معنى التوكل على الله أنه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب

الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها، والسبب التام الذي لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه، فالتوكل هو توجيه الثقة والاعتماد إلى الله سبحانه الذي بمشيته يدور رحى الأسباب عامة، ولا ينافيه أن يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحة عليه من غير أن يلغي شيئا منها فيركب مطية الجهل.

٤. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن أبزى: أن النبي ﷺ كان يقرأ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾

ب. أخرج أبو عبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس: في قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ قال: نسختها هذه الآية: ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى قوله ﴿صاغِرُونَ﴾

• أقول: وروي نسخها بآية البراءة: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ والآية لا تخلو عن إيماء إلى كون الحكم مؤجلا حيث قال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

ج. وفي الكافي، بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ قلت: ما السلم؟ قال: الدخول في أمرنا، وفي رواية أخرى: الدخول في أمرك.

• أقول: وهو من الجري.

٤٥. الله يكفي المؤمنين كيد الخادعين:

المقطع [٤٥] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١٨»:

١. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. الآية متصلة بما قبلها وهي بمنزلة دفع الدخل، وذلك أن الله سبحانه لما أمر نبيه ﷺ بالجنوح للسلم إن جنحوا له ولم يرض بالخديعة لأنها من الخيانة في حقوق المعاشرة والمواصلة للعامة والله لا يحب الخائنين كان أمره بالجنوح المذكور مظنة سؤال وهو أن من الجائز أن يكون جنوحهم للسلم خديعة منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم في شرائط وأحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأنا أمرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك أن يخدعوك فإن حسبك الله وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بالِغُ

أَمْرِهِ﴾

ب. وهذا مما يدل على أن هناك أسبابا وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعية العادية تجري على ما يوافق صلاح العبد المتوكل إذا خانته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق.

٢. ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ بمنزلة الاحتجاج على قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى وهي أنه أيده بنصره وأيده بالمؤمنين وألف بين قلوبهم وهي شيء متباغضة.

٣. أحاديث وآثار:

أ. أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال: مكتوب على العرش لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي، محمد عبدي ورسولي أيدته بعلي؛ وذلك قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾

• أقول: ورواه الصدوق في المعاني، بإسناده عن أبي هريرة، وأبو نعيم في حلية الأولياء، بإسناده عنه، وكذا ابن شهرآشوب مسندا عن أنس عن النبي ص.

ب. وفي تفسير البرهان، عن شرف الدين النجفي قال: تأويله ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء بطريقه عن أبي هريرة قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، وهو المعني بقوله: المؤمنين.

• أقول: ولفظ الآية لا يساعد على ذلك اللهم إلا أن يكون المراد بالاتباع تمام الاتباع الذي لا يشذ عنه شأن من الشئون، ومن للتبعيض دون البيان إن ساعد عليه السياق.

ج. أخرج البزار عن ابن عباس قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا اليوم، وأنزل الله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ، وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

• أقول: وروي هذا المعنى في روايات أخر، والاعتبار لا يساعد عليه فإن الزمان الذي أسلم فيه لم يكن على نعت يصحح الخطاب بمثل قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ واليوم يوم الفتنة والعسرة، وقد دام الحال على ذلك بعدة سنين متمادية، وما كان النبي ﷺ يومئذ يحتاج إلى شيء يعينه العدة، وفي هذه الروايات أنه كان تمام الأربعين أو رابع أربعين على أن الظاهر أن الآية مدنية من جملة آيات سورة الأنفال.

د. أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهري: في قوله: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: نزلت في الأنصار.

• أقول: وسياق الآية في عدم المساعدة عليه كالروايتين السابقتين اللهم إلا أن يكون المراد نزولها يوم آمن به الأنصار أو يوم تابعوه، والظاهر أن الآية نزلت في تطييب نفس النبي ﷺ بجميع من كان معه من المؤمنين: مهاجريهم وأنصارهم، وهي توطئة وتمهيد لما في الآية التالية من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال.

٤٦. الله يؤلف بين قلوب المؤمنين:

المقطع [٤٦] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١١٨»:

١. ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية:

أ. قال الراغب: (الإلف اجتماع مع التيام يقال: ألفت بينهم، ومنه الألفة، ويقال: للمألوف إلف وآلف قال تعالى: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾

ب. أورد سبحانه في جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه أنه كفى نبيه ﷺ بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم، والكلام مطلق والملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين وإن كانت الآية أظهر انطباقا على الأنصار حيث أيد الله بهم نبيه ﷺ فآووه ونصروه وألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة وكانت قائمة على ساقها دهرا طويلا وهي حرب (بغاث) بين الأوس والخزرج حتى اصطلحوا بنزول الإسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخوانا.

ج. وقد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين في مواضع من كلامه وبين أهمية موقعه بمثل قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلكِنَّ اللهَ أَلَّفَ، بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

د. وذلك أن الإنسان مفطور على حب النعم الحيوية التي تتم بها حياته لا بغية له دونها ولا يريد في الحقيقة شيئا ولا يقصده إلا لينتفع به في نفسه وما ربما يلوح أنه يريد نفعا عائدا إلى غيره فالتأمل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائد إليه نفسه، وإذ كان يحب الوجدان فهو يبغض الفقدان.

هـ. وبهذين الوصفين الغريزيين أعني الحب والبغض يتم له أمر الحياة ولو أنه أحب كل شيء ومنها

الأضداد والمتناقضات لبطلت الحياة ولو أنه أبغض كل شيء حتى المتنافيات لبطلت الحياة، وقد فطره الله سبحانه على الحياة الاجتماعية؛ لقصور ما عنده من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريات حياته ومن الضروري أن الاجتماع لا يتم إلا باختصاص كل فرد بما يحرم عنه آخرون من مال أو جاه أو زينة أو جمال أو كل ما يتنافس فيه الطباع الإنساني أو يتعلق به الهوى النفساني على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة.

و. وهذا أول ما يودع أنواع العداوة والبغضاء في القلوب والشح في النفوس ثم ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم والعدوان وبغي البعض على البعض في دم أو عرض أو مال أو غير ذلك مما يتنعمون به ويتنافسون فيه ويعلمون لأجله، تثير في داخل نفوسهم كل بغضاء وشنآن.

ز. وهذا كله أوصاف وغرائز باطنية في الجماعة لا تلبث دون أن تظهر في أعمالهم وتتلاقى في أفعالهم ويماس بعضها بعضا بينهم في مسير حياتهم وفيه البلوى التي تتعقب الفتن والمصائب الاجتماعية التي تبيد النفوس وتهلك الحرث والنسل، وقد شهدت بذلك الحوادث الجارية على توالي القرون والأجيال.

ح. ومهما ظنت الأمم المجتمعة أن بغيتها في اجتماعها هي التمتع من العيشة المادية المحدودة بالحياة الدنيوية فلا سبيل إلى قلع مادة هذا الفساد من أصلها وقطع منابته فإن الدار دار التزاحم، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص، والنفوس مختلفة في الاستعداد، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثرة والأحوال الخارجة دخيلة في معايشهم وحياتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [المعارج: ٢١]، وقال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال: ﴿وَلا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

ط. وغاية ما يمكن الإنسان في بسط الألفة وإرضاء القلوب المشحونة بالعداوة والبغضاء أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيوية المحبوبة عندهم غير أنه إنما ينفع في موارد جزئية خاصة، وأما العداوة والبغضاء العامتان فلا سبيل إلى إزالتهما عن القلوب ببذل النعمة فإنه لا يبطل غريزة الاستزادة والشح الملتهب في كل نفس بما يشاهد من المزايا الحيوية عند غيره.

ي. على أن من النعم ما لا يقبل إلا الاختصاص والانفراد كالملك والرئاسة العالية وأمور أخرى تجري مجراهما حتى أن الأمم الراقية ذوي المدنية والحضارة لم يتمكنوا من معالجة هذا الداء إلا بما يزول به

بعض شدته، ويستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه، وأما البغضاءات المتعلقة بالأمور التي تختص به بعض مجتمعهم كالرئاسة والملك فهي على حالها تتقد بشررها القلوب ولا يزال يأكل بعضها بعضا.

ك. على أن ذلك ينحصر فيما بينهم وأما المجتمعات الخارجة من مجتمعهم فلا يعبأ بحالهم ولا يعتنى من منافعهم الحيوية إلا بما يوافق منافع أولئك وإن أعيتهم طوارق البلاء وعفاهم الدهر بالعناء.

٢. وقد من الله على الأمة الإسلامية إذ أزال الشح عن نفوسهم وألف بين قلوبهم بمعرفة إلهية علمه إياهم وبثه فيما بينهم ببيان أن الحياة الإنسانية حياة خالدة غير محصورة في هذه الأيام القلائل التي ستفنى ويبقى الإنسان ولا خبر عنها، وإن سعادة هذه الحياة الدائمة غير التمتع بلذائذ المادة والرعي في كلإ الخسة بل هي حياة واقعية وعيشة حقيقية يحيى ويعيش بها الإنسان في كرامة عبودية الله سبحانه، ويتنعم بنعم القرب والزلفى ثم يتمتع بما تيسر له من متاع الحياة الدنيا مما ساقه إليه الحظ أو الاكتساب عارفا بحقوق النعمة ثم ينتقل إلى جوار الله ويدخل دار رضوانه ويخالط هناك الصالحين من عباده، ويحيى حق الحياة قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى﴾ [النجم: ٣٠]

٣. فعلى المسلم أن يؤمن بربه ويتربى بتربيته، ويعزم عزمه ويجمع بغيته على ما عند ربه فإنما هو عبد مدبر لا يملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ومن كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلا بربه الذي بيده الخير والشر والنفع والضر والغنى والفقر والموت والحياة، وكان عليه أن يسير مسير الحياة بالعلم النافع والعمل الصالح فما سعد به من مزايا الحياة الدنيا فموهبة من عند ربه وما حرم منه احتسب عند ربه أجره، وما عند الله خير وأبقى.

٤. وليس هذا من إلغاء الأسباب في شيء ولا إبطالا للفطرة الإنسانية الداعية إلى العمل والاكتساب، النادبة إلى التوسل بالفكر والإرادة، المحرضة إلى الاجتهاد في تنظيم العوامل والعلل، الموصلة إلى المقاصد الإنسانية والأغراض الصحيحة الحيوية فقد فصلنا القول في توضيح ذلك في موارد متفرقة من هذا الكتاب.

٥. وإذا تسنن المسلمون بهذه السنة الإلهية، وحولوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتع المادي الذي ليس إلا بغية حيوانية وغرضا ماديا إلى هذا التمتع المعنوي الذي لا تزاحم فيه ولا حرمان عنده، ارتفعت عن قلوبهم العداوة والبغضاء، وخلصت نفوسهم من الشح والرين، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا، وأفلحوا حق الفلاح قال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]

٤٧. الله حسب النبي ومن اتبعه من المؤمنين:

المقطع [٤٧] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٢١»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

أ. تطييب لنفس النبي ﷺ، وقد قال تعالى قبله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمراد، والله أعلم، يكفيك الله بنصره وبمن اتبعك من المؤمنين، وليس المراد أن هناك سببين كافيين أو سببا كافيا ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآني يأبى ذلك.

ب. وربما قيل: إن المعنى حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله: ﴿مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ على موضع الكاف من ﴿حَسْبُكَ﴾

ج. والكلام على أي حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيده السياق والقرائن الخارجة فإن تأثير المؤمنين في كفايتهم له ﷺ إنما هو في القتال على ما يسبق إلى الذهن.

٢. وذكر بعضهم: أن الآية نزلت بالبيداء قبل غزوة بدر، وعلى هذا لا اتصال لها بما بعدها، وأما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به.

٤٨. تحريض المؤمنين على القتال ووعدهم بالنصر:

المقطع [٤٨] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٢٢»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ﴾ إلى آخر الآية، التحريض والتحضيض والترغيب والحض والحث بمعنى والفقه أبلغ وأغزر من الفهم، وقوله: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ أي من الذين كفروا كما قيد به الألف بعدا، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ أي مائة صابرة كما قيد بها ﴿عِشْرُونَ﴾ قبلا.

٢. ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾:

أ. الباء للسببية أو الإله والجملة تعليلية متعلقة بقوله: ﴿يَغْلِبُوا﴾ أي عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا، ومائة صابرة منكم يغلبون ألفا من الذين كفروا كل ذلك بسبب أن الكفار قوم لا يفقهون.

ب. وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين هو الذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من أولئك على ما بني عليه الحكم في الآية فإن المؤمنين إنما يقدمون فيما يقدمون عن إيمان بالله وهو القوة التي لا يعادله ولا يقاومه أي قوة أخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الذي يوصفهم بكل سجية نفسانية فاضلة كالشجاعة والشهامة والجرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنه على إحدى الحسنيين إن قتل ففي الجنة وإن قتل ففي الجنة وإن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار وهو الفناء لا مصداق له.

ج. وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس، واعتمادهم على ظاهر ما يسوله لهم الشيطان، والنفوس المعتمدة على أهوائها لا تتفق للغاية وإن اتفقت أحيانا فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذي تراه فناء، وما أندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت وهي على استقامة من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف، وخاصة في المخاوف العامة والمهاول الشاملة كما أثبته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر وهم ألف بقتل سبعين منهم، ونسبة السبعين إلى الألف قريبة من نسبة الواحد إلى أربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلا من مقاتل واحد، وليس ذلك إلا لفقه المؤمنين الذي يستصحب العلم والإيمان، وجهل الكفار الذي يلازمه الكفر والهوى.

٤٩. التخفيف عن المؤمنين لعلم الله بالضعف فيهم:

المقطع [٤٩] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٢٣»:

١. ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ﴾ الآية أي إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين من الذين كفروا وإن يكن منكم ألف صابر يغلبوا ألفين من الذين كفروا على وزان ما مر في الآية السابقة.

٢. ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ المراد به الضعف في الصفات الروحية ولا محالة ينتهي إلى الإيمان فإن الإيقان بالحق هو الذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنة الموجبة للفتح والظفر كالشجاعة والصبر والرأي المصيب وأما الضعف من حيث العدة والقوة فمن الضروري أن المؤمنين لم يزالوا يزيدون عدة وقوة في زمن النبي ص.

٣. ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ تقييد لقوله: ﴿يَغْلِبُوا﴾ أي إن الله لا يشاء خلافه والحال أنكم مؤمنون صابرون، وبذلك يظهر أن قوله: ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يفيد فائدة التعليل بالنسبة إلى الإذن.

٤. وقوله تعالى في الآية السابقة تعليلا للحكم: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾ وكذا في هذه الآية: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾:

أ. وعدم الفقه والضعف الروحي والصبر من العلل والأسباب الخارجية المؤثرة في الغلبة والظفر والفوز بلا شك يدل على أن الحكم في الآيتين مبني على ما اعتبر من الأوصاف الروحية في الفئتين: المؤمنين والكفار، وإن القوى الداخلة الروحية التي اعتبرت في الآية الأولى ما في المؤمن الواحد منها غالبة على القوى الداخلة الروحية في عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير إليه بقوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ لا يربو ما في المؤمن الواحد منها، من متوسطي المؤمنين، إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوة من أثرها بنسبة الثمانين في المائة، وتبدلت العشرون والمائتان في الآية الأولى إلى المائة والمائتين في الآية الثانية، والمائة والألف في الأولى إلى الألف والألفين في الثانية.

ب. والبحث الدقيق في العوامل المولدة للسجايا النفسانية بحسب الأحوال الطارئة على الإنسان في المجتمعات يهدي إلى ذلك فإن المجتمعات المنزلية والأحزاب المنعقدة في سبيل غرض من الأغراض

الحيوية دنيوية أو دينية في أول تكونها ونشأتها تحس بالموانع المضادة والمحن الهادمة لبنيانها من كل جانب فتتنبه قواها الدافعة للجهاد في سبيل هدفها المشروع عندها، ويستيقظ ما نامت من نفسانياتها للتحذر من المكاره والتفدية في طريق مطلوبها بالمال والنفس، ولا تزال تجاهد وتفدي ليلها ونهارها، وتتقوى وتتقدم حتى تمهد لنفسها حياة فيها بعض الاستقلال، ويصفو لها الجو بعض الصفاء ويكثر جمعها ويضرب بجرانها الأرض أخذت بالاستفادة من فوائد جهدها والتنعم بنعمة الراحة، والتوسع في متسع الأمن، وشرعت القوى الروحية الباسطة الباعثة للعمل في الخمود.

ج. على أن المجتمع وإن قلت أفراده لا يخلو من اختلاف في الإيمان، والسجايا الروحية الجميلة من قوي فيها وضعيف، وكلما كثرت الأفراد ازداد ضعفاء الإيمان والذين في قلوبهم مرض والمنافقون فتنزلت القوى الروحية في الفرد المتوسط وارتفعت كفة الميزان عما كانت عليه من الثقل.

د. والجماعات الدينية والأحزاب الدنيوية في ذلك على السواء والسنة الطبيعية الجارية في النظام الإنساني تجري على الجميع على نسق واحد، وقد أثبتت التجربة القطعية أن المجتمعات المؤتلفة لغرض هام كلما قلت أفرادها وقويت رقباؤها ومزاحموها، وأحاطت بها المحن والفتن كانت أكثر نشاطا للعمل وأحد في الأثر وكلما كثرت أفرادها وقلت مزاحماتها والموانع الحائلة بينها وبين مقاصدها ومطالبها كانت أكثر خمودا وأقل تيقظا وأسفه حلما.

هـ. والتدبر الكافي في مغازي النبي ﷺ ينور ذلك فهذه غزوة بدر غلب فيها المسلمون وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا على ما بهم من رثاثة الحال وقلة العدة وفقد السلاح والقوة كفار قريش وهم يعدلون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون على ما لهم من العزة والشوكة والقوة ثم ما جرى على المسلمين في غزوة أحد ثم في غزوة الخندق ثم في غزوة خيبر ثم في غزوة حنين وهي أعجبها وقد ذكرها الله سبحانه بما لا يبقى لباحث ريبا في ذلك إذ قال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ إلى آخر الآيات.

٥. فالآية تدل:

أ. أولا على أن الإسلام كان كلما زاد في زمن النبي ﷺ عزة وشوكة ظاهرا زادت نقصا وخمودا في قوى المسلمين الروحية العامة ودرجة إيمانهم وسجاياهم الجميلة النفسانية المعنوية باطنا حتى استقرت

بعد غزوة بدر، بقليل أو كثير، على خمس ما كانت عليه قبلها كما يشير إليه بعض الإشارة قوله تعالى في الآيات التالية: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ الآيات.

ب. وثانيا: أن الظاهر أن الآيتين نزلتا دفعة واحدة فإنهما وإن كانتا تخبران عن حال المؤمنين في زمانين مختلفين كما يشير إليه قوله في الآية الثانية: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ لكن الآيتين تقيسان كما مر طبع قوى المؤمنين الروحية في زمانين مختلفين، وسياق الثانية بالنظر إلى هذا القياس بحيث لا يستقل عن الأولى، ووجود حكمين مختلفين في زمانين لا يوجب أن ينزل الآية المتضمنة لأحدهما في زمان غير زمان نزول الأخرى المتضمنة للآخر، نعم لو كانت الآيتان مقصورتين في بيان الحكم التكليفي فحسب كان الظاهر نزول الثانية بعد زمان نزلت فيه الأولى.

ج. وثالثا: أن ظاهر قوله تعالى: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ﴾ كما قيل كون الآيتين مسوقتين لبيان الحكم التكليفي لأن التخفيف لا يكون إلا بعد التكليف فاللفظ لفظ الخبر والمراد به الأمر ومحصل المراد في الآية الأولى: ليثبت الواحد منكم للعشرة من الكفار وفي الآية الثانية: الآن خفف الله في أمره فليثبت الواحد منكم للاثنين من الكفار، واختصاص التخفيف بباب التكاليف، كما قيل، وإن أمكنت المناقشة فيه لكن ظهور الآيتين في وجود حكمين مختلفين مترتبين بحسب الزمان أحدهما أخف من الآخر لا ينبغي الارتياب فيه.

د. ورابعا: أن ظاهر التعليل في الآية الأولى بالفقه، وفي الآية الثانية بالصبر مع تقييد المقاتل من المؤمنين في الآيتين جميعا بالصبر يدل على أن الصبر يرجح الواحد في قوة الروح على مثليه، والفقه يرجحه فيها على خمسة أمثاله فإذا اجتمعا في واحد يرجح على عشرة أمثال نفسه، والصبر لا يفارق الفقه وإن جاز العكس.

هـ. وخامسا: أن الصبر واجب في القتال على أي حال.

٦. أحاديث وآثار:

أ. في تفسير القمي، قال: قال: كان الحكم في أول النبوة في أصحاب رسول الله ﷺ، أن الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفار، فإن هرب منهم فهو الفار من الزحف، والمائة يقاتلون ألفا،

ثم علم الله أن فيهم ضعفا لا يقدرون على ذلك، فأنزل الله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ ففرض عليهم أن يقاتل أقل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار، فإن فر منهما فهو الفار من الزحف، فإن كانوا ثلاثة من الكفار وواحدا من المسلمين، ففر المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف.

• أقول: وفي تفسير العياشي، عن الحسين بن صالح عن الصادق عن علي عليه السلام ما يقرب منه، وروي ما في معناها في الدر المنثور، بطرق عديدة عن ابن عباس وغيره.

ب. أخرج الشيرازي في الألقاب وابن عدي والحاكم وصححه عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ رفع.

٥٠. حكم الأسرى وعدم أخذ الفداء قبل الإثخان:

المقطع [٥٠] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٣٤»:

١. ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث:

أ. الأسر: الشد على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له كما قيل والأسير هو المشدود عليه، وجمعه الأسرى والأسراء والأسارى والأسارى، وقيل الأسارى جمع جمع وعلى هذا فالسبي أعم موردا من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج إلى شد كالذراري.

ب. والثخن بالكسر فالفتح الغلظ، ومنه قولهم: أثخنته الجراح وأثخنه المرض قال الراغب في المفردات: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم يسل ولم يستمر في ذهابه، ومنه أستعير قولهم: أثخنته ضربا واستخفافا قال الله تعالى: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ﴾ فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعد ما كان رقيقا سائلا مخشي الزوال بالسيلان.

ج. والعرض ما يطرأ على الشيء ويسرع فيه الزوال، ولذلك سمي به متاع الدنيا لدثوره وزواله

عما قليل، والحلال وصف من الحل مقابل العقد والحرمة كأن الشيء الحلال كان معقودا عليه محروما منه فحل بعد ذلك؛ وقد مر معنى الطيب وهو الملاءمة للطبع.

٢. وقد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على أنها إنما نزلت بعد وقعة بدر تعاتب أهل بدر وتبيح لهم الغنائم، والسبب في اختلاف ما ورد في سبب نزولها ومعاني جملها من الأخبار المختلفة، ولو صحت الروايات لكان التأمل فيها قاضيا بتوسع عجيب في نقل الحديث بالمعنى حتى ربما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضة، فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها:

أ. فمن ظاهر في أن العتاب والتهديد متوجه إلى النبي ﷺ والمؤمنين جميعا، أو إلى النبي والمؤمنين ما عدا عمر، أو ما عدا عمر وسعد بن معاذ، أو إلى المؤمنين دون النبي أو إلى شخص أو أشخاص أشاروا إليه بالفداء بعد ما استشارهم.

ب. ومن قال: إن العتاب إنما هو على أخذهم الفداء، أو على استحلالهم الغنيمة قبل الإباحة من جانب الله، والنبي ﷺ يشاركهم في ذلك لما أنه بدا باستشارتهم مع أن القوم إنما أخذوا الفداء بعد نزول الآيات لا قبله حتى يعاتبوا عليه، والنبي ﷺ أجل من أن يجوز في حقه استحلال شيء قبل أن يأذن الله له فيه ويوحي بذلك إليه، وحاشا ساحة الحق سبحانه أن يهدد نبيه بعذاب عظيم ليس من شأنه أن ينزل عليه من غير جرم أجرمه وقد عصمه من المعاصي، والعذاب العظيم ليس ينزل إلا على جرم عظيم لا كما قيل: إن المراد به الصغائر.

٣. فالذي ينبغي أن يقال:

أ. إن قوله تعالى: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إن السنة الجارية في الأنبياء الماضين عليهم السلام أنهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم وظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفوا عن محادة الله ورسوله، وكانوا لا يأخذون أسرى حتى يثخنوا في الأرض، ويستقر دينهم بين الناس فلا مانع بعد ذلك من الأسر ثم المن أو الفداء كما قال تعالى فيما يوحي إلى نبيه ﷺ بعد ما علا أمر الإسلام واستقر في الحجاز واليمن: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً﴾ [محمد: ٤]

ب. والعتاب على ما يهدي إليه سياق الكلام في الآية الأولى إنما هو على أخذهم الأسرى كما يشهد

به أيضا قوله في الآية الثانية: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في أخذكم وإنما كانوا أخذوا عند نزول الآيات الأسرى دون الفداء وليس العتاب على استباحة الفداء أو أخذه كما احتمل، بل يشهد قوله في الآية التالية: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث افتتحت بفاء التفريع التي تفرع معناها على ما تقدمها على أن المراد بالغنيمة ما يعم الفداء، وأنهم اقترحوا على النبي ﷺ أن لا يقتل الأسرى ويأخذ منهم الفداء كما سألوه عن الأنفال أو سألوه أن يعطيهموها كما في آية صدر السورة وكيف يتصور أن يسألوه الأنفال، ولا يسألوه أن يأخذ الفداء وقد كان الفداء المأخوذ، على ما في الروايات، يقرب من مائتين وثمانين ألف درهم؟ فقد كانوا سألوا النبي ﷺ أن يعطيهم الغنائم، ويأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على أخذهم الأسرى ثم أباح لهم ما أخذوا الأسرى لأجله وهو الفداء لا لأن النبي ﷺ شاركهم في استباحة الفداء واستشارهم في الفداء والقتل حتى يشاركهم في العتاب المتوجه إليهم.

ج. ومن الدليل من لفظ الآية على أن النبي ﷺ لا يشاركهم في العتاب إن العتاب في الآية متعلق بأخذ الأسرى وليس فيها ما يشعر بأنه استشارهم فيه أو رضي بذلك ولم يرد في شيء من الآثار أنه ﷺ وصاهم بأخذ الأسرى ولا قال قولا يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك مما أقدمت عليه عامة المهاجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب: إذا ظفروا بعدوهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء فقد ورد في الآثار أنهم بالغوا في الأسر وكان الرجل يقي أسيره أن يناله الناس بسوء إلا علي عليه السلام فقد أكثر من قتل الرجال ولم يأخذ أسيرا.

د. فمعنى الآيات: ﴿ما كانَ لِنَبِيٍّ﴾ ولم يعهد في سنة الله في أنبيائه ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى﴾ ويحق له أن يأخذهم ويستدر على ذلك شيئا ﴿حَتَّى يُثْخِنَ﴾ ويغلظ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ويستقر دينه بين الناس ﴿تُرِيدُونَ﴾ أنتم معاشر أهل بدر، وخطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبسين باقتراح الفداء على النبي ﷺ، ﴿عَرَضَ الدُّنْيا﴾ ومتاعها السريع الزوال ﴿وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بتشريع الدين والأمر بقتال الكفار، ثم في هذه السنة التي أخبر بها في كلامه؛ ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغلب ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يلغو في أحكامه المتقنة.

٤. ﴿لَوْلا كِتابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ﴾ يقتضي أن لا يعذبكم ولا يهلككم، وإنما أبهم لأن الإبهام أنسب في مقام المعاتبة ليذهب ذهن السامع كل مذهب ممكن، ولا يتعين له فيهون عنده أمره ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾

أي في أخذكم الأسرى فإن الفداء والغنيمة لم يؤخذا قبل نزول الآيات وإخبارهم بحليتها وطيبها ﴿عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو كما تقدم يدل على عظم المعصية لأن العذاب العظيم إنما يستحق بالمعصية العظيمة.

٥. ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ وتصرفوا فيما أحرزتم من الفائدة سواء كان مما تسلطتم عليه من أموال المشركين أو مما أخذتم منهم من الفداء ﴿حَلالاً طَيِّباً﴾ أي حالكونه حلالا طيبا بإباحة الله سبحانه ﴿وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو تعليل لقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ الآية أي غفرنا لكم ورحمناكم فكلوا مما غنمتم أو تعليل لجميع ما تقدم أي لم يعذبكم الله بل أباحه لكم لأنه غفور رحيم.

٥١. وعد الأسرى الخير والمغفرة إن علم الله في قلوبهم خيراً:

المقطع [٥١] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠ـ٧١]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٣٧»:

١. ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى﴾ إلى آخر الآية:

أ. كون الأسرى بأيديهم استعارة لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الإنسان يقلبه كيف يشاء.

ب. ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً﴾ كناية عن الإيمان أو اتباع الحق الذي يلازمه الإيمان فإنه تعالى يعدهم في آخر الآية بالمغفرة، ولا مغفرة مع شرك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء: ٤٨]

ج. ومعنى الآية: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم وأخذت منهم الفداء: أن ثبت في قلوبكم الإيمان وعلم الله منكم ذلك، ولا يعلم إلا ما ثبت وتحقق، يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء ويغفر لكم والله غفور رحيم.

٢. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ الآية أمكنه منه أي أقدره عليه وإنما قال أولا: ﴿خِيانَتَكَ﴾ ثم قال: ﴿خانُوا اللهَ﴾ لأنهم أرادوا بالفدية أن يجمعوا الشمل ثانيا ويعودوا إلى محاربته ﷺ، وأما خيانتهم لله من قبل فهي كفرهم وإصرارهم على أن يطفئوا نور الله وكيدهم ومكرهم.

٣. ومعنى الآية: إن آمنوا بالله وثبت الإيمان في قلوبهم آتاهم الله خيرا مما أخذ منهم وغفر لهم، وإن أرادوا خيانتك والعود إلى ما كانوا عليه من العناد والفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم وأقدرك عليهم وهو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانيا، والله عليم بخيانتهم لو خانوا حكيم في إمكانك منهم.

٥٢. المؤمنون المهاجرون والمؤمنون الناصرون والولاية:

المقطع [٥٢] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤١»:

١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ المراد بالذين آمنوا وهاجروا: الطائفة الأولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات، والمراد بالذين آووا ونصروا: هم الأنصار الذين آووا النبي ﷺ والمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله، وكان ينحصر المسلمون يومئذ في هاتين الطائفتين إلا قليل ممن آمن بمكة ولم يهاجر.

٢. وقد جعل الله بينهم ولاية بقوله: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ والولاية أعم من ولاية الميراث وولاية النصرة وولاية الأمن، فمن آمن منهم كافرا كان نافذا عند الجميع؛ فالبعض من الجميع ولي البعض من الجميع كالمهاجر هو ولي كل مهاجر وأنصاري، والأنصاري ولي كل أنصاري ومهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية.

٣. فلا شاهد على صرف الآية إلى ولاية الإرث بالمواخاة التي كان النبي ﷺ جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بها زمانا حتى نسخت.

٥٣. ولاية المؤمنين بعضهم لبعض والهجرة:

المقطع [٥٣] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤١»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا﴾ إلى آخر الآية، معناه واضح وقد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار وبين المؤمنين غير المهاجرين إلا ولاية النصرة إذا استنصروهم بشرط أن يكون

الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق.

٥٤. الكافرون بعضهم أولياء بعض والفتنة:

المقطع [٥٤] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي إن ولايتهم بينهم لا تتعداهم إلى المؤمنين فليس للمؤمنين أن يتولوهم، وذلك أن قوله هاهنا في الكفار: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ كقوله في المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إنشاء وتشريع في صورة الإخبار، وجعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفي تعديه عنهم إلى المؤمنين.

٢. ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ إشارة إلى مصلحة جعل الولاية على النحو الذي جعلت، فإن الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشرية سيما المجتمع الإسلامي الذي أسس على اتباع الحق وبسط العدل الإلهي كما أن تولي الكفار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسري فيه عقائدهم وأخلاقهم، وتفسد سيرة الإسلام المبنية على الحق بسيرهم المبنية على اتباع الهوى وعبادة الشيطان، وقد صدق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت إليه هذه الآية.

٥٥. المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم:

المقطع [٥٥] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ إلى آخر الآية إثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافا حقا، ووعد لهم بالمغفرة والرزق الكريم.

٥٦. المهاجرون والمجاهدون من بعد وأولو الأرحام:

المقطع [٥٦] من سورة الأنفال، وهو ما نص عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

[الأنفال: ٧٥]، وفيه المسائل التالية «الميزان: ٩/ ١٤٢»:

١. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ﴾ خطاب للمهاجرين الأولين والأنصار وإلحاق من آمن وهاجر وجاهد معهم بهم فيشاركونهم في الولاية.

٢. ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ إلى آخر الآية، جعل للولاية بين أولي الأرحام والقرابات، وهي ولاية الإرث فإن سائر أقسام الولاية لا ينحصر فيما بينهم.

٣. والآية تنسخ ولاية الإرث بالمواخاة التي أجراها النبي ﷺ بين المسلمين في أول الهجرة، وتثبت الإرث بالقرابة سواء كان هناك ذو سهم أو لم يكن أو كان عصبة أو لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر.

٤. أحاديث وآثار:

أ. في المجمع: عن الباقر عليه السلام: أنهم كانوا يتوارثون بالمواخاة.

• أقول: ولا دلالة فيه على أن الآية نزلت في ولاية الإخوة.

ب. في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: الخال والخالة يرثان إذا لم يكن معهما أحد، إن الله يقول: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾

• أقول: ورواه العياشي عن أبي بصير عنه مرسلا.

ج. وفي تفسير العياشي، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ إن بعضهم أولى بالميراث من بعض، لأن أقربهم إليه أولى به، ثم قال أبو جعفر عليه السلام، إنهم أولى بالميت، وأقربهم إليه أمه وأخوه وأخته لأمه وأبيه، أليس الأم أقرب إلى الميت من إخوانه وأخواته؟

د. وفيه، عن ابن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما اختلف علي بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفان، في الرجل يموت وليس له عصبة يرثونه، وله ذوو قرابة لا يرثونه: ليس له بينهم مفروض، فقال علي عليه السلام ميراثه لذوي قرابته، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ وقال عثمان أجعل ميراثه في بيت مال المسلمين، ولا يرثه أحد من قرابته.

• أقول: والروايات في نفي القول بالعصبة والاستناد في ذلك إلى الآية كثيرة من أئمة أهل البيت عليه السلام.

هـ. أخرج الطيالسي والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ﴾ فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب.

و. وفي المعاني، بإسناده فيه رفع عن موسى بن جعفر عليه السلام: فيما جرى بينه وبين هارون، وفيه: قال هارون: فلم ادعيتم أنكم ورثتم رسول الله، والعم يحجب ابن العم، وقبض رسول الله وقد توفي أبو طالب قبله، والعباس عمه حي إلى أن قال: فقلت: إن النبي لم يورث من لم يهاجر، ولا أثبت له ولاية حتى يهاجر، فقال: ما حجتك فيه؟ قلت: قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا﴾ وإن عمي العباس لم يهاجر، فقال: إني سائلك يا موسى، هل أفتيت بذلك أحدا من أعدائنا، أم أخبرت أحدا من الفقهاء في هذه المسألة بشيء؟ فقلت: اللهم لا وما سألني عنها إلا أمير المؤمنين: الحديث.

• أقول: ورواه المفيد في الإختصاص.